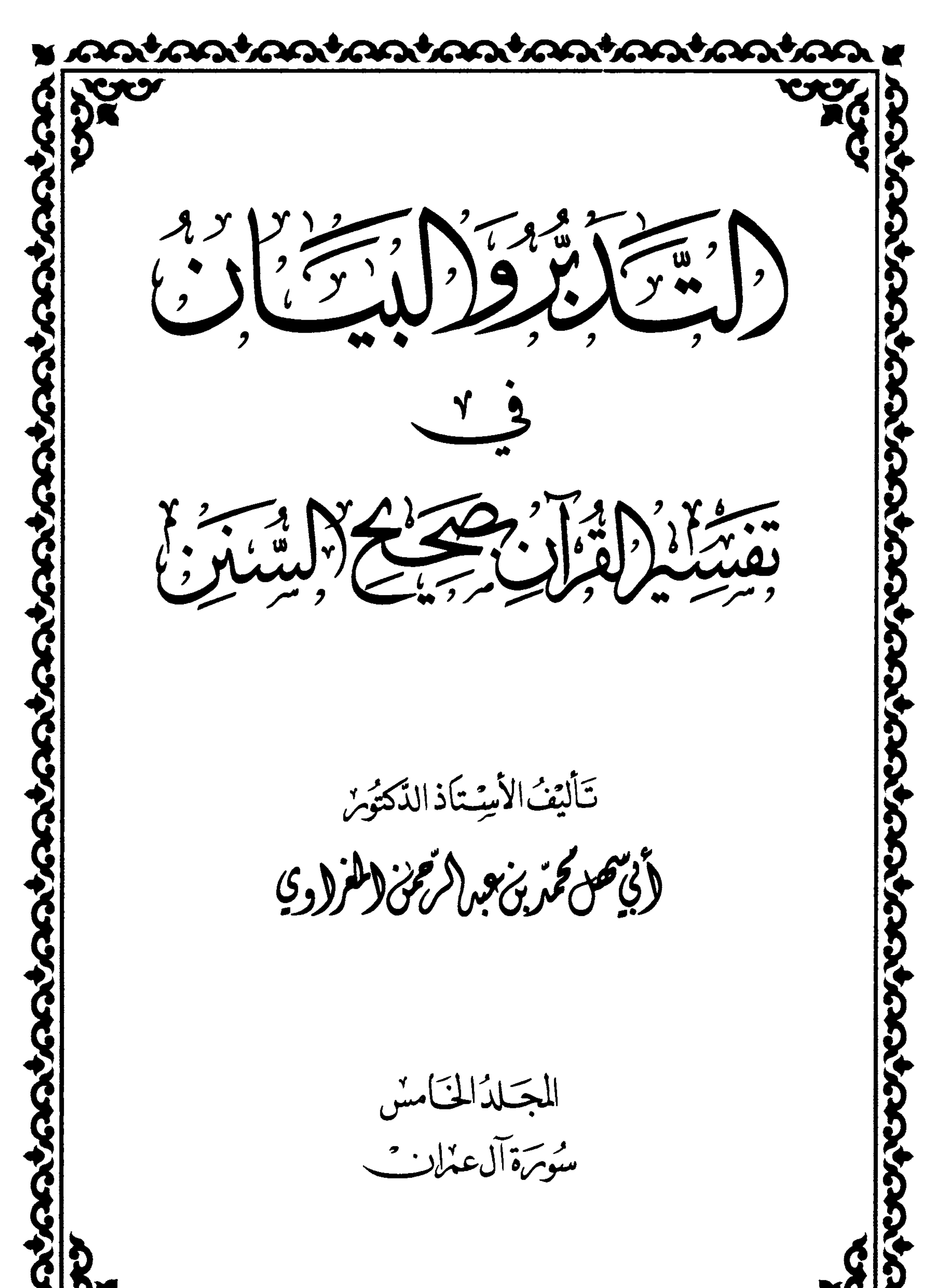


التدبر والبيان

في

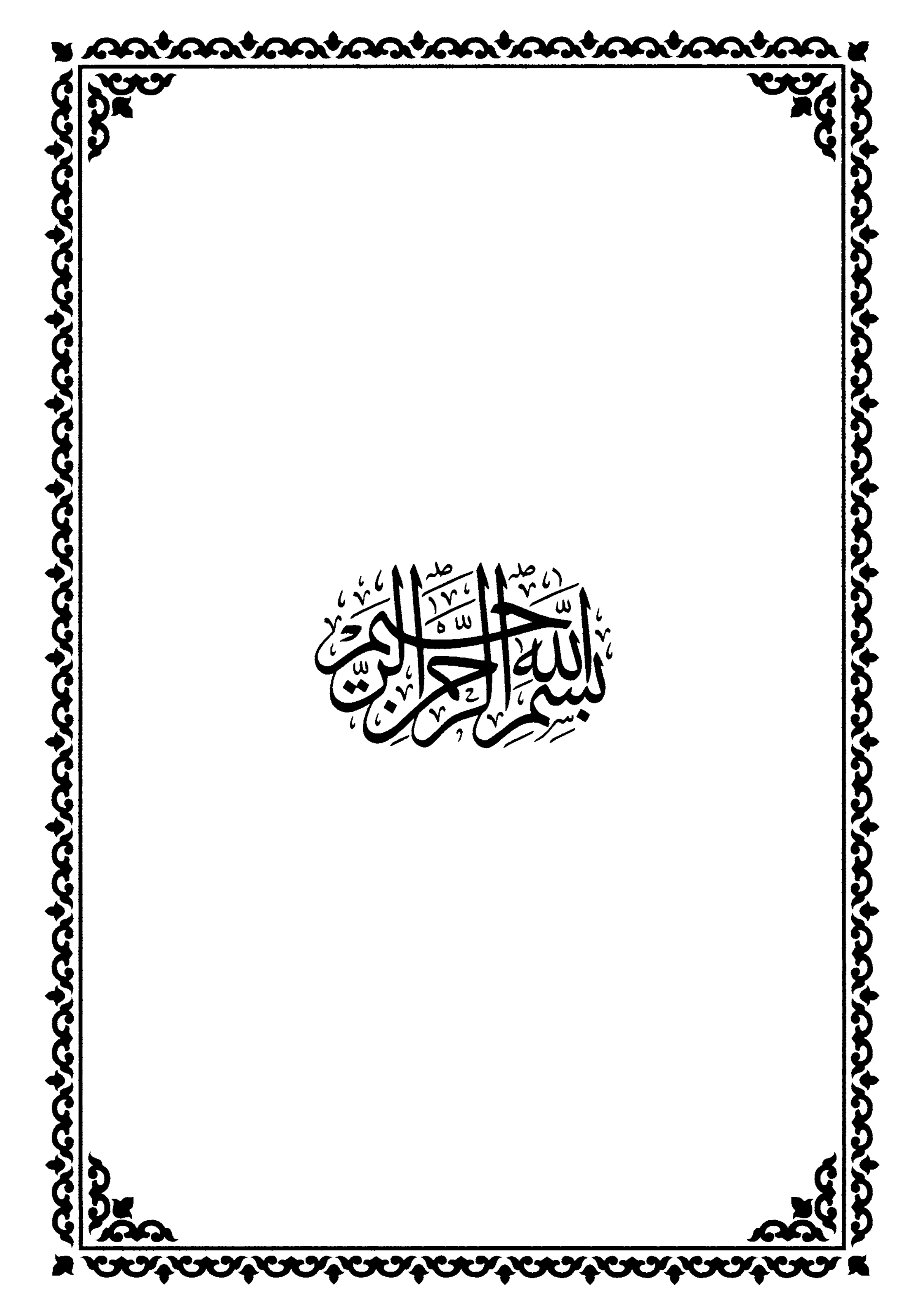
تفسير القرآن بصحيح السنن

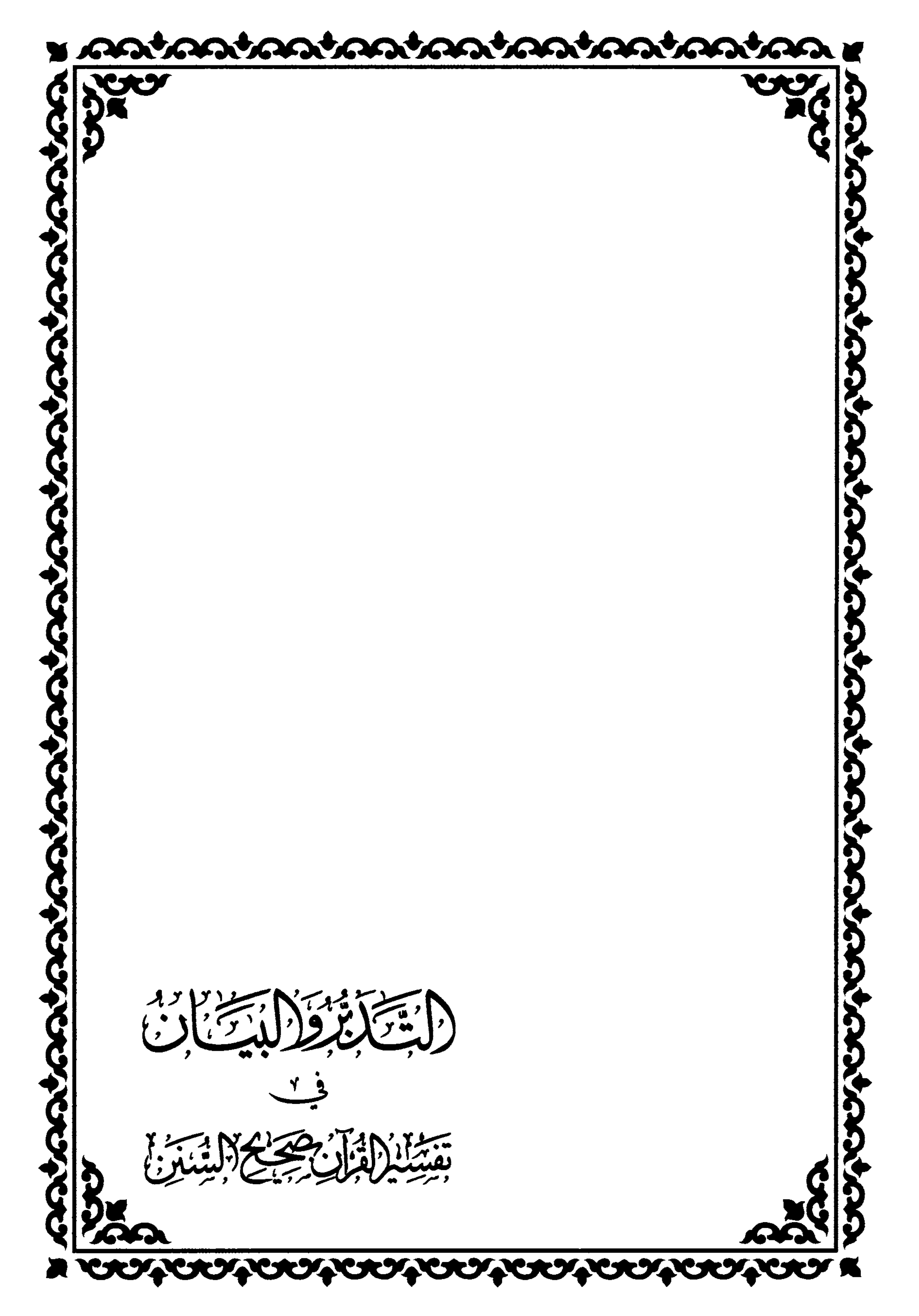
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الخامس

سورة آل عمران

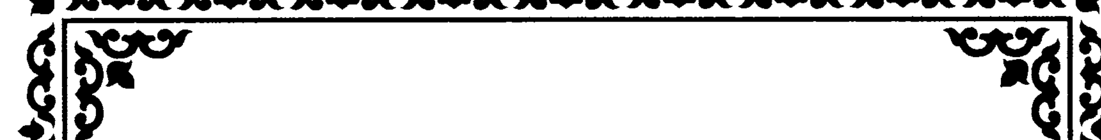

بسم الله الرحمن الرحيم



التدبر والبيان

في

تفسير القرآن بصحيح السنن



الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 (40 مجلداً) عدد الصفحات

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon بلد الطباعة : لبنـــان

Edition : 1st الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٧ - ١٤٧ - ٣٣ - ٩٩٥٤ - ٩٧٨



سورة آل عمران

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «واشتملت هذه السورة، من الأغراض: على الابتداء بالتنويه بالقرآن، ومحمد ﷺ، وتقسيم آيات القرآن، ومراتب الأفهام في تلقيها، والتنويه بفضيلة الإسلام وأنه لا يعدِله دين، وأنه لا يقبل دين عند اللَّه بعد ظهور الإسلام غير الإسلام، والتنويه بالتوراة والإنجيل، والإيماء إلى أنهما أنزلا قبل القرآن، تمهيدًا لهذا الدين فلا يحق للناس أن يكفروا به، وعلى التعريف بدلائل إلهية اللَّه تعالى وانفراده، وإبطال ضلالة الذين اتخذوا آلهة من دون الله: مَن جعلوا شركاء، أو اتخذوا له أبناء، وتهديد المشركين بأن أمرهم إلى زوال، وألا يغرّهم ما هم فيه من البذخ، وأن ما أعد للمؤمنين خير من ذلك، وتهديدهم بزوال سلطانهم، ثم الثناء على عيسى عليه السلام وآل بيته، وذكر معجزة ظهوره، وأنه مخلوق لله، وذكر الذين آمنوا به حقا، وإبطال إلهية عيسى، ومن ثم أفضى إلى قضية وفد نجران ولجاجتهم، ثم محاجة أهل الكتابين في حقيقة الحنيفية وأنهم بُعداء عنها، وما أخذ اللَّه من العهد على الرسل كلهم: أن يؤمنوا بالرسول الخاتم، وأن اللَّه جعل الكعبة أول بيت وضع للناس، وقد أعاد إليه الدين الحنيف كما ابتدأه فيه، وأوجب حجه على المؤمنين، وأظهر ضلالات اليهود، وسوء مقالتهم، وافترائهم في دينهم وكتمانهم ما أنزل إليهم، وذكّر المسلمين بنعمته عليهم بدين الإسلام، وأمرهم بالاتحاد والوفاق، ذكّرهم بسابق سوء حالهم في الجاهلية، وهوّن عليهم تظاهر معانديهم من أهل الكتاب والمشركين، وذكّرهم بالحذر من كيدهم وكيد الذين أظهروا الإسلام ثم

عادوا إلى الكفر، فكانوا مثلًا لتمييز الخبيث من الطيب، وأمرهم بالاعتزاز بأنفسهم، والصبر على تلقي الشدائد والبلاء وأذى العدوّ، ووعدهم على ذلك بالنصر والتأييد وإلقاء الرعب منهم في نفوس عدوّهم، ثم ذكّرهم بيوم أحد ويوم بدر، وضرب لهم الأمثال بما حصل فيهما، ونوّه بشأن الشهداء من المسلمين، وأمر المسلمين بفضائل الأعمال: من بذل المال في مواساة الأمة والإحسان وفضائل الأعمال، وترك البخل، ومذمة الربا. وختمت السورة بآيات التفكير في ملكوت اللَّه»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة آل عمران

* عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**اقرءوا القرآن؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرقان من طير صوافّ، تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة؛ فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة**»[٢].

* عن النواس بن سمعان الكلابي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمه سورة البقرة وآل عمران**». وضرب لهما رسول اللَّه ﷺ ثلاثة أمثال، ما نسيتهن بعد. قال: «**كأنهما غمامتان أو ظُلتان سوداوان بينهما شَرْق أو كأنهما حِزْقَانِ من طير صواف تحاجان عن صاحبهما**»[٣].

* عن عبد اللَّه بن بريدة عن أبيه قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ فسمعته يقول: «**تعلَّموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة**» ثم سكت ساعة ثم قال: «**تعلموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان، وإنهما تظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيايتان أو فِرقان من طير صواف، وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه القبر كالرجل الشاحب، فيقول**

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٤٤-١٤٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٤٩)، ومسلم (١/ ٥٥٣/ ٨٠٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨٣)، ومسلم (١/ ٥٥٤/ ٨٠٥)، والترمذي (٥/ ١٤٧-١٤٨/ ٢٨٨٣) بألفاظ متقاربة.

له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك، فيقول أنا صاحبك، القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة، فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذا؟ ويقال لهما: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها، فهو في صعود ما دام يقرأ هذًا كان أو ترتيلًا»(١).

* عن أنس أن رجلًا كان يكتب للنبي ﷺ وقد كان يقرأ البقرة وآل عمران. وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد فينا؛ أي: عظم(٢).

⋆ فوائد الأحاديث:

تقدمت في فضل سورة البقرة.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٨)، والدارمي (٢/ ٤٥٠-٤٥١)، والبغوي في شرح السنة (٤/ ٤٥٣-٤٥٤/ ١١٩٠). وقال: حسن غريب، مطولا. قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٥٩): رجاله رجال الصحيح. وقال البغوي: حسن غريب. وأخرجه مختصرًا: الحاكم (١/ ٥٦٠)، وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وأخرجه: ابن ماجه (٢/ ١٢٤٢/ ٣٧٨١) وليس فيه ذكر موضع الشاهد. وقال البوصيري في الزوائد (٢/ ٢٥٨): إسناده صحيح رجاله ثقات. وقال ابن كثير (١/ ٣٢): وروى ابن ماجه من حديث بشير بن المهاجر بعضه وهذا إسناد حسن على شرط مسلم.

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٢٠-١٢١) وابن حبان في صحيحه (٣/ ١٩-٢٠/ ٧٤٤) والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٣٠٥-٣٠٦/ ٣٧٢٥). وأصله في البخاري (٦/ ٧٧٥/ ٣٦١٧) ومسلم (٤/ ٢١٤٥/ ٢٧٨١) من حديث أنس ﷺ.

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾(١)

⋆ **غريب الآية:**

الحي: الموصوف بالحياة الكاملة الأبدية التي لا يلحقها موت ولا فناء؛ لأنها ذاتية له ﷻ.

القيوم: الذي يقوم بأمر غيره، ولا قيام لغيره إلا به، القائم بتدبير أمور غيره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وأما معنى قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ فإنه خبر من اللَّه -جل وعز- أخبر عباده أن الألوهية خاصة به دون ما سواه من الآلهة والأنداد، وأن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا له لانفراده بالربوبية، وتوحده بالألوهية، وأن كل ما دونه فملكه، وأن كل ما سواه فخلقه، لا شريك له في سلطانه وملكه، احتجاجًا منه -تعالى ذكره- عليهم بأن ذلك إذ كان كذلك، فغير جائزة لهم عبادة غيره، ولا إشراك أحد معه في سلطانه، إذ كان كل معبود سواه فملكه، وكل معظم غيره فخلقه، وعلى المملوك إفراد الطاعة لمالكه، وصرف خدمته إلى مولاه ورازقه، ومعرف من كان من خلقه، يوم أنزل ذلك إلى نبيه محمد ﷺ بتنزيله ذلك إليه وإرساله به إليهم على لسانه -صلوات اللَّه عليه وسلامه- مقيمًا على عبادة وثن أو صنم أو شمس أو قمر أو إنسي أو ملك أو غير ذلك من الأشياء التي كانت بنو آدم مقيمة على عبادته وإلهته، ومتخذته دون مالكه وخالقه إلهًا وربًّا، أنه مقيم على ضلالة، ومنعزل عن المحجة، وراكب غير السبيل المستقيمة بصرفه العبادة إلى غيره، ولا أحد له الألوهية غيره.

قال أبو جعفر: وقد ذكر أن هذه السورة ابتدأ اللَّه بتنزيله فاتحتها بالذي ابتدأ به: من نفي الألوهية أن تكون لغيره، ووصفه نفسه بالذي وصفها به في ابتدائها؛

---

(١) آل عمران: الآيتان (١و٢).

احتجاجا منه بذلك على طائفة من النصارى، قدموا على رسول اللَّه ﷺ من نجران فحاجّوه في عيسى -صلوات اللَّه عليه-، وألحدوا في اللَّه، فأنزل اللَّه ﷻ في أمرهم وأمر عيسى من هذه السورة نيفا وثمانين آية -من أولها- احتجاجًا عليهم وعلى من كان على مثل مقالتهم لنبيه محمد ﷺ، فأبوا إلا المقام على ضلالتهم وكفرهم، فدعاهم إلى المباهلة فأبوا ذلك وسألوا قبول الجزية منهم، فقبلها ﷺ منهم وانصرفوا إلى بلادهم. غير أن الأمر وإن كان كذلك -وإياهم قصد بالحجاج- فإن من كان معناه من سائر الخلق معناهم في الكفر باللَّه واتخاذ ما سوى اللَّه ربا وإلها معبودًا؛ معمومون بالحجة التي حج اللَّه -تبارك وتعالى- بها من نزلت هذه الآيات فيه، ومحجوجون في الفرقان الذي فرق به لرسوله ﷺ بينه وبينهم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اسم اللَّه الأعظم

* عن أسماء بنت يزيد قالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في هذه الآيتين: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾[٢] و﴿الٓمٓ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾: إن فيهما اسم اللَّه الأعظم[٣].

* عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «**اسم اللَّه الأعظم في ثلاث سور من القرآن: البقرة وآل عمران وطه**»[٤].

* عن عبد اللَّه بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت اللَّه الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. فقال: **فقد سأل اللَّه باسم اللَّه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب**»[٥].

---

(١) جامع البيان (٦/ ١٤٩-١٥١شاكر).
(٢) البقرة: الآية (٢٥٥).
(٣) أحمد (٦/ ٤٦١) واللفظ له، وأبو داود (٢/ ١٦٨/ ١٤٩٦) والترمذي (٥/ ٤٨٣/ ٣٤٧٨) وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٧/ ٣٨٥٥) وحسنه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيح أبي داود (١٣٤٣).
(٤) ابن ماجه (٢/ ١٢٦٧/ ٣٨٥٦) والطبراني (٨/ ٢١٤-٢١٥/ ٧٧٥٨) والحاكم (١/ ٥٠٦)، وصححه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ انظر الصحيحة (٧٤٦).
(٥) رواه أحمد (٥/ ٣٥٠) وأبو داود (٢/ ١٦٦-١٦٧/ ١٤٩٣) والترمذي (٥/ ٤٨١-٤٨٢/ ٣٤٧٥) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٧-١٢٦٨/ ٣٨٥٧) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٤-٣٩٥/ ٧٦٦٦) وصححه الحاكم (١/ ٥٠٤) وابن حبان: الإحسان (٣/ ١٧٣/ ٨٩١).

* عن أنس أنه كان مع رسول اللَّه ﷺ جالسًا ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبي ﷺ: **«لقد دعا اللَّه باسمه العظيم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»**[١].

★ فوائد الأحاديث:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا اسم اللَّه الأعظم: «وقد أنكره قوم كأبي جعفر الطبري وأبي الحسن الأشعري وجماعة بعدهما كأبي حاتم بن حبان والقاضي أبي بكر الباقلاني فقالوا: لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض، ونسب ذلك بعضهم لمالك، لكراهيته أن تعاد سورة أو تردد دون غيرها من السور، لئلا يظن أن بعض القرآن أفضل من بعض، فيؤذن ذلك باعتقاد نقصان المفضول عن الأفضل، وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم العظيم، وأن أسماء اللَّه كلها عظيمة، وعبارة أبي جعفر الطبري اختلفت الآثار في تعيين الاسم الأعظم، والذي عندي أن الأقوال كلها صحيحة، إذ لم يرد في خبر منها أنه الاسم الأعظم، ولا شيء أعظم منه، فكأنه يقول كل اسم من أسمائه تعالى يجوز وصفه أعظم، فيرجع إلى معنى عظيم كما تقدم. وقال ابن حبان: الأعظمية الواردة في الأخبار إنما يراد بها مزيد ثواب الداعي بذلك، كما أطلق ذلك في القرآن، والمراد به مزيد ثواب القارئ. وقيل: المراد بالاسم الأعظم كل اسم من أسماء اللَّه تعالى دعا العبد به مستغرقًا، بحيث لا يكون في فكره حالتئذٍ غير اللَّه تعالى، فإن من تأتى له ذلك استجيب له.

ونقل معنى هذا عن جعفر الصادق وعن الجنيد وعن غيرهما. وقال آخرون: استأثر اللَّه تعالى بعلم الاسم الأعظم ولم يطلع عليه أحدًا من خلقه، وأثبته آخرون معينا واضطربوا في ذلك، وجملة ما وقفت عليه من ذلك أربعة عشر قولًا»[٢]. ثم

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٥٨) والبخاري في الأدب المفرد (٧٠٥) وأبو داود (٢/ ١٦٧-١٦٨/ ١٤٩٥) والترمذي (٥/ ٥١٤/ ٣٥٤٤) وقال: حديث غريب، والنسائي (٣/ ٥٩-٦٠/ ١٢٩٩) وابن ماجه (٢/ ١٢٦٨/ ٣٨٥٨) وصححه الحاكم (١/ ٥٠٣-٥٠٤) وابن حبان: الإحسان (٣/ ١٧٥-١٧٦/ ٨٩٣).

(٢) فتح الباري (١١/ ٢٦٨).

ذكرها رَحِمَهُ اللَّهُ وقال عن التاسع منها -وهو: اللَّه لا إله إلا هو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد[١]-: وهو أرجح من حيث السند من جميع ما ورد في ذلك»[٢].

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «بعض الناس يظن أن الاسم الأعظم من أسماء اللَّه الحسنى، اسم لا يعرفه إلا من خصه اللَّه بكرامة خارقة للعادة، وهذا ظن خطأ؛ فإن اللَّه -تبارك وتعالى- حثنا على معرفة أسمائه وصفاته، وأثنى على من عرفها وتفقه فيها ودعا اللَّه بها دعاء عبادة وتعبد ودعاء مسألة، ولا ريب أن الاسم الأعظم منها أولاها بهذا الأمر؛ فإنه تعالى هو الجواد المطلق الذي لا منتهى لجوده وكرمه، وهو يحب الجود على عباده، ومن أعظم ما جاد به عليهم تعرفه لهم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا؛ فالصواب أن الأسماء الحسنى كلها حسنى، وكل واحد منها عظيم، ولكن الاسم الأعظم منها كل اسم مفرد أو مقرون مع غيره إذا دل على جميع صفاته الذاتية والفعلية، أو دل على معاني جميع الصفات؛ مثل: الله؛ فإنه الاسم الجامع لمعاني الألوهية كلها، وهي جميع أوصاف الكمال. ومثل الحميد المجيد؛ . . . ومثل الحي القيوم؛ . . . ومثل اسمه العظيم الكبير. . . فعلم بذلك أن الاسم الأعظم اسم جنس، وهذا هو الذي تدل عليه الأدلة الشرعية والاشتقاق»[٣].

قلت: النصوص الحديثية الواردة في التعبير بالاسم الأعظم لا تدل على تعيين اسم بعينه، وأن الاسم الأعظم مقصور عليه، ولكن تدل على أن الداعي قد اهتدى إلى الدعاء بهذا الاسم الذي يوافق حاجته وطلبه، فاللَّه -تبارك وتعالى- أسماؤه وصفاته كلها متعلقة به ذاتًا وفعلًا، فمن دعاه باسم أو بصفة لحاجته فقد دعاه باسم عظيم، فأسماء اللَّه وصفاته كلها عظيمة وكبيرة، وبعضها لازم لبعض، وأكثرها جمعًا لدلالة الأسماء: (الله) و(العظيم) و(الرحمن) و(الكبير) و(الرب)؛ لأن هذه الأسماء هي جوامع تدخل فيها كل أسماء اللَّه الحسنى، فلهذا لا ينبغي التعمق في هذا الباب وتضييع الوقت بما لا فائدة فيه، فأسماؤه تعالى وصفاته واضحة المعاني

---

(١) تقدم تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) فتح الباري (١١/ ٢٦٩).

(٣) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص: ٢٥٠-٢٥١).

لا خفاء فيها ، ولا يحتاج فيها إلى كبير تنقيب ، ولذلك لا تجد في نصوص السنة ما يتكلف به في فهمها ، ولا في كلام السلف -رحمهم الله- ، وقد استغلها المخرفون والسحرة والدجلة فزعموا فيها زعمًا كثيرًا ، وعينوا أناسًا زعموا أنهم أوتوا الاسم الأعظم في التاريخ ، وهذا كله دجل وكذب ، وزعموا أنها من الأمور المبهمة التي أبهمها اللَّه على خلقه ، وهذا كله كذب وبهتان . فأسماء اللَّه كلها محصية ومعروفة ، سواء ما جاء في كتاب اللَّه ، أو ما صح في سنة رسول اللَّه ﷺ ، هذا واللَّه أعلم .

* * *

قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[1]

★ غريب الآية:

الفرقان: القرآن، سمي بذلك لكونه فرق بين الحق والباطل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: يا محمد إن ربك ورب عيسى ورب كل شيء، هو الرب الذي أنزل عليك الكتاب؛ يعني: بـ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: يعني بالصدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل، وفيما خالفك فيه محاجوك من نصارى أهل نجران، وسائر أهل الشرك غيرهم، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني بذلك: القرآن أنه مصدق لما كان قبله من كتب اللَّه التي أنزلها على أنبيائه ورسله، ومحقق ما جاءت به رسل اللَّه من عنده؛ لأن منزل جميع ذلك واحد، فلا يكون فيه اختلاف، ولو كان من عند غيره كان فيه اختلاف كثير»[2].

قال الرازي: «فاعلم أن الكتاب ههنا هو القرآن، وإنما خص القرآن بالتنزيل، والتوراة والإنجيل بالإنزال؛ لأن التنزيل للتكثير، واللَّه تعالى نزل القرآن نجمًا نجمًا، فكان معنى التكثير حاصلًا فيه، وأما التوراة والإنجيل فإنه تعالى أنزلهما دفعة واحدة، فلهذا خصهما بالإنزال»[3].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد اللَّه الأنبياء، فهي تصدقه بما أخبرت به وبشرت في قديم الزمان، وهو يصدقها؛ لأنه طابق ما أخبرت به وبشرت من الوعد من اللَّه بإرسال محمد ﷺ، وإنزال القرآن العظيم عليه.

---

(١) آل عمران: الآية (٣و٤).
(٢) جامع البيان (٦/ ١٦٠شاكر).
(٣) تفسير الرازي (٧/ ١٧١).

وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾؛ أي: على موسى بن عمران ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾؛ أي: على عيسى ابن مريم ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبل هذا القرآن. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾؛ أي: في زمانهما. ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والغي والرشاد، بما يذكره اللّٰه تعالى من الحجج والبينات، والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات، ويبينه ويوضحه ويفسره ويقرره ويرشد إليه وينبه عليه من ذلك»[١].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ خبر عن اسم الجلالة. والخبر هنا مستعمل في الامتنان، أو هو تعريض ونكاية بأهل الكتاب: الذين أنكروا ذلك. وجيء بالمسند فعلًا لإفادة تقوية الخبر، أو للدلالة مع ذلك على الاختصاص: أي: اللّٰه لا غيره نزّل عليك الكتاب إبطالًا لقول المشركين: إنّ القرآن من كلام الشيطان، أو من طرائق الكهانة، أو يُعلِّمه بَشَرٌ»[٢].

وقال: «وتقديم ﴿مِن قَبْلُ﴾ على ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ للاهتمام به، وأما ذكر هذا القيد فَلِكيْ لا يُتوهّم أنّ هُدى التوراةِ والإنجيلِ مستمرّ بعد نزول القرآن. وفيه إشارة إلى أنّها كالمقدّمات لِنزول القرآن، الذي هو تمام مراد اللّٰه من البشر ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[٣] فالهدى الذي سبقه غير تام»[٤].

* * *

(١) التفسير (٢/ ٣).
(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٤٧).
(٣) آل عمران: الآية (١٩).
(٤) التحرير والتنوير (٣/ ١٤٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: إن الذين جحدوا أعلام اللَّه وأدلته على توحيده وألوهته، وأن عيسى عبد له واتخذوا المسيح إلهًا وربًّا، أو ادعوه لله ولدًا، لهم عذاب من اللَّه شديد يوم القيامة، والذين كفروا هم الذين جحدوا آيات اللَّه، وآيات الله: أعلام اللَّه وأدلته وحججه.

وهذا القول من اللَّه ﷻ ينبئ عن معنى قوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ أنه معني به الفصل عن الذي هو حجة لأهل الحق على أهل الباطل؛ لأنه عقب ذلك بقوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: أن الذين جحدوا ذلك الفصل والفرقان الذي أنزله فرقا بين المحق والمبطل. ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ﴾ وعيد من اللَّه لمن عاند الحق بعد وضوحه له، وخالف سبيل الهدى بعد قيام الحجة عليه، ثم أخبرهم أنه عزيز في سلطانه لا يمنعه مانع ممن أراد عذابه منهم، ولا يحول بينه وبينه حائل، ولا يستطيع أن يعانده فيه أحد، وأنه ذو انتقام ممن جحد حججه وأدلته بعد ثبوتها عليه، وبعد وضوحها له ومعرفته بها»[1].

قال ابن عاشور: «استئناف بياني مُمَهّد إليه بقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ لأنّ نفس السامع تتطلّع إلى معرفة عاقبة الذين أنكروا هذا التنزيل.

وشَمل قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المشركينَ واليهودَ والنصارى في مرتبة واحدة؛ لأنّ جميعهم اشتركوا في الكفر بالقرآن، وهو المراد بآيات اللَّه هنا لأنّه الكتاب الوحيد الذي يصح أن يوصف بأنّه آيةٌ من آيات الله؛ لأنّه مُعجزة. وعبّر عنهم بالموصول إيجازًا؛ لأنّ الصلة تجمعهم، والإيماء إلى وجه بناء الخَبَر وهو

---

(١) جامع البيان (٦/ ١٦٤-١٦٥ شاكر).

قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

وعطف قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لأنّه من تكملة هذا الاستئناف: لمجيئه مجيء التبيين لشدّة عذابهم؛ إذ هو عذابُ عزيزٍ منتقم كقوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[1]»[2].

* * *

(١) القمر: الآية (٤٢).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٥٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا خبر عن علمه تعالى بالأشياء على التفصيل، ومثله في القرآن كثير، فهو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون، فكيف يكون عيسى إلها أو ابن إله وهو تخفى عليه الأشياء؟!»(١).

وقال ابن عاشور: «استئناف يتنزّل منزلة البيان لوصف الحيّ؛ لأنّ عموم العلم يبيِّن كمال الحياة. وجيء بـ﴿شَيْءٌ﴾ هنا؛ لأنّه من الأسماء العامة.

وقوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ قصد منه عمومُ أمكنة الأشياء، فالمراد من الأرض الكرة الأرضية: بما فيها من بحار، والمراد بالسماء جنس السموات: وهي العوالم المتباعدة عن الأرض. وابتُدِىء في الذكر بالأرض ليتسنَّى التدرّج في العطف إلى الأبعد في الحكم؛ لأنّ أشياء الأرض يعلم كثيرًا منها كثيرٌ من الناس، أما أشياء السماء فلا يعلم أحد بعضها فضلًا عن علم جميعها»(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «فهو ينزل لعباده من الكتب ويعطيهم من المواهب ما يعلم أن فيه صلاحهم إذا أقاموه، ويعلم حقيقة أمرهم في سرهم وجهرهم، لا يخفى عليه أمر المؤمن الصادق، وأمر الكافر والمنافق، ولا حال من أسرّ الكفر واستبطن النفاق، وأظهر الإيمان والصلاح، ومن أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وكأن هذا الاستئناف البياني دليل على ما قبله»(٣).

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٦).
(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٥١).
(٣) تفسير المنار (٣/ ١٦١).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الأرحام: جمع رحم، وهو موضع تكون الجنين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: اللَّه الذي يصوركم، فيجعلكم صورا أشباحا في أرحام أمهاتكم كيف شاء وأحب، فيجعل هذا ذكرا، وهذا أنثى، وهذا أسود، وهذا أحمر، يعرف عباده بذلك أن جميع من اشتملت عليه أرحام النساء ممن صوره وخلقه كيف شاء، وأن عيسى ابن مريم ممن صوره في رحم أمه، وخلقه فيها كيف شاء وأحب، وأنه لو كان إلها لم يكن ممن اشتملت عليه رحم أمه؛ لأن خلاق ما في الأرحام لا تكون الأرحام عليه مشتملة، وإنما تشتمل على المخلوقين»[1].

قال ابن كثير: «﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾؛ أي: يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: هو الذي خلق، وهو المستحق للإلهية وحده لا شريك له، وله العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام.

وهذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق، كما خلق اللَّه سائر البشر؛ لأن اللَّه تعالى صوّره في الرحم وخلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهًا كما زعمته النصارى -عليهم لعائن الله- وقد تقلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال، كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ

---

(١) جامع البيان (٣/ ١٦٨).

ﱡﭐﱣﱠ ﴿ثَلَٰثٍۚ﴾[١]»[٢].

قال القرطبي: «أخبر تعالى عن تصويره للبشر في أرحام الأمهات، وأصل الرحم من الرحمة؛ لأنها مما يتراحم به. واشتقاق الصورة من صاره إلى كذا إذا أماله، فالصورة مائلة إلى شبه وهيئة.

وهذه الآية تعظيم لله تعالى، وفي ضمنها الرد على نصارى نجران، وأن عيسى من المصوَّرين، وذلك مما لا ينكره عاقل.

وأشار تعالى إلى شرح التصوير في سورة «الحج» و«المؤمنون». وكذلك شرحه النبي ﷺ في حديث ابن مسعود..

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ يعني من حسن وقبح، وسواد وبياض، وطول وقصر، وسلامة وعاهة، إلى غير ذلك من الشقاء والسعادة..

ثم قال تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا خالق ولا مصور سواه، وذلك دليل على وحدانيته، فكيف يكون عيسى إلهًا مصورًا وهو مصور.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ذو الحكمة أو المحكم، وهذا أخص بما ذكر من التصوير»[٣].

وقال ابن القيم: «لقد دل سبحانه على نفسه أوضح دلالة بما أشهده كل عبد على نفسه، من حاله، وحدوثه، وإتقان صنعه، وعجائب خلقه، وآيات قدرته، وشواهد حكمته فيه»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان كيفية خلق الإنسان وتصويره في رحم أمه

* عن زيد بن وهب عن عبد اللَّه قال: حدثنا رسول اللَّه ﷺ وهو الصادق المصدوق: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه**

---

(١) الزمر: الآية (٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٦-٧).

(٤) تحفة المولود (ص: ٤٩٢).

الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»[(١)].

⋆ غريب الحديث:

يجمع: المراد بالجمع ضم بعضه إلى بعض بعد الانتشار.

علقة: العلقة الدم الجامد الغليظ، سمي بذلك للرطوبة التي فيه وتعلقه بما مر به.

مضغة: قطعة اللحم، سميت بذلك لأنها قدر ما يمضغ الماضغ.

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «فيه إشارة إلى علم المبدأ والمعاد، وما يتعلق ببدن الإنسان وحاله في الشقاء والسعادة»[(٢)].

وقال: «وفيه التنبيه على صدق البعث بعد الموت؛ لأن من قدر على خلق الشخص من ماء مهين، ثم نقله إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم ينفخ الروح فيه، قادر على نفخ الروح بعد أن يصير ترابًا، ويجمع أجزاءه بعد أن يفرقها، ولقد كان قادرا على أن يخلقه دفعة واحدة، ولكن اقتضت الحكمة بنقله في الأطوار رفقا بالأم؛ لأنها لم تكن معتادة، فكانت المشقة تعظم عليها فهيأه في بطنها بالتدرج إلى أن تكامل. ومن تأمل أصل خلقه من نطفة، وتنقله في تلك الأطوار إلى أن صار إنسانا جميل الصورة، مفضلًا بالعقل والفهم والنطق، كان حقا عليه أن يشكر من أنشأه وهيأه، ويعبده حق عبادته، ويطيعه ولا يعصيه»[(٣)].

قال ابن رجب: «فهذا الحديث يدل على أنه يتقلب في مئة وعشرين يومًا، في

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢ و٤٣٠) والبخاري (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٠٨) ومسلم (٤/ ٢٠٣٦/ ٢٦٤٣) وأبو داود (٥/ ٨٢-٨٣/ ٤٧٠٨) والترمذي (٤/ ٣٨٨-٣٨٩/ ٢١٣٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٦/ ١١٢٤٦) وابن ماجه (١/ ٢٩/ ٧٦).

(٢) الفتح (١١/ ٥٩٦).

(٣) الفتح (١١/ ٥٩٧).

ثلاثة أطوار، في كل أربعين منها يكون في طور، فيكون في الأربعين الأولى نطفة، ثم في الأربعين الثانية علقة، ثم في الأربعين الثالثة مضغة، ثم بعد المئة وعشرين يومًا ينفخ الملك فيه الروح، ويكتب له هذه الأربع كلمات.

وقد ذكر اللَّه في القرآن في مواضع كثيرة تقلب الجنين في هذه الأطوار، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[1].

وذكر هذه الأطوار الثلاثة: النطفة والعلقة والمضغة في مواضع متعددة من القرآن، وفي موضع آخر ذكر زيادة عليها، فقال في سورة المؤمنين: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2]»[3].

* * *

(١) الحج: الآية (٥).

(٢) المؤمنون الآيات (١٢-١٤).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ١٥٥-١٥٦).

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

محكمات: المحكم ما أتقن، والمراد بالمحكمات البينات الواضحات الدلالة، التي لا التباس فيها على أحد من الناس.

أم الكتاب: ؛ أي: أصله.

متشابهات: المتشابه من القرآن: ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إما من حيث اللفظ أو من حيث المعنى.

زيغ: الزيغ: الميل عن الاستقامة إلى أحد الجانبين، وزاغ وزال ومال تتقارب، لكن (زاغ) لا يقال إلا فيما كان عن حق إلى باطل.

ابتغاء: الابتغاء الطلب.

الفتنة: أصل الفتن: إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته. والمقصود بها هنا الإضلال والزيغ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام إذًا: إن الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي أنزل عليك يا محمد القرآن، منه آيات محكمات بالبيان، هن أصل الكتاب الذي عليه عمادك وعماد أمتك في الدين، وإليه مفزعك ومفزعهم فيما افترضت عليك وعليهم من شرائع الإسلام، وآيات أخر هن متشابهات في التلاوة، مختلفات في المعاني»[٢].

(١) آل عمران: الآية (٧).

(٢) جامع البيان (٣/ ١٧٢).

وقال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين، الذي لا يشتبه بغيره. ومنه آيات متشابهات، تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردها، حتى تضم إلى المحكم. فالذين في قلوبهم مرض وزيغ، وانحراف، لسوء قصدهم يتبعون المتشابه منه. فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلبا للفتنة، وتحريفًا لكتابه، وتأويلا له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف فيعلمون أن القرآن كله من عند اللَّه، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فلعلمهم أن المحكمات، معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لناقص العلم، وناقص المعرفة. فيردون المتشابه إلى المحكم، فيعود كله محكما، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ للأمور النافعة، والعلوم الصائبة ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: أهل العقول الرزينة.

ففي هذا دليل على أن هذا من علامة أولي الألباب، وأن اتباع المتشابه من أوصاف أهل الآراء السقيمة، والعقول الواهية، والقصود السيئة»[(١)].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود هنا: أنه لا يجوز أن يكون اللَّه أنزل كلامًا لا معنى له، ولا يجوز أن يكون الرسول ﷺ وجميع الأمة لا يعلمون معناه، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ، سواء كان مع هذا تأويل القرآن لا يعلمه الراسخون، أو كان للتأويل معنيان: يعلمون أحدهما، ولا يعلمون الآخر، وإذا دار الأمر بين القول بأن الرسول كان لا يعلم معنى المتشابه من القرآن وبين أن يقال: الراسخون في العلم يعلمون، كان هذا الإثبات خيرا من ذلك النفي، فإن معنى الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره، وهذا مما يجب القطع به، وليس معناه قاطع على أن الراسخين في العلم لا يعلمون تفسير المتشابه، فإن السلف قد قال كثير منهم أنهم يعلمون تأويله، منهم مجاهد -مع جلالة قدره-

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٥٧-٣٥٨).

والربيع بن أنس، ومحمد بن جعفر بن الزبير، ونقلوا ذلك عن ابن عباس، وأنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله.

وقول أحمد فيما كتبه في الرد على الزنادقة والجهمية، فيما شكت فيه من متشابه القرآن، وتأولته على غير تأويله، وقوله عن الجهمية أنها تأولت ثلاث آيات من المتشابه، ثم تكلم على معناها؛ دليل على أن المتشابه عنده تعرف العلماء معناه، وأن المذموم تأويله على غير تأويله، فأما تفسيره المطابق لمعناه فهذا محمود ليس بمذموم، وهذا يقتضي أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه عنده، وهو التفسير في لغة السلف. ولهذا لم يقل أحمد ولا غيره من السلف إن في القرآن آيات لا يعرف الرسول ولا غيره معناها، بل يتلون لفظا لا يعرفون معناه، وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة، منهم ابن قتيبة، وأبو سليمان الدمشقي، وغيرهما»[1].

إلى أن قال: «قالوا: والدليل على ما قلناه إجماع السلف، فإنهم فسروا جميع القرآن، وقال مجاهد عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية وأسأله عنها، وتلقوا ذلك عن النبي ﷺ، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد اللَّه بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا، وكلام أهل التفسير من الصحابة والتابعين شامل لجميع القرآن، إلا ما قد يشكل على بعضهم فيقف فيه، لا لأن أحدا من الناس لا يعلمه، لكن لأنه هو لم يعلمه.

وأيضا فإن اللَّه قد أمر بتدبر القرآن مطلقا ولم يستثن منه شيئًا لا يتدبر، ولا قال: لا تدبروا المتشابه، والتدبر بدون الفهم ممتنع. ولو كان من القرآن ما لا يتدبر لم يعرف، فإن اللَّه لم يميز المتشابه بحد ظاهر حتى يجتنب تدبره.

وهذا أيضًا مما يحتجون به، ويقولون المتشابه أمر نسبي إضافي فقد يشتبه على هذا ما لا يشتبه على غيره، قالوا: ولأن اللَّه أخبر أن القرآن بيان وهدى وشفاء ونور، ولم يستثن منه شيئًا عن هذا الوصف، وهذا ممتنع بدون فهم المعنى، قالوا:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٩٠-٣٩١).

ولأن من العظيم أن يقال: أن اللَّه أنزل على نبيه كلامًا لم يكن يفهم معناه، لا هو ولا جبريل، بل وعلى قول هؤلاء كان النبي ﷺ يحدث بأحاديث الصفات والقدر والمعاد ونحو ذلك مما هو نظير متشابه القرآن عندهم، ولم يكن يعرف معنى ما يقوله، وهذا لا يظن بأقل الناس.

وأيضا فالكلام إنما المقصود به الأفهام، فإذا لم يقصد به ذلك كان عبثًا وباطلًا، واللَّه تعالى قد نزه نفسه عن فعل الباطل والعبث، فكيف يقول الباطل والعبث ويتكلم بكلام ينزله على خلقه لا يريد به إفهامهم، وهذا من أقوى حجج الملحدين»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان الرادين للسنة وشبههم، والرد عليهم

* عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ**»[2].

⋆ غريب الحديث:

تشابه: المتشابه ما لم يتلق معناه من لفظه، وهو على ضربين: أحدهما: إذا رد إلى المحكم عرف معناه. والآخر: ما لا سبيل إلى معرفة حقيقته. فالمتتبع له مبتغ للفتنة؛ لأنه لا يكاد ينتهي إلى شيء تسكن نفسه إليه.

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن القيم: «قال بعض أهل العلم كيف لا يخشى الكذب على اللَّه ورسوله من يحمل كلامه على التأويلات المستنكرة، والمجازات المستكرهة التي هي

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٩٥-٣٩٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٨ و٢٥٦) والبخاري (٨/ ٢٦٥/ ٤٥٤٧) ومسلم (٤/ ٢٠٥٣/ ٢٦٦٥) وأبو داود (٥/ ٦/ ٤٥٩٨) والترمذي (٥/ ٢٠٧/ ٢٩٩٣) وابن ماجه (١/ ١٨-١٩/ ٤٧).

بالألغاز والأحاجي أولى منها بالبيان والهداية؟ وهل يأمن على نفسه أن يكون ممن قال اللَّه فيهم ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[١] . قال الحسن : هي واللَّه لكل واصف كذبا إلى يوم القيامة ، وهل يأمن أن يتناوله قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾[٢] قال ابن عيينة : هي لكل مفتر من هذه الأمة إلى يوم القيامة . وقد نزه سبحانه نفسه عن كل ما يصفه به خلقه إلا المرسلين ؛ فإنهم إنما يصفونه بما أذن لهم أن يصفوه به ، فقال تعالى : ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٣] ويكفي المتأولين كلام اللَّه ورسوله بالتأويلات التي لم يردها ، ولم يدل عليها كلام اللَّه ، أنهم قالوا برأيهم على اللَّه ، وقدموا آراءهم على نصوص الوحي ، وجعلوها عيارًا على كلام اللَّه ورسوله ، ولو علموا أيَّ باب شر فتحوا على الأمة بالتأويلات الفاسدة ، وأيَّ بناء للإسلام هدموا بها ، وأي معاقل وحصون استباحوها لكان أحدهم أن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتعاطى شيئًا من ذلك ، فكل صاحب باطل قد جعل ما تأوله المتأولون عذرًا له فيما تأوله هو ، وقال : ما الذي حرم علي التأويل وأباحه لكم؟ فتأولت الطائفة المنكرة للمعاد نصوص المعاد ، وكان تأويلهم من جنس تأويل منكري الصفات ، بل أقوى منه لوجوه عديدة يعرفها من وازن بين التأويلين ، وقالوا : كيف نحن نعاقب على تأويلنا وتؤجرون أنتم على تأويلكم؟ قالوا : ونصوص الوحي بالصفات أظهر وأكثر من نصوصه بالمعاد ، ودلالة النصوص عليها أبين ، فكيف يسوغ تأويلها بما يخالف ظاهرها ، ولا يسوغ لنا تأويل نصوص المعاد؟ وكذلك فعلت الرافضة في أحاديث فضائل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة ﷺ ، وكذلك فعلت المعتزلة في تأويل أحاديث الرؤية والشفاعة ، وكذلك القدرية في نصوص القدر ، وكذلك الحرورية وغيرهم من الخوارج في النصوص التي تخالف مذاهبهم ، وكذلك القرامطة والباطنية طردت الباب ، وطمت الوادي على القرى ، وتأولت الدين كله ، فأصل خراب الدين والدنيا إنما هو من التأويل الذي لم يرده اللَّه ورسوله بكلامه ، ولا دل عليه أنه مراده ، وهل اختلف الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل؟ وهل وقعت في الأمة فتنة

(١) الأنبياء : الآية (١٨) . (٢) الأعراف : الآية (١٥٢) .
(٣) الصافات : الآيتان (١٨٠-١٨١) .

كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل؟ فمن بابه دخل إليها، وهل أريقت دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل؟.

وليس هذا مختصًا بدين الإسلام فقط، بل سائر أديان الرسل لم تزل على الاستقامة والسداد حتى دخلها التأويل، فدخل عليها من الفساد مالا يعلمه إلا رب العباد.

وقد تواترت البشارات بصحة نبوة محمد ﷺ في الكتب المتقدمة، ولكن سلطوا عليها التأويلات فأفسدوها، كما أخبر سبحانه عنهم من التحريف والتبديل والكتمان، فالتحريف تحريف المعاني بالتأويلات التي لم يردها المتكلم بها، والتبديل تبديل لفظ بلفظ آخر، والكتمان جحده. وهذه الأدواء الثلاثة منها غيرت الأديان والملل، وإذا تأملت دين المسيح وجدت النصارى إنما تطرقوا إلى إفساده بالتأويل بما لا يكاد يوجد قط مثله في شيء من الأديان، ودخلوا إلى ذلك من باب التأويل. وكذلك زنادقة الأمم جميعهم إنما تطرقوا إلى إفساد ديانات الرسل -صلوات اللَّه وسلامه عليهم- بالتأويل، ومن بابه دخلوا، وعلى أساسه بنوا، وعلى نقطه خطوا.

والمتأولون أصناف عديدة، بحسب الباعث لهم على التأويل، وبحسب تصور أفهامهم ووفورها، وأعظمهم توغلًا في التأويل الباطل مَن فسد قصده وفهمه، فكلما ساء قصده وقصر فهمه كان تأويله أشد انحرافا، فمنهم من يكون تأويله لنوع هوى من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق، ومنهم من يكون تأويله لنوع شبهة عرضت له أخفت عليه الحق، ومنهم من يكون تأويله لنوع هدى من غير شبهة، بل يكون على بصيرة من الحق، ومنهم من يجتمع له الأمران: الهوى في القصد، والشبهة في العلم.

وبالجملة فافتراق أهل الكتابين، وافتراق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، إنما أوجبه التأويل، وإنما أريقت دماء المسلمين يوم الجمل، وصفين، والحرّة، وفتنة ابن الزبير، وهلم جرًا؛ بالتأويل، وإنما دخل أعداء الإسلام من المتفلسفة والقرامطة والباطنية والإسماعيلية والنصيرية من باب التأويل، فما امتحن الإسلام بمحنة قط إلا وسببها التأويل، فإن محنته إما من المتأولين، وإما أن يسلط عليهم الكفار بسبب ما ارتكبوا من التأويل، وخالفوا ظاهر التنزيل، وتعللوا بالأباطيل،

فما الذي أراق دماء بني جذيمة، وقد أسلموا غير التأويل، حتى رفع رسول اللَّه ﷺ يديه وتبرأ إلى اللَّه من فعل المتأول بقتلهم وأخذ أموالهم؟ وما الذي أوجب تأخر الصحابة ﷺ يوم الحديبية عن موافقة رسول اللَّه ﷺ غير التأويل، حتى اشتد غضبه لتأخرهم عن طاعته حتى رجعوا عن ذلك التأويل؟ وما الذي سفك دم أمير المؤمنين عثمان ظلمًا وعدوانًا، وأوقع الأمة فيما أوقعها فيه حتى الآن غير التأويل؟ وما الذي سفك دم علي ﷺ وابنه الحسين وأهل بيته رضي اللَّه تعالى عنهم غير التأويل؟ وما الذي أراق دم عمّار بن ياسر وأصحابه غير التأويل؟ وما الذي أراق دم ابن الزبير وحُجر بن عدي وسعيد بن جبير وغيرهم من سادات الأمة غير التأويل؟ وما الذي أريقت عليه دماء العرب في فتنة أبي مسلم غير التأويل؟ وما الذي جرد الإمام أحمد بين العقابين وضرب السياط حتى عجت الخليقة إلى ربها تعالى غير التأويل؟ وما الذي قتل الإمام أحمد بن نصر الخزاعي، وخلّد خلقًا من العلماء في السجون حتى ماتوا غير التأويل؟ وما الذي سلّط سيوف التتار على دار الإسلام حتى ردوا أهلها غير التأويل؟ وهل دخلت طائفة الإلحاد من أهل الحلول والاتحاد إلا من باب التأويل؟ وهل فتح باب التأويل إلا مضادة ومناقضة لحكم اللَّه في تعليمه عباده البيان الذي امتن اللَّه في كتابه على الإنسان بتعليمه إياه؛ فالتأويل بالألغاز والأحاجي والأغلوطات أولى منه بالبيان والتبيين، وهل فرق بين دفع حقائق ما أخبرت به الرسل عن اللَّه وأمرت به بالتأويلات الباطلة المخالفة له وبين رده وعدم قبوله، ولكن هذا رد جحود ومعاندة، وذاك رد خداع ومصانعة»[(١)].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**المراء في القرآن كفر**»[(٢)].

⋆ غريب الحديث:

المراء: الجدال والتماري والمماراة: المجادلة على مذهب الشك والريبة. ويقال للمناظرة: مماراة؛ لأن كل واحد منهما يستخرج ما عند صاحبه ويمتريه، كما يمتري الحالب اللبن من الضرع.

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ٢٤٩-٢٥٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٨٦ و٤٢٤) وأبو داود (٥/ ٩/ ٤٦٠٣) وصححه الحاكم (٢/ ٢٢٣) ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان (٤/ ٣٢٤-٣٢٥/ ١٤٦٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو عبيد: «ليس وجه الحديث عندنا على الاختلاف في التأويل، ولكنه على الاختلاف في اللفظ، وهو أن يقول الرجل على حرف، فيقول الآخر: ليس هو هكذا، ولكنه على خلافه، وكلاهما منزل مقروء به. فإذا جحد كل واحد منهما قراءة صاحبه لم يؤمن أن يكون ذلك يخرجه إلى الكفر؛ لأنه نفى حرفًا أنزله اللَّه على نبيه.

والتنكير في المراء إيذان بأن شيئًا منه كفر، فضلًا عما زاد عليه.

وقيل: إنما جاء هذا في الجدال والمراء في الآيات التي فيها ذكر القدر، ونحوه من المعاني، على مذهب أهل الكلام، وأصحاب الأهواء والآراء، دون ما تضمنته من الأحكام، وأبواب الحلال والحرام؛ فإن ذلك قد جرى بين الصحابة فمن بعدهم من العلماء، وذلك فيما يكون الغرض منه والباعث عليه ظهور الحق ليتبع، دون الغلبة والتعجيز، واللَّه أعلم»[(١)].

وقال ابن حبان: «إذا مارى المرء في القرآن، أداه ذلك -إن لم يعصمه الله- إلى أن يرتاب في الآي المتشابه منه، وإذا ارتاب في بعضه، أداه ذلك إلى الجحد، فأطلق ﷺ اسم الكفر الذي هو الجحد على بداية سببه الذي هو المراء»[(٢)].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعلوم أن الكلام الذي جاءت به الرسل عن اللَّه نوعان: إما إنشاء وإما إخبار. والإنشاء يتضمن الأمر والنهي والإباحة، فأصل السعادة تصديق خبره، وطاعة أمره، وأصل الشقاوة معارضة خبره وأمره بالرأي والهوى، وهذا هو معارضة النص بالرأي، وتقديم الهوى على الشرع.

ولهذا كان ضلال من ضل من أهل الكلام والنظر في النوع الخبري، بمعارضة خبر اللَّه عن نفسه وعن خلقه بعقلهم ورأيهم، وضلال من ضل من أهل العبادة والفقه في النوع الطلبي، بمعارضة أمر اللَّه الذي هو شرعه بأهوائهم وآرائهم.

والمقصود هنا: أن معارضة أقوال الرسل بأقوال غيرهم من فعل الكفار، كما قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ إلى

---

(١) النهاية (٤/ ٣٢٢).

(٢) صحيح ابن حبان: الإحسان (٤/ ٣٢٦).

قوله: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٣]. مصدق لقول النبي ﷺ: «**مراء في القرآن كفر**».

ومن المعلوم أن كل من عارض القرآن، وجادل في ذلك بعقله ورأيه، فهو داخل في ذلك، وإن لم يزعم تقديم كلامه على كلام اللّه ورسوله، بل إذا قال ما يوجب المرية والشك في كلام اللّه، فقد دخل في ذلك، فكيف بمن يزعم أن ما يقوله بعقله ورأيه مقدم على نصوص الكتاب والسنة؟»[٤].

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «بعث علي رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بذهيبة، فقسمها بين الأربعة، الأقرع بن حابس الحنظلي ثم المجاشعي، وعيينة بن بدر الفزاري، وزيد الطائي ثم أحد بني نبهان، وعلقمة ابن علاثة العامري أحد بني كلاب. فغضبت قريش والأنصار، قالوا: يعطي صناديد أهل نجد ويدعنا. قال: إنما أتألفهم. فأقبل رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناتئ الجبين كث اللحية محلوق فقال: اتق اللّه يا محمد؛ فقال: **من يطع اللّه إذا عصيت؟ أيأمنني اللّه على أهل الأرض ولا تأمنوني؟** فسأله رجل قتله -أحسبه خالد بن الوليد- فمنعه، فلما ولى قال: **إن من ضئضئ هذا** -أو: في عقب هذا- **قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»[٥].

* **غريب الحديث:**

ذهيبة: هي تصغير ذهب، وأدخل الهاء فيها لأن الذهب يؤنث.

صناديد أهل نجد: وهم أشرافهم وعظماؤهم ورؤساؤهم، الواحد صنديد،

---

(١) غافر: الآيتان (٤-٥).
(٢) الكهف: الآية (٥٦).
(٣) غافر: الآية (٤).
(٤) درء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٠٥-٢٠٦).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٦٨ و٧٣) والبخاري (٦/ ٤٦٣-٤٦٤/ ٣٣٤٤) ومسلم (٢/ ٧٤١-٧٤٢/ ١٠٦٤) وأبو داود (٥/ ١٢١-١٢٢/ ٤٧٦٤) والنسائي (٥/ ٩٢-٩٣/ ٢٥٧٧).

وكل عظيم غالب صنديد[(١)].

أتألفهم: التألف المداراة والإيناس ليثبتوا على الإسلام رغبة فيما يصل إليهم من المال.

غائر العينين: أي داخلين في الرأس لاصقين بقعر الحدقة.

مشرف الوجنتين: الوجنة ما ارتفع من الخدين، ومشرف الوجنتين أي غليظهما.

ناتئ الجبين: أي مرتفعه.

ضئضئ: الضئضئ: الأصل يقال ضئضئ صدق، وضوضوء صدق. وحكى بعضهم ضئضيئ بوزن قنديل يريد أن يخرج من نسله وعقبه. ورواه بعضهم بالصاد المهملة. وهو بمعناه.

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «وكان للقوم صلاة بالليل والنهار، وصيام يحتقر الناس أعمالهم عندها، وكانوا يتلون القرآن آناء الليل والنهار، ولم يكن يتجاوز حناجرهم ولا تراقيهم؛ لأنهم كانوا يتأولونه بغير علم بالسنة المبينة، فكانوا قد حرموا فهمه والأجر على تلاوته، فهذا والله أعلم- معنى قوله: لا يجاوز حناجرهم- يقول: لا ينتفعون بقراءته، كما لا ينتفع الآكل والشارب من المأكول والمشروب بما لا يجاوز حنجرته»[(٢)].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد حكى أرباب المقالات عن الخوارج أنهم يجوزون على الأنبياء الكبائر، ولهذا لا يلتفتون إلى السنة المخالفة في رأيهم لظاهر القرآن وإن كانت متواترة، فلا يرجمون الزاني، ويقطعون يد السارق فيما قل أو كثر، زعما منهم على ما قيل: أن لا حجة إلا القرآن، وأن السنة الصادرة عن الرسول ﷺ ليست حجة، بناء على ذلك الأصل الفاسد.

قال من حكى ذلك عنهم: إنهم لا يطعنون في النقل لتواتر ذلك، وإنما يبنونه

---

(١) النهاية (٣/ ٥٥).

(٢) التمهيد: فتح البر (١/ ٤٥٨).

على هذا الأصل، ولهذا قال النبي ﷺ في صفتهم: «**إنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم**» يتأولونه برأيهم من غير استدلال على معانيه بالسنة، وهم لا يفهمونه بقلوبهم، إنما يتلونه بألسنتهم»(١).

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد عرف -عليه الصلاة والسلام- بهؤلاء، وذكر لهم علامة في صاحبهم، وبين من مذهبهم في معاندة الشريعة أمرين كليين: أحدهما: اتباع ظواهر القرآن على غير تدبر ولا نظر في مقاصده ومعاقده، والقطع بالحكم به ببادئ الرأي والنظر الأول، وهو الذي نبه عليه قوله في الحديث: «**يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم**»، ومعلوم أن هذا الرأي يصد عن اتباع الحق المحض، ويضاد المشي على الصراط المستقيم»(٢).

* عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ. فَكَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الْغَضَبِ. فَقَالَ: «**بِهَذَا أُمِرْتُمْ أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ؟ تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ. بِهَذَا هَلَكَتِ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ**». قَالَ: فَقَالَ عبد اللَّه بْنُ عَمْرٍو: مَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ تَخَلَّفْتُ فِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَتَخَلُّفِي عَنْهُ(٣).

★ غريب الحديث:

القدر: وهو عبارة عما قضاه اللَّه وحكم به من الأمور.

يفقأ: الفقء البخص.

★ فوائد الحديث:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا الحديث ونحوه مما ينهى فيه عن معارضة حق بحق، فإن ذلك يقتضي التكذيب بأحد الحقين، أو الاشتباه والحيرة. والواجب التصديق بهذا الحق وهذا الحق، فعلى الإنسان أن يصدق بالحق الذي يقوله غيره، كما يصدق بالحق الذي يقوله هو، ليس له أن يؤمن بمعنى آية استدل بها، ويرد معنى آية

---

(١) الصارم المسلول (٢/ ٣٥٠-٣٥١).

(٢) الموافقات (٥/ ١٤٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٨) وابن ماجه (١/ ٣٣/ ٨٥) وقال البوصيري: «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».

استدل بها مناظره، ولا أن يقبل الحق من طائفة، ويرده من طائفة أخرى.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1]. فذم سبحانه من كذب أو كذب بحق، ولم يمدح إلا من صدق وصدق بالحق. فلو صدق الإنسان فيما يقوله، ولم يصدق بالحق الذي يقوله غيره، لم يكن ممدوحا، حتى يكون ممن يجيء بالصدق ويصدق به، فأولئك هم المتقون.

ومسألة القدر يحتاج فيها إلى الإيمان بقدر اللّه، وإلى الإيمان بشرع اللّه. فطائفة غلب عليهم التصديق بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، فظنوا أن هذا لا يتم إلا بالتكذيب بالقدر، فأخطأوا في التكذيب به. وطائفة ظنت أن الإيمان بالقدر لا يتم إلا بأن يقول: إن الرب تعالى يخلق ويأمر لا لحكمة ولا لرحمة، ولا يسوي بين المتماثلين، بل بإرادة ترجح أحد المتماثلين لا لمرجح. واشتركت الطائفتان في أن القادر المختار يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح»[2].

* * *

(١) الزمر: الآيتان (٣٢-٣٣).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٠٤-٤٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تأويله: من الأول: أي: الرجوع إلى الأصل، وهو التفسير.

الراسخون: رسوخ الشيء: ثباته ثباتًا متمكنًا. والراسخ في العلم المتحقق به الذي لا تعرضه شبهة.

أولو الألباب: اللب: العقل الخالص من الشوائب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإن لفظ التأويل قد صار بتعدد الاصطلاحات مستعملا في ثلاثة معان: أحدها: وهو اصطلاح كثير من المتأخرين من المتكلمين في الفقه وأصوله أن (التأويل) هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح؛ لدليل يقترن به، وهذا هو الذي عناه أكثر من تكلم من المتأخرين في تأويل نصوص الصفات، وترك تأويلها، وهل ذلك محمود أو مذموم، أو حق أو باطل؟ الثاني: أن (التأويل) بمعنى التفسير، وهذا هو الغالب على اصطلاح المفسرين للقرآن، كما يقول ابن جرير وأمثاله من المصنفين في التفسير- واختلف علماء التأويل، ومجاهد إمام المفسرين، قال الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به. وعلى تفسيره يعتمد الشافعي وأحمد والبخاري وغيرهما، فإذا ذكر أنه يعلم تأويل المتشابه فالمراد به معرفة تفسيره. الثالث من معاني (التأويل): هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، كما قال اللَّه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[1]»[2].

(١) الأعراف: الآية (٥٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٥٥-٥٦).

قال ابن كثير: «ومن العلماء من فصل هذا المقام، فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان: أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ﴾[(١)] وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾[(٢)]؛ أي: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا اللَّه ﷻ، ويكون قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ مبتدأ، و﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ خبره. وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشيء كقوله ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ﴾[(٣)]؛ أي: بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ حالًا منهم، وساغ هذا وهو أن يكون من المعطوف دون المعطوف عليه، كقوله ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ إلى قوله ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا﴾[(٤)] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[(٥)]؛ أي: وجاء الملائكة صفوفًا صفوفًا، وقوله إخبارًا عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: بالمتشابه ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾؛ أي: الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له؛ لأن الجميع من عند اللَّه، وليس شيء من عند اللَّه بمختلف ولا متضاد، كقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[(٦)] ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة»[(٧)].

وقال ابن عطية: «وهذه المسألة إذا تؤملت قرب الخلاف فيها من الاتفاق، وذلك أن اللَّه تعالى قسم آي الكتاب قسمين: -محكمًا ومتشابهًا- فالمحكم: هو المتضح المعنى لكل من يفهم كلام العرب لا يحتاج فيه إلى نظر ولا يتعلق به شيء

---

(١) يوسف: الآية (١٠٠).
(٢) الأعراف: الآية (٥٣).
(٣) يوسف: الآية (٣٦).
(٤) الحشر الآيات (٨-١٠).
(٥) الفجر: الآية (٢٢).
(٦) النساء: الآية (٨٢).
(٧) تفسير ابن كثير (٢/ ٨-٩).

يلبس ويستوي في علمه الراسخ وغيره والمتشابه يتنوع، فمنه ما لا يعلم ألبتة، كأمر الروح، وآماد المغيبات التي قد أعلم اللَّه بوقوعها إلى سائر ذلك، ومنه ما يحمل على وجوه في اللغة ومناح في كلام العرب، فيتأول تأويله المستقيم، ويزال ما فيه مما عسى أن يتعلق به من تأويل غير مستقيم كقوله في عيسى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[1] إلى غير ذلك، ولا يسمى أحد راسخًا إلا بأن يعلم من هذا النوع كثيرا بحسب ما قدر له، وإلا فمن لا يعلم سوى المحكم فليس يسمى راسخًا، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ الضمير عائد على جميع متشابه القرآن، وهو نوعان كما ذكرنا، فقوله ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مقتض ببديهة العقل أنه يعلمه على الكمال والاستيفاء، يعلم نوعيه جميعًا، فإن جعلنا قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ عطفا على اسم اللَّه تعالى، فالمعنى إدخالهم في علم التأويل لا على الكمال، بل علمهم إنما هو في النوع الثاني من المتشابه، وبديهة العقل تقضي بهذا، والكلام مستقيم على فصاحة العرب كما تقول: ما قام لنصرتي إلا فلان وفلان، وأحدهما قد نصرك بأن حارب معك، والآخر إنما أعانك بكلام فقط، إلى كثير من المثل، فالمعنى ﴿وَمَا يَعْلَمُ﴾ تأويل المتشابه إلا اللَّه ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ كل بقدره، وما يصلح له، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ بحال قول في جميعه ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، وإذا تحصل لهم في الذي لا يعلم ولا يتصور عليه تمييزه من غيره فذلك قدر من العلم بتأويله، وإن جعلنا قوله ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ رفعا بالابتداء مقطوعا مما قبله، فتسميتهم راسخين يقتضي بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شيء هو رسوخهم، إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع، وما الرسوخ إلا المعرفة بتصاريف الكلام وموارد الأحكام، ومواقع المواعظ، وذلك كله بقريحة معدة، فالمعنى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ﴾ على الاستيفاء إلا اللَّه، والقوم الذي يعلمون منه ما يمكن أن يعلم يقولون في جميعه ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ وهذا القدر هو الذي تعاطى ابن عباس رضي الله عنه، وهو ترجمان القرآن، ولا يتأول عليه أنه علم وقت الساعة وأمر الروح وما شاكله. فإعراب ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾ يحتمل الوجهين، ولذلك قال ابن عباس بهما، والمعنى فيهما يتقارب بهذا النظر الذي سطرناه»[2].

---

(١) النساء: الآية (١٧١).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٤٠٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير (التأويل) عند السلف

* عن ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ كان في بيت ميمونة فوضعت له وضوءًا من الليل قال: فقالت ميمونة: يا رسول اللَّه وضع لك هذا عبد اللَّه بن عباس، فقال: «**اللهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «فيه بركة دعوة النبي ﷺ؛ لأن ابن عباس كان من الأخيار الراسخين في علم القرآن والسنة، أجيبت فيه الدعوة.

وفيه: الحض على تعلم القرآن والدعاء إلى اللَّه في ذلك. وروى البخاري هذا الحديث في فضائل الصحابة، وقال فيه: «**اللهم علِّمه الحكمة**»، ووقع في كتاب الوضوء: «**اللهم فقِّهه في الدين**»، وتأول جماعة من الصحابة والتابعين في قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾[٢] أنها القرآن.

وتأوَّلوا في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[٣] أنها السنة التي سنها الرسول بوحي من اللَّه. وكلا التأويلين صحيح، وذلك أن القرآن حكمة أحكم اللَّه فيه لعباده حلاله وحرامه، وبين لهم فيه أمره ونهيه، فهو كما وصفه تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ﴾[٤] وكذلك سنن رسول اللَّه ﷺ حكمة، فصل بها بين الحق والباطل، وبين لهم مجمل القرآن، ومعاني التنزيل، والفقه في الدين، فهو كتاب اللَّه وسنة نبيه ﷺ، فالمعنى واحد وإن اختلفت الألفاظ»[٥].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٢٨ و٣٣٥) والحاكم (٣/ ٥٣٤) وصححه، ووافقه الذهبي، وابن حبان: الإحسان (١٥/ ٥٣١/ ٧٠٥٥). وبنحوه: أحمد (١/ ٣٥٩) والبخاري (١/ ٣٢٥/ ١٤٣) ومسلم (٤/ ١٩٢٧/ ٢٤٧٧) والترمذي (٥/ ٦٣٨/ ٣٨٢٤) وابن ماجه (١/ ٥٨/ ١٦٦) والنسائي في الكبرى (٥/ ٥٢/ ٨١٧٧).

(٢) البقرة: الآية (٢٦٩).

(٣) البقرة: الآية (١٢٩).

(٤) القمر: الآيتان (٤و٥).

(٥) شرح البخاري (١/ ١٦٠-١٦١).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

هب: الهبة: أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض. ومن صفاته تعالى أنه وهاب، والوهاب: هو الذي يجود بالعطاء عن ظهر يد من غير استثابة؛ أي: من غير طلب للثواب من أحد.

لدنك: أخص من عندك؛ لأنه يدل على ابتداء نهاية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه حكاية عن الراسخين. ويجوز أن يكون المعنى: قل يا محمد، يقال: إزاغة القلب فساد وميل عن الدين، أفكانوا يخافون وقد هدوا أن ينقلهم اللَّه إلى الفساد؟ فالجواب: أن يكونوا سألوا إذ هداهم اللَّه ألا يبتليهم بما يثقل عليهم من الأعمال فيعجزوا عنه؛ نحو: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾[1] قال ابن كيسان: سألوا ألا يزيغوا فيزيغ اللَّه قلوبهم؛ نحو ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[2]؛ أي: ثبتنا على هدايتك إذ هديتنا، وألا نزيغ فنستحق أن تزيغ قلوبنا. وقيل: هو منقطع مما قبل؛ وذلك أنه تعالى لما ذكر أهل الزيغ عقب ذلك بأن علم عباده الدعاء إليه في ألا يكونوا من الطائفة الذميمة التي ذكرت وهي أهل الزيغ. وفي الموطأ عن أبي عبد اللَّه الصنابحي أنه قال: «قدمت المدينة في خلافة أبي بكر الصديق فصليت وراءه المغرب، فقرأ في الركعتين الأوليين بأم القرآن وسورة من قصار المفصل، ثم قام في الثالثة، فدنوت منه حتى إن ثيابي لتكاد تمس ثيابه، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ الآية»[3]. قال العلماء: قراءته بهذه الآية ضرب من القنوت والدعاء لما كان فيه من

---

(١) النساء: الآية (٦٦). (٢) الصف: الآية (٥).

(٣) رواه مالك في الموطأ (١/ ٧٩) ومن طريقه عبد الرزاق (٢/ ١٠٩/ ٢٦٩٨) والبيهقي (٢/ ٦٤).

أمر أهل الردة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة الأصابع لله تعالى، وأن القلوب بين أصبعين من أصابعه

* عن أنس قال: كان رسول اللّه ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**، فقلت: يا رسول اللّه آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: **نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء**»[٢].

* عن النَّوَّاسِ بن سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ**». وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ**». قَالَ: «**وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَخْفِضُ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[٣].

* عن عبد اللّه بن عمرو أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «**إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء**». ثم قال رسول اللّه ﷺ: «**اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك**»[٤].

★ فوائد الأحاديث:

فيها: إثبات صفة الأصابع لله ﷻ، وهي صفة ذاتية خبرية، انفردت بإثباتها السنة دون الكتاب.

قال البغوي رحمه الله: «والإصبع المذكورة في الحديث صفة من صفات اللّه ﷻ، وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل في صفات اللّه تعالى، كالنفس

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٤-١٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١١٢ و٢٥٧) والبخاري في الأدب المفرد (٦٨٣) مختصرًا، والترمذي (٤/ ٣٩٠-٣٩١/ ٢١٤٠) وحسنه، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٠/ ٣٨٣٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٦) مختصرًا وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أحمد (٤/ ١٨٢) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٤/ ٧٧٣٨) وابن ماجه (١/ ٧٢/ ١٩٩) وصحح إسناده البوصيري، والحاكم (٢/ ٢٨٩) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وابن حبان (الإحسان ٣/ ٢٢٢-٢٢٣/ ٩٤٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٨) ومسلم (٤/ ٢٠٤٥/ ٢٦٥٤) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٤٣/ ٧٨٦١).

والوجه والعين واليد والرجل والإتيان والمجيء، والنزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش والضحك والفرح -إلى أن قال-: فهذه ونظائرها صفات لله تعالى، ورد بها السمع يجب الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها معرضًا فيها عن التأويل، مجتنبًا عن التشبيه، معتقدًا أن الباري ﷻ لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق، قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[(١)].

وعلى هذا مضى سلف الأمة، وعلماء السنة، تلقوها جميعًا بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل، ووكلوا العلم فيها إلى الله ﷻ، كما أخبر الله ﷻ عن الراسخين في العلم، فقال ﷻ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[(٢)]»[(٣)].

وقال محمد أمان الجامي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأحاديث صفة الأصابع لم تسلم من تحريف المحرفين بل نالها ما نال غيرها من نصوص الصفات. حيث زعم بعضهم أن الأصابع تخليط من اليهود لأن اليهود مجسمة، وأن ضحك النبي ﷺ من كلام الحبر[(٤)] ليس دليلا على تصديقه لليهودي بل هو دليل الكراهة والغضب والاستنكار وأنت ترى هذا الكلام ينقصه الشيء الكثير من الإنصاف، وأن مجانبة الصواب فيه واضحة ومكشوفة لكل طالب علم.

وقد نسي المعارضون النافون أو تناسوا حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وحديث النواس بن سمعان وليس في إسنادهما يهودي ولا نصراني بحمد الله تعالى، فذهبوا ليتعلقوا بخيط العنكبوت فزعموا أن أحاديث الأصابع فكرة يهودية فلا ينبغي الاعتماد عليها، وفاتهم أنهم يسيئون بهذا التصرف إلى أصحاب رسول الله -عليه الصلاة والسلام- الذين رووا الحديث بعد أن فهموا أن النبي -عليه الصلاة والسلام- أقر اليهودي على ما أخبر من قدرة الله تعالى حيث يحمل الرب تلك

---

(١) الشورى: الآية (١١). (٢) آل عمران: الآية (٧).

(٣) شرح السنة (١/ ١٦٨-١٧١).

(٤) الحديث رواه أحمد (١/ ٤٢٩) والبخاري (١٣/ ٤٨٤-٤٨٥/ ٧٤١٤ و٧٤١٥) ومسلم (٤/ ٢١٤٨/ ٢٧٨٦ (٢١و٢٢» والترمذي (٥/ ٣٤٥-٣٤٦/ ٣٢٣٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٦-٤٤٧/ ١١٤٥١) من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه.

الأشياء المذكورة في الحديث على أصابعه، بل ضحك -عليه الصلاة والسلام- ضحكا يدل على التصديق والإعجاب بكلام الحبر ثم أراد أن يزيل عنه الاستغراب والاستعظام فقرأ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾[1] الآية، هكذا فهم الرواة من الصحابة ومن بعدهم، وأغرب ما في هذا التصرف محاولة تخطئة الراوي الذي قال: (وتصديقًا للحبر وتعجبًا من كلامه) ثم تفسير الضحك بالاستنكار والكراهة!! متى علموا بل متى علم المسلمون الذين يدرسون سيرة الرسول -عليه الصلاة والسلام- أنه -عليه الصلاة والسلام- إذا سمع من يصف اللَّه بما لا يليق به أو إذا انتهكت حرمات اللَّه، أو تقوَّل أحد على اللَّه بغير علم، متى علموا بأن النبي -عليه الصلاة والسلام- يعبر عن ذلك بالضحك؟!! بل المعروف من سيرته -عليه الصلاة والسلام- أنه في مثل هذه المواقف يغضب بل هو لا يغضب إلا في مثل هذه الظروف عندما تنتهك حرمات اللَّه، ويتقوَّل متقوِّل على اللَّه بغير علم. هذا هو المعروف لدى أهل العلم. لهذا كله فإن محاولة النفاة رد أحاديث الأصابع بعد أن رواها الشيخان: البخاري ومسلم وغيرهما، بذلك السبب الواهي، وتناسيهم لأحاديث أخرى فيها ذكر الأصابع بل دعوى بعضهم أن ذكر الأصابع لم يرد في القرآن أو في حديث مقطوع به، فإن محاولة النفاة هذه محاولة فاشلة، فلا ينبغي أن يتأثر بها طلاب العلم لما علمت. وأما قول: إن الأصابع لم يرد ذكرها في القرآن (فكلمة حق أريد بها الباطل) نعم، لم يرد ذكر الأصابع في القرآن، فماذا يعني ذلك؟!! هل يعني ذلك بأننا لا نثبت الأصابع لأنها غير مذكورة في القرآن؟!! بل يلزم من ذلك أننا لا نثبت الفرح والضحك ونزول الرب آخر كل ليلة وغيرها من الصفات التي انفردت بها السنة، وهذا مفهوم جهمي صرف كما ترى!!»[2].

* عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَثَلُ الْقَلْبِ مَثَلُ الرِّيشَةِ تُقَلِّبُهَا الرِّيَاحُ بِفَلَاةٍ»**[3]. وفي رواية أحمد: **«إنما سمي القلب من تقلبه، إنما مثل القلب كمثل ريشة معلقة في أصل شجرة، تقلبها الريح ظهرا لبطن»**[4].

---

(١) الزمر: الآية (٦٧).

(٢) الصفات الإلهية في الكتاب والسنة (ص: ٣١١-٣١٢).

(٣) ابن ماجه (١/ ٣٤/ ٨٨).

(٤) أحمد (٤/ ٤٠٨)، وصحح الحديث الشيخ الألباني رحمه الله في ظلال الجنة (٢٢٧ و٢٢٨).

★ **غريب الحديث:**

ظهرًا لبطن: قال القاري: أي وبطنا لظهر يعني كل ساعة يقلبها على صفة، فكذا القلب ينقلب ساعة من الخير إلى الشر وبالعكس[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قوله: «**مثل القلب**» المثل ههنا بمعنى الصفة لا القول السائر؛ لأن المعني صفة القلب العجيبة الشأن، وورود ما يرد عليه من عالم الغيب من الدواعي، وسرعة تقلبها بسبب الدواعي، كصفة ريشة واحدة تقلبها الرياح بأرض خالية عن العمران؛ فإن الرياح أشد تأثيرًا فيها في العمران، وجمع الرياح لدلالتها على التقلب ظهرًا لبطن؛ إذ لو استمر الريح على جانب واحد لم يظهر القلب، كما يظهر من الرياح المختلفة»[٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعلوم سرعة حركة الريشة والقدر مع الجهل، ولهذا يقال لمن أطاع من يغويه: إنه استخفه. قال عن فرعون: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾[٤] فإن الخفيف لا يثبت بل يطيش، وصاحب اليقين ثابت، يقال: أيقن إذا كان مستقرًّا، واليقين: استقرار الإيمان في القلب علمًا وعملًا، فقد يكون علم العبد جيدًا، لكن نفسه لا تصبر عند المصائب بل تطيش»[٥].

* عَنْ أَبِي كَبْشَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا مُوسَى يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، ويمسي مؤمنا، ويصبح كافرا، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي**». قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «**كُونُوا أَحْلَاسَ بُيُوتِكُمْ**»[٦].

---

(١) مرقاة المفاتيح (١/ ٣٠٤).
(٢) شرح الطيبي (٢/ ٥٦٦-٥٦٧).
(٣) الزخرف: الآية (٥٤).
(٤) الروم: الآية (٦٠).
(٥) الفوائد (ص: ٢٧٥).
(٦) أحمد (٤/ ٤٠٨) وأبوداود (٤/ ٤٥٩-٤٦٠/ ٤٢٦٢) والحاكم (٤/ ٤٤٠) وقال: صحيح الإسناد. وسكت عنه الذهبي.

★ **غريب الحديث:**

كقطع الليل المظلم: بكسر القاف وفتح الطاء؛ أي: كل فتنة كقطعة من الليل المظلم في شدتها وظلمتها، وعدم تبين أمرها، والتباسها وفزاعتها وشيوعها واستمرارها.

أحلاس: جمع حِلس. قال الخطابي: يقال للرجل إذا كان يلزم بيته لا يبرح منه: هو حلس بيته؛ لأن الحلس يفترش فيبقى على المكان ما دام لا يرفع.

★ **فوائد الحديث:**

قال القاري: «والظاهر أن المراد بالإصباح والإمساء تقلب الناس فيها وقتا دون وقت، لا بخصوص الزمانين، فكأنه كناية عن تردد أحوالهم، وتذبذب أقوالهم، وتنوع أفعالهم من عهد ونقض، وأمانة وخيانة، ومعروف ومنكر، وسنة وبدعة، وإيمان وكفر»[١].

* * *

(١) مرقاة المفاتيح (٩/ ٢٨٠).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩﴾

★ **غريب الآية:**

لا ريب: الريب: الظن والشك، ورابني الشيء يريبني إذا جعلك شاكا.

الميعاد: الوعد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا من الكلام الذي استغني بذكر ما ذكر منه عما ترك ذكره. وذلك أن معنى الكلام: ربنا إنك جامع الناس ليوم القيامة فاغفر لنا يومئذ، واعف عنا، فإنك لا تخلف وعدك، أن من آمن بك، واتبع رسولك، وعمل بالذي أمرته به في كتابك أنك غافره يومئذ وإنما هذا من القوم مسألة ربهم أن يثبتهم على ما هم عليه من حسن نصرتهم بالإيمان بالله ورسوله، وما جاءهم به من تنزيله حتى يقبضهم على أحسن أعمالهم وإيمانهم، فإنه إذا فعل ذلك بهم وجبت لهم الجنة؛ لأنه قد وعد من فعل ذلك به من عباده أنه يدخله الجنة؛ فالآية وإن كانت قد خرجت مخرج الخبر، فإن تأويلها من القوم مسألة ودعاء ورغبة إلى ربهم»[1].

قال الرازي: «واعلم أن هذا الدعاء من بقية كلام الراسخين في العلم، وذلك لأنهم لما طلبوا من الله تعالى أن يصونهم عن الزيغ، وأن يخصهم بالهداية والرحمة، فكأنهم قالوا: ليس الغرض من هذا السؤال ما يتعلق بمصالح الدنيا؛ فإنها منقضية منقرضة، وإنما الغرض الأعظم منه ما يتعلق بالآخرة، فإنا نعلم أنك يا إلهنا جامع الناس للجزاء في يوم القيامة، ونعلم أن وعدك لا يكون خُلفًا، وكلامك لا يكون كذبًا، فمن زاغ قلبه بقي هناك في العذاب أبد الآباد، ومن أعطيته التوفيق والهداية والرحمة، وجعلته من المؤمنين؛ بقي هناك في السعادة والكرامة

---

(١) جامع البيان (٦/ ٢٢١ شاكر).

أبد الآباد، فالغرض الأعظم من ذلك الدعاء ما يتعلق بالآخرة»[١].

وقال السعدي: «هذا من تتمة كلام الراسخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء، واليقين التام، وأن اللَّه لابد أن يوقع ما وعد به، وذلك يستلزم موجبَه ومقتضاه من العمل والاستعداد لذلك اليوم؛ فإن الإيمان بالبعث والجزاء، أصل صلاح القلوب وأصل الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، اللذين هما أساس الخيرات»[٢].

* * *

(١) تفسير الرازي (٧/ ١٩٧-١٩٨).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٣٦٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لن تغني عنهم: لن تنفعهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن كمال العذاب هو أن يزول عنه كل ما كان منتفعًا به، ثم يجتمع عليه جميع الأسباب المؤلمة.

أما الأول: فهو المراد بقوله: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ وذلك لأن المرء عند الخطوب والنوائب في الدنيا يفزع إلى المال والولد، فهما أقرب الأمور التي يفزع المرء إليها في دفع الخطوب، فبين اللَّه تعالى أن صفة ذلك اليوم مخالفة لصفة الدنيا؛ لأن أقرب الطرق إلى دفع المضار إذا لم يتأت في ذلك اليوم، فما عداه بالتعذر أولى، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] وقوله: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾[2] وقوله: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[3] وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ﴾[4].

وأما القسم الثاني: من أسباب كمال العذاب: فهو أن يجتمع عليه الأسباب المؤلمة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ وهذا هو النهاية في شرح العذاب، فإنه لا عذاب أزيد من أن تشتعل النار فيهم كاشتعالها في الحطب اليابس، والوقود بفتح الواو الحطب الذي توقد به النار، وبالضم هو مصدر وقدت

---

(١) الشعراء: الآيتان (٨٨-٨٩).
(٢) الكهف: الآية (٤٦).
(٣) مريم: الآية (٨٠).
(٤) الأنعام: الآية (٩٤).

النار وقودا كقوله: (وردت ورودًا)»[١].

وقال الشنقيطي: «ذكر في هذه الآية الكريمة أن الكفار يوم القيامة لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئًا، وذكر أنهم وقود النار؛ أي: حطبها الذي تتقد فيه، ولم يبين هنا هل نفيه لذلك تكذيب لدعواهم أن أموالهم وأولادهم تنفعهم، وبيّن في مواضع أُخر أنهم ادعوا ذلك ظنًّا منهم أنه ما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا إلا لكرامتهم عليه واستحقاقهم لذلك، وأن الآخرة كالدنيا يستحقون فيها ذلك أيضًا فكذبهم في آيات كثيرة، فمن الآيات الدالة على أنهم ادعوا ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[٣]؛ يعني: في الآخرة كما أوتيته في الدنيا. وقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[٤]؛ أي: بدليل ما أعطاني في الدنيا، وقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[٥]، قياسًا منه للآخرة على الدنيا، ورد اللَّه عليهم هذه الدعوى في آيات كثيرة كقوله هنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[٦]، وقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾[٧]، وقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٨]، وقوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾[٩]. إلى غير ذلك من الآيات.

وصرح في موضع آخر أن كونهم وقود النار المذكور هنا على سبيل الخلود وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[١٠]»[١١].

* * *

(١) تفسير الرازي (٧/ ٢٠٠-٢٠١).
(٢) سبأ: الآية (٣٥).
(٣) مريم: الآية (٧٧).
(٤) فصلت: الآية (٥٠).
(٥) الكهف: الآية (٣٦).
(٦) المؤمنون: الآية (٥٥-٥٦).
(٧) سبأ: الآية (٣٧).
(٨) آل عمران: الآية (١٧٨).
(٩) القلم: الآيتان (٤٤-٤٥).
(١٠) آل عمران: الآية (١١٦).
(١١) أضواء البيان (١/ ١٩٧).

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

دأب: الدأب: العادة المستمرة دائمًا على حالة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من اللَّه شيئًا عند حلول عقوبتنا بهم، كسنة آل فرعون وعادتهم، والذين من قبلهم من الأمم الذين كذبوا بآياتنا، فأخذناهم بذنوبهم فأهلكناهم حين كذبوا بآياتنا، فلن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من اللَّه شيئًا حين جاءهم بأسنا كالذين عوجلوا بالعقوبة على تكذيبهم ربهم من قبل آل فرعون من قوم نوح وقوم هود وقوم لوط وأمثالهم»(١).

وقال الشنقيطي: «لم يبيِّن هنا من هؤلاء الذين من قبلهم وما ذنوبهم التي أخذهم اللَّه بها.

وبيّن في مواضع أُخر أن منهم قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب؛ وأن ذنوبهم التي أخذهم بها هي الكفر باللَّه، وتكذيب الرسل وغير ذلك من المعاصي، كعقر ثمود للناقة وكلواط قوم لوط، وكتطفيف قوم شعيب للمكيال والميزان، وغير ذلك كما جاء مفصلًا في آيات كثيرة كقوله في نوح وقومه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾(٢)، ونحوها من الآيات، وكقوله في قوم هود: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾(٣)، ونحوها من الآيات، وكقوله في قوم صالح: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟

(١) جامع البيان (٦/ ٢٢٣ شاكر).

(٢) العنكبوت: الآية (١٤). (٣) الذاريات: الآية (٤١).

ٱلصَّيْحَةُ﴾(١)، ونحوها من الآيات، وكقوله في قوم لوط: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾(٢) ونحوها من الآيات، وكقوله في قوم شعيب: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٣) ونحوها من الآيات»(٤).

وقال ابن عاشور: «والمعنى: شأنهم في ذلك كشأن آل فرعون؛ إذ ليس في ذلك عادة متكرّرة، وقد ضرب اللّٰه لهم هذا المثل عبرة وموعظة؛ لأنّهم إذا استقْرَوْا الأمم التي أصابها العذاب؛ وجدوا جميعهم قد تماثلوا في الكفر باللّٰه، وبرسله، وبآياته، وكفَى بهذا الاستقراء موعظة لأمثال مشركي العرب، وقد تعيّن أن يكون المشبّه به هو وعيد الاستئصال والعذاب في الدنيا؛ إذ الأصل أنّ حال المشبّه أظهر من حال المشبّه به عند السامع، وعليه فالأخذ في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۗ﴾ هو أخذ الانتقام في الدنيا كقوله: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ﴾(٥).

وأريد بآل فرعون فرعونُ وآلهُ؛ لأنّ الآل يطلق على أشدّ الناس اختصاصًا بالمضاف إليه، والاختصاص هنا اختصاص في المتابعةِ والتواطؤ على الكفر، كقوله: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾(٦) فلِذكر الآل هنا من الخصوصية ما ليس لذكر القوم؛ إذ قوم الرجل قد يخالفونه، فلا يدل الحكم المتعلّق بهم على أنّه مساوٍ لهم في الحكم، قال تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾(٧) في كثير من الآيات نظائرها، وقال: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾(٨).

وقوله: ﴿كَذَّبُواْ﴾ بيان لدأبهم، استئناف بياني. وتخصيص آل فرعون بالذكر من بين بقية الأمم؛ لأنّ هلكهم معلوم عند أهل الكتاب، بخلاف هلك عاد وثمود فهو عند العرب أشهر؛ ولأنّ تحدّي موسى إياهم كان بآيات عظيمة، فما أغنتهم شيئًا تُجاه ضلالهم؛ ولأنّهم كانوا أقرب الأمم عهدًا بزمان النبي ﷺ فهو كقول شعيب: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾(٩) وكقول اللّٰه تعالى للمشركين: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ

(١) هود: الآية (٦٧).
(٢) الحجر: الآية (٧٤).
(٣) الشعراء: الآية (١٨٩).
(٤) أضواء البيان (١/ ١٩٧-١٩٨).
(٥) الأنعام: الآيتان (٤٤و٤٥).
(٦) غافر: الآية (٤٦).
(٧) هود: الآية (٦٠).
(٨) الشعراء: الآيتان (١٠و١١).
(٩) هود: الآية (٨٩).

مُقِيمٍ﴾[١] وقوله: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[٢] وقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٣]»[٤].

* * *

(١) الحجر: الآية (٧٦).
(٢) الحجر: الآية (٧٩).
(٣) الصافات: الآيتان (١٣٧و١٣٨).
(٤) التحرير والتنوير (٣/ ١٧٤-١٧٥).

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تحشرون: تجمعون.

بئس المهاد: بئس المثوى والفراش.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «دلت الآية على حصول البعث في القيامة وحصول الحشر والنشر، وأن مرد الكافرين إلى النار.

ثم قال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وذلك لأنه تعالى لما ذكر حشرهم إلى جهنم وصفه فقال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ والمهاد: الموضع الذي يتمهد فيه وينام عليه كالفراش، قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾(١) فلما ذكر اللَّه تعالى مصير الكافرين إلى جهنم أخبر عنها بالشر لأن بئس مأخوذ من البأساء هو الشر والشدة، قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾(٢) أي: شديد، وجهنم معروفة أعاذنا اللَّه منها بفضله»(٣).

وقال ابن عاشور: «استئناف ابتدائي للانتقال من النذارة إلى التهديد، ومِن ضَرب المثل لهم بأحوال سلفهم في الكفر إلى ضرب المثل لهم بسابق أحوالهم المؤذنة بأنّ أمرهم صائر إلى زوال، وأنّ أمر الإسلام ستندكّ له صمّ الجبال. وجيء في هذا التهديد بأطنب عبارة وأبلغها؛ لأنّ المقام مقام إطناب لمزيد الموعظة، والتذكير بوصف يوم كانَ عليهم يعلمونه. والذين كفروا يحتمل أنّ المراد بهم المذكورون في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ﴾(٤) فيجيء فيه ما تقدّم

---

(١) الذاريات: الآية (٤٨).
(٢) الأعراف: الآية (١٦٥).
(٣) تفسير الرازي (٧/ ٢٠٤).
(٤) آل عمران: الآية (١١٦).

والعدول عن ضمير (هم) إلى الاسم الظاهر لاستقلال هذه النذارة.

والظاهر أنّ المراد بهم المشركون خاصّة، ولذلك أعيد الاسم الظاهر، ولم يؤت بالضمير بقرينة قوله بعده: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾[(١)] وذلك ممّا شاهده المشركون يوم بدر»[(٢)].

وقال محمد رشيد رضا: «وهذا الكلام تأكيد لمضمون ما قبله؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء المغرورين بحولهم وقوتهم المعتزين بأموالهم وأولادهم: إنكم ستغلبون في الدنيا وتعذبون في الآخرة. قال الأستاذ الإمام: كان الكافرون يعتزون بأموالهم وأولادهم فتوعدهم اللّه تعالى وبين لهم أن الأمر ليس بالكثرة والثروة، وإنما هو بيده ﷻ. أقول: يشير إلى مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[(٣)] وكانوا يرون أن كثرة أموالهم وأولادهم تنفعهم في الآخرة إن كان هناك آخرة؛ كما تنفعهم في الدنيا، وأنه تعالى يعطيهم في الآخرة كما أعطاهم في الدنيا كما حكاه عنهم في قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾[(٤)] وكقوله في صاحب الجنة؛ أي: البستان: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[(٥)] وقد ردّ القرآن على شبهتهم ودعواهم في غير ما موضع. أما غرورهم بأموالهم وأولادهم في الدنيا وحسبانهم أنهم يكونون بها غالبين أعزاء دائمًا؛ فذلك معهود، وشبهته ظاهرة، وأما زعمهم أنهم يكونون كذلك في الآخرة؛ فهو منتهى الطغيان الذي بينه اللّه تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[(٦)] وقد أنفذ اللّه وعيده الأول في أولئك الكافرين فغلبوا في الدنيا. قيل: إن الخطاب لليهود وقد غلبهم المسلمون، فقتلوا بني قريظة الخائنين، وأجلوا بني النضير المنافقين، وفتحوا خيبر. وقيل: هو للمشركين وقد غلبهم المؤمنون يوم بدر وأتم اللّه نعمته بغلبهم يوم الفتح، ولم تغن عن الفريقين أموالهم ولا أولادهم، وسينفذ وعيده بهم في الآخرة فيحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ما مهّدوا لأنفسهم، أو بئس المهاد جهنم»[(٧)].

---

(١) آل عمران: الآية (١٣).
(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٧٥).
(٣) سبأ: الآية (٣٥).
(٤) مريم: الآيتان (٧٧و٧٨).
(٥) الكهف: الآيتان (٣٥و٣٦).
(٦) العلق: الآيتان (٦و٧).
(٧) تفسير المنار (٣/ ٢٣٣).

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ءاية: علامة.

فئتين: الفئة الجماعة والطائفة من الناس.

لعبرة: لموعظة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر في هذه الآية الكريمة أن وقعة بدر آية؛ أي: علامة على صحة دين الإسلام؛ إذ لو كان غير حق لما غلبت الفئة القليلة الضعيفة المتمسكة به الفئة الكثيرة القوية التي لم تتمسك به»(١).

قال أبو المظفر السمعاني: «قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾؛ أي: معجزة وعلامة، ﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾ في فرقتين ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ اجتمعتا، من الالتقاء: وهو الاجتماع، ومنه ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾(٢)؛ لأنه يجتمع فيه أهل السماء وأهل الأرض ﴿فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: المسلمين يوم بدر ﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾؛ يعني: المشركين ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾؛ يعني: المسلمين رأوا المشركين مثلي عددهم، وكانوا ثلاثة أمثالهم؛ لأن عدد المسلمين يوم بدر كان ثلاثمائة وثلاثة عشر نفرًا أو أربعة عشر نفرًا، وكان عدد المشركين تسعمائة وخمسين نفرًا، وعن علي وابن مسعود: أن عدد المشركين كانوا ألفًا، فرآهم المسلمون نيفا وستمائة. قال ابن مسعود: رأيناهم ضعفي عددنا، ثم رأيناهم مثل عددنا؛ رجل برجل، وهذا معنى

(١) أضواء البيان (١/ ١٩٨).

(٢) غافر: الآية (١٥).

قوله تعالى في سورة الأنفال ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾(١) فرآهم المسلمون أقل من عددهم، وكذلك المشركون رأوا المسلمين أقل من عددهم، وكانت الحكمة فيه إذا رأوهم أقل مما كانوا لا يحجمون، ولا يفترون عن القتال؛ لأن اللَّه تعالى قد أخبرهم أن الواحد منهم يقاوم اثنين من المشركين، وكذلك المشركون إذا رأوا المسلمين أقل مما كانوا لا يمتنعون عن القتال ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾(٢)، وذلك من قتل رؤسائهم وقادتهم، بإذن اللَّه تعالى.

قال الفراء: إنما رأوهم على عددهم كما كانوا، وإنما قال: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ﴾؛ يعني: مثليهم سوى عددهم، وهذا مثل قول الرجل وعنده درهم-: أنا أحتاج إلى مثلي هذا الدرهم؛ يعني: إلى مثليه سواه. والأول أصح.

وقرئ: (ترونهم) بالتاء فيكون خطابًا لليهود، وكان جماعة منهم حضروا قتال بدر؛ لينظروا على من الدبرة، فرأوا المشركين مثلي عدد المسلمين، ورأوا النصرة مع ذلك للمسلمين، وكان ذلك معجزة وآية للرسول في أعينهم. وعلى القراءة الأولى يكون الخطاب مع المسلمين في قوله: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ﴾»(٣).

وقال ابن عاشور: «والرؤية هنا بصرية لقوله: ﴿رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾. والظاهر أن الكفار رأوا المسلمين يوم بدر عند اللقاء والتلاحم مثلي عددهم، فوقع الرعب في قلوبهم فانهزموا. فهذه الرؤية جعلت آية لمن رأوها، وتحققوا بعد الهزيمة أنهم كانوا واهمين فيما رأوه ليكون ذلك أشدّ حسرة لهم، وتكون هذه الرؤية غير الرؤية المذكورة في الأنفال بقوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾(٤)؛ فإن تلك يناسب أن تكون وقعت قبل التلاحم، حتى يستخفّ المشركون بالمسلمين، فلا يأخذوا أهبتهم لِلقائهم، فلما لاقوهم رأوهم مثلي عددهم فدخلهم الرعب والهزيمة، وتحققوا قلة المسلمين بعد انكشاف الملحمة، فقد كانت إرادة القلة وإرادة الكثرة سببي نصر للمسلمين بعجيب صنع اللَّه تعالى. وجوّز أن يكون المسلمون رأوا المشركين مثلي عدد المؤمنين، وكان المشركون ثلاثة أمثالهم، فقلّلهم اللَّه في أعين المسلمين

---

(١) الأنفال: الآية (٤٤).
(٢) الأنفال: الآية (٤٢).
(٣) التفسير (١/ ٢٩٨-٢٩٩).
(٤) الأنفال: الآية (٤٤).

لئلا يفشلوا؛ لأنهم قد علموا من قبل أن المسلم يغلب كافرَين، فلو علموا أنهم ثلاثة أضعافهم لخافوا الهزيمة، وتكون هذه الإراءة هي الإراءة المذكورة في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾[1] ويكون ضمير الغيبة في قوله: ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾ راجعًا للمسلمين على طريقة الالتفات، وأصله ترونهم مثليكم على أنه من المقول»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في غزوة بدر

* عن علي قال: لما قدمنا المدينة أصبنا من ثمارها، فاجتويناها وأصابنا بها وعك، وكان النبي ﷺ يتخبر عن بدر، فلما بلغنا أن المشركين قد أقبلوا، سار رسول اللَّه ﷺ إلى بدر -وبدر بئر- فسبقنا المشركون إليها، فوجدنا فيها رجلين منهم رجلا من قريش ومولى لعقبة بن أبي معيط، فأما القرشي فانفلت وأما مولى عقبة فأخذناه، فجعلنا نقول له: كم القوم؟ فيقول: هم واللَّه كثير عددهم، شديد بأسهم، فجعل المسلمون إذا قال ذلك ضربوه حتى انتهوا به إلى النبي ﷺ، فقال له: كم القوم؟ قال: هم واللَّه كثير عددهم شديد بأسهم، فجهد النبي ﷺ أن يخبره كم هم فأبى، ثم إن النبي ﷺ سأله: **كم ينحرون من الجزر؟** فقال: عشرًا كل يوم، فقال رسول اللَّه ﷺ: **القوم ألف، كل جزور لمائة وتبعها**، ثم إنه أصابنا من الليل طش من مطر، فانطلقنا تحت الشجر والحجف نستظل تحتها من المطر، وبات رسول اللَّه ﷺ يدعو ربه ﷻ ويقول: **اللهم إنك إن تهلك هذه الفئة لا تعبد**، قال: فلما أن طلع الفجر نادى: **الصلاة عباد اللَّه**، فجاء الناس من تحت الشجر والحجف، فصلى بنا رسول اللَّه ﷺ وحرض على القتال، ثم قال: **إن جمع قريش تحت هذه الضلع الحمراء من الجبل**، فلما دنا القوم منا وصاففناهم إذا رجل منهم على جمل له أحمر يسير في القوم، فقال رسول اللَّه ﷺ: **يا علي، ناد لي حمزة** -وكان أقربهم من المشركين- **من صاحب الجمل الأحمر وماذا يقول لهم؟** ثم قال رسول اللَّه ﷺ: **إن يكن في القوم أحد يأمر بخير فعسى أن يكون صاحب الجمل**

---

(١) الأنفال: الآية (٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٧٧).

الأحمر، فجاء حمزة فقال: هو عتبة بن ربيعة، وهو ينهى عن القتال، ويقول لهم: يا قوم، إني أرى قومًا مستميتين لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قوم اعصبوها اليوم برأسي، وقولوا: جبن عتبة بن ربيعة، وقد علمتم أني لست بأجبنكم، فسمع ذلك أبو جهل، فقال: أنت تقول هذا؟ واللَّه لو غيرك يقول هذا لأعضضته، قد ملأت رئتك جوفك رعبًا، فقال عتبة: إياي تعير يا مصفِّر استه؟ ستعلم اليوم أينا الجبان، قال: فبرز عتبة وأخوه شيبة وابنه الوليد حمية، فقالوا: من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار ستة، فقال عتبة: لا نريد هؤلاء، ولكن يبارزنا من بني عمنا، من بني عبد المطلب، فقال رسول اللَّه ﷺ: **قُم يا علي وقم يا حمزة وقُم يا عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب**، فقتل اللَّه تعالى عتبة وشيبة ابني ربيعة والوليد بن عتبة، وجرح عبيدة، فقتلنا منهم سبعين وأسرنا سبعين، فجاء رجل من الأنصار قصير بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا، فقال العباس: يا رسول اللَّه، إن هذا واللَّه ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجهًا، على فرس أبلق، ما أراه في القوم، فقال الأنصاري: أنا أسرته يا رسول اللَّه فقال: **اسكت، فقد أيدك اللَّه تعالى بملك كريم**، فقال علي رضي الله عنه: فأسرنا وأسرنا من بني عبد المطلب العباس وعقيلًا ونوفل بن الحارث[1].

★ **غريب الحديث:**

فاجتويناها: أي: أصابهم الجوى وهو المرض وداء الجوف إذا تطاول، وذلك إذا لم يوافقهم هواؤها واستوخموها.

الوعك: هو الحمى وقيل: ألمها.

يتخبر: يتعرف يقال: تخبر الخبر واستخبر إذا سأل عن الأخبار ليعرفها.

الجزور: البعير ذكرا كان أو أنثى.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١١٧) والبزار (٢/ ٣١١/ ١٧٦١) الكشف. وأخرجه: أبو داود (٣/ ١١٩-١٢٠/ ٢٦٦٥) مختصرا. قال الهيثمي في المجمع (٦/ ٧٥-٧٦): «روى أبو داود منه طرف ورواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة». قال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٧٨): «هذا سياق حسن وفيه شواهد مما تقدم ولما سيأتي وقد تفرد بطوله الإمام أحمد وروى أبو داود بعضه من حديث إسرائيل به».

طش من مطر: هو الضعيف القليل منه.

الحجف: بفتحتين جمع حجفة وهي الترس. والترس: هو ما يتقى به في الحرب.

الضلع: بكسر الضاد وفتح اللام: جبيل منفرد صغير ليس بمنقاد.

اعصبوها برأسي: يريد السبة التي تلحقهم بترك الحرب والجنوح إلى السلم، فأضمرها اعتمادًا على معرفة المخاطبين؛ أي: اقرنوا هذه الحال بي وانسبوها إلي وإن كانت ذميمة.

لأعضضته: من العضّ؛ أي: قلت له: (اعضض هَنَ أبيك).

يا مصفر استه: رماه بالابنة وأنه كان يزعفر استه. وقيل: هي كلمة تقال للمتنعم المترف الذي لم تحنكه التجارب والشدائد. وقيل: أراد يا مضرط نفسه، من الصفير، وهو الصوت بالفم والشفتين، كأنه قال: يا ضراط، نسبه إلى الجبن والخور.

رجل أجلح: هو الذي انحسر الشعر عن جانبي رأسه.

فرس أبلق: من البُلقة وهو ارتفاع التحجيل إلى الفخذين.

★ فوائد الحديث:

فيه: اعتبار القرائن في معرفة الأحكام حيث استدل بمقدار المنحور على مقدار عددهم.

فيه: أن من كفار قريش من لا يريد قتال المسلمين وإنما خرج حمية.

قال الخطابي: «فيه من الفقه إباحة المبارزة في جهاد الكفار، ولا أعلم اختلافًا في جوازها إذا أذن الإمام فيها، وإنما اختلفوا فيها إذا لم تكن عن إذن من الإمام، فكره سفيان الثوري وأحمد وإسحاق أن يفعل ذلك إلا بإذن الإمام، وحكي ذلك أيضًا عن الأوزاعي. وقال مالك والشافعي: لا بأس بها كانت بإذن الإمام أو بغير إذنه، وقد روي ذلك أيضًا عن الأوزاعي»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «في الحديث من الفقه أن معونة المبارز جائزة إذا ضعف أو عجز

---

(١) معالم السنن (٢/ ٢٤١-٢٤٢).

عن قرنه»[١].

فيه فضيلة ظاهرة لحمزة وعلي وعبيدة بن الحارث ﷺ لشجاعتهم وانتقاء رسول اللّه لهم.

* * *

(١) معالم السنن (٢/ ٢٤٢).

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

زين: التزيين التجميل والتحسين.

المسومة: أصل التسويم التعليم ومعنى مسومة: معلَّمة، وقيل: هو من سوّم ماشيته؛ أي: رعاها، فمعنى مسومة؛ أي: مرعية، وقيل: بل هو من السيمياء وهي الحسن، فمعنى مسومة؛ أي: ذات حسن.

المآب: المرجع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فأخبر سبحانه أن هذا الذي زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها، وما هو غاية أماني طلابها، ومؤثريها على الآخرة وهو سبعة أشياء:

النساء اللاتي هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة.

والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه.

والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها.

والخيل المسومة التي هي عز أصحابها وفخرهم وحصونهم.

وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم.

والأنعام التي منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم وغير ذلك من مصالحهم.

والحرث الذي هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك.

ثم أخبر سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا، ثم شوق عباده إلى متاع الآخرة وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى»[١].

قال القرطبي: «معنى الآية: تقليل الدنيا وتحقيرها، والترغيب في حسن المرجع إلى اللّه تعالى في الآخرة»[٢].

وقال ابن عطية: «وإذا قيل: زيّن اللهُ؛ فمعناه بالإيجاد والتهيئة للانتفاع، وإنشاء الجبلة عن الميل إلى هذه الأشياء. وإذا قيل زيّن الشيطانُ فمعناه بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها. والآية تحتمل هذين النوعين من التزيين، ولا يختلف مع هذا النظر، وهذه الآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توضيح لمعاصري محمد ﷺ من اليهود وغيرهم. و﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ذميمة، واتباعها مردٍ، وطاعتها مهلكة، وقد قال ﷺ: «**حُفت النار بالشهوات وحُفت الجنة بالمكاره**»[٣]، فحسبك أن النار حُفّت بها، فمن واقَعها خَلُص إلى النار»[٤].

قال ابن عاشور: «استئناف نشأ عن قوله: ﴿لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم﴾[٥] إذ كانت إضافة (أموال وأولاد) إلى ضمير «هم» دالةً على أنّها معلومة للمسلمين، قُصد منه عِظة المسلمين ألّا يغترّوا بحال الذين كفروا فتعجبهم زينة الدنيا، وتلهيهم عن التهمّم بما بِه الفوز في الآخرة؛ فإنّ التحذير من الغايات يستدعي التحذير من البدايات، وقد صُدّر هذا الوعظ والتأديب ببيان مدخل هذه الحالة إلى النفوس، حتى يكونوا على أشدّ الحذر منها؛ لأنّ ما قَرارتُه النفس ينساب إليها مع الأنفاس»[٦].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾؛ أي: ذلك الذي ذكر من الأنواع الستة هو ما يستمتع به الناس في

---

(١) عدة الصابرين (٢٧٥-٢٧٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٠) والبخاري (١١/ ٣٨٨/ ٦٤٨٧) ومسلم (٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٣) وأخرجه مطولًا أحمد (٢/ ٣٣٢-٣٣٣) وأبو داود (٥/ ١٠٨-١٠٩/ ٤٧٤٤) والترمذي (٤/ ٥٩٨/ ٢٥٦٠) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٧/ ٦/ ٣٧٧٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) المحرر الوجيز (١/ ٤٠٨).

(٥) آل عمران: الآية (١٠).

(٦) التحرير والتنوير (٣/ ١٧٨).

حياتهم الدنيا؛ أي: الأولى، والله عنده حسن المرجع في الحياة الآخرة التي تكون بعد موت الناس وبعثهم، فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع القريب العاجل، بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه في الآجل، كما سيأتي التصريح به في الآية التالية لهذه الآية.

فقد علم مما شرحته أن الكلام في هذه الشهوات بيان لما فطر عليه الناس من حبها، وزيّنه في نفوسهم وتمهيد لتذكيرهم بما هو خير منها لا بيان قبحها في نفسها كما يتوهم الجاهل؛ فإن الله تعالى ما فطر الناس على شيء قبيح بل خلقهم في أحسن تقويم، ولا جعل دينه مخالفًا لفطرته بل موافقًا لها كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(١)] وكيف يكون حب النساء في أصل الفطرة مذمومًا وهو وسيلة إتمام حكمته تعالى في بقاء النوع إلى الأجل المسمى وهو من آياته تعالى الدالة على حكمته ورحمته كما قال: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(٢)] وكان ﷺ يحبهن. وكيف يكون حب المال مذمومًا لذاته والله تعالى قد جعل بذل المال من آيات الإيمان، وهو تعالى ينهى عن الإسراف والتبذير في إنفاقه كما ينهى عن البخل به، وقد امتنّ على نبيّه بأنه وجده عائلًا؛ أي: فقيرًا، فأغناه وجعل المال قِوامًا للأمم، ومعززًا للدين ووسيلة لإقامة ركنين من أركانه، ومن أعظم أسباب التقرب إليه تعالى، وقد قال ﷺ: «**إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي**»[(٣)] رواه مسلم في صحيحه. ولا أراني في حاجة إلى الكلام في حب البنين والخيل والأنعام والحرث؛ فإن الشبهة فيها للغالين في الزهد أضعف. فعلى المؤمن المتقي أن لا يفتتن بهذه الشهوات ويجعلها أكبر همه، والشاغل له عن آخرته، فإذا اتقى ذلك واستمتع بها بالقصد والاعتدال والوقوف عند حدود الله تعالى فهو السعيد في الدارين ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا

---

(١) الروم: الآية (٣٠).

(٢) الروم: الآية (٢١).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٦٨) ومسلم (٤/ ٢٢٧٧/ ٢٩٦٥) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[(١)]»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حب الدنيا وزينتها

* عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**حبِّب إلي من الدنيا النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «وقدم النساء للاهتمام بنشر الأحكام وتكثير سواد الإسلام وأردفه بالطيب لأنه من أعظم الدواعي لجماعهن المؤدي إلى تكثير التناسل في الإسلام مع حسنه بالذات»[(٤)].

قال السندي: «وفيه إشارة إلى أن محبة النساء والطيب إذا لم يكن مخلًّا لأداء حقوق العبودية بل للانقطاع إليه تعالى يكون من الكمال وإلا يكون من النقصان فليتأمل»[(٥)].

* عن ابن عمرو عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»[(٦)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «الظاهر أنه ﷺ أخبر أن الاستمتاعات الدنيوية كلها حقيرة لا يعبأ بها. وكذلك أنه تعالى لما ذكر أصنافها وأنواعها وسائر ملاذها في قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ أتبعه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ثم قال بعده: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ فنبه على أنها تضاد ما عند اللَّه تعالى من حسن الثواب، وخص منها المرأة وقيدها

---

(١) البقرة: الآية (٢٠١).
(٢) تفسير المنار (٣/ ٢٤٦).
(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٨٥) والنسائي (٧/ ٧٢/ ٣٩٤٩) وصححه الحاكم (٢/ ١٢٠) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وحسنه الحافظ في التلخيص الحبير (٣/ ١١٦).
(٤) فيض القدير (٣/ ٣٧١).
(٥) حاشية سنن النسائي (٧/ ٧٤).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٨) ومسلم (٢/ ١٠٩٠/ ١٤٦٧) والنسائي (٦/ ٣٧٧/ ٣٢٣٢) وابن ماجه (١/ ٥٩٦/ ١٨٥٥).

بالصالحة؛ ليؤذن بأنها شرها لو لم تكن على هذه الصفة، ومن ثمة قدمها في الآية على سائرها. وورد في حديث أسامة: «**ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء**»»[١][٢].

قال ابن الجوزي: «وصلاح المرأة دينها، وصاحبة الدين تجتنب الأنجاس والأوساخ، وتحسن أخلاقها، وتصبر على جفاء زوجها، وقلة نفقته، ولا تخونه في ماله، فيطيب لذلك عيشه»[٣].

وقال المناوي: «قال الحرالي: فيه إيماء إلى أنها أطيب حلال في الدنيا؛ أي: لأنه سبحانه زين الدنيا بسبعة أشياء ذكرها بقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ الآية، وتلك السبعة هي ملاذها وغاية آمال طلابها، وأعمها زينة وأعظمها شهوة النساء؛ لأنها تحفظ زوجها عن الحرام، وتعينه على القيام بالأمور الدنيوية والدينية، وكل لذة أعانت على لذات الآخرة فهي محبوبة مرضية لله، فصاحبها يلتذ بها من جهة تنعمه وقرة عينه بها، ومن جهة إيصالها له إلى مرضاة ربه وإيصاله إلى لذة أكمل منها»[٤].

* عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: **إِنَّ هَذَا الْمَالَ** -وَرُبَّمَا قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ لِي: **يَا حَكِيمُ: إِنَّ هَذَا الْمَالَ- خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ. وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى**[٥].

★ غريب الحديث:

خضرة حلوة: أي: غضة ناعمة طرية.

ومن أخذه بإشراف نفس منه: يقال: أشرفت الشيء؛ أي: علوته، وأشرفت

---

(١) أحمد (٥/ ٢٠٠) والبخاري (٩/ ١٧١/ ٥٠٩٦) ومسلم (٤/ ٢٠٩٨/ ٢٧٤١) والترمذي (٥/ ٩٥/ ٢٧٨٠) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٦٤/ ٩١٥٣) وابن ماجه (٢/ ١٣٢٥/ ٣٩٩٨).

(٢) شرح الطيبي (٧/ ٢٢٥٩).

(٣) كشف المشكل (٤/ ١٢٩).

(٤) فيض القدير (٣/ ٥٤٨-٥٤٩).

(٥) أحمد (٣/ ٤٣٤) والبخاري (١١/ ٣١١/ ٦٤٤١) ومسلم (٢/ ٧١٧/ ١٠٣٥) والترمذي (٤/ ٥٥٣/ ٢٤٦٣) والنسائي (٥/ ٦٤-٦٥/ ٢٥٣٠).

عليه: اطلعت عليه من فوق. أراد ما جاءك منه وأنت غير مطلع إليه ولا طامع فيه.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن أبي جمرة: «ظاهر الحديث يدل على أن أخذ المال بسخاوة النفس بركة فيه وأخذه بإشراف النفس عدم البركة فيه».

وقال أيضًا: «وفيه دليل على حب النفوس المال لما جبلت عليه بمقتضى الحكمة الربانية، يؤخذ ذلك من قوله: «**إن هذا المال حلوة خضرة**» وهذه كناية عن الشيء المستحسن المحبوب يؤيده قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾. وجاء عن عمر رضي الله عنه أنه قال: اللهم إني لا أستطيع أن لا أحب ما زينته لنا، فاجعلني ممن آخذه من وجهه وأنفقه فيما يرضيك»[1] أو كما قال.

وقال أيضًا: «وفيه دليل على أنه قد يقع الزهد مع الأخذ وتكون فيه فوائد منها أجر الزهد ومنها راحة النفس ومنها البركة في الرزق».

وقال أيضًا: «-وفيه- أن الزهد يجتمع فيه خير الدنيا والآخرة، فأما خير الدنيا فما يحصل له من البركة في الحطام الذي يطلبه الحريص ولا يصل إليه، وراحة القلب والبدن اللذين قد حرمهما صاحب الدنيا وهما حقيقة النعيم فيها. وأما الآخرة فما يتحصل له من ثواب الزهد هناك وقلة الحساب، فإن الزهد يحمله على إخراج الواجبات والتوقف في المتشابهات وهي السعادة التامة. والذي يطلب الدنيا يخسر الدنيا والآخرة فأما خسارته الدنيا فتعب قلبه وبدنه... وهذه غاية في الشقاء والتعب وخسارته ما أمل منها من زيادة حطامها لكونه ترفع له البركة كما تقدم في قوله ﷺ: «**بإشراف نفس**» وهو الحرص، وهذا غاية في الحرمان لأنه تعب التعب الكلي وحرم ما أمله. ونجد ذلك في عالم الحس ترى طعام أهل الدنيا كثيرا في العين وعند الأكل ما تجد الشبع منه إلا من شيء كثير والقوى بالنسبة إلا ما أكلوا قليلة وطعام أهل التوفيق والزهد في مرأى العين يسير ويأكل منه الجمع الكثير

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (٢/ ٦٠٧/ ٣٢٥١) بلفظ: «.. فإنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا، واللهم فاجعلنا ننفقه في حق، وأعوذ بك من شره».

ويشبعون ويجدون من القوى الكثيرة بالنسبة إلى ما أكلوا ومع ما أهل الدنيا فيه من التعب يتولد بينهم الحسد والضغائن والغيبة والشح بمنع الحقوق أو بعضها أو توفيتها، وعلى هذه الصفات مع التسامح في المشكلات يترتب خسارة الآخرة أعاذنا اللَّه منها بمنه مع العذاب والهوان».

وقال أيضًا: «وفيه دليل على جواز ضرب المثل فيما لا يمكن السامع أن يعقله حتى يعلم أنه يعقله من الأمثلة التي يغلب على الظن أنه يعرفها، يؤخذ ذلك من قوله ﷺ «**كالذي يأكل ولا يشبع**» لأن الغالب من الناس لاسيما في زماننا لا يعرفون البركة إلا بالشيء الكثير فأراد ﷺ أن يبين لهم بالمثال الذي يعرفونه أن البركة هي خلق من خلق اللَّه، ليست كما يزعمون، وضرب لهم المثل بما يعرفه كل أحد وهو أنه لا يقصد أحد الأكل إلا من أجل أن يشبع ويزيل به ألم الجوع، فإذا أكل الأكل الكثير ولم يشبع فكان ما أكله من الطعام مخسورًا؛ لأن الفائدة التي من أجلها استعمل الطعام وهي الشبع لم يجدها، فكذلك المال ليس الفائدة في عينه وإنما يراد لما يتوصل به من الفوائد، فإذا كثر المال ولم يجد به من الفوائد ما أرادها فكأن لا مال حاضر، وذلك موجود محسوس في أبناء الدنيا والآخرة تجد أبناء الدنيا لا يقدرون أن يصلوا إلى ضروراتهم إلا بالأموال الكثيرة، فلما رأوا ذلك لم تكن همتهم إلا في تكثير المال وغاب عنهم ما وراء ذلك، وجاء أهل الآخرة فبلغوا تلك الضرورات التي لم ينلها أهل الدنيا إلا بالأموال الكثيرة بأقل الأشياء، وربما كانت أحسن منها، هذا موجود كثير لمن تأمله ونظره»[(١)].

قال الحافظ: «وفيه: الحض على إعطاء المسكين واليتيم وابن السبيل، وفيه: أن المكتسب للمال من غير حله لا يبارك له فيه لتشبيهه بالذي يأكل ولا يشبع، وفيه: ذم الإسراف وكثرة الأكل والنهم فيه، وأن اكتساب المال من غير حله وكذا إمساكه عن إخراج الحق منه سبب لمحقه فيصير غير مبارك كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[(٢)]»[(٣)].

---

(١) بهجة النفوس (٢/ ١٥٠-١٥١).

(٢) البقرة: الآية (٢٧٦).

(٣) الفتح (١١/ ٢٩٩).

قال القرطبي: «قوله: «**ولم يبارك له فيه**»؛ أي: لا ينتفع به صاحبه؛ إذ لا يجد لذة نفقته، ولا ثواب صدقته، بل يتعب بجمعه، ويذم بمنعه، ولا يصل إلى شيء من نفعه. ولا شك في أن الحرص على المال وعلى الحياة الدنيا مذموم، مفسد للدين، كما قال ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»[(1)]»[(2)].

* **تنبيه**: سيأتي ذكر الخيل وفضلها في سورة الأنفال عند قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[(3)].

* * *

---

(١) أحمد (٣/ ٤٦٠) والترمذي (٤/ ٥٠٨/ ٢٣٧٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى كما في التحفة (٨/ ٣١٦) وابن حبان (٨/ ٢٤/ ٣٢٢٨) كلهم من حديث كعب بن مالك ﷺ.

(٢) المفهم (٣/ ٨١-٨٢).

(٣) الأنفال: الآية (٦٠).

قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه-: قل يا محمد للناس الذين زُيِّن لهم حب الشهوات من النساء والبنين، وسائر ما ذكر ربنا -جل ثناؤه-: ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾، أأخبركم وأعلمكم ﴿بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾؛ يعني: بخير وأفضل لكم ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾؛ يعني: مما زُيِّن لكم في الدنيا حبُّ شهوته من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وأنواع الأموال التي هي متاع الدنيا..

ومعنى قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾، للذين خافوا اللَّه فأطاعوه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه. ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ يعني: بذلك: لهم جنات تجري من تحتها الأنهار عند ربهم.

«والجنات»، البساتين، وقد بينا ذلك بالشواهد فيما مضى، وأنّ قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ يعني: به: من تحت الأشجار، وأن الخلود فيها دوام البقاء فيها، وأن الأزواج المطهرة، هن نساء الجنة اللواتي طُهِّرن من كل أذًى يكون بنساء أهل الدنيا، من الحيض والمنيّ والبَوْل والنفاس وما أشبه ذَلك من الأذى- بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع.

وقوله: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: ورضى اللَّه، وهو مصدر من قول القائل: رَضي اللَّه عن فلان، فهو يَرْضى عنه رضًى منقوص، ورِضْوانًا ورُضْوانًا ومَرْضاةً. فأما الرُّضوان -بضم الراء- فهو لغة قيس، وبه كان عاصم يقرأ.

قال أبو جعفر: وإنما ذكر اللَّه -جل ثناؤه- فيما ذكر للذين اتقوا عنده من الخير رضْوانَه؛ لأن رضوانه أعلى منازل كرامة أهل الجنة..

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾؛ يعني: بذلك: واللهُ ذو بصر بالذي يتقيه من عباده فيخافه فيطيعه، ويؤثر ما عنده مما ذَكر أنه أعدّه للذين اتقوه على حُبّ ما زُيِّنَ له في عاجل الدنيا من شهوات النساء والبنين وسائر ما عدّد منها -تعالى ذكره-، وبالذي لا يتقيه فيخافه، ولكنه يعصيه ويطيع الشيطان ويؤثر ما زيِّن له في الدنيا من حب شهوة النساء والبنين والأموال، على ما عنده من النعيم المقيم، عالمٌ -تعالى ذكره- بكلّ فريق منهم، حتى يجازي كلَّهم عند معادهم إليه جزاءَهم، المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته»[1].

قال ابن عطية: «في هذه الآية تسلية عن الدنيا وتقوية لنفوس تاركيها، وذكر تعالى حال الدنيا وكيف استقر تزيين شهواتها، ثم جاء الإنباء بخير من ذلك، هازًّا للنفوس وجامعًا لها لتسمع هذا النبأ المستغرب النافع لمن عقل»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «الآية بيان وتفصيل لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ وبدأه بالاستفهام لأجل توجيه النفوس إلى الجواب، وتشويقها إليه، والتنبئةُ بالشيء التخبيرُ به، كالإنباء بمعنى الإخبار، وقال في «الكليات»: (النبأ والإنباء لم يردا في القرآن إلا لما له وقع، وشأن عظيم)، وعلى هذا يكون التعبير بمادة النبأ تشويقًا آخر. وقوله: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من النساء والبنين وسائر الشهوات المذكورة في الآية السابقة. وكون ما سيأتي جواب الاستفهام خيرًا من تلك الشهوات يشعر بأن تلك الشهوات خير في نفسها أو ليست بِشر، والصواب أنها خير، ومن أجلّ نعم اللَّه تعالى على الناس، وإنما يعرض الشر فيها كما يعرض في سائر نعمه تعالى على الناس في أنفسهم كحواسهم وعقولهم وفي غيرها حتى في الشريعة، فالذي يسرف في حبّ النساء حتى يعطي امرأة أو ولدها حق غيرهما أو يهمل لأجلها تربية ولده من غيرها، أو يترك حق اللَّه وطاعته تقربًا إليها، أو يعتدي في ذلك بأن يحب امرأة غيره، هو كمن يستعمل عقله في استنباط الحيل لهضم حقوق الناس وإيذائهم، أو يحتال في نصوص الشريعة ويؤولها حتى يفوت الغرض من الأحكام، وتترك الفرائض وتهدم الأركان، فسوء سلوك الناس في الانتفاع

---

(١) جامع البيان (٦/ ٢٥٩-٢٦٣ شاكر).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٤١٠).

بالنعم لا يدل على أن النعم شرّ في ذاتها، ولا كون حبّها شرًّا مع القصد والوقوف عند حدود الشريعة والفطرة في ذلك.

أما الجواب عن الاستفهام فهو قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ جعل ما أعده للمتقين من الجزاء على التقوى نوعين: نوعًا جسمانيًّا نفسيًّا وهو الجنات وما فيها من الخيرات والأزواج المطهرات مما يعهد في نساء الدنيا من الشوائب، ونوعًا روحانيًّا عقليًّا وهو رضوان اللَّه تعالى.. ولا يخفى ما في إضافة لفظ (رب) إلى ضمير المتقين من الإشعار بفضلهم وعناية مَن ربّاهم بعنايته وتوفيقه بشأنهم. وأما الرضوان فهو مصدر بمعنى الرضا مع ما في زيادة المبنى من المبالغة في المعنى، فكأنه قال: ورضوان عظيم من اللَّه لا يشوبه ولا يعقبه سخط، وفي سورة التوبة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١) وفي هذا من تفضيل الرضوان على نعيم الجنات وما فيها ما لا غاية وراءه، وفي سورة الحديد: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾(٢)، وهذه الآية أوجز من الآية التي نفسرها، على أنها في موضوعها، وفيها من زيادة الفائدة بيان جزاء المسرفين والمعتدين في هذه الشهوات الدنيوية الذين تشغلهم عن حقوق اللَّه، وتحملهم على هضم حقوق خلقه، وجزاء المقتصدين الذين يتقون اللَّه في تمتعهم، ولا ينسون اللَّه ولا الدار الآخرة»(٣).

* * *

(١) التوبة: الآية (٧٢).

(٢) الحديد: الآية (٢٠).

(٣) تفسير المنار (٣/ ٢٤٧-٢٤٩).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ومعنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: الذين يقولون: إننا صدّقنا بك وبنبيك وما جاء به من عندك، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، يقول: فاستر علينا ذنوبنا، بعفوك عنها، وتركك عقوبتنا عليها، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، ادفع عنا عذابك إيانا بالنار أن تعذبنا بها. وإنما معنى ذلك: لا تعذبنا يا ربنا بالنار.

وإنما خَصّوا المسألةَ بأن يقيهم عذاب النار؛ لأن من زُحزح يومئذ عن النار فقد فاز بالنجاة من عذاب اللّه وحسن مآبه.

وأصل قوله: ﴿قِنَا﴾ من قول القائل: وقى اللّه فلانًا كذا، يراد: دفع عنه، فهو يقيه. فإذا سأل بذلك سائلٌ قال: قِنِي كذا»[١].

قال ابن كثير: «يصف تعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي: بك وبكتابك وبرسولك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي: بإيماننا بك وبما شرعته لنا فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾»[٢].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ عطف بيان ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ وصفهم بالتقوى وبالتوجّه إلى اللّه تعالى بطلب المغفرة. ومعنى القول هنا الكلامُ المطابق للواقع في الخبرِ، والجاري على فرط الرغبة في الدعاء، في قولهم: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إلخ، وإنّما يجري كذلك إذا سعى الداعي في وسائل الإجابة وترقّبها بأسبابها التي ترشد إليها التقوى، فلا يُجازَى هذا الجزاءَ من قال ذلك بفمه ولم

---

(١) جامع البيان (٦/ ٢٦٣-٢٦٤ شاكر).

(٢) التفسير (٢/ ١٧).

يَعمل له»[١].

وقال السعدي: «أي: هؤلاء الراسخون في العلم، أهل العلم والإيمان، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم، لمغفرة ذنوبهم، ووقايتهم عذاب النار، وهذا من الوسائل التي يحبها اللَّه، أن يتوسل العبد إلى ربه، بما مَنَّ به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، إلى تكميل نعم اللَّه عليه، بحصول الثواب الكامل، واندفاع العقاب»[٢].

* * *

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٨٤-١٨٥).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٣٦٣).

قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ۝١٧﴾

★ **غريب الآية:**

القانتين: القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع.

الأسحار: جمع سحر وهو الوقت الذي قبل طلوع الفجر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ أي: في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات، ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة، ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ والقنوت: الطاعة والخضوع، ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾ أي: من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات، وصلة الأرحام والقرابات، وسد الخلات، ومواساة ذوي الحاجات، ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار»[1].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الآية. صفات للذين اتّقوا، أو صفات للذين يقولون، والظاهر الأوّل. وذكر هنا أصول فضائل صفات المتديّنين: وهي الصبر الذي هو ملاك فعل الطاعات وترك المعاصي. والصدق الذي هو ملاك الاستقامة وبثّ الثقة بين أفراد الأمة.

والقنوت: وهو ملازمة العبادات في أوقاتها وإتقانها وهو عبادة نفسية جسدية.

والإنفاق: وهو أصل إقامة أوَد الأمة بكفاية حاج المحتاجين، وهو قربة مالية والمال شقيق النفس.

وزاد الاستغفار بالأسحار: وهو الدعاء والصلاة المشتملة عليه في أواخر

(١) التفسير (٢/ ١٨).

الليل، والسحر سُدس الليل الأخير؛ لأنّ العبادة فيه أشدّ إخلاصًا، لما في ذلك الوقت من هدوء النفوس، ولدلالته على اهتمام صاحبه بأمر آخرته، فاختار له هؤلاء الصادقُون آخرَ الليل؛ لأنّه وقت صفاء السرائر، والتجرّد عن الشواغل»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «قال الأستاذ الإمام: وصف اللَّه المتقين بهذه الصفات التي استحقوا بها تلك الدرجات، وهو الظاهر على القول بأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ وصف للذين اتقوا، وكذا على القول بأنه منصوب على المدح. أما على القول بأنه استئناف بياني فالمراد بالوصف الوصف بالمعنى. ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ منصوب على المدح أو الاختصاص ليس كلامًا مقطوعًا مفصولًا مما قبله كما يوهمه تقدير الفعل له، وإنما هو أسلوب بليغ في إيراد الصفة معربة بغير إعراب الموصوف، ووجه البلاغة فيه من ثلاثة أوجه: أحدها لفظي، والآخران معنويان، أما اللفظي فهو أن اختلاف الإعراب يحدث في الذهن حركة جديدة فينتبه فضل انتباه إلى الكلام الجديد، وأما المعنويان، فأحدهما بيان مزية خاصة في المقام لما به المدح، كأن يقال هنا في التقدير، وأمدح من هؤلاء الذين يقولون ربنا إننا آمنا؛ الصابرين والصادقين إلخ. كأنه يشهد لهم بأنهم بهذه الصفات امتازوا على سائر المؤمنين وصاروا أحق بذلك الوعد. وثانيها تقرير أن هذه الصفات ممدوحة في ذاتها»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة النزول وذكر المنفقين والمستغفرين بالأسحار

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ينزل ربنا -تبارك وتعالى- كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٨٥). (٢) تفسير المنار (٣/ ٢٥١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨٧) والبخاري (٣/ ٣٦/ ١١٤٥) ومسلم (١/ ٥٢١/ ٧٥٨) وأبو داود (٢/ ٧٦-٧٧/ ١٣١٥) والترمذي (٢/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٤٤٦) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٢٠/ ٧٧٦٨) وابن ماجه (١/ ٤٣٥/ ١٣٦٦).

★ **فوائد الحديث:**

إثبات صفة النزول لله تعالى، وهي من الصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته.

قال أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب ﷻ كل ليلة إلى السماء الدنيا، من غير تشبيه له بنزول المخلوقين، ولا تمثيل، ولا تكييف، بل يثبتون ما أثبته رسول الله ﷺ، وينتهون فيه إليه، ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره، ويكلون علمه إلى الله»[1].

وقال عثمان بن سعيد الدارمي في نقضه على المريسي: «وأعجب من ذلك قولك فيما ادعيت على أبي معاوية[2] في تفسير هذا النزول، ثم قلت: ويحتمل ما قال أبو معاوية: أن نزوله أمره وسلطانه، كما ترون القرآن يجيء يوم القيامة شافعا مشفعًا وماحلًا مصدقًا، فقالوا: معنى ذلك أنه ثوابه. فإن جاز لهم هذا التأويل في القرآن جاز لنا أن نقول: إن نزوله أمره ورحمته.

فيقال لهذا المعارض: لقد قست بغير أصل ولا مثال؛ لأن العلماء قد علموا أن القرآن كلام. والكلام لا يقوم بنفسه شيئًا قائما حتى تقيمه الألسن ويستلين عليها، وإنه بنفسه لا يقدر على المجيء والتحرك والنزول بغير منزل ولا محرك، إلا أن يؤتى به وينزل. والله تعالى حي قيوم، ملك عظيم، قائم بنفسه، في عزه وبهائه يفعل ما يشاء كما يشاء وينزل بلا منزل ويرتفع بلا رافع، ويفعل ما يشاء بغير استعانة بأحد، ولا حاجة فيما يفعل إلى أحد، ولا يقاس الحي القيوم الفعال لما يشاء بالكلام الذي ليس له عين قائم حتى تقيمه الألسن، ولا له أمر ولا قدرة ولا إرادة ولا يستبين إلا بقراءة القراء.

أرأيت إن كان نزوله: أمره ورحمته فما بال أمره ورحمته لا ينزل إلا في ثلث الليل، ثم إلى السماء الدنيا؟ وما بال أمره ورحمته في دعواك لا ينزل إلى الأرض حيث مستقر العباد، ممن يريد الله أن يرحمه ويجيب ويعطي. فما بالها تنزل إلى السماء الدنيا، ثم لا تجوزها؟ وما بال رحمته تبقى على عباده من ثلث الليل إلى انفجار الفجر ثم ترجع من حيث جاءت بزعمك؟.

---

(١) عقيدة السلف وأصحاب الحديث (ص: ١٩١).

(٢) هو محمد بن خازم الضرير الكوفي، من كبار التاسعة، مات سنة ٩٥ هـ.

وما باله إذ اللَّه بزعمك في الأرض، فإذا استرحمه عباده واستغفروه وتضرعوا إليه بعد عنهم رحمته إلى السماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام، ولا يغشيهم إياها وهو معهم في الأرض بزعمك؟ إذ زعمت أن نزوله تقريب رحمته إياهم كقوله الآخر: «**من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا، ومن تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا**»(١) فقلت: هذا تقرب بالرحمة.

ففي دعواك في تفسير النزول: من تقرب إليه شبرًا تباعد هو عنه مسيرة ما بين الأرض إلى السماء، وكلما ازداد العباد إلى اللَّه اقترابًا تباعد هو برحمته عنهم بعد ما بين السماء والأرض بزعمك.

لقد علمت أيها الجاهل أن هذا تفسير محال يدعو إلى ضلال، والحديث نفسه يبطل هذا التفسير ويكذبه، غير أنه أغيظ حديث للجهمية، وأنقض شيء لدعواهم؛ لأنهم لا يقرون أن اللَّه فوق عرشه، فوق سمواته، ولكنه في الأرض، كما هو في السماء. فكيف ينزل إلى السماء الدنيا من هو تحتها في الأرض؟ وجميع الأماكن منها، ونفس الحديث ناقض لدعواهم وقاطع لحججهم»(٢).

وقال حافظ الحكمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ونحن نشهد شهادة مقر بلسانه مصدق بقلبه مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الرب جل وعلا من غير أن نصف الكيفية؛ لأن نبينا المصطفى ﷺ لم يصف كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا، وأعلمنا أنه ينزل، واللَّه جل وعلا لم يترك ولا نبيه ﷺ بيان ما بالمسلمين إليه الحاجة من أمر دينهم، فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول كما يشاء ربنا وعلى ما يليق بجلاله وعظمته ﷻ، غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية، إذ النبي ﷺ لم يصف لنا كيفية النزول، فنسير بسير النصوص حيث سارت ونقف معها حيث وقفت، لا نعدوها -إن شاء اللَّه تعالى- ولا نقصر عنها. وقد تكلفت جماعة من مثبتي المتكلمين فخاضوا في معنى ذلك وفي ذلك الانتقال وعدمه، وفي خلو

---

(١) أحمد (٢/ ٢٥١) والبخاري (١٣/ ٤٧٣-٤٧٤/ ٧٤٠٥) ومسلم (٤/ ٢٠٦١/ ٢٦٧٥) والترمذي (٥/ ٥٤٢/ ٣٦٠٣) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٢/ ٧٧٣٠) وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥-١٢٥٦/ ٣٨٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) نقض الإمام الدارمي على المريسي (١/ ٤٩٨-٥٠٠).

العرش منه وعدمه نفيًا وإثباتًا، وذلك تكلف منهم، ودخول فيما لا يعنيهم، وهو ضرب من التكييف لم يأت في لفظ النصوص ولم يسأل الصحابة النبي ﷺ عن شيء من ذلك حين حدثهم بالنزول، فنحن نؤمن بذلك ونصدق به كما آمنوا وصدقوا»(١).

فيه: دليل على غفران الذنوب وإجابة الدعوة، ودليل على أن من أجزاء الليل وقتا يجاب فيه الدعاء، ولكن من مقدار ثلث الليل الآخر، وقد قيل: من مقدار نصف الليل إلى آخره، وكل هذا قد روي في أحاديث صحاح، ولم يزل الصالحون يرغبون في الدعاء والاستغفار بالأسحار لهذا الحديث ولقوله ﷻ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾»(٢).

قال الحافظ ابن حجر: «فيه تفضيل صلاة آخر الليل على أوله وأن آخر الليل أفضل للدعاء والاستغفار ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ وأن الدعاء في ذلك الوقت مجاب، ولا يعترض على ذلك بتخلفه عن بعض الداعين لأن سبب التخلف وقوع الخلل في شرط من شروط الدعاء كالاحتراز في المطعم والمشرب والملبس أو لاستعجال الداعي أو بأن يكون الدعاء بإثم أو قطيعة رحم، أو تحصل الإجابة ويتأخر وجود المطلوب لمصلحة العبد أو لأمر يريده الله»(٣).

* عن عائشة ﵂ قالت: «من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ، من أول الليل وأوسطه وآخره، فانتهى وتره إلى السحر»(٤). زاد أبو داود والترمذي وابن ماجه: «**حين مات**».

★ غريب الحديث:

السحر: قبيل الصبح.

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «ويحتمل أن يكون اختلاف وقت الوتر باختلاف الأحوال، فحيث أوتر في أوله لعله كان وجعًا، وحيث أوتر وسطه لعله كان مسافرا، وأما وتره

---

(١) معارج القبول (١/ ٢٦٢).

(٢) التمهيد لابن عبد البر: فتح البر (٢/ ٣٤).

(٣) الفتح (٣/ ٤٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٦) والبخاري (٢/ ٦١٧/ ٩٩٦) ومسلم (١/ ٥١٢/ ٧٤٥(١٣٧))، وأبو داود (٢/ ١٣٩/ ١٤٣٥) والترمذي (٢/ ٣١٨-٣١٩/ ٤٥٦) والنسائي (٣/ ٢٥٦/ ١٦٨٠) وابن ماجه (١/ ٣٧٤/ ١١٨٥).

في آخره فكأنه كان غالب أحواله، لما عرف من مواظبته على الصلاة في أكثر الليل والله أعلم»[١].

فيه: استحباب الإيتار آخر الليل[٢].

*** عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنِ اسْتَجَارَ بِاللَّهِ فَأَجِيرُوهُ، وَمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»**[٣].

★ غريب الحديث:

استعاذ: إذا طلب أحد من أحد أن يدفع عنه شرًّا، وأعاذه إذا دفع عنه الشر الذي يطلب منه دفعه.

استجار: يقال استجاره: طلب منه أن يحفظه، والمستجير الذي يطلب الأمان.

★ فوائد الحديث:

«وجوب إعطاء السائل ما سأله بالله، إذا كان السائل محتاجًا، أو مضطرًّا لذلك، ولم يكن على المسؤول في الإجابة ضرر، ولم يكن السؤال في مكروه أو محرم»[٤].

وفيه: أن من أحسن إليكم أيَّ إحسان فكافئوه بمثله، فإن لم تقدروا على ذلك، فبالغوا في الدعاء له جهدكم حتى تحصل المثلية، ووجه المبالغة أنه رأى من نفسه تقصيرا في المجازاة، فأحالها إلى الله تعالى، ونعم المجازى هو»[٥].

قال الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ: «ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم والجود، وضدهما من البخل والشح. فالأول: محمود في الكتاب والسنة. والثاني: مذموم فيهما. وقد حث

---

(١) الفتح (٢/ ٦١٨).

(٢) شرح مسلم للنووي (٦/ ٢٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٦٨و٩٩) وأبو داود (٢/ ٣١٠/ ١٦٧٢) والنسائي (٥/ ٨٧/ ٢٥٦٦) واللفظ له. وصححه ابن حبان (٨/ ١٩٩/ ٣٤٠٨) والحاكم (١/ ٤١٢) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(٤) الجديد في شرح كتاب التوحيد للقرعاوي (ص: ٤١٦).

(٥) شرح الطيبي (٥/ ١٥٦٦).

اللَّه تعالى عباده على الإنفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه. قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٢٦٧ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةً مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾(١) وقال تعالى: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾(٢) وذلك الإنفاق من خصال البر المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾(٣) الآية. فذكره بعد ذكر أصول الإيمان وقبل ذكر الصلاة. وذلك -واللَّه أعلم- لتعدي نفعه. وذكره تعالى في الأعمال التي أمر بها عباده. وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾(٤).

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء؛ نصحًا للأمة وحثًا لهم على ما ينفعهم عاجلًا وآجلًا. وقد أثنى اللَّه سبحانه على الأنصار ﷿ بالإيثار، فقال تعالى: ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾(٥) والإيثار من أفضل خصال المؤمن كما تفيده هذه الآية الكريمة، وقد قال تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾(٦).

والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة جدًا، ومن كان سعيه للآخرة رغب في هذا ورغب، وباللَّه التوفيق»(٧).

---

(١) البقرة: الآيتان (٢٦٧-٢٦٨).
(٢) الحديد: الآية (٧).
(٣) البقرة: الآية (١٧٧).
(٤) الأحزاب: الآية (٣٥).
(٥) الحشر: الآية (٩).
(٦) الإنسان: الآيتان (٨-٩).
(٧) فتح المجيد (ص: ٣٨٥-٣٨٦).

قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾

★ غريب الآية:

شهد الله: بمعنى قضى اللَّه، ومن صفاته ﷻ أنه شهيد وهو الذي لا يغيب عنه شيء.

القسط: العدل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «شهد تعالى -وكفى به شهيدًا، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم، وأصدق القائلين- ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وأن الجميع عبيده وخلقه، وفقراء إليه، وهو الغني عما سواه. كما قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[1] الآية.

ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام»[2].

قال ابن جرير: «وإنما عنى -جل ثناؤه- بهذه الآية نفي ما أضافت النصارى الذين حاجوا رسول اللَّه ﷺ في عيسى من البنوة، وما نسب إليه سائر أهل الشرك من أن له شريكًا، واتخاذهم دونه أربابًا، فأخبرهم اللَّه عن نفسه، أنه الخالق كل ما سواه، وأنه رب كل ما اتخذه كل كافر وكل مشرك ربا دونه، وأن ذلك مما يشهد به هو وملائكته وأهل العلم به من خلقه، فبدأ -جل ثناؤه- بنفسه تعظيمًا لنفسه، وتنزيها لها عما نسب الذين ذكرنا أمرهم من أهل الشرك به ما نسبوا إليها، كما سن لعباده أن يبدءوا في أمورهم بذكره قبل ذكر غيره، مؤدبًا خلقه بذلك.

---

(١) النساء: الآية (١٦٦).

(٢) التفسير (٢/ ١٨).

والمراد من الكلام: الخبر عن شهادة من ارتضاهم من خلقه، فقدموه من ملائكته وعلماء عباده، فأعلمهم أن ملائكته التي يعظمها العابدون غيره من أهل الشرك، ويعبدها الكثير منهم، وأهل العلم منهم منكرون ما هم عليه مقيمون من كفرهم»[١].

وقال القرطبي: «في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم؛ فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم اللَّه باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء، وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٢] فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ أن يسأله المزيد منه كما أمر أن يستزيده من العلم»[٣].

قال ابن القيم: «استشهد سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه، وهو توحيده فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته.

والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم؛ فإن اللَّه لا يستشهد من خلقه إلا العدول، ومنه الأثر المعروف عن النبي ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله؛ ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[٤].

---

(١) جامع البيان (٦/ ٢٧١-٢٧٢ شاكر).

(٢) طه: الآية (١١٤). (٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٧).

(٤) أخرجه البزار (كشف الأستار: ١/ ٨٦/ ١٤٣) وابن عبد البر في التمهيد (١/ ٥٩) عن أبي قبيل عن عبد اللَّه بن عمرو وأبي هريرة مرفوعا. وأخرجه العقيلي في الضعفاء (٤/ ٢٥٦) وابن عدي في الكامل (١/ ١٤٦) وابن عبد البر في التمهيد (١/ ٥٨-٥٩) والخطيب في شرف أصحاب الحديث (ص: ٢٩)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٩) عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري مرسلا. قال القسطلاني في إرشاد الساري (١/ ١٣): وهذا الحديث رواه من الصحابة علي وابن عمر وابن عمرو وابن مسعود وابن عباس وجابر بن سمرة ومعاذ وأبو هريرة ﵃، وأورده ابن عدي من طرق كثيرة كلها ضعيفة كما صرح به الدارقطني وأبو نعيم وابن عبد البر، لكن يمكن أن يتقوى بتعدد طرقه ويكون حسنًا كما جزم به ابن كيكلدى العلائي.

وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبة : رأيت رجلًا قدم رجلًا إلى إسماعيل بن إسحاق القاضي ، فادعى عليه دعوى ، فسأل المدعى عليه ، فأنكر ، فقال للمدعي : ألك بينة؟ قال : نعم ، فلان وفلان ، قال : أما فلان فمن شهودي ، وأما فلان فليس من شهودي ، قال : فيعرفه القاضي؟ قال : نعم ، قال : بماذا؟ قال : أعرفه بكتب الحديث ، قال : فكيف تعرفه في كتبه الحديث؟ قال : ما علمت إلا خيرًا ، قال : فإن النبي ﷺ قال : «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله**» ، فمن عدله رسول اللَّه ﷺ أولى ممن عدلته أنت ، فقال : قم فهاته ، فقد قبلت شهادته . . .

الخامس : أنه وصفهم بكونهم أولي العلم ، وهذا يدل على اختصاصهم به ، وأنهم أهله وأصحابه ليس بمستعار لهم .

السادس : أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجل شاهد ، ثم بخيار خلقه وهم ملائكته ، والعلماء من عباده ويكفيهم بهذا فضلًا وشرفًا .

السابع : أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره ، وهو شهادة أن لا إله إلا اللَّه ، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم .

الثامن : أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين ، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده .

التاسع : أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر على شهادته ، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته ، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم ، وأنطقهم بهذه الشهادة ، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقًا وتعليمًا ، وهم الشاهدون بها له إقرارًا واعترافًا وتصديقًا وإيمانًا .

العاشر : أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة ، فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به ، فثبت الحق المشهود به ، فوجب على الخلق الإقرار به ، وكان ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم ، وكل من ناله الهدى بشهادتهم ، وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره .

وهذا فضل عظيم لا يدري قدره إلا اللَّه ، وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم

فلهم من الأجر مثل أجره أيضًا»[١].

وقال السعدي: «هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة، وأهل العلم، على أجل مشهود عليه، وهو توحيد اللَّه، وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع، وجميع أحكام الجزاء.

فإن الشرع والدين، أصله وقاعدته توحيد اللَّه وإفراده بالعبودية، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء، والمجد، والعز، والقدرة، والجلال، وبنعوت الجود، والبر والرحمة، والإحسان، والجمال، وبكماله المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه، أو يصلوا إلى الثناء عليه، والعبادات الشرعية، والمعاملات وتوابعها، والأمر والنهي، كله عدل وقسط، لا ظلم فيه ولا جور، بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة، كله قسط وعدل ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾[٢] فتوحيد اللَّه، ودينه، وجزاؤه، قد ثبت ثبوتًا لا ريب فيه، وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام اللَّه على ذلك من البراهين والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء؛ لأن اللَّه خصهم بالذكر، من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة.

وفي ضمن ذلك: تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقادر قدره»[٣].

قلت: هذا مدح عظيم للعلماء في هذه الآية حيث قرنت شهادتهم مع شهادة اللَّه وملائكته في أعظم ما خُلق العباد من أجل تحقيقه، وهو توحيده -تبارك وتعالى- في عبوديته وربوبيته، وفي أسمائه وصفاته، هذا المدح إنما هو لعلماء يحملون صفات

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٩-٢٢١).

(٢) الأنعام: الآية (١٩).

(٣) تفسير السعدي (١/ ٣٦٤-٣٦٥).

تليق بعلمهم، من علم نافع وفهم صحيح، وإخلاص وسلوك، لا علم كلام وعلم رفض وهرطقة متصوفة، وتعصب المتمذهبين وعلماء السلاطين، والمرتزقة الذين باعوا آخرتهم بدنياهم، الذين يلهثون وراء كل مصلحة تنفع ذاتهم، فكل هؤلاء لا تعنيهم الآية، لا من قريب ولا من بعيد، فهم مذمومون بآيات القرآن وعلى لسان النبي الكريم «**من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه اللَّه لا يتعلمه إلا ليصيب به عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة**»[1] فليس كل من أظهر علمًا هو داخل في هذا المدح؛ بل هو للعلماء الصادقين المخلصين، نسأل اللَّه أن يجعلنا منهم، وأن يجنبنا الزلل والخلل، ويرزقنا العلم النافع والعمل الصالح.

* * *

(١) أخرجه من حديث أبي هريرة ﷺ: أحمد (٢/ ٣٣٨)، وأبو داود (٤/ ٧١/ ٣٦٦٤)، وابن ماجه (١/ ٩٢-٩٣/ ٢٥٢)، وصححه ابن حبان (١/ ٢٧٩/ ٧٨)، والحاكم (١/ ٨٥) على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾

★ **غريب الآية:**

بغيًا: البغي طلب الاستعلاء بالظلم، وأصله من بغيت الحاجة إذا طلبتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «دل قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه. قال أول الرسل نوح: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾(١) وقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾(٢) ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾(٣) وقال يعقوب لبنيه عند الموت: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ﴾ إلى قوله ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾(٤) وقال موسى لقومه: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾(٥) وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾(٦) وقالت ملكة سبأ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(٧).

فالإسلام دين أهل السموات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد دينا سواه، فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن، وخمسة للشيطان،

---

(١) يونس: الآية (٧٢).
(٢) البقرة: الآية (١٢٨).
(٣) البقرة: الآية (١٣٢).
(٤) البقرة: الآية (١٣٣).
(٥) يونس: الآية (٨٤).
(٦) آل عمران: الآية (٥٢).
(٧) النمل: الآية (٤٤).

فدين الرحمن: هو الإسلام، والتي للشيطان: اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة ودين المشركين»[١].

وقال ابن كثير: «إخبار من اللَّه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم اللَّه به في كل حين، حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي اللَّه بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته، فليس بمتقبل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٢] الآية وقال في هذه الآية مخبرًا بانحصار الدين المتقبل عنده في الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾»[٣].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته صلوات اللَّه وسلامه عليه إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث»[٤].

قال السعدي: «يخبر تعالى أن الدين عند اللَّه؛ أي: الدين الذي لا دين لله سواه، ولا مقبول غيره، هو الإسلام، وهو الانقياد لله وحده، ظاهرًا وباطنًا بما شرعه على ألسنة رسله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[٥] فمن دان بغير دين الإسلام، فهو لم يدن لله حقيقة؛ لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على ألسنة رسله.

ثم أخبر تعالى، أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا فانحرفوا عنه عنادًا وبغيًا، وإلا فقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف الموجب للزوم الدين الحقيقي.

ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغي والكفر بآيات اللَّه هي التي صدتهم عن اتباع الحق.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾؛ أي: فلينتظروا ذلك فإنه آت، وسيجزيهم اللَّه بما كانوا يعملون»[٦].

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٧٦).
(٢) آل عمران: الآية (٨٥).
(٣) التفسير (٢/ ١٩).
(٤) التفسير (٢/ ٢٠).
(٥) آل عمران: الآية (٨٥).
(٦) تفسير السعدي (١/ ٣٦٦).

قلت: وهذه التعبيرات من هؤلاء العلماء السلفيين الإمام ابن القيم وابن كثير والسعدي يتلخص منها أن الدين واحد، لا يمكن أن يتجزأ، وهو التوحيد، وهو دين جميع الأنبياء والرسل، وهو دعوتهم التي دعوا إليها، فمن دعا إلى غير دعوتهم فدعوته باطلة، ومن انحرف عن هذه الدعوة من اليهود والنصارى والذين انتسبوا إلى الإسلام ودعوا معه غيره من الأنبياء والرسل والصالحين من هذه الأمة أو القبور والأحجار والأشجار فدعوتهم باطلة.

ومن دعا إلى غير شريعة محمد ﷺ بعد بعثته، ونسخ كتابه لما سبق من الكتب، وإبطال كل شريعة غير شريعته؛ فدعوته باطلة، ولذلك فكل ما يسمع من مؤتمرات وندوات ولقاءات فيما يسميه الكفرة بتقريب الأديان ومعانقتها فهي دعوة باطلة، يقصد بها الإطاحة بدين محمد ﷺ، وتشويه دينه والتقليل من شأنه، فهو في نظرهم كبقية الديانات المنسوخة التي العمل بها من أبطل الباطل، ومن عبث العابثين، بل دعاتها من أكبر المفسدين.

وقال ابن عاشور: «.. وقد جاءت الآية على نظم عجيب يشتمل على معانٍ:

منها: التحذير من الاختلاف في الدين؛ أي: في أصوله، ووجوب تطلّب المعاني التي لا تناقض مقصد الدين، عبرة بما طرأ على أهل الكتاب من الاختلاف.

ومنها: التنبيه على أنّ اختلاف أهل الكتاب حصل مع قيام أسباب العلم بالحق، فهو تعريض بأنّهم أساءوا فهم الدين.

ومنها: الإشارة إلى أنّ الاختلاف الحاصل في أهل الكتاب نوعان: أحدهما: اختلاف كل أمة مع الأخرى في صحة دينها كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[1]، وثانيهما: اختلاف كل أمة منهما فيما بينها وافتراقها فرقًا متباينةَ المنازع. كما جاء في الحديث: «**اختلفت اليهود على اثنتين وسبعين فرقة**»[2] يُحَذِّر المسلمين ممّا صنعوا.

ومنها: أنّ اختلافهم ناشئ عن بغي بعضهم على بعض.

---

(١) البقرة: الآية (١١٣).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٣٢) وأبو داود (٥/ ٤/ ٤٥٩٦) والترمذي (٥/ ٢٥/ ٢٦٤٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ١٣/ ٢١/ ٣٩٩١) وصححه ابن حبان الإحسان: (١٤/ ١٤٠/ ٦٢٤٧) والحاكم (١/ ١٦٨) على شرط مسلم ووافقه الذهبي. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. انظر الصحيحة (رقم ح: ٢٠٣و٢٠٤).

ومنها: أنّهم أجمعوا على مخالفة الإسلام والإعراض عنه بغيًا منهم وحسدًا، مع ظهور أحقّيته عند علمائهم وأحبارهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾[2]؛ أي: أعرضوا عن الإسلام، وصمّموا على البقاء على دينهم، وودّوا لو يردّونكم إلى الشرك أو إلى متابعة دينهم حسدًا على ما جاءكم من الهُدى بعد أن تبيّن لهم أنّه الحق.

ولأجل أن يسمح نظم الآية بهذه المعاني، حُذِف متعلِّق الاختلاف في قوله: ﴿ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ليشمل كلّ اختلاف منهم من مخالفة بعضهم بعضًا في الدين الواحد، ومخالفة أهل كلّ دين لأهل الدين الآخر، ومخالفة جميعهم للمسلمين في صحّة الدين.

وحُذف متعلّق العلم في قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ﴾ لذلك.

وجُعل ﴿بَغْيًۢا﴾ عقب قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ ليتنازعه كلٌّ من فعل ﴿ٱخْتَلَفَ﴾ ومن لفظ ﴿ٱلْعِلْمُ﴾.

وأُخّر ﴿بَيْنَهُمْ ۗ﴾ عن جميع ما يصلح للتعليق به: ليتنازعه كلّ من فعل ﴿ٱخْتَلَفَ﴾ وفِعل ﴿جَآءَهُمُ﴾ ولفظِ ﴿ٱلْعِلْمُ﴾ ولفظ ﴿بَغْيًۢا﴾.

وبذلك تعلم أنّ معنى هذه الآية أوسع معانيَ من معاني قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[3] كما ذكرناه في ذينك الموضعين لاختلاف المقامين»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عموم رسالة النبي ﷺ

* عن أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به**

---

(١) البقرة: الآيتان (١٤٦و١٤٧).
(٢) البقرة: الآية (١٠٩).
(٣) البينة: الآية (٤).
(٤) التحرير والتنوير (٣/ ١٩٧-١٩٨).

إلا كان من أصحاب النار»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «والمراد به -أي: الأمة- في هذا الحديث: كل من أرسل إليه محمد ﷺ، ولزمته حجته سواء صدقه أو لم يصدقه، ولذلك دخل فيه اليهودي والنصراني، لكن هذا على مساق حديث مسلم هذا، فإنه قال فيه: «**لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني**» بغير واو العطف فإنه يكون بدلا من الأمة، وقد روى هذا الحديث عبد بن حميد وقال: «**لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني**»[٢]. فحينئذ لا يدخل اليهودي ولا النصراني في الأمة المذكورة، والله تعالى أعلم»[٣].

وفيه: دليل على أن من في أطراف الأرض وجزائر البحر المقطعة ممن لم تبلغه دعوة الإسلام ولا أمر النبي ﷺ أن الحرج عنه في عدم الإيمان به ساقط لقوله: «**لا يسمع بي**»، إذ طريق معرفته والإيمان به ﷺ مشاهدة معجزته وصدقه أيام حياته، أو صحة النقل بذلك الخبر لمن لم يشاهده وجاء بعده، بخلاف الإيمان بالله وتوحيده الذي يوصل إليه بمجرد النظر الصحيح ودليل العقل السليم»[٤].

❋ عن أنس ﷺ قال: «أن غلامًا من اليهود كان يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده وهو بالموت، فدعاه إلى الإسلام، فنظر الغلام إلى أبيه وهو عند رأسه، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم. فأسلم ثم مات، فخرج رسول الله ﷺ من عنده وهو يقول: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**»»[٥].

★ **فوائد الحديث:**

«فيه جواز عيادة أهل الذمة، ولاسيما إذا كان الذمي جارًا له؛ لأن فيه إظهار محاسن الإسلام وزيادة التآلف بهم ليرغبوا في الإسلام»[٦].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٧-٣٥٠) ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٣).

(٢) الحديث بهذا اللفظ أخرجه: أحمد (١/ ٣١٧) وأبو عوانة (١/ ١٠٤).

(٣) المفهم (١/ ٣٦٨).

(٤) إكمال المعلم (١/ ٤٦٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢٧-٢٨٠) والبخاري (٣/ ٢٨٠-٢٨١/ ١٣٥٦) وأبو داود (٣/ ٤٧٤/ ٣٠٩٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٧٣/ ٨٥٨٨).

(٦) عمدة القاري (٦/ ٢٤٢).

قال ابن بطال: «إنما يعاد المشرك ليدعى إلى الإسلام إذا رجا إجابته إليه، ألا ترى أن اليهودي أسلم حين عرض عليه النبي ﷺ الإسلام، وكذلك عرض الإسلام على عمه أبي طالب، فلم يقض اللَّه له به، فأما إذا لم يطمع بإسلام الكافر ولا رجيت إنابته فلا تنبغي عيادته»[١].

فيه: عرض الإسلام على الصبي ولولا صحته منه ما عرضه عليه.

وفي قوله: «**أنقذه بي من النار**» دلالة على أنه صح إسلامه. أفادها ابن حجر[٢].

وعلاقة الحديث بالآية: أن اللَّه لا يقبل من أحد إلا الإسلام، ومفهوم الحديث: أن هذا اليهودي لو لم يسلم لكان من أهل النار، ولم يقبل منه دينه الذي كان عليه.

* * *

(١) شرح البخاري لابن بطال (٩/ ٣٨٠).

(٢) الفتح (٣/ ٢٨٤).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حاجوك: جادلوك.

الأميين: الأمي هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب.

تولوا: أعرضوا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: فإن حاجك يا محمد النفر من نصارى أهل نجران في أمر عيسى -صلوات الله عليه- فخاصموك فيه بالباطل فقل: انقدت لله وحده بلساني وقلبي وجميع جوارحي، وإنما خص جل ذكره بأمره بأن يقول: أسلمت وجهي لله؛ لأن الوجه أكرم جوارح ابن آدم عليه، وفيه بهاؤه وتعظيمه فإذا خضع وجهه لشيء، فقد خضع له الذي هو دونه في الكرامة عليه من جوارح بدنه، وأما قوله ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ فإنه؛ يعني: وأسلم من اتبعني أيضًا وجهه لله معي»(١).

قال ابن كثير: «﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾؛ أي: جادلوك في التوحيد ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾؛ أي: فقل أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ولا ندَّ له ولا ولد له ولا صاحبة له، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ على ديني يقولون كمقالتي كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٢)»(٣).

وقال ابن عاشور: «وإسلام النفس لله معناه: إسلامها لأجله، وصيرورتها ملكًا

---

(١) جامع البيان (٦/ ٢٨٠ شاكر).

(٢) يوسف: الآية (١٠٨).

(٣) التفسير (٢/ ٢٠).

له، بحيث يكون جميع أعمال النفس في مرضاة اللَّه، وتحت هذا معانٍ جمّة هي جماع الإسلام: نحصرها في عشرة:

المعنى الأول: تمام العبودية لله تعالى، وذلك بألَّا يعبد غير اللَّه، وهذا إبطال للشرك؛ لأنّ المشرك باللَّه غير اللَّه لم يسلم نفسه لله بل أسلم بعضَها.

المعنى الثاني: إخلاصُ العمل لله تعالى، فلا يلحظ في عمله غير اللَّه تعالى، فلا يرائي ولا يصانع فيما لا يرضي اللَّه، ولا يُقدّم مرضاةَ غير اللَّه تعالى على مرضاة اللَّه.

الثالث: إخلاص القول لله تعالى فلا يقول ما لا يرضَى به اللَّه، ولا يصدر عنه قول إلَّا فيما أذن اللَّه فيه أن يقال، وفي هذا المعنى تجيء الصراحة، والأمرُ بالمعروف، والنهيُ عن المنكر، على حسب المقدرة والعلمِ، والتَّصدِي للحجة لتأييد مراد اللَّه تعالى، وهي صفة امتاز بها الإسلام، ويندفع بهذا المعنى النفاق والملق، قال تعالى في ذكر رسوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[1].

الرابع: أن يكون ساعيًا لِتَعَرُّف مرادِ اللَّه تعالى من الناس، ليُجري أعماله على وفقه، وذلك بالإصغاء إلى دعوة الرسل المخبرين بأنّهم مرسلون من اللَّه، وتلقّيها بالتأمّل في وجود صدقها، والتمييز بينها وبين الدعاوي الباطلة، بدون تحفّز للتكذيب، ولا مكابرة في تلقّي الدعوة، ولا إعراضٍ عنها بداعي الهوى وهو الإفحام، بحيث يكون علمه بمراد اللَّه من الخلق هو ضالته المنشودة.

الخامس: امتثال ما أمر اللَّه به، واجتناب ما نهى عنه، على لسان الرسل الصادقين، والمحافظة على اتّباع ذلك بدون تغيير ولا تحريف، وأن يذود عنه من يريد تغييره.

السادس: ألَّا يجعل لنفسه حُكمًا مع اللَّه فيما حكم به، فلا يتصدّى للتحكّم في قبول بعض ما أمر اللَّه به ونبذِ البعض. كما حكى اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ۞ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾[2]، وقد وصف اللَّه المسلمين بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ

---

(١) ص: الآية (٨٦).

(٢) النور: الآيتان (٤٨و٤٩).

ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(١)، فقد أعرض الكفّار عن الإيمان بالبعث؛ لأنّهم لم يشاهدوا ميّتًا بُعث.

السابع: أن يكون متطلّبًا لمراد اللّه ممّا أشكل عليه فيه، واحتاج إلى جريه فيه على مراد اللّه، بتطلّبه من إلحاقه بنظائره التامةِ التنظيرِ بما عُلم أنّه مراد اللّه، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾(٢) ولهذا أدخل علماء الإسلام حكم التفقّه في الدين والاجتهاد، تحت التقوى المأمور بها في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾(٣).

الثامن: الإعراض عن الهوى المذموم في الدين، وعن القولِ فيه بغير سلطان: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾(٤).

التاسع: أن تكون معاملة أفراد الأمة بعضها بعضًا، وجماعاتِها، ومعاملتها الأممَ كذلك، جارية على مراد اللّه تعالى من تلك المعاملات.

العاشر: التصديق بما غُيّب عنّا، مما أنبأنا اللّه به: من صفاته، ومن القضاء والقدر، وأنّ اللّه هو المتصرّف المطلق»(٥).

قلت: فرحمة اللّه على هذا العالم الكبير المفسر الذي لخص تلخيصًا طيبًا لا مزيد عليه إسلام النفس للّه، فلا شك أن هذه الضوابط هي مستقاة من كلام السلف في أقوالهم وأفعالهم، فهذا هو المنهاج الذي دعوا إليه، وهو تحقيق العبودية للّه وتجريدها من كل شائبة شرك، وتجريد متابعة الرسول ﷺ دون أن تعارض بهوى أو بقول فلان أو علان، فتجريد التوحيد للّه وتجريد المتابعة لرسول اللّه ﷺ هي إسلام النفس للّه، وهذا ما أصله هذا المفسر رحمه الله في هذه المعطيات.

وقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾:

قال الطبري: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: وقل يا محمد للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى والأميين الذين لا كتاب لهم من مشركي العرب: أأسلمتم؟

---

(١) الأحزاب: الآية (٣٦).

(٢) النساء: الآية (٨٣).

(٣) التغابن: الآية (١٦).

(٤) القصص: الآية (٥٠).

(٥) التحرير والتنوير (٣/ ٢٠٣-٢٠٤).

يقول: قل لهم: هل أفردتم التوحيد، وأخلصتم العبادة والألوهة لرب العالمين، دون سائر الأنداد والأشراك التي تشركونها معه في عبادتكم إياهم، وإقراركم بربوبيتهم، وأنتم تعلمون أنه لا رب غيره، ولا إله سواه، ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا﴾ يقول: فإن انقادوا لإفراد الوحدانية لله، وإخلاص العبادة والألوهة له ﴿فَقَدِ اهْتَدَوا﴾؛ يعني: فقد أصابوا سبيل الحق، وسلكوا محجة الرشد»[1].

قال الرازي: «﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام واتباع محمد ﷺ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ والغرض منه تسلية الرسول ﷺ وتعريفه أن الذي عليه ليس إلا إبلاغ الأدلة وإظهار الحجة، فإذا بلغ ما جاء به فقد أدى ما عليه، وليس عليه قبولهم»[2].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ﴾ إبطال لكونهم حاصلين على هذا المعنى، فأمّا المشركون فبعدهم عنه أشدّ البعد ظاهر، وأمّا النصارى فقد ألّهوا عيسى، وجعلوا مريم صاحبة لله تعالى، فهذا أصل لبطلان أن يكونوا أسلموا وجوههم لله؛ لأنّهم عبدوا مع اللّه غيره، وصانعوا الأمم الحاكمة والملوك، فأسّسوا الدين على حسب ما يلذّ لهم ويكسبهم الحظوة عندهم.

وأما اليهود فإنَّهم وإن لم يشركوا باللّه[3] قد نقضوا أصول التقوى، فسفّهوا الأنبياء وقتلوا بعضهم، واستهزءوا بدعوة الخير إلى اللّه، وغيّروا الأحكام اتّباعًا للهوى، وكذّبوا الرسل، وقتلوا الأحبار، فأنَّى يَكون هؤلاء قد أسلموا لله، وأكبر مُبطل لذلك هو تكذيبهم محمدًا ﷺ دون النظر في دلائل صدقه.

ثم إنّ قوله: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ معناه: فإن التزموا النزول إلى التحقّق، بمعنى أسلمت وجهي لله فقد اهتدوا، ولم يبق إلا أن يتّبعوك لتَلقي ما تُبَلِّغهم عن الله؛ لأنّ ذلك أول معاني إسلام الوجه لله، وإن تولّوا وأعرضوا عن قولك لهم: آسلمتم؛ فليس عليك من إعراضهم تبِعة، فإنّما عليك البلاغ، فقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ وقع موقع جواب الشرط، وهو في المعنى علة الجواب، فوقوعه موقع الجواب إيجاز بديع؛ أي: لا تحزن، ولا تظنّن أنّ عدم اهتدائهم، وخيبتَك في تحصيل إسلامهم، كان لتقصير منك؛ إذ لم تُبعث إلَّا للتبليغ، لا لتحصيل اهتداء

(١) جامع البيان (٦/ ٢٨١ شاكر). (٢) تفسير الرازي (٧/ ٢٣١).

(٣) بل أشركوا هم كذلك كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: الآية (٣٠)].

المبلَّغ إليهم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾؛ أي: مطّلع عليهم أتمّ الاطّلاع، فهو الذي يتولّى جَزاءهم، وهو يعلم أنّك بلّغت ما أمرت به»[١].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٠٤-٢٠٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حبطت: يقال حبط حبطًا وحبوطًا: عمل عملًا ثم أفسده واللَّه أحبطه، وحبط العمل: أي بطل ثوابه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الآية إذًا: إنّ الذين يكفرون بآيات اللَّه، ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون آمريهم بالعدل في أمر اللَّه ونهيه، الذين يَنهونهم عن قتل أنبياء اللَّه وركوب معاصيه.. فأخبرهم يا محمد وأعلمهم: أنّ لهم عند اللَّه عذابًا مؤلمًا لهم، وهو الموجع.

وأما قوله: «﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾، فإنه يعني بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أولئك الذين يكفرون بآيات اللَّه. ومعنى ذلك: أنّ الذين ذكرناهم، هم ﴿ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾؛ يعني: بطلت أعمالهم ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾. فأما في الدنيا، فلم ينالوا بها محمدةً ولا ثناء من الناس؛ لأنهم كانوا على ضلال وباطل، ولم يرفع اللَّه لهم بها ذكرًا، بل لعنهم وهتك أستارهم، وأبدى ما كانوا يخفون من قبائح أعمالهم على ألسن أنبيائه ورسله في كتبه التي أنزلها عليهم، فأبقى لهم ما بقيت الدنيا مذمَّةً، فذلك حبوطها في الدنيا. وأما في الآخرة، فإنه أعدّ لهم فيها من العقاب ما وصف في كتابه، وأعلم عباده أن أعمالهم تصير بُورًا لا ثوابَ لها؛ لأنها كانت كفرًا باللَّه، فجزاءُ أهلها الخلودُ في الجحيم.

وأما قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ فإنه يعني: وما لهؤلاء القوم من ناصر

ينصرهم من اللَّه، إذا هو انتقم منهم بما سلف من إجرامهم واجترائهم عليه، فيستنقذُهم منه»[١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا ذم من اللَّه تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات اللَّه قديمًا وحديثًا، التي بلغتهم إياها الرسل، استكبارًا عليهم وعنادًا لهم، وتعاظمًا على الحق واستنكافًا عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن اللَّه شرعه بغير سبب، ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق، ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ وهذا هو غاية الكبر»[٢].

وقال ابن عطية: «وتعم كل من كان بهذه الحال، والآية توبيخ للمعاصرين لرسول اللَّه ﷺ بمساوئ أسلافهم وبقائهم أنفسهم على فعل ما أمكنهم من تلك المساوئ؛ لأنهم كانوا حرصى على قتل محمد عَلَيْهِ السَّلَامُ»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «قيل: إن المراد بهذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ اليهود خاصة، وقد نسب إليهم قتل النبيين الذي كان من سابقهم لاعتبار الأمة في تكافلها، وجري لاحقها على أثر سابقها، كالشخص الواحد على ما مرّ بيانه عن الأستاذ الإمام غير مرة، على أن اليهود همت بقتل النبي ﷺ في زمن نزول الآية، والسورة مدنية كما علمت، وهمّ بذلك قومه الأميون من قبل في مكة، ثم كان كل من الفريقين حربًا له، وهم المعتدون، ولذلك قال آخرون: إن الآية فيمن سبق ذكرهم من أهل الكتاب والأميين، فكلٌّ قاتله وقاتل الذين يأمرون بالقسط من المؤمنين به، والظاهر الأول حتى على قراءة حمزة: (ويقاتلون الذين) لأن محاولة قتل نبي لا يُعبّر عنه بـ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ والقتال غير القتل، ولما في آيات أخرى من إطلاق مثل هذا التعبير على اليهود خاصة، ولا حاجة إلى القول بأن المراد مجموع الكافرين الذين يقتل بعضهم النبيين وبعضهم الذين يأمرون بالقسط، فالآية وما بعدها انتقال إلى خطاب اليهود خاصة،

---

(١) جامع البيان (٦/ ٢٨٦-٢٨٧ شاكر).
(٢) تفسير القرآن (٢/ ٢١).
(٣) المحرر الوجيز (١/ ٤١٤-٤١٥).

فاليهود هم الذين جروا على الكفر بآيات اللَّه من عهد موسى إلى عهد محمد -عليهما الصلاة والسلام-، وبذلك تشهد عليهم كتبهم قبل القرآن، وعلى قتل النبيين كزكريا ويحيى عليهما السلام، ولكن الأستاذ الإمام وجه القول بالعموم، وجعله بالنسبة إلى مشركي العرب الذين حاولوا قتل نبي واحد على حد كون قتل النفس الواحدة كقتل جميع الناس.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ بيان للواقع بما يقرر بشاعته وانقطاع عرق العذر دونه، وإلا فإن قتل النبيين لا يكون بحق مطلقا كما يقول المفسرون..

وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ يحملون مثله على التهكم.. وهذا العذاب يصيب من كان منهم في زمن البعثة في الدنيا، ثم يشاركون من سبقهم بمثل ذنوبهم في عذاب الآخرة. وأي الناس أحق بالعذاب الأليم من هؤلاء القساة الطغاة المسرفين في الشرّ إسرافًا جعلهم على منتهى البعد عن النبيين والآمرين بالقسط، حتى كان منهم الذين قتلوهم بالفعل، ومنهم الذين نفوسهم كنفوس من قتلوا وما يمنعهم عن الفعل إلا العجز ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾[1] فهذه النفوس قد أحاطت بها خطاياها حتى لم يبق فيها منفذ لنور آيات اللَّه التي بها يُبصَر الحق، ويُهتدى إلى إقامة القسط، ولذلك قال فيهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فلا ينتفعون بشيء منها؛ لأن العمل الصالح إنما ينفع بحسن أثره في النفس، ونفوس هؤلاء قد أوغل فيها الفساد كما تقدم، ففقدت الاستعداد والقبول لكل خير.. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ينصرونهم من اللَّه وقد أبسلتهم ذنوبهم بما لها من التأثير في إفساد نفوسهم، فأي ناصر يدفع عنهم العذاب، وهو مما اقتضته طبيعتهم»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الجنة لا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر

* عن عبد اللَّه بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه**

(١) الأنفال: الآية (٣٠).
(٢) تفسير المنار (٣/ ٢٦١-٢٦٤).

مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة قال: «**إن اللَّه جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[(١)].

⋆ **غريب الحديث:**

بطر الحق: البطر: الطغيان عند النعمة وطول الغنى.

الغَمْط: الاستهانة والاستحقار.

⋆ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «الكبر الحالة التي يختص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وذلك أن يرى نفسه أكبر من غيره، وأعظم ذلك أن يتكبر على ربه بأن يمتنع من قبول الحق والإذعان له بالتوحيد والطاعة»[(٢)].

قال ابن الأثير: ««**الكبر بطر الحق**»: هو أن يجعل ما جعله اللَّه حقًّا من توحيده وعبادته باطلًا، وقيل هو أن يتجبَّر عند الحق فلا يراه حقا، وقيل هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله»[(٣)].

قال الطيبي في شرحه على المشكاة: «وإن كان للبطر والأشر المؤدي إلى تسفيه الحق والصد عن سبيل اللَّه وإلى تحقير الناس، فهو اختيال وافتخار واللَّه لا يحب كل مختال فخور. ولمثل هذا البطر نهى اللَّه تعالى المؤمنين في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[(٤)]»[(٥)].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٩ و٤١٢) ومسلم (١/ ٩٣/ ٩١) وأبو داود (٤/ ٣٥١/ ٤٠٩١) والترمذي (٤/ ٣١٧-٣١٨/ ١٩٩٩) وابن ماجه (٢/ ١٣٩٧/ ٤١٧٣).

(٢) الفتح (١٠/ ٦٠٠).

(٣) النهاية (١/ ١٣٥).

(٤) الأنفال: الآية (٤٧).

(٥) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٤٥).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نصيبا: النصيب: الحظ المنصوب؛ أي: المعين.

معرضون: من أعرض؛ أي: يتولى عن استماع الحجة.

غرهم: غر؛ أي: خدع.

يفترون: يكذبون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «أولى الأقوال في تأويل ذلك عندي بالصواب؛ أن يقال: إن اللَّه -جل ثناؤه- أخبر عن طائفة من اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول اللَّه ﷺ في عهده ممن قد أوتي علما بالتوراة؛ أنهم دعوا إلى كتاب اللَّه الذي كانوا يُقرّون أنه من عند اللَّه -وهو التوراة- في بعض ما تنازعوا فيه هم ورسول اللَّه ﷺ، وقد يجوز أن يكون تنازعهم الذي كانوا تنازعوا فيه ثم دعوا إلى حكم التوراة فيه فامتنعوا من الإجابة إليه؛ كان أمر محمد ﷺ وأمر نبوته. ويجوز أن يكون ذلك كان أمر إبراهيم خليل الرحمن ودينه. ويجوز أن يكون ذلك ما دعوا إليه من أمر الإسلام والإقرار به. ويجوز أن يكون ذلك كان في حدّ؛ فإن كل ذلك مما قد كانوا نازعوا فيه رسول اللَّه ﷺ فدعاهم فيه إلى حكم التوراة، فأبى الإجابة فيه وكتمه بعضهم. ولا دلالة في الآية على أي ذلك كان من أي، فيجوز أن يقال: هو هذا دون هذا، ولا حاجة بنا إلى معرفة ذلك؛ لأن المعنى الذي دعوا إلى حكمه هو مما كان فرضا عليهم الإجابة إليه في دينهم فامتنعوا منه، فأخبر اللَّه -جل ثناؤه- عنهم

بردتهم وتكذيبهم بما في كتابهم، وجحودهم ما قد أخذ عليهم عهودهم ومواثيقهم بإقامته، والعمل به فلن يعدوا أن يكونوا في تكذيبهم محمدا، وما جاء به من الحق مثلهم في تكذيبهم موسى وما جاء به وهم يتولّونه ويقرون به. ومعنى قوله: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ ثم يستدبر عن كتاب اللَّه الذي دعا إلى حكمه معرضًا عنه منصرفًا، وهو بحقيقته وحجته عالم»[١].

قال ابن كثير: «يقول تعالى منكرًا على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم اللذين بأيديهم، وهما التوراة والإنجيل: وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة اللَّه فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما، وهذا في غاية ما يكون من ذمهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد»[٢].

وقال البقاعي: «في هذا تحذير لهذه الأمة من الوقوع في مثل ذلك ولو بأن يدعي أحدهم من حسن إلى أحسن منه -نبه عليه الحرالي- وقال: إذ ليس المقصود حكاية ما مضى فقط ولا ما هو كائن فحسب، بل خطاب القرآن قائم دائم ماض كلية خطابه في غابر اليوم المحمدي مع من يناسب أحوال من تقدم منهم، وفي حق المرء مع نفسه في أوقات مختلفة»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فللتراخي فيه وجهان: أحدهما: استبعاد توليهم؛ لأنه خلاف الأصل الذي يكون عليه المؤمن. ثانيهما: أنهم إذا دُعُوا إلى حكم الكتاب يتولى ذلك الفريق بعد تردد وتروّ في القبول وعدمه، وكان من مقتضى الإيمان أن لا يتردد المؤمن في إجابة الدعوة إلى حكم كتابه الذي هو أصل دينه. أورَدَه الأستاذ الإمام وقال: على أنهم لم يكتفوا بالتردد حتى تولوا بالفعل، ولم يكن التولي عرَضًا حدث لهم بعد أن كانوا مقبلين على الكتاب خاضعين لحكمه في كل حال وآن، بل هو وصف لهم لازم بل اللازم لهم ما هو شر منه وهو الإعراض عن كتاب اللَّه في عامة أحوالهم. فجملة ﴿وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾؛ ليست مؤكِّدة للتولي كما قيل، بل هي مؤسسة لوصف الإعراض

---

(١) جامع البيان (٦/ ٢٩٠-٢٩١ شاكر).
(٢) التفسير (٢/ ٢٢).
(٣) نظم الدرر (٤/ ٣٠٤).

الذي هو أبلغ منه. وإنما قال: ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ لأن هذا الوصف ليس عامًّا لكل فرد منهم بل كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، ومنهم الذين آمنوا بالنبي ﷺ.

أقول: وهذا مما عهدنا في أسلوب القرآن من تحديد الحقائق والاحتراس في الحكم على الأمم، فتارة يحكم على فريق منهم في مقام بيان شؤونهم، وتارة يحكم على أكثرهم، وإذا أطلق الحكم في بعض الآيات يتبعه الاستثناء؛ استثناء الأقل كقوله: ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[1]»[2].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾:

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ بأن هؤلاء الذين دعوا إلى كتاب اللَّه ليحكم بينهم بالحق فيما نازعوا رسول اللَّه ﷺ، إنما أبَوا الإجابة في حكم التوراة، وما فيها من الحق من أجل قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ وهي أربعون يوما، وهن الأيام التي عبدوا فيها العجل، ثم يخرجنا منها ربنا، اغترارا منهم بما كانوا يفترون؛ يعني: بما كانوا يختلقون من الأكاذيب والأباطيل في ادعائهم أنهم أبناء اللَّه وأحباؤه، وأن اللَّه قد وعد أباهم يعقوب أن لا يدخل أحدًا من ولده النار إلا تحلة القسم، فأكذبهم اللَّه على ذلك كله من أقوالهم، وأخبر نبيه محمدًا ﷺ أنهم هم أهل النار، هم فيها خالدون دون المؤمنين باللَّه ورسله، وما جاءوا به من عنده»[3].

وقال البقاعي: «لما كان المقام هنا لتناهي اجترائهم على العظائم لاستهانتهم بالعذاب لاستقصارهم لمدته والتصريح بقتل الآمرين بالقسط عامة وبحبوط الأعمال، وكان جمع القلة قد يستعار للكثرة، أكدت إرادتهم حقيقة القلة بجمع آخر للقلة، فقيل على ما هو الأولى من وصف جمع القلة لما لا يعقل بجمع جبرا له: ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾ وتطاول الزمان وهم على هذا الباطل حتى آنسوا به، واطمأنوا إليه؛ لأنه ما كذب أحد بحق إلا عوقب بتصديقه بباطل، وما ترك قوم سنة إلا أحيوا بدعة، على أن كذبهم أيضًا جرهم إلى الاستهانة بعذاب اللَّه الذي لا يستهان بشيء منه ولو قل»[4].

---

(١) البقرة: الآية (٢٤٦).
(٢) تفسير المنار (٣/ ٢٦٦).
(٣) جامع البيان (٦/ ٢٩٢ شاكر).
(٤) نظم الدرر (٤/ ٣٠٤-٣٠٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحاكم إلى كتاب اللَّه، وقصة الخوارج

* عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي وائل، قال: أتيته فسألته عن هؤلاء القوم الذين قتلهم علي قال: قلت: فيم فارقوه؟ وفيم استحلوه؟ وفيم دعاهم؟ وفيم فارقوه؟[١] وبم استحل دماءهم؟ قال: إنه لما استحر القتل في أهل الشام بصفين اعتصم معاوية وأصحابه بجِيَل، فقال له عمرو بن العاص: أرسل إلي بالمصحف فلا واللَّه لا نرده عليك. قال: فجاء رجل يحمله فنادى: بيننا وبينكم كتاب اللَّه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ . . . الآية[٢] قال علي: نعم بيننا وبينكم كتاب اللَّه، إنا أولى به منكم، فجاءت الخوارج وكنا نسميهم يومئذ القراء، وجاؤوا بأسيافهم على عواتقهم وقالوا: يا أمير المؤمنين، ألا تمشي إلى هؤلاء القوم حتى يحكم اللَّه بيننا وبينهم، فقام سهل بن حنيف، فقال: أيها الناس اتهموا أنفسكم، لقد كنا مع رسول اللَّه ﷺ يوم الحديبية ولو نرى قتالًا قاتلنا، وذاك في الصلح الذي كان بين رسول اللَّه ﷺ وبين المشركين فجاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول اللَّه ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: «**بلى**» قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «**بلى**» قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا، ونرجع ولم يحكم اللَّه بيننا وبينهم؟ قال: «**يابن الخطاب، إني رسول اللَّه ولن يضيعني اللَّه أبدًا**». فانطلق عمر ولم يصبر متغيظًا، حتى أتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق، وهم على باطل؟ قال: بلى. قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولم يحكم اللَّه بيننا وبينهم؟ قال: يا ابن الخطاب إنه رسول اللَّه ولن يضيعه اللَّه أبدًا، فنزل القرآن على محمد بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه، فقال: يا رسول اللَّه أو فتح هو؟ قال: «**نعم**». قال: فطابت نفسه ورجع، ورجع الناس، ثم إنهم خرجوا بحروراء، أولئك العصابة من الخوارج بضعة عشر ألفا، فأرسل إليهم علي ينشدكم اللَّه فأبوا عليه، فأتاهم صعصعة بن صوحان

---

(١) هكذا هي مكررة عند أبي يعلى، وعند الهيثمي في المجمع بدونها.

(٢) آل عمران: الآية (٢٣).

فأنشدهم، وقال: علام تقاتلون خليفتكم؟ قالوا: مخافة الفتنة. قال: فلا تعجلوا ضلالة العام مخافة فتنة عام قابل. فرجعوا وقال: نسير على ما جئنا، فإن قبل علي القضية قاتلنا على ما قاتلنا يوم صفين، وإن نقضها قاتلنا معه. فساروا حتى بلغوا النهروان، فافترقت منهم فرقة فجعلوا يهدون الناس ليلًا، قال أصحابهم: ويلكم ما على هذا فارقنا عليًّا، فبلغ عليًّا أمرهم فقام، فخطب الناس، فقال: ما ترون؟ أنسير إلى أهل الشام أم نرجع إلى هؤلاء الذين خلفوا إلى ذراريكم؟ قالوا: بل نرجع إليهم، فذكر أمرهم، فحدث عنهم بما قال فيهم رسول اللَّه ﷺ: «**إن فرقة تخرج عند اختلاف من الناس يقتلهم أقرب الطائفتين إلى الحق، علامتهم رجل منهم يده كثدي المرأة**» فساروا حتى التقوا بالنهروان فاقتتلوا قتالًا شديدًا، فجعلت خيل علي لا تقوم لهم. فقام علي فقال: يا أيها الناس إن كنتم إنما تقاتلون لي فواللَّه ما عندي ما أجزيكم، وإن كنتم إنما تقاتلون لله، فلا يكون هذا فعالكم، فحمل الناس حملة واحدة فانجلت الخيل عنهم وهم مكبون على وجوههم، فقال علي: اطلبوا الرجل فيهم، فطلب الناس الرجل فلم يجدوه، حتى قال بعضهم: غرَّنا ابن أبي طالب من إخواننا حتى قتلناهم. قال: فدمعت عين عليٍّ فدعا بدابته فركبها فانطلق حتى أتى وهدة فيها قتلى بعضهم على بعض، فجعل يجر بأرجلهم حتى وجد الرجل تحتهم، فأخبروه فقال علي: اللَّه أكبر وفرح. وفرح الناس ورجعوا، وقال عليٌّ: لا أغزو العام. ورجع إلى الكوفة، وقتل رَحِمَهُ اللَّهُ، واستُخلف حسن، وسار سيرة أبيه، ثم بعث بالبيعة إلى معاوية»(١).

★ **غريب الحديث:**

استحر القتل: أي: اشتد وكثُر وهو استفعل من الحر: الشدة.

صفّين: هو موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي بين الرقة والبالس. وكانت وقعة صفين بين علي ومعاوية في سنة **٣٧ هـ** في غرة صفر.

الحديبية: هي قرية قريبة من مكة سميت ببئر فيها، وهي مخففة وكثير من

---

(١) أبو يعلى (١/ ٣٦٤-٣٦٧/ ٤٧٣) وقال الهيثمي (٦/ ٢٣٨): «قلت: في الصحيح بعضه، رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح» وصحح إسناده الحافظ في المطالب (٤/ ٣١٧/ ٤٥٠٤).

المحدثين يشددها .

قال ابن حجر: والحديبية بالتثقيل والتخفيف لغتان، وأنكر كثير من أهل اللغة التخفيف. وقال أبو عبيد البكري: أهل العراق يثقلون وأهل الحجاز يخففون.

الدنية: أي: الخصلة المذمومة والأصل فيه الهمز وقد تخفف، وهو غير مهموز أيضًا بمعنى الضعيف الخسيس.

حروراء: موضع قريب من الكوفة.

النهروان: كورة واسعة بين بغداد وواسط.

يهدون الناس: يضعضعونهم.

وهدة: الوهد والوهدة المطمئن من الأرض والمكان المنخفض كأنه حفرة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «والسبب في قول سهل ذلك[١] ما تقدم بيانه في استتابة المرتدين، أن أهل الشام لما استشعروا أن أهل العراق شارفوا أن يغلبوهم، وكان أكثر أهل العراق من القراء الذين يبالغون في التدين، ومن ثم صار منهم الخوارج الذين مضى ذكرهم، فأنكروا على عليّ ومن أطاعه الإجابة إلى التحكيم، فاستند عليّ إلى قصة الحديبية وأن النبي ﷺ أجاب قريشا إلى المصالحة مع ظهور غلبته لهم، وتوقف بعض الصحابة أولًا حتى ظهر لهم أن الصواب ما أمرهم به، كما مضى بيانه مفصلًا في الشروط، وأول الكرماني كلام سهل بن حنيف بحسب ما احتمله اللفظ فقال: كأنهم اتهموا سهلًا بالتقصير في القتال حينئذ، فقال لهم: بل اتهموا أنتم رأيكم، فإني لا أقصر كما لم أكن مقصرا يوم الحديبية وقت الحاجة، فكما توقفت يوم الحديبية من أجل أني لا أخالف حكم رسول اللّه ﷺ، كذلك أتوقف اليوم لأجل مصلحة المسلمين»[٢].

* * *

(١) أي: قوله «**اتهموا أنفسكم**» أو «**اتهموا رأيكم على دينكم**» وهي رواية البخاري.

(٢) الفتح (١٣/ ٣٥٨).

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وُفِّيت: من أوفى الرجل حقه ووفاه إياه بمعنى: أكمله له وأعطاه وافيًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾ فأيّ حال يكون حال هؤلاء القوم الذين قالوا هذا القول، وفعلوا ما فعلوا من إعراضهم عن كتاب اللَّه، واغترارهم بربهم وافترائهم الكذب؟ وذلك من اللَّه عَجَّلَ وعيد لهم شديد، وتهديد غليظ. وإنما يعني بقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ﴾ الآية: فما أعظم ما يلقون من عقوبة اللَّه وتنكيله بهم إذا جمعهم ليوم يوفّى كل عامل جزاء عمله على قدر استحقاقه غير مظلوم فيه؛ لأنه لا يعاقب فيه إلا على ما اجترم، ولا يؤاخذ إلا بما عمل، يُجزى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يخاف أحد من خلقه منه يومئذ ظلما ولا هضما»[١].

قال ابن كثير: «أي: كيف يكون حالهم وقد افتروا على اللَّه، وكذبوا رسله، وقتلوا أنبياءه، والعلماء من قومهم الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، واللَّه تعالى سائلهم عن ذلك كله، ومحاسبهم عليهم، ومجازيهم به»[٢].

وقال ابن عطية: «قال تعالى خطابا لمحمد وأمته على جهة التوقيف والتعجيب، فكيف حال هؤلاء المغترين بالأباطيل إذا حشروا يوم القيامة، واضمحلت تلك الزخارف التي ادعوها في الدنيا، وجوزوا بما اكتسبوه من كفرهم وأعمالهم القبيحة؟»[٣].

---

(١) جامع البيان (٦/ ٢٩٤ شاكر).
(٢) التفسير (٢/ ٢٢).
(٣) المحرر الوجيز (١/ ٤١٦).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «صدر الآية سبحانه بتفرده بالملك كله، وأنه هو سبحانه هو الذي يؤتيه من يشاء لا غيره. فالأول تفرده بالملك، والثاني تفرده بالتصرف فيه، وأنه سبحانه هو الذي يعز من يشاء بما يشاء من أنواع العز، ويذل من يشاء بسلب ذلك العز عنه، وأن الخير كله بيديه ليس لأحد معه منه شيء. ثم ختمها بقوله ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فتناولت الآية ملكه وحده وتصرفه وعموم قدرته، وتضمنت أن هذه التصرفات كلها بيده، وأنها كلها خير فسلبه الملك عمن يشاء وإذلاله من يشاء خير، وإن كان شرًّا بالنسبة إلى المسلوب الذليل، فإن هذا التصرف دائر بين العدل والفضل، والحكمة والمصلحة، لا تخرج عن ذلك، وهذا كله خير يحمد عليه الرب ويثنى عليه به كما يحمد ويثني عليه بتنزيهه عن الشر، وأنه ليس إليه، كما ثبت في صحيح مسلم أن رسول اللّٰه ﷺ كان يثني على ربه بذلك في دعاء الاستفتاح في قوله «**لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت**»(١).

فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه، بل كل ما نسب إليه فهو خير. والشر إنما صار شرا لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أضيف إليه لم يكن شرا وهو سبحانه خالق الخير والشر، فالشر في بعض مخلوقاته لا في خلقه وفعله، وخلقه وفعله وقضاؤه وقدره خير كله.

ولهذا تنزه سبحانه عن الظلم الذي حقيقته وضع الشيء في غير موضعه كما

---

(١) طرف من حديث رواه أحمد (١/ ٩٤-٩٥) ومسلم (١/ ٥٣٤-٥٣٦/ ٧٧١«٢٠١») وأبو داود (١/ ٤٨١-٤٨٣/ ٧٦٠) والترمذي (٥/ ٤٣٥-٤٥٤/ ٣٤٢٢) والنسائي (٢/ ٤٦٧-٤٦٨/ ٨٩٦) وابن ماجه (١/ ٣٣٥/ ١٠٥٤) مختصرا. من طرق عن علي بن أبي طالب ﷺ.

تقدم، فلا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، وذلك خير كله. والشر وضع الشيء في غير محله، فإذا وضع في محله لم يكن شرًّا.

فعلم أن الشر ليس إليه، وأسماؤه الحسنى تشهد بذلك فإن منها القدوس السلام العزيز الجبار المتكبر، فالقدوس المنزه من كل شر ونقص وعيب»[(١)].

وقال ابن كثير: «في هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة اللَّه تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن اللَّه تعالى حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول اللَّه إلى جميع الثقلين الإنس والجن، الذي جمع اللَّه فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبيًّا من الأنبياء ولا رسولًا من الرسل في العلم باللَّه وشريعته، واطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه له عن حقائق الآخرة، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات اللَّه وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار»[(٢)].

وقال السعدي: «يأمر تعالى نبيَّه ﷺ أصلًا -وغيرَه تبعًا- أن يقول عن ربه، معلنا بتفرده بتصريف الأمور، وتدبير العالم العلوي والسفلي، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق، والتصريف المحكم، وأنه يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

فليس الأمر بأماني أهل الكتاب ولا غيرهم، بل الأمر أمر اللَّه، والتدبير له، فليس له معارض في تدبيره، ولا معاون في تقديره، وأنه كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس، فهو المتصرف بنفس الزمان.

وقوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾؛ أي: الخير كله منك، ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا اللَّه، وأما الشر فإنه لا يضاف إلى اللَّه تعالى، لا وصفًا ولا اسمًا ولا فعلًا، ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضائه وقدره.

فالخير والشر، كله داخل في القضاء والقدر، فلا يقع في ملكه إلا ما شاءه، ولكن الشر لا يضاف إلى اللَّه، فلا يقال: «بيدك الخير والشر»، بل يقال: ﴿بِيَدِكَ

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٦٣-٦٤).

(٢) التفسير (٢/ ٢٢-٢٣).

﴿ٱلْخَيْرُ﴾ كما قاله الله، وقاله رسوله.

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: «وكذلك الشر بيد الله» فإنه وَهْم محض ملحظهم، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر، ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلنا»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المشيئة الثابتة لله تعالى، وأنه متفرد بها

* عَنْ عَلِي بْنِ حُسَيْنٍ أَنَّ حُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ رضي الله عنهما أَخْبَرَهُ أَنَّ عَلِيَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَالَ لَهُمْ: **أَلَا تُصَلُّونَ؟** قَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ إِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾(٢)(٣).

★ **غريب الحديث:**

طرقه: من الطروق وهو المجيء بالليل.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله «**أنفسنا بيد الله**» فيه إثبات المشيئة لله، وأن العبد لا يفعل شيئًا إلا بإرادة الله»(٤).

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ خَامَةِ الزَّرْعِ، يَفِيءُ وَرَقُهُ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ تُكَفِّئُهَا، فَإِذَا سَكَنَتِ اعْتَدَلَتْ، وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يُكَفَّأُ بِالْبَلَاءِ، وَمَثَلُ الْكَافِرِ كَمَثَلِ الْأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَةً حَتَّى يَقْصِمَهَا اللَّهُ إِذَا شَاءَ**»(٥).

---

(١) تيسير الكريم (١/ ٣٧٠-٣٧١).

(٢) الكهف: الآية (٥٤).

(٣) أحمد (١/ ٧٧) والبخاري (١٣/ ٥٤٦-٥٤٧/ ٧٤٦٥) ومسلم (١/ ٥٣٧/ ٧٧٥) والنسائي (٣/ ٢٢٧/ ١٦١٠).

(٤) فتح الباري (٣/ ١٤).

(٥) أحمد (٢/ ٢٣٤) والبخاري (١٣/ ٥٤٧/ ٧٤٦٦) ومسلم (٤/ ٢١٦٣/ ٢٨٠٩) والترمذي (٥/ ١٣٨-١٣٩/ ٢٨٦٦)..

★ **غريب الحديث:**

خامة الزرع: بتخفيف الميم: هي الطاقة الطرية اللينة أو الغضة أو القضبة. قال الخليل: «الخامة الزرع أول ما ينبت على ساق واحد».

يفيء: يتحول ويرجع.

تكفئها: أي تقلبها وتحولها.

الأرزة: بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح الزاي وهو شجر الصنوبر، وقيل بفتح الراء وهو الشجر الصلب.

صماء: أي الصلبة ليست بجوفاء ولا رخوة.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «**«يقصمها اللَّه إذا شاء»** أي: في الوقت الذي سبقت إرادته أن يقصمه فيه»[١].

* عن عبد اللَّه بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولَ: «**إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَا سَلَفَ قَبْلَكُم مِنَ الْأُمَمِ كَمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُعْطِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ فَعَمِلُوا بِهَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ، ثُمَّ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ الْإِنْجِيلَ فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ عَجَزُوا فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُعْطِيتُمُ الْقُرْآنَ فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّى غُرُوبِ الشَّمْسِ، فَأُعْطِيتُمْ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، قَالَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ: رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَقَلُّ عَمَلًا وَأَكْثَرُ أَجْرًا، قَالَ: هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ؟ قَالُوا: لَا، فَقَالَ: فَذَلِكَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

قيراطا: والقيراط مختلف فيه عند الأقوام، ففي مكة ربع سدس الدينار، وفي موضع آخر نصف عشر الدينار، وهلم جرًّا، والمراد به ها هنا النصيب، وكرر ليدل

---

(١) الفتح (١٣/ ٥٥٣).

(٢) أحمد (٢/ ١٢٩)، والبخاري (١٣/ ٥٤٧/ ٧٤٦٧).

على تقسيم القراريط على جميعهم.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله «**فذلك فضلي أوتيه من أشاء**» فيه حجة لأهل السنة على أن الثواب من اللَّه على سبيل الإحسان منه جَلَّ جَلَالُهُ»(١).

* عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي رَهْطٍ، فَقَالَ: «**أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلَا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأُخِذَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ وَطَهُورٌ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللَّهُ فَذَلِكَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ**»(٢).

★ **غريب الحديث:**

فأخذ به: على صيغة المجهول أي عوقب به.

طهور: أي مطهر لذنوبه.

★ **فوائد الحديث:**

قال المازري: «هذا الحديث رد على من يكفر بالذنوب وهم الخوارج، ورد على من يقول: لابد من عقاب الفاسق الملي، إذا مات على كبيرة ولم يتب منها، وهم المعتزلة؛ لأن النبي ﷺ ذكر هذه المعاصي، وأخبر أن أمر فاعلها إلى اللَّه سبحانه إن شاء عفا وإن شاء عذبه، ولم يقل: لابد أن يعذبه»(٣).

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَهُ سِتُّونَ امْرَأَةً، فَقَالَ: لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى نِسَائِي فَلْتَحْمِلْنَ كُلُّ امْرَأَةٍ وَلْتَلِدْنَ فَارِسًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَطَافَ عَلَى نِسَائِهِ، فَمَا وَلَدَتْ مِنْهُنَّ إِلَّا امْرَأَةٌ وَلَدَتْ شِقَّ غُلَامٍ، قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ كَانَ سُلَيْمَانُ اسْتَثْنَى لَحَمَلَتْ كُلُّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ فَوَلَدَتْ فَارِسًا يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**»(٤).

---

(١) الفتح (٤/ ٥٦٣).

(٢) أحمد (٥/ ٣١٤) والبخاري (١٣/ ٥٤٧/ ٧٤٦٨) ومسلم (٣/ ١٣٣٣/ ١٧٠٩) والترمذي (٤/ ٣٦/ ١٤٣٩) والنسائي (٧/ ١٦٠-١٦١/ ٤١٧٢-٤١٧٣). (٣) المعلم (٢/ ٢٦١).

(٤) أحمد (٢/ ٢٢٩) والبخاري (١٣/ ٥٤٧-٥٤٨/ ٧٤٦٩) ومسلم (١/ ١٢٨٥/ ١٦٥٤) والنسائي (٧/ ٣٢-٣٣/ ٣٨٤٠).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «ولا يلزم من إخباره ﷺ بذلك في حق سليمان في هذه القصة أن يقع ذلك لكل من استثنى في أمنيته، بل في الاستثناء رجو الوقوع، وفي ترك الاستثناء خشية عدم الوقوع، وبهذا يجاب عن قول موسى للخضر ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾[1] مع قول الخضر له آخرا ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾»[2][3].

* عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ -قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ قَالَ: «**لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ**»- فَقَالَ لَهُ: «**لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ**». قَالَ: قُلْتَ: طَهُورٌ؟ كَلَّا، بَلْ هِيَ حُمَّى تَفُورُ -أَوْ: تَثُورُ-، عَلَى شَيْخٍ كَبِيرٍ تُزِيرُهُ الْقُبُورَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَنَعَمْ إِذًا**»[4].

★ **غريب الحديث:**

تفور أو تثور: شك من الراوي، هل قالها بالفاء أو بالثاء المثلثة، وهما بمعنى واحد؛ أي: تغلي ويظهر حرها ووهجها.

تزيره: من أزاره إذا حمله على الزيارة، والضمير المرفوع فيه يرجع إلى الحمى، والمنصوب إلى الأعرابي، والقبور منصوب على المفعولية، وهذه اللفظة كناية عن الموت.

* عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ فَأُرِيدُ -إِنْ شَاءَ اللَّهُ- أَنْ أَخْتَبِيَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[5].

★ **فوائد الأحاديث المتقدمة:**

تضمنت هذه الأحاديث إثبات المشيئة لله تعالى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه المرتبة -أي: المشيئة- قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المنزلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله

---

(١) الكهف: الآية (٦٩).

(٢) الكهف: الآية (٨٢). (٣) فتح الباري (٦/ ٥٧١).

(٤) البخاري (٦/ ٧٧٤/ ٣٦١٦).

(٥) أحمد (٢/ ٣٨١) والبخاري (١٣/ ٥٤٨/ ٧٤٧٤) ومسلم (١/ ١٨٨/ ١٩٨).

عليها خلقه، وأدلة العقول والعيان، وليس في الوجود موجب ومقتض إلا مشيئة اللَّه وحده، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به. والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن وخالفهم في ذلك من ليس منهم في هذا الموضع وإن كان منهم في موضع آخر، فجوزوا أن يكون في الوجود ما لا يشاء اللَّه وأن يشاء ما لا يكون، وخالف الرسل كلهم وأتباعهم من نفى مشيئة اللَّه بالكلية ولم يثبت له سبحانه مشيئة واختيارًا أوجد بها الخلق؛ كما يقوله طوائف من أعداء الرسل من الفلاسفة وأتباعهم»[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ههنا أمر يجب التنبيه عليه والتنبه له وبمعرفته تزول إشكالات كثيرة تعرض لمن لم يحط به علما، وهو أن اللَّه سبحانه له الخلق والأمر، وأمره سبحانه نوعان: أمر كوني قدري، وأمر ديني شرعي، فمشيئته سبحانه متعلقة بخلقه وأمره الكوني، وكذلك تتعلق بما يحب وبما يكرهه، كله داخل تحت مشيئته كما خلق إبليس وهو يبغضه، وخلق الشياطين والكفار والأعيان والأفعال المسخوطة له وهو يبغضها، فمشيئته سبحانه شاملة لذلك كله. وأما محبته ورضاه فمتعلقة بأمره الديني وشرعه الذي شرعه على ألسنة رسله، فما وجد منه تعلقت به المحبة والمشيئة جميعًا فهو محبوب للرب واقع بمشيئته، كطاعات الملائكة والأنبياء والمؤمنين. وما لم يوجد منه تعلقت به محبته وأمره الديني ولم تتعلق به مشيئته وما وجد من الكفر والفسوق والمعاصي تعلقت به مشيئته. ولم تتعلق به محبته ولا رضاه ولا أمره الديني. وما لم يوجد منها لم تتعلق به مشيئته ولا محبته، فلفظ المشيئة كوني، ولفظ المحبة ديني شرعي، ولفظ الإرادة ينقسم إلى إرادة كونية فتكون هي المشيئة، وإرادة دينية فتكون هي المحبة. إذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[٢] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾[٣] وقوله: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[٤] لا يناقض نصوص القدر والمشيئة العامة الدالة على وقوع ذلك بمشيئته وقضائه وقدره، فإن المحبة غير المشيئة، والأمر غير الخلق»[٥].

---

(١) شفاء العليل (١/ ١٢٥).
(٢) الزمر: الآية (٧).
(٣) البقرة: الآية (٢٠٥).
(٤) البقرة: الآية (١٨٥).
(٥) شفاء العليل (١/ ١٤١-١٤٢).

قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تولج: من الولوج وهو الدخول.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ﴾:

قال الرازي: «فيه وجهان: الأول: أنه يجعل الليل قصيرًا ويجعل ذلك القدر الزائد داخلًا في النهار، وتارة على العكس من ذلك، وإنما فعل ﷻ ذلك لأنه علق قوام العالم ونظامه بذلك. والثاني: أن المراد هو أنه تعالى يأتي بالليل عقيب النهار، فيلبس الدنيا ظلمة بعد أن كان فيها ضوء النهار، ثم يأتي بالنهار عقيب الليل فيلبس الدنيا ضوءه، فكان المراد من إيلاج أحدهما في الآخر إيجاد كل واحد منهما عقيب الآخر، والأول أقرب إلى اللفظ؛ لأنه إذا كان النهار طويلًا فجعل ما نقص منه زيادة في الليل كان ما نقص منه داخلًا في الليل»(١).

قال ابن كثير: «أي: تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان، وهكذا في فصول السنة: ربيعًا وصيفًا وخريفًا وشتاء»(٢).

وقوله: ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ **قال ابن كثير**: «أي: تخرج الزرع من الحبّ، والحب من الزرع، والنخلة من النواة، والنواة من النخلة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والدجاجة من البيضة، والبيضة من الدجاجة، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء»(٣).

---

(١) تفسير الرازي (٨/ ١٠).
(٢) التفسير (٢/ ٢٣).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦).

وقال ابن جرير: «أولى التأويلات التي ذكرناها في هذه الآية بالصواب، تأويلُ من قال: يخرج الإنسان الحيّ والأنعام والبهائم الأحياءَ من النُّطف الميتة، وذلك إخراجُ الحيّ من الميت، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان الحي والأنعام والبهائم الأحياء، وذلك إخراج الميت من الحيّ.

وذلك أن كل حيّ فارقه شيء من جسده، فذلك الذي فارقه منه ميت. فالنطفة ميتة لمفارقتها جسد من خرجت منه، ثم ينشئ اللَّه منها إنسانًا حيًّا وبهائمَ وأنعامًا أحياءً. وكذلك حكم كل شيء حيّ زايله شيء منه، فالذي زَايله منه ميت. وذلك هو نظير قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١].

وأما تأويل من تأوّله بمعنى الحبة من السنبلة، والسنبلة من الحبة، والبيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة، والمؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن؛ فإن ذلك وإن كان له وجه مفهوم، فليس ذلك الأغلب الظاهرَ في استعمال الناس في الكلام. وتوجيهُ معاني كتاب اللَّه ﷻ إلى الظاهر المستعمل في الناس، أولى من توجيهها إلى الخفيّ القليل في الاستعمال»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كالعالم من الجاهل، والصالح من الطالح، والمؤمن من الكافر، ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ كالكافر من المؤمن، والجاهل من العالم، والشرير من الخيّر، وقد مثل المفسرون للحياة الحسية بخروج النخلة من النواة والعكس، وخروج الإنسان من النطفة، والطائر ونحوه من البيضة وبالعكس، والتمثيل صحيح، وإن أثبت علماء هذا الشأن أن في النطفة حياة، وكذا في البيضة والنواة؛ لأن هذه الحياة اصطلاحية لأهل الفن في عرفهم دون العرف العام الذي جاء التنزيل به. ومن الأمثلة الصحيحة في العرفين خروج النبات من التراب، وقد جاء القرآن بتسمية ما يقابل الحي ميتًا سواء كانت الحياة حسية أو معنوية، وسواء كان ما أطلق عليه لفظ الميت مما يعيش ويحيا مثله، أم لا، وهو استعمال عربي صحيح فصيح.

---

(١) البقرة: الآية (٢٨).

(٢) جامع البيان (٦/ ٣٠٩ شاكر).

والجملة كسابقتها مثال ظاهر لكونه تعالى مالك الملك يؤتي الملك من يشاء. إلخ ما في الآية السابقة، وكل شيء عنده بمقدار، فقد أخرج من العرب الأميين، خاتم النبيين والمرسلين، كما أخرج من سلائل الأنبياء والصديقين أولئك الأشرار المفسدين، ذلك أن سننه تعالى في الاجتماع قد أعدت الأمة العربية؛ لأن يظهر خاتم النبيين منها، أعدتها لذلك بارتقاء الفكر واستقلاله، وبقوة الإرادة واستقلالها حتى صارت هذه الأمة أقوى أمم الأرض استعدادًا لقبول الدين الذي هدّم بناء التقليد والاستعباد، واستبدل به بناء الاستدلال والاستقلال، من حيث كان بنو إسرائيل كغيرهم من الأمم يرسفون في قيود التقليد للأحبار والرهبان، مرتكسين في أغلال الاستبداد من الملوك والحكام، فما أعطى سبحانه ما أعطى، ونزع ما نزع إلا بإقامة السنن التي هي قوام النظام، ومناط الإبداع والأحكام»[1].

قلت: وهذه الآية من أعظم الآيات في توحيد الربوبية، الذي يحيي في الإنسان فطرته، ويوقظ عقله، فيربطه بخالقه، ويجعله دائمًا متمسكًا بأدلته التي منها وجوده وخلقه ورزقه وتدبيره وصنعه، فإذا كان ﷻ يتصرف في الليل والنهار، فيزيد من هذا وينقص من هذا، ويخرج من الحبة سنبلة، ومن النواة نخلة، ومن الماء نارًا، وآياته لا تنتهي عجائبها، ومن كان هذا وصفه فلا يُعْبَد معه غيره، ومن عبد معه غيره انحرف في عقله وفطرته، كالسائر في الطريق يميل يمنة ويسرة حتى ينكب على وجهه في ظلمات الشرك والكفر المنافية لهذه الحقائق الواضحة، فسبحان من أنزل كتابه وأوضح أدلته، فأغنى الناس عن كل المقدمات المنطقية والاستدلالات الكلامية الباردة، التي ما وراءها إلا العبث، فكتاب اللّه خير كتاب ربط العقل بالفطرة، وربط الفطرة بالشرع، وجعل الكل يسير في اتجاه واحد حتى يكتمل وجود الإنسان، وتتحقق عبوديته لمن يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.

قوله -جل شأنه-: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: أنه يعطي من يشاء من خلقه، فيجود عليه بغير محاسبة منه لمن أعطاه؛ لأنه لا يخاف دخول انتقاص في خزائنه،

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٢٧٥).

ولا الفناء على ما بيده»[١].

قال البقاعي: «أي تعطيه عطاء واسعًا جدًّا متصلا من غير تضييق ولا عسر، كما فعل بأول هذه الأمة على ما كانوا فيه من القلة والضعف حيث أباد بهم الأكاسرة والقياصرة، وآتاهم كنوزهم، وأخدمهم أبناءهم وأحلهم ديارهم»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن اللَّه يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن

* عن أم خالد بنت الأسود بن عبد يغوث أنها دخلت على النبي ﷺ فقال: «من هذه؟» فقالوا: أم خالد بنت الأسود بن عبد يغوث فقال: «**الحمد لله الذي يخرج الحي من الميت**» يعني: المؤمن من الكافر[٣].

⋆ فوائد الحديث:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فاللَّه يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، فيخلق من الشخص الكافر مؤمنا نبيًّا وغير نبي، كما خلق الخليل من آزر، وإبراهيم خير البرية هو أفضل الأنبياء بعد محمد ﷺ، وآزر من أهل النار، كما في الصحيح[٤] عن النبي أنه قال: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، فيقول إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني، فيقول له: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، ألم تعدني أن لا تخزيني، وأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟! فيقال له: التفت، فيلتفت، فإذا هو بذيخ عظيم، والذيخ ذَكَر الضباع، فيمسخ آزر في تلك الصورة، ويؤخذ بقوائمه فيلقى في النار**»، فلا يعرف أنه أبو إبراهيم. وكما خلق نبينا ﷺ من أبويه، وقد نهي عن الاستغفار لأمه، وفي الصحيح[٥] أن رجلًا قال له: أين أبي؟ قال: «**إن أباك في النار**». فلما

---

(١) جامع البيان (٣/ ٢٢٧). (٢) نظم الدرر (٤/ ٣٢١).

(٣) ابن جرير (٣/ ٢٢٦) وابن أبي حاتم (٢/ ٦٢٦/ ٣٣٦٠) والطبراني (٢٥/ ٩٥-٩٦/ ٢٤٧ و٢٤٨) من طريق معمر عن الزهري عن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه عن أم خالد به. وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٦٤): «رواه الطبراني بإسنادين وإسناد الثاني حسن».

(٤) البخاري (٦/ ٤٧٧/ ٣٣٥٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٢/ ١١٣٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أحمد (٣/ ١١٩ و٢٦٨) ومسلم (١/ ١٩١/ ٢٠٣) وأبو داود (٥/ ٩٠/ ٤٧١٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

أدبر دعاه فقال: «**إن أبي وأباك في النار**». وقد أخرج من نوح وهو رسول كريم، ابنه الكافر الذي حق عليه القول، وأغرقه، ونهى نوحًا عن الشفاعة فيه. والمهاجرون والأنصار مخلوقون من آبائهم وأمهاتهم الكفار»[١].

* * *

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٢٦٢-٢٦٣).

قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[١]

★ **غريب الآية:**

تقاة: من التقية وهي إظهار الموالاة للكفار باللسان دون القلب مع سلامة الإيمان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «معنى ذلك: لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظَهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من اللَّه في شيء يعني بذلك: فقد برئ من اللَّه، وبرئ اللَّه منه بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر. ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ إلا أن تكونوا في سلطانهم، فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم بفعل»[٢].

وقال البغوي: «ومعنى الآية: أن اللَّه تعالى نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كفار يخافهم فيداريهم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان، دفعًا عن نفسه من غير أن يستحل دمًا حرامًا أو مالًا حرامًا، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل وسلامة النية، قال اللَّه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[٣] ثم هذا رخصة، فلو صبر حتى قتل فله أجر عظيم»[٤].

---

(١) آل عمران: الآية (٢٨).
(٢) جامع البيان (٣/ ٢٢٨).
(٣) النحل: الآية (١٠٦).
(٤) معالم التنزيل (٢/ ٢٦).

وقال ابن عطية: «هذا النهي عن الاتخاذ إنما هو فيما يظهره المرء، فأما أن يتخذه بقلبه ونيته، فلا يفعل ذلك مؤمن، والمنهيون هنا قد قرر لهم الإيمان، فالنهي إنما هو عبارة عن إظهار اللطف للكفار والميل إليهم، ولفظ الآية عام في جميع الأعصار»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «وقد استدل بعضهم بالآية على جواز التقية، وهي ما يقال أو يفعل مخالفًا للحق لأجل توقي الضرر، ولهم فيها تعريفات وشروط وأحكام، فقيل: إنها مشروعة للمحافظة على النفس والعرض والمال. وقيل: لا تجوز التقية لأجل المحافظة على المال. وقيل: إنها خاصة بحال الضعف. وقيل: بل عامة، وينقل عن الخوارج أنهم منعوا التقية في الدين مطلقًا، وإن أكره المؤمن وخاف القتل؛ لأن الدين لا يقدم عليه شيء، ويرد عليهم قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2] فمن نطق بكلمة الكفر مكرهًا وقاية لنفسه من الهلاك، لا شارحًا بالكفر صدرًا ولا مستحبًّا للحياة الدنيا على الآخرة؛ لا يكون كافرًا، بل يعذر كما عذر عمّار بن ياسر، وفيه نزلت هذه الآية، وكما عذر الصحابي الذي قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أني رسول الله؟ قال: نعم، فتركه، وقتل رفيقه الذي سأله هذا السؤال فقال: إني أَصمّ ثلاثًا.

وينقل عن الشيعة أن التقية عندهم أصل من أصول الدين، جرى عليه الأنبياء والأئمة. وينقل عنهم في ذلك أمور متناقضة مضطربة، وخرافات مستغربة، وقلما يسلم نقل المخالف من الظنة، لاسيما إذا كان نقله بالمعنى. وليس تفسيرنا هذا موضع المناقشات والجدل في مسائل الخلاف.

وقصارى ما تدل عليه هذه الآية أن للمسلم أن يتقي ما يتقي من مضرة الكافرين، وقصارى ما تدل عليه آية سورة النحل ما تقدم آنفًا، وكل ذلك من باب الرُّخص؛ لأجل الضرورات العارضة، لا من أصول الدين المتبعة دائمًا، ولذلك كان من مسائل الإجماع وجوب الهجرة على المسلم من المكان الذي يخاف فيه من إظهار

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٤١٩).

(٢) النحل: الآيتان (١٠٦و١٠٧).

دينه ويضطر فيه إلى التقية، ومن علامة المؤمن الكامل أن لا يخاف في اللَّه لومة لائم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾[1] وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2] وكان النبي ﷺ وأصحابه يتحمّلون الأذى في ذات اللَّه ويصبرون.

وأما المداراة فيما لا يهدم حقًّا ولا يبني باطلًا فهي كياسة مستحبة يقتضيها أدب المجالسة ما لم تنته إلى حدّ النفاق، ويستجْز فيها الدهان والاختلاق، وتكون مؤكدة في خطاب السفهاء تصوّنًا من سفههم، واتقاء لفحشهم، وفي الصحيح عن عائشة ﵂ قالت: استأذن رجل على رسول اللَّه ﷺ وأنا عنده، فقال: «**بئس ابن أو أخو العشيرة**» ثم أذِن له، فألان له القول، فلما خرج قلت: يا رسول الله! قلت ما قلت، ثم ألنت له القول؟ فقال: «**يا عائشة! إن من أشر الناس من يتركه الناس أو يدعه الناس اتقاء فحشه**» رواه البخاري في صحيحه[3]، وفيه من حديث أبي الدرداء: (إنا لنكشِّر في وجوه قوم وإن قلوبنا لتلعنهم)[4]، وفي رواية للكشميهني: (وإن قلوبنا لتَقلِيهم)؛ أي: تبغضهم. ولا يجهل أحد أن إلانة القول أو الكشر في الوجوه أي التبسم هما من أدب المجلس، ينبغي بذلهما لكل جليس، ولا يُعدّان من النفاق، ولا من الدهان، ولا ينافيان أمر اللَّه لنبيه بالإغلاظ على الكافرين؛ لأنه ورد في مقام الأمر بالجهاد لدفع إيذائهم، وحماية الدعوة، وبيان حقيقتها، وقد كان ﷺ أحسن الناس أدبًا في مجلسه وحديثه»[5].

قلت: ما ذكره المفسرون -رحمهم الله- في التقية واضح من كلامهم جوازها في حالة الاضطرار، وهو أن يظهر الإنسان خلاف ما يبطن، حتى إذا اضطر إلى الكفر وسب النبي ﷺ كما هو صريح الآية: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِالْإِيمَٰنِ﴾[6]، لكن الشيعة جعلوها ركنًا من أركانهم،

---

(١) المائدة: الآية (٤٤).

(٢) آل عمران: الآية (١٧٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٨)، والبخاري (١٠/ ٥٧٧-٥٧٨/ ٦٠٥٤)، ومسلم (٤/ ٢٠٠٢/ ٢٥٩١)، وأبو داود (٥/ ١٤٤-١٤٦/ ٤٧٩١-٤٧٩٢)، والترمذي (٤/ ٣١٦/ ١٩٩٦).

(٤) ذكره البخاري (١٠/ ٦٩٦) معلقًا، قال الشيخ الألباني: «الحديث لا أصل له مرفوعًا، والغالب أنه ثابت موقوفًا، والله أعلم». انظر الضعيفة (رقم ٢١٦).

(٥) تفسير المنار (٣/ ٢٨٠-٢٨٢).

(٦) النحل: الآية (١٠٦).

وجعلوها دينًا يتدينون به، فاستحلوا النفاق والكذب على كل حال، ولهذا لا يمكن أن يوثق بهم في أي صفة من الصفات، فهم ينظرون إلى مخالفهم نظرة العدو مهما كان علمه وتقواه، ومهما كانت نيته، وهم بالأصل يلعنون خيرة خلق اللَّه ويجعلون ذلك قربة إلى اللَّه، ولذلك كانت فتنهم طيلة العصور متلاحقة بشعة في صفتها، فلا يألون جهدًا في قتل مخالفيهم وتشويههم وإبرازهم بكل صفة قبيحة، فكل ما نهى عنه النبي ﷺ من المثلة في قتل الكفار فهم يرتكبونه في أهل السنة وأبنائها، ويستحلون الأعراض والأموال والدماء، فكتبهم طافحة بتعليم هذه الصفة الفاسدة، وواقعهم يشهد لذلك، فكلما تمكنوا -فرادى أو جماعات- فعلوا بأهل السنة ما لم يفعله بهم يهودي أو نصراني، كما هو واقع العراق ولبنان وإيران وغيرها من البلاد التي سلطوا عليها، أبعدهم اللَّه، وشتت شملهم، وكفانا شرهم.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان موقف المسلم من الكفار والمشركين

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ: «**اللَّهُمَّ أَنْجِ عَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ وَالْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ. اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرَ وَابْعَثْ عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسِنِي يُوسُفَ**»(١).

★ **غريب الحديث:**

اشدد وطأتك: قال التوربشتي: الوطء في الأصل الدوس بالقدم، فسمى به الغزو والقتل؛ لأن من يطأ على الشيء برجله فقد استقصى في هلاكه وإهانته، والمعنى خذهم أخذًا شديدًا.

سني: جمع السنة التي بمعنى القحط.

سني يوسف: السبع الشداد التي أصابهم فيها قحط.

---

(١) أحمد (٢/ ٢٣٩) والبخاري (١٢/ ٣٨٥/ ٦٩٤٠) ومسلم (١/ ٤٦٦/ ٦٧٥) وأبو داود (٢/ ١٤٢/ ١٤٤٢) والنسائي (٢/ ٥٤٦-٥٤٧/ ١٠٧٢-١٠٧٣) وابن ماجه (١/ ٣٩٤/ ١٢٤٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي عياض: «وفي دعائه ﷺ على من دعا عليه في الحديث من الكفار ولعنهم: جواز لعن الكفرة والدعاء عليهم، وتعيين من تعين منهم»[١].

* عن ابن عباس: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ قال: «التقاة» التكلم باللسان والقلب مطمئن بالايمان، ولا يبسط يده فيقتل ولا إلى إثم فإنه لا عذر له[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «معلوم أن التقاة ليست بموالاة ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم والبراءة منهم ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال إلا إذا خافوا من شرهم فأباح لهم التقية، وليست التقية موالاة لهم»[٣].

هذا وإن الرافضة لسوء فهمهم اتخذوا التقية شعارًا لهم ودينًا يدينون اللَّه به، وهو في الحقيقة النفاق الواضح والكذب الصراح.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأس مال الرافضة التقية، وهي أن يظهر خلاف ما يبطن كما يفعل المنافق. وقد كان المسلمون في أول الإسلام في غاية الضعف والقلة، وهم يظهرون دينهم لا يكتمونه.

والرافضة يزعمون أنهم يعملون بهذه الآية قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[٤] ويزعمون أنهم هم المؤمنون، وسائر أهل القبلة كفار، مع أن لهم في تكفير الجمهور قولين، لكن قد رأيت غير واحد من أئمتهم يصرح في كتبه وفتاويه بكفر الجمهور، وأنهم مرتدون، ودارهم دار ردة، يحكم بنجاسة مائعها، وأن من انتقل إلى قول الجمهور منهم ثم تاب لم تقبل توبته؛ لأن المرتد الذي يولد على الفطرة لا يقبل منه الرجوع إلى الإسلام. وهذا في المرتد عن الإسلام قول

---

(١) إكمال المعلم (٢/ ٦٥٩).

(٢) أخرجه: ابن جرير (٣/ ٢٢٨) مختصرا. وصححه الحاكم (٢/ ٢٩١) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا البيهقي في السنن (٨/ ٢٠٩).

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٦٩).

(٤) آل عمران: الآية (٢٨).

لبعض السلف، وهو رواية عن الإمام أحمد. قالوا: لأن المرتد من كان كافرًا فأسلم، ثم رجع إلى الكفر، بخلاف من يولد مسلمًا. فجعل هؤلاء هذا في سائر الأمة، فهم عندهم كفار، فمن صار منهم إلى مذهبهم كان مرتدا. وهذه الآية حجة عليهم، فإن هذه الآية خوطب بها أولا من كان مع النبي ﷺ من المؤمنين، فقيل لهم ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وهذه الآية مدنية باتفاق العلماء؛ فإن سورة آل عمران كلها مدنية، وكذلك البقرة والنساء والمائدة. ومعلوم أن المؤمنين بالمدينة على عهد النبي ﷺ لم يكن أحد منهم يكتم إيمانه، ولا يظهر للكفار أنه منهم، كما يفعله الرافضة مع الجمهور. وقد اتفق المفسرون على أنها نزلت بسبب أن بعض المسلمين أراد إظهار مودة الكفار فنهوا عن ذلك. وهم لا يظهرون المودة للجمهور»[(١)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والرافضة من أعظم الناس إظهارًا لمودة أهل السنة، ولا يظهر أحدهم دينه، حتى إنهم يحفظون من فضائل الصحابة، والقصائد التي في مدحهم، وهجاء الرافضة ما يتوددون به إلى أهل السنة، ولا يظهر أحدهم دينه، كما كان المؤمنون يظهرون دينهم للمشركين وأهل الكتاب. فعلم أنهم من أبعد الناس عن العمل بهذه الآية. وأما قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[(٢)] قال مجاهد: إلا مصانعة. والتقاة ليست بأن أكذب، وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا نفاق، ولكن أفعل ما أقدر عليه، كما في الصحيح[(٣)] عن النبي ﷺ أنه قال: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**». فالمؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدهم بيده مع عجزه ولكن إن أمكنه بلسانه وإلا فبقلبه، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله، بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقًا لهم على جميع دينهم ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتم

---

(١) منهاج السنة (٦/ ٤٢١-٤٢٢).

(٢) آل عمران: الآية (٢٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠-٢٢) ومسلم (١/ ٦٩/ ٤٩) وأبو داود (١/ ٦٧٧-٦٧٨/ ١١٤٠) والترمذي (٤/ ٤٠٧-٤٠٨/ ٢١٧٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي (٨/ ٤٨٥-٤٨٦/ ٥٠٢٣) وابن ماجه (١/ ٤٠٦/ ١٢٧٥) من حديث أبي سعيد الخدري.

إيمانه. وكتمان الدين شيء، وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يبحه اللَّه قط إلا لمن أكره، بحيث أبيح له النطق بكلمة الكفر، واللَّه تعالى قد فرق بين المنافق والمكره. والرافضة حالهم من جنس حال المنافقين، لا من جنس حال المكره الذي أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن هذا الإكراه لا يكون عامًّا من جمهور بني آدم، بل المسلم يكون أسيرًا أو منفردًا في بلاد الكفر، ولا أحد يكرهه على كلمة الكفر، ولا يقولها ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، وقد يحتاج إلى أن يلين لناس من الكفار ليظنوه منهم، وهو مع هذا لا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل يكتم ما في قلبه. وفرق بين الكذب وبين الكتمان، فكتمان ما في النفس يستعمله المؤمن حيث يعذره اللَّه في الإظهار، كمؤمن آل فرعون. وأما الذي يتكلم بالكفر فلا يعذره إلا إذا أكره. والمنافق الكذاب لا يعذر بحال، ولكن في المعاريض مندوحة عن الكذب. ثم ذلك المؤمن الذي يكتم إيمانه يكون بين الكفار الذين لا يعلمون دينه وهو مع هذا مؤمن عندهم يحبونه ويكرمونه؛ لأن الإيمان الذي في قلبه يوجب أن يعاملهم بالصدق والأمانة والنصح، وإرادة الخير بهم، وإن لم يكن موافقا لهم على دينهم، كما كان يوسف الصديق يسير في أهل مصر وكانوا كفارًا، وكما كان مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه، ومع هذا كان يعظم موسى ويقول: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾[(١)].

وأما الرافضي فلا يعاشر أحدًا إلا استعمل معه النفاق، فإن دينه الذي في قلبه دين فاسد، يحمله على الكذب والخيانة وغش الناس وإرادة السوء بهم، فهو لا يألوهم خبالًا ولا يترك شرًّا يقدر عليه إلا فعله بهم، وهو ممقوت عند من لا يعرفه، وإن لم يعرف أنه رافضي تظهر على وجهه سيما النفاق وفي لحن القول، ولهذا تجده ينافق ضعفاء الناس ومن لا حاجة به إليه، لما في قلبه من النفاق الذي يضعف قلبه. والمؤمن معه عزة الإيمان، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. ثم هم يدعون الإيمان دون الناس، والذلة فيهم أكثر منها في سائر الطوائف من المسلمين»[(٢)].

---

(١) غافر: الآية (٢٨).

(٢) منهاج السنة (٦/ ٤٢٣-٤٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٢٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني -تعالى ذكره- بذلك: ويخوفكم اللَّه من نفسه أن تركبوا معاصيه أو توالوا أعداءه، فإن لله مرجعكم ومصيركم بعد مماتكم، ويوم حشركم لموقف الحساب؛ يعني: بذلك متى صرتم إليه، وقد خالفتم ما أمركم به، وأتيتم ما نهاكم عنه من اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نالكم من عقاب ربكم ما لا قبل لكم به، يقول فاتقوه واحذروه أن ينالكم ذلك منه، فإنه شديد العقاب»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة النفس

* عن أبي وائل عن عبد اللَّه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قلت أنت سمعت هذا من عبد اللَّه قال نعم ورفعه قال: **لا أحد أغير من اللَّه، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدحة من اللَّه، فلذلك مدح نفسه**(٢).

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ -وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ، وَهُوَ وُضِعَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ- إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**»(٣).

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ**

---

(١) جامع البيان (٣/ ٢٣٠).

(٢) أحمد (١/ ٣٨١) والبخاري (٨/ ٣٨٤/ ٤٦٣٧) ومسلم (٤/ ٢١١٣/ ٢٧٦٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٥/ ١١١٨٣).

(٣) أحمد (٢/ ٤٣٣) والبخاري (١٣/ ٤٧٣/ ٧٤٠٤) ومسلم (٤/ ٢١٠٧/ ٢٧٥١) والترمذي (٥/ ٥١٣/ ٣٥٤٣) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٧/ ٧٧٥٠) وابن ماجه (٢/ ١٤٣٥/ ٤٢٩٥) من طرق عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[١].

★ غريب الأحاديث:

باعًا: الباع والبَوع والبوُع: مسافة ما بين الكفين إذا بسطتهما، والجمع أبواع.

وقال الباجي: الباع طول ذراعي الإنسان وعضديه وعرض صدره، وذلك قدر أربعة أذرع، وهو من الدواب قدر خطوها في المشي، وهو ما بين قوائمها.

هرولة: الهرولة بين العدو والمشي، وقيل: الهرولة بعد العنق: وقيل: الهرولة الإسراع.

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فاللَّه -جل وعلا- أثبت في آي من كتابه أن له نفسًا، وكذلك قد بين على لسان نبيه ﷺ أن له نفسًا، كما أثبت النفس في كتابه، وكفرت الجهمية بهذه الآي، وهذه السنن، وزعم بعض جهلتهم أن اللَّه تعالى إنما أضاف النفس إليه على معنى إضافة الخلق إليه، وزعم أن نفسه غيره، كما أن خلقه غيره، وهذا لا يتوهمه ذو لب وعلم فضلًا عن أن يتكلم به.

قد أعلم اللَّه في محكم تنزيله أنه كتب على نفسه الرحمة أفيتوهم مسلم أن اللَّه تعالى كتب على غيره الرحمة؟ وحذر اللَّه العباد نفسه. أفيحل لمسلم أن يقول: إن اللَّه حذر العباد غيره؟ أو يتأول قوله لكليمه موسى ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾[٢] فيقول معناه: واصطنعتك لغيري من المخلوق، أو يقول: أراد روح اللَّه بقوله: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾[٣] أراد ولا أعلم ما في غيرك؟ هذا لا يتوهمه مسلم ولا يقوله إلا معطل كافر»[٤].

وقد اختلف العلماء في النفس، فجعلها بعضهم صفة للذات، منهم الإمام ابن خزيمة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا -جل وعلا- في كتابنا

---

(١) أحمد (٢/ ٢٥١)، والبخاري (١٣/ ٤٧٣-٤٧٤/ ٧٤٠٥) ومسلم (٤/ ٢٠٦١/ ٢٦٧٥) والترمذي (٥/ ٥٤٢/ ٣٦٠٣) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٢/ ٧٧٣٠) وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥-١٢٥٦/ ٣٨٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) طه: الآية (٤١).

(٣) المائدة (١١٦).

(٤) التوحيد (١/ ١٩-٢٠).

هذا: ذكر نفسه، جل ربنا عن أن تكون نفسه كنفس خلقه، وعز أن يكون عدمًا لا نفس له»[١].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح السنة بعد ذكره لحديث الأصابع: «والأصبع المذكورة في الحديث صفة من صفات اللَّه عَزَّ وَجَلَّ، وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل من صفات اللَّه تعالى: كالنفس والوجه والعين»[٢].

وذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن نفسه هي ذاته سُبْحَانَهُ، **قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ**: «ويراد بنفس الشيء ذاته وعينه، كما يقال: رأيت زيدا نفسه وعينه، وقد قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ﴾[٣] وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[٥]، وفي الحديث الصحيح أنه قال لأم المؤمنين: «**لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزن بما قلتيه لوزنتهن: سبحان اللَّه عدد خلقه، سبحان اللَّه زنة عرشه، سبحان اللَّه رضا نفسه، سبحان اللَّه مداد كلماته**»[٦].

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ يقول اللَّه تعالى: «**أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم**».

فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء: اللَّه نفسه التي هي ذاته المتصفة بصفاته ليس المراد بها ذاتًا منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة للذات، وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات، كما يظن طائفة أنها الذات المجردة عن الصفات وكلا القولين خطأ»[٧].

وقال الشيخ عبد اللَّه الغنيمان: «المراد بالنفس في هذا اللَّه تعالى، المتصف

---

(١) كتاب التوحيد (ص: ١١).

(٢) شرح السنة (١/ ١٦٨).

(٣) المائدة: الآية (١١٦).

(٤) الأنعام: الآية (٥٤).

(٥) آل عمران: الآية (٢٨) و(٣٠).

(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٢٩-٤٣٠) والبخاري في الأدب المفرد (ص: ٦٤٧) ومسلم (٤/ ٢٠٩٠/ ٢٧٢٦) والترمذي (٥/ ٥١٩-٥٢٠/ ٣٥٥٥) والنسائي (٣/ ٨٦-٨٧/ ١٣٥١) وابن ماجه (٢/ ١٢٥١-١٢٥٢/ ٣٨٠٨) من حديث جويرية.

(٧) مجموع الفتاوى (٩/ ٢٩٢-٢٩٣).

بصفاته، ولا يقصد بذلك ذاتا منفكة عن الصفات، كما لا يراد به صفة الذات كما قاله بعض الناس»[١].

* * *

(١) شرح كتاب التوحيد (١/ ٢٤٥) وانظر كتابنا «المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات» (٤/ ١٦٩٤-١٦٩٨).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: قل يا محمد للذين أمرتهم أن لا يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، إن تخفوا ما في صدوركم من موالاة الكفار فتسروه، أو تبدوا ذلكم من أنفسكم بألسنتكم وأفعالكم، فتظهروه يعلمه اللَّه فلا يخفى عليه؛ يقول: فلا تضمروا لهم مودة، ولا تظهروا لهم موالاة، فينالكم من عقوبة ربكم ما لا طاقة لكم به؛ لأنه يعلم سركم وعلانيتكم، فلا يخفى عليه شيء منه، وهو محصيه عليكم حتى يجازيكم عليه بالإحسان إحسانًا، وبالسيئة مثلها»(١).

وقال ابن كثير: «يخبر -تبارك وتعالى- عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والآنات واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما في السموات والأرض لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ أي: قدرته نافذة في جميع ذلك.

وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وأن لا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم، فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر»(٢).

* * *

---

(١) جامع البيان (٣/ ٢٣٠).

(٢) التفسير (٢/ ٢٤).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

★ غريب الآية:

أمدًا: مدة من الزمان لها حد مجهول إذا أطلق. وقد ينحصر نحو أن يقال: أمد ٢ كذا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: ويحذركم اللَّه نفسه في يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا موفرًا، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا؛ يعني: غاية بعيدة، فإن مصيركم أيها القوم يومئذ إليه، فاحذروه على أنفسكم من ذنوبكم»[(١)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول -جل ثناؤه-: ويحذركم اللَّه نفسه أن تُسخطوها عليكم بركوبكم ما يسخطه عليكم فتوافونه، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا، وهو عليكم ساخط فينالكم من أليم عقابه ما لا قبل لكم به. ثم أخبر عَزَّ وَجَلَّ أنه رؤوف بعباده رحيم بهم، ومن رأفته بهم تحذيره إياهم نفسه، وتخويفهم عقوبته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معاصيه»[(٢)].

وقال السعدي: «ولما ذكر لهم من عظمته وسعة أوصافه ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضًا داعيًا آخر إلى مراقبته وتقواه، وهو: أنهم كلهم صائرون إليه، وأعمالهم حينئذ من خير وشر محضرة. فحينئذ يغتبط أهل الخير

(١) جامع البيان (٦/ ٣١٩ شاكر).
(٢) جامع البيان (٦/ ٣٢١ شاكر).

بما قدموه لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضرًا ويودون أن بينهم وبينه أمدا بعيدا. فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه، وكادح في هذه الحياة، وأنه لا بد أن يلاقي ربه، ويلاقي سعيه، أوجب له أخذ الحذر، والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة التي توجب السعادة والمثوبة. ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمته، وكمال عدله، وشدة نكاله، ومع شدة عقابه فإنه رؤوف رحيم. ومن رأفته ورحمته أنه خوف العباد وزجرهم عن الغي والفساد كما قال تعالى -لما ذكر العقوبات- ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾[1] فرأفته ورحمته سهلت لهم الطرق التي ينالون بها الخيرات. ورأفته ورحمته حذرتهم من الطرق التي تفضي بهم إلى المكروهات»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «وكيف لا تجد كل نفس ما عملت محضرًا فتُسر المحسنة، وتنعَم بما أحسنت، وتبتئس المسيئة وتُغَمّ بما أساءت، وتودّ لو كان بينها وبينه بعد المشرقين، وهذه الأعمال مرسومة في صحائف هذه الأنفس، وهي صفات لها، وعن هذه الصفات صدرت تلك الحركات فزادت الصفات رسوخًا، والنقوش في النفس تمكنًا حتى ارتقت بالمحسن إلى عليين، حيث كتاب الأبرار، وهبطت بالمسيء إلى سجّين، حيث كتاب الفجار ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ فإنه من ورائكم محيط، وسنته في تأثير الأعمال في النفوس وجعل آثار أعمالها مصدرًا لجزائها حاكمة عليكم، أفلا يجب عليكم -والأمر كذلك- أن تحذروه بما أوتيتم من القدوة على الخير والميل إليه بترجيحه على ما يعرض على الفطرة من تزيين عمل السوء والتوبة إليه سبحانه مما غُلبتم عليه في الماضي ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ومن رأفته أن جعل الفطرة سليمة ميّالة بطبعها إلى الخير، وتتألم مما يعرض لها من الشرّ، وأن جعل للإنسان أنواعًا من الهاديات يرجّح بها الخير على الشرّ كالعقل والدين، وأن جعل جزاء الخير مضاعفًا، وأن جعل أثر الشر في النفس قابلًا للمحو بالتوبة والعمل الصالح، وأنْ أكثر التحذير من عاقبة السوء ليذكر الإنسان ولا ينسى، لعله يتذكر أو يخشى»[3].

---

(١) الزمر: الآية (١٦).

(٢) تفسير السعدي (١/ ٣٧٣-٣٧٤).

(٣) تفسير المنار (٣/ ٢٨٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة اللَّه، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي، في جميع أقواله وأفعاله كما ثبت في الصحيح عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(١)]. ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تحب، إنما الشأن أن تحَب. وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون اللَّه فابتلاهم اللَّه بهذه الآية فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾»[(٢)].

قال السعدي: «هذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحب اللَّه حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلامة محبة اللَّه اتباع محمد ﷺ الذي جعل متابعته، وجميع ما يدعو إليه طريقًا إلى محبته ورضوانه. فلا تنال محبة اللَّه ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما. فمن فعل ذلك أحبه اللَّه، وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه، وستر عليه عيوبه»[(٣)].

قال الشنقيطي: «صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: أن اتباع نبيه موجب لمحبته -جلّ وعلا- ذلك المتبع، وذلك يدل على أن طاعة رسوله ﷺ هي عين طاعته تعالى، وصرح بهذا المدلول في قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[(٤)]، وقال

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) التفسير (٢/ ٢٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٧٤).

(٤) النساء: الآية (٨٠).

تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[(١)].

* **تنبيه**: يؤخذ من هذه الآية الكريمة أن علامة المحبة الصادقة لله ورسوله ﷺ هي اتباعه ﷺ، فالذي يخالفه ويدعي أنه يحبه فهو كاذب مفتر؛ إذ لو كان محبًّا له لأطاعه، ومن المعلوم عند العامة أن المحبة تستجلب الطاعة، ومنه قول الشاعر:

لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع»[(٢)].

وقال ابن تيمية: «فكل من ادعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول فقد كذب، ليست محبته لله وحده، بل إن كان يحبه فهي محبة شرك، فإنما يتبع ما يهواه كدعوى اليهود والنصارى محبة الله، فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب، فكانوا يتبعون الرسول، فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين.

وهكذا أهل البدع فمن قال: أنه من المريدين لله المحبين له، وهو لا يقصد اتباع الرسول، والعمل بما أمر به، وترك ما نهى عنه، فمحبته فيها شوب من محبة المشركين واليهود والنصارى، بحسب ما فيه من البدعة. فإن البدع التي ليست مشروعة وليست مما دعا إليه الرسول لا يحبها الله، فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله، فأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حب الله ورسوله ووجوب متابعة القرآن والسنة

* عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قَالَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[(٤)].

* عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ مَتَى السَّاعَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا

---

(١) الحشر: الآية (٧).

(٢) أضواء البيان (١/ ١٩٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٦٠-٣٦١).

(٤) أحمد (١/ ٣٩٢) والبخاري (١٠/ ٦٨٢/ ٦١٦٩) ومسلم (٤/ ٢٠٣٤/ ٢٦٤٠).

أَعْدَدْتَ لَهَا؟» قَالَ: مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلَاةٍ وَلَا صَوْمٍ وَلَا صَدَقَةٍ، وَلَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قَالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»[١].

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث دليل على أنه سيلحق برسول اللَّه ﷺ وأصحابه من أحبهم إلى يوم القيامة إن شاء الله؛ فإن قوله «**لما يلحق بهم**»[٢]؛ فإن (لما) أصلها (لم) زيدت عليها (ما) ليقتضي التأخير فيتصرف المعنى إلى أنه لم يلحق بهم عملا ووقتا. وفيه أيضًا بشرى لمن أحبهم ثم قصر به عمله أن يبلغ أعمالهم. فإن اللَّه ﷻ يلحقه بهم من حيث أنه بنفس حبه لهم فنيته تكون متمنية بلوغ مرامهم؛ فلمثل هذا كانت نية المؤمن بالغة مالم يبلغه عمله. ويستدل من نطق هذا الحديث على أنه لا ينبغي لمسلم أن يحب كافرا ولا أن يوده، ولا أن يتعرض أن يكون له عنده يد فيوده لأجلها مخافة أن يلحقه اللَّه به، لظاهر هذا الحديث فإنه لم يقل المرء مع من أحب من الصالحين خاصة بل أطلقه، وهذا عام يتناول الصالحين وغير الصالحين»[٣].

وقال القاضي عياض: «فيه أن محبة اللَّه ومحبة نبيه الاستقامة على طاعتهما وترك مخالفتهما، وإذا أحبهما تأدب بأدب شريعتهما، ووقف عند حدودهما وفي حبه لله ولنبيه ولمن أحبه من الصالحين وميله بقلبه إليهم، إنما ذلك كله لله تعالى، وطاعة له وثمرة صحة إيمانه، وشرح قلبه، وهو من أعظم الدرجات وأرفع منازل الطاعات، ومن أعمال القلوب التي الأجر عليها أعظم من أجر أعمال الجوارح، وإثابة اللَّه على ذلك أن رفع إلى منزلة من أحبه فيه، وإن لم يكن له أعمال مثل أعماله، وهو فضل اللَّه يؤتيه من يشاء»[٤].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه اللَّه محبة توجب له الإتيان بما وجب عليه منه، فإن زادت المحبة، حتى أتى بما ندب إليه

(١) أحمد (٣/ ١١٠) والبخاري (١٠/ ٦٨٢/ ٦١٧١) ومسلم (٤/ ٢٠٣٣/ ٢٦٣٩(١٦٤)» أبو داود (٥/ ٣٤٥/ ٥١٢٧) والترمذي (٤/ ٥١٣/ ٢٣٨٥) بألفاظ متقاربة.
(٢) وهي رواية مسلم.
(٣) الإفصاح (٢/ ٧٣-٧٤).
(٤) إكمال المعلم (٨/ ١١٩).

منه، كان ذلك فضلا، وأن يكره ما كرهه اللَّه تعالى كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهًا، كان ذلك فضلا. وقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين**»[1] فلا يكون المؤمن مؤمنًا حتى يقدم محبة الرسول على محبة جميع الخلق، ومحبة الرسول تابعة لمحبة مرسله.

والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات، قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[3]. قال الحسن: قال أصحاب النبي ﷺ: يا رسول اللَّه، إنا نحب ربنا حبًّا شديدًا، فأحب اللَّه أن يجعل لحبه علمًا، فأنزل اللَّه هذه الآية[4].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ، قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللَّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يلقى في النار**»[5].

فمن أحب اللَّه ورسوله محبة صادقة من قلبه، أوجب له ذلك أن يحب بقلبه ما يحبه اللَّه ورسوله، ويكره ما يكرهه اللَّه ورسوله، ويرضى بما يرضى اللَّه ورسوله، ويسخط ما يسخطه اللَّه ورسوله، وأن يعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئًا يخالف ذلك، فإن ارتكب بعض ما يكرهه اللَّه ورسوله، أو ترك بعض ما يحبه اللَّه ورسوله، مع وجوبه والقدرة عليه، دل ذلك على

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٧٧) والبخاري (١/ ٨٠/ ١٥) ومسلم (١/ ٦٧/ ٤٤) والنسائي (٨/ ٤٨٨/ ٥٠٢٨) وابن ماجه (١/ ٢٦/ ٦٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه بلفظ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**».

(٢) التوبة: الآية (٢٤).

(٣) آل عمران: الآية (٣١).

(٤) أخرجه ابن جرير في التفسير (٣/ ٢٣٢).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٣) والبخاري (١/ ٨٢/ ١٦) ومسلم (١/ ٦٦/ ٤٣) والترمذي (٥/ ١٦/ ٢٦٢٤) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٨/ ٤٧٢/ ٥٠٠٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك، ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة.

قال أبو يعقوب النهرجوري: كل من ادعى محبة اللَّه ﷻ، ولم يوافق اللَّه في أمره، فدعواه باطلة، وكل محب ليس يخاف اللَّه، فهو مغرور.

وقال يحيى بن معاذ: ليس بصادق من ادعى محبة اللَّه ﷻ ولم يحفظ حدوده.

وسئل رويم عن المحبة، فقال: الموافقة في جميع الأحوال، وأنشد:

ولو قلت لي مُتْ مِتُّ سمعًا وطاعة … وقلت لداعي الموت أهلًا ومرحبا

ولبعض المتقدمين:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه … هذا لعمري في القياس شنيع

لو كان حبك صادقًا لأطعته … إن المحب لمن يحب مطيع

فجميع المعاصي تنشأ من تقديم هوى النفوس على محبة اللَّه ورسوله، وقد وصف اللَّه المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه، وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾[1].

وكذلك البدع، إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع، ولهذا يسمى أهلها أهل الأهواء.

وكذلك المعاصي، إنما تقع من تقديم الهوى على محبة اللَّه ومحبة ما يحبه.

وكذلك حب الأشخاص: الواجب فيه أن يكون تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ. فيجب على المؤمن محبة اللَّه ومحبة من يحبه اللَّه من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عمومًا، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان أن يحب المرء لا يحبه إلا لله. ويحرم موالاة أعداء اللَّه، ومن يكرهه اللَّه عموما، وقد سبق ذلك في موضع آخر، وبهذا يكون الدين كله لله. و«**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان**»[2]، ومن كان حبه وبغضه

---

(١) القصص: الآية (٥٠).

(٢) أبو داود (٥/ ٦٠/ ٤٦٨١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وحسن إسناده الشيخ الألباني رحمه الله، انظر الصحيحة (٣٨٠).

وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه، كان ذلك نقصًا في إيمانه الواجب، فيجب عليه التوبة من ذلك، والرجوع إلى اتباع ما جاء به الرسول ﷺ من تقديم محبة اللَّه ورسوله، وما فيه رضا اللَّه ورسوله على هوى النفوس ومراداتها كلها»[١].

* عن أبي رافع عن النبي ﷺ قال: «**لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أونهيت عنه فيقول: لا ندري. . ما وجدنا في كتاب اللَّه اتبعناه**»[٢].

★ غريب الحديث:

لا ألفين: أي: لا أجد وألقى يقال ألفيت الشيء ألفيه إلفاء إذا وجدته وصادفته ولقيته.

أريكته: أي سريره المزين بالحلل والأثواب.

★ فوائد الحديث:

قال الخطابي: «يحذر بذلك مخالفة السنن التي سنها رسول اللَّه ﷺ مما ليس له في القرآن ذكر على ما ذهبت إليه الخوارج والروافض، فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي قد ضمنت بيان الكتاب فتحيروا وضلوا».

وقال: «وفي الحديث: دليل على أنه لا حاجة بالحديث أن يعرض على الكتاب، وأنه مهما ثبت عن رسول اللَّه ﷺ كان حجة بنفسه، وأما ما رواه بعضهم أنه قال: «**إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب اللَّه فإن وافقه فخذوه وإن خالفه فدعوه**» فإنه حديث باطل لا أصل له. وقد حكى زكريا ابن يحيى الساجي عن يحيى بن معين أنه قال: هذا حديث وضعته الزنادقة»[٣].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذه النصوص توجب اتباع الرسول وإن لم نجد ما قاله منصوصًا بعينه في الكتاب، كما أن تلك الآيات توجب اتباع الكتاب وإن لم نجد ما

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٩٥-٣٩٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١٠) وأبو داود (٥/ ١٢/ ٤٦٠٥) والترمذي (٥/ ٣٦-٣٧/ ٢٦٦٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، ورواه ابن ماجه (١/ ٦-٧/ ١٣) وصححه الحاكم (١/ ١٠٨) على شرطهما، ووافقه الذهبي، وصححه ابن حبان (١/ ١٩٠/ ١٣).

(٣) معالم السنن (٤/ ٢٧٦).

في الكتاب منصوصًا بعينه في حديث عن الرسول غير الكتاب. فعلينا أن نتبع الكتاب وعلينا أن نتبع الرسول، واتباع أحدهما هو اتباع الآخر؛ فإن الرسول بلغ الكتاب، والكتاب أمر بطاعة الرسول. ولا يختلف الكتاب والرسول ألبتة، كما لا يخالف الكتاب بعضه بعضًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[١].

والأحاديث كثيرة عن النبي ﷺ في وجوب اتباع الكتاب وفي وجوب اتباع سنته ﷺ، كقوله: «**لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: بيننا وبين هذا القرآن، فما وجدنا فيه من حلال حللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا وإنه مثل القرآن أو أعظم**»»[٢].

* عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال ابن رجب رحمه الله: «وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها كما أن حديث: «**الأعمال بالنيات**»[٤] ميزان للأعمال في باطنها، فكما أن كل عمل لا يراد به وجه اللَّه تعالى، فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر اللَّه ورسوله، فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به اللَّه ورسوله، فليس من الدين في شيء»[٥].

وقال: «فهذا الحديث يدل بمنطوقه على أن كل عمل ليس عليه أمر الشارع، فهو

---

(١) النساء: الآية (٨٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ٨٤-٨٥).

(٣) أحمد (٦/ ٧٣) والبخاري (٥/ ٣٧٧/ ٢٦٩٧) ومسلم (٣/ ١٣٤٣/ ١٧١٨) وأبو داود (٥/ ١٢/ ٤٦٠٦) وابن ماجه (١/ ٧/ ١٤).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٢٥) والبخاري (١/ ١١/ ١) ومسلم (٣/ ١٥١٥-١٥١٦/ ١٩٠٧) وأبو داود (٢/ ٦٥١-٦٥٢/ ٢٢٠١) والترمذي (٤/ ١٥٤/ ١٦٤٧) والنسائي (١/ ٦٢-٦٣/ ٧٥) وابن ماجه (٢/ ١٤١٣/ ٤٢٢٧) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٥) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٦).

مردود، ويدل بمفهومه على أن كل عمل عليه أمره، فهو غير مردود، والمراد بأمره هاهنا: دينه وشرعه، كالمراد بقوله في الرواية الأخرى: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه**». فالمعنى إذًا: أن من كان عمله خارجًا عن الشرع ليس متقيدا بالشرع، فهو مردود»[١].

وقال: «فأما العبادات، فما كان منها خارجًا عن حكم اللَّه ورسوله بالكلية، فهو مردود على عامله، وعامله يدخل تحت قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾[٢]، فمن تقرب إلى اللَّه بعمل، فلم يجعله اللَّه ورسوله قربة إلى اللَّه، فعمله باطل مردود عليه، وهو شبيه بحال الذين كانت صلاتهم عند البيت مكاء وتصدية، وهذا كمن تقرب إلى اللَّه تعالى بسماع الملاهي، أو بالرقص، أو بكشف الرأس في غير الإحرام، وما أشبه ذلك من المحدثات التي لم يشرع اللَّه ورسوله التقرب بها بالكلية.

وليس ما كان قربة في عبادة يكون قربة في غيرها مطلقًا، فقد رأى النبي ﷺ رجلا قائما في الشمس، فسأل عنه، فقيل: إنه نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل وأن يصوم، فأمره النبيﷺ أن يقعد ويستظل، وأن يتم صومه فلم يجعل قيامه وبروزه للشمس قربة يوفى بنذرهما[٣]. وقد روي أن ذلك في يوم جمعة عند سماع خطبة النبي ﷺ[٤] وهو على المنبر، فنذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ما دام النبي ﷺ يخطب، إعظاما لسماع خطبة النبي ﷺ، ولم يجعل النبي ﷺ ذلك قربة توفى بنذره، مع أن القيام عبادة في مواضع أخر، كالصلاة والأذان والدعاء بعرفة، والبروز للشمس قربة للمحرم، فدل على أنه ليس كل ما كان قربة في موطن يكون قربة في كل المواطن، وإنما يتبع في ذلك ما وردت به الشريعة في مواضعها.

وكذلك من تقرب بعبادة نهي عنها بخصوصها، كمن صام يوم العيد، أو صلى في وقت النهي.

وأما من عمل عملًا أصله مشروع وقربة، ثم أدخل فيه ما ليس بمشروع، أو أخل

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٧). (٢) الشورى: الآية (٢١).

(٣) أخرجه: البخاري (١١/ ٧١٨/ ٦٧٠٤) وأبو داود (٣/ ٥٩٩-٦٠٠/ ٣٣٠٠) وابن ماجه (١/ ٦٩٠/ ٢١٣٦) كلهم من طريق أيوب عن عكرمة عن ابن عباس ﵄.

(٤) رواه الطحاوي في المشكل (٥/ ٤١١/ ٢١٦٧).

فيه بمشروع، فهذا مخالف أيضًا للشريعة بقدر إخلاله بما أخل به، أو إدخاله ما أدخل فيه، وهل يكون عمله من أصله مردودًا عليه أم لا؟ فهذا لا يطلق القول فيه برد ولا قبول، بل ينظر فيه: فإن كان ما أخل به من أجزاء العمل أو شروطه موجبًا لبطلانه في الشريعة، كمن أخل بالطهارة للصلاة مع القدرة عليها، أو كمن أخل بالركوع أو بالسجود أو بالطمأنينة فيهما، فهذا عمله مردود عليه، وعليه إعادته إن كان فرضًا، وإن كان ما أخل به لا يوجب بطلان العمل، كمن أخل بالجماعة للصلاة المكتوبة عند من يوجبها ولا يجعلها شرطًا، فهذا لا يقال: إن عمله مردود من أصله، بل هو ناقص. وإن كان قد زاد في العمل المشروع ما ليس بمشروع، فزيادته مردودة عليه، بمعنى أنها لا تكون قربة ولا يثاب عليها، ولكن تارة يبطل بها العمل من أصله فيكون مردودًا، كمن زاد في صلاته ركعة عمدًا مثلًا، وتارة لا يبطله ولا يرده من أصله، كمن توضأ أربعًا أربعًا، أو صام الليل مع النهار، وواصل في صيامه، وقد يبدل بعض ما يؤمر به في العبادة بما هو منهي عنه، كمن ستر عورته في الصلاة بثوب محرم، أو توضأ للصلاة بماء مغصوب، أو صلى في بقعة غصب، فهذا قد اختلف العلماء فيه، هل عمله مردود من أصله، أو أنه غير مردود، وتبرأ به الذمة من عهدة الواجب؟ وأكثر الفقهاء على أنه ليس بمردود من أصله»[1].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الفقهاء: العبادات مبناها على التوقيف كما في الصحيحين عن عمر بن الخطاب أنه قبل الأسود وقال: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك لما قبلتك»[2] والله سبحانه أمرنا باتباع الرسول وطاعته، وموالاته ومحبته، وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما، وضمن لنا بطاعته ومحبته محبة الله وكرامته فقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٧-١٧٩).

(٢) أحمد (١/ ٣٤) والبخاري (٣/ ٦٠٠/ ١٦٠٥) ومسلم (٢/ ٩٢٥/ ١٢٧٠) وأبو داود (٢/ ٤٣٨-٤٣٩/ ١٨٧٣) والترمذي (٣/ ٢١٤-٢١٥/ ٨٦٠)، والنسائي (٥/ ٢٥٠/ ٢٩٣٧) وابن ماجه (٢/ ٩٨١/ ٢٩٤٣) من طرق عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) آل عمران: الآية (٣١).

(٤) النور: الآية (٥٤).

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[١]، وأمثال ذلك في القرآن كثير.

ولا ينبغي لأحد أن يخرج في هذا عما مضت به السنة وجاءت به الشريعة، ودل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه سلف الأمة، وما علمه قال به، وما لم يعلمه أمسك عنه، ولا يقفو ما ليس له به علم، ولا يقول على اللَّه ما لم يعلم، فإن اللَّه تعالى قد حرم ذلك كله»[٢].

* * *

(١) النساء: الآية (١٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣٣٤-٣٣٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال تعالى آمرًا لكل أحد من خاص وعام: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾؛ أي: خالفوا عن أمره، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، واللَّه لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول اللَّه إلى جميع الثقلين الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء بل المرسلون بل أولوا العزم منهم في زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته»(١).

قال صديق حسن خان: «﴿قُلْ﴾ لقريش ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ﴾ حذف المتعلق مشعر بالتعميم؛ أي: في جميع الأوامر والنواهي، والمقلد غير مطيع لله وللرسول، بل مشاقق لهما حيث ترك إطاعة اللَّه ورسوله وأطاع غيرهما من غير حجة نيرة وبرهان جلي»(٢).

* * *

(١) التفسير (٢/ ٢٥).

(٢) فتح البيان (٢/ ٢١٩).

قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

★ **غريب الآية:**

اصطفى: اختار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم عليه السلام، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأسكنه الجنة ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة. واصطفى نوحا عليه السلام، وجعله أول رسوله إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا في دين اللَّه ما لم ينزل به سلطانًا، وانتقم له لما طالت مدته بين ظهراني قومه، يدعوهم إلى اللَّه ليلا ونهارا، سرا وجهارا، فلم يزدهم ذلك إلا فرارًا، فدعا عليهم، فأغرقهم اللَّه عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه اللَّه به. واصطفى آل إبراهيم، ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ، وآل عمران والمراد بعمران هذا: هو والد مريم بنت عمران أم عيسى ابن مريم عليه السلام»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: اختارهم وجعلهم صفوة العالمين وخيارهم بجعل النبوة والرسالة فيهم، فآدم أول البشر ارتقاءً إلى هذه المرتبة، فإنه بعد ما تنقل في الأطوار إلى مرتبة التوبة والإنابة اصطفاه تعالى واجتباه كما قال في سورة طه: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[(٢)] فكان هاديًا مَهديًّا، وكان في ذريته من النبيين والمرسلين من شاء اللَّه

(١) التفسير (٢/ ٢٦).

(٢) طه: الآية (١٢٢).

تعالى، وأما نوح عليه السلام فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم فانقرض من السلائل البشرية من انقرض، ونجا هو وأهله في الفلك، فكان بذلك أبًا ثانيًا للجم الغفير من البشر، وكان هو نبيًّا مرسلا، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين، ثم تفرقت ذريته وانتشرت، وفشت فيهم الوثنية حتى ظهر فيهم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- نبيًّا مرسلًا، وخليلًا مصطفًى، وتتابع النبيون والمرسلون من آله وذريته، وكان أرفعهم قدرًا وأنبههم ذكرا آل عمران قبل أن تختم النبوة بولد إسماعيل -عليهم الصلاة والسلام-»[١].

قال السعدي: «لله تعالى من عباده أصفياء يصطفيهم ويختارهم، ويمن عليهم بالفضائل العالية، والنعوت السامية، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والخصائص المتنوعة. فذكر هذه البيوت الكبار، وما احتوت عليه من كملة الرجال الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير تسلسل في ذراريهم وشمل ذكورهم ونساءهم. وهذا من أجل منته وأفضل مواقع جوده وكرمه»[٢].

* * *

(١) تفسير المنار (٣/ ٢٨٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٧٥).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نذرت: النذر أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر.

محررًا: خالصًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «معناه: إني جعلت لك يا رب نذرًا أن لك الذي في بطني محررًا لعبادتك؛ يعني: بذلك: حبسته على خدمتك وخدمة قدسك في الكنيسة، عتيقة من خدمة كل شيء سواك، مفرغة لك خاصة.. ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾ أي فتقبل مني ما نذرت لك يا رب»[1].

وقال ابن العربي: «لا خلاف أن امرأة عمران لا يتطرق إلى حملها نذر لكونها حرة، فلو كانت امرأته أمة فلا خلاف أن المرء لا يصح له نذر ولده كيف ما تصرفت حاله؛ فإنه إن كان الناذر عبدًا لم يتقرر له قول في ذلك، وإن كان الناذر حرًّا فولده لا يصح أن يكون مملوكًا له، وكذلك المرأة مثله، وأي وجه للنذر فيه؟

وإنما معناه -واللَّه أعلم-: أن المرء إنما يريد ولده للأنس به والاستبصار والتسلي والمؤازرة، فطلبت المرأة الولد أنسًا به وسكونًا إليه، فلما منَّ اللَّه تعالى عليها به نذرت أن حظَّها من الأنس به متروك فيه؛ وهو على خدمة اللَّه تعالى موقوف. وهذا نذر الأحرار من الأبرار، وأرادت به محررًا من جهتي، محررًا من رق الدنيا وأشغالها فتقبله مني»[2].

---

(١) جامع البيان (٣/ ٢٣٥).

(٢) أحكام القرآن (١/ ٢٧٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان معنى النذر

* قال ابن عباس ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ : للمسجد يخدمه[١].

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ امْرَأَةً أَوْ رَجُلًا كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ وَلَا أُرَاهُ إِلَّا امْرَأَةً فَذَكَرَ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ «أَنَّهُ صلى عَلَى قَبْرِهَا»[٢].

★ غريب الحديث:

تقم: بقاف مضمومة؛ أي: تجمع القمامة وهي الكناسة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «والظاهر أنه كان في شرعهم صحة النذر في أولادهم، وكأن غرض البخاري الإشارة بإيراد هذا إلى أن تعظيم المسجد بالخدمة كان مشروعًا عند الأمم السالفة حتى إن بعضهم وقع منه نذر ولده لخدمته. ومناسبة ذلك لحديث الباب من جهة صحة تبرع تلك المرأة بإقامة نفسها لخدمة المسجد لتقرير النبي ﷺ لها على ذلك»[٣].

قال ابن رجب: «قال القاضي أبو يعلى في كتاب أحكام القرآن: هذا النذر صحيح في شريعتنا؛ فإنه إذا نذر الإنسان أن ينشئ ولده الصغير على عبادة اللّه وطاعته، وأن يعلمه القرآن والفقه وعلوم الدين صح النذر. وهذا الذي قاله حق؛ فقد قال النبي ﷺ: «**من نذر أن يطيع اللّه فليطعه**»[٤]، فلو نذر أحد أن يخدم مسجدًا لله ﷻ لزمه الوفاء بذلك مع القدرة. وأما إن نذر أن يجعل ولده لله ملازمًا لمسجد يخدمه ويتعبد فيه؛ فلا يبعد أن يلزمه الوفاء بذلك؛ فإنه نذر طاعة، فيلزمه تجرد ولده لما نذره له، ويجب على الولد طاعة أبيه إذا أمره بطاعة اللّه ﷻ»[٥].

---

(١) علقه البخاري بصيغة الجزم (١/ ٧٢٩)، وقال الحافظ ابن حجر: وصله ابن أبي حاتم بمعناه. انظر تفسير ابن أبي حاتم (٢/ ٦٣٦).

(٢) أحمد (٢/ ٣٥٣) والبخاري (١/ ٧٢٩/ ٤٦٠) ومسلم (٢/ ٦٥٩/ ٩٥٦) وأبو داود (٣/ ٥٤١/ ٣٢٠٣) وابن ماجه (١/ ٤٨٩/ ١٥٢٧).

(٣) الفتح (١/ ٧٢٩).

(٤) أحمد (٦/ ٣٦) والبخاري (١١/ ٧١٧/ ٦٧٠٠) وأبو داود (٣/ ٥٩٣/ ٣٢٨٩) والترمذي (٤/ ٨٨-٨٩/ ١٥٢٦) والنسائي (٧/ ٢٣/ ٣٨١٥) وابن ماجه (١/ ٦٨٧/ ٢١٢٦) كلهم من حديث عائشة ﵂.

(٥) فتح الباري لابن رجب (٣/ ٣٥٩).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

★ غريب الآية:

أعيذها: العوذ: الالتجاء إلى الغير والتعلق به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قوله ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾:

قال ابن جرير -رحمه الله تعالى-: «تأويل الكلام إذًا: والله أعلم من كل خلقه بما وضعت، ثم رجع جل ذكره إلى الخبر عن قولها، وأنها قالت اعتذارًا إلى ربها مما كانت نذرت في حملها، فحررته لخدمة ربها ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقوم بها، وأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة لما يعتريها من الحيض والنفاس»[(١)].

قال الرازي: «واعلم أن الفائدة في هذا الكلام أنه تقدم منها النذر في تحرير ما في بطنها، وكان الغالب على ظنها أنه ذكر فلم تشترط ذلك في كلامها، وكانت العادة عندهم أن الذي يحرر ويفرغ لخدمة المسجد وطاعة الله هو الذكر دون الأنثى فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ خائفة أن نذرها لم يقع الموقع الذي يعتد به، ومعتذرة من إطلاقها النذر المتقدم، فذكرت ذلك لا على سبيل الإعلام لله تعالى، تعالى الله عن أن يحتاج إلى إعلامها، بل ذكرت ذلك على سبيل الاعتذار. ثم قال تعالى حكاية عنها: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ وفيه قولان: الأول: أن مرادها تفضيل الولد الذكر عن الأنثى، وسبب هذا التفضيل من وجوه: أحدها: أن في شرعهم لا يجوز تحرير الذكور دون الإناث. والثاني: أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة

(١) جامع البيان (٦/ ٣٣٤ شاكر).

موضع العبادة، ولا يصح ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النسوان. والثالث: الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة. والرابع: أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى. والخامس: أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى. فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى.

والقول الثاني: أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر، كأنها قالت: الذكر مطلوبي وهذه الأنثى موهوبة اللّٰه تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال اللّٰه، عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريده العبد لنفسه»[١].

قال ابن كثير: «فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق؛ لأنه شرع من قبلنا، وقد حكي مقررًا»[٢].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: «تعني بقولها ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾: وإني أجعل معاذها ومعاذ ذريتها من الشيطان الرجيم بك. وأصل المعاذ: الموئل والملجأ والمعقل، فاستجاب اللّٰه لها فأعاذها اللّٰه وذريتها من الشيطان الرجيم، فلم يجعل له عليها سبيلًا»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة مريم، وما جاء في تسمية المولود

* عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه، إلا مريم وابنها**» ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[٤].

---

(١) تفسير الرازي (٨/ ٢٩-٣٠).

(٢) التفسير (٢/ ٢٦).

(٣) جامع البيان (٦/ ٣٣٦ شاكر).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٣) والبخاري (٨/ ٢٦٨/ ٤٥٤٨) ومسلم (٤/ ١٨٣٨/ ٢٣٦٦).

★ **غريب الحديث:**

يستهل: استهلال الصبي: تصويته عند ولادته.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «ظاهر الخبر أن إبليس ممكن من مس كل مولود عند ولادته، لكن من كان من عباد اللَّه المخلصين لم يضره ذلك المس أصلًا، واستثنى من المخلصين مريم وابنها، فإنه ذهب يمس على عادته فحيل بينه وبين ذلك، فهذا وجه الاختصاص، ولا يلزم منه تسلطه على غيرهما من المخلصين»[١].

وقال القرطبي: «قوله **«ما من مولود»**: ظاهر قوي في العموم والإحاطة، ولما استثنى منه مريم وابنها التحق بالنصوص، لاسيما مع النظر الذي أبديناه، فأفاد هذا: أن الشيطان ينخس جميع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء، إلا مريم وابنها، وإن لم يكن كذا بطلت الخصوصية بهما، ولا يفهم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال المنخوس وإغواؤه؛ فإن ذلك ظن فاسد، وكم قد تعرض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء، ومع ذلك يعصمهم اللَّه مما يرومه الشيطان، كما قال: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾[٢]»[٣].

وقال: «وكأن النخس من الشيطان إشعار منه بالتمكن والتسليط، وحفظ اللَّه تعالى لمريم وابنها من نخسته تلك التي هي ابتداء التسليط ببركة إجابة دعوة أمها حين قالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[٤]. فاستجاب اللَّه لها لما حضرها في ذلك الوقت من صدق الالتجاء إلى اللَّه تعالى، وصحة التوكل»[٥].

قال العيني: «فيه فضيلة ظاهرة لعيسى وأمه -عليهما الصلاة والسلام-، وأراد الشيطان التمكن من أمه فمنعه اللَّه منها ببركة حنة بنت فاقوذ بن ماثان[٦] حيث قالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾»[٧].

---

(١) الفتح (٨/ ٢٦٨).
(٢) الإسراء: الآية (٦٥).
(٣) المفهم (٦/ ١٧٨).
(٤) آل عمران: الآية (٣٦).
(٥) المفهم (٦/ ١٧٧).
(٦) قلت: وتعيين الاسم في هذا النص المطلق يحتاج إلى دليل مرفوع صحيح عن المعصوم، فليتنبه!
(٧) عمدة القاري (١٠/ ٦٣٤).

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان ابن لأبي طلحة يشتكي، فخرج أبو طلحة فقبض الصبي، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ فقالت أم سليم: هو أسكن ما كان، فقربت إليه العشاء فتعشى، ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: وَارِ الصبي، فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول اللَّه ﷺ فأخبره فقال: «**أعرستم الليلة؟**» قال: نعم قال: «**اللهم بارك لهما في ليلتهما**» فولدت غلامًا قال لي أبو طلحة: احفظه حتى تأتي به النبي ﷺ، فأتى به النبي ﷺ، وأرسلت معه بتمرات، فأخذه النبي ﷺ فقال: «**أمعه شيء؟**» قالوا: نعم، تمرات، فأخذها النبي ﷺ فمضغها، ثم أخذ من فيه فجعلها في في الصبي وحنكه به، وسماه عبد الله»(١).

★ **غريب الحديث:**

يشتكي: من الشكو والشكوى والشكاة والشكاية: المرض.

أسكن ما كان: أرادت به سكون الموت، وظن أبو طلحة أنها تريد سكون الشفاء.

أصاب منها: جامعها.

وار الصبي: أي: ادفنه من المواراة.

أعرستم: من الإعراس وهو الوطء. يقال: أعرس بأهله إذا غشيها.

حنكه به: أي مضغ التمر ودلك به حنكه.

* عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم**، ثم دفعه إلى أم سيف امرأة قين، يقال له أبو سيف، فانطلق يأتيه واتبعته، فانتهينا إلى أبي سيف، وهو ينفخ بكيره قد امتلأ البيت دخانًا، فأسرعت المشي بين يدي رسول اللَّه ﷺ فقلت: يا أبا سيف أمسك جاء رسول اللَّه ﷺ، فأمسك، فدعا النبي ﷺ بالصبي فضمه إليه وقال ما شاء اللَّه أن يقول»(٢).

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٥) والبخاري (٩/ ٧٣٣/ ٥٤٧٠) ومسلم (٣/ ١٦٨٩/ ٢١٤٤) وأبو داود (٥/ ٢٣٧-٢٣٨/ ٤٩٥١) مختصرًا.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩٤) والبخاري (٣/ ٢٢٢/ ١٣٠٣) ومسلم (٤/ ١٨٠٧/ ٢٣١٥) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ٤٩٣/ ٣١٢٦).

★ **غريب الحديث:**

بكيره: الكير بالكسر هو المبني من الطين. وقيل: الزق الذي ينفخ به النار.

قين: الحداد. ويطلق على كل صانع، يقال: قان الشيء إذا أصلحه.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «فيه جواز تسمية المولود يوم ولادته، وجواز التسمية بأسماء الأنبياء -صلوات اللَّه عليهم وسلامه-»[1].

* * *

---

(١) شرح مسلم (١٥/ ٦٠-٦١).

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أنبتها: رباها وأنشأها.

كفلها: أي: قام بها، وبالتشديد؛ أي: جعله كافلًا له.

المحراب: أشرف المجالس والمقدم فيها وهو كذلك من المسجد، وفي اللغة الموضع العالي الشريف.

أنى لك هذا: من أين لك هذا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة، وأنه ﴿أَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ أي: جعلها شكلًا مليحًا ومنظرًا بهيجًا، ويَسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين. ولهذا قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾»[1].

قال ابن جرير: «أما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: فخبر من اللَّه أنه يسوق إلى من يشاء من خلقه رزقه بغير إحصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده؛ لأنه -جل ثناؤه- لا ينقص سوقه ذلك إليه، كذلك خزائنه، ولا يزيد إعطاؤه إياه، ومحاسبته عليه في ملكه، وفيما لديه شيئًا، ولا يعزب عنه علم ما يرزقه، وإنما يحاسب من يعطي ما يعطيه من يخشى النقصان من ملكه، بخروج ما خرج من عنده بغير حساب معروف ومن كان جاهلًا بما يعطي على غير حساب»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢).

(٢) جامع البيان (٦/ ٣٥٩ شاكر).

قال السعدي: «﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ أي: ربيت تربية عجيبة، دينية، أخلاقية، أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر اللَّه لها زكريا كافلًا. وهذا من منة اللَّه على العبد، أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين.

ثم إن اللَّه تعالى أكرم مريم وزكريا، حيث يسَّر لمريم من الرزق الحاصل بلا كد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها اللَّه به. إذ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ وهو محل العبادة، وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها، ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ هنيئًا معدًّا. ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فلما رأى زكريا هذه الحال، والبر واللطف من اللَّه بها، ذكره أن يسأل اللَّه تعالى حصول الولد، على حين اليأس منه»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾؛ أي: تقبل مريم من أمها ورضي أن تكون محررة للانقطاع لعبادته وخدمة بيته، وهو أبلغ من قَبِلها، وزاده مبالغة وتأكيدًا وصفه بالحسن كأنه قال: فتقبلها ربها أبلغ قبول حسن ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ أي: ربّاها ونمّاها في خيره ورزقه وعنايته وتوفيقه، تربية حسنة شاملة للروح والجسد كما تربى الشجرة في الأرض الصالحة حتى تنمو وتثمر الثمرة الصالحة لا يفسد طبيعتها شيء، ولعله عبّر عن التربية بالإنبات لبيان أن التربية فطرية لا شائبة فيها»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن قدرة اللَّه تتجلى في قصة مريم وزكريا

* عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ تلا إلى قوله ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ قال: كفلها زكريا فدخل عليها المحراب فوجد عندها رزقًا عنبًا في مكتل في غير حينه قال: أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند اللَّه، إن اللَّه يرزق من يشاء

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٧٦-٣٧٧).
(٢) تفسير المنار (٣/ ٢٩٢).

بغير حساب، قال: إن الذي يرزقك العنب في غير حينه لقادر أن يرزقني من العاقر الكبير العقيم ولدًا ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ فلما بشر بيحيى قال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ قال: يعتقل لسانك من غير مرض وأنت سوي[1].

★ **غريب الحديث:**

مكتل: الزبيل أو الزنبيل الكبير. قيل: يسع خمسة عشر صاعًا، كان فيه كتلًا من التمر؛ أي: قطعًا مجتمعة ويجمع على مكاتل.

العاقر: المرأة التي لا تحمل.

العقيم: المرأة التي لا تلد، والرجل عقيم ومعقوم.

يعتقل لسانك: اعتقلت الرجل حبسته، واعتقل لسانه بالبناء للفاعل والمفعول إذا حبس عن الكلام؛ أي: منع فلم يقدر عليه.

* * *

(١) أخرجه: الحاكم (٢/ ٢٩١) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا ابن جرير (٣/ ١٦٥) وابن أبي حاتم (٢/ ٦٤٠) مختصرًا.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما رأى زكريا عليه السلام أن اللّه تعالى يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، طمع حينئذ في الولد، وكان شيخًا كبيرًا قد وهن منه العظم، واشتعل رأسه شيبًا، وإن كانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقرًا، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفيًّا، وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾؛ أي: من عندك ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ أي: ولدًا صالحًا ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾»[1].

قال القرطبي: «دلت هذه الآية على طلب الولد، وهي سنة المرسلين والصديقين، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾»[2][3].

وقال رحمه الله: «فالواجب على الإنسان أن يتضرع إلى خالقه في هداية ولده وزوجه بالتوفيق لهما والهداية والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا معينين له على دينه ودنياه حتى تعظم منفعته بهما في أولاه وأخراه»[4].

وقال السعدي: «وكان هذا المولود -أي: يحيى عليه السلام- من بركات مريم بنت عمران على زكريا، فإن ما منّ اللّه به عليها من ذلك الرزق الهني، الذي يحصل بغير حساب ذكره وهيجه على التضرع والسؤال، واللّه تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب، ولكنه يقدر أمورًا محبوبة على يد من يحبه، ليرفع اللّه قدره، ويعظم أجره»[5].

---

(١) التفسير (٢/ ٢٩-٣٠).
(٢) الرعد: الآية (٣٨).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٤٧).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٤٧-٤٨).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٧٩-٣٨٠).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة النكاح والحث عليه

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني، وتزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم، ومن كان ذا طول فلينكح، ومن لم يجد فعليه بالصيام، فإن الصوم له وجاء**»[١].

* **غريب الحديث:**

ذا طول: الطول: الفضل والغنى واليسر.

وجاء: بكسر الواو والمد أي كسر شديد يذهب بشهوته.

* عن معقل بن يسار قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ **فقال**: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها؟ قال: «**لا**». ثم أتاه الثانية، فنهاه، ثم أتاه الثالثة، فقال: «**تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم**»[٢].

* **غريب الحديث:**

الودود: أي التي تحب زوجها محبة شديدة.

الولود: أي كثيرة الولادة.

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول اللَّه ﷺ فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما واللَّه إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[٣].

---

(١) ابن ماجه (١/ ٥٩٢/ ١٨٤٦) وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (٢٣٨٣).

(٢) أبو داود (٢/ ٥٤٢/ ٢٠٥٠) والنسائي (٦/ ٣٧٣-٣٧٤/ ٣٢٢٧) وصححه الحاكم (٢/ ١٦٢) وابن حبان: الإحسان (٩/ ٣٦٣-٣٦٤/ ٤٠٥٦ و٤٠٥٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٤١ و٢٥٩) والبخاري ٩/ ١٢٩/ ٥٠٦٣) واللفظ له، ومسلم (٢/ ١٠٢٠/ ١٤٠١) والنسائي (٦/ ٣٦٨-٣٦٩/ ٣٢١٧).

★ **غريب الحديث:**

رهط: الرهط من ثلاثة إلى عشرة.

تقالوها: بتشديد اللام المضمومة؛ أي: استقلوها، وأصل تقالوها: تقاللوها؛ أي: رأى كل منهم أنها قليلة.

فمن رغب: الرغبة عن الشيء الإعراض عنه إلى غيره.

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**» **قال الحافظ**: «المراد من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية، فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم اللَّه تعالى وقد عابهم بأنهم ما وفوه بما التزموه، وطريقة النبي ﷺ الحنيفية السمحة، فيفطر ليتقوى على الصوم، وينام ليتقوى على القيام، ويتزوج لكسر الشهوة، وإعفاف النفس، وتكثير النسل. وقوله: «**فليس مني**» إن كانت الرغبة بضرب من التأويل يعذر صاحبه فيه فمعنى فليس مني أي على طريقتي ولا يلزم أن يخرج عن الملة، وإن كان إعراضًا وتنطعًا يفضي إلى اعتقاد أرجحية عمله فمعنى «**فليس مني**» ليس على ملتي؛ لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر. وفي الحديث دلالة على فضل النكاح والترغيب فيه»[(١)].

قال ابن بطال: قال المهلب: «في هذا الحديث (أي: حديث أنس) من الفقه أن النكاح من سنن الإسلام، وأنه لا رهبانية في شريعتنا، وأن من ترك النكاح رغبة عن سنة محمد ﷺ فهو مذموم مبتدع»[(٢)].

❋ عن سعد بن أبي وقاص قال: أراد عثمان بن مظعون أن يتبتل، فنهاه رسول اللَّه ﷺ، ولو أجاز ذلك له لاختصينا[(٣)].

★ **غريب الحديث:**

أن يتبتل: المراد بالتبتل الانقطاع عن النكاح وما يتبعه من الملاذ إلى العبادة.

---

(١) فتح الباري (٩/ ١٣١).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٧/ ١٦٠).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٧٥) والبخاري (٩/ ١٤٥/ ٥٠٧٣-٥٠٧٤) ومسلم (٢/ ١٠٢٠/ ١٤٠٢) والترمذي (٣/ ٣٩٤/ ١٠٨٣) وابن ماجه (١/ ٥٩٣/ ١٨٤٨).

لاختصينا: الخصاء هو الشق على الأنثيين وانتزاعهما.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «قال المهلب: إنما نهى ﷺ عن التبتل والترهب من أجل أنه يكاثر بأمته الأمم يوم القيامة، وأنه في الدنيا مقاتل بهم طوائف الكفار، وفي آخر الزمان يقاتلون الدجال، فأراد ﷺ أن يكثر النسل»[(١)].

وقال الحافظ: «والحكمة في منعهم من الاختصاء إرادة تكثير النسل ليستمر جهاد الكفار، وإلا لو أذن في ذلك لأوشك تواردهم عليه فينقطع النسل، فيقل المسلمون بانقطاعه ويكثر الكفار، فهو خلاف المقصود من البعثة المحمدية»[(٢)].

وقال ابن بطال: «وفيه أن خصاء بني آدم حرام، وذلك أن التبتل إذ كان منهيًّا عنه ولا جناية فيه على النفس غير منعها المباح لها، فمنعها ما فيه جناية عليها بإيلامها وتعذيبها بقطع بعض الأعضاء أحرى أن يكون منهيًّا عنه، فثبت بهذا أن قطع شيء من أعضاء الإنسان من غير ضرورة تدعوه إلى ذلك حرام عليه»[(٣)].

* عن أنس عن أم سليم أنها قالت: يا رسول اللَّه، أنس خادمك ادع اللَّه له، قال: «**اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته**»[(٤)].

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «قوله: «**اللهم أكثر ماله وولده**» يدل على إباحة الاستكثار من المال والولد والعيال، ولكن إذا لم يشغل ذلك عن اللَّه تعالى، ولا عن القيام بحقوقه، لكن: لما كانت سلامة الدين مع ذلك بادرة، والفتن والآفات غالبة، تعين التقلل من ذلك الفرار مما هنالك، ولولا دعوة النبي ﷺ لأنس ﷺ بالبركة لخيف عليه من الإكثار الهلكة، ألا ترى: أن اللَّه تعالى قد حذرنا من آفات الأموال، والأولاد، ونبه على المفاسد الناشئة من ذلك فقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[(٥)]، وصدر الكلام بـ«إنما» الحاصرة المحققة، فكأنه قال: لا تكون الأموال

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٧/ ١٦٨). (٢) فتح الباري (٩/ ١٤٧).

(٣) شرح ابن بطال (٧/ ١٦٩).

(٤) أحمد (٦/ ٤٣٠) والبخاري (١١/ ٢١٧/ ٦٣٧٨-٦٣٧٩) ومسلم (٤/ ١٩٢٨/ ٢٤٨٠) والترمذي (٥/ ٦٤٠/ ٣٨٢٩).

(٥) التغابن: الآية (١٥).

والأولاد إلا فتنة؛ يعني: في الغالب. ثم قال بعد ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾[1] ووجه عداوتهما: أن محبتهما موجبة لانصراف القلوب إليهما، والسعي في تحصيل أغراضهما، واشتغالهما بما غلب عليهما من ذلك عما يجب عليهما من حقوق اللّه تعالى، ومع غلبة ذلك تذهب الأديان، ويعم الخسران، فأي عداوة أعظم من عداوة ممن يدمر دينك هذا الدمار، ويورثك عقوبة النار؟! ولذلك قال تعالى، -وهو أصدق القائلين- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[2] »[3].

* عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له**»[4].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماء: معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته، وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة لكونه كان سببها فإن الولد من كسبه، وكذلك العلم الذي خلفه من تعليم أو تصنيف، وكذلك الصدقة الجارية وهي الوقف. وفيه فضيلة الزواج لرجاء ولد صالح»[5].

قال الطيبي: «وإنما جعل ولد صالح من جنس العمل لأنه هو السبب في وجوده، وسبب لصلاحه بإرشاده إلى الهدى، كما جعل نفس العمل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾[6]. وأما فائدة القيد «**بالولد يدعو له**» مع أن الغير من المسلمين لو دعا له لنفعه أيضًا، فزيادة بيان، وتحريض للولد على الدعاء، وأنه كالواجب عليه»[7].

قال الجيلاني: ««**ولد صالح**» أي مؤمن؛ لأن الصلاح لا يكون إلا بعد الإيمان

(١) التغابن: الآية (١٤). (٢) المنافقون: الآية (٩).
(٣) المفهم (٦/ ٤١٢).
(٤) أحمد (٢/ ٣٧٢) والبخاري في الأدب المفرد (٣٨) ومسلم (٣/ ١٢٥٥/ ١٦٣١) وأبو داود (٣/ ٣٠٠/ ٢٨٨٠) والترمذي (٣/ ٦٦٠/ ١٣٧٦) والنسائي (٦/ ٥٦١-٥٦٢/ ٣٦٥٣).
(٥) شرح مسلم (١١/ ٧٢). (٦) هود: الآية (٤٦).
(٧) شرح المشكاة (٢/ ٦٦٤).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[١] وقيل: صلاح الولد لا يكفي في جريان الثواب لوالده، بل لا بد من دعائه له، والصحيح: أنه يحصل الثواب بكل عمل صالح من الولد سواء دعا لأبيه أو لم يدع؛ لأن اللَّه يثيب العبد بكل فعل يتوقف وجوده بوجه ما على كسبه مباشرة أو تسببًا، والقيد حض للولد على الدعاء لينفع أباه من جهتين، كما أن غارس الشجر وباني الخان مثلا يكون لهما أجر شبع المسلم وراحته سواء دعا له الآكل والآوي أم لا»[٢].

* * *

(١) العنكبوت: الآية (٩).

(٢) فضل اللَّه الصمد في توضيح الأدب المفرد (١/ ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حصورا: من الحصر، وهو المنع؛ أي: لا يأتي النساء مع القدرة على إتيانهن، وقيل: منوعًا نفسه من ارتكاب الذنوب؛ أي: لا يأتيها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ اسمه؛ أي: الكلمة التي من اللَّه: عيسى بن مريم، فكانت بشارته بهذا النبي الكريم تتضمن البشارة بعيسى بن مريم، والتصديق له، والشهادة له بالرسالة. فهذه الكلمة من اللَّه كلمة شريفة اختص اللَّه بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾؛ أي: هذا المبشر به وهو يحيى سيد من فضلاء الرسل وكرامهم. والحصور قيل: هو الذي لا يولد له، ولا شهوة له في النساء، وقيل: هو الذي عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة وهذا أليق المعنيين.

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين بلغوا في الصلاح ذروته العالية»[2].

قال الرازي: «اعلم أن السيادة إشارة إلى أمرين: أحدهما: قدرته على ضبط مصالح الخلق فيما يرجع إلى تعليم الدين. والثاني: ضبط مصالحهم فيما يرجع إلى التأديب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما الحصور فهو إشارة إلى الزهد التام، فلما اجتمعا حصلت النبوة بعد ذلك؛ لأنه ليس بعدهما إلا النبوة»[3].

قال القاضي عياض: «فإن قيل: كيف يكون النكاح، وكثرته من الفضائل، وهذا

---

(١) آل عمران: الآية (٥٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٧٧-٣٧٨).

(٣) تفسير الرازي (٨/ ٤١-٤٢).

يحيى بن زكريا عليه السلام قد أثنى اللَّه تعالى عليه بالعجز عما تعده فضيلة؟!.

وهذا عيسى بن مريم عليه السلام تبتل من النساء ولو كان كما قررته لنكح.

فاعلم: أن ثناء اللَّه تعالى على يحيى، بأنه حصور، ليس كما قال بعضهم: إنه كان هيوبا، أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب، ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام. وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب؛ أي: لا يأتيها، كأنه حصر عنها. وقيل: مانعًا نفسه من الشهوات. وقيل: ليست له شهوة في النساء.

فقد بان لك من هذا، أن عدم القدرة على النكاح نقص، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم قمعها، إما بمجاهدة كعيسى عليه السلام، أو بكفاية من اللَّه تعالى كيحيى عليه السلام، فضيلة زائدة لكونها مشغلة في كثير من الأوقات، حاطة إلى الدنيا.

ثم هي في حق من أقدر عليها وملكها، وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة علياء، وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم تشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة لتحصينهن، وقيامه بحقوقهن، واكتسابه لهن، وهدايته إياهن. بل صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره. فقال -عليه الصلاة والسلام-: «**حبّب إلي من دنياكم**»[(١)][(٢)].

قال ابن كثير معلقًا عليه -أي: القاضي-: «والمقصود أن مدح يحيى بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء، بل معناه كما قاله هو وغيره: أنه حصور من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن، بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: ﴿هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ كأنه قال ولدًا له ذرية ونسل وعقب، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم»[(٣)].

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٢٨) والنسائي (٧/ ٧٢/ ٣٩٤٩) والحاكم (٢/ ١٦٠) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وجود إسناده العراقي في تخريج الإحياء (٢/ ٩٥٦/ ١٣٠٨) وحسنه الحافظ في التلخيص (٣/ ١١٦).

(٢) الشفا (١/ ١٩٢-١٩٤).

(٣) التفسير (٢/ ٣١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة يحيى بن زكريا عليه السلام

* عن ابن مسعود مرفوعًا: «**خلق اللَّه يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمنًا، وخلق فرعون في بطن أمه كافرًا**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن رجب: «وقد تكاثرت النصوص بذكر الكتاب السابق، بالسعادة والشقاوة، ففي الصحيحين عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب اللَّه مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة**»، فقال رجل: يا رسول اللَّه، أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل؟ فقال: «**اعملوا، فكلٌّ ميسر لما خُلق له، أما أهل السعادة، فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة، فييسرون لعمل أهل الشقاوة**»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾[٢] الآيتين[٣].

ففي هذا الحديث: أن السعادة والشقاوة قد سبق الكتاب بهما، وأن ذلك مقدر بحسب الأعمال، وأن كلًّا ميسر لما خُلق له من الأعمال التي هي سبب للسعادة أو الشقاوة»[٤].

وقال ابن عبد البر رحمه الله: «وجملة القول في القدر أنه سر اللَّه لا يدرك بجدال ولا نظر ولا تشفى منه خصومة ولا احتجاج، وحسب المؤمن من القدر أن يعلم أن اللَّه لا يقوم شيء دون إرادته، ولا يكون شيء إلا بمشيئته، له الخلق والأمر كله لا شريك له، نظام ذلك قوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٥] وقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٦]. وحسب المؤمن من القدر أن يعلم أن اللَّه لا يظلم مثقال ذرة،

---

(١) أخرجه: الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٢٤/ ١٠٥٤٣) وابن عدي (١/ ٣٥٠). وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٣): «رواه الطبراني وإسناده جيد» وانظر الصحيحة (٤/ ٤٤٦/ ١٨٣١).

(٢) الليل: الآية (٥).

(٣) أحمد (١/ ٨٢) والبخاري (٨/ ٩١٨/ ٤٩٤٦) ومسلم (٤/ ٢٠٣٩/ ٢٦٤٧) وأبو داود (٥/ ٦٨-٦٩/ ٤٦٩٤) والترمذي (٤/ ٣٨٨/ ٢١٣٦) وقال: «حسن صحيح» وابن ماجه (١/ ٣٠-٣١/ ٧٨).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ١٦٨-١٦٩).

(٥) الإنسان: الآية (٣٠).

(٦) القمر: الآية (٤٩).

ولا يكلف نفسًا إلا وسعها، وهو الرحمن الرحيم فمن ردّ على اللَّه تعالى خبره في الوجهين أو في أحدهما كان عنادًا وكفرًا، وقد تظاهرت الآثار في التسليم للقدر والنهي عن الجدل فيه، والاستسلام له والإقرار بخيره وشره والعلم بعدل مقدره وحكمته وفي نقض عزائم الإنسان برهان فيما قلنا وتبيان، واللَّه المستعان»(١).

* * *

(١) فتح البر (٢/ ١٩٦).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

عاقر: العقيم التي لا تلد.

رمزًا: في اللغة كل ما أشرت به إلى بيان بلفظ؛ أي: بأيّ شيء أشرت، بفم أم بيد أم بعينين.

العشي: من حين زوال الشمس إلى غروبها.

الإبكار: من حين طلوع الشمس إلى الضحى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي -رحمه الله تعالى-: «﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ فهذان مانعان، فمن أي طريق يا رب يحصل لي ذلك، مع ما ينافي ذلك؟! ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ فإنه كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة فإنه قد يخرق ذلك؛ لأنه الفعال لما يريد، الذي قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته، فلا يتعاصى عن قدرته شيء من الأسباب، ولو بلغت في القوة ما بلغت ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ ليحصل السرور والاستبشار، وإن كنت يا رب متيقنا ما أخبرتني به، ولكن النفس تفرح ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللطف ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ وفي هذه المدة ﴿ٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾: أول النهار وآخره فمنع من الكلام في هذه المدة، فكان في هذا مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير والمرأة العاقر. وكونه لا يقدر على مخاطبة الآدميين، ولسانه منطلق

بذكر اللَّه وتسبيحه، آية أخرى. فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار، وشكر اللَّه، وأكثر من الذكر والتسبيح بالعشايا والأبكار. وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران على زكريا. فإن ما من اللَّه به عليها من ذلك الرزق الهني، الذي يحصل بغير حساب، ذكره وهيجه على التضرع والسؤال. واللَّه تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب، ولكنه يقدر أمورًا محبوبة على يد من يحبه، ليرفع اللَّه قدره ويعظم أجره»[1].

قال الشنقيطي -رحمه اللَّه تعالى-: «قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾؛ لم يبين هل المانع له من كلام الناس بكم طرأ له، أو آفة تمنعه من ذلك. أو لا مانع له إلا اللَّه وهو صحيح لا علة له، ولكنه بين في سورة مريم أنه لا بأس عليه، وأن انتفاء التكلم عنه لا لبكم، ولا مرض، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[2]؛ لأن قوله (سويًا) حال من فاعل تكلم مفيد لكون انتفاء التكلم بطريق الإعجاز وخرق العادة، لا لاعتقال اللسان بمرض؛ أي: يتعذر عليك تكليمهم ولا تطيقه، في حال كونك سوي الخلق سليم الجوارح، ما بك شائبة بكم ولا خرس، وهذا ما عليه الجمهور، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَٰرِ﴾.

وعن ابن عباس: أن سويًا عائد إلى الليالي؛ أي: كاملات مستويات، فيكون صفة الثلاث، وعليه فلا بيان بهذه الآية لآية آل عمران»[3].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٧٨-٣٨٠).

(٢) سورة مريم: الآية (١٠).

(٣) أضواء البيان (١/ ٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إخبار من اللَّه تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر اللَّه لهم بذلك: أن اللَّه قد اصطفاها؛ أي: اختارها اللَّه لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهرها من الأكدار والوساوس، واصطفاها ثانيًا مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين ثم أخبر تعالى عن الملائكة: أنهم أمروها بكثرة العبادة والخشوع والخضوع والسجود والركوع والدأب في العمل لها، يريد اللَّه بها من الأمر الذي قدره اللَّه وقضاه، مما فيه محنة لها ورفعة في الدارين، بما أظهر اللَّه فيها من قدرته العظيمة، حيث خلق منها ولدًا من غير أب، فقال تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾»[1].

قال ابن القيم: «والذي يظهر في الآية -أي: قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ - واللَّه أعلم بمراده من كلامه أنها اشتملت على مطلق العبادة وتفصيلها، فذكر الأعم ثم ما هو أخص منه، ثم ما هو أخص من الأخص، فذكر القنوت أولًا: وهو الطاعة الدائمة، فيدخل فيه القيام والذكر والدعاء وأنواع الطاعة، ثم ذكر ما هو أخص منه وهو: السجود الذي يشرع وحده كسجود الشكر والتلاوة، ويشرع في الصلاة، فهو أخص من مطلق القنوت، ثم ذكر الركوع الذي لا يشرع إلا في الصلاة، فلا يسن الإتيان به منفردًا، فهو أخص مما قبله. ففائدة الترتيب النزول من الأعم إلى الأخص إلى أخص منه، وهما طريقتان معروفتان في الكلام، النزول من الأعم إلى الأخص، وعكسها وهو الترقي من الأخص إلى ما

(١) التفسير (٢/ ٣٢-٣٣).

هو أعم منه إلى ما هو أعم، ونظيرها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾(١) فذكر أربعة أشياء: أخصها الركوع ثم السجود أعم منه ثم العبادة أعم من السجود ثم فعل الخير العام المتضمن لذلك كله»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن خير نساء العالمين: مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد

* عن علي رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد**»(٣).

★ **فوائد الحديث:**

اختلف العلماء في أفضلية مريم هل هي مخصوصة بزمانها أم أنها عامة؟ فذهب القرطبي صاحب المفهم وغيره أنها عامة فقال: «ظاهر القرآن والأحاديث يقتضي: أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة»(٤).

قال الحافظ: «قد جزم كثير من الشراح أن المراد نساء زمانها لما تقدم في أحاديث الأنبياء في قصة موسى وذكر آسية من حديث أبي موسى رفعه: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم وآسية**»(٥) فقد أثبت في هذا الحديث الكمال لآسية كما أثبته لمريم، فامتنع حمل الخيرية في حديث الباب على الإطلاق، وجاء ما يفسر المراد صريحًا، فروى البزار والطبراني من حديث عمار ابن ياسر رفعه «**لقد فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين**»(٦) وهو حديث حسن الإسناد»(٧).

---

(١) الحج: الآية (٧٧).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ٨٠-٨١).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٨٤) والبخاري (٦/ ٥٨٢/ ٣٤٣٢) ومسلم (٤/ ١٨٨٦/ ٢٤٣٠) والترمذي (٥/ ٦٥٩-٦٦٠/ ٣٨٧٧) والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٣/ ٨٣٥٤).

(٤) المفهم (٦/ ٣١٥).

(٥) سيأتي تخريجه.

(٦) رواه البزار (٣/ ٢٣٦/ ٢٦٥٥ كشف الأستار) وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٣): «رواه الطبراني والبزار، وفيه أبو يزيد الحميري ولم أعرفه. وبقية رجاله وثقوا».

(٧) الفتح (٧/ ١٦٩).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها[(١)] كقوله لموسى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾[(٢)]، وكقوله عن بني إسرائيل: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[(٣)]. ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى وأن محمدا ﷺ أفضل منهما، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها وأكثر عددًا وأفضل علمًا وأزكى عملًا من بني إسرائيل وغيرهم»[(٤)].

* عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أفضل نساء العالمين خديجة، وفاطمة، ومريم، وآسية امرأة فرعون**»[(٥)].

* عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**»[(٦)].

★ **فوائد الحديث:**

اختلف العلماء في مريم: هل هي نبية أم صديقة؟ فذهب إلى الأول ابن حزم وغيره. وإلى الثاني الجمهور. وهو الراجح واللَّه أعلم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره عن أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال وليس في النساء نبية، فيكون أعلى مقامات مريم كما قال اللَّه تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾[(٧)] فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصدّيقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها واللَّه أعلم»[(٨)].

---

(١) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: (زمانهما).
(٢) الأعراف: الآية (١٤٤).
(٣) الدخان: الآية (٣٢).
(٤) البداية والنهاية (٢/ ٥٤).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٣) والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٣/ ٨٣٥٥) وأبو يعلى (٥/ ١١٠/ ٢٧٢٢) والطبراني في الكبير (١١/ ٣٣٦/ ١١٩٢٨) وصححه ابن حبان (١٥/ ٤٧٠/ ٧٠١٠) والحاكم (٢/ ٥٩٤) ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٢٣) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني ورجالهم رجال الصحيح.
(٦) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٤ و٤٠٩) والبخاري (٦/ ٥٥١/ ٣٤١١) ومسلم (٤/ ١٨٨٦-١٨٨٧/ ٢٤٣١) والترمذي (٤/ ٢٤٢/ ١٨٣٤) والنسائي (٧/ ٧٨/ ٣٩٥٧) مختصرًا، وابن ماجه (٢/ ١٠٩١/ ٣٢٨٠).
(٧) المائدة: الآية (٧٥).
(٨) البداية والنهاية (٢/ ٥٥).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يستدل به من يقول بنبوة النساء، ونبوة آسية ومريم، والأكثر على أنهما صديقتان ووليتان من أولياء اللَّه تعالى»[١].

وقال المناوي: «تمسك به من زعم نبوة مريم وآسية؛ لأن كمال البشر إنما هو في مقام النبوة، ورد بأن الكمال في شيء ما يكون حصوله للكامل أوفى من غيره، والنبوة ليست أولى للنساء لبنائها على الظهور للدعوة، وحالهن الاستتار، والكمال في حقهن الصديقية»[٢].

وقال ابن كثير عند ذكره لحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «لفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية، ولعل المراد بذلك في زمانهما فإن كلًّا منهما كفلت نبيًّا في حال صغره، فآسية كفلت موسى الكليم، ومريم كفلت ولدها عبد اللَّه ورسوله، فلا ينفي كمال غيرهما في هذه الأمة كخديجة وفاطمة. فخديجة خدمت رسول اللَّه ﷺ قبل البعثة خمسة عشر سنة وبعدها أزيد من عشر سنين، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها رضي الله عنها وأرضاها، وأما فاطمة بنت رسول اللَّه ﷺ فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها لأنها أصيبت برسول اللَّه ﷺ وبقية أخواتها متن في حياة النبي ﷺ، وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول اللَّه ﷺ إليه، ولم يتزوج بكرًا غيرها، ولا يعرف في سائر النساء في هذه الأمة بل ولا في غيرها أعلم منها ولا أفهم، وقد غار اللَّه لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فأنزل براءتها من فوق سبع سموات، وقد عمرت بعد رسول اللَّه ﷺ قريبًا من خمسين سنة، تبلِّغ عنه القرآن والسنة، وتفتي المسلمين وتصلح بين المختلفين، وهي أشرف أمهات المؤمنين»[٣].

قال القاضي عياض عند قوله ﷺ: «وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»: بيَّن هذا الحديث أن عائشة مفضلة على النساء تفضيلًا كثيرًا، وليس فيه عموم جميع النساء»[٤].

وقال الإمام النووي: «قال العلماء: معناه أن الثريد من كل طعام أفضل من المرق، فثريد اللحم أفضل من مرقه بلا ثريد، وثريد ما لا لحم فيه أفضل من مرقه، والمراد بالفضيلة نفعه والشبع منه، وسهولة مساغه والالتذاذ به، وتيسر تناوله،

(١) الإكمال (٧/ ٤٤٠).
(٢) فيض القدير (٥/ ٥١).
(٣) البداية والنهاية (٢/ ٥٦-٥٧).
(٤) الإكمال (٧/ ٤٤١).

وتمكن الإنسان من أخذ كفايته منه بسرعة، وغير ذلك، فهو أفضل من المرق كله ومن سائر الأطعمة. وفضل عائشة على النساء زائد كزيادة فضل الثريد على غيره من الأطعمة، وليس في هذا تصريح بتفضيلها على مريم وآسية»[١].

* عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**نِسَاءُ قُرَيْشٍ خَيْرُ نِسَاءٍ رَكِبْنَ الْإِبِلَ، أَحْنَاهُ عَلَى طِفْلٍ، وَأَرْعَاهُ عَلَى زَوْجٍ فِي ذَاتِ يَدِهِ**». يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ وَلَمْ تَرْكَبْ مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ بَعِيرًا قَطُّ[٢].

★ غريب الحديث:

أحناه على طفل: بمهملة ثم نون. من الحنو، وهو العطف والشفقة. قال ابن التين: الحانية عند أهل اللغة، التي تقيم على ولدها فلا تتزوج، فإن تزوجت فليست بحانية.

وأرعاه: من الرعاية وهي الإبقاء.

ذات يده: المراد بذات يده: ماله ومكسبه.

★ فوائد الحديث:

قول أبي هريرة في آخره: «**ولم تركب مريم بنت عمران بعيرا قط**» **قال الحافظ**: «كأنه أراد إخراج مريم من هذا التفضيل لأنها لم تركب بعيرًا قط، فلا يكون فيه تفضيل نساء قريش عليها، ولا يشك أن لمريم فضلا وأنها أفضل من جميع نساء قريش، إن ثبت أنها نبية أو من أكثرهن إن لم تكن نبية»[٣].

ليس المقصود بنساء قريش العموم، وإنما المقصود الصالحات منهن. وقد ورد التصريح بذلك في رواية عند البخاري وغيره ولفظها: «**خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش**»[٤]. قال الحافظ: «والمطلق محمول على المقيد فالمحكوم له بالخيرية الصالحات من نساء قريش لا على العموم، والمراد بالصلاح هنا صلاح الدين، وحسن المخالطة مع الزوج ونحو ذلك»[٥].

---

(١) شرح مسلم (١٥/ ١٦١).
(٢) أحمد (٢/ ٢٦٩) والبخاري (٩/ ٦٣٨-٥٣٩/ ٥٣٦٥) ومسلم (٤/ ١٩٥٨-١٩٥٩/ ٢٥٢٧).
(٣) الفتح (٩/ ١٥٥).
(٤) أحمد (٢/ ٢٧٥) والبخاري (٩/ ١٥٥/ ٥٠٨٢) ومسلم (٤/ ١٩٥٨-١٩٥٩/ ٢٥٢٧[٢٠٠]).
(٥) الفتح (٩/ ١٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

★ غريب الآية:

أقلامهم: أي: قداحهم وسهامهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: وما كنت يا محمد عند قوم مريم إذ يختصمون فيها أيهم أحق بها وأولى، وذلك من اللَّه ﷻ وإن كان خطابا لنبيه ﷺ، فتوبيخ منه ﷻ للمكذبين به من أهل الكتابين يقول: كيف يشك أهل الكفر بك منهم، وأنت تنبئهم هذه الأنباء ولم تشهدها، ولم تكن معهم يوم فعلوا هذه الأمور، ولست ممن قرأ الكتب فعلم نبأهم، ولا جالسَ أهلها فسمع خبرهم»[(١)].

قال القرطبي: «استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القرعة، وهي أصل في شرعنا لكل من أراد العدل في القسمة، وهي سنة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم، وترتفع الظنة عمن يتولى قسمتهم، ولا يفضل أحد منهم على صاحبه، إذا كان المقسوم من جنس واحد اتباعا للكتاب والسنة»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في القُرْعة

* عن الشَّعْبِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رضي الله عنهما يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُدْهِنِ فِي حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا مَثَلُ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا سَفِينَةً فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلَاهَا فَكَانَ الَّذِين فِي أَسْفَلِهَا يَمُرُّونَ بِالْمَاءِ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلَاهَا،**

---

(١) جامع البيان (٦/ ٤١٠ شاكر).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٥٦).

فَتَأَذَّوْا بِهِ، فَأَخَذَ فَأْسًا فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ، فَأَتَوْهُ فَقَالُوا: مَا لَكَ؟ قَالَ: تَأَذَّيْتُمْ بِي وَلَا بُدَّ لِي مِنَ الْمَاءِ، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ، وَإِنْ تَرَكُوهُ أَهْلَكُوهُ وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ»[١].

★ غريب الحديث:

المدهن: أي: المحابي، والمدهن والمداهن واحد، والمراد به من يرائي ويضيع الحقوق ولا يغير المنكر.

استهموا سفينة: أي: اقترعوها، فأخذ كل واحد منهم سهمًا؛ أي: نصيبًا من السفينة بالقرعة.

أخذوا على يديه: أي: منعوه من الحفر.

★ فوائد الحديث:

قال ابن العربي: «القرعة إنما فائدتها استخراج الحكم الخفي عند التشاح، فأما ما يخرجه التراضي فيه فباب آخر، ولا يصح لأحد أن يقول: إن القرعة تجري في موضع التراضي، وإنها لا تكون أبدًا مع التراضي فكيف يستحيل اجتماعها مع التراضي؟ ثم يقال: إنها لا تجري إلا على حكمه ولا تكون إلا في محله؛ وهذا بعيد»[٢].

قال الحافظ: «قال إسماعيل القاضي: ليس في القرعة إبطال الشيء من الحق كما زعم بعض الكوفيين، بل إذا وجبت القسمة بين الشركاء فعليهم أن يعدلوا ذلك بالقيمة، ثم يقترعوا فيصير لكل واحد ما وقع له بالقرعة مجتمعًا مما كان له في الملك مشاعا، فيضم في موضع بعينه، ويكون ذلك بالعوض الذي صار لشريكه؛ لأن مقادير ذلك قد عدلت بالقيمة، وإنما أفادت القرعة أن لا يختار واحد منهم شيئًا معينا فيختاره الآخر فيقطع التنازع، وهي إما في الحقوق المتساوية وإما في تعيين الملك، فمن الأول عقد الخلافة إذا استووا في صفة الإمامة، وكذا بين الأئمة في الصلوات والمؤذنين، والأقارب في تغسيل الموتى والصلاة عليهم، والحاضنات

---

(١) أحمد (٤/ ٢٦٨) والبخاري (٥/ ٣٦٧/ ٢٦٨٦) والترمذي (٤/ ٤٠٨/ ٢١٧٣) وقال: حسن صحيح.

(٢) أحكام القرآن (١/ ٢٧٣-٢٧٤).

إذا كن في درجة، والأولياء في التزويج، والاستباق إلى الصف الأول، وفي إحياء الموات، وفي نقل المعدن، ومقاعد الأسواق، والتقديم بالدعوى عند الحاكم، والتزاحم على أخذ اللقيط، والنزول في الخان المسبل ونحوه، وفي السفر ببعض الزوجات، وفي ابتداء القسم، والدخول في ابتداء النكاح وفي الإقراع بين العبيد إذا أوصي بعتقهم ولم يسعهم الثلث، وهذه الأخيرة من صور القسم الثاني أيضًا وهو تعيين الملك، ومن صور تعيين الملك الإقراع بين الشركاء عند تعديل السهام في القسمة»(١).

قوله «**استهموا سفينة**»: **قال ابن التين**: «وإنما يقع ذلك في السفينة ونحوها فيما إذا نزلوها معا، أما لو سبق بعضهم بعضا فالسابق أحق بموضعه. قلت -أي: الحافظ-: وهذا فيما إذا كانت مسبلة مثلًا، أما لو كانت مملوكة لهم مثلًا فالقرعة مشروعة إذا تنازعوا، واللَّه أعلم»(٢).

قال الحافظ: «فيه جواز قسمة العقار المتفاوت بالقرعة وإن كان فيه علو وسفل»(٣).

* عن خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِهِمْ قَدْ بَايَعَتِ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ طَارَ لَهُ سَهْمُهُ فِي السُّكْنَى حِينَ أَقْرَعَتِ الْأَنْصَارُ سُكْنَى الْمُهَاجِرِينَ، قَالَتْ أُمُّ الْعَلَاءِ: فَسَكَنَ عِنْدَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَاشْتَكَى فَمَرَّضْنَاهُ، حَتَّى إِذَا تُوُفِّيَ وَجَعَلْنَاهُ فِي ثِيَابِهِ، دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «**وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ؟**» فَقُلْتُ: لَا أَدْرِي. بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَمَّا عُثْمَانُ فَقَدْ جَاءَهُ وَاللَّهِ الْيَقِينُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ- مَا يُفْعَلُ بِهِ**». قَالَتْ: فَوَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا. وَأَحْزَنَنِي ذَلِكَ. قَالَتْ: فَنِمْتُ، فَأُرِيتُ لِعُثْمَانَ عَيْنًا تَجْرِي، فَجِئْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «**ذَلِكِ عَمَلُهُ**»(٤).

---

(١) الفتح (٥/ ٣٦٨).
(٢) فتح الباري (٥/ ٣٧٠).
(٣) الفتح (٥/ ٣٧٠).
(٤) أحمد (٦/ ٤٣٦) والبخاري (٥/ ٣٦٧/ ٢٦٨٧) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٥/ ٧٦٣٤).

★ **غريب الحديث:**

طار له: يعني: وقع في القرعة في سهم الأنصار الذين أم العلاء منهم.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «والغرض منه قولها فيه: «**إن عثمان بن مظعون طار له سهمه في السكنى**» ومعنى ذلك: أن المهاجرين لما دخلوا المدينة لم يكن لهم مساكن، فاقترع الأنصار في إنزالهم، فصار عثمان بن مظعون لآل أم العلاء فنزل فيهم»(١).

* عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَأَيَّتُهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ. وَكَانَ يَقْسِمُ لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُنَّ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا، غَيْرَ أَنَّ سَوْدَةَ بِنْتَ زَمْعَةَ وَهَبَتْ يَوْمَهَا وَلَيْلَتَهَا لِعَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ تَبْتَغِي بِذَلِكَ رِضَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ(٢).

★ **فوائد الحديث:**

«فيه: مشروعية القرعة حتى بين النساء وفي المسافرة بهن، والسفر بالنساء حتى في الغزو»(٣).

قال النووي: «هذا دليل لمالك والشافعي وأحمد وجماهير العلماء في العمل بالقرعة في القسم بين الزوجات، وفي العتق والوصايا والقسمة ونحو ذلك، وقد جاء فيها أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة، قال أبو عبيد: عمل بها ثلاثة من الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين يونس وزكريا ومحمد ﷺ، قال ابن المنذر: استعمالها كالإجماع، قال: ولا معنى لقول من ردها والمشهور عن أبي حنيفة إبطالها وحكى عنه إجازتها، قال ابن المنذر وغيره: القياس تركها لكن عملنا بها للآثار، وفيه القرعة بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن ولا يجوز أخذ بعضهن بغير قرعة هذا مذهبنا، وبه قال أبو حنيفة وآخرون، وهو رواية عن مالك، وعنه رواية أن له السفر بمن شاء منهن بلا قرعة لأنها قد تكون أنفع له في طريقه والأخرى أنفع له في بيته وماله»(٤).

---

(١) الفتح (٥/ ٣٦٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ١١٧) والبخاري (٥/ ٣٦٧/ ٢٦٨٨) وأبو داود (٢/ ٦٠٣/ ٢١٣٨) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٩٢-٢٩٣/ ٨٩٢٣).

(٣) الفتح (٨/ ٦١٤).

(٤) شرح مسلم (١٧/ ٨٦).

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهَمُوا، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا**»(١).

★ غريب الحديث:

التهجير: التبكير إلى كل شيء والمبادرة إليه. أراد المبادرة إلى أول وقت الصلاة.

العتمة: صلاة العشاء.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله «**إلا أن يستهموا**» أي: لم يجدوا شيئًا من وجوه الأولوية، أما في الأذان فبأن يستووا في معرفة الوقت وحسن الصوت ونحو ذلك من شرائط المؤذن وتكملاته، وأما في الصف الأول فبأن يصلوا دفعة واحدة، ويستووا في الفضل فيقرع بينهم، إذا لم يتراضوا فيما بينهم في الحالين. واستدل به بعضهم لمن قال بالاقتصار على مؤذن واحد، وليس بظاهر لصحة استهام أكثر من واحد في مقابلة أكثر من واحد، ولأن الاستهام على الأذان يتوجه من جهة التولية من الإمام لما فيه من المزية، وزعم بعضهم أن المراد بالاستهام هنا الترامي بالسهام، وأنه أخرج مخرج المبالغة... لكن الذي فهمه البخاري منه أولى، ولذلك استشهد له بقصة سعد(٢)، ويدل عليه رواية لمسلم «**لكانت قرعة**»»(٣).

قال النووي: «فيه إثبات القرعة في الحقوق التي يزدحم عليها ويتنازع فيها»(٤).

---

(١) أحمد (٢/ ٢٣٦) والبخاري (٥/ ٣٦٧/ ٢٦٨٩) ومسلم (١/ ٣٢٥/ ٤٣٧) والترمذي (١/ ٤٣٧/ ٢٢٥) والنسائي (١/ ٢٩٠-٢٩١/ ٥٣٩) وابن ماجه (١/ ٣١٩/ ٩٩٨).

(٢) قصة سعد: علقها البخاري في صحيحه (٢/ ١٢٢) بصيغة التمريض، وأخرجها البيهقي في الكبرى (١/ ٤٢٨-٤٢٩) عن عبد الله بن شبرمة قال: «تشاجر الناس في الأذان بالقادسية، فاختصموا إلى سعد فأقرع بينهم. قال الحافظ في الفتح (٢/ ١٢٣): «هذا منقطع، وقد وصله سيف بن عمر في الفتوح والطبري من طريقه عنه عن عبد الله بن شبرمة عن شقيق -وهو أبو وائل- ثم ذكره».

(٣) فتح الباري (٢/ ١٢٣).

(٤) شرح مسلم (٤/ ١٣٢).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وجيهًا: الوجيه الذي له المنزلة الرفيعة عند ذوي القدر والمعرفة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير. قال اللّه تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: بولد يكون وجوده بكلمة من اللّه؛ أي: يقول له (كن) فيكون. وهذا تفسير قوله ﴿مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾؛ أي: يكون هذا مشهورا في الدنيا، يعرفه المؤمنون بذلك»[١].

قال محمد الأمين الشنقيطي: «لم يبيّن هنا هذه الكلمة التي أطلقت على عيسى؛ لأنها هي السبب في وجوده من إطلاق السبب وإرادة مسببه، ولكنه بيّن في موضع آخر أنها لفظة (كن)، وذلك في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن﴾، وقيل: الكلمة بشارة الملائكة لها بأنها ستلده، واختاره ابن جرير، والأول قول الجمهور»[٢].

قال شيخ الإسلام: «ففي هذا الكلام وجوه تبين أنه مخلوق وليس هو ما يقوله النصارى: منها أنه قال: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ وقوله: بكلمة منه نكرة في الإثبات تقتضي أنه كلمة من كلمات اللّه، ليس هو كلامه كله كما يقول النصارى. ومنها أنه يبين مراده بقوله بكلمة منه، وأنه مخلوق حيث قال: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣] كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ

(١) التفسير (٢/ ٣٤).
(٢) أضواء البيان (١/ ٢٠٠).
(٣) آل عمران: الآية (٤٧).

ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وقال تعالى في سورة كهيعص: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1] فهذه ثلاث آيات في القرآن تبين أنه قال له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ وهذا تفسير كونه كلمة منه. وقال اسمه المسيح عيسى ابن مريم، أخبر أنه ابن مريم، وأخبر أنه وجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين، وهذه كلها صفة مخلوق، والله تعالى وكلامه الذي هو صفته لا يقال فيه شيء من ذلك وقالت مريم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ فبين أن المسيح الذي هو الكلمة هو ولد مريم، لا ولد الله سبحانه وتعالى»[2].

* * *

(١) مريم: الآيتان (٣٤-٣٥).

(٢) الجواب الصحيح (٤/ ٦٣-٦٤).

قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦﴾

★ **غريب الآية:**

المهد: موضع الصبي حين الرضاع.

كهلا: الكهل: الرجل التام السوي: وهو من بلغ الأربعين فأكثر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: يدعو إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له، في حال صغره معجزة وآية، وفي حال كهولته حين يوحي اللَّه إليه بذلك ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: في قوله وعمله، له علم صحيح وعمل صالح»[1].

قال ابن جرير: «وإنما عنى -جل ثناؤه- بقوله ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ ويكلم الناس طفلًا في المهد، دلالة على براءة أمه مما قذفها به المفترون عليها، وحجة له على نبوته، وبالغًا كبيرًا بعد احتناكه بوحي اللَّه الذي يوحيه إليه، وأمره ونهيه، وما تقول عليه من كتابه. وإنما أخبر اللَّه ﷻ عباده بذلك من أمر المسيح، وأنه كذلك كان، وإن كان الغالب من أمر الناس أنهم يتكلمون كهولًا وشيوخًا، احتجاجًا به على القائلين فيه من أهل الكفر باللَّه من النصارى بالباطل، وأنه كان في معاناة أشياء مولودًا طفلًا، ثم كهلًا يتقلب في الأحداث، ويتغير بمرور الأزمنة عليه والأيام، من صغر إلى كبر، ومن حال إلى حال، وأنه لو كان كما قال الملحدون فيه، كان ذلك غير جائز عليه»[2].

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا ما كلمهم به في المهد، ولكنه بينه في سورة مريم بقوله: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا

(١) التفسير (٢/ ٣٥).

(٢) جامع البيان (٦/ ٤١٨ شاكر).

﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[١]»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة عيسى ومعجزته عليه السلام

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى. وكان في بني إسرائيل رجل -يقال له: جريج- كان يصلي، فجاءته أمه فدعته فقال: أجيبها أو أصلي؟ فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات. وكان جريج في صومعته، فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى، فأتت راعيًا فأمكنته من نفسها، فولدت غلاما فقالت: من جريج، فأتوه فكسروا صومعته، وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام فقال: من أبوك يا غلام؟ قال: الراعي، قالوا له: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا، إلا من طين.**

وكانت امرأة ترضع ابنا لها من بني إسرائيل، فمر رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله. فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلني مثله. ثم أقبل على ثديها يمصه، قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يمص إصبعه، **ثم مر بأمة فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت: لم ذاك؟ فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون سرقت زنيت ولم تفعل**»[٣].

⋆ غريب الحديث:

المومسات: المومسة: وهي الفاجرة وتجمع على ميامس أيضًا، وعلى موامس.

ذو شارة: أي صاحب حسن، وقيل: صاحب هيئة ومنظر وملبس يتعجب منه ويشار إليه.

---

(١) مريم الآيات (٢٩-٣٣). (٢) أضواء البيان (١/ ٢٠٠-٢٠١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٧-٣٠٨) والبخاري (٦/ ٥٨٩/ ٣٤٣٦) ومسلم (٤/ ١٩٧٦-١٩٧٨/ ٢٥٥٠).

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة**»: **قال الحافظ**: «قال القرطبي: في هذا الحصر نظر، إلا أن يحمل على أنه ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم الزيادة على ذلك، وفيه بعد، ويحتمل أن يكون كلام الثلاثة المذكورين مقيدا بالمهد وكلام غيرهم من الأطفال بغير مهد، لكنه يعكر عليه أن في رواية ابن قتيبة أن الصبي الذي طرحته أمه في الأخدود كان ابن سبعة أشهر، وصرح بالمهد في حديث أبي هريرة، وفيه تعقب على النووي في قوله: إن صاحب الأخدود لم يكن في المهد، والسبب في قوله هذا ما وقع في حديث ابن عباس عند أحمد والبزار وابن حبان والحاكم: «**لم يتكلم في المهد إلا أربعة**»[(١)] فلم يذكر الثالث الذي هنا، وذكر شاهد يوسف، والصبي الرضيع الذي قال لأمه وهي ماشطة بنت فرعون لما أراد فرعون إلقاء أمه في النار «**اصبري يا أمه فإنا على الحق**». وأخرج الحاكم نحوه[(٢)] من حديث أبي هريرة، فيجتمع من هذا خمسة. ووقع ذكر شاهد يوسف أيضًا في حديث عمران بن حصين[(٣)] لكنه موقوف، وروى ابن أبي شيبة[(٤)] من مرسل هلال بن يساف مثل حديث ابن عباس إلا أنه لم يذكر ابن الماشطة. وفي صحيح مسلم من حديث صهيب في قصة أصحاب الأخدود: «**أن امرأة جيء بها لتلقى في النار أو لتكفر، ومعها صبي يرضع، فتقاعست، فقال لها: يا أمه، اصبري فإنك على الحق**»[(٥)]»[(٦)].

---

(١) أحمد (١/ ٣٠٩-٣١٠) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٨٩) والبزار (١/ ٣٧-٣٨/ ٥٤ كشف الأستار) والطبراني في الكبير (١١/ ٤٥٠-٤٥١/ ١٢٢٧٩) وصححه الحاكم (٢/ ٤٩٦-٤٩٧) ووافقه الذهبي، وابن حبان: الإحسان (٧/ ١٦٤-١٦٥/ ٢٩٠٤) وأورده ابن كثير في التفسير (٥/ ٢٧) وقال: «إسناده لا بأس به، وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٦٥) وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عطاء ابن السائب وهو ثقة ولكنه اختلط، والحديث ضعفه الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في ضعيف الجامع (رقم: ٤٧٧٢).

(٢) (٢/ ٥٩٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (١٨/ ٢٢٤-٢٢٥/ ٥٥٨) والأوسط (٨/ ٢٤٢-٢٤٤/ ٧٤٩٤) وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ١٤٥) وقال: وفيه المفضل بن فضالة وثقه ابن حبان وغيره وضعفه جماعة، فإسناده حسن، وروى في الكبير بإسناد جيد عن مالك بن عمرو القشيري، قال نحوه.

(٤) المصنف (٦/ ٣٣٩/ ٣١٨٧٣).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ١٦-١٨) ومسلم (٤/ ٢٢٩٩-٢٣٠١/ ٣٠٠٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٠-٥١٢/ ١١٦٦١).

(٦) الفتح (٦/ ٥٩٣).

قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولم أجد في حديث صحيح ما ينافي هذا الحصر الوارد في حديث الصحيحين؛ إلا ما في قصة غلام الأخدود، ففيها أنه قال لأمه: «**يا أمه اصبري فإنك على الحق**» رواه أحمد (٦/ ١٧-١٨) من حديث صهيب مرفوعا بسند صحيح على شرط مسلم. وفيه عنده زيادة أن أمه كانت ترضعه، والقصة عند مسلم أيضًا (٨/ ٢٣١)[1] دون هذه الزيادة، وقد عزاها الحافظ في الفتح (٦/ ٣٧١) لمسلم، وهو وهم إن لم تكن ثابتة في بعض نسخ مسلم. وقد جمع بين هذا الحديث وحديث الصحيحين بأن حمل هذا على أنه لم يكن في المهد. واللَّه أعلم»[2].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما يذكر في بعض كتب التفسير وغيرها أنه تكلم في المهد أيضًا إبراهيم ويحيى ومحمد -صلى اللَّه تعالى عليهم أجمعين- فليس له أصل مسند إلى النبي ﷺ، فاعلم ذلك»[3].

* * *

---

(١) والحديث أخرجه أيضًا الترمذي (٥/ ٤٠٧-٤٠٩/ ٣٣٤٠) دون ذكر غلام الأخدود، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥١٠-٥١٢/ ١١٦٦١).

(٢) الضعيفة (٢/ ٢٧٣).

(٣) السلسلة الضعيفة (٢/ ٢٧٣).

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: قالت مريم، إذ قالت لها الملائكة إن اللَّه يبشرك بكلمة منه: رب أنى يكون لي ولد من أي وجه يكون لي ولد؟ أمن قبل زوج أتزوجه وبعل أنكحه؟ أو تبتدئ في خلقه من غير بعل ولا فحل، ومن غير أن يمسني بشر؟ فقال اللَّه لها: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾؛ يعني: هكذا يخلق اللَّه منك ولدا لك من غير أن يمسك بشر، فيجعله آية للناس وعبرة، فإنه يخلق ما يشاء ويصنع ما يريد، فيعطي الولد من شاء من غير فحل ومن فحل، ويحرم ذلك من يشاء من النساء وإن كانت ذات، بعل لأنه لا يتعذر عليه خلق شيء أراد خلقه إنما هو أن يأمر إذا أراد شيئًا ما أراد، فيقول له كن فيكون ما شاء مما يشاء، وكيف شاء»[(١)].

قال الشنقيطي: «أشار في هذه الآية إلى قصة حملها بعيسى وبسطها مبينة في سورة مريم بقوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾[(٢)] إلى آخر القصة، وبين النفخ فيها في سورة التحريم والأنبياء، معبرًا في التحريم بالنفخ في فرجها، وفي الأنبياء بالنفخ فيها»[(٣)].

* * *

(١) جامع البيان (٦/ ٤٢٠-٤٢١ شاكر).
(٢) مريم: الآيتان (١٦-١٧).
(٣) أضواء البيان (١/ ٢٠١).

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾

⋆ **غريب الآية:**

أبرئ: أشفي.

الأكمه: من ولد أعمى.

الأبرص: بياض معروف يعتري الجلد، ولم تكن العرب تنفر من شيء نفرتها منه.

تدخرون: الادخار خزن الأشياء لوقت الحاجة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال كثير من العلماء: بعث اللَّه كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، فبعثه اللَّه بمعجزات بهرت الأبصار وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار. وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه إلا أن يكون مؤيدًا من الذي شرع الشريعة، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم

التناد؟ وكذلك محمد ﷺ بعثه في زمان الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من اللَّه ﷻ، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدًا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، وما ذاك إلا أن كلام الرب لا يشبه كلام الخلق أبدا»[(١)].

قال ابن جرير: «قوله ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ﴾ فإنه يعني: وأخبركم بما تأكلونه مما لم أعاينه وأشاهده معكم في وقت أكلكموه، وما تدخرون يعني بذلك: وما ترفعونه فتخبئونه ولا تأكلونه، يعلمهم أن من حجته أيضًا على نبوته مع المعجزات التي أعلمهم أنه يأتي بها حجة على نبوته وصدقه في خبره أن اللَّه أرسله إليهم من خلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن اللَّه التي لا يطيقها أحد من البشر إلا من أعطاه اللَّه ذلك علما له على صدقه، وآية له على حقيقة قوله من أنبيائه ورسله، ومن أحب من خلقه، إنباءه عن الغيب الذي لا سبيل لأحد من البشر الذين سبيلهم سبيله عليه.

فإن قال قائل: وما كان في قوله لهم: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ من الحجة له على صدقه، وقد رأينا المتنجمة والمتكهنة تخبر بذلك كثيرًا فتصيب؟ **قيل**: إن المتنجم والمتكهن معلوم منهما عند من يخبره بذلك أنهما ينبئان به عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه، ولم يكن ذلك كذلك من عيسى -صلوات اللَّه عليه-، ومن سائر أنبياء اللَّه ورسله، وإنما كان عيسى يخبر به عن غير استخراج ولا طلب لمعرفته باحتيال، ولكن ابتداء بإعلام اللَّه إياه من غير أصل تقدم ذلك احتذاه أو بنى عليه أو فزع إليه، كما يفزع المتنجم إلى حسابه والمتكهن إلى رئيه، فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وإخبارهم عنها، وبين علم سائر المتكذبة على اللَّه، أو المدعية علم ذلك»[(٢)].

قال ابن كثير: «فيه دلالة على أن عيسى ﵇ نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين، ومن العلماء من قال: لم ينسخ منها شيئًا، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ، وكشف لهم عن الغطاء في ذلك كما قال في الآية

---

(١) التفسير (٢/ ٣٦).

(٢) جامع البيان (٦/ ٤٣٢-٤٣٣ شاكر).

الأخرى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾[(١)] والله أعلم»[(٢)].

وقال ابن جرير: «وإنما قيل: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ لأن عيسى -صلوات الله عليه-، كان مؤمنًا بالتوراة مقرًّا بها، وأنها من عند الله. وكذلك الأنبياء كلهم، يصدّقون بكل ما كان قبلهم من كتب الله ورسله، وإن اختلف بعضُ شرائع أحكامهم، لمخالفة الله بينهم في ذلك. مع أنّ عيسى كان -فيما بلغنا- عاملا بالتوراة لم يخالف شيئًا من أحكامها، إلا ما خفَّف الله عن أهلها في الإنجيل، مما كان مشددًا عليهم فيها»[(٣)].

وقال: «﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني بذلك: وجئتكم بآية من ربكم تعلمون بها يقينًا صدقي فيما أقول ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، يا معشرَ بني إسرائيل، فيما أمركم به ونهاكم عنه في كتابه الذي أنزله على موسى، فأوفوا بعهده الذي عاهدتموه فيه، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما دعوتكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به إليكم ربي وربكم، فاعبدوه، فإنه بذلك أرسلني إليكم، وبإحلال بعض ما كان محرّمًا عليكم في كتابكم، وذلك هو الطريق القويمُ، والهدى المتينُ الذي لا اعوجاج فيه»[(٤)].

* * *

---

(١) الزخرف: الآية (٦٣).

(٢) التفسير (٢/ ٣٦).

(٣) جامع البيان (٦/ ٤٣٨ شاكر).

(٤) المصدر نفسه (٦/ ٤٤١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «هذه الآية، وإن كان ظاهرها خبرًا، ففيه الحجة البالغة من اللَّه لرسوله محمد ﷺ على الوفد الذين حاجوه من أهل نجران بإخبار اللَّه ﷻ عن أن عيسى كان بريئا مما نسبه إليه من نسبه، غير الذي وصف به نفسه، من أنه لله عبد كسائر عبيده من أهل الأرض إلا ما كان اللَّه -جل ثناؤه- خصه به من النبوة والحجج التي آتاه دليلًا على صدقه، كما آتى سائر المرسلين غيره من الأعلام والأدلة على صدقهم، والحجة على نبوتهم»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الصراط المستقيم

* عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عبد اللَّه الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ -وَفِي حَدِيثِ أَبِي أُسَامَةَ غَيْرَكَ- قَالَ: «**قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «قوله: «**قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك**»؛ أي: علمني قولًا جامعًا لمعاني الإسلام، واضحًا في نفسه؛ بحيث لا يحتاج إلى تفسير غيرك، أعمل عليه، وأكتفي به، وهذا نحو مما قاله له الآخر: علمني شيئًا أعيش به في الناس ولا تكثر علي فأنسى، فقال: «**لا تغضب**»، وهذا الجواب، وجوابه

(١) جامع البيان (٦/ ٤٤٢ شاكر).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٣) ومسلم (١/ ٦٥/ ٣٨) واللفظ له، والترمذي (٤/ ٥٢٤-٥٢٥/ ٢٤١٠) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٨/ ١١٤٨٩) وابن ماجه (٢/ ١٣١٤/ ٣٩٧٢).

بقوله: «**قل آمنت بالله ثم استقم**». دليل على أن النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم، واختصر له القول اختصارًا، كما قال النبي ﷺ مخبرًا بذلك عن نفسه[١]. فإنه -عليه الصلاة والسلام- جمع لهذا السائل في هاتين الكلمتين معاني الإسلام والإيمان كلها. فإنه أمره أن يجدد إيمانه متذكرًا بقلبه وذاكرًا بلسانه. ويقتضي هذا استحضار تفصيل معاني الإيمان الشرعي بقلبه، التي تقدم ذكرها في حديث جبريل، وأمره بالاستقامة على أعمال الطاعات، والانتهاء عن جميع المخالفات؛ إذ لا تتأتى الاستقامة مع شيء من الاعوجاج فإنها ضده. وكأن هذا القول منتزع من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾[٢]؛ أي: آمنوا بالله ووحدوه، ثم استقاموا على ذلك وعلى طاعته إلى أن توفوا عليها، كما قال عمر بن الخطاب: استقاموا واللهِ على طاعته، ولم يروغوا روغان الثعالب. وملخصه: اعتدلوا على طاعة الله تعالى عقدًا وقولًا وفعلًا، وداموا على ذلك»[٣].

وقال ابن رجب: «والاستقامة هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها»[٤].

وقال: «فأصل الاستقامة استقامة القلب على التوحيد، كما فسر أبو بكر الصديق وغيره قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾[٥] بأنهم لم يلتفتوا إلى غيره، فمتى استقام القلب على معرفة الله، وعلى خشيته، وإجلاله، ومهابته، ومحبته، وإرادته، ورجائه، ودعائه، والتوكل عليه، والإعراض عما سواه، استقامت الجوارح كلها على طاعته، فإن القلب هو ملك الأعضاء، وهي جنوده،

---

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٥٠٠/ ١١٨٢١) والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٠٧-٣٠٨/ ٥٢٠٢) والحديث بهذا التمام ضعيف انظر الضعيفة (٦/ ٣٩٢/ ٢٨٦٤) من حديث عمر ﷺ لكن الطرف الأول منه وهو: «**أوتيت جوامع الكلم**» ثابت. أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٨) والبخاري (٦/ ١٥٨/ ٢٩٧٧) ومسلم (١/ ٣٧١-٣٧٢/ ٥٢٣) والترمذي إثر حديث (٤/ ١٠٤-١٠٥/ ١٥٥٣) والنسائي (٦/ ٣١٠-٣١١/ ٣٠٨٧) وابن ماجه (١/ ١٨٨/ ٥٦٧) مختصرًا. من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) فصلت: الآية (٣٠).

(٣) المفهم (١/ ٢٢١-٢٢٢).

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١٠).

(٥) الأحقاف: الآية (١٣).

فإذا استقام الملك، استقامت جنوده ورعاياه، وكذلك فسر قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾[١] بإخلاص القصد لله وإرادته وحده لا شريك له»[٢].

* * *

(١) الروم: الآية (٣٠).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١١-٥١٢).

قوله تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أحس: علم ووجد.

الحواريون: واحدهم حواري: وهو الصفي والناصر، وقيل: سموا بذلك لبياض ثيابهم، من الحور وهو البياض الخالص.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «لم يبين هنا الحكمة في ذكر قصة الحواريين مع عيسى، ولكنه بين في سورة الصف أن حكمة ذكر قصتهم هي أن تتأسى بهم أمة محمد ﷺ في نصرة اللَّه ودينه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾(١) الآية»(٢).

وقال ابن كثير: «الظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: «**من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي**»(٣) حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فآسوه، ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا عيسى ابن مريم انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ولهذا قال

(١) الصف: الآية (١٤).

(٢) أضواء البيان (١/ ٢٨٠).

(٣) أخرجه من حديث جابر أحمد (٣/ ٣٢٢-٣٢٣ و٣٣٩-٣٤٠) والبزار (كشف الأستار ٢/ ٣٠٧-٣٠٨/ ١٧٥٦) وأبو يعلى (٣/ ٤٠٥/ ١٨٨٧) مختصرًا، وابن حبان: الإحسان (١٤/ ١٧٢-١٧٤/ ٦٢٧٤) وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٤٦) وقال: «رواه أحمد والبزار.. ورجال أحمد رجال الصحيح».

تعالى مخبرا عنهم ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾»[١].

قوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾

قال محمد رشيد رضا: «وفي هذا من العبرة والتسلية للنبي ﷺ ما فيه، وأن أكبر ما فيه الإعلام بأن الآيات الكونية وإن كثرت وعظمت ليست ملزمة بالإيمان، ولا مفضية إليه حتمًا، وإنما يكون الإيمان باستعداد المدعو إليه، وحسن بيان الداعي، ولذلك كان من أمر عيسى عليه السلام أنه لما أحس من قومه الكفر ﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِيَ إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: توجه إلى البحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه في دعوته تاركين لأجلها كل ما يشغل عنها منخلعين عما كانوا فيه متحيزين ومنزوين إلى الله، منصرفين إلى تأييد رسوله، ونصره على خاذليه، والكافرين بما جاء به ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾؛ أي: أنصار دينه، وهذا القول يفيد الانخلاع والانفصال من التقاليد السابقة، والأخذ بالتعليم الجديد، وبذل منتهى الاستطاعة في تأييده، فإن نصر الله لا يكون إلا بذلك»[٢].

قلت: هذا عيسى نبي الله ورسوله يطلب النصرة على دعوته، ويطلب من الله تعالى أن يهيئ له أنصارًا ينصرونه في دعوته، فهيأ الله له هؤلاء الأخيار الحواريين الذين نصروه وبذلوا أنفسهم وأموالهم في نصرة دينه، وقد ذكر الله تعالى نماذج من أصحاب الرسل الذين قاموا بنصرة دينه مع أنبيائه ورسله، كما ذكر الله عن نوح وشعيب وموسى وإبراهيم وعن غيرهم.

أما أصحاب رسول الله ﷺ فقد ضربوا المثل الأعلى في نصرة النبي ﷺ، بداية من الصديق وأم المؤمنين خديجة وورقة بن نوفل الذي تمنى نصرته وأخبره بما أدخل عليه السرور، وأكد لأم المؤمنين كل ظنونها في زوجها وحبيبها محمد ﷺ بما وصفته به من صدق وأمانة، وهكذا حمل هذه الدعوة المباركة باقي الأخيار من الصحابة والتابعين بعدهم، بالجهاد والدعوة والعلم النافع، وتفصيل هذا الموضوع يطول ويحتاج فيه إلى صفحات كثيرة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٧).

(٢) تفسير المنار (٣/ ٣١٣-٣١٤).

ففي كل وقت وحين يحتاج إلى مثل هذه النداءات من الدعاة، من النصرة والتعاون والتأييد، بالعلم والمال، والخطب والدروس والكتب، وكل وسيلة تنصر هذا الدين، فما أحوجنا إلى هذه النداءات القرآنية التي ذكرها اللَّه عن الأخيار أولي العزم من الرسل.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حواري رسول اللَّه ﷺ

* عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ يَوْمَ الْأَحْزَابِ؟**» فقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا. ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟**» قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ**»[(١)].

★ **غريب الحديث:**

حواري: عن ابن عباس: «إنما سمي الحواريون قال: كانوا صيادين لبياض ثيابهم»[(٢)]. وكذا قال سعيد بن جبير. وعن ابن عيينة: هو الناصر. وقال أبو أرطأة: سموا بذلك لأنهم كانوا قصارين يحورون الثياب؛ أي: يبيضونها، وقال قتادة: الحواريون أصفياء الأنبياء، الذين تصلح لهم الخلافة، وقال الضحاك نحوه.

قال ابن كثير: «الصحيح: أن الحواري الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي الله عنه فقال النبي ﷺ: «**لكل نبي حواري وحواري الزبير**»»[(٣)].

قال الحافظ: «وأخرج عن الضحاك أن الحواري هو الغسال بالنبطية، لكنهم يجعلون الحاء هاء. وعن قتادة: الحواري هو الذي يصلح للخلافة. وعنه: هو الوزير. أخرجه الترمذي وغيره عنه. وعند الزبير بن بكار من طريق مسلمة بن عبد اللَّه بن عروة مثله. وهذه الثلاثة الأخيرة متقاربة. وقال الزبير عن محمد بن سلام: سألت يونس بن حبيب عن الحواري قال: الخالص. وعن ابن الكلبي

---

(١) أحمد (٣/ ٣٠٧) والبخاري (٦/ ٦٥-٦٦/ ٢٨٤٦) ومسلم (٤/ ١٨٧٩/ ٢٤١٥) والترمذي (٥/ ٦٠٤-٦٠٥/ ٣٧٤٥) والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٦٤/ ٨٨٤١) وابن ماجه (١/ ٤٥/ ١٢٢).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٢/ ٦٥٨) وصحح إسناده الحافظ في الفتح (٧/ ١٠٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٧).

الحواري: الخليل»[١].

★ **فوائد الحديث:**

فيه: «منقبة للزبير وقوة قلبه وصحة يقينه»[٢].

* * *

(١) الفتح (٧/ ١٠٠).

(٢) فتح الباري (٦/ ٦٦).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا التزام تام للإيمان بكل ما أنزل اللَّه ولطاعة رسوله ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة ولدينك بالحق والصدق»(١).

قال ابن جرير: «وهذا خبر من اللَّه ﷻ عن الحواريين أنهم قالوا ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾؛ أي: صدقنا ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾؛ يعني: بما أنزلت على نبيك عيسى من كتابك، ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ يعني بذلك: صرنا أتباع عيسى على دينك الذي ابتعثته به وأعوانه، على الحق الذي أرسلته به إلى عبادك. وقوله ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يقول: فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقروا لك بالتوحيد، وصدقوا رسلك، واتبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، وأحلنا محلهم، ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصد عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك، يعرف خلقه -جل ثناؤه- بذلك سبيل الذين رضي أقوالهم وأفعالهم، ليحتذوا طريقهم، ويتبعوا منهاجهم، فيصلوا إلى مثل الذي وصلوا إليه من درجات كرامته، ويكذب بذلك الذين انتحلوا من الملل غير الحنيفية المسلمة في دعواهم على أنبياء اللَّه أنهم كانوا على غيرها، ويحتج به على الوفد الذين حاجوا رسول اللَّه ﷺ من أهل نجران بأنه قيل من رضي الله عنه من أتباع عيسى كان خلاف قيلهم، ومنهاجهم غير منهاجهم»(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ معطوف على قولهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ إلخ؛ أي: صدقنا بما أنزلت من الإنجيل ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ عيسى بن

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٨٥).

(٢) جامع البيان (٦/ ٤٥٢-٤٥٣ شاكر).

مريم. قال الأستاذ الإمام: ذكر الاتباع بعد الإيمان؛ لأن العلم الصحيح يستلزم العمل، والعلم الذي لا أثر له في العمل يشبه أن يكون مجملًا وناقصًا، لا يقينًا وإيمانًا، وكثيرا ما يظن الإنسان أنه عالم بشيء حتى إذا حاول العمل به لم يحسنه، فتبين له أنه كان مخطئًا في دعوى العلم. ثم قال: إن العلم بالشيء يظل مجملا مبهمًا في النفس حتى يعمل به صاحبه فيكون بالعمل تفصيليًّا، فذِكْر الحواريين الاتباعَ بعد الإيمان؛ يفيد أن إيمانهم كان في مرتبة اليقين التفصيلي الحاكم على النفس، المصرف لها في العمل، ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للرسول بتبليغ الدعوة، وعلى قومه بما كان منهم من الكفر والجحود، فحذف معمول الشاهدين ليعم المشهود له والمشهود عليهم. أو يقال: الشاهدين على هذه الحالة؛ أي: حالة الرسول مع قومه»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن عباس في قوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ قال: «مع محمد وأمته فإنهم قد شهدوا أنه قد بلغ وشهدوا للرسل أنهم قد بلغوا»[2].

* * *

(١) تفسير المنار (٣/ ٣١٤-٣١٥).

(٢) الطبراني (١١/ ٢٧٩/ ١١٧٣٢) وابن أبي حاتم (٢/ ٦٦٠/ ٣٥٧٧) وجود ابن كثير إسناده (٢/ ٣٧) وصحح سنده المناوي في «الفتح السماوي» (١/ ٣٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

⋆ **غريب الآية:**

مكروا: أصل المكر الستر، يقال: مكر الليل؛ أي: أظلم وستر بظلمته ما فيه، ثم أطلق المكر على الخبث والخداع.

ومن صفات اللَّه تعالى: المكر، لكن لا يوصف به على الإطلاق، إنما يوصف به حين يكون مدحًا كالخداع والاستهزاء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «لم يبيّن هنا مكر اليهود بعيسى ولا مكر اللَّه باليهود، ولكنه بيّن في موضع آخر أن مكرهم به محاولتهم قتله، وذلك في قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾(١)، وبيّن أن مكره بهم إلقاؤه الشبه على غير عيسى وإنجاؤه عيسى -عليه وعلى نبيّنا الصلاة والسلام-، وذلك في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾(٢)، وقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ الآية(٣)»(٤).

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: ومَكَر الذين كفروا من بني إسرائيل، وهم الذين ذكر اللَّه أن عيسى أحس منهم الكفر، وكان مكرهم الذي وصفهم اللَّه به، مواطأة بعضهم بعضا على الفتك بعيسى وقتله»(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة المكر

* عن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ يدعو: «**ربِّ أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر هداي إلي،**

(١) النساء: الآية (١٥٧).
(٢) النساء: الآية (١٥٧).
(٣) النساء: الآيتان (١٥٧-١٥٨).
(٤) أضواء البيان (١/ ٢٠١).
(٥) جامع البيان (٦/ ٤٥٣ شاكر).

وانصرني على من بغى علي، اللهم اجعلني لك شاكرًا، لك ذاكرًا، لك راهبًا، لك مطواعًا، إليك مخبتًا، أو منيبًا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهد قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي»[(١)].

★ غريب الحديث:

مخبتًا: أي: خاضعًا خاشعًا متواضعًا.

منيبا: الإنابة الرجوع إلى اللّٰه بالتوبة.

حوبتي: من الحوب وهو الإثم.

اسلُل: أي: أخرج.

سَخيمة قلبي: أي: غشه وغله وحقده وحسده ونحوها مما ينشأ من الصدر ويسكن في القلب من مساوي الأخلاق.

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «قوله: «**وامكر لي**» قيل: المكر الخداع، وهو من اللّٰه تعالى إيقاع بلائه بأعدائه من حيث لا يشعرون، وقيل: هو استدراج العبد بالطاعات، فيتوهم أنها مقبولة، وهي مردودة»[(٢)].

قال ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قيل: كيف يوصف اللّٰه بالمكر مع أن ظاهره أنه مذموم؟ قيل: إن المكر في محله محمود يدل على قوة الماكر، وأنه غالب على خصمه، ولذلك لا يوصف اللّٰه به على الإطلاق؛ فلا يجوز أن تقول: إن اللّٰه ماكر، وإنما تذكر هذه الصفة في مقام تكون فيه مدحًا، مثل قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[(٤)]، ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾[(٥)]، ولا تنفي عنه هذه الصفة على سبيل

---

(١) أحمد (١/ ٢٢٧) والبخاري في الأدب المفرد (٦٦٥) وأبو داود (٢/ ١٧٥-١٧٦/ ١٥١٠) والترمذي (٥/ ٥١٧-٥١٨/ ٣٥٥١) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٥/ ١٠٤٤٣) وابن ماجه (٢/ ١٢٥٩/ ٣٨٣٠)، وصحح إسناده الحاكم (١/ ٥١٩-٥٢٠) وابن حبان: الإحسان ٣/ ٢٢٩/ ٩٤٨).

(٢) شرح المشكاة (٦/ ١٩٢٥-١٩٢٦).

(٣) الأنفال: الآية (٣٠).

(٤) النمل: الآية (٥٠).

(٥) الأعراف: الآية (٩٩).

الإطلاق، بل إنها في المقام التي تكون مدحًا يوصف بها وفي المقام التي لا تكون مدحا لا يوصف بها.

وكذلك لا يسمى اللَّه بها؛ فلا يقال: إن من أسماء اللَّه الماكر.

وأما الخيانة؛ فلا يوصف اللَّه بها مطلقًا لأنها ذم بكل حال؛ إذ إنها مكر في موضع الائتمان، وهو مذموم، قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾[1]، ولم يقل: فخانهم.

وأما الخداع؛ فهو كالمكر يوصف اللَّه به حيث يكون مدحًا، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[2]، والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئة اللَّه سبحانه»[3].

وانظر ما تقدم ذكره عن هذه الصفة ومثلها عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[4].

* * *

---

(١) الأنفال: الآية (٧١).

(٢) النساء: الآية (١٤٢).

(٣) شرح كتاب التوحيد (ضمن مجموع الفتاوى ورسائل ابن عثيمين (١٠/ ٦٨٠-٦٨١).

(٤) البقرة: الآية (١٥).

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فرفعه اللَّه إليه، وطهره من الذين كفروا وصلبوا من قتلوه، ظانين أنه عيسى وباؤوا بالإثم العظيم.

وسينزل عيسى بن مريم في آخر هذه الأمة حكمًا عدلًا، يقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويتبع ما جاء به محمد ﷺ. ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مغرورون مخدوعون وقوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ المراد بمن اتبعه: الطائفة التي آمنت به ونصرهم اللَّه على من انحرف عن دينه. ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ، فكانوا هم أتباعه حقًّا، فأيدهم اللَّه ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] الآية. ولكن حكمة اللَّه عادلة، فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين، نصره اللَّه النصر المبين. وأن من ترك أمره ونهيه، ونبذ شرعه، وتجرأ على معاصيه أن يعاقبه ويسلط عليه الأعداء، واللَّه عزيز حكيم»[2].

قال ابن جرير: «تأويل الآية إذًا: قال اللَّه لعيسى: يا عيسى إني قابضك من الأرض ورافعك إلي، ومطهرك من الذين كفروا فجحدوا نبوتك، وهذا الخبر وإن كان مخرجه مخرج خبر، فإن فيه من اللَّه عَزَّ وَجَلَّ احتجاجًا على الذين حاجوا رسول اللَّه ﷺ في عيسى من وفد نجران، بأن عيسى لم يقتل ولم يصلب، كما زعموا وأنهم واليهود الذين أقروا بذلك، وادعوا على عيسى كذبة في

---

(١) النور: الآية (٥٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٨٥-٣٨٦).

دعواهم وزعمهم»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «عيسى ﷺ حي وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلًا وإمامًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية**»[٢] وثبت في الصحيح عنه أنه: «**ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق، وأنه يقتل الدجال**»[٣] ومن فارقت روحه جسده لم ينزل جسده من السماء، وإذا أحيي فإنه يقوم من قبره. وأما قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فهذا دليل على أنه لم يعن بذلك الموت؛ إذ لو أراد بذلك الموت لكان عيسى في ذلك كسائر المؤمنين؛ فإن اللَّه يقبض أرواحهم ويعرج بها إلى السماء، فعلم أن ليس في ذلك خاصية. وكذلك قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، ولو كان قد فارقت روحه جسده لكان بدنه في الأرض كبدن سائر الأنبياء، أو غيره من الأنبياء[٤]. وقد قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾[٥] فقوله هنا: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾ يبين أنه رفع بدنه وروحه كما ثبت في الصحيح أنه ينزل بدنه وروحه؛ إذ لو أريد موته لقال: وما قتلوه وما صلبوه؛ بل مات. فقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ﴾ يبين أنه رفع بدنه وروحه، كما ثبت في الصحيح أنه ينزل بدنه وروحه. ولهذا قال من قال من العلماء: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾: أي: قابضك؛ أي: قابض روحك وبدنك، يقال: توفيت الحساب واستوفيته، ولفظ التوفي لا يقتضي نفسه توفي الروح دون البدن، ولا توفيهما جميعًا، إلا بقرينة منفصلة. وقد يراد به توفي النوم كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ

---

(١) جامع البيان (٦/ ٤٦١ شاكر).

(٢) أحمد (٢/ ٥٣٨) والبخاري (٦/ ٦٠٧/ ٣٤٤٨) ومسلم (١/ ١٣٥/ ١٥٥)، والترمذي (٤/ ٤٣٩/ ٢٢٣٣) وابن ماجه (٢/ ١٣٦٣/ ٤٠٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أحمد (٤/ ١٨١-١٨٢) ومسلم (٤/ ٢٢٥٠-٢٢٥٥/ ٢٩٣٧) والترمذي (٤/ ٤٤٢-٤٤٥/ ٢٢٤٠) وابن ماجه (٢/ ١٣٥٦-١٣٥٩/ ٤٠٧٥). وأخرجه مختصرا أبو داود (٤/ ٤٩٦-٤٩٧/ ٤٣٢١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٣٥/ ١٠٧٨٣) من حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٤) هكذا في الأصل، ولعل الصواب: أو غيره من غير الأنبياء.

(٥) النساء: الآيتان (١٥٧-١٥٨).

حِينَ مَوْتِهَا﴾(١) وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾(٢) وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾»(٣)(٤).

وقال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: وجاعل الذين اتبعوك على منهاجك وملتك من الإسلام وفطرته فوق الذين جحدوا نبوتك، وخالفوا بسبيلهم جميع أهل الملل، فكذبوا بما جئت به، وصدوا عن الإقرار به، فمصيرهم فوقهم ظاهرين عليهم»(٥).

وقال ابن القيم: «فلما كان للنصارى نصيب ما من اتباعه كانوا فوق اليهود إلى يوم القيامة، ولما كان المسلمون أتبع له من النصارى كانوا فوق النصارى إلى يوم القيامة»(٦).

وقال الشوكاني: «لا ريب أن صيغة ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ﴾ من صيغ العموم، وكذلك صيغة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ من صيغ العموم، والواجب العمل بما دل عليه النظم القرآني. وإذا ورد ما يقتضي تخصيصه أو تقييده أو صرفه عن ظاهره وجب العمل به، وإن لم يرد ما يقتضي ذلك وجب البقاء على معنى العموم، وظاهره شمول كل متبع، وأنه مجعول فوق كل كافر، وسواء كان الاتباع بالحجة أو بالسيف أو بهما، وفي كل الدين أو بعضه، وفي جميع الأزمنة والأمكنة والأحوال، أو في بعضها.

والمراد بالكافر -الذي جعل المتبع فوقه- كل كفار سواء كان كفره بالستر لما يعرفه من نبوة عيسى، أو بالمكر به، أو بمخالفة دينه، إما بعدم التمسك بدين من الأديان قط، كعبدة الأوثان والنار والشمس والقمر، والجاحدين لله، والمنكرين للشرائع، وإما مع التمسك بدين يخالف دين عيسى قبل بعثة نبينا محمد ﷺ كاليهود وسائر الملل الكفرية، فالمتبعون لعيسى بأي وجه من تلك الوجوه هم المجعولون فوق من كان كافرا بأي تلك الأنواع، ثم بعد البعثة المحمدية لا شك أن المسلمين هم المتبعون لعيسى لإقراره بنبوة محمد ﷺ وتبشيره بها كما في القرآن الكريم، والإنجيل، بل في الإنجيل الأمر لأتباع عيسى باتباع محمد ﷺ.

---

(١) الزمر: الآية (٤٢).
(٢) الأنعام: الآية (٦٠).
(٣) الأنعام: الآية (٦١).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٢٢-٣٢٣).
(٥) جامع البيان (٣/ ٢٩٢).
(٦) إغاثة اللهفان (٢/ ١٨٥).

فالمتبعون لعيسى بعد البعثة المحمدية هم المسلمون في أمر الدين، ومن بقي على النصرانية بعد البعثة المحمدية؛ فهو وإن لم يكن متبعًا لعيسى في أمر الدين ومعظمه، لكنه متبع له في الصورة، وفي الاسم، وفي جزئيات من أجزاء الشريعة العيسوية فقد صدق عليهم أنهم متبعون له في الصورة، وفي الاسم، وفي شيء مما جاء به، وإن كانوا على ضلال ووبال وكفر، فذلك لا يوجب خروجهم عن العموم المذكور في القرآن، ولا يستلزم اندراجهم تحت هذا العموم أنهم على شيء، بل هم هالكون في الآخرة، وإن كانوا مجعولين فوق الذين كفروا، فذلك إنما هو في هذه الدار، ولهذا يقول الله ﷻ بعد قوله: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فالحاصل: أن المجعولين فوق الذين كفروا هم أتباع عيسى قبل النبوة المحمدية، وهم النصارى والحواريون، وبعد النبوة المحمدية هم المسلمون والنصارى والحواريون، الأولون هم الأتباع حقيقة، وغيرهم هم الأتباع في الصورة. وقد جعل الله الجميع فوق الذين كفروا من اليهود وسائر الطوائف الكفرية. وقد كان الواقع هكذا، فإن الملة النصرانية قبل البعثة المحمدية كانت قاهرة لجميع الملل الكفرية، ظاهرة عليها غالبة لها، وبعد البعثة المحمدية صارت جميع الطوائف الكفرية نهبا بين الملة الإسلامية والملة النصرانية ما بين قتيل وأسير ومسلم للجزية، وهذا يعرفه كل من له إلمام بأخبار العالم، ولكن الله سبحانه قد جعل الملة الإسلامية قاهرة للملة النصرانية مستظهرة عليها، وفاء بوعده في كتابه العزيز كما في الآيات المشتملة على الأخبار بأن جنده هم الغالبون، وحزبه هم المنصورون. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾[١]. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢]، ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[٣]. وقد أخبر الصادق المصدوق بظهور أمته على جميع الأمم وقهر ملته لجميع الملل.

---

(١) الصف: الآية (١٤). (٢) المنافقون: الآية (٨).
(٣) النساء: الآية (١٤١).

وبالجملة أنا إذا جردنا النظر إلى الملة الإسلامية، والملة النصرانية فقد ثبت بالكتاب والسنة ما يدل على استظهار الملة الإسلامية على الملة النصرانية، وإن نظرنا إلى جميع الملل فالملة الإسلامية والملة النصرانية هما فوق سائر الملل الكفرية لهذه الآية التي ورد السؤال عنها. ولا ينافي هذا شيء مما تقدم ذكره؛ لأن ما ورد مما يدل على أن المسلمين هم المجعولون فوق الذين كفروا هو صحيح؛ لأنهم قد جعلوا فوق جميع الملل بعد البعثة المحمدية. ولا يخالف ذلك جعل بعض الملل الكفرية وهم النصارى فوق سائر الملل الكفرية، ولا ملجئ إلى جعل الضمير المذكور في الآية، وهو «الكاف» لنبينا محمد ﷺ كما تكلفه جماعة من المفسرين؛ لأن جعله لعيسى كما يدل عليه السياق، بل هو الظاهر الذي لا ينبغي العدول عنه لا يستلزم إخراج الملة المحمدية بعد البعثة، إذ هم متبعون لعيسى كما عرفت سابقا. ولا خلاف بين أهل الإسلام أن الملة النصرانية كانت قبل البعثة المحمدية هي القاهرة لجميع الملل الكفرية، فلم يبق في تحويل الضمير عن مرجعه الذي لا يحتمل السياق غيره فائدة إلا تشكيك النظم القرآني، والإخراج له عن الأساليب البالغة في البلاغة إلى حد الإعجاز. ومن تدبر هذا الوجه الذي حررناه علم أنه قد أعطى التركيب القرآني ما يليق ببلاغته من بقاء عموم الموصول الأول والموصول الثاني، وعدم التعرض لتخصيصه بما ليس بمخصص، وتقييده بما ليس بمقيد، وعدم الخروج عن مقتضى الظاهر في مرجع الضمائر، وعدم ظن التعارض بين ما هو متحد الدلالة»[1].

* * *

(١) ضمن الفتح الرباني من فتاوى الشوكاني (٣/ ١١٣٦-١١٣٩).

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: فأما الذين جحدوا نبوتك يا عيسى، وخالفوا ملتك، وكذبوا بما جئتهم به من الحق، وقالوا فيك الباطل، وأضافوك إلى غير الذي ينبغي أن يضيفوك إليه من اليهود والنصارى، وسائر أصناف الأديان، فإني أعذبهم عذابا شديدا؛ أما في الدنيا فبالقتل والسباء والذلة والمسكنة؛ وأما في الآخرة فبنار جهنم خالدين فيها أبدا ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يقول: وما لهم من عذاب اللَّه مانع، ولا عن أليم عقابه لهم دافع بقوة ولا شفاعة؛ لأنه العزيز ذو الانتقام. وأما قوله ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنه يعني -تعالى ذكره-: وأما الذين آمنوا بك يا عيسى، يقول: صدقوك فأقروا بنبوتك وبما جئتهم به من الحق من عندي ودانوا بالإسلام الذي بعثتك به، وعملوا بما فرضت من فرائضي على لسانك، وشرعت من شرائعي، وسننت من سنني.. ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ يقول: فيعطيهم جزاء أعمالهم الصالحة كاملًا، لا يُبخسون منه شيئًا ولا ينقصون.

وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فإنه يعني: واللَّه لا يحب من ظلم غيره حقًّا له، أو وضع شيئًا في غير موضعه، فنفى -جل ثناؤه- عن نفسه بذلك أن يظلم عباده، فيجازي المسيء ممن كفر جزاء المحسنين ممن آمن به، أو يجازي المحسن ممن آمن به واتبع أمره، وانتهى عما نهاه عنه، فأطاعه جزاء المسيئين ممن كفر به وكذب رسله وخالف أمره ونهيه فقال: إني لا أحب الظالمين، فكيف أظلم خلقي. وهذا القول من اللَّه -تعالى ذكره- وإن كان خرج مخرج الخبر، كأنه وعيد منه للكافرين به وبرسله، ووعد منه للمؤمنين به وبرسله؛ لأنه أعلم الفريقين جميعًا أنه

لا يبخس هذا المؤمن حقه، ولا يظلم كرامته، فيضعها فيمن كفر به، وخالف أمره ونهيه، فيكون لها بوضعها في غير أهلها ظالمًا»[(١)].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ تفصيل لما أجمل في قوله: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾. وقوله: ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ المقصود من هذا الوعيدِ هو عذاب الآخرة؛ لأنه وقع في حَيز تفصيل الضمائر من قوله: ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وإنما يكون ذلك في الآخرة، فذكر عذاب الدنيا هنا إدماج. فإن كان هذا مما خاطب اللَّه به عيسى فهو مستعمل في صريح معناه، وإن كان كلامًا من اللَّه في القرآن خوطب به النبي ﷺ والمسلمونَ، صح أن يكون مرادًا منه أيضًا التعريض بالمشركين في ظلمهم محمدًا ﷺ عن مكابرة منهم وحسد..

وجملة ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ تذييل لجملة ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: ولا يجدون ناصرين ينصرونهم علينا في تعذيبهم الذي قدّره اللَّه تعالى..

وجملة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييل للتفصيل كله، فهي تذييل ثانٍ لجملة ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بصريح معناها؛ أي: أعذّبهم لأنهم ظالمون واللَّه لا يحبّ الظالمين. وتذييلٌ لجملة ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى آخرها، بكناية معناها؛ لأنّ انتفاء محبة اللَّه الظالمين يستلزم أنه يحبّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلذلك يعطيهم ثوابهم وافيًا.

ومعنى كونهم ظالمين: أنهم ظلَموا أنفسهم بكفرهم وظلَمَ النصارى اللَّه بأن نقصوه بإثبات ولد له، وظلموا عيسى بأن نسبوه ابنًا للَّه تعالى، وظَلَمه اليهود بتكذيبهم إياه وأذاهم.

وعذاب الدنيا هو زوال الملك وضرب الذلة والمسكنة والجزية، والتشريد في الأقطار، وكونهم يعيشون تبعًا للناس، وعذاب الآخرة هو جهنم. ومعنى ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: أنهم لا يجدون ناصرًا يدفع عنهم ذلك وإن حاوله لم يظفر به وأسند فنوفيهم[(٢)] إلى نون العظمة تنبيهًا على عظمة مفعول هذا الفاعل؛ إذ العظيم

(١) جامع البيان (٦/ ٤٦٥-٤٦٦ شاكر).

(٢) على قراءة غير حفص من السبعة.

يعطي عظيمًا . والتقدير : فيوفيهم أجورهم في الدنيا والآخرة، بدليل مقابله في ضدّهم من قوله : ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ وتوفية الأجور في الدنيا تظهر في أمور كثيرة : منها رضا اللَّهِ عنهم، وبَركاته معهم، والحياة الطيبة، وحسن الذكر . وجملة ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييل، وفيها اكتفاء : أي : ويحبّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات»[1] .

* * *

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٢٦٠-٢٦٢).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿ذَٰلِكَ﴾، هذه الأنباءَ التي أنبأ بها نبيه عن عيسى وأمّه مريم، وأمِّها حَنَّة وزكريا وابنه يحيى، وما قصَّ من أمر الحواريين واليهودَ من بني إسرائيل ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ يا محمد، يقول: نقرؤها عليك يا محمد على لسان جبريل ﷺ، بوحيناها إليك ﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾، يقول: من العبر والحجج على من حاجَّك من وفد نصارى نجران، ويهود بني إسرائيل الذين كذّبوك وكذبوا ما جئتهم به من الحق من عندي، ﴿وَٱلذِّكْرِ﴾؛ يعني: والقرآن ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾؛ يعني: ذي الحكمة الفاصلة بين الحقّ والباطل، وبينك وبين ناسبي المسيح إلى غير نسبه»[١].

قال ابن كثير: «أي: هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده وكيفية أمره، هو مما قاله الله تعالى، وأوحاه إليك ونزله عليك من اللوح المحفوظ، فلا مرية فيه ولا شك كما قال تعالى في سورة مريم: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (٦/ ٤٦٦-٤٦٧ شاكر).

(٢) مريم: الآيتان (٣٤و٣٥).

(٣) التفسير (٢/ ٣٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

★ غريب الآية:

الممترين: الشاكين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «أخبر تعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات، وهو مجيئها طوعًا لمشيئته وتكوينه، فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يقر بوجود آدم من غير أب ولا أم ووجود حواء من غير أم؟! فآدم وعيسى نظيران يجمعهما المعنى الذي يصح تعليق الإيجاد والخلق به»[١].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ دليل على صحة القياس. والتشبيه واقع على أن عيسى خلق من غير أب كآدم، لا على أنه خلق من تراب. والشيء قد يشبه بالشيء وإن كان بينهما فرق كبير بعد أن يجتمعا في وصف واحد؛ فإن آدم خلق من تراب ولم يخلق عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة، ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقهما من غير أب، ولأن أصل خلقتهما كان من تراب لأن آدم لم يخلق من نفس التراب، ولكنه جعل التراب طينا ثم جعله صلصالا ثم خلقه منه، فكذلك عيسى حوله من حال إلى حال، ثم جعله بشرا من غير أب»[٢].

وقال ابن تيمية: «كلام حق، فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق زوجته حواء من

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٣٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٦٦).

ذكر بلا أنثى، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[1]. وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى، وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح، فإن حواء خلقت من ضلع آدم، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا، وهو أصل خلق حواء. فلهذا شبهه اللَّه بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح، فإذا كان سبحانه قادرًا أن يخلقه من تراب، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان؟ وهو سبحانه خلق آدم من تراب، ثم قال له كن فيكون، لما نفخ فيه من روحه، فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه وقال: له كن فيكون ولم يكن آدم بما نفخ من روحه لاهوتًا وناسوتًا، بل كله ناسوت، فكذلك المسيح كله ناسوت، واللَّه -تبارك وتعالى- ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارى لما قدم على النبي نصارى نجران وناظروه في المسيح، وأنزل اللَّه فيه ما أنزل فبين فيه قول الحق الذي اختلفت فيه اليهود والنصارى، فكذب اللَّه الطائفتين: هؤلاء في غلوهم فيه، وهؤلاء في ذمهم له»[2].

* * *

(١) النساء: الآية (١).

(٢) الجواب الصحيح (٤/ ٥٤-٥٥).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نبتهل: من البهلة بالفتح والضم وهي اللعنة، يقال: بهله اللَّه؛ أي: لعنه وأبعده من رحمته، ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعانًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن تيمية: «وقد امتثل النبي قول اللَّه فدعاهم إلى المباهلة، فعرفوا أنهم إن باهلوه أنزل اللَّه عليهم لعنته، فأقروا بالجزية وهم صاغرون»(١).

وقال القرطبي: «هذه الآية من أعلام نبوة محمد ﷺ؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منها ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوه اضطرم عليهم الوادي نارًا فإن محمدًا نبي مرسل، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل في أمر عيسى فتركوا المباهلة وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدوا في كل عام ألف حلة في صفر، وألف حلة في رجب، فصالحهم رسول اللَّه ﷺ على ذلك بدلًا من الإسلام»(٢).

وقال صديق حسن خان: «في الآية دليل قاطع وبرهان ساطع على صحة نبوة محمد ﷺ؛ لأنه لم يرو أحد من موافق ومخالف أنهم أجابوا إلى المباهلة؛ لأنهم عرفوا صحة نبوته وما يدل عليها في كتبهم»(٣).

وقال محمد رشيد رضا: «وكل ما يفهم من الآية أمر النبي ﷺ أن يدعو

---

(١) الجواب الصحيح (٤/ ٥٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٦٧).

(٣) فتح البيان (٢/ ٢٥٨).

المحاجين والمجادلين في عيسى من أهل الكتاب إلى الاجتماع رجالًا ونساء وأطفالًا، ويجمع هو المؤمنين رجالًا ونساء وأطفالًا، ويبتهلون إلى اللَّه تعالى بأن يُلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى، وهذا الطلب يدل على قوة يقين صاحبه وثقته بما يقول. كما يدل امتناع من دعوا إلى ذلك من أهل الكتاب سواء كانوا نصارى نجران أو غيرهم على امترائهم في حجاجهم ومماراتهم فيما يقولون، وزلزالهم فيما يعتقدون، وكونهم على غير بينة ولا يقين، وأنى لمن يؤمن باللَّه أن يرضى بأن يجتمع مثل هذا الجمع من الناس المحقين والمبطلين في صعيد واحد، متوجهين إلى اللَّه تعالى في طلب لعنه، وإبعاده من رحمته؟ وأي جراءة على اللَّه واستهزاء بقدرته وعظمته أقوى من هذا»[1].

قال ابن كثير: «هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا محيد عنه ولا صحيح سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال. ثم قال تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يباهل من عاند الحق في أمر عيسى بعد ظهور البيان: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: نحضرهم في حال المباهلة ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾؛ أي: نلتعن ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ أي: منا ومنكم»[2].

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما ذكر قصة مريم وعيسى ونبأهما الحق وأنه عبد أنعم اللَّه عليه، وأن من زعم أن فيه شيئًا من الإلهية، فقد كذب على اللَّه، وكذب جميع أنبيائه، وكذب عيسى ﷺ. فإن الشبهة التي عرضت لمن اتخذه إلهًا، شبهة باطلة. فلو كان لها وجه صحيح، لكان آدم أحق منه، فإنه خلق من دون أم ولا أب. ومع ذلك، فاتفق البشر كلهم على أنه عبد من عباد اللَّه. فدعوى إلهية عيسى، بكونه خلق من أم بلا أب، دعوى من أبطل الدعاوى. وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه، أن عيسى كما قال عن نفسه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾[3]. وكان قد قدم على النبي ﷺ وفد نصارى نجران، وقد تصلبوا على باطلهم، بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين، بأن عيسى عبد اللَّه ورسوله، حيث زعموا إلهيته.

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٢٢-٣٢٣).

(٢) التفسير (٢/ ٤٠).

(٣) المائدة: الآية (١١٧).

فوصلت به وبهم الحال، إلى أن أمره اللَّه تعالى أن يباهلهم. فإنه قد اتضح لهم الحق، ولكن العناد والتعصب منعاهم منه. فدعاهم رسول اللَّه ﷺ إلى المباهلة، بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون اللَّه تعالى، أن ينزل عقوبته ولعنته، على الكاذبين. فتشاوروا، هل يجيبونه إلى ذلك؟ فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه؛ لأنهم عرفوا أنه نبي اللَّه حقًّا. وأنهم -إن باهلوه- هلكوا، هم وأولادهم وأهلوهم. فصالحوه، وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه الموادعة والمهادنة. فأجابهم ﷺ ولم يحرجهم؛ لأنه حصل المقصود من وضوح الحق. وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباهلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين. فإن أعرضوا عن الحق بعدما تبين لهم، ولم يرجعوا عن ضلالاتهم، فهم المفسدون، واللَّه عليم بهم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المباهلة وهروب النصارى منها

* عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: «جَاءَ الْعَاقِبُ وَالسَّيِّدُ صَاحِبَا نَجْرَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُرِيدَانِ أَنْ يُلَاعِنَاهُ. قَالَ: فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: لَا تَفْعَلْ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ نَبِيًّا فلاعننا لَا نُفْلِحُ نَحْنُ وَلَا عَقِبُنَا مِنْ بَعْدِنَا. قَالَا: إِنَّا نُعْطِيكَ مَا سَأَلْتَنَا، وَابْعَثْ مَعَنَا رَجُلًا أَمِينًا، وَلَا تَبْعَثْ مَعَنَا إِلَّا أَمِينًا. فَقَالَ: **لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَقَّ أَمِينٍ**. فَاسْتَشْرَفَ لَهُ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: **قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ ابْنَ الْجَرَّاحِ**. فَلَمَّا قَامَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **هَذَا أَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ**»[٢].

* عن جابر: «أن وفد نجران أتوا النبي ﷺ فقالوا: ما تقول في عيسى ابن مريم؟ فقال: هو روح اللَّه، وكلمته، وعبد اللَّه، ورسوله، قالوا له: هل لك أن نلاعنك أنه ليس كذلك؟ قال: **وذاك أحب إليكم**؟ قالوا: نعم. قال: **فإذا شئتم**. فجاء النبي ﷺ وجمع ولده الحسن والحسين، فقال رئيسهم: لا تلاعنوا هذا الرجل فواللَّه لئن

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٨٧-٣٨٨).

(٢) أحمد (٥/ ٣٨٥) مختصرا، والبخاري (٨/ ١١٧/ ٤٣٨٠) ومسلم (٤/ ١٨٨٢/ ٢٤٢٠) والترمذي (٥/ ٦٢٥-٦٢٦/ ٣٧٩٦) والنسائي في الكبرى (٥/ ٥٧/ ٨١٩٨) وابن ماجه (١/ ٤٨/ ١٣٥) من طرق عن أبي إسحاق عن صلة بن زفر عن حذيفة رضي الله عنه بألفاظ متقاربة.

لاعنتموه ليخسفن أحد الفريقين فجاؤوا فقالوا: يا أبا القاسم إنما أراد أن يلاعنك سفهاؤنا، وأنا نحب أن تعفينا. قال: **قد أعفيتكم** ثم قال: **إن العذاب قد أظل نجران**»[١].

* عن سعد بن أبي وقاص قال: «**لما نزلت هذه الآية** ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾ دعا رسول الله ﷺ عليًا، وفاطمة وحسنًا وحسينًا فقال: اللهم هؤلاء أهلي»[٢].

★ غريب الأحاديث:

نجران: بفتح النون وسكون الجيم، بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن يشتمل على ثلاثة وسبعين قرية مسيرة يوم للراكب السريع.

يريدان أن يلاعناه: أي: يباهلاه.

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن كثير: «كان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران، أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوة والإلهية، فأنزل الله صدر هذه السورة ردًا عليهم؛ كما ذكره الإمام محمد بن إسحاق بن يسار وغيره»[٣].

قال ابن حجر: «وفي قصة أهل نجران من الفوائد أن إقرار الكافر بالنبوة لا يدخله في الإسلام حتى يلتزم أحكام الإسلام»[٤].

قال ابن القيم: «جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة، فليول ذلك إلى أهله، وليخل بين المطي وحاديها، والقوس وباريها»[٥].

---

(١) الحاكم (٢/ ٥٩٣-٥٩٤) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: الحاكم (٣/ ١٥٠) وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه مطولًا: أحمد (١/ ١٨٥) ومسلم (٤/ ١٨٧١/ ٢٤٠٤[٣٢]) والترمذي (٥/ ٥٩٦/ ٣٧٢٤) وقال: «حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٠).

(٤) الفتح (٨/ ١١٩).

(٥) زاد المعاد (٣/ ٦٣٩).

وقال: «السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم حجة اللَّه، ولم يرجعوا، بل أصروا على العناد أن يدعوهم إلى المباهلة، وقد أمر اللَّه سبحانه بذلك رسوله، ولم يقل: إن ذلك ليس لأمتك من بعدك»(١).

قال القاسمي: «قال الكازروني في تفسيره: وقع البحث عن شيخنا العلامة الدواني قدس اللَّه سره في جواز المباهلة بعد النبي ﷺ، فكتب رسالة في شروطها المستنبطة من الكتاب والسنة والآثار، وكلام الأئمة، وحاصل كلامه فيها أنها لا تجوز إلا في أمر مهم شرعا، وقع فيه اشتباه وعناد لا يتيسر دفعه إلا بالمباهلة، فيشترط كونها بعد إقامة الحجة والسعي في إزالة الشبهة، وتقديم النصح والإنذار، وعدم نفع ذلك، ومساس الضرورة إليها»(٢).

قلت: ومما تقدم من ذكر الآيات والنصوص الحديثية وكلام أهل العلم الأبرار من المفسرين الأخيار في قصة وفد نجران؛ يتبين أن تاريخ البشرية مملوء بالعناد والاستكبار والجهل والإدبار، وأن الموفق من وفقه اللَّه، فهؤلاء يقرؤون في كتبهم نبوة محمد ﷺ وبشارة عيسى عليه السلام به، وأنزل اللَّه القرآن فما ترك من شبهة عندهم إلا فندها، وبين لهم أن عيسى عليه السلام كغيره من المخلوقات لا فرق بينه وبين غيره، فكونه وجد بكلمة اللَّه، واختص بالنفخ في جيب أمه؛ عجب، وأعجب منه خلق آدم من تراب، فالتراب ليس فيه حياة، وإنما هو تراب جامد، والذي هو أعجب منه خلق حواء من آدم، وآياته وعجائبه -تبارك وتعالى- لا نهاية لها، فخلق الملائكة من نور وجعلهم أعظم خلقه، وخلق الجان من مارج من نار وهو -تبارك وتعالى- لا يستكثر عليه شيء، فهو الذي يقول للشيء: كن فيكون، فما الذي جعل النصارى ينحرفون هذا الانحراف، ويزعمون لعيسى ما لا يناسب أصله وخلقته، فهو عبد اللَّه ورسوله كما قال تعالى عنه: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ..﴾(٣) إلى آخر الآيات، إلى قوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(٤). وعناد

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦٤٣).
(٢) محاسن التأويل (٤/ ١١٦).
(٣) المائدة: الآية (٧٢).
(٤) المائدة: الآية (٧٥).

الأمم في دعوة الرسل ذكر اللَّه تاريخها مفصلًا في كتابه في قوم نوح وهود وصالح ولوط وإبراهيم، وفي المشركين الذين بعث اللَّه فيهم محمدًا ﷺ، وتاريخ المبتدعة من الرافضة والصوفية والخوارج والجهمية وغيرهم مليء بالعناد، فالحق واضح ظاهر، وآيات القرآن وأحاديث رسول اللَّه ﷺ صحيحة لا مرية فيها، فكل معاند للحق متنكب عنهما؛ سلفه هؤلاء المعاندون من النصارى والمشركين. اللهم اكفنا شر المعاندين وشر المبتدعة من رافضة وصوفية وجهمية وقدرية وخوارج ومرجئة، وذيول الغرب وجواسيسهم ممن نصبوا أنفسهم -بزعمهم- أنهم يدافعون عن الإسلام، وهم يحاربونه ويحاولون نقضه عروة عروة، فاللهم سلط عليهم كلبًا من كلابك وصاعقة من صواعقك.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما بدأ ﷻ القصة أول السورة بالإخبار بوحدانيته، مستدلا على ذلك بأنه الحي القيوم صريحا، ختمها بمثل ذلك إشارة وتلويحًا، فقال -عاطفًا على ما أنتجه ما تقدم من أن عيسى ﷺ عبد اللّه ورسوله، مُعمِّما للحكم معرّقا بزيادة الجارّ في النفي-: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ﴾ أي: معبود بحق؛ لأن له صفات الكمال، فهي بحيث يضر وينفع ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: المحيط بصفات الكمال؛ لأنه الحي القيوم -كما مضى التصريح به-، فاندرج في ذلك عيسى -عليه الصلاة والسلام- وغيره، وقد علم من هذا السياق أنهم لما علموا تفرده تركوا المباهلة رهبة منه ﷻ، علما منهم بأنهم له عاصون، ولحقه مضيعون، وأن ما يدعون إلهيته لا شيء في يده من الدفع عنهم، ولا من النفع لهم، فلا برهان أقطع من هذا»[1].

وقال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: إن هذا الذي أنبأتك به، يا محمد، من أمر عيسى فقصصته عليك من أنبائه، وأنه عبدي ورسولي وكلمتي ألقيتها إلى مريم وروح منّي، لهو القصَص والنبأ الحق، فاعلم ذلك. واعلم أنه ليس للخلق معبودٌ يستوجبُ عليهم العبادةَ بملكه إياهم إلا معبودك الذي تعبُدُه، وهو اللّه العزيز الحكيم.

ويعني بقوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: العزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، وادعى معه إلهًا غيرَه، أو عبد ربًّا سواه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره، لا يدخل ما دبره وَهَنٌ، ولا يلحقه خللٌ.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾؛ يعني: فإن أدبر هؤلاء الذين حاجُّوك في عيسى، عما جاءك من

---

(١) نظم الدرر (٤/ ٤٤٤-٤٤٥).

الحق من عند ربك في عيسى وغيره، من سائر ما آتاك اللَّه من الهدى والبيان، فأعرضوا عنه ولم يقبلوه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾، يقول: فإن اللَّه ذو علم بالذين يعصون ربهم، ويعملون في أرضه وبلاده بما نهاهم عنه، وذلك هو إفسادهم. يقول -تعالى ذكره-: فهو عالم بهم وبأعمالهم، يحصيها عليهم ويحفظها، حتى يجازيهم عليها جزاءَهم»[١].

قال الرازي: «والمعنى: فإن تولوا عما وصفت من أن اللَّه هو الواحد، وأنه يجب أن يكون عزيزًا غالبًا قادرًا على جميع المقدورات، حكيمًا عالمًا بالعواقب والنهايات مع أن عيسى عليه السلام ما كان عزيزًا غالبًا، وما كان حكيمًا عالمًا بالعواقب والنهايات. فاعلم أن توليهم وإعراضهم ليس إلا على سبيل العناد فاقطع كلامك عنهم وفوض أمرهم إلى اللَّه، فإن اللَّه عليم بفساد المفسدين، مطلع على ما في قلوبهم من الأغراض الفاسدة، قادر على مجازاتهم»[٢].

* * *

(١) جامع البيان (٦/ ٤٧٦-٤٧٧) شاكر.

(٢) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب (٨/ ٩٤-٩٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سواء: عدل ووسط.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: قل يا محمد لأهل الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل: تعالوا: هلموا إلى كلمة سواء؛ يعني: إلى كلمة عدل بيننا وبينكم، والكلمة العدل: هي أن نوحد اللَّه فلا نعبد غيره، ونبرأ من كل معبود سواه فلا نشرك به شيئًا، وقوله ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا﴾ يقول: ولا يدين بعضنا لبعض بالطاعة فيما أمر به من معاصي اللَّه، ويعظمه بالسجود له، كما يسجد لربه، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ يقول: فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من الكلمة السواء التي أمرتك بدعائهم إليها، فلم يجيبوك إليها، فقولوا أيها المؤمنون للمتولين عن ذلك: اشهدوا بأنا مسلمون»[(١)].

وقال: «وإنما قلنا عنى بقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أهلَ الكتابين؛ لأنهما جميعًا من أهل الكتاب، ولم يخصص -جل ثناؤه- بقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ بعضًا دون بعض. فليس بأن يكون موجَّهًا ذلك إلى أنه مقصود به أهلُ التوراة، بأولى منه بأن يكون موجهًا إلى أنه مقصود به أهل الإنجيل، ولا أهل الإنجيل بأولى أن يكونوا مقصودين به دُون غيرهم من أهل التوراة. وإذ لم يكن أحدُ الفريقين بذلك بأولى من الآخر لأنه لا دلالة على أنه المخصوص بذلك من الآخر، ولا أثر صحيح؛ فالواجب أن يكون كل كتابيّ معنيًّا به؛ لأن إفرادَ العبادة لله وحدَه، وإخلاصَ

---

(١) جامع البيان (٦/ ٤٨٣ شاكر).

التوحيد له، واجبٌ على كل مأمور منهيٍّ من خلق اللَّه. واسم «أهل الكتاب»، يلزم أهل التوراة وأهل الإنجيل، فكان معلومًا بذلك أنه عني به الفريقان جميعًا»[١].

قال إلكيا الهراسي: «معناه: ألا نتبعه في تحليل شيء أو تحريمه إلا فيما حلله اللَّه تعالى، وهو نظير قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٢] معناه: أنهم أنزلوهم منزلة ربهم، في قبول تحريمهم وتحليلهم لما لم يحرمه اللَّه تعالى ولم يحله، وهذا يدل على بطلان القول بالاستحسان المجرد، الذي لا يستند إلى دليل شرعي، مثل استحسانات أبي حنيفة في التقديرات التي قدرها دون مستندات بينة.

وفيه: رد على الروافض الذين يقولون: يجب قبول قول الإمام دون إبانة مستند شرعي، وأنه يحل ما حرمه اللَّه، من غير أن يبين مستندًا من الشريعة»[٣].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الآية الكريمة، كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب. وكان يقرأ أحيانًا في الركعة الأولى من سنة الفجر ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ الآية. ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفقت عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية، المبني على عبادة اللَّه وحده، لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئًا من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية»[٤].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ وأعرضوا عن هذه الدعوة، وأبوا إلا أن يعبدوا غير اللَّه باتخاذ الشركاء الذين يسمونهم وسطاء وشفعاء، واتخاذ الأرباب الذين يُحلون لهم ويحرمون، ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ نعبد اللَّه وحده مخلصين له الدين لا ندعو سواه، ولا نتوجه إلى غيره في طلب نفع ولا دفع ضر، ولا نُحلّ إلا ما أحله، ولا نحرم إلا ما حرمه. قال الأستاذ الإمام: الآية حجة على أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ بقول أحد ما لم يسنده إلى المعصوم. أقول: يعني في مسائل الدين البحتة: العبادات والحلال والحرام. أما المسائل الدنيوية كالقضاء والسياسة فهي مفوضة بأمر اللَّه إلى ولي الأمر، وهم رجال الشورى من أهل الحلّ

---

(١) جامع البيان (٦/ ٤٨٥ شاكر).
(٢) التوبة: الآية (٣١).
(٣) أحكام القرآن (٢/ ٢٨٨).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٨٩).

والعقد، فما يقررونه يجب على حكام المسلمين أن ينفذوه وعلى الرعية أن يقبلوه. فما جرى عليه المقلدون من المسلمين من الأخذ بآراء بعض الفقهاء في العبادات والحلال والحرام هو عين ما أنكره كتاب اللّٰه تعالى على أهل الكتاب، وجعله منافيا للإسلام، بل جعل مخالفتهم فيه هي عين الإسلام، فليعتبر المعتبرون.

فإن هذه الآية أساس الدين المتين، وأصله الأصيل، ولذلك كان النبي ﷺ يدعو بها أهل الكتاب إلى الإسلام، كما ثبت في كتبه إلى هرقل والمقوقس وغيرهما، وهذا نص كتابه ﷺ إلى هرقل عاهل الروم كما في رواية البخاري:

«**بسم اللّٰه الرحمن الرحيم. من محمد عبد اللّٰه ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك اللّٰه أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ الآية إلى آخرها**»[١]. فلولا أن هذه الآية الكريمة أساس الدين وعموده لما جعلها آية الدعوة إلى الإسلام، فهل يعذر من يؤمن بها إذا هو أَدخَل فيها باجتهاده ما ليس منها، فاتخذ له أندادًا يدعوهم لكشف الضر وجلب النفع زاعمًا أنهم وسائط يقربونه إلى اللّٰه زلفى، ويشفعون له عنده في مصالح الدنيا، وهذا عين الإشراك في الألوهية بالاجتهاد الباطل، والقياس الفاسد، الذي يشبَّه به الخبير العليم، الرحمن الرحيم، بالملوك الجاهلين، والأمراء المستبدين، ولا اجتهاد في العقائد، ولا قياس في أصل الإيمان، أم هل يعذر من يؤمن بها إذا هو اتخذ لنفسه أربابًا سماهم العلماء الراسخين، أو الأئمة المجتهدين، فجعل كلامهم حجة في الدين، وشرعًا متبعًا في التحليل والتحريم، وذلك عين الإشراك في الربوبية، والخروج عن هداية الآية القرآنية، المؤيَّدة بمثل قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾[٢] وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلۡسِنَتُكُمُ ٱلۡكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾[٣] فاللّٰه تعالى قد حدّ الحدود، وبيّن الحلال والحرام، وسكت عن أشياء رحمة بنا غير نسيان منه ﷻ، ونهانا نبيه أن نبحث عما سكت عنه، وأن نزيد في

---

(١) سيأتي تخريجه في أحاديث الباب.

(٢) الشورى: الآية (٢١).

(٣) النحل: الآية (١١٦).

الدين برأينا واجتهادنا، وإنما أباح لنا الاجتهاد لاستنباط ما تقوم به مصالحنا في الدنيا، فهذا هو هدي الآية، وما يعقلها إلا العالمون»[١].

وقال ابن عاشور: «وهذه المباهلة لعلّها من طرق التناصف عند النصارى فدعاهم إليها النبي ﷺ لإقامة الحجة عليهم.

وإنما جمع في الملاعنة الأبناء والنساء؛ لأنه لمّا ظهرت مكابرتهم في الحق وحبّ الدنيا؛ عُلم أنّ مَن هذه صفته يكون أهله ونساؤه أحبّ إليه من الحق، كما قال شعيب: ﴿أَرَهْطِيَ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[٢] وأنه يخشى سوء العيش، وفقدان الأهل، ولا يخشى عذاب الآخرة.

والظاهر: أنّ المراد بضمير المتكلم المشارَك أنه عائد إلى النبي ﷺ ومن معه من المسلمين، والذين يحضرهم لذلك، وأبناء أهل الوفد ونساؤهم اللّائي كُنَّ معهم»[٣].

وقال الزمخشري: «فإن قلت: ما كان دعاؤه إلى المباهلة إلا ليتبين الكاذب منه ومن خصمه، وذلك أمر يختص به وبمن يكاذبه، فما معنى ضم الأبناء والنساء؟ قلت: ذلك آكد في الدلالة على ثقته بحاله، واستيقانه بصدقه، حيث استجرأ على تعريض أعزته وأفلاذ كبده، وأحب الناس إليه لذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة. وخص الأبناء والنساء لأنهم أعز الأهل وألصقهم بالقلوب، وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل. ومن ثمة كانوا يسوقون مع أنفسهم الظعائن في الحروب لتمنعهم من الهرب، ويسمون الذّادة عنها بأرواحهم حماة الحقائق. وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبّه على لطف مكانهم وقرب منزلتهم، وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مفدون بها. وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام. وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي ﷺ لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك»[٤].

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٢٧-٣٢٨).

(٢) هود: الآية (٩٢).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ٢٦٥).

(٤) الكشاف (١/ ٤٣٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من دعوة أهل الكتاب إلى التوحيد

* عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ﴾.. الآية. وفي الثانية: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن هبيرة: «إنما اختار النبي ﷺ هاتين الآيتين لما فيهما من الإيمان»[٢].

* عن ابن عباس قال: «حدثنا أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول اللّه ﷺ فقرأه، فإذا فيه: **بسم اللّه الرحمن الرحيم. من محمد رسول اللّه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم. أسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين** ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله: ﴿ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾»[٣].

★ **غريب الحديث:**

الأريسيين: جمع أريسي، قال ابن سيده: الأريس الأكار؛ أي: الفلاح.

★ **فوائد الحديث:**

قوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾:

قال الحافظ: «قيل إن النبي ﷺ كتب ذلك قبل نزول الآية فوافق لفظه لفظها لما نزلت، والسبب في هذا أن هذه الآية نزلت في قصة وفد نجران، وكانت قصتهم سنة الوفود سنة تسع، وقصة أبي سفيان كانت قبل ذلك سنة ست وقيل: بل سابقة في أوائل الهجرة، وإليه يومئ كلام ابن إسحق. وقيل: نزلت في اليهود. وجوز بعضهم

---

(١) أحمد (١/ ٢٣١) ومسلم (١/ ٥٠٢/ ٧٢٧) وأبو داود (٢/ ٤٦/ ١٢٥٩) والنسائي (٢/ ٤٩٣/ ٩٤٣).

(٢) الإفصاح (٣/ ٢٤٤).

(٣) أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣) والبخاري (١/ ٤٢/ ٧) ومسلم (٣/ ١٣٩٣/ ١٧٧٣) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩/ ١١٠٦٤). وأخرجه: أبو داود (٥/ ٣٤٨/ ٥١٣٦) والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧) دون ذكر موضع الشاهد.

نزولها مرتين، وهو بعيد»[١].

قال القسطلاني: « ﴿تَعَالَوْا﴾ بفتح اللام ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ أي: مستوية ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لا يختلف فيها القرآن والتوراة والإنجيل، وتفسير الكلمة ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: نوحده بالعبادة ونخلص له فيها ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ ولا نجعل غيره شريكا له في استحقاق العبادة ولا نراه أهلا لأن يعبد، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾. فلا نقول عزير ابن اللّه ولا المسيح ابن اللّه ولا نطيع الأحبار فيما أحدثوه من التحريم والتحليل؛ لأن كلًّا منهم بعضنا بشر مثلنا. روي أنه لما نزلت ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[٢] قال عدي بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول اللّه. قال: «**أليس كانوا يحلون لكم ويحرمون فتأخذون بقولهم؟**» قال: نعم[٣]. قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن التوحيد ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ أي: لزمتكم الحجة فاعترفوا بأنا مسلمون دونكم، أو اعترفوا بأنكم كافرون بما نطقت به الكتب وتطابقت عليه الرسل»[٤].

«فيه دعاء الكفار إلى الإسلام قبل قتالهم، وهذا الدعاء واجب، والقتال قبله حرام، إن لم تكن بلغتهم دعوة الإسلام، وإن كانت بلغتهم فالدعاء مستحب»[٥].

* عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ: «**لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ**»، فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ، أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى، فَقَالَ: «**أَيْنَ عَلِيٌّ؟**» فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَمَرَ فَدُعِيَ لَهُ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، فَبَرَأَ مَكَانَهُ حَتَّى كَأَنَّه لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ، فَقَالَ: نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا. فَقَالَ: «**عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ**»[٦].

---

(١) الفتح (١/ ٥٣). (٢) التوبة: الآية (٣١).

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٥٩-٢٦٠/ ٣٠٩٥) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث»، والحديث حسنه الشيخ الألباني رحمه الله في غاية المرام (ص: ٦). وانظر الصحيحة (٣٢٩٣).

(٤) إرشاد الساري (١/ ١٣٧). (٥) شرح مسلم للنووي (١٢/ ٩٢).

(٦) أحمد (٥/ ٣٣٣) والبخاري (٦/ ١٣٦-١٣٧/ ٢٩٤٢) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٨٧٢/ ٢٤٠٦) وأبو داود (٤/ ٦٩/ ٣٦٦١) مختصرًا، والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٦/ ٨١٤٩).

★ **غريب الحديث:**

حمر النعم: بسكون الميم في (حمر) وبفتح النون والعين المهملة في (النعم) وهي الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب ومما تتفاخر به.

★ **فوائد الحديث:**

قوله ﷺ: «**على رسلك حتى تنزل بساحتهم**»:

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «وفيه أمر الإمام عماله بالرفق من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة؛ كما يشير إليه قوله: «**ثم ادعهم إلى الإسلام**» أي: الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول الله؛ وإن شئت قلت الإسلام: شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا عبده ورسوله، وما اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده؛ وإخلاص الطاعة لرسوله ﷺ. ومن هنا طابق الحديث الترجمة كما قال تعالى لنبيه ورسوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾»[1].

قال في قرة العيون: «وهكذا ينبغي لأهل الإسلام أن يكون قصدهم بجهادهم هداية الخلق إلى الإسلام والدخول فيه، وينبغي لولاة الأمر أن يكون هذا هو معتمدهم ومرادهم ونيتهم»[2]. اهـ.

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذا بيان فضيلة العلم والدعاء إلى الهدى وسن السنن الحسنة»[3].

وقال الحافظ: «يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله»[4].

* * *

(١) فتح المجيد (ص: ١١٣).
(٢) هامش فتح المجيد (ص: ١١٣).
(٣) شرح مسلم (١٥/ ١٤٥).
(٤) الفتح (٧/ ٦٠٧).

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمۡ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

حنيفًا: من الحنَف وهو الميل عن الضلال إلى الاستقامة، والحنيف هو المائل إلى ذلك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ﴾ يا أهل التوراة والإنجيل، ﴿لِمَ تُحَآجُّونَ﴾ لم تجادلون ﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وتخاصمون فيه؛ يعني: في إبراهيم خليل الرحمن -صلوات الله عليه-، وكان حجاجهم فيه: ادعاء كل فريق من أهل هذين الكتابين أنه كان منهم، وأنه كان يدين دين أهل نحلته، فعابهم الله ﷻ بادعائهم ذلك، ودل على مناقضتهم ودعواهم، فقال: وكيف تدّعون أنه كان على ملتكم ودينكم، ودينكم إما يهودية أو نصرانية، واليهودي منكم يزعم أن دينه إقامة التوراة والعمل بما فيها، والنصراني منكم يزعم أن دينه إقامة الإنجيل وما فيه، وهذان كتابان لم ينزلا إلا بعد حين من مهلك إبراهيم ووفاته، فكيف يكون منكم، فما وجه اختصامكم فيه وادعائكم أنه منكم، والأمر فيه على ما قد علمتم»[1].

وقال: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿هَـٰٓأَنتُمۡ﴾ القوم الذين قالوا في إبراهيم ما قالوا، ﴿حَـٰجَجۡتُمۡ﴾ خاصمتم وجادلتم ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾، من أمر دينكم الذي

(١) جامع البيان (٦/ ٤٨٩-٤٩٠ شاكر).

وجدتموه في كتبكم، وأتتكم به رسل اللَّه من عنده، وفي غير ذلك مما أوتيتموه، وثبتت عندكم صحته ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ﴾، يقول: فلم تجادلون وتخاصمون ﴿فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾؛ يعني: في الذي لا علم لكم به من أمر إبراهيم ودينه، ولم تجدوه في كتب اللَّه، ولا أتتكم به أنبياؤكم، ولا شاهدتموه فتعلموه..

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، يقول: واللَّه يعلم ما غَاب عنكم فلم تشاهدوه ولم ترَوْه، ولم تأتكم به رسلُه من أمر إبراهيم وغيره من الأمور، ومما تجادلون فيه؛ لأنه لا يغيب عنه شيء، ولا يعزُبُ عنه علم شيء في السموات ولا في الأرض ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، من ذلك إلا ما عاينتم فشاهدتم، أو أدركتم علمه بالإخبار والسَّماع»[١].

قال ابن كثير: «هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد ﷺ لكان أولى بهم، وإنما تكلموا فيما لم يعلموا به، فأنكر اللَّه عليهم ذلك، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾»[٢].

قال القرطبي: «في الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له، والحظر على من لا تحقيق عنده، فقال ﷻ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾. وقد ورد الأمر بالجدال لمن علم وأيقن فقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُۚ﴾[٣]. وروي عن النبي ﷺ أنه أتاه رجل أنكر ولده فقال: يا رسول اللَّه، إن امرأتي ولدت غلامًا أسود، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**هل لك من إبل؟**» قال: نعم، قال: «**ما ألوانها؟**» قال: حمر، قال: «**هل فيها من أورق؟**» قال: نعم. قال: «**فمن أين ذلك؟**» قال: لعل عرقا نزعه. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**وهذا الغلام لعل عرقا نزعه**»[٤] وهذا حقيقة الجدال ونهاية في تبيين الاستدلال من

---

(١) جامع البيان (٦/ ٤٩٢-٤٩٣ شاكر). (٢) التفسير (٢/ ٤٧).

(٣) النحل: الآية (١٢٥).

(٤) أحمد (٢/ ٢٣٩) والبخاري (٩/ ٥٥٢/ ٥٣٠٥) ومسلم (٢/ ١١٣٧/ ١٥٠٠) وأبو داود (٢/ ٦٩٤-٦٩٥/ ٢٢٦٠) والترمذي (٤/ ٣٨٢-٣٨٣/ ٢١٢٨) والنسائي (٦/ ٤٨٩/ ٣٤٧٨) وابن ماجه (١/ ٦٤٥/ ٢٠٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

رسول اللَّه ﷺ»[١].

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

قال ابن جرير: «هذا تكذيب من اللَّه ﷻ دعوى الذين جادلوا في إبراهيم وملته من اليهود والنصارى، وادعوا أنه كان على ملتهم، وتبرئة لهم منه، وأنهم لدينه مخالفون، وقضاء منه ﷻ لأهل الإسلام ولأمة محمد ﷺ أنهم هم أهل دينه، وعلى منهاجه وشرائعه دون سائر أهل الملل والأديان غيرهم»[٢].

وقال ابن عطية: «أخبر اللَّه تعالى في هذه الآية، عن حقيقة أمر إبراهيم، فنفى عنه اليهودية والنصرانية والإشراك الذي هو عبادة الأوثان، ودخل في ذلك الإشراك الذي تتضمنه اليهودية والنصرانية، وجاء ترتيب النفي على غاية الفصاحة، نفى نفس المِلَل وقرر الحالة الحسنة، ثم نفى نفيًا بيّن به أن تلك المِلَل فيها هذا الفساد الذي هو الشرك، وهذا كما تقول: ما أخذت لك مالًا بل حفظته، وما كنت سارقًا، فنفيت أقبح ما يكون في الأخذ»[٣].

وقال محمد رشيد رضا عند قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾: «وأقول: جاءت هذه الآية والآيتان بعدها في سياق دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام، وبيان أنه دين جميع أنبيائهم الذين يدينون بإجلالهم، وكان إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وعلى آله موضع إجلال الفريقين منهم لما في كتبهم من الثناء عليه في العهد العتيق والعهد الجديد، كما كانت قريش تجله وتدعي أنها على دينه، فأراد تعالى أن يبين لهم جميعًا أن هذا النبي الكريم الذي كانوا يجلونه لم يكن على شيء من تقاليدهم، وإنما كان على الإسلام الذي يدعوهم هو إليه على لسان نبيه محمد ﷺ، فبدأ بالاحتجاج على أهل الكتاب بقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ﴾؛ أي: فإذا كان الدين الحق لا يعدو التوراة كما تقولون أيها اليهود أو لا يتجاوز الإنجيل كما تقولون أيها النصارى فكيف كان إبراهيم على الحق واستوجب ثناءكم وثناء من قبلكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن المتقدم على الشيء لا يمكن أن

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٧٠).
(٢) جامع البيان (٦/ ٤٩٣ شاكر).
(٣) المحرر الوجيز (١/ ٤٥١).

يكون تابعًا له. فإن خطر في بالك أيها القارئ أن هذا يرد على القرآن فاصبر نفسك معي إلى تفسير الآية الثالثة.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ما، وهو خبر عيسى فقامت عليكم الحجة بأن منكم من غلا في الإفراط إذ قال إنه إله، ومنكم من غلا في التفريط إذ قال إنه دعيّ كذاب، ولم يكن علمكم القليل به عاصما لكم من الخطأ في الحكم عليه ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وهو كون إبراهيم يهوديًا أو نصرانيًا! أليس الواجب عليكم أن تتبعوا فيه ما يوحيه اللَّه إلى عبده محمد ﷺ. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ثم بين تعالى ما يعلم من أمره فقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلًا عن كل ما كان عليه أهل عصره من الشرك والضلال ﴿مُّسْلِمًا﴾ وجهه إلى اللَّه تعالى وحده مخلصًا له الدين والطاعة ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يسمون أنفسهم الحنفاء ويدعون أنهم على ملة إبراهيم وهم قريش ومن وافقهم من العرب، وهذا من الاحتراس؛ فقد كان أهل الكتاب يدعون العرب بالحنفاء حتى صار الحنيف عندهم بمعنى الوثني المشرك، فلما وافقهم القرآن على إطلاق لفظ الحنيف على إبراهيم مستعملًا له بالمعنى اللغوي؛ احترس عما يوهمه الإطلاق من إرادة المعنى الاصطلاحي عندهم، فصار معنى الآية أن إبراهيم المتفق على إجلاله، وادعاء دينه عند أهل الملل الثلاث لم يكن على ملة أحد منهم، بل كان مائلا عن مثل ما هم عليه من الوثنية والتقاليد مسلمًا خالصًا لله تعالى. وليس المراد بكونه مسلمًا أنه كان على مثل ما جاء به محمد صلى اللَّه عليهما وعلى آلهما وسلم من الشريعة بالتفصيل، فإنه يرد على هذا أن هذه الشريعة جاءت من بعده كما كانت التوراة والإنجيل من بعده، وإنما المراد أنه كان متحققًا بمعنى الإسلام الذي يدل عليه لفظه وهو التوحيد والإخلاص لله في عمل الخير، كما بينا ذلك بالتفصيل في تفسير ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[(١)] وهذا المعنى لا يستطيع أهل الكتاب إنكاره، فإن ما في كتبهم عن إبراهيم لا يعدوه، وما كان النبي يدعوهم إلا إليه. وقد نسي أكثر المسلمين اليوم معنى الإسلام الذي يقرره القرآن، وجمدوا على المعنى الاصطلاحي له فجعلوه جنسية غافلين عن كونه هداية روحية، وما كان سلفهم الصالح كذلك»[(٢)].

---

(١) آل عمران: الآية (١٩).

(٢) تفسير المنار (٣/ ٣٢٩-٣٣٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أولى: أحق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ﴾، إنّ أحقّ الناس بإبراهيم ونصرته وولايته ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾؛ يعني: الذين سلكوا طريقَه ومنهاجه، فوحَّدوا اللَّه مخلصين له الدين، وسنُّوا سُنته، وشرَعوا شرائعه، وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾؛ يعني: محمدًا ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ يعني: والذين صدّقوا محمدًا، وبما جاءهم به من عند اللَّه ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: واللَّه ناصرُ المؤمنين بمحمد، المصدِّقين له في نبوّته وفيما جاءهم به من عنده، على من خالفهم من أهل الملل والأديان»[1].

قال ابن عطية: «ثم أخبر تعالى إخبارًا مؤكدًا أن أولى الناس بإبراهيم الخليل عليه السلام، هم القوم الذين اتبعوه على ملته الحنيفية.

قال الفقيه الإمام أبو محمد: وهنا يدخل كل من اتبع الحنيفية في الفترات ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ محمد ﷺ لأنه بعث بالحنيفية السمحة، والنبي في الإعراب نعت أو عطف بيان، أو بدل، وفي كونه بدلًا نظر. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني بمحمد ﷺ وسائر الأنبياء على ما يجب دون المحرفين المبدلين، ثم أخبر أن اللَّه تعالى ﴿وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وعدًا منه لهم بالنصر في الدنيا والنعيم في الآخرة»[2].

وقال الشوكاني: «﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: أحقهم به وأخصهم الذين اتبعوا

(١) جامع البيان (٦/ ٤٩٧) شاكر.

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٤٥١).

ملته، واقتدوا بدينه، ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ يعني محمدًا ﷺ، أفرده بالذكر تعظيمًا وتشريفًا، وأَوْلَويته ﷺ بإبراهيم من جهة كونه من ذريته، ومن جهة موافقته لدينه في كثير من الشريعة المحمدية، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ من أمة محمد ﷺ»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فأما موسى والمسيح ومن اتبعهما فهم على ملة إبراهيم متبعون له، وهو إمامهم. وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾. فهو يتناول الذين اتبعوه قبل مبعث محمد وبعد مبعثه. وقيل: إنه عام، قال الحسن البصري: كل مؤمن ولي إبراهيم ممن مضى وممن بقي. وقال الربيع بن أنس: هم المؤمنون الذين صدقوا نبي الله واتبعوه، وكان محمد والذين معه من المؤمنين أولى الناس بإبراهيم. وهذا وغيره مما يبين أن اليهود والنصارى لا يعبدون الله، وليسوا على ملة إبراهيم»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في بيان من هم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام

* عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لكل نبي ولاة من النبيين، وإن وليِّي أبي وخليلُ ربي**»، ثم قرأ ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

★ غريب الحديث:

ولاة: جمع ولي؛ أي: أحباء وقرناء.

★ فوائد الحديث:

قال الإمام ابن العربي المالكي: «المعنى ههنا: أن أقرب الناس إلى إبراهيم بالمحبة والنصرة والموافقة في التوحيد والمعاضدة على الدين الذين تبعوه، وهم

---

(١) فتح القدير (١/ ٥٢١). (٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٧٢).

(٣) الترمذي (٥/ ٢٠٨/ ٢٩٩٥) والحاكم (٢/ ٢٩٢). من طريق سفيان بن سعيد عن أبيه عن أبي الضحى عن مسروق عن عبد الله بن مسعود. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وأخرجه أحمد (١/ ٤٠٠-٤٠١) والترمذي عقب الحديث (٢٩٩٥)، دون ذكر مسروق وقال الترمذي: هذا أصح من حديث أبي الضحى عن مسروق، وأبو الضحى اسمه مسلم بن صبيح.

المؤمنون أمة محمد، وهذا النبي محمد، وكذلك قال مالك روى ابن القاسم وابن وهب عنه سمعنا مالكًا يقول في قوله: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ فقال: هذه الأمة هم الذين اتبعوه.

قال ابن العربي: والذي عندي أن المراد بقوله: ﴿لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ يعني من الأنبياء، ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ مخصوص مصطفى منهم، يريد محمدًا، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يريد الأمة»[١].

* * *

(١) عارضة الأحوذي (١١/ ١٢٠-١٢١).

قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ودت: تمنت.

تلبسون: من اللبس أي الخلط يقال: لبس عليه يلبسه أي خلطه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين وبغيهم إياهم الإضلال. وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم»(١).

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿وَدَّت﴾ تمنت، ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ يعني جماعة، ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ وهم أهل التوراة من اليهود، وأهل الإنجيل من النصارى ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾، يقولون: لو يصدّونكم أيها المؤمنون، عن الإسلام، ويردُّونكم عنه إلى ما هم عليه من الكفر، فيهلكونكم بذلك ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾، وما يهلكون بما يفعلون من محاولتهم صدّكم عن دينكم- أحدًا غير أنفسهم؛ يعني: بـ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: أتباعهم وأشياعَهم على ملّتِهم وأديانهم، وإنما أهلكوا أنفسَهم وأتباعهم بما حاولوا من ذلك لاستيجابهم من اللّه بفعلهم ذلك سخَطه، واستحقاقهم به غَضَبه ولعنته، لكفرهم باللّه، ونقضِهم الميثاقَ الذي أخذ اللّه عليهم في كتابهم، في اتباع محمد ﷺ وتصديقه، والإقرار بنبوّته.

ثم أخبر -جلّ ثناؤه- عنهم أنهم يفعلون ما يفعلون، من محاولة صدّ المؤمنين

(١) التفسير (٢/ ٤٨).

عن الهدى إلى الضلالة والردى، على جهل منهم بما اللهُ بهم مُحِلٌّ من عقوبته، ومدَّخِر لهم من أليم عذابه، فقال -تعالى ذكره-: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم لا يضلون إلا أنفسهم، بمحاولتهم إضلالكم أيها المؤمنون. ومعنى قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ؛ وما يدرون ولا يعلمون. .

وإنما هذا من اللَّه ﷻ توبيخ لأهل الكتابين على كفرهم بمحمد ﷺ، وجحودهم نبوته، وهم يجدونه في كتبهم مع شهادتهم أن ما في كتبهم حق، وأنه من عند الله»[١].

وقال ابن عطية: «ثم وقفهم تعالى موبخًا لهم على لسان نبيه ﷺ، والمعنى: قل لهم يا محمد: لأي سبب تكفرون بآيات اللَّه التي هي آية القرآن؟ ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أن أمره وصفة محمد الذي هو الآتي به في كتابكم. قال هذا المعنى: قتادة وابن جريج والسدي.

وتحتمل الآية أن يريد بالآيات ما ظهر على يدي محمد ﷺ من تعجيز العرب، والإعلام بالغيوب، وتكلم الجمادات، وغير ذلك. و﴿تَشْهَدُونَ﴾ على هذا؛ يكون بمعنى تحضرون وتعاينون. والتأويل الأول أقوى؛ لأنه روي أن أهل الكتاب كانوا قبل ظهور محمد ﷺ يخبرون بصفة النبي الخارج وحاله، فلما ظهر كفروا به حسدًا، فإخبارهم المتقدم لظهوره هو الشهادة التي وقفوا عليها»[٢].

ثم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن تيمية: «ذمهم على الوصفين وكل منهما مقتض للذم وهما متلازمان؛ ولهذا نهى عنهما جميعًا في قوله ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٣]، فإنه من لبس الحق بالباطل فغطاه به، فغلّط به؛ لزم أن يكتم الحق الذي تبين أنه باطل؛ إذ لو بينه زال الباطل الذي لبس به الحق»[٤].

قال الرازي: «اعلم أن علماء اليهود والنصارى كانت لهم حرفتان: إحداهما: أنهم كانوا يكفرون بمحمد ﷺ مع أنهم كانوا يعلمون بقلوبهم أنه رسول حق من عند

---

(١) جامع البيان (٦/ ٥٠٢-٥٠٠ شاكر).
(٢) المحرر الوجيز (١/ ٤٥٢).
(٣) البقرة: الآية (٤٢).
(٤) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩٤).

اللَّه، واللَّه تعالى نهاهم عن هذه الحرفة في الآية الأولى. وثانيتهما: أنهم كانوا يجتهدون في إلقاء الشبهات، وفي إخفاء الدلائل والبينات، واللَّه تعالى نهاهم عن هذه الحرفة في هذه الآية الثانية، فالمقام الأول مقام الغواية والضلالة، والمقام الثاني مقام الإغواء والإضلال»[١].

قال القاسمي: «في الآية دلالة على قبح كتمان الحق، فيدخل في ذلك أصول الدين وفروعه والفتيا والشهادة؛ وعلى قبح التلبيس، فيجب حل الشبهة وإبطالها»[٢].

قال محمد رشيد رضا: «﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾؛ أي: تخلطون الحق الذي جاء به الأنبياء، ونزلت به الكتب، وهو عبادة اللَّه وحده وعمل البر والخير والبشارة بنبيّ من بني إسماعيل يعلّم الناس الكتاب والحكمة لم تخلطون هذا بالباطل الذي ألحقه به أحباركم ورهبانكم من التأويلات والآراء، وتجعلون كل ذلك دينًا يجب اتباعه، ويحسب أنه من عند اللَّه، كما قال تعالى في آية أخرى تأتي: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[٣] فلبس الحق بالباطل عام يشمل كل ما ذكر، وقيل: هو خاص بالعقائد والأحكام، وقوله: ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ خاص بالبشارة به ﷺ. والصواب أن هذا عام أيضًا؛ فإنهم كانوا يكتمون بعض الأحكام اتباعًا للهوى، فيجعلون الكتاب قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا، ويأكلون بذلك السحت، وقد بيّن اللَّه لهم على لسان رسوله كثيرا مما كانوا يخفون من الكتاب»[٤].

* * *

---

(١) تفسير الرازي (٨/ ١٠٣).

(٢) محاسن التأويل (٤/ ١٦١).

(٣) آل عمران: الآية (٧٨).

(٤) تفسير المنار (٣٣٢-٣٣٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

★ غريب الآية:

وجه النهار: أي أوله.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم، وهو أنهم اشتوَروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار، ويُصلّوا مع المسلمين صلاة الصبح، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ليقول الجهلة من الناس: إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾»[1].

قال الرازي: «الفائدة في إخبار اللَّه تعالى عن تواضعهم على هذه الحيلة من وجوه: الأول: أن هذه الحيلة كانت مخفية فيما بينهم، وما أطلعوا عليها أحدًا من الأجانب، فلما أخبر الرسول عنها كان ذلك إخبارًا عن الغيب، فيكون معجزًا. الثاني: أنه تعالى لما أطلع المؤمنين على تواطئهم على هذه الحيلة لم يحصل لهذه الحيلة أثر في قلوب المؤمنين، ولولا هذا الإعلان لكان ربما أثرت هذه الحيلة في قلب بعض من كان في إيمانه ضعف. الثالث: أن القوم لما افتضحوا في هذه الحيلة صار ذلك رادعًا لهم عن الإقدام على أمثالها من الحيل والتلبيس»[2].

---

(١) التفسير (٢/ ٤٨-٤٩).

(٢) تفسير الرازي (٨/ ١٠٦).

وقال محمد رشيد رضا: «وقال الأستاذ الإمام: هذا النوع الذي تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام؛ مبني على قاعدة طبيعية في البشر، وهي أن من علامة الحق أن لا يرجع عنه من يعرفه. وقد فقه هذا هرقلُ صاحب الروم، فكان مما سأل عنه أبا سفيان من شؤون النبي ﷺ عندما دعاه إلى الإسلام: هل يرجع عنه من دخل في دينه؟ فقال أبو سفيان: لا[1]. وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية، ليقولوا: لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام؛ لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه، واطلعوا على باطنه وخوافيه، إذ لا يعقل أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته، ويرغب عنه بعد الرغبة فيه بغير سبب. فإن قيل: إن بعض الناس قد ارتدوا عن الإسلام بعد الدخول فيه رغبة لا حيلة ومكيدة كما كاد هؤلاء؛ فماذا تقول في هؤلاء؟

والجواب عن هذا يرجع إلى قاعدة أخرى، وهي أن بعض الناس قد يدخل في الشيء رغبة فيه لاعتقاده أن فيه منفعة له، لا لاعتقاده أنه حق في نفسه، فإذا بدا له في ذلك ما لم يكن يحتسب وخاب ظنه في المنفعة؛ فإنه يترك ذلك الشيء. ويظهر لي أن النبي ﷺ ما أمر بقتل المرتد إلا لتخويف أولئك الذين كانوا يدبرون المكايد لإرجاع الناس عن الإسلام بالتشكيك فيه؛ لأن مثل هذه المكايد إذا لم يكن لها أثر في نفوس الأقوياء من الصحابة الذين عرفوا الحق ووصلوا فيه إلى عين اليقين؛ فإنها قد تخدع الضعفاء الذين يدخلون في الإسلام لتفضيله على الوثنية في الجملة قبل أن تطمئن قلوبهم بالإيمان، كالذين كانوا يُعرفون بالمؤلفة قلوبهم»[2].

وقال ابن كثير: «أي: لا تطمئنوا وتظهروا سرّكم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين، فيؤمنوا به ويحتجوا به عليكم؛ قال اللّه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان، بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات والدلائل القاطعات والحجج الواضحات. وإن كتمتم -أيها اليهود- ما بأيديكم من صفة

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣) والبخاري (١/ ٤٢-٤٤/ ٧) مسلم (٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧/ ١٧٧٣) والترمذي مختصرًا (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٩-٣١١/ ١١٠٦٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) تفسير المنار (٣/ ٣٣٣-٣٣٤).

محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين. وقوله: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ يقولون: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم، ويساوونكم فيه، ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به، أو يحاجوكم به عند اللَّه؛ أي: يتخذونه حجة عليكم بما في أيديكم، فتقوم به عليكم الدلالة وترتكب الحجة في الدنيا والآخرة. قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: الأمور كلها تحت تصرفه وهو المعطي المانع، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التام، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته، ويختم على قلبه وسمعه، ويجعل على بصره غشاوة، وله الحجة التامة، والحكمة البالغة، ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ أي: اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يُحد ولا يوصف، بما شرف به نبيكم محمدًا ﷺ على سائر الأنبياء، وهداكم به لأكمل الشرائع»[1].

قال محمد رشيد رضا: «وختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ لبيان سعة فضله، وإحاطة علمه بالمستحق له، وللإشعار بأن اليهود قد ضيقوا -بزعمهم حصر النبوة فيهم- هذا الفضل الواسع، وجهلوا كنه هذا العلم المحيط.

ثم بين تعالى أن فضله الواسع ورحمته العامة تابعة لمشيئته لا لوساوس المغرورين من أهل الكتاب، الذين حجروهما بجهلهم فقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾، فهو يجعل من يشاء نبيًّا، ويبعثه رسولًا، ومن اختصه بذلك فإنما يختصه بمحض فضله العظيم لا بعمل قدمه، ولا لنسب شرفه، وإن جهل ذلك الذين يظنون أنه تعالى يحابي الأفراد أو الشعوب بذلك وبغيره تعالى عن ذلك»[2].

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٧).

(٢) تفسير المنار (٣/ ٣٣٨).

قوله تعالى : ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

★ **غريب الآية:**

قائمًا : ثابتًا على طلبه .

سبيل : الطريق الذي فيه سهولة . والمقصود هنا : الحرج والمؤاخذة .

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «هذا خبر من اللَّه ﷻ أن من أهل الكتاب ، وهم اليهود من بني إسرائيل أهل أمانة يؤدونها ولا يخونونها ، ومنهم الخائن أمانته ، الفاجر في يمينه المستحل .

فإن قال قائل : وما وجه إخبار اللَّه ﷻ بذلك نبيه ﷺ ، وقد علمت أن الناس لم يزالوا كذلك منهم المؤدي أمانته والخائنها ؟ قيل : إنما أراد -جل وعز- بإخباره المؤمنين خبرهم على ما بينه في كتابه بهذه الآيات تحذيرهم أن يأتمنوهم على أموالهم ، وتخويفهم الاغترار بهم ، لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين . فتأويل الكلام : ومن أهل الكتاب الذي إن تأمنه يا محمد على عظيم من المال كثير يؤده إليك ، ولا يخنك فيه ، ومنهم الذي إن تأمنه على دينار يخنك فيه ، فلا يؤده إليك إلا أن تلح عليه بالتقاضي والمطالبة»[1] .

قال القرطبي : «أخبر تعالى أن في أهل الكتاب الخائن والأمين ، والمؤمنون لا يميزون ذلك ، فينبغي اجتناب جميعهم . وخص أهل الكتاب بالذكر إن كان

---

(١) جامع البيان (٦/ ٥١٩ شاكر) .

المؤمنون كذلك؛ لأن الخيانة فيهم أكثر، فخرج الكلام على الغالب. والله اعلم»[١].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المشركين وأهل الكتاب فيهم المؤتمن، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ ولهذا جاز ائتمان أحدهم على المال، وجاز أن يستطِبَّ المسلمُ الكافرَ إذا كان ثقة، نص على ذلك الأئمة كأحمد وغيره، إذ ذلك من قبول خبرهم فيما يعلمونه من أمر الدنيا، وائتمانٌ لهم على ذلك، وهو جائز إذا لم يكن فيه مفسدة راجحة، مثل ولايته على المسلمين وعلوه عليهم ونحو ذلك.

فأخذ علم الطب من كتبهم مثل الاستدلال بالكافر على الطريق واستطبابه، بل هذا أحسن؛ لأن كتبهم لم يكتبوها لمعين من المسلمين حتى تدخل فيها الخيانة وليس هناك حاجة إلى أحد منهم بالخيانة، بل هي مجرد انتفاع بآثارهم، كالملابس والمساكن والمزارع والسلاح ونحو ذلك»[٢].

قال الرازي: «اعلم أن هذه الآية دالة على تعظيم أمر الوفاء بالعهد، وذلك لأن الطاعات محصورة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله. فالوفاء بالعهد مشتمل عليهما معًا؛ لأن ذلك سبب لمنفعة الخلق، فهو شفقة على خلق الله. ولمّا أمر الله به، كان الوفاء به تعظيما لأمر الله، فثبت أن العبارة مشتملة على جميع أنواع الطاعات والوفاء بالعهد، كما يمكن في حق الغير يمكن أيضًا في حق النفس لأن الوافي بعهد النفس هو الآتي بالطاعات والتارك للمحرمات؛ لأن عند ذلك تفوز النفس بالثواب وتبعد عن العقاب»[٣].

وقال ابن جرير: «هذا إخبار من الله ﷻ عمَّا لمنْ أدَّى أمانته إلى من ائتمنه عليها اتقاءَ الله ومراقبتَه عنده، فقال -جل ثناؤه-: ليس الأمر كما يقول هؤلاء الكاذبون على الله من اليهود؛ مِن أنه ليس عليهم في أموَال الأميين حرج ولا إثم، ثمّ قال: ﴿بَلَىٰ﴾، ولكن ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾؛ يعني: ولكن الذي أوفى بعهده، وذلك وصيته إياهم التي أوصاهم بها في التوراة، من الإيمان بمحمد ﷺ وما جاءهم به.

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٧٥).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ١١٤-١١٥).
(٣) تفسير الرازي (٨/ ١١٥).

و(الهاء) في قوله: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ﴾، عائدة على اسم ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾.

يقول: بلى من أوفى بعهد اللَّه الذي عاهده في كتابه، فآمن بمحمد ﷺ وصدّق به وبما جاء به من اللَّه، من أداء الأمانة إلى من ائتمنه عليها، وغير ذلك من أمر اللَّه ونهيه، ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾، يقول: واتقى ما نهاه اللَّه عنه من الكفر به، وسائر معاصيه التي حرّمها عليه، فاجتنبَ ذلك مراقبةَ وعيد اللَّه وخوفَ عقابه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ يعني: فإن اللَّه يحب الذين يتقونه، فيخافون عقابه، ويحذرون عذابه، فيجتنبون ما نهاهم عنه وحرّمه عليهم، ويطيعونه فيما أمرهم به»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة الوفاء بالديون

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول اللَّه ﷺ: **أنه ذكر رجلًا من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى باللَّه شهيدًا، قال: فائتني بالكفيل، قال: كفى باللَّه كفيلًا، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبًا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبًا، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار، وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلانًا ألف دينار فسألني كفيلًا، فقلت: كفى باللَّه كفيلًا فرضي بك، وسألني شهيدًا، فقلت: كفى باللَّه شهيدًا، فرضي بذلك، وإني جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني استودعتكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبًا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركبًا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار، فقال: واللَّه مازلت جاهدًا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبًا قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبًا قبل الذي جئت فيه؟ قال: فإن اللَّه قد أدى عنك**

(١) جامع البيان (٦/ ٥٢٥-٥٢٦ شاكر).

الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف الدينار راشدًا»(١).

★ **غريب الحديث:**

زجج موضعها: قال الخطابي: «معناه سوى موضع النقر وأصلحه، وأحسبه مأخوذا من تزجيج الحواجب، وهو حذف زوائد الشعر. ويحتمل أن يكون مأخوذًا من الزج وهو النصل كأن يكون النقر في طرف الخشبة فشد عليه زجًّا ليمسكه ويحفظ ما فيه»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «فيه دليل على دخول الآجال في القروض، وذهب غير واحد من العلماء إلى وجوب الوفاء بها، وإن كان من باب المعروف»(٣).

قال الحافظ: «وفيه طلب الشهود في الدين وطلب الكفيل به»(٤).

وقال: «ووجه الدلالة منه على الكفالة تحدث النبي ﷺ بذلك وتقريره له، وإنما ذكر ذلك ليتأسى به فيه، وإلا لم يكن لذكره فائدة»(٥).

* **تنبيه**: سيأتي الكلام عن أداء الأمانة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾(٦).

* * *

---

(١) أحمد (٢/ ٣٤٨) والبخاري (٤/ ٥٩١/ ٢٢٩١) تعليقًا. ووصله في البيوع (٤/ ٣٧٥/ ٢٠٦٣).
(٢) أعلام الحديث (٢/ ١١٣٣)، وانظر فتح الباري (٤/ ٥٩٤).
(٣) أعلام الحديث (٢/ ١١٣٣).
(٤) فتح الباري (٤/ ٥٩٥).
(٥) فتح الباري (٤/ ٥٩٥).
(٦) النساء: الآية (٥٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

خلاق: النصيب الوافر من الخير.

يزكيهم: يطهرهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: إن الذين يستبدلون بتركهم عهد اللَّه الذي عهد إليهم، ووصيته التي أوصاهم بها في الكتب، التي أنزلها اللَّه إلى أنبيائه باتباع محمد وتصديقه، والإقرار به، وما جاء به من عند اللَّه، وبأيمانهم الكاذبة التي يستحلون بها ما حرم اللَّه عليهم من أموال الناس التي اؤتمنوا عليها ثمنًا؛ يعني: عوضًا وبدلًا خسيسًا من عرض الدنيا وحطامها ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يقول فإن الذين يفعلون ذلك لا حظ لهم في خيرات الآخرة، ولا نصيب لهم من نعيم الجنة وما أعد اللَّه لأهلها فيها دون غيرهم»[١].

وقال ابن عطية: «الآية آية وعيد لمن فعل هذه الأفاعيل إلى يوم القيامة، وهي آية يدخل فيها الكفر فما دونه من جحد الحقوق، وختر المواثيق، وكل أحد يأخذ من وعيد الآية على قدر جريمته»[٢].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى: إن الذين يعتاضون عما عهدهم اللَّه عليه، من اتباع محمد ﷺ، وذكر صفته الناس وبيان أمره، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة، وهي عروض هذه الدنيا الفانية الزائلة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَا

(١) جامع البيان (٦/ ٥٢٧ شاكر).
(٢) المحرر الوجيز (١/ ٤٥٩).

خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: لا نصيب لهم فيها، ولا حظ لهم منها ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: برحمة منه لهم، بمعنى: لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾؛ أي: من الذنوب والأدناس، بل يأمر بهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «وقد أضاف العهد هنا إلى اللَّه تعالى؛ لأنه تعالى عهد إلى الناس في كتبه المنزلة أن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون ويتعاقدون عليه، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها، كما عهد إليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، ويتقوه في جميع الأمور، فعهد اللَّه يشمل كل ذلك.

ولما كان الناكث للعهد لا ينكث إلا لمنفعة يجعلها بدلًا منه عَبّر عن ذلك بالشراء الذي هو معاوضة ومبادلة، وسمى العوض ثمنًا قليلًا مع العلم بأن بعض الناس لا ينكثون العهد في الأمور الكبيرة إلا إذا أوتوا عليه أجرًا كبيرًا وثمنًا كثيرًا، لأجل أن يبين للناس أن كل ما يؤخذ بدلًا من عهد اللَّه فهو قليل، لا سيما إذا أكد باليمين؛ لأن العهود إذا خزيت اختل أمر الدين -إذ الوفاء آيته البينة، بل محوره الذي عليه مداره- وفسدت مصالح الدنيا إذ تبطل ثقة الناس بعضهم ببعض، والثقة روح المعاملات، وسلك النظام، وأساس العمران، لأجل هذا كان الوعيد على نكث العهد ولو لأجل المنفعة أشدّ ما نطق به الكتاب وأغلظه، وأي عقاب أشد من عقاب من لا خلاق له في الآخرة؛ أي: لا نصيب له من النعيم فيها، ولا يكلمه اللَّه كلام إعتاب، ولا ينظر إليه نظر عطف ورحمة، ولا يزكيه بالثناء على عمل صالح، أو لا يطهره من ذنوبه بالعفو والمغفرة، وله عذاب أليم. لم يكتف تعالى بحرمان بائعي العهد بالثمن من النعيم وبما أعد لهم من العذاب الأليم حتى بين مع ذلك أنهم يكونون في دركة من الغضب الإلهي، لا ترجى لهم فيها رحمة، ولا يسمعون منه تعالى كلمة عفو ولا مغفرة. فعدم النظر والكلام كناية عن عدم الاعتداد ومنتهى الغضب الذي لا رجاء معه ولا أمل.

إن الزنا وشرب الخمر والميسر والربا وعقوق الوالدين مع الكبائر، ولكن اللَّه تعالى لم يتوعد مرتكبي هذه الموبقات بمثل ما توعد به ناكثي العهود، وخائني الأمانات؛ لأن مفاسد النكث والخيانة أعظم من جميع المفاسد التي حرمت

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٩-٦٠).

لأجلها تلك الجرائم. فما بال كثير من الناس يدّعون التدين، ويتّسمون بسمة الإسلام، وهم لا يبالون بالعهود، ولا يحفظون الأيمان، ويرون ذلك صغيرا من حيث يُكبّرون أمر المعاصي التي لم يتعوّدوها لأنهم لم يتعوّدوها.

الإيمان بالله لا يجتمع مع الخيانة والنكث في نفس. وقد عدّ تعالى أخص وصف لزعماء الكفر يبيح قتالهم كونهم لا وفاء لهم بالعهود، إذ قال: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية ووعيد الأيمان الكاذبة

* عن عبد الله بن أبي أوفى: أن رجلًا أقام سلعة في السوق، فحلف فيها: لقد أعطي بها ما لم يعطه، ليوقع فيها رجلًا من المسلمين، فنزلت هذه الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.. إلى آخر الآية[3].

⋆ فوائد الحديث:

انظر الذي بعده. ولا منافاة بينه وبين حديث ابن مسعود، ويحمل على أن النزول كان بالسببين جميعًا[4].

قال ابن بطال: «وهو وعيد شديد في اليمين الغموس، وذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فجمع الله هذه العقوبات كلها في هذه اليمين الغموس لما جمعت من المعاني الفاسدة، وذلك كذبه في اليمين بالله تعالى وهو أجل ما يحلف به، ومنها غروره في سلعته من يقع فيها من أجل يمينه تلك، ومنها استحلاله ماله بالباطل، وهو الثمن القليل الذي لا يدوم له في الدنيا لتسمية الله له قليلا عوضا مما كان يلزمه من تعظيم حق الله تعالى والوفاء بعهده، والوقوف عند نهيه وأمره، فخاب تجره، وخسرت صفقته»[5].

---

(١) سورة التوبة (١٢).
(٢) تفسير المنار ٣/ ٣٤٢-٣٤٣).
(٣) البخاري (٨/ ٢٦٩/ ٤٥٥١).
(٤) أفاده الحافظ في الفتح (٨/ ٢٧٠).
(٥) شرح صحيح البخاري (٦/ ٢٢١-٢٢٢).

* عن ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقي اللَّه وهو عليه غضبان**»، قال: فقال الأشعث: في، واللَّه، كان ذلك، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني، فقدمته إلى النبي ﷺ، فقال لي رسول اللَّه ﷺ: «**ألك بينة؟**» قلت: لا. قال: فقال لليهودي: «**احلف**» قال: قلت: يا رسول اللَّه إذن يحلف فيذهب مالي. فأنزل اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إلى آخر الآية[١].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «فيه أن الحاكم يسأل المدعي هل له بينة؟ وقد ترجم بذلك في الشهادات وأن البينة على المدعي في الأموال كلها واستدل به لمالك في قوله: إن من رضي بيمين غريمه ثم أراد إقامة البينة بعد حلفه أنها لا تسمع إلا إن أتى بعذر يتوجه له في ترك إقامتها قبل استحلافه، قال ابن دقيق العيد: ووجهه أن (أو) تقتضي أحد الشيئين، فلو جاز إقامة البينة بعد الاستحلاف لكان له الأمران معًا والحديث يقتضي أنه ليس له إلا أحدهما، قال: وقد يجاب بأن المقصود من هذا الكلام نفي طريق أخرى لإثبات الحق فيعود المعنى إلى حصر الحجة في البينة واليمين. ثم أشار إلى أن النظر إلى اعتبار مقاصد الكلام وفهمه يضعف هذا الجواب، قال: وقد يستدل الحنفية به في ترك العمل بالشاهد واليمين في الأموال. قلت: والجواب عنه بعد ثبوت دليل العمل بالشاهد واليمين أنها زيادة صحيحة يجب المصير إليها لثبوت ذلك بالمنطوق، وإنما يستفاد نفيه من حديث الباب بالمفهوم، واستدل به على توجيه اليمين في الدعاوى كلها على من ليست له بينة»[٢].

وقال: «وفيه التشديد على من حلف باطلًا ليأخذ حق مسلم، وهو عند الجميع محمول على من مات على غير توبة صحيحة، وعند أهل السنة محمول على من شاء اللَّه أن يعذبه»[٣].

---

(١) أحمد (٥/ ٢١١) والبخاري (٥/ ٩٢-٩٣/ ٢٤١٦-٢٤١٧) ومسلم (١/ ١٢٢/ ١٣٨) وأبو داود (٣/ ٥٦٥/ ٣٢٤٣) والترمذي (٣/ ٥٦٩/ ١٢٦٩) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٨٤/ ٥٩٩١) وابن ماجه (٢/ ٧٧٨/ ٢٣٢٣) مختصرا. كلهم عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ بألفاظ متقاربة.

(٢) فتح الباري (١١/ ٦٨٩).

(٣) المصدر نفسه.

وقال: «وفيه التنبيه على صورة الحكم في هذه الأشياء لأنه بدأ بالطالب فقال ليس لك إلا يمين الآخر ولم يحكم بها للمدعى عليه إذا حلف بل إنما جعل اليمين تصرف دعوى المدعي لا غير، ولذلك ينبغي للحاكم إذا حلف المدعى عليه أن لا يحكم له بملك المدعى فيه ولا بحيازته بل يقره على حكم يمينه»[١].

قال الشوكاني: «قوله «**لقي اللَّه وهو عليه غضبان**» هذا وعيد شديد؛ لأن غضب اللَّه سبب لانتقامه وانتقامه بالنار، فالغضب منه ﷻ يستلزم دخول المغضوب عليه النار، ولهذا وقع في رواية لمسلم «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب اللَّه له النار**» ولابد من تقييد ذلك بعدم التوبة»[٢].

* عن وائل بن حجر قال: جاء رجل من حضرموت، ورجل من كندة إلى النبي ﷺ فقال الحضرمي: يا رسول اللَّه إن هذا قد غلبني على أرض لي كانت لأبي، فقال الكندي: هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق، فقال رسول اللَّه ﷺ للحضرمي: «**ألك بينة؟**» قال: لا. قال: «**فلك يمينه**» قال: يا رسول اللَّه إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورع من شيء فقال: «**ليس لك منه إلا ذلك**»، فانطلق ليحلف فقال رسول اللَّه ﷺ لما أدبر: «**أما لئن حلف على ماله ليأكله ظلمًا ليلقين اللَّه وهو عنه معرض**»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «في هذا الحديث: أن يمين الفاجر تسقط عنه حكم دعوى المدعي، كيمين من ليس بفاجر، وأنه ليس تجري يمينه مجرى شهادته.

وفيه: أن الفاجر في دينه لا يوجب فجوره الحجر عليه ولا إبطال إقراره، ولولا ذلك لم يكن لليمين معنى.

وفيه: أن من جاء ببينة قضي له بحقه من غير يمين؛ لأنه محال أن يسأله دون ما يجب له الحكم به، ولو كان من تمام الحكم اليمين لقال له: بينتك ويمينك على تصديق بينتك.

---

(١) المصدر نفسه. (٢) نيل الأوطار (٨/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٣) أحمد (٤/ ٣١٧) ومسلم (١/ ١٢٣-١٢٤/ ١٣٩(٢٢٣» وأبو داود (٣/ ٥٦٦/ ٣٢٤٥) والترمذي (٣/ ٦٢٥/ ١٣٤٠) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٨٤/ ٥٩٨٩) من طريق علقمة بن وائل بن حجر عن أبيه به.

فيه: وعظ الحاكم الحالف، عساه أن يكون يحلف باطلا فيرده وعظه إلى الحق كما فعل النبي ﷺ حين قام الحضرمي ليحلف»[١].

* عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا تَخْرِزَانِ فِي بَيْتٍ أَوْ فِي الْحُجْرَةِ فَخَرَجَتْ إِحْدَاهُمَا وَقَدْ أُنْفِذَ بِإِشْفَى فِي كَفِّهَا، فَادَّعَتْ عَلَى الْأُخْرَى، فَرُفِعَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ لَذَهَبَ دِمَاءُ قَوْمٍ وَأَمْوَالُهُمْ، ذَكِّرُوهَا بِاللَّهِ، وَاقْرَءُوا عَلَيْهَا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾**» فَذَكَّرُوهَا، فَاعْتَرَفَتْ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الْيَمِينُ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ**»[٢].

★ غريب الحديث:

تخرزان: يقال خرزت الجلد خرزًا من باب ضرب وقتل وهو كالخياطة في الثياب.

إشفى: آلة الخرز.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «هذا الحديث قاعدة كبيرة من قواعد أحكام الشرع، ففيه أنه لا يقبل قول الإنسان فيما يدعيه بمجرد دعواه بل يحتاج إلى بينة أو تصديق المدعى عليه، فإن طلب يمين المدعى عليه فله ذلك، وقد بين ﷺ الحكمة في كونه لا يعطى بمجرد دعواه لأنه لو كان أعطى بمجردها لادعى قوم دماء قوم وأموالهم واستبيح ولا يمكن المدعى عليه أن يصون ماله ودمه، وأما المدعى فيمكنه صيانتهما بالبينة، وفي هذا الحديث دلالة لمذهب الشافعي والجمهور من سلف الأمة وخلفها أن اليمين تتوجه على كل من ادعي عليه حق سواء كان بينه وبين المدعي اختلاطًا أم لا، وقال مالك وجمهور أصحابه والفقهاء السبعة فقهاء المدينة: أن اليمين لا تتوجه إلا على من بينه وبينه خلطة لئلا يبتذل السفهاء أهل الفضل بتحليفهم مرارًا في اليوم الواحد، فاشترطت الخلطة دفعًا لهذه المفسدة، واختلفوا في تفسير

(١) إكمال المعلم (١/ ٤٣٧-٤٣٩).

(٢) البخاري (٨/ ٢٦٩/ ٤٥٥٢) وأخرجه مختصرا: أحمد (١/ ٣٥١) ومسلم (٣/ ١٣٣٦/ ١٧١١) وأبو داود (٤/ ٤٠/ ٣٦١٩) والترمذي (٣/ ٦٢٦/ ١٣٤٢) ابن ماجه (٢/ ٧٧٨/ ٢٣٢١).

الخلطة فقيل: هي معرفته بمعاملته ومدينته أبشاهد أو بشاهدين، وقيل: تكفي الشبهة، وقيل: هي أن تليق به الدعوى بمثلها على مثله، وقيل: أنْ يليق به أن يعامله بمثلها، ودليل الجمهور حديث الباب، ولا أصل لاشتراط الخلطة في كتاب ولا سنة ولا إجماع»[١].

* عن ابن مسعود قال: «كنا نعد من الذنب الذي ليس له كفارة اليمين الغموس قيل: وما اليمين الغموس؟ فقال: الرجل يقتطع بيمينه مال الرجل»[٢].

* عن أبي أمامة الحارثي قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة كانت نكتة سوداء في قلبه لا يغيرها شيء إلى يوم القيامة**»[٣].

* وعنه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب اللَّه له النار وحرم اللَّه عليه الجنة**» فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: «**وإن قضيبًا من أراك**»[٤].

* عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا يَحْلِفُ أَحَدٌ عِنْدَ مِنْبَرِي هَذَا عَلَى يَمِينٍ آثِمَةٍ وَلَوْ عَلَى سِوَاكٍ أَخْضَرَ إِلَّا تَبَوَّأَ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ أَوْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ**»[٥].

* عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ مَصْبُورَةٍ كَاذِبًا فَلْيَتَبَوَّأْ بِوَجْهِهِ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**»[٦].

★ غريب الأحاديث:

اليمين الغموس: هي اليمين الكاذبة الفاجرة كالتي يقتطع بها الحالف مال غيره. وسميت غموسًا؛ لأنها تغمس صاحبها في الإثم، ثم في النار.

---

(١) شرح صحيح مسلم (١٢/ ٤).

(٢) البيهقي (١٠/ ٣٨) والحاكم (٤/ ٢٩٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

(٣) الطبراني (١/ ٢٧٥/ ٨٠١) والحاكم (٤/ ٢٩٤) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) أحمد (٥/ ٢٦٠) ومسلم (١/ ١٢٢/ ١٣٧) والنسائي (٨/ ٦٣٧-٦٣٨/ ٥٤٣٤) وابن ماجه (٢/ ٧٧٩/ ٢٣٢٤).

(٥) أحمد (٣/ ٣٤٤) وأبو داود (٣/ ٥٦٧-٥٦٨/ ٣٢٤٦) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٩١/ ٦٠١٨) وابن ماجه (٢/ ٧٧٩/ ٢٣٢٥) والحاكم (٤/ ٢٩٦-٢٩٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن حبان: الإحسان (١٠/ ٢١٠/ ٤٣٦٨).

(٦) أحمد (٤/ ٤٣٦) وأبو داود (٣/ ٥٦٤/ ٣٢٤٢) والحاكم (٤/ ٢٩٤) وصححه ووافقه الذهبي.

اليمين المصبورة: قيل لها مصبورة وإن كان صاحبها في الحقيقة هو المصبور؛ لأنه إنما صبر من أجلها؛ أي: حبس، فوصفت بالصبر، وأضيفت إليه مجازًا.

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن عبد البر: «اليمين الغموس وهي يمين الصبر التي يقتطع بها مال المسلم من الكبائر؛ لأن كل ما أوعد اللَّه عليه بالنار أو رسوله ﷺ فهو من الكبائر؛ وفي معنى هذا الحديث نزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[1][2].

وقال: «أجمع العلماء على أن اليمين إذا لم يقتطع بها مال أحد، ولم يحلف بها على مال، فإنها ليست اليمين الغموس التي ورد فيها الوعيد واللَّه أعلم. وقد تسمى غموسا على القرب، وليست عندهم كذلك، وإنما هي كذبة. ولا كفارة عند أكثرهم فيها إلا الاستغفار. وكان الشافعي وأصحابه ومعمر بن راشد، والأوزاعي، وطائفة يرون فيها الكفارة.

وروي عن جماعة من السلف أن اليمين الغموس لا كفارة لها، وبه قال جمهور فقهاء الأمصار؛ وكان الشافعي والأوزاعي، ومعمر وبعض التابعين فيما حكى المروزي يقولون: إن فيها الكفارة فيما بينه وبين اللَّه في حنثه، فإن اقتطع بها مال مسلم، فلا كفارة لذلك إلا أداء ذلك والخروج عنه لصاحبه، ثم يكفر عن يمينه بعد خروجه مما عليه في ذلك.

وقال غيرهم من الفقهاء منهم: مالك والثوري وأبو حنيفة: لا كفارة في ذلك؛ وعليه أن يؤدي ما اقتطعه من مال أخيه، ثم يتوب إلى اللَّه، ويستغفره، وهو فيه بالخيار إن شاء غفر له وإن شاء عذبه؛ وأما الكفارة فلا مدخل لها عندهم في اليمين الكاذبة إذا حلف بها صاحبها عمدًا متعمدا للكذب، وهذا لا يكون إلا في الماضي أبدًا. وأما المستقبل من الأفعال فلا . . .

ومما يدل على صحة ما ذهب إليه مالك ومن تابعه على قوله في هذا الباب، ما

---

(١) آل عمران: الآية (٧٧).

(٢) التمهيد: فتح البر (١/ ٢٨٥-٢٨٦).

روى حماد بن سلمة، عن أبي التياح، عن أبي العالية رفيع أن ابن مسعود كان يقول: كنا نعد من الذنب الذي لا كفارة له اليمين الغموس: أن يحلف الرجل على مال أخيه كاذبا ليقتطعه»[١].

قال الشوكاني: «قوله «**وإن كان قضيبًا من أراك**»: هذا مبالغة في القلة وأن استحقاق النار يكون بمجرد اليمين في اقتطاع الحق وإن كان شيئًا يسيرًا لا قيمة له»[٢].

قال القاضي عياض: «إنما كبرت هذه المعصية بحسب اليمين الغموس التي هي من الكبائر الموبقات، وتغييرها في الظاهر حكم الشرع واستحلاله بها الحرام، وتصييرها المحق في صورة المبطل، والمبطل في صورة المحق، ولهذا عظم أمرها وأمر شهادة الزور، وإيجاب النار فيها على حكم الكبائر، إلا أن يشاء اللّه أن يعفو عن ذلك لمن يشاء، وتحريم الجنة عند دخول السابقين لها والمتقين، وأصحاب اليمين، ثم لابد لكل موحد من دخوله، إما بعد وقوف وحساب، أو بعد نكال وعذاب»[٣].

وقال النووي: «وأما قوله ﷺ: «**فقد أوجب اللّه تعالى له النار وحرم عليه الجنة**». ففيه الجوابان المتقدمان المتكرران في نظائره:

أحدهما: أنه محمول على المستحل لذلك إذا مات على ذلك فإنه يكفر ويخلد في النار.

والثاني: معناه فقد استحق النار ويجوز العفو عنه وقد حرم عليه دخول الجنة أول وهلة مع الفائزين، وأما تقييده ﷺ بالمسلم فليس يدل على عدم تحريم حق الذمي بل معناه أن هذا الوعيد الشديد وهو أنه يلقى اللّه تعالى وهو عليه غضبان لمن اقتطع حق المسلم، وأما الذمي فاقتطاع حقه حرام لكن ليس يلزم أن تكون فيه هذه العقوبة العظيمة، هذا كله على مذهب من يقول بالمفهوم، وأما من لا يقول به فلا يحتاج إلى تأويل... ثم إن هذه العقوبة لمن اقتطع حق المسلم ومات قبل

(١) التمهيد: فتح البر (١/ ٢٨٩-٢٩١).
(٢) نيل الأوطار (٨/ ٣٠٧).
(٣) إكمال المعلم (١/ ٤٣٤).

التوبة، أما من تاب فندم على فعله ورد الحق إلى صاحبه وتحلل منه وعزم على أن لا يعود فقد سقط عنه الإثم، والله أعلم(١).

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِطَرِيقٍ يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنَ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا؛ فَإِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَفَى لَهُ وَإِلَّا لَمْ يَفِ لَهُ، وَرَجُلٌ سَاوَمَ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا كَذَا وَكَذَا فَأَخَذَهَا**»(٢).

⭑ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «فيه تحريم مال المسلمين إلا بالحق. وفيه عقوبة الحلف بالله كاذبا، وإنما خص به العصر لأنه الوقت الذي ترتفع فيه ملائكة النهار بأعمال العباد»(٣).

قال الخطابي: «خص وقت العصر بتعظيم الإثم فيه، وإن كانت اليمين في كل وقت؛ لأن الله عظم شأن هذا الوقت بأن جعل الملائكة تجتمع فيه وهو وقت ختام الأعمال، والأمور بخواتيمها، فغلظت العقوبة فيه لئلا يقدم عليها تجرؤًا، فإن من تجرأ عليها فيه اعتادها في غيره»(٤).

* قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**الْحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ**»(٥).

⭑ غريب الحديث:

منفقة: من النفاق وهو الرواج ضد الكساد.

ممحقة: من المحق: النقص والإبطال.

---

(١) شرح مسلم (٢/ ١٣٨).

(٢) أحمد (٢/ ٤٨٠) والبخاري (٥/ ٣٥٦/ ٢٦٧٢) ومسلم (١/ ١٠٣/ ١٠٨) وأبو داود (٣/ ٧٤٩/ ٣٤٧٤)، والنسائي (٧/ ٢٨٣/ ٤٤٧٤) كلهم من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة بألفاظ متقاربة.

(٣) شرح صحيح البخاري (٨/ ٢٧٩-٢٨٠).

(٤) فتح الباري (١٣/ ٢٥١-٢٥٢) وانظر أعلام الحديث (٢/ ١١٧٥-١١٧٨).

(٥) أحمد (٢/ ٢٣٥) والبخاري (٤/ ٣٩٦/ ٢٠٨٧) ومسلم (٣/ ١٢٢٨/ ١٦٠٦) وأبوداود (٣/ ٦٣٠/ ٣٣٣٥) والنسائي (٧/ ٢٨٢-٢٨٣/ ٤٤٧٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال السندي: «"**ممحقة**" أي: موضع لنقصان البركة ومظنة له في المال؛ بأن يسلط اللَّه عليه وجوها يتلف فيها، إما سرقًا أو حرقًا أو غرقًا أو غصبًا أو نهبًا، أو عوارض ينفق فيها من أمراض وقحط وغير ذلك مما شاء الله»[١].

* * *

(١) هامش المسند (١٢/ ١٤١) طبعة الأرنؤوط.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨﴾

★ **غريب الآية:**

يلوون: أصل اللي الفتل، ولوى لسانه بكذا، كناية عن الكذب وتخرص الحديث. والمقصود هنا التحريف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن اليهود -عليهم لعائن الله- أن منهم فريقًا يحرفون الكلم عن مواضعه ويبدلون كلام اللَّه، ويزيلونه عن المراد به، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب اللَّه كذلك، وينسبونه إلى اللَّه، وهو كذب على اللَّه، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله، ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾»[١].

قال السعدي: «أي: وإن من أهل الكتاب فريقًا، هم محرفون لكتاب اللَّه. يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي. ثم هم -مع هذا التحريف الشنيع- يوهمون أنه من الكتاب، وهم كذبة في ذلك، ويصرحون بالكذب على اللَّه، وهم يعلمون حالهم، وسوء مغبتهم»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بيان لحال طائفة أخرى من أهل الكتاب، والجمهور على أن المراد بهذا الفريق بعض علماء اليهود، الذين كانوا حوالي المدينة، وإن كان التشنيع عليهم يتناول كل من كان على

(١) التفسير (٢/ ٥٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٩٤).

شاكلتهم منهم ومن غيرهم. ويروون عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا الفريق هم اليهود، الذين قدموا على كعب بن الأشرف أحد زعمائهم المُلِحّين في عداوة النبي ﷺ وإذائه والإغراء به، غيّروا التوراة وكتبوا كتابًا بدلوا فيه صفة النبي ﷺ، فأخذت قريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذي عندهم، وجعلوا يلوون ألسنتهم بقراءته، يوهمون الناس أنه من التوراة. وهذا العمل ينبئ بفساد اعتقادهم، وعدم استمساكهم بكتابهم، وذلك أنهم جعلوا الدين جنسية، وصار الانتصار له عندهم عبارة عن مقاومة من لم يكن من جنسهم، وإن كان أقرب منهم إلى ما جاء في كتابهم، بل إنهم يخرجون عن كتابهم ويحرّفون لمقاومة الغريب، ويعدّون ذلك انتصارًا له، وهكذا يفعل أشباههم من المسلمين اليوم، فقد يعدّون من أنصار الدين والمتعصبين له من لا معرفة له بعقائده وأصوله ولا بفروعه، إلا ما هو مشهور عند العامة، ولا هو يعمل بما يعلم من ذلك، وإنما يعدّونه كذلك إذا هو عادى من لا يُعدّون من المسلمين ولو بسبب سياسي أو دنيوي لا علاقة له بالإسلام، بل يعدّون من أنصار الدين من يطعن في بعض المصلحين من المسلمين، لمخالفتهم ما عليه العامة والمقلدون فيما يعدّونه من الإسلام؛ لأنهم اعتادوه، لا لأن كتاب اللَّه جاء به. وقد يحرفون القرآن بالتأويل لتأييد تقاليدهم وبدعهم أو يعرضون عنه اعتذارًا بأنهم غير مطالبين بأخذ دينهم منه، بل من كلام العلماء»[1].

قلت: ما قرره الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في هذا التقرير العظيم من بيان شافٍ في التلاعب بدين اللَّه على حسب المصالح والأهواء، وأن هناك جماعة من المحرفين لدين اللَّه من كتاب وسنة يجتهدون في هذا الأمر اجتهادًا كبيرًا، ويوهمون العامة في أقوالهم وأفعالهم أن هذا هو الدين، وما سواه يعتبر مستوردًا من خارج البلاد، واعتبروا ما في البلاد من انحرافات عقدية وبدع صوفية ورافضية ومذهبية كل ذلك منسوبًا إلى الأئمة، وأن هذا هو مذهب أحمد وأبي حنيفة والشافعي ومالك، ويعلم اللَّه، لو أحيا اللَّه مالكًا في هذا الوقت لتبرأ منهم ولشكاهم إلى اللَّه، ولحاكمهم إليه على ما افتروا عليه من بدع وضلالات، وحياته الدعوية رحمه الله قامت على حرب البدع والعادات المخالفة للإسلام.

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٤٣-٣٤٤).

فما قاله الشيخ محمد رشيد رضا في هذا التقرير العظيم هو واقع كثير من المنحرفين المرتزقة، نرجو اللَّه أن يكفينا شرهم بما شاء وكيف شاء.

قال ابن جرير: «﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ يعني: بذلك: أنهم يتعمدون قِيلَ الكذب على اللَّه، والشهادة عليه بالباطل، والإلحاقَ بكتاب اللَّه ما ليس منه، طلبًا للرياسة والخسيس من حُطام الدنيا»[1].

* * *

(١) جامع البيان (٦/ ٥٣٥-٥٣٦ شاكر).

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ربانيين: جمع رباني، منسوب إلى لفظ الرب. والمعنى: علماء فقهاء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: ما ينبغي لبشر آتاه اللَّه الكتاب والحُكْم والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني من دون اللَّه؛ أي: مع اللَّه، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى.. فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ، بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين، فإنما يأمرون بما أمَرَ اللَّه به وبلغتهم إياه رسله الكرام. إنما يَنْهَوْنهم عما نهاهم اللَّه عنه وبلغتهم إياه رسله الكرام. فالرسل -صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعينَ- هم السفراء بين اللَّه وبين خلقه في أداء ما حملوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة، فقاموا بذلك أتم القيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق»[(١)].

قال السعدي: «أي: يمتنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر من اللَّه عليه بالوحي والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعي أن يأمر الناس بعبادته، وبعبادة النبيين والملائكة، واتخاذهم أربابًا؛ لأن هذا هو الكفر، فكيف وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده؟!

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٣-٦٤).

هذا هو الممتنع؛ لأن حاله وما هو عليه، وما من اللَّه به عليه من الفضائل والخصائص تقتضي العبودية الكاملة، والخضوع التام لله الواحد القهار.

وهذا جواب لوفد نجران حين تمادى بهم الغرور، ووصلت بهم الحال والكبر، أن قالوا: أتأمرنا يا محمد أن نعبدك؟ حين أمرهم بعبادة اللَّه وطاعته. فبين الباري انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان»[١].

قال ابن العربي: «المعنى: ولا آمر الخلق أن يتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا يعبدونهم؛ لأن اللَّه سبحانه لا يأمر بالكفر من أسلم فعلًا، ولا يأمر بالكفر ابتداء؛ لأنه محال عقلًا، فلما لم يتقدر ولا تصور لم يتعلق به أمر»[٢].

قال ابن كثير: «أي: ولا يأمركم بعبادة أحد غير اللَّه، ولا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: لا يفعل ذلك؛ لأن من دعا إلى عبادة غير اللَّه فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان، وهو عبادة اللَّه وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[٤] الآية. وقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[٥]. وقال إخبارًا عن الملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[٦]»[٧].

قال ابن العربي: «حرم اللَّه تعالى على الأنبياء أن يتخذوا الناس عبادًا يتألهون لهم، ولكن ألزم الخلق طاعتهم.

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي، ولا يقل أحدكم: ربي، وليقل: سيدي**»[٨].

وقد قال اللَّه تعالى مخبرا عن يوسف: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[٩]. قال:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٩٥).
(٢) أحكام القرآن (١/ ٢٧٩).
(٣) الأنبياء: الآية (٢٥).
(٤) النحل: الآية (٣٦).
(٥) الزخرف: الآية (٤٥).
(٦) الأنبياء: الآية (٢٩).
(٧) التفسير (٢/ ٥٥).
(٨) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٠) والبخاري (٥/ ٢٢٢/ ٢٥٥٢) ومسلم (٤/ ١٧٦٥/ ٢٢٤٩) وأبو داود (٥/ ٢٥٦-٢٥٧/ ٤٩٧٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٦٩/ ١٠٠٧١) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٩) يوسف: الآية (٤٢).

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ﴾[١] . وقال النبي ﷺ : «**من أعتق شركًا له في عبد . .**»[٢] فتعارضت .

فلو تحققنا التاريخ لكان الآخر رافعًا للأول أو مبينًا له على اختلاف الناس في النسخ . وإذا جهلنا التاريخ وجب النظر في دلالة الترجيح . . . ترجيح الجواز ؛ لأن النهي إنما كان لتخليص الاعتقاد من أن يعتقد لغير اللَّه عبودية أو في سواه ربوبية ، فلما حصلت العقائد كان الجواز»[٣] .

قال محمد بن عبد الوهاب : «إذا عرفت أن سبب نزولها قول أهل الكتاب : نحن مسلمون نعبد اللَّه إلا إن كنت تريد أن نعبدك ؛ عرفت أنها من أوضح ما في القرآن من تقرير الإخلاص ، والبراءة من الشرك ، ومن أعظم ما يبين لك طريق الأئمة المهديين من الأئمة المضلين ، وذلك أن اللَّه وصف أئمة الهدى بالنفي والإثبات ، فنفى عنهم أن يأمروا أتباعهم بالشرك بهم ، أو بالشرك بالملائكة والأنبياء وهم أصلح المخلوقات ، وأثبت أنهم يأمرون أتباعهم أن يصيروا ربانيين ، فإذا كان من أنزله اللَّه بهذه المنزلة لا يتصور أن يأمر أتباعه بالشرك به ولا بغيره من الأنبياء والملائكة ، فغيرهم أظهر وأظهر .

وإذا كان الأمر الذي يأمرهم به كونهم ربّانيين ؛ تبيّن طريقة الأنبياء وأتباعهم من طريقة أئمة الضلال وأتباعهم ، ومعرفة الإخلاص والشرك . ومعرفة أئمة الهدى وأئمة الضلالة أفضل ما حصّل المؤمن .

لكن فيه من البيان قول اليهود : إلا إن كنت تريد أن نعبدك كما عبدت النصارى عيسى ، وقول النصارى : تريد ذلك ؛ أي : إلا إن كنت تريد أن نعبدك كما عبدت اليهود عُزيرًا ! إن عبادة غير اللَّه من أنكر المنكرات ببديهة العقل ، ولكن الهوى يُعمي ويُصم .

وفيه معرفة الإنسان بعيب عدوه ، ولا يعرف ما فيه من ذلك العيب بعينه ولو كان

---

(١) النور : الآية (٣٢) .

(٢) أخرجه : أحمد (١/ ٥٦) والبخاري (٥/ ١٨٩/ ٢٥٢٢) ومسلم (٢/ ١١٣٩/ ١٥٠١) وأبو داود (٤/ ٢٥٦/ ٣٩٤٠) والترمذي (٣/ ٦٢٩/ ١٣٤٦) والنسائي (٧/ ٣٦٦/ ٤٧١٣) وابن ماجه (٢/ ٨٤٤-٨٤٥/ ٢٥٢٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

(٣) أحكام القرآن (١/ ٢٧٩-٢٨٠) .

فيه أضعافًا مضاعفة. وفيه ما على من قرأ القرآن من الحق من تعلّم معانيه. وفيه أن عليه أن يعمل به. وفيه أن يكون ربّانيًّا. وفيه أن ذلك بسبب درس الكتاب وعلمه وتعليمه. وفيه أن المسلم إذا أشرك بالأنبياء والصالحين كفر بعد إسلامه. وفيه معرفة أعداء رسول اللَّه ﷺ بما هو عليه من العدل والتواضع كيف يتفوهون له بهذا الكلام، وهم تحت يده محتاجون له؟ وفيه أن من أشرك بشيء فقد اتخذه ربًّا. وفيه أن قوله في القرآن: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليس كما يقول الجاهلون؛ لأن أهل الكتاب لا يتركون عبادة الله»[1].

قلت: لا شك أن هذه السورة المباركة من أولها إلى آخرها في تقرير التوحيد والرد على المخالف ودفع شبهه وتفنيدها، وهذه الآية من أوضح ذلك، فقد بين اللَّه -تبارك وتعالى- فيها التعارض التام الفطري والعقلي والعلمي والشرعي الذي لا يمكن لمن أكمل اللَّه له هذه الأصول العقلية والفطرية والشرعية والعلمية وحباه بالنبوة والرسالة أن يناقض دعوته وأصوله التي قامت عليها حياته، فهذا كالذَّكر الذي يجُعل أنثى، أو الأنثى التي تُجعل ذكرًا، واللَّه -تبارك وتعالى- خلق الذكر ذكرًا، وجعل له مواصفات تليق به، فيستحيل أن يتحول أنثى، ولو أراد لعجز عن ذلك.

فالتوحيد لا يمكن أن يكون شركًا في يوم من الأيام، والشرك لا يمكن أن يكون توحيدًا في يوم من الأيام، ودعاة التوحيد لا يمكن أن يتحولوا إلى دعاة شرك، ولا سيما الأنبياء وأتباعهم والصديقون والصادقون في كل مكان وزمان، وما قرره أئمة التفسير -ولا سيما محمد بن عبد الوهاب- في هذا المقام هو مما يثلج الصدر، ويدلّكَ على أن هذا الدين دين الحق، يهيئ اللَّه له من يذب عنه ويوضحه للأمة.

قال الرازي: «دلت الآية على أن العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانيا، فمن اشتغل بالتعلم والتعليم لا لهذا المقصود ضاع سعيه وخاب عمله، وكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء مونقة بمنظرها ولا منفعة بثمرها، ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام-: «**نعوذ باللَّه من علم لا ينفع وقلب لا يخشع**»[2]»[3].

(١) تفسير آيات من القرآن الكريم (ص٥٨-٥٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٧١) ومسلم (٤/ ٢٠٨٨/ ٢٧٢٢) والنسائي (٨/ ٦٥٣/ ٥٤٧٣). وأخرجه: الترمذي (٥/ ٥٢٨/ ٣٥٧٢) دون ذكر محل الشاهد. كلهم من حديث زيد بن أرقم ﷺ.

(٣) تفسير الرازي (٨/ ١٢٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيمن عبد مخلوقا دون اللَّه، أو اتخذهم وسائط بينه وبين الله

* عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب. فقال: «**يا عدي اطرح عنك هذا الوثن**»، وسمعته يقرأ في سورة براءة ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[(١)] قال: «**أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه**»[(٢)].

★ **فوائد الحديث:**

«قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا لمؤمن؛ أن يأمر الناس بعبادته. قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضًا يعني أهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم كما قال اللَّه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ »[(٣)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قال اللَّه -تبارك وتعالى-: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركَه**»[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

قال محمد رشيد رضا: «إن العبادة الصحيحة لله تعالى لا تتحقق إلا إذا خلصت له وحده، فلم تشبها شائبة ما من التوجه إلى غيره، كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾[(٥)] وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[(٦)] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فمن دعا إلى عبادة نفسه فقد دعا الناس إلى أن يكونوا عابدين له من دون اللَّه وإن لم ينههم عن عبادة اللَّه، بل وإن أمرهم بعبادة اللَّه. ومن جعل بينه وبين اللَّه واسطة في العبادة كالدعاء فقد عبد هذه الواسطة من دون الله؛ لأن هذه الوساطة تنافي

---

(١) التوبة: الآية (٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٥٩-٢٦٠/ ٣٠٩٥)، وحسنه الشيخ الألباني في بحث له نفيس في الصحيحة (رقم: ٣٢٩٣).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٣).

(٤) أحمد (٢/ ٣٠١) ومسلم (٤/ ٢٢٨٩/ ٢٩٨٥) وابن ماجه (٢/ ١٤٠٥/ ٤٢٠٢).

(٥) الزمر: الآية (١٤). (٦) البينة: الآية (٥).

الإخلاص له وحده، ومتى انتفى الإخلاص انتفت العبادة ولذلك قال: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[١] الآية»[٢].

* * *

(١) الزمر: الآيتان (٢و٣).
(٢) تفسير المنار (٣/ ٣٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ميثاق: عقد مؤكد بيمين وعهد.

أقررتم: الإقرار: إثبات الشيء.

إصري: عهدي، والإصرار: كل عزم شددت عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال شيخ الإسلام: «إن جميع الخلائق أخذ اللَّه عليهم ميثاق الإيمان به كما أخذ على كل نبي أن يؤمن بمن قبله من الأنبياء ويصدق بمن بعده. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ الآية. افتتح الكلام باللام الموطئة للقسم التي يؤتى بها إذا اشتمل الكلام على قسم وشرط؛ وأدخل اللام على ما الشرطية ليبين العموم، ويكون المعنى: مهما آتيكم من كتاب وحكمة فعليكم إذا جاءكم ذلك النبي المصدق الإيمان به ونصره. كما قال ابن عباس: «**ما بعث اللَّه نبيًّا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه**»[(١)].

قال السعدي: «هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم، بسبب ما أعطاهم ومن به عليهم من الكتاب والحكمة المقتضي للقيام التام بحق اللَّه وتوفيقه، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم بما بعثوا به من التوحيد والحق

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٢٨).

والقسط، والأصول التي اتفقت عليها الشرائع، أنهم يؤمنون به وينصرونه. فأقروا على ذلك، واعترفوا، والتزموا، وأشهدهم، وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق. وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم قد اتفقوا وتعاقدوا عليها. وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق بالإيمان، والنصرة لمحمد ﷺ. فمن ادعى أنه من أتباعهم، فهذا دينهم الذي أخذه اللَّه عليهم، وأقروا به واعترفوا. فمن تولى عن اتباع محمد ممن يزعم أنه من أتباعهم فإنه فاسق خارج عن طاعة اللَّه، مكذب للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه، مخالف لطريقه. وفي هذا إقامة الحجة والبرهان على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان. وأنه لا يمكنهم الإيمان برسلهم، الذين يزعمون أنهم أتباعهم، حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ»[(١)].

قلت: رحم اللَّه الإمام السعدي على هذا التقرير الطيب في اتحاد دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأنها دعوة واحدة لا تتجزأ، فكلهم اتفقوا على التوحيد وأصوله وعلى لوازم ذلك، وكلهم اتفقوا على طاعة الأنبياء والرسل، وكلهم اتفقوا على محبة بعضهم لبعض، سواء من سبقهم أو من يأتي بعدهم، والكتب التي نزلت وصفت الرسول ﷺ بأوصاف كأنك تشاهده؛ بل ما تناسل منه من أجداد وقبائل وأصول وفروع ورضاع وتربية كل ذلك مبثوث في كتب أهل الكتاب. وما ذلك إلا لأن تكون الدعوة واحدة متحدة لا ينكر هذا هذا ولا يبغض هذا هذا، فكذلك الدعاة في تاريخ الإسلام، إذا تتبعت الصديقين والصادقين تجدهم على هذا المنهاج، بداية بالصديق رضي الله عنه وختامًا بآخر واحد تقوم عليه الساعة، فكلهم على أصل واحد وعلى منهاج واحد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾[(٢)]. فالأمة أجمعت على التوحيد وعلى وجوب طاعة الرسول ﷺ ومتابعته، والمخالفون في ذلك هم الشواذ من رافضة وصوفية وجهمية ومرجئة وخوارج وقدرية، وما تفرع على هذه الفرق الضالة من أشعرية ومعتزلة وطرق صوفية.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٩٦-٣٩٧).
(٢) النساء: الآية (١١٥).

وقال محمد رشيد رضا: «﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؛ أي: أن من مقتضى ذلك الميثاق أن دين اللَّه واحد، وأن دعاته متفقون متحدون، فمن تولى بعد الميثاق على ذلك عن هذه الوحدة، واتخذ الدين آلة للتفريق والعدوان، ولم يؤمن بالنبي المتأخر المصدِّق لمن تقدمه، ولم ينصره كأولئك الذين كانوا يجحدون نبوة محمد ﷺ ويؤذونه، فأولئك هم الفاسقون؛ أي: الخارجون من ميثاق اللَّه، الناقضون لعهده، وليسوا من دينه الحق في شيء. أقول: وهذا يؤكد أن الميثاق مأخوذ على الأمم»[1].

قال محمد بن عبد الوهاب: «وقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ﴾.. الآيتين؛ فيه ما هو من أبين الآيات للخاص والعام.

وكونه ﷺ مذكورًا مبَشرًا به في كتب الأنبياء. وفيه حجة على أن دعوته عامة في الظاهر والباطن. وفيه أن الإيمان به لا يكفي عن نصرته، بل لابد من هذا وهذا. وفيه أخذه تعالى الميثاق على الأنبياء بذلك دليل على شدته إلا على من يسّره اللَّه عليه. وفيه أن من آتاه اللَّه الكتاب والحكمة أحق بالانقياد للحق إذا جاء به من بعده، بخلاف ما عرف من حال الأكثر من ظنهم أنه لو اتبعه غيرهم فهو نقص في حقهم. وفيه مزيد التأكيد بقوله: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾. وفيه إشهادهم مع شهادته سبحانه، وفيه أن من تولى بعد ذلك فجرمه أكبر. وفيه أن الآخر مصدق لما معهم لا خالف له.

فإذا كان هذا في أهل الملل؛ فكيف بأهل الملة الواحدة إذا ضلوا، ثم جاءهم من يرشدهم إلى دينهم الذي أنزل اللَّه عليهم، وهو الذي ينتحلونه؟ فإن تولوا بعد معرفته فأولئك هم الفاسقون. فإن جمعوا مع التولي تكذيبه، وإن جمعوا مع التكذيب الاستهزاء، فإن جمعوا مع ذلك عداوته الشديدة، فإن أضافوا إلى ذلك تكفير من صدّق كتابهم ونبيهم، واستحلال دمه وماله، فإن أضافوا إلى ذلك كله اتباع دين المشركين أعداء نبيهم، ونصروه بما قدروا عليه، وبذلوا النفوس والأموال في نصرته وعداوة دين نبيهم، وإزالته من الأرض حتى لا يذكر فيها؛ فاللَّه المستعان. و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾[2]»[3].

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٥٤). (٢) الأعراف: الآية (٤٣).

(٣) تفسير آيات من القرآن الكريم (٦٠-٦١).

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

طوعًا: انقيادًا.

كرهًا: إجبارًا من قولك: أكرهته على الأمر: إذا أجبرته عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال شيخ الإسلام: «فذكر إسلام الكائنات طوعًا وكرهًا؛ لأن المخلوقات جميعها متعبدة له التعبد العام، سواء أقر المقر بذلك أو أنكره وهم مدينون مدبرون؛ فهم مسلمون له طوعًا وكرهًا، ليس لأحد من المخلوقات خروج عما شاءه وقدره وقضاه، ولا حول ولا قوة إلا به، وهو رب العالمين، ومليكهم يصرفهم كيف يشاء، وهو خالقهم كلهم وبارئهم ومصورهم، وكل من سواه فهو مربوب، مصنوع، ومفطور، فقير، محتاج، معبد، مقهور، وهو الواحد القهار الخالق الباري المصور»[1].

قال ابن كثير: «يقول تعالى منكرًا على من أراد دينا سوى دين اللَّه الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، وهو عبادة اللَّه وحده لا شريك له، الذي ﴿لَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: استسلم له من فيهما طوعًا وكرهًا، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾[2] الآية وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ۩﴾[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٠٠).

(٢) الرعد: الآية (١٥).

(٣) النحل الآيات (٤٨-٥٠).

فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهًا، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم، الذي لا يخالف، ولا يمانع»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل**»(٢).

★ فوائد الحديث:

عجب الله: العجب صفة ثابتة لله تعالى بأدلة القرآن والسنة وأقوال السلف الصالح، على الوجه الذي يليق به تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(٣).

وانظر بقية الكلام على هذه الصفة في تفسير سورة الصافات، تحت الآية: (١٢).

قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المراد بكون السلاسل في أعناقهم مقيد بحالة الدنيا، فلا مانع من حمله على حقيقته، والتقدير: يدخلون الجنة. وكانوا قبل أن يسلموا في السلاسل وسيأتي في تفسير آل عمران من وجه آخر عن أبي هريرة في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٤) قال: «**خير الناس للناس يأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام**»(٥)»(٦).

قال ابن الجوزي: «المعنى أنهم يحملون على الإسلام بالكره، وعلى هذا يحتمل ذكر الجنة وجهين: أحدهما: أن يكون المراد بالجنة الإسلام؛ لأن مآل الداخل فيه إلى الجنة، فسمي بها. والثاني: أن يكون المعنى أنهم أكرهوا على الإسلام، فلو بقوا على كراهتهم للإسلام لم يدخلوا الجنة، وكان السبب الإكراه في الأول»(٧).

---

(١) التفسير (٢/ ٥٧).

(٢) أحمد (٢/ ٣٠٢) والبخاري (٦/ ١٧٩/ ٣٠١٠) وأبو داود (٣/ ١٢٧/ ٢٦٧٧).

(٣) الشورى: الآية (١١).

(٤) آل عمران: الآية (١١٠).

(٥) البخاري (٨/ ٢٨٤/ ٤٥٥٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٣/ ١١٠٧١).

(٦) الفتح (٦/ ١٧٩).

(٧) كشف المشكل (٣/ ٥٤١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الأسباط: جمع سبط وهو ولد الولد. والمراد هنا: قبائل بني إسرائيل من أولاد يعقوب بن إسحاق عليه السلام.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «المؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل، لا يكفرون بشيء من ذلك بل هم مصدقون بما أنزل من عند اللَّه وبكل نبي بعثه الله»[1].

قال الرازي: «قدم الإيمان باللَّه على الإيمان بالأنبياء؛ لأن الإيمان باللَّه أصل الإيمان بالنبوة، وفي المرتبة الثانية ذكر الإيمان بما أنزل عليه؛ لأن كتب سائر الأنبياء حرفوها وبدلوها فلا سبيل إلى معرفة أحوالها إلا بما أنزله اللَّه على محمد ﷺ، فكان ما أنزل على محمد كالأصل لما أنزل على سائر الأنبياء فلهذا قدمه عليه، وفي المرتبة الثالثة ذكر بعض الأنبياء وهم الأنبياء الذين يعترف أهل الكتاب بوجودهم، ويختلفون في نبوتهم.. أوجب اللَّه تعالى الإقرار بنبوة كل الأنبياء عليهم السلام لفوائد: إحداها: إثبات كونه عليه السلام مصدقًا لجميع الأنبياء؛ لأن هذا الشرط كان معتبرا في أخذ الميثاق. وثانيها: التنبيه على أن مذاهب أهل الكتاب متناقضة، وذلك لأنهم إنما يصدقون النبي الذي يصدقونه لمكان ظهور المعجزة عليه، وهذا يقتضي أن كل من ظهرت المعجزة عليه كان نبيًّا، وعلى هذا يكون تخصيص البعض بالتصديق والبعض بالتكذيب متناقضًا، بل الحق تصديق الكل والاعتراف بنبوة

(١) التفسير (٢/ ٥٨).

الكل. وثالثها: إنه قال قبل هذه الآية ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهذا تنبيه على أن إصرارهم على تكذيب بعض الأنبياء إعراض عن دين اللَّه ومنازعة مع اللَّه، فههنا أظهر الإيمان بنبوة جميع الأنبياء، ليزول عنه وعن أمته ما وصف أهل الكتاب به من منازعة اللَّه في الحكم والتكليف. ورابعها: أن في الآية الأولى ذكر أنه أخذ الميثاق على جميع النبيين، أن يؤمنوا بكل من أتى بعدهم من الرسل، وههنا أخذ الميثاق على محمد ﷺ بأن يؤمن بكل من أتى قبله من الرسل، ولم يأخذ عليه الميثاق لمن يأتي بعده من الرسل، فكانت هذه الآية دالة من هذا الوجه على أنه لا نبي بعده ألبتة»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «كما ختم آية دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام بقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2] جاء هنا بعد ذكر توليهم عن الإسلام يأمرنا بالإقرار به، فقال مخاطبًا لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: آمنت أنا ومن معي بوجود اللَّه ووحدانيته وكماله ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ من كتابه بالتفصيل. وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾[3] الآية. وقد عُدّي الإنزال هناك بـ(إلى) الدالة على الغاية والانتهاء، وهنا بـ(على) التي للاستعلاء، وكلا المعنيين صحيح.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾؛ أي: وآمنا بما أنزل على هؤلاء بالإجمال؛ أي: صدقنا بأن اللَّه تعالى أنزل عليهم وحيا لهداية أقوامهم، وأنه موافق لما أنزل علينا في أصله وجوهره، والقصد منه كما أخبرنا اللَّه تعالى في مثل قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[4] إلخ السورة، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾[5] إلخ. وقوله: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[6] إلخ. وأما عين ما أوحي إليهم؛ فلم يبق منه في أيدي الأمم شيء يعتمد على نقله. ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة للأول والإنجيل للثاني ﴿وَ﴾ ما أوتي ﴿ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ كداود وسليمان وأيوب وغيرهم ممن لم يقص اللَّه علينا

---

(١) تفسير الرازي (٨/ ١٣٧).
(٢) آل عمران: الآية (٦٤).
(٣) البقرة: الآية (١٣٦).
(٤) الأعلى: الآية (١٤).
(٥) النجم: الآية (٣٦).
(٦) النساء: الآية (١٦٣).

خبرهم؛ فإن منهم من قصه علينا، ومنهم من لم يقصصه، فإذا ثبت عندنا أن نبيًّا ظهر في الهند أو الصين قبل ختم النبوة نؤمن به. .

قال الأستاذ الإمام: وقد قدم الإيمان بما أنزل علينا على الإيمان بما أنزل على من قبلنا مع كونه أنزل قبله في الزمن؛ لأن ما أنزل علينا هو الأصل في معرفة ما أنزل عليهم والمثبِت له، ولا طريق لإثباته سواه لانقطاع سند تلك، وفقْد بعضها، ووقوع الشك فيما بقي منها، فما أثبته كتابنا من نبوة كثير من الأنبياء نؤمن به إجمالًا فيما أجمل، وتفصيلًا فيما فصل، وما أثبته لهم من الكتب كذلك، ونؤمن بأن أصول ما جاؤوا به واحدة، وهي الإيمان باللَّه وإسلام القلوب له، والإيمان بالآخرة، والعمل الصالح مع الإخلاص. فكما أن الإيمان باللَّه أصل للإيمان بما أنزل علينا كذلك ما أنزل علينا أصل للإيمان بما أنزل عليهم، فقدّم عليه.

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ كما يفرق أهل الكتاب، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ولا نفرق بينهم في الدين؛ فنقول: بعضهم على حق وبعضهم على باطل، بل نقول: إنهم كانوا جميعًا على الحق لا خلاف بينهم في الأصول والمقاصد. .

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ منقادون بالرضى والإخلاص، منصرفون عن أهوائنا وشهواتنا في الدين، لا نتخذه جنسية لأجل حظوظ الدنيا، وإنما نبتغي به التقرب إليه تعالى بإصلاح النفوس، وإخلاص القلوب، والعروج بالأرواح إلى سماء الكرامة والفلاح.

افتتح الآية بذكر الإيمان، وختمها بالإسلام الذي هو في كماله ثمرته وغايته، وهذا هو الإسلام الديني الذي كان عليه جميع الأنبياء»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٥٦-٣٥٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما قال في آخر الآية المتقدمة ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أتبعه بأن بين في هذه الآية أن الدين ليس إلا الإسلام، وأن كل دين سوى الإسلام فإنه غير مقبول عند اللَّه؛ لأن القبول للعمل هو أن يرضى اللَّه ذلك العمل، ويرضى عن فاعله ويثيبه عليه، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[1] ثم بين تعالى أن كل من له دين سوى الإسلام فكما أنه لا يكون مقبولًا عند اللَّه، فكذلك يكون من الخاسرين، والخسران في الآخرة يكون بحرمان الثواب، وحصول العقاب، ويدخل فيه ما يلحقه من التأسف والتحسر على ما فاته في الدنيا من العمل الصالح وعلى ما تحمله من التعب والمشقة في الدنيا في تقريره ذلك الدين الباطل»[2].

قال محمد تقي الدين الهلالي: «دين اللَّه الذي لا يقبل من أحد سواه بعد بعثة محمد ﷺ هو الإسلام، والإسلام الصحيح الذي يسعد صاحبه في الدنيا والآخرة، هو الإسلام النقي لله تعالى إيمانًا وعبادة وإخلاصًا، فلا يتوجه العبد إلى غيره لطلب نفع أو لدفع ضر، ولا يتحاكم إلا إلى شرعه، ولا يرضى إلا به، أما الإسلام الظاهر وهو الانقياد للإسلام ظاهرا مع إضمار الانحراف والتكذيب، فهو دين المنافقين، وهم في الدرك الأسفل من النار، وكذلك الإسلام الذي يشرك صاحبه باللَّه تعالى في عبادته بالدعاء والاستغاثة، والذبح، والنذر، والتوكل، والخوف، والرجاء، إلى غير ذلك من أنواع العبادات، فإنه لا ينفع صاحبه ولا ينجيه من الخلود في نار جهنم، كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[3]، وقوله تعالى في سورة

---

(١) المائدة: الآية (٢٧).

(٢) تفسير الرازي (٨/ ١٣٩).

(٣) المائدة: الآية (٧٢).

النساء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[(١)]»[(٢)].

قلت: رحمة اللَّه على شيخنا وابن بلدنا وإمامنا أبي شكيب محمد تقي الدين الهلالي على هذا التوضيح الطيب، الذي بين فيه حقيقة الإسلام، وأنه إخلاص التوحيد للَّه وإخلاص المتابعة لرسول اللَّه ﷺ، فلا يقبل اللَّه من العباد سوى ذلك، فمن أشرك معه غيره في نقير أو قطمير، ومن طلب التحاكم إلى غير شرعه في جليل أو حقير؛ فقد ابتغى غير الإسلام دينًا، فنرجو اللَّه أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، وأن يوفقنا لحصر حكمنا ومتابعتنا لنبيه وشرعه، إنه سميع مجيب.

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾؛ لأن الدين إذا لم يكن هو الإسلام الذي بيّنا معناه آنفا؛ فما هو إلا رسوم وتقاليد يتخذها القوم رابطة للجنسية، وآلة للعصبية، ووسيلة للمنافع الدنيوية، وذلك مما يزيد القلوب فسادًا، والأرواح إظلامًا، فلا يزيد الناس في الدنيا إلا عدوانًا، وفي الآخرة إلا خسرانًا، ولذلك قال: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾؛ أي: أنه يكون هنالك خاسرًا للنعيم المقيم، في جوار الرب الرحيم؛ لأنه خسر نفسه إذ لم يزكها بالإسلام لله، وإخلاص السريرة له -جل علاه-، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[(٣)] في الدين، ويزعمون أنه مناط النجاة ووسيلة الفوز والسعادة، إذ يهوَوْن أن يسعدوا بغيرهم من الأنبياء والأولياء، وإن خسروا أنفسهم بسلوك سبل الشقاء ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾[(٤)]»[(٥)].

قلت: ما قاله الشيخ محمد رشيد رضا في هذا التوجيه للآية، وأن الدين إذا أصبح جنسية وعصبية؛ فإن أمواج الفتن ستموج بالعباد؛ فتن الاختلاف والتعصب والقومية والوطنية والمصالح الشخصية والمناصب العليا والوظائف الثرية

---

(١) النساء: الآية (٤٨).

(٢) سبيل الرشاد (١/ ١٢١-١٢٢).

(٣) الأعراف: الآية (٥٣).

(٤) الزمر: الآيتان (١٤-١٥).

(٥) تفسير المنار (٣/ ٣٥٨).

والمراكب الفخمة والتجمعات الرسمية التي ظاهرها فوز وحلاوة، وباطنها فسوق وعصيان، وهكذا لا تسأل عن المساوئ التي لا حصر لها إذا أصبح الدين رابطة جنسية ووحدة إقليمية ووطنية أو قومية أو شعوبية، فإن الدين كله للَّه، وهو لأهل الأرض كلهم، لا فرق بينهم؛ فعبادتهم واحدة، وعقيدتهم واحدة، ومنهاجهم واحد، وسلوكهم واحد، وقبلتهم واحدة، وليس لهم إلا عيدي الأضحى والفطر، وليس لهم إلا حج بيت اللَّه الحرام، وليس لهم إلا رمضان في فرضية الصيام، وليس لهم إلا وقفة عرفة واحدة، وموسم واحد، وما سوى ذلك بدع وشرك وضلال.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان مراتب الدين وذم الابتداع

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ رسول اللَّه ﷺ يوما بارزا للناس، فأتاه رجل. فقال: يا رسول اللَّه ما الإيمان؟ قال: «**أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر**» قال: يا رسول اللَّه، ما الإسلام؟ قال: «**الإسلام أن تعبد اللَّه ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان**» قال: يا رسول اللَّه، ما الإحسان؟ قال: «**أن تعبد اللَّه كأنك تراه فإنك إن لا تراه فإنه يراك**» قال: يا رسول اللَّه، متى الساعة؟ قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها، إذا ولدت الأمة ربها فذاك من أشراطها، وإذا كانت العراة الحفاة رءوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاء البهم في البنيان فذاك من أشراطها. في خمس لا يعلمهن إلا الله**» ثم تلى ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾[1]. قال: ثم أدبر الرجل. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ردوا علي الرجل**» فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئًا. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم**»[2].

---

(١) لقمان: الآية (٣٤).

(٢) أحمد (٢/ ٤٢٦) والبخاري (١/ ١٥٣/ ٥٠) ومسلم (١/ ٣٩/ ٩) وابن ماجه (١/ ٢٥/ ٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه من حديث أبي ذر وأبي هريرة: النسائي (٨/ ٤٧٥-٤٧٦/ ٥٠٠٦) وأبو داود (٥/ ٧٤/ ٤٦٩٨) مختصرا.

★ **غريب الحديث:**

بارزا: أي: ظاهرًا لهم غير محتجب عنهم ولا ملتبس بغيره، والبروز الظهور.

الإحسان: هو مصدر. تقول: أحسنت كذا إذا أتقنته، وأحسنت إلى فلان إذا أوصلت إليه النفع. والمقصود: إتقان العبادة.

أشراطها: علاماتها وأماراتها.

ولدت الأَمَة ربها: أي: سيدها ومالكها؛ أي: تكون الأم أمة عند ابنها الذي يملكها.

تطاول: تفاخروا في تطويل البنيان وتكاثروا به.

البهم: صفة للرعاة؛ أي: أنهم مجهولو الأنساب.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا الحديث قد اشتمل على أصول الدين ومهماته وقواعده، ويدخل فيه الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة، فجميع علوم الشريعة ترجع إليه من أصول الإيمان والاعتقادات ومن شرائع الإسلام العملية بالقلوب والجوارح ومن علوم الإحسان ونفوذ البصائر في الملكوت. وقد قيل: إنه يصلح أن يسمى (أم السنة) لرجوعها كلها إليه كما تسمى الفاتحة (أم الكتاب) و(أم القرآن) لمرجعه إليها»[(١)].

بوب البخاري على هذا الحديث بقول: «باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة وبيان النبي ﷺ له، ثم قال: «**جاء جبريل** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **يعلمكم دينكم**»، فجعل ذلك كله دينًا، وما بين النبي ﷺ لوفد عبد القيس من الإيمان، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[(٢)]»[(٣)].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «تبويب البخاري هاهنا واستدلاله وتقريره يدل على أنه يرى أن مسمى الإيمان والإسلام واحد؛ فإن قرر أن النبي ﷺ أجاب جبريل عن سؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلم الساعة، ثم قال: «**هذا جبريل**

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٢١-٢٢٢).
(٢) آل عمران: الآية (٨٥).
(٣) البخاري (١/ ١٥٣) الفتح.

جاء يعلمكم دينكم» فجعله كله دينًا، والدين هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ وكذلك قوله ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1] وأكد ذلك بأن في حديث وفد عبد القيس أنهم سألوا النبي ﷺ عن الإيمان فأجابهم بما أجاب به جبريل عن سؤاله عن الإسلام؛ فدل على أن الإسلام والإيمان واحد. وهذا قول محمد بن نصر المروزي وابن عبد البر وغيرهما.

وأما من فرق بين الإسلام والإيمان -وهم أكثر العلماء من السلف ومن بعدهم- حتى قيل: إنه لا يعلم عن السلف في ذلك خلاف فأظهر الأجوبة عما ذكره البخاري: أن الإسلام والإيمان تختلف دلالته بالإفراد والاقتران؛ فإن أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، فلذلك فسر النبي ﷺ الإيمان المسئول عنه مفردا في حديث وفد عبد القيس بما فسر به الإسلام في حديث جبريل الذي قرن فيه الإسلام بالإيمان. وإن اقترنا كان هذا له معنى وهذا له معنى.

وبكل حال: فالأعمال داخلة في مسمى الإيمان، لا يختلفون في ذلك»[2].

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**» وفي رواية: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[3].

★ **غريب الحديث:**

أحدث: اخترع.

في أمرنا: في ديننا، وشريعتنا.

رد: مردود، لا يلتفت إليه ولا يعمل به.

★ **فوائد الحديث:**

قال الشاطبي: «هذا الحديث عده العلماء ثلث الإسلام؛ لأنه جمع وجوه المخالفة لأمره عليه السلام، ويستوي في ذلك ما كان بدعة أو معصية»[4].

---

(١) آل عمران: الآية (١٩). (٢) فتح الباري (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٣) أحمد (٦/ ٢٤٠) والبخاري (٥/ ٣٧٧/ ٢٦٩٧) ومسلم (٣/ ١٣٤٣/ ١٧١٨«١٧») وأبو داود (٥/ ١٢/ ٤٦٠٦) وابن ماجه (١/ ٧/ ١٤). وأخرجه بلفظ: «**من عمل عملًا**..» أحمد (٦/ ١٤٦ و١٨٠) ومسلم (٣/ ١٣٤٣-١٣٤٤/ ١٧١٨«١٨») والبخاري تعليقا في كتاب الاعتصام (١٣/ ٣٩١).

(٤) الاعتصام (١/ ٩٢).

قال الحافظ ابن حجر: «وهذا الحديث معدود من أصول الإسلام وقاعدة من قواعده، فإن معناه من اخترع في الدين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يلتفت إليه. قال النووي: هذا الحديث مما ينبغي أن يعتنى بحفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به كذلك. وقال الطرقي: هذا الحديث يصلح أن يسمى نصف أدلة الشرع؛ لأن الدليل يتركب من مقدمتين، والمطلوب بالدليل إما إثبات الحكم أو نفيه، وهذا الحديث مقدمة كبرى في إثبات كل حكم شرعي ونفيه؛ لأن منطوقه مقدمة كلية في كل دليل ناف لحكم، مثل أن يقال في الوضوء بماء نجس هذا ليس من أمر الشرع، وكل ما كان كذلك فهو مردود فهذا العمل مردود فالمقدمة الثانية ثابتة بهذا الحديث، وإنما يقع النزاع في الأولى. ومفهومه أن من عمل عملا عليه أمر الشرع فهو صحيح، مثل أن يقال في الوضوء بالنية هذا عليه أمر الشرع وكل ما كان عليه أمر الشرع فهو صحيح، فالمقدمة الثانية ثابتة بهذا الحديث والأولى فيها النزاع فلو اتفق أن يوجد حديث يكون مقدمة أولى في إثبات كل حكم شرعي ونفيه لاستقل الحديثان بجميع أدلة الشرع، لكن هذا الثاني لا يوجد فإذا حديث الباب نصف أدلة الشرع، والله أعلم»[1].

* * *

---

(١) الفتح (٥/ ٣٧٩).

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

البينات: الحجج الواضحة.

لعنة الله: اللعن الطرد والإبعاد من رحمة الله.

ينظرون: يؤخرون عن الوقت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «قال الزجاج: أعلم الله ﷻ أنه لا جهة لهدايتهم؛ لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم؛ لأنهم كفروا بعد البينات، ومعنى كيف يهديهم؛ أي: أنه لا يهديهم؛ لأن القوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه، وكفروا عمدًا، فمن أين تأتيهم الهداية؟! فإن الذي ترتجى هدايته من كان ضالًّا ولا يدري أنه ضال بل يظن أنه على هدى، فإذا عرف الهدى اهتدى، وأما من عرف الحق وتيقنه وشهد به قلبه، ثم اختار الكفر والضلال عليه، فكيف يهدي الله مثل هذا؟!»[1].

قال القرطبي: «ظاهر الآية: أن من كفر بعد إسلامه لا يهديه الله، ومن كان ظالمًا لا يهديه الله، وقد رأينا كثيرًا من المرتدين قد أسلموا وهداهم الله، وكثيرًا من الظالمين تابوا من الظلم، قيل: معناه: لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم ولا يُقْبِلُون على الإسلام، فأما إذا أسلموا وتابوا فقد وفقهم الله

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٢٤).

لذلك. ويدخل في الآية بالمعنى كل من راجع الإسلام وأخلص»[(١)].

قال ابن جرير: «فتأويل الآية إذًا: ﴿كَيْفَ يَهْدِى اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾؛ يعني: كيف يُرشد اللَّه للصواب ويوفّق للإيمان، قومًا جحدُوا نبوّة محمد ﷺ ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾؛ أي: بعد تصديقهم إياه، وإقرارهم بما جاءَهم به من عند ربه ﴿وَشَهِدُوٓا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾، يقول: وبعد أن أقرّوا أن محمدًا رسول اللَّه ﷺ إلى خلقه حقًّا ﴿وَجَآءَهُمُ الْبَيِّنَٰتُ﴾؛ يعني: وجاءهم الحجج من عند اللَّه والدلائلُ بصحة ذلك؟

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ﴾، يقول: واللَّه لا يوفّق للحق والصّواب الجماعة الظَّلمة، وهم الذين بدّلوا الحق إلى الباطل، فاختارُوا الكفر على الإيمان. وقد دللنا فيما مضى قبل على معنى الظلم، وأنه وضعُ الشيء في غير موضعه، بما أغنى عن إعادته.

﴿أُولَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ﴾؛ يعني: هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم، وبعد أن شهدوا أن الرسول حَقّ ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ ثوابهم من عملهم الذي عملوه ﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالنَّاسِ﴾؛ يعني: أن يحلّ بهم من اللَّه الإقصاء والبعد، ومن الملائكة والناس الدعاءُ بما يسوؤهم من العقاب ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ يعني: من جميعهم، لا من بعض من سمَّاه -جل ثناؤه- من الملائكة والناس، ولكن من جميعهم. وإنما جعل ذلك -جل ثناؤه- ثواب عملهم؛ لأن عملهم كان باللَّه كفرًا. وقد بينا صفة لعنة الناس الكافرَ في غير هذا الموضع، بما أغنى عن إعادته.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ يعني: ماكثين فيها؛ يعني: في عقوبة اللَّه ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾، لا ينقصون من العذاب شيئًا في حال من الأحوال، ولا ينفَّسون فيه ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ يعني: ولا هم ينظرون لمعذرة يعتذرون. وذلك كله عَينُ الخلود في العقوبة في الآخرة.

ثم استثنى -جل ثناؤه- الذين تابوا، من هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم فقال -تعالى ذكره-: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾؛ يعني: إلا الذين تابوا من بعد ارتدادهم عن إيمانهم، فراجعوا الإيمانَ باللَّه وبرسوله، وصدقوا بما جاءهم به نبيهم ﷺ من عند ربهم، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾؛ يعني: وعملوا الصالحات من الأعمال، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ يعني: فإن اللَّه لمن فعل ذلك بعد كفره غفور؛ يعني: ساتر عليه ذنبه الذي

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٨٤).

كان منه من الردة، فتارك عقوبته عليه، وفضيحته به يوم القيامة، غير مؤاخذه به إذا مات على التوبة منه رحيم متعطف عليه بالرحمة»[١].

قال ابن كثير: «وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ فهو استبعاد لهداية هؤلاء.. ووجه الاستبعاد: أن سنة اللّه تعالى في هداية البشر إلى الحق هي أن يقيم لهم الدلائل والبينات مع عدم الموانع من النظر فيها على الوجه الذي يؤدي إلى المطلوب، وكل ذلك قد كان لهؤلاء، ولذلك آمنوا من قبل ﴿وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ ثم كفروا مكابرة لأنفسهم، ومعاندة للرسول حسدًا له وبغيًا عليه. أو المعنى: بأي كيفية تكون هداية من كفروا بعد إيمانهم، والحال أنهم قد شهدوا أن الرسول حق، وجاءهم البينات التي تَبين بها الحق من الباطل، والرشد من الغي، ولم يغن عنهم ذلك شيئًا لغلبة العناد والاستكبار على نفوسهم، والحسد والبغي على قلوبهم، فكانوا بذلك ظالمين لأنفسهم باستحباب العمى على الهدى ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ أي: مضت سنته بأن الظالم لا يكون مهتديًا.

وقال الأستاذ الإمام: في تفسير الآية طريقتان: إحداهما: شهادتهم بأن الرسول حق، هي أنهم كانوا يعرفون بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ، وكانوا عازمين على اتباعه، إذا جاء في زمنهم، وانطبقت عليه العلامات، وظهرت فيه البشارات، ثم إنهم كفروا به وعاندوه بعد مجيئهم بالبينات لهم وظهور الآيات على يديه، واللّه لا يهدي أمثال هؤلاء الظالمين لأنفسهم والجانين عليها. ووضع الوصف ﴿ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ مكان الضمير لبيان سبب الحرمان من الهداية، فإن الظلم هو العدول عن الطريق الذي يجب سلوكه لأجل الوصول إلى الحق في كل شيء بحسبه، فذكره من قبيل ذكر الدليل على الشيء بعد ادعائه، وما كان من تنكّب هؤلاء باختيارهم لطريق الحق، وهو العقل وهدي النبوة بعد ما عرفوه بالبينات هو نهاية الظلم. قال:

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٥٧٦-٥٧٨ شاكر).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٧١).

والهداية هنا هي التي أمرنا بطلبها في سورة الفاتحة، وهي الإيصال إلى الحق؛ لأن سائر معاني الهداية عام لهم ولغيرهم.

والطريقة الثانية: هي أنهم كفروا بعد ما سبق لهم من الإيمان بالرسل، فالرسول على هذا القول للجنس، وجاءهم البينات على ألسنتهم، وذلك بتركهم ما اتفق عليه أولئك الرسل من التوحيد الخالص وإسلام الوجه لله، وإخلاصه له بالبراءة من حظوظ النفس وأهوائها في الدين، واستبدالهم بهذه الهداية ما وضعوا لأنفسهم من التقاليد والبدع. وحاصل المعنى على هذه الطريقة: كيف ترجو يا محمد هداية هؤلاء المعاندين لك ظنًّا أن معرفتهم بالكتاب والإيمان جعلتهم أقرب الناس إلى معرفة حقيقة ما جئت به بعد ما علمت من كفرهم بحقيقة ما كانوا عليه من الإسلام بنقضهم الميثاق وتحريفهم الكلم.

أقول: والكلام على هذه الطريقة مبني على اعتبار الأمة كالشخص لتكافلها كما قرره مرارًا، فالمراد بكفرهم بعد إيمانهم كفر مجموع الحاضرين وأمثالهم بعد إيمان مجموع سلفهم، لا أن كل واحد من الكافرين كان مؤمنًا ثم كفر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ قال الأستاذ الإمام: لعنة اللَّه عبارة عن سخطه، ولعنة الملائكة والناس إما سخطهم وهو الظاهر هنا، وإما الدعاء عليهم باللعنة؛ أي: أنهم متى ما عرفوا حالهم فإنهم يلعنونهم. . ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾؛ أي: في اللعنة؛ أي: يكونون مطرودين أو مسخوطًا عليهم إلى الأبد، أو في أثرها وهو عذاب جهنم ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الذي هو من لوازمها؛ لأن علته ما تكيفت به نفوسهم الظالمة، وهي معهم لا تفارقهم، والشيء يدوم بدوام علته ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ من الإنظار وهو التأخير والإمهال ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾ من ذنبهم وتابوا إلى ربهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ الظلم الذي دنسوا أنفسهم فتركوه مستقبحين له، نادمين على ما أصابوا منه ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾ أعمالهم بما صار للإيمان الراسخ من السلطان على نفوسهم، والتصريف لإرادتهم، أو أصلحوا نفوسهم بالأعمال الصالحة التي تمدّ الإيمان وتغذيه، وتمحو من لوح القلب تلك الصفات الذميمة، وتثبت فيه أضدادها ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ فينالهم من مغفرته ما يزكي نفوسهم بمقتضى سننه، ويصيبهم من رحمته ما يؤهلهم لدخول جنته»[1].

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٦٢-٣٦٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وفي قتل المرتد وتوبته

* عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: أُتِيَ عَلِيٌّ رضي الله عنه بِزَنَادِقَةٍ فَأَحْرَقَهُمْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أحرقهم لِنَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ**»، وَلَقَتَلْتُهُمْ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ**»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قال الإمام مالك: «. . . ولم يَعْنِ بذلك -فيما نرى واللَّه أعلم- من خرج من اليهودية إلى النصرانية، ولا من النصرانية إلى اليهودية، ولا من يغير دينه من أهل الأديان كلها إلا الإسلام، فمن خرج من الإسلام إلى غيره، وأظهر ذلك، فذلك الذي عني به، واللَّه أعلم»(٢).

وقال ابن العربي: «قلنا إنما معنى الحديث من بدل دينه الحق لم يرد سواه، والدليل عليه أنه لو رجع الإنسان من النصرانية إلى الإسلام لم يقتل وإن كان بدل دينه لأنه بدل دينه الباطل، ونحن لم نعاهدهم على صحة دينهم، إنما عاهدناهم ألا نعرض لهم»(٣).

وقال ابن عبد البر: «وفقه هذا الحديث أن من ارتد عن دينه حل دمه، وضربت عنقه، والأمة مجتمعة على ذلك. . [إلى أن قال]: ولا أعلم بين الصحابة خلافًا في استتابة المرتد، فدل ذلك على أن معنى الحديث واللَّه أعلم: من بدل دينه وأقام على تبديله فاقتلوه»(٤).

قال ابن هبيرة: «فيه أن الزنادقة قد بدلوا دين اللَّه، فكل من ينكر البعث فحكمه حكم الزنديق»(٥).

قال الحافظ: «. . . واستدل به على قتل المرتدة كالمرتد، وخصه الحنفية

---

(١) أحمد (١/ ٢١٧) والبخاري (١٢/ ٣٣١/ ٦٩٢٢) وأبو داود (٤/ ٥٢٠-٥٢٢/ ٤٣٥١) والترمذي (٤/ ٤٨/ ١٤٥٨) والنسائي (٧/ ١٢٠/ ٤٠٧١) وابن ماجه (٢/ ٨٤٨/ ٢٥٣٥) مختصرا.

(٢) الموطأ (٢/ ٧٣٦).

(٣) القبس (٣/ ٩١٠).

(٤) التمهيد: فتح البر (١/ ٢٣٦-٢٣٨).

(٥) الإفصاح (٣/ ١٩١).

بالذكر»(١).

قال ابن المنذر: «وإذا كان الكفر من أعظم الذنوب وأجل جرم اجترمه المسلمون من الرجال والنساء، ولله أحكام في كتابه، وحدود دون الكفر ألزمها عباده، منها الزنا والسرقة وشرب الخمر وحد القذف والقصاص وكانت الأحكام والحدود التي هي دون الارتداد لازمة للرجال والنساء مع عموم قوله ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**» فكيف يجوز أن يفرق أحد بين أعظم الذنوب فيطرحه عن النساء ويلزمهن ما دون ذلك؟ هذا غلط بين»(٢).

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث دليل على أن الحدود لا تستوفى بالنار فإن رأى الإمام أن اعتماد ذلك يزيد الإمام فخامة في قلوب الزائغين، فقد روي أن أبا بكر رضي الله عنه قذف بعض أهل الردة في النار»(٣).

قال المهلب: «ليس نهيه عليه السلام عن التحريق بالنار على معنى التحريم، وإنما هو على سبيل التواضع لله، وأن لا يتشبه بغضبه في تعذيب الخلق؛ إذ القتل يأتي على ما يأتي عليه الإحراق.

والدليل على أنه ليس بحرام: سمل الرسول عين العرنيين بالنار في مصلى المدينة بحضرة الصحابة(٤). وتحريق علي بن أبي طالب الخوارج بالنار، وأكثر علماء المدينة يجيزون تحريق الحصون على أهلها بالنار، وقول أكثرهم بتحريق المراكب، وهذا كله يدل أن معنى الحديث على الحض والندب لا على الإيجاب والفرض، والله أعلم»(٥).

قال الحافظ: «وقال ابن المنير وغيره: لا حجة فيما ذكر للجواز؛ لأن قصة العرنيين كانت قصاصا أو منسوخة وتجويز الصحابي معارض بمنع صحابي آخر، وقصة الحصون والمراكب مقيدة بالضرورة إلى ذلك إذا تعين طريقًا للظفر بالعدو،

(١) الفتح (١٢/ ٣٣٧).
(٢) انظر شرح صحيح البخاري لابن بطال (٨/ ٥٧٣-٥٧٤).
(٣) الإفصاح (٣/ ١٩١).
(٤) يشير إلى الحديث الذي أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٧)، والبخاري (٨/ ٢٧٣/ ٤٦١٠)، ومسلم (٣/ ١٢٩٦/ ١٦٧١)، وأبو داود (٤/ ٥٣١-٥٣٢/ ٤٣٦٤-٤٣٦٥)، والنسائي (٤/ ١٠٨/ ٤٠٣٦)، والترمذي (١/ ١٠٦/ ٧٢).
(٥) انظر شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/ ١٧٢).

ومنهم من قيده بأن لا يكون معهم نساء ولا صبيان»[١].

قلت: ما نقله الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن المنير وغيره وقرره هو الوسطية وأعدل الأقوال؛ فإن كانت الأمور على بابها، وكان الحد بقدرة الإمام أو نوابه، وليست هناك أية قرينة سابقة أو لاحقة توجب ما يدفع الإمام أو نائبه على التعزير زيادة على الحد؛ فينبغي التمسك بما حدده الله ورسوله في الحدود، ولا يتعداها إلى غيرها من زيادة تعذيب أو تنكيل، والله أعلم.

* عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: أَقْبَلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَعِي رَجُلَانِ مِنَ الْأَشْعَرِيِّينَ أَحَدُهُمَا عَنْ يَمِينِي وَالْآخَرُ عَنْ يَسَارِي، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَاكُ، فَكِلَاهُمَا سَأَلَ، فَقَالَ: «**يَا أَبَا مُوسَى أَوْ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ**»، قَالَ: قُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَطْلَعَانِي عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمَا، وَمَا شَعَرْتُ أَنَّهُمَا يَطْلُبَانِ الْعَمَلَ. فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى سِوَاكِهِ تَحْتَ شَفَتِهِ قَلَصَتْ، فَقَالَ: «**لَنْ -أَوْ لَا- نَسْتَعْمِلُ عَلَى عَمَلِنَا مَنْ أَرَادَهُ، وَلَكِنِ اذْهَبْ أَنْتَ يَا أَبَا مُوسَى -أَوْ يَا عَبْدَاللَّهِ بْنَ قَيْسٍ- إِلَى الْيَمَنِ**». ثُمَّ اتَّبَعَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ أَلْقَى لَهُ وِسَادَةً قَالَ: انْزِلْ فإِذَا رَجُلٌ عِنْدَهُ مُوثَقٌ، قَالَ: مَا هَذَا؟ قَالَ: كَانَ يَهُودِيًّا فَأَسْلَمَ ثُمَّ تَهَوَّدَ قَالَ اجْلِسْ قَالَ: لَا أَجْلِسُ حَتَّى يُقْتَلَ قَضَاءُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَأَمَرَ بِهِ فَقُتِلَ، ثُمَّ تَذَاكَرَا قِيَامَ اللَّيْلِ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَامُ وَأَرْجُو فِي نَوْمَتِي مَا أَرْجُو فِي قَوْمَتِي[٢].

★ غريب الحديث:

قلصت: تقبضت وقصرت، وكأن السواك كان فيه قبض، أو يكون النبي ﷺ قبض شفته ليتمكن من تسويك أسنانه[٣].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «اختلف العلماء في استتابة المرتد، فروي عن عمر بن الخطاب

---

(١) فتح الباري (٦/ ١٨٥-١٨٦).

(٢) أحمد (٤/ ٤٠٩) والبخاري (١٢/ ٣٣١-٣٣٢/ ٦٩٢٣) ومسلم (٣/ ١٤٥٦/ ١٧٣٣[١٥]) وأبو داود (٤/ ٥٢٣-٥٢٥/ ٤٣٥٤) والنسائي (١/ ١٦-١٧/ ٤).

(٣) المفهم (٤/ ١٧).

وعثمان وعلي وابن مسعود أنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وهو قول أكثر العلماء.

وقالت طائفة: لا يستتاب ويجب قتله حين يرتد في الحال، روي ذلك عن الحسن البصري وطاوس وذكره الطحاوي عن أبي يوسف، وبه قال أهل الظاهر، واحتجوا بقوله ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**» قالوا: ولم يذكر فيه ﷺ استتابة، وكذلك حديث معاذ وأبي موسى قتلوا المرتد بغير استتابة.

قال الطحاوي: جعل أهل هذه المقالة حكم المرتد حكم الحربيين إذا بلغتهم الدعوة أنه يجب قتالهم دون أن يؤذنوا قال: وإنما تجب الاستتابة لمن خرج عن الإسلام لا عن بصيرة منه، فأما إن خرج منه عن بصيرة فإنه يقتل دون استتابة.

قال أبو يوسف: إن بدر بالتوبة، خليت سبيله ووكلت أمره إلى اللَّه تعالى.

قال ابن القصار: والدليل على أنه يستتاب الإجماع، وذلك أن عمر بن الخطاب قال في المرتد: هلا حبستموه ثلاثة أيام، وأطعمتموه كل يوم رغيفا لعله يتوب فيتوب اللَّه عليه، اللهم لم أحضر ولم آمر، ولم أرض إذ بلغني.

ولم يختلف الصحابة في استتابة المرتد، فكأنهم فهموا من قوله ﷺ: «**من بدل دينه فاقتلوه**» أن المراد بذلك إن لم يتب، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾[1] فهو عموم في كل كافر.

وأما حديث معاذ وأبي موسى فلا حجة فيه لمن لم يقل بالاستتابة؛ لأنه روي أنه قد كان استتابه أبو موسى، روى أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا عباد بن العوام، عن سعيد، عن قتادة، عن حميد بن هلال: «**أن معاذًا أتى أبا موسى وعنده يهودي أسلم، ثم ارتد، وقد استتابه أبو موسى شهرين فقال: معاذ: لا أجلس حتى أضرب عنقه**»[2][3].

* عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم تندم، فأرسل إلى قومه سلوا لي رسول اللَّه ﷺ: هل لي من توبة؟ فجاء قومه إلى رسول اللَّه ﷺ فقالوا: إن فلانًا قد ندم، وإنه أمرنا أن نسألك هل له من توبة؟ فنزلت

---

(١) التوبة: الآية (٥).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (١٢/ ٢٦٢-٢٦٣/ ١٢٧٧٥). (٣) شرح البخاري (٨/ ٥٧١-٥٧٣).

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأرسل إليه فأسلم(١).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن قدامة: «وفي الجملة فالخلاف بين الأئمة في قبول توبتهم في الظاهر من أحكام الدنيا من ترك قتلهم وثبوت أحكام الإسلام في حقهم. وأما قبول اللَّه تعالى لها في الباطن وغفرانه لمن تاب وأقلع ظاهرًا وباطنًا فلا خلاف فيه فإن اللَّه تعالى قال في المنافقين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٢)»(٣).

قلت: هذه النصوص من الكتاب والسنة، وفهم العلماء لها في مختلف المذاهب والأقطار، ومختلف الأزمنة من عهد الصحابة إلى زماننا هذا، ترد على منكري هذا الحد في زماننا، والذين أعلنوا شبهًا استقوها من فكر أهل الاستشراق من يهود ونصارى، ومن منحرفين عن الإسلام، والذين يكرهونها كراهة اعتقاد، فعليهم من اللَّه ما يستحقون في نصرتهم مذاهب أهل الباطل وأعداء الإسلام، ولعل بعضهم ممن ينشر هذه الفتن وهذا الفكر الخبيث هم من أهل الردة، شعروا أو لم يشعروا، وبعضهم يظهر ذلك وهو منخرط في سلك المرتدين من شيوعيين وملاحدة واشتراكيين وعلمانيين، فلا غرابة في ما يصدر عنهم، فليحذر هؤلاء؛ فإنهم الغزاة المسلحون بكل أنواع الأسلحة لحرب الإسلام.

هذا وقول من قال بالاستتابة لمن لم يتعمق في الإسلام ولم يفهم أصوله وفروعه وغلب عليه الجهل والطيش والخفة؛ فهو الصواب إن شاء اللَّه.

وأما من تمكن في الإسلام ودرسه دراسة واسعة وفهم أصوله وفروعه؛ فهذا لا شك في عدم استتابته، واللَّه أعلم.

* * *

---

(١) أحمد (١/ ٢٤٧) والنسائي (٧/ ١٢٣/ ٤٠٧٩) والحاكم (٢/ ١٤٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وابن حبان (١٠/ ٣٢٩/ ٤٤٧٧).

(٢) النساء: الآية (١٤٦).

(٣) المغني (١٢/ ٢٧١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى متوعدًا ومتهددًا لمن كفر بعد إيمانه ثم ازداد كفرًا؛ أي: استمر عليه إلى الممات، ومخبرا بأنه لا يقبل لهم توبة عند مماتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[1]. ولهذا قال هاهنا: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾؛ أي: الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغيّ»[2].

قال ابن جرير: «وإنما قلنا: معنى ازديادهم الكفر ما أصابوا في كفرهم من المعاصي؛ لأنه -جل ثناؤه- قال: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ فكان معلوما أن معنى قوله ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إنما هو معني به: لن تقبل توبتهم مما ازدادوا من الكفر على كفرهم بعد إيمانهم، لا من كفرهم؛ لأن اللَّه -تعالى ذكره- وعد أن يقبل التوبة من عباده، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[3] فمحال أن يقول ﷻ أقبل ولا أقبل في شيء واحد، وإذ كان ذلك كذلك، وكان من حكم اللَّه في عباده أنه قابل توبة كل تائب من كل ذنب، وكان الكفر بعد الإيمان أحد تلك الذنوب التي وعد قبول التوبة منها بقوله ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4] علم أن المعنى الذي لا تقبل التوبة منه، غير المعنى الذي تقبل التوبة منه، وإذ كان ذلك كذلك فالذي لا تقبل منه التوبة هو الازدياد على الكفر بعد الكفر، لا يقبل اللَّه توبة صاحبه ما أقام على كفره؛ لأن اللَّه لا يقبل من مشرك عملًا ما أقام على شركه وضلاله،

---

(١) النساء: الآية (١٨).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٩).
(٣) الشورى: الآية (٢٥).
(٤) آل عمران: الآية (٨٩).

فأما إن تاب من شركه وكفره وأصلح، فإن اللَّه كما وصف به نفسه غفور رحيم»[١].

وقال الرازي: «وفي الآية مسألتان:

المسألة الأولى: اختلفوا فيما به يزداد الكفر، والضابط أن المرتد يكون فاعلًا للزيادة بأن يقيم ويصرّ فيكون الإصرار كالزيادة، وقد يكون فاعلًا للزيادة بأن يضم إلى ذلك الكفر كفرًا آخر، وعلى هذا التقدير الثاني ذكروا فيه وجوهًا الأول: أن أهل الكتاب كانوا مؤمنين بمحمد -عليه الصلاة والسلام- قبل مبعثه، ثم كفروا به عند المبعث، ثم ازدادوا كفرًا بسبب طعنهم فيه في كل وقت، ونقضهم ميثاقه، وفتنتهم للمؤمنين، وإنكارهم لكل معجزة تظهر. الثاني: أن اليهود كانوا مؤمنين بموسى عليه السلام، ثم كفروا بسبب إنكارهم عيسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفرًا، بسبب إنكارهم محمدًا -عليه الصلاة والسلام- والقرآن. والثالث: أن الآية نزلت في الذين ارتدوا وذهبوا إلى مكة، وازديادهم الكفر أنهم قالوا: نقيم بمكة نتربص بمحمد ﷺ ريب المنون. الرابع: المراد فرقة ارتدوا، ثم عزموا على الرجوع إلى الإسلام على سبيل النفاق، فسمى اللَّه تعالى ذلك النفاق كفرًا.

المسألة الثانية: أنه تعالى حكم في الآية الأولى بقبول توبة المرتدين، وحكم في هذه الآية بعدم قبولها وهو يوهم التناقض، وأيضًا ثبت بالدليل أنه متى وجدت التوبة بشروطها فإنها تكون مقبولة لا محالة، فلهذا اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ﴾ على وجوه:

الأول: قال الحسن وقتادة وعطاء: السبب أنهم لا يتوبون إلا عند حضور الموت واللَّه تعالى يقول: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾. الثاني: أن يحمل هذا على ما إذا تابوا باللسان ولم يحصل في قلوبهم إخلاص. الثالث: قال القاضي والقفال وابن الأنباري: أنه تعالى لما قدم ذكر من كفر بعد الإيمان، وبيّن أنه أهل اللعنة، إلا أن يتوب ذكر في هذه الآية أنه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة فإن التوبة الأولى تصير غير مقبولة، وتصير كأنها لم تكن، قال: وهذا الوجه أليق بالآية من سائر الوجوه؛ لأن التقدير: إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن اللَّه غفور رحيم، فإن كانوا كذلك ثم ازدادوا كفرًا لن

---

(١) جامع البيان (٦/ ٥٨٢ شاكر).

تقبل توبتهم. الرابع: قال صاحب «الكشاف»: قوله: ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ جعل كناية عن الموت على الكفر؛ لأن الذي لا تقبل توبته من الكفار هو الذي يموت على الكفر، كأنه قيل: إن اليهود والمرتدين الذين فعلوا ما فعلوا مائتون على الكفر داخلون في جملة من لا تقبل توبتهم. الخامس: لعلّ المراد ما إذا تابوا عن تلك الزيادة فقط؛ فإن التوبة عن تلك الزيادة لا تصير مقبولة ما لم تحصل التوبة عن الأصل.

وأقول: جملة هذه الجوابات إنما تتمشى على ما إذا حملنا قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا﴾ على المعهود السابق لا على الاستغراق، وإلا فكم من مرتد تاب عن ارتداده توبة صحيحة مقرونة بالإخلاص في زمان التكليف، فأما الجواب الذي حكيناه عن القفال والقاضي فهو جواب مطرد سواء حملنا اللفظ على المعهود السابق أو على الاستغراق»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «.. إن النفوس قد توغِلُ في الشر وتتمكن في الكفر حتى تحيط بها خطيئتها، وتصل إلى ما عبر عنه القرآن بالرين والطبع والختم على القلوب، فإذا كان صاحب هذه النفس قد جحد الحق عنادًا واستكبارًا وضل على علم؛ فلا يبعد أن تحدثه نفسه بالتوبة، وأن يحاولها ولكن يكون له في نفسه من الموانع والحوائل دون قبولها للخير والحق، ما يكون هو السبب لعدم قبولها؛ فإن قبول التوبة المستلزم لمغفرة ذنب التائب ليس من قبيل العطاء الجزاف والأمر الأنُف، وإنما يكون بموافقة سنن اللَّه في الفطرة الإنسانية، ذلك أن من مقتضى الفطرة السليمة أن يُحدث لها العلم بقبح الذنب وسوء عاقبته ألمًا يحملها على تركه ومحو أثره المدنس لها بعمل صالح يحدث فيها أثرًا مضادًّا لذلك الأثر، وبهذا تكون التوبة مُعِدة صاحبها ومؤهلة له للمغفرة التي هي ترك العقوبة على الذنب المترتب على محو سببه وهو تدنيس النفس وتدسيتها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[(٢)] فإذا بلغت التدسية من بعضها مبلغا يتعذر معه التزكية على مريدها أو محاولها صحّ أن يعبر عن ذلك بعدم قبول توبة صاحب هذه النفس، مثال ذلك:

---

(١) تفسير الرازي (٨/ ١٤٣-١٤٤).

(٢) الشمس: الآيتان (٩و١٠).

الثوب الأبيض الناصع يصيبه لوث فيستقبح ذلك صاحبُه، فيغسله فينظف، فإذا كان اللوث قليلا وبادر إلى غسله بُعيد طروئه يرجى أن يزول حتى لا يبقى له أثر، ولكن هذا الثوب إذا دس في الأقذار سنين كثيرة حتى تخللت جميع خيوطه، وتمكنت منها فاصطبغ بها صبغة جديدة ثابتة تعذر تنظيفه وإعادته إلى نصاعته الأولى. وبين هذه الدرجة وما قبلها درجات كثيرة. وقد أشير إلى الطرفين بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[١].

تلك حالة هذا الصنف من الهازئين بالدين المتقلبين في الكفر العريقين في الشر، ولذلك سجل عليهم الرسوخ في الضلال بصيغة القصر أو الحصر، فقال: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ المتمكنون من الضلال حتى كأنه محصور فيهم، وحسبك بضالّ لا ترجى هدايته، ولا تقبل توبته، ونعوذ باللَّه من الخذلان»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وبيان عدم قبول توبة المصِرّ على الكفر

* عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن قوما أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم، فذكروا ذلك لرسول اللَّه ﷺ فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾[٣].

تقدمت فوائد هذا الحديث في الآية التي قبل هذه، فلتنظر هناك.

* * *

---

(١) النساء: الآيتان (١٧و١٨).

(٢) تفسير المنار (٣٦٨-٣٦٩).

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٦٩) وعزاه للبزار وجود إسناده.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ملء: ملء الشيء مقدار ما يملؤه.

افتدى: من الفدى والفداء، وهو ما يدفعه الإنسان مقابل رفع الأذى عنه، ومنه فداء الأسير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: جحدوا نبوة محمد ﷺ ولم يصدقوا به وبما جاء به من عند اللَّه من أهل كل ملة، يهودها ونصاراها ومجوسها وغيرهم ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾؛ يعني: وماتوا على ذلك من جحود نبوته وجحود ما جاء به ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾، يقول: فلن يقبل ممن كان بهذه الصفة في الآخرة جَزَاءٌ ولا رِشْوةٌ على ترك عقوبته على كفره، ولا جُعْلٌ على العفو عنه، ولو كان له من الذهب قدرُ ما يملأ الأرضَ من مشرقها إلى مغربها، فرَشَا وَجزَى على ترك عقوبته وفي العفو عنه على كفره عوضًا مما اللَّه مُحلٌّ به من عذابه؛ لأنّ الرُّشا إنما يقبلها من كان ذَا حاجة إلى ما رُشي، فأما من له الدنيا والآخرة، فكيف يقبل الفدية، وهو خلَّاق كل فدية افتدَى بها مفتدٍ منْ نفسه أو غيره؟

ثم أخبر ﷻ عما لهم عنده فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ يعني: هؤلاء الذين كفروا وماتوا وهم كفار ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، يقول: لهم عند اللَّه في الآخرة عذابٌ موجع ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾؛ يعني: وما لهم من قريب ولا حميم ولا صديق ينصره، فيستنقذه من

اللَّه ومن عذابه كما كانوا ينصرونه في الدنيا على من حاول أذاه ومكروهه»[١].

قال ابن كثير: «من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدًا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قربة ثم ذكر حديث ابن جدعان الآتي بعد- وقال: وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضًا ذهبًا ما قبل منه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾[٢] وقال: ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾[٣] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٤] ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ فعطف ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة، واللَّه أعلم. ويقتضي ذلك أن لا ينقذه من عذاب اللَّه شيء، ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبًا، ولو افتدى نفسه من اللَّه بملء الأرض ذهبًا، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها»[٥].

قال الرازي: «اعلم أن الكافر على ثلاثة أقسام: أحدها: الذي يتوب عن الكفر توبة صحيحة مقبولة، وهو الذي ذكره اللَّه تعالى في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٦]. وثانيها: الذي يتوب عن ذلك الكفر توبة فاسدة وهو الذي ذكره اللَّه في الآية المتقدمة وقال: إنه لا تقبل توبته. وثالثها: الذي يموت على الكفر من غير توبة البتة، وهو المذكور في هذه الآية»[٧].

قال محمد رشيد رضا: «أما هؤلاء الذين يقيمون على الكفر وأعماله حتى يدركهم الموت على ذلك ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ إذا كان قد تصدق به في الدنيا؛ لأن الكفر يحبط كل عمل ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[٨] فهو لا يفيد في نجائهم من العذاب الآتي ذكره في الآية؛ لأن من لم ترتق روحه في الدنيا إلى درجة الإيمان الصحيح باللَّه واليوم الآخر؛ فإنها لا ترتقي في الآخرة من الهاوية التي تسمى النار والجحيم إلى درجة من الدرجات العلى التي

---

(١) جامع البيان (٦/ ٥٨٤-٥٨٥ شاكر).
(٢) البقرة: الآية (١٢٣).
(٣) إبراهيم: الآية (٣١).
(٤) المائدة: الآية (٣٦).
(٥) التفسير (٢/ ٥٩-٦٠).
(٦) آل عمران: الآية (٨٩).
(٧) تفسير الرازي (٨/ ١٤٥).
(٨) الفرقان: الآية (٢٣).

تكون في الجنة ﴿وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ في الآخرة على فرض أنه يملكه، بأن أراد أن يجعله جزاء نجاته والعفو عنه كما يفعل الناس مع الحكام الظالمين، فإنه لا يقبل منه أيضًا. قال تعالى في وعيد المنافقين: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾(١) بل لا تقبل الفدية من غيرهم أيضًا كما في آيات أخرى عامة، وليست علة ذلك ما قالوه من كون اللَّه تعالى غنيا عن الذهب وغيره مما يفتدى به، فإنه تعالى غني أيضًا عن إيمان الناس وأعمالهم، وإنما علته أنه تعالى لم يجعل أمر نجاة الناس من عذاب الآخرة ولا أمر فوزهم بنعيمها مما يكون بالأمور الخارجية كمَالٍ يُبذل، وعظيم ينفع، بل جعل ذلك أمرًا متعلقًا بأمر داخلي متعلقًا بجوهر النفس، فمن زكاها بالإيمان مع العمل الصالح أفلح، ومن دسّاها بالكفر والأعمال السيئة خاب وخسر»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن العقيدة الصحيحة شرط في قبول الأعمال

* عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ابْنُ جُدْعَانَ، كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «**لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**»(٣).

★ فوائد الحديث:

قال الإمام النووي: «معنى هذا الحديث: أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة لكونه كافرا هو معنى قوله ﷺ: «**لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**» أي: لم يكن مصدقًا بالبعث ومن لم يصدق به كافر ولا ينفعه عمل. قال القاضي عياض -رحمه اللَّه تعالى-: وقد انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب، لكن بعضهم أشد عذابًا من بعض بحسب جرائمهم. هذا آخر كلام القاضي»(٤).

---

(١) الحديد: الآية (١٥). (٢) تفسير المنار (٣/ ٣٦٩-٣٧٠).
(٣) أحمد (٦/ ١٢٠) ومسلم (١/ ١٩٦/ ٢١٤).
(٤) شرح مسلم (٣/ ٧٣).

* عَنْ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي**»[1].

★ غريب الحديث:

أهون: مِن وَهَن يهِن وهنا ضعف فهو واهن في الأمر والعمل والبدن. وأهون: أضعف وأقل وأيسر.

صلب: ظهر.

★ فوائد الحديث:

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الظاهر أن معناه: أن يقال له لو رددناك إلى الدنيا وكانت لك كلها أكنت تفتدي بها؟ فيقول نعم، فيقال له: كذبت قد سئلت أيسر من ذلك فأبيت ويكون هذا من معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[2] ولا بد من هذا التأويل ليجمع بينه وبين قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[3] أي لو كان لهم يوم القيامة ما في الأرض جميعًا، ومثله معه وأمكنهم الافتداء لافتدوا»[4].

قال ابن أبي جمرة: «(وأما قولنا) ما الحكمة في الكلام مع من هو أقل عذابًا منهم فهو إعلام لنا بتهويل الأمر وعظمه، فإنه إذا كان هذا حال من هو أقلهم عذابًا فما بالك بالذي هو أشدهم عذابًا لا يجد ما يفتدي به أن لو قيل فلا شيء يعدل ما هو فيه، وقد يمكن أنه لا يقدر أن يتكلم للهول الذي هو فيه وما يوافق هذا الحديث من الكتاب قوله ﷻ: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾[5]»[6].

(١) أحمد (٣/ ١٢٧) والبخاري (١١/ ٥٠٧-٥٠٨/ ٦٥٥٧) ومسلم (٤/ ٢١٦٠-٢١٦١/ ٢٨٠٥[٥١]).
(٢) الأنعام: الآية (٢٨).
(٣) الزمر: الآية (٤٧).
(٤) شرح مسلم (١٧/ ١٢٢).
(٥) المائدة: الآية (٣٦).
(٦) بهجة النفوس (٤/ ٢٢٢-٢٢٣).

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تنالوا: من النيل وهو إدراك الشيء ولحوقه.

البر: التوسع في فعل الخير. والمقصود هنا الجنة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يعني: لن تنالوا وتدركوا البر الذي هو اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، من أطيب أموالكم وأزكاها. فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها، ورقتها. ومن أول الدلائل على محبة اللَّه، وتقديم محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها.

فمن آثر محبة اللَّه على محبة نفسه فقد بلغ الذروة العليا من الكمال. وكذلك من أنفق الطيبات، وأحسن إلى عباد اللَّه، أحسن اللَّه إليه ووفقه أعمالًا وأخلاقًا، لا تحصل بدون هذه الحالة.

وأيضًا فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه، كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة من طريق الأولى والأحرى. ومع أن النفقة من الطيبات هي أكمل الحالات. فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة، من طيب أو غيره، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾. وسيجزى كل منفق بحسب عمله، سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل وفي الآخرة بالنعيم الآجل»[1].

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٣٩٩-٤٠٠).

وقال محمد رشيد رضا: «ذكر جمهور المفسرين أن قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ خطاب للمؤمنين، وأنه كلام مستأنف سيق لبيان ما ينفع المؤمنين ويقبل منهم، إثر بيان ما لا ينفع الكافرين ولا يقبل منهم.

وذهب الأستاذ الإمام إلى أن الخطاب لا يزال لأهل الكتاب. ذلك أن من سنة القرآن أن يقرن الكلام في الإيمان بذكر آثاره من الأعمال الصالحة، وأدلُّها عليه بذل المال في سبيل اللَّه، فلما حاجّ أهل الكتاب في دعاويهم في الإيمان والنبوة وكونهم شعب اللَّه الخاص، وكون النبوة محصورة فيهم، وكونهم لا تمسهم النار إلا أيامًا معدودات خاطبهم في هذه الآية بآية الإيمان وميزانه الصحيح، الذي يعرف به المرجوح من الرجيح، وهو الإنفاق في سبيل اللَّه من المحبوبات مع الإخلاص وحسن النية، كأنه يقول: إنكم أيها المدّعون لتلك الدعاوي، والمفتخرون بالكتاب الإلهي واتصال حبل النسب بالنبيين؛ قد أحضرت أنفسكم الشحّ، وآثرتم شهوة المال على مرضاة اللَّه، وإذا أنفق أحدكم شيئًا ما فإنما ينفق من أردإ ما يملك، وأبغضه إليه، وأكرهه عنده؛ لأن محبة كرائم المال في قلبه تعلو محبة اللَّه تعالى، والرغبة في ادخاره تفوق لديه الرغبة فيما عند ربه من الرضى والمثوبة، ولن تنالوا البرّ فتعدّوا من الأبرار الذين هم المؤمنون الصادقون حتى تنفقوا مما تحبون، فحذف ذكر الإيمان استغناء بذكر أكبر آياته، وأوضح دلالاته، وهي إنفاق المحبوبات، وبذل المشتهيات.

وقال الأستاذ الإمام: إن المتبادر من الإنفاق هنا هو إنفاق المال؛ لأن شأنه عند النفوس عظيم حتى إن الإنسان كثيرا ما يخاطر بنفسه، ويستسهل بذل روحه لأجل الدفاع عن ماله أو المحافظة عليه. .

واختلفوا في البر المراد هنا الذي لا يناله المرء؛ أي: يصيبه ويدركه إلا إذا أنفق مما يحب؛ فقيل: هو بر اللَّه تعالى وإحسانه مطلقًا. وقيل: الجنة. وقيل: ما يكون به الإنسان بارًّا، وهو ما تقدم تفصيله في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية. وفيها: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾[1] إلخ. وأنت ترى أنه في هذه الآية جعل إيتاء المال

---

(١) البقرة: الآية (١٧٧).

على حبه شعبة من شعب البر، كما جعل في سورة الإنسان إطعام الطعام على حبه صفة من صفات الأبرار، ولكنه في الآية التي نفسرها جعل الإنفاق مما يحب غاية لا ينال البر إلا بالانتهاء إليها.

وقد فهم منه بعضهم أن من أنفق مما يحب كان بَارًّا، وإن لم يأت بسائر شعب البر من الإيمان بجميع أركانه وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر في البأساء والضراء وحين البأس. وليس ما فهم بصواب، وإنما الصواب أن الإنسان لا يكون بارًّا بالقيام بهذه الخصال حتى ينتهي إلى هذه الخصلة: الإنفاق مما يحب، وما جعلها غاية إلا وهي أشقّ على النفوس وأبعد عن الحصول إلا من وفقه اللَّه تعالى ووهبه الكمال.

وهذا الإنفاق غير الزكاة، خلافًا لما نقل في بعض الروايات، فإن الزكاة قد عدّت في آية البقرة من شعب البر وأركانه بعد ذكر إيتاء المال على حبّه، فدلّ ذلك على أنهما متغايران، ولا يشترط في الزكاة أن تكون مما يحب المؤدي، بل ورد أمر العاملين باتقاء كرائم أموال الناس. ومن فضل اللَّه تعالى علينا أن اكتفى منا في نيل البر بأن ننفق مما نحب ولم يشترط علينا أن ننفق جميع ما نحبّ.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه هل هو محبوب لديكم أو مزهود فيه، وهل أنتم مخلصون في إنفاقه أم مراؤون طالبون للشهرة والجاه، فهو ﷻ يجازيكم على ما تنفقون بحسب ما يعلم من نيتكم، ومن موقع ذلك من قلوبكم، وقدر ما ترتقي بذلك أرواحكم، فرُبّ منفق مما يحب لا يسلم من الرياء، ورُبّ فقير لا يجد ما يحبّ فينفق منه، ولكن قلبه يفيض بالبرّ حتى ولو وجد ما أحبّ لأوشك أن ينفقه كله»[1].

قلت: ما قاله الشيخ محمد رشيد رضا نقلًا عن شيخه في فهم وتفسير هذه الآية من أن لها تعلقًا بأهل الكتاب؛ فهو فهم جيد مطابق لواقعهم، فهم البخلاء وهم الذين وصفوا اللَّه بالفقر، وهم الذين قالوا: يد اللَّه مغلولة. وما ذكره اللَّه عنهم وواقعهم كثير؛ فإنهم وإن زعموا -ما ذكره الشيخ محمد عبده- من حصر النبوة والخيرية فيهم؛ فإنهم مع ذلك تجدهم من أشد الناس في باب النفقة وإطعام الفقير

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٧١-٣٧٣).

والمسكين وتقديم المال المحبوب، وهذا الوصف الذي وصفوا به في هذه الآية هو منطبق على كل من يدعي الإيمان والإسلام ويرى نفسه على الجادة، ومع ذلك تجده يتخلف عن النفقة وقت الحاجة إليها، من جهاد ودعوة وحالة اجتماعية تدعو إلى التعاون، كالإنفاق على الفقراء والمساكين والدعاة إلى اللَّه وطلبة العلم، فتجده متخلفًا عن كل مبادرة إنسانية، ويدعي لنفسه الأولوية في كل شيء، ففي النسب يزعم أنه من أهل البيت، وفي العلم يزعم أنه من ورثته، وفي الكرم والشرف يزعم أنه من أهله، وهكذا يزعم لنفسه كل فضيلة وهو في واقع أمره آخر من يفكر في نصرة الإسلام ولو بشيء قليل مما أعطاه اللَّه، واللَّه المستعان.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سرعة امتثال الصحابة لما جاء في القرآن

* عَنْ أَنَس بْن مَالِك رضي الله عنه يَقُولُ: كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ. قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ -تبارك وتعالى- يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ**. فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ[١].

★ غريب الحديث:

بيرحاء: بفتح الموحدة وسكون التحتانية وفتح الراء وبالمهملة والمد، وجاء في ضبطه أوجه كثيرة جمعها ابن الأثير في النهاية فقال: «يروى بفتح الباء وبكسرها

---

(١) أحمد (٣/ ١٤١) والبخاري (٣/ ٤١٤/ ١٤٦١) ومسلم (٢/ ٦٩٣-٦٩٤/ ٩٩٨) والترمذي (٥/ ٢٠٩/ ٢٩٩٧) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١١-٣١٢/ ١١٠٦٦).

وبفتح الراء وضمها وبالمد والقصر. فهذه ثمان لغات. وفي رواية حماد بن سلمة: (بريحا) بفتح أوله وكسر الراء وتقديمها على التحتانية. وفي سنن أبي داود (باريحا) مثله لكن بزيادة ألف. وقال الباجي: أفصحها بفتح الباء وسكون الياء وفتح الراء مقصور، وكذا جزم به الصغاني وقال: إنه فيعلى من البراح. قال: ومن ذكره بكسر الموحدة وظن أنها بئر من آبار المدينة فقد صحف»[١]. اهـ.

بخ: بفتح الموحدة وسكون المعجمة، وقد تنون مع التثقيل والتخفيف بالكسر والرفع والسكون ويجوز التنوين لغات، ولو كررت فالاختيار أن تنون الأولى وتسكن الثانية، وقد يسكنان جميعًا كما قال الشاعر: بخ بخ لوالده وللمولود. ومعناها: تفخيم الأمر والإعجاب به. اهـ

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «فيه فضيلة لأبي طلحة؛ لأن الآية تضمنت الحث على الإنفاق من المحبوب، فترقى هو إلى إنفاق أحب المحبوب، فصوب ﷺ رأيه وشكر عن ربه فعله، ثم أمره أن يخص بها أهله وكنى عن رضاه بذلك بقول (بخ)»[٢].

فيه: «استحباب الإنفاق مما يحب ومشاورة أهل العلم والفضل في كيفية الصدقات ووجوه الطاعات وغيرها»[٣].

قال ابن عبد البر: «فيه أن الصدقة على الأقارب من أفضل أعمال البر؛ لأن رسول اللَّه ﷺ لم يشر بذلك على أبي طلحة إلا وهو قد اختار ذلك له، ولا يختار له إلا الأفضل لا محالة، ومعلوم أن العتق من أفضل أعمال البر، وقد فضل رسول اللَّه ﷺ الصدقة على الأقارب على العتق»[٤].

قال ابن العربي: «قال العلماء: إنما تصدق به النبي ﷺ على قرابة المصدق لوجهين: أحدهما: أن الصدقة في القرابة أفضل؛ لأنها كما قال في غير هذا الحديث: «**صدقة وصلة**»[٥]. الثاني: أن نفس المتصدق تكون بذلك أطيب وأسلم

(١) ذكره الحافظ في الفتح (٣/ ٤١٦).
(٢) الفتح (٥/ ٥٠٠).
(٣) النووي (٧/ ٧٤-٧٥).
(٤) التمهيد: فتح البر (٧/ ١٤٧).
(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٢١٤)، والترمذي (٣/ ٤٦/ ٦٥٨) وقال: «حديث حسن»، والنسائي (٥/ ٩٦-٩٧/ ٢٥٨١)ن وابن ماجه (١/ ٥٩١/ ١٨٤٤)، وابن حبان (٨/ ١٣٢-١٣٣/ ٣٣٤٤ الإحسان).

عن تطرق الندم إليها»[١].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر تصدق بمال له على عهد رسول اللَّه ﷺ -وكان يقال له: ثمغ، وكان نخلًا- فقال عمر: يا رسول اللَّه إني استفدت مالًا وهو عندي نفيس فأردت أن أتصدق به، فقال النبي ﷺ: «**تصدق بأصله، لا يباع ولا يوهب ولا يورث، ولكن ينفق ثمره**». فتصدق به عمر، فصدقته تلك في سبيل اللَّه وفي الرقاب والمساكين والضيف وابن السبيل ولذي القربى، ولا جناح على من وليه أن يأكل منه بالمعروف، أو يؤكل صديقه غير متمول به[٢].

★ **غريب الحديث:**

غير متمول به: يعني غير متخذ منها مالًا؛ أي: ملكا. والمراد: لا يتملك شيئًا من رقابها.

★ **فوائد الحديث:**

انظر ما قبله.

* * *

(١) أحكام القرآن (١/ ٢٨١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٢-١٣) والبخاري (٥/ ٤٩٢/ ٢٧٦٤) ومسلم (٣/ ١٢٥٣/ ١٦٣٢) وأبو داود (٣/ ٢٩٨/ ٢٨٧٨) والترمذي (٣/ ٦٥٩/ ١٣٧٥) والنسائي (٦/ ٥٤١/ ٣٦٠١) وابن ماجه (٢/ ٨٠١/ ٢٣٩٦) من حديث عمر رضي الله عنه.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «تضمنت هذه الآيات بيان كذبهم -أي: اليهود- صريحًا في إبطال النسخ، فإنه ﷻ أخبر أن الطعام كله كان حلالًا لبني إسرائيل، قبل نزول التوراة سوى ما حرم إسرائيل على نفسه منه.

ومعلوم أن بني إسرائيل كانوا على شريعة أبيهم إسرائيل وملته، وأن الذي كان لهم حلالًا إنما هو بإحلال اللَّه له على لسان إسرائيل والأنبياء بعده إلى حين نزول التوراة، ثم جاءت التوراة بتحريم كثير من المآكل عليهم، التي كانت حلالًا لبني إسرائيل. وهذا محض النسخ.

وقوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَانَ حِلًّا﴾؛ أي: كانت حلالًا لهم قبل نزول التوراة، وهم يعلمون ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ هل تجدون فيها أن إسرائيل حرم على نفسه ما حرمته التوراة عليكم؟ أم تجدون فيها تحريم ما خصه بالتحريم؟ وهي لحوم الإبل وألبانها خاصة. وإذا كان إنما حرم هذا وحده، وكان ما سواه حلالًا له ولبنيه، وقد حرمت التوراة كثيرا منه، ظهر كذبكم وافتراؤكم في إنكار نسخ الشرائع، والحجر على اللَّه تعالى في نسخها.

فتأمل هذا الموضع الشريف الذي حام حوله أكثر المفسرين، وما وردوه.

وهذا أولى من احتجاج كثير من أهل الكلام عليهم بأن التوراة حرمت أشياء كثيرة من المناكح، والذبائح، والأفعال، والأقوال. وذلك نسخ لحكم البراءة الأصلية. فإن هذه المناظرة ضعيفة جدًّا. فإن القوم لم ينكروا رفع البراءة الأصلية

(١) الآية (٩٣).

بالتحريم والإيجاب -إذ هذا شأن كل الشرائع- وإنما أنكروا تغيير ما أباحه اللَّه. فيجعله حرامًا، أو تحليل ما كان حرمه فيجعله مباحًا، وأما رفع البراءة والاستصحاب فلم ينكره أحد من أهل الملل.

ثم يقال لهذه الأمة الغضبية: هل تقرون أنه كان قبل التوراة شريعة أم لا؟ فهم لا ينكرون أن يكون قبل التوراة شريعة.

فيقال لهم: فهل رفعت التوراة شيئًا من أحكام تلك الشرائع المتقدمة أم لا؟ فإن قالوا: لم ترفع شيئًا من أحكام تلك الشرائع، فقد جاهروا بالكذب والبهت، وإن قالوا: قد رفعت بعض الشرائع المتقدمة، فقد أقروا بالنسخ قطعا»[(١)].

وقال الزمخشري: «والمعنى: أن المطاعم كلها لم تزل حلالًا لبني إسرائيل من قبل إنزال التوراة وتحريم ما حرم عليهم منها، لظلمهم وبغيهم لم يحرم منها شيء قبل ذلك غير المطعوم الواحد الذي حرمه أبوهم إسرائيل على نفسه فتبعوه على تحريمه، وهو رد على اليهود وتكذيب لهم، حيث أرادوا براءة ساحتهم مما نعى عليهم في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾[(٢)] وفي قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ﴾[(٣)] وجحود ما غاظهم واشمأزوا منه وامتعضوا مما نطق به القرآن من تحريم الطيبات عليهم لبغيهم وظلمهم، فقالوا: لسنا بأوّل من حرّمت عليه، وما هو إلا تحريم قديم، كانت محرّمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بني إسرائيل وهلم جرًّا، إلى أن انتهى التحريم إلينا، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا. وغرضهم تكذيب شهادة اللَّه عليهم بالبغي والظلم والصدّ عن سبيل اللَّه وأكل الربا وأخذ أموال الناس بالباطل، وما عدّد من مساويهم التي كلما ارتكبوا منها كبيرة حرّم عليهم نوع من الطيبات عقوبة لهم»[(٤)].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنبوة عيسى ومحمد -صلى اللَّه عليهما وسلم-، أنهم زعموا أن النسخ باطل وأنه لا يمكن أن يأتي نبي

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٤٤١-٤٤٢).
(٢) النساء: الآيتان (١٦٠و١٦١).
(٣) الأنعام: الآية (١٤٦).
(٤) الكشاف (١/ ٤٤٥-٤٤٦).

يخالف النبي الذي قبله.

فكذبهم اللَّه بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام -قبل نزول التوراة- كان حلالًا لبني إسرائيل، إلا أشياء يسيرة حرمها إسرائيل -وهو: يعقوب عليه السلام- على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه. ثم إن التوراة، فيها من التحريمات التي نسخت، ما كان حلالًا قبل ذلك، شيء كثير.

قل لهم -إن أنكروا ذلك- ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم. وهذا من أبلغ الحجج، أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره. فإن انقاد للحق، فهو الواجب. وإن أبى ولم ينقد بعد هذا البيان، تبين كذبه وافتراؤه، وظلمه وبطلان ما هو عليه، وهو الواقع من اليهود»[1].

وقال ابن كثير: «ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان:

إحداهما: أن إسرائيل عليه السلام حرم أحب الأشياء إليه وتركها لله، وكان هذا سائغًا في شريعتهم فله مناسبة بعد قوله: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2] فهذا هو المشروع عندنا، وهو الإنفاق في طاعة اللَّه مما يحبه العبد ويشتهيه، كما قال تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾[4] الآية.

المناسبة الثانية: لما تقدم بيان الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح، وتبيين زيف ما ذهبوا إليه وظهور الحق واليقين في عيسى وأمه، كيف خلقه اللَّه بقدرته ومشيئته وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه -تبارك وتعالى-، شرع في الرد على اليهود قبحهم اللَّه تعالى، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع؛ فإن اللَّه تعالى قد نصّ في كتابهم التوراة أن نوحًا عليه السلام لما خرج من السفينة، أباح اللَّه له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه في ذلك؛ وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخرى زيادة على ذلك، وكان اللَّه عز وجل قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرم ذلك بعد ذلك، وكان التسري على الزوجة مباحًا في شريعة إبراهيم عليه السلام،

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٠١).
(٢) آل عمران: الآية (٩٢).
(٣) البقرة: الآية (١٧٧).
(٤) الإنسان: الآية (٨).

وقد فعله إبراهيم في هاجر لما تسرى بها على سارة، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغًا، وقد فعله يعقوب عليه السلام جمع بين الأختين، ثم حرم عليهم ذلك في التوراة، وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، وهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه اللَّه للمسيح عليه السلام في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه بل كذبوه وخالفوه؟ وكذلك ما بعث اللَّه به محمدًا ﷺ من الدين القويم، والصراط المستقيم، وملة أبيه إبراهيم، فما بالهم لا يؤمنون؟ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾؛ أي: كان حلًّا لهم جميع الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرمه إسرائيل»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيما حرم إسرائيل على نفسه

* عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ أَخْبِرْنَا عَنِ الرَّعْدِ مَا هُوَ؟ قَالَ: **مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ**، فَقَالُوا: فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ: **زَجْرُهُ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ**، قَالُوا: صَدَقْتَ. فَأَخْبِرْنَا عَمَّا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ قَالَ: **اشْتَكَى عِرْقَ النَّسَا فَلَمْ يَجِدْ شَيْئًا يُلَائِمُهُ إِلَّا لُحُومَ الْإِبِلِ وَأَلْبَانَهَا فَلِذَلِكَ حَرَّمَهَا**، قَالُوا: صَدَقْتَ»[2].

★ **غريب الحديث:**

مخاريق: جمع مخراق، وهو في الأصل ثوب يلف، ويضرب به الصبيان بعضهم بعضًا، أراد أنه آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه.

النَّسا: بوزن العصا، عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ.

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٧٢-٧٣).

(٢) أحمد (١/ ٢٧٤) والترمذي (٥/ ٢٧٤/ ٣١١٧) وقال: هذا حديث حسن غريب، والنسائي في الكبرى (٥/ ٣٣٦/ ٩٠٧٢) وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٤٢) وقال: «رواه الترمذي باختصار، ورواه أحمد والطبراني ورجالهما ثقات».

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «إن معناه: قل يا محمد للزاعمين من اليهود أن اللَّه حرم عليهم في التوراة العروق ولحوم الإبل وألبانها، ائتوا بالتوراة فاتلوها، يقول: قل لهم: جيئوا بالتوراة فاتلوها حتى يتبين لمن خفي عليه كذبهم وقيلهم الباطل على اللَّه من أمرهم، أن ذلك ليس مما أنزلته في التوراة ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، يقول: إن كنتم محقين في دعواكم أن اللَّه أنزل تحريم ذلك في التوراة فأتونا بها، فاتلوا تحريم ذلك علينا منها، وإنما ذلك خبر من اللَّه عن كذبهم؛ لأنهم لا يجيئون بذلك أبدا على صحته، فأعلم اللَّه بكذبهم عليه نبيه ﷺ، وجعل إعلامه إياه ذلك حجة له عليهم؛ لأن ذلك إذا كان يخفى على كثير من أهل ملتهم، فمحمد وهو أمي من غير ملتهم، لولا أن اللَّه أعلمه ذلك بوحي من عنده كان أحرى أن لا يعلمه، فكان في ذلك له من أعظم الحجة عليهم بأنه نبي اللَّه ﷺ إليهم؛ لأن ذلك من أخبار أوائلهم، كان من خفي علومهم، الذي لا يعلمه غير خاصة منهم، إلا من أعلمه الذي لا يخفى عليه خافية من نبي أو رسول، أو من أطلعه اللَّه على علمه ممن شاء من خلقه»[1].

وقال أبو حيان: «﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ قل: خطاب للنبي ﷺ. وقيل: فأتوا محذوف تقديره: هذا الحق، لا زعمُكُم معشر اليهود. فَأتوا: وهذه أعظم محاجة أَن يُؤمروا بإحضار كتابهم الذي فيه شريعتهم، فإنه ليس فيه ما ادّعوه بل هو مصدّق لما أخبر به ﷺ: من أنّ تلك المطاعم كانت حلالًا لهم من قديم، وأن التحريم هو حادث. وروي أنهم لم يتجاسروا على الإتيان بالتوراة لظهور افتضاحهم بإتيانها، بل بهتوا وذلك كعادتهم في كثير من أحوالهم. وفي استدعاء التوراة منهم وتلاوتها الحجةُ الواضحة على صدق رسول اللَّه ﷺ، إذ كان عليه السلام النبيّ الأميَّ الذي لم يقرأ الكتب، ولا عرف أخبار الأمم السالفة، ثم أخذ

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٥-١٦ شاكر).

يحاجهم ويستشهد عليهم بما في كتبهم ولا يجدون من إنكاره محيصًا. وفي الآية دليل على جواز النسخ في الشرائع، وهم ينكرون ذلك. وخرج قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مخرجَ الممكن، وهم معلوم كذبهم، وذلك على سبيل الهزء بهم كقولك: إنْ كنت شجاعًا فالْقَني، ومعلوم عندك أنَّه ليس بشجاع، ولكن هزأت به إذ جعلت هذا الوصف مما يمكن أن يتصف به»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم اليهود بتحريفهم التوراة وإخفائهم الصحيح منها

* عن عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما: «أن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة وقد زنيا، فقال لهم: **كيف تفعلون بمن زنى منكم؟** قالوا: نحممهما ونضربهما. فقال: **لا تجدون في التوراة الرجم؟** فقالوا: لا نجد فيها شيئًا. فقال لهم عبد اللَّه ابن سلام: كذبتم، فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، فوضع مِدراسُها الذي يُدرِّسها منهم كفه على آية الرجم، فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم، فنزع يده عن آية الرجم فقال: ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم، فأمر بهما فرجما قريبًا من حيث موضعُ الجنائز عند المسجد، قال: فرأيت صاحبها يجنأ عليها، يقيها الحجارة»[2].

* **غريب الحديث:**

نحممهما: بمهملة ثم ميم مثقلة؛ أي: نسكب عليهما الماء الحميم، وقيل: نجعل في وجوههما الحمة، بمهملة وميم خفيفة؛ أي: السواد.

مدراسها: بكسر أوله، كذا للكشميهني، ولغيره: مدارسها، بضم أوله وتقديم الألف بوزن المفاعلة من الدراسة والأول أوجه. قال ابن الأثير: المدراس: صاحب دراسة كتبهم.

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٥).

(٢) أحمد (٢/ ٥) والبخاري (٨/ ٢٨٣/ ٤٥٥٦) ومسلم (٣/ ١٣٢٦/ ١٦٩٩) وأبو داود (٤/ ٥٩٣-٥٩٥/ ٤٤٤٦) والترمذي (٤/ ٣٤/ ١٤٣٦) مختصرًا وقال: «حسن صحيح» والنسائي في الكبرى (٤/ ٢٩٤/ ٧٢١٥) وابن ماجه (٢/ ٨٥٤/ ٢٥٥٦) من طرق عن ابن عمر.

يجنأ: يكب ويميل عليها ليقيها الحجارة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «فيه أن اليهود كانوا ينسبون إلى التوراة ما ليس فيها ولو لم يكن مما أقدموا على تبديله وإلا لكان في الجواب حيدة عن السؤال لأنه سأل عما يجدون في التوراة فعدلوا عن ذلك لما يفعلونه وأوهموا أن فعلهم موافق لما في التوراة فأكذبهم عبد الله بن سلام»[1].

قال ابن عبد البر: «في هذا الحديث من الفقه سؤال أهل الكتاب عن كتابهم، وفي ذلك دليل على أن التوراة صحيحة بأيديهم، ولولا ذلك ما سألهم رسول الله ﷺ عنها ولا دعا بها، وفيما ذكرنا دليل على أن الكتاب الذي كانوا يكتبونه بأيديهم، ثم يقولون هذا من عند الله، هي كتب أحبارهم وفقهائهم ورهبانهم، كانوا يصنعون لهم كتبًا من آرائهم وأهوائهم ويضيفونها إلى الله ﷻ، ولهذا وشبهه من أشكال أمرهم، نهينا عن التصديق بما حدثونا به، وعن التكذيب بشيء من ذلك، لئلا نصدق بباطل، أو نكذب بحق- وهم قد خلطوا الحق بالباطل، ومن صح عنده شيء من التوراة بنقل مثل ابن سلام وغيره من أحبار اليهود الذين أسلموا، جاز له أن يقرأه ويعمل بما فيه إن لم يكن مخالفًا لما في شريعتنا من كتابنا، وسنة نبينا ﷺ، ألا ترى إلى قول عمر بن الخطاب حين قال لكعب: إن كنت تعلم أنها التوراة التي أنزلها الله على موسى بن عمران بطور سيناء، فاقرأها آناء الليل وآناء النهار»[2].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي هذا الحديث أيضًا دليل على أنهم كانوا يكذبون على توراتهم، ويضيفون كذبهم ذلك إلى ربهم وكتابهم؛ لأنهم قالوا إنهم يجدون في التوراة أن الزناة يفضحون ويجلدون، محصنين كانوا بالنكاح أو غير محصنين، وفي التوراة غير ذلك من رجم الزناة المحصنين»[3].

وقال أيضًا: «وفيه دليل على أن شرائع من قبلنا شرائع لنا، إلا بما ورد في القرآن أو في سنة النبي محمد ﷺ نسخه وخلافه؛ وإنما يمنعنا من مطالعة التوراة؛ لأن

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٢١٠).

(٢) التمهيد: فتح البر (١١/ ٤٢١).

(٣) التمهيد: فتح البر (١١/ ٤٢١).

اليهود الذين بأيديهم التوراة غير مؤتمنين عليها، إنما غيروا وبدلوا منها ومن علم منها ما قال عمر لكعب الأحبار، جاز له مطالعتها.

وفيه: دليل على ما اليهود عليه من الخبث والمكر والتبديل»[(١)].

* قال ابن عباس: أخبرني أبو سفيان بن حرب أن هرقل دعا ترجمانه ثم دعا بكتاب النبي ﷺ: بسم اللَّه الرحمن الرحيم من محمد عبد اللَّه ورسوله إلى هرقل، و﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾[(٢)] الآية[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «ووجه الدلالة منه أن النبي ﷺ كتب إلى هرقل باللسان العربي، ولسان هرقل رومي، ففيه إشعار بأنه اعتمد في إبلاغه ما في الكتاب على من يترجم عنه بلسان المبعوث إليه ليفهمه، والمترجم المذكور هو الترجمان»[(٤)].

وهذا الحديث بوب عليه البخاري في صحيحه بقوله: «ما يجوز من تفسير التوراة وغيرها من كتب اللَّه بالعربية وغيرها لقول اللَّه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾»[(٥)].

قال ابن حجر: «وجه الدلالة أن التوراة بالعبرانية، وقد أمر اللَّه تعالى أن تتلى على العرب وهم لا يعرفون العبرانية، فقضية ذلك الإذن في التعبير عنها بالعربية»[(٦)].

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَاةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا** ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ﴾ الْآيَةَ»[(٧)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**»: أي: إذا كان ما يخبرونكم به محتملًا لئلا يكون في نفس الأمر صدقًا فتكذبوه، أو كذبًا فتصدقوه

---

(١) التمهيد: فتح البر (١١/ ٤٢١).
(٢) آل عمران: الآية (٦٤).
(٣) البخاري (١٣/ ٦٣١/ ٧٥٤١) ومسلم (٣/ ١٣٩٣/ ١٧٧٣).
(٤) فتح الباري (١٣/ ٦٣٢).
(٥) الفتح (١٣/ ٦٣١).
(٦) الفتح (١٣/ ٦٣٢).
(٧) البخاري (١٣/ ٦٣١/ ٧٥٤٢).

فتقعوا في الحرج. ولم يرد النهي عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، نبه على ذلك الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ويؤخذ من هذا الحديث التوقف عن الخوض في المشكلات والجزم فيها بما يقع في الظن، وعلى هذا يحمل ما جاء عن السلف من ذلك»[1].

وقال: «قال البيهقي: فيه دليل على أن أهل الكتاب إن صدقوا فيما فسروا من كتابهم بالعربية كان ذلك مما أنزل إليهم على طريق التعبير عما أنزل، وكلام اللَّه واحد لا يختلف باختلاف اللغات، فبأي لسان قُرئ فهو كلام الله»[2].

* * *

---

(١) فتح الباري (٨/ ٢١٦).

(٢) فتح الباري (١٣/ ٦٣٣).

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بذلك: فمن كذَب على اللَّه منا ومنكم، من بعد مجيئكم بالتوراة، وتلاوتكم إياها، وَعَدَمِكم ما ادّعيتم من تحريم اللَّه العروقَ ولحومَ الإبل وألبانها فيها ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ يعني: فمن فعل ذلك منهم ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ يعني: فهؤلاء الذين يفعلون ذلك هم الظالمون؛ يعني: فهم الكافرون، القائلون على اللَّه الباطل»[1].

قال ابن كثير: «أي: فمن كذب على اللَّه وادعى أنه شرع لهم السبت والتمسك بالتوراة دائما، وأنه لم يبعث نبيًّا آخر يدعو إلى اللَّه بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾»[2].

وقال أبو حيان: «﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يحتمل أن يكون مندرجًا تحت القول، ويحتمل أنْ يكون ابتداءَ إخبارٍ من اللَّه بذلك. وافتراؤه الكذب هو زعمه أن ذلك كان محرمًا على بني إسرائيل قبل إنزال التوراة، والإشارة بذلك قيل يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون إلى التلاوة، إذ مضمنها بيان مذهبهم وقيام الحجة البالغة القاطعة، ويكونُ افتراء الكذب أنْ يُنسب إلى كتب اللَّه ما ليس فيها.

والثاني: أنْ يكون إلى استقرار التحريم في التوراة، إذ المعنى: إلَّا ما حرّم إسرائيل على نفسه، ثم حرمته التوراة عليهم عقوبة لهم. وافتراء الكذب أنْ يزيد في المحرمات ما ليس فيها.

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٦ شاكر).

(٢) التفسير (٢/ ٦٣).

والثالث: أنْ يكون إلى الحال بعد تحريم إسرائيل على نفسه وقبل نزول التوراة من سنن يعقوب. وشرع ذلك دون إذن من اللَّه. ويؤيد هذا الاحتمال قوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾[(١)] الآية. فنص على أنه كان لهم ظلم في معنى التحليل والتحريم، وكانوا يشدّدون فيشدد عليهم اللَّه كما فعلوا في أمر البقرة. وجاءت شريعتنا بخلاف هذا، دين اللَّه يسر «**يسروا ولا تعسروا**»[(٢)] «**بعثت بالحنيفية السمحة**»[(٣)] ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[(٤)]»[(٥)].

* * *

(١) النساء: الآية (١٦٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣١)، والبخاري (١/ ٢١٦/ ٦٩)، ومسلم (٣/ ١٣٥٩/ ١٧٣٤)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٤٩/ ٥٨٩٠) من حديث أنس ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٦٦) معلقًا بصيغة الجزم، ووصله أحمد (١/ ٢٣٦) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٨٧) من حديث ابن عباس ﷺ، وله شواهد يتقوى بها من حديث عائشة وأبي أمامة وجابر ﷺ.

(٤) الحج: الآية (٧٨).

(٥) البحر المحيط (٣/ ٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ملة: دين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يعني بذلك -جل ثناؤه- ﴿قُلْ﴾، يا محمد ﴿صَدَقَ اللَّهُ﴾، فيما أخبرنا به من قوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وأن اللَّه لم يحرم على إسرائيل ولا على ولده العروقَ ولا لحومَ الإبل وألبانَها، وأنّ ذلك إنما كان شيئًا حرّمه إسرائيل على نفسه وَوَلده بغير تحريم اللَّه إياه عليهم في التوراة، وفي كل ما أخبر به عباده من خبر، دونكم. وأنتم، يا معشر اليهود، الكذبةُ في إضافتكم تحريم ذلك إلى اللَّه عليكم في التوراة، المفتريةُ على اللَّه الباطل في دعواكم عليه غير الحق ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، يقول: فإن كنتم، أيها اليهود، محقين في دعواكم أنكم على الدّين الذي ارتضاه اللَّه لأنبيائه ورُسله، ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، خليل اللَّه، فإنكم تعلمون أنه الحق الذي ارتضاه اللَّه منْ خلقه دينًا، وابتعث به أنبياءه، ذلك الحنيفية -يعني الاستقامة على الإسلام وشرائعه- دون اليهودية والنصرانية والمشركة.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، يقول: لم يكن يشرك في عبادته أحدًا من خلقه. فكذلك أنتم أيضًا، أيها اليهود، فلا يتخذ بعضكم بعضًا أربابًا من دون اللَّه تطيعونهم كطاعة إبراهيم ربه، وأنتم يا معشرَ عبدة الأوثان، فلا تتخذوا الأوثان والأصنام أربابًا، ولا تعبدوا شيئًا من دون اللَّه، فإن إبراهيم خليل الرحمن كان دينُه إخلاص العبادة لربه وحدَه، من غير إشراك أحد معه فيه. فكذلك أنتم أيضًا، فأخلصوا له العبادة ولا تشركوا معه في العبادة أحدًا، فإن جميعكم مقرُّون بأنّ إبراهيم كان على حقّ وَهدْي مستقيم، فاتبعوا ما قد أجمع جميعُكم على تصويبه من

ملته الحنيفية، ودعوا ما اختلفتم فيه من سائر الملل غيرها، أيها الأحزاب، فإنها بدَع ابتدعتموها إلى ما قد أجمعتم عليه أنه حق، فإن الذي أجمعتم عليه أنه صوابٌ وحق من ملة إبراهيم، هو الحق الذي ارتضيتُه وابتعثتُ به أنبيائي ورسلي، وسائرُ ذلك هو الباطل الذي لا أقبله من أحد من خلقي جاءني به يوم القيامة.

وإنما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ يعني به: وما كان من عَدَدهم وأوليائهم. وذلك أن المشركين بعضهم من بعض في التظاهر على كفرهم. ونصرةِ بعضهم بعضًا. فبرأ اللَّه إبراهيم خليله أن يكون منهم أو من نصرائهم وأهل ولايتهم. وإنما عنى -جل ثناؤه- بالمشركين، اليهودَ والنصارَى وسائر الأديان، غير الحنيفية. قال: لم يكن إبراهيم من أهل هذه الأديان المشركة، ولكنه كان حنيفًا مسلمًا»[1].

قال السعدي: «أي: قل صدق اللَّه في كل ما قاله، ومن أصدق من اللَّه قيلًا وحديثًا. وقد بين في هذه الآيات من الأدلة على صحة رسالة محمد ﷺ، وبراهين دعوته وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب الذين كذبوا رسوله، وردوا دعوته. فقد صدق اللَّه في ذلك، وأقنع عباده على ذلك ببراهين وحجج، تتصدع لها الجبال وتخضع لها الرجال.

فتعين عند ذلك على الناس كلهم اتباع ملة إبراهيم من توحيد اللَّه وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله اللَّه، وكل كتاب أنزله. والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة. فإن إبراهيم كان معرضًا عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئًا من الشرك وأهله»[2].

قال القاسمي: «﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾: تعريض بكذبهم؛ أي: ثبت أن اللَّه صادق فيما أنزل وأنتم الكاذبون. ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾؛ أي: ملة الإسلام التي عليها محمد ﷺ، ومن آمن معه والتي هي في الأصل ملة إبراهيم ؑ حتى تتخلصوا من اليهودية التي ورطتكم في فساد دينكم ودنياكم حيث اضطرتكم إلى تحريف كتاب اللَّه لتسوية أغراضكم وألزمتكم تحريم الطيبات التي أحلها اللَّه لإبراهيم ولمن تبعه.

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٧-١٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١٠٢).

﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مائلًا عن الأديان الزائغة. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تعريض بما في اليهودية والنصرانية من شرك إثبات الولد أو إلاهية عيسى، فكيف يزعمون أنهم على ملته، وما كان يدعو إلا إلى التوحيد والبراءة عن كل معبود سوى اللَّه تعالى وهو الذي بعث به محمد ﷺ»[1].

* * *

(١) محاسن التأويل (٤/ ١٤٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

بكة: مكة، وقيل: البيت، سميت بذلك من التباك؛ أي: الازدحام؛ لأن الناس يزدحمون فيه من الطواف. وقيل: لأنها تبك أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم؛ أي: تدقهم.

مباركًا: من البركة وهي كثرة الخير وتزايده.

مقام إبراهيم: هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم ﷺ حين ارتفع بناء الكعبة المشرفة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما يدعو النفوس إلى قصده وحجه، وإن لم يطلب ذلك منها فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ فوصفه بخمس صفات. أحدها: أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض. الثاني: أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه، ولا أكثر خيرًا، ولا أدوم، ولا أنفع للخلائق. الثالث: أنه هدى، وصفه بالمصدر نفسه مبالغة حتى كأنه هو نفس الهدى. الرابع: ما تضمنه من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية. الخامس: الأمن لداخله، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار، وتناءت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدلك على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم

(١) آل عمران: الآيتان (٩٦و٩٧).

لشأنه، والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾[١] لكفى بهذه الإضافة فضلًا وشرفًا. وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حبا له وشوقا إلى رؤيته، فهو المثابة للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرًا أبدًا، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حبا، وإليه اشتياقًا، فلا الوصال يشفيهم، ولا البعاد يسليهم»[٢].

قال ابن تيمية: «أما قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ فهذا من باب البيت. كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[٥] فكانوا في الجاهلية يقتل بعضهم بعضا خارج الحرم، فإذا دخلوا الحرم، أو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجه[٦]، وكان هذا من الآيات التي جعلها اللَّه فيه، كما قال: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ والإسلام زاد حرمته.

فمذهب أكثر الفقهاء: أن من أصاب حدا خارج الحرم ثم لجأ إلى الحرم لم يقم عليه الحد حتى يخرج منه، كما قال ابن عمر وابن عباس، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد وغيرهما؛ لما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إن مكة حرمها اللَّه ولم يحرمها الناس، فلا يحل لأحد يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرًا، وأنها لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ثم قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس**»[٧].

ومن ظن أن من دخل الحرم كان آمنًا من عذاب الآخرة، مع ترك الفرائض من الصلاة وغيرها، ومع ارتكاب المحارم، فقد خالف إجماع المسلمين، فقد دخل البيت من الكفار والمنافقين والفاسقين من هو من أهل النار بإجماع المسلمين، واللَّه أعلم»[٨].

---

(١) الحج: الآية (٢٦).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٤٥-٤٦).
(٣) العنكبوت: الآية (٦٧).
(٤) قريش: الآيتان (٣-٤).
(٥) القصص: الآية (٥٧).
(٦) من الهياج -بالكسرة-: القتال.
(٧) أخرجه: أحمد (٤/ ٣١) والبخاري (١/ ٢٦٣/ ١٠٤) ومسلم (٢/ ٩٨٧-٩٨٨/ ١٣٥٤) والترمذي (٣/ ١٧٣-١٧٤/ ٨٠٩) والنسائي (٥/ ٢٢٥-٢٢٦/ ٢٨٧٦)، من حديث أبي شريح العدوي ﷺ.
(٨) مجموع الفتاوى (١٨/ ٣٤٣-٣٤٤).

قال السعدي: «يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات، وأنواع الهدايات، وتنوع المصالح والمنافع للعالمين شيء كثير، وفضل غزير»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «أما قوله تعالى في البيت: ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ فهو بيان لحاله الحسنة الحسية، وحاله الشريفة المعنوية. أما الأولى: فهي ما أفيض عليه من بركات الأرض وثمرات كل شيء على كونه بواد غير ذي زرع، فترى الأقوات والثمار في مكة أكثر وأجود وأقلّ ثمنًا منها في مثل مصر وكثير من بلاد الشام. وأما الثانية: فهي هُويّ أفئدة الناس إليه، وإتيانه للحج والعمرة مشاة وركبانًا من كل فج، وتولية وجوههم شطره في الصلاة، ولعله لا تمرّ ساعة ولا دقيقة من ليل أو نهار وليس فيها أناس متوجهون إلى ذلك البيت الحرام يصلون. فأي هداية للعالمين أظهر من هذه الهداية. تلك دعوة إبراهيم ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[(٢)] وقد أشير إلى الوصفين في قوله تعالى حكاية عن المشركين: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٣)]»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل المسجد الحرام

* عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام، قال: قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «**أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصَلّه فإن الفضل فيه**»[(٥)].

★ **غريب الحديث:**

فصلّه: أي: فصلِّ، والهاء للسكت.

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٠٣).
(٢) إبراهيم: الآية (٣٧).
(٣) القصص: الآية (٥٧).
(٤) تفسير المنار (٤/ ٧).
(٥) أحمد (٥/ ١٥٠) والبخاري (٦/ ٥٠٢/ ٣٣٦٦) ومسلم (١/ ٣٧٠/ ٥٢٠) والنسائي (٢/ ٣٦٢/ ٦٨٩) وابن ماجه (١/ ٢٤٨/ ٧٥٣) عن أبي ذر ﷺ.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ ابن حجر: «هذا الحديث يفسر المراد بقوله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ ويدل على أن المراد بالبيت بيت العبادة لا مطلق البيوت، وقد ورد ذلك صريحا عن علي، أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبي حاتم وغيرهما بإسناد صحيح عنه، قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله»[1].

قال القرطبي: «فيه إشكال، وذلك أن مسجد مكة بناه إبراهيم بنص القرآن. إذ قال: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ الآية[2]، والمسجد الأقصى بناه سليمان ﷺ كما خرجه النسائي بإسناد صحيح من حديث عبد اللّه بن عمرو[3] عن النبي ﷺ: «**أن سليمان بن داود لما بنى بيت المقدس سأل اللّه تعالى خلالًا ثلاثا: سأل اللّه تعالى حكمًا يصادف حكمه؛ فأوتيه، وسأل اللّه تعالى ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده؛ فأوتيه، وسأل اللّه تعالى حين فرغ من بناء المسجد أن لا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه**»، وبين إبراهيم وسليمان آماد طويلة. قال أهل التاريخ: أكثر من ألف سنة. ويرتفع الإشكال بأن يقال: الآية والحديث لا يدلان على أن بناء إبراهيم وسليمان لما بنيا ابتداء وضعهما لهما، بل ذلك تجديد لما كان أسسه غيرهما وبدأه»[4].

وقال الخطابي: «يشبه أن يكون المسجد الأقصى أول ما وضع بناءه بعض أولياء اللّه قبل داود وسليمان، ثم بناه سليمان وداود وزادا فيه فوسّعاه فأضيف إليهما بناؤه؛ لأن المسجد الحرام بناء إبراهيم ﷺ، وبينه وبين داود وسليمان عدة من الأنبياء: ابنه إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى -صلوات اللّه عليهم-، ومدة أعمار هؤلاء القرون أكثر من أربعين سنة، بل أضعافهما، فليس وجه الحديث إلا ما قلناه، واللّه أعلم»[5].

قال ابن القيم: «قد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به، فقال: معلوم أن سليمان بن داود هو الذي بنى المسجد الأقصى، وبينه وبين إبراهيم أكثر

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥٠٤). (٢) البقرة: الآية (١٢٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٦) مطولا، والنسائي (٢/ ٣٦٤/ ٦٩٢) وابن ماجه (١/ ٤٥١-٤٥٢/ ١٤٠٨).

(٤) المفهم (٢/ ١١٤-١١٥). (٥) أعلام الحديث (٣/ ١٥٤٢-١٥٤٣).

من ألف عام، وهذا من جهل هذا القائل، فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده، لا تأسيسه، والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق -صلى اللَّه عليهما وآلهما وسلم- بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار»(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «**صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**»(٢).

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «استدل بهذا الحديث على تفضيل مكة على المدينة لأن الأمكنة تشرف بفضل العبادة فيها على غيرها مما تكون العبادة فيه مرجوحة. وهو قول الجمهور»(٣).

* عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ حَمْرَاءَ الزُّهْرِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَاقِفًا عَلَى الْحَزْوَرَةِ فَقَالَ: «**وَاللَّهِ إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكِ مَا خَرَجْتُ**»(٤).

★ غريب الحديث:

الحزورة: قال ابن الأثير: «هو موضع بها -أي: مكة- عند باب الحناطين وهو بوزن قسورة» اهـ.

وهو في الأصل بمعنى التل الصغير سميت بذلك لأنه كان هناك تلًّا صغيرًا.

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «أما نسبته -أي: نسبة محبة البلد- إلى اللَّه تعالى فلأنه حرم اللَّه تعالى المعظم ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾»(٥).

وقال القاري: «فيه تصريح بأن مكة أفضل من المدينة كما عليه الجمهور»(٦).

---

(١) زاد المعاد (١/ ٤٩-٥٠).

(٢) أحمد (٢/ ٢٥٦) والبخاري (٣/ ٨١/ ١١٩٠) ومسلم (٢/ ١٠١٢/ ١٣٩٤) والترمذي (٢/ ١٤٧/ ٣٢٥) والنسائي (٥/ ٢٣٤-٢٣٥/ ٢٨٩٩)، وابن ماجه (١/ ٤٥٠/ ١٤٠٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وفي الباب عن ابن عمر وجابر وابن الزبير وغيرهم رضي الله عنهم.

(٣) فتح الباري (٣/ ٨٦-٨٧).

(٤) أحمد (٤/ ٣٠٥) والترمذي (٥/ ٦٧٩/ ٣٩٢٥) وقال: حسن غريب صحيح، والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٧٩/ ٤٢٥٢) وابن ماجه (٢/ ١٠٣٧/ ٣١٠٨).

(٥) شرح المشكاة (٦/ ٢٠٤٧).

(٦) المرقاة (٥/ ٦٠٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾[(١)]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية كما قال الحسن البصري وغيره: كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج»[(٢)].

وقال شيخ الإسلام: «التفسير المعروف في أن اللَّه جعل الحرم بلدا آمنا قدرا وشرعا، فكانوا في الجاهلية يسفك بعضهم دماء بعض خارج الحرم، فإذا دخلوا الحرم أو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجروا حرمته ففي الإسلام كذلك وأشد.

لكن لو أصاب الرجل حدًّا خارج الحرم ثم لجأ إليه فهل يكون آمنًا لا يقام عليه الحد فيه أم لا؟ فيه نزاع. وأكثر السلف على أنه يكون آمنًا كما نقل عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما وهو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما. وقد استدلوا بهذه الآية وبقول النبي ﷺ: «**إن اللَّه حرم مكة يوم خلق اللَّه السموات والأرض، وأنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، و إنما أحلت لي ساعة من نهار، و قد عادت حرمتها**». فإن أحد ترخص بقتال رسول اللَّه ﷺ فقولوا: إنما أحلها اللَّه لرسوله ولم يحلها لك.

ومعلوم أن الرسول إنما أبيح له فيها دم من كان مباحًا في الحل، وقد بين أن ذلك أبيح له دون غيره. والمراد بقوله: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ﴾ الحرم كله»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم مكة والمدينة

* عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي ﷺ يوم افتتح مكة: «**لا هجرة، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا البلد حرم اللَّه يوم خلق السموات**

---

(١) آل عمران: الآية (٩٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٧٦).
(٣) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٠١-٢٠٢).

والأرض، وهو حرام بحرمة اللَّه إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة اللَّه إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلا من عرفها، ولا يختلى خلاها». قال العباس: يا رسول اللَّه إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم. قال: قال: «**إلا الإذخر**»»[(١)].

* عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولًا قام به رسول اللَّه ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به: أنه حمد اللَّه وأثنى عليه ثم قال: «**إن مكة حرمها اللَّه ولم يحرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن باللَّه واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرًا. فإن أحد ترخص لقتال رسول اللَّه ﷺ فيها فقولوا له: إن اللَّه أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن له فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب**». فقيل لأبي شريح: ماذا قال لك عمرو؟ قال: قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بخربة[(٢)].

* عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح**»[(٣)].

⋆ غريب الأحاديث:

وإذا استنفرتم فانفروا: أي: إذا دعيتم إلى الغزو فأجيبوا.

لا يعضد شوكه: أي: لا يقطع.

ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها: أي: لا تحل لقطته إلا لمن يريد أن يعرفها فقط،

---

(١) أحمد (٢٥٩) والبخاري (٤/ ٥٧/ ١٨٣٤) ومسلم (٢/ ٩٨٦-٩٨٧/ ١٣٥٣) وأبو داود (٢/ ٥٢١/ ٢٠١٨) والترمذي (٤/ ١٢٦/ ١٥٩٠) والنسائي (٥/ ٢٢٣-٢٢٥/ ٢٨٧٤).

(٢) أحمد (٤/ ٣١) والبخاري (٨/ ٢٤/ ٤٢٩٥) ومسلم (٢/ ٩٨٧-٩٨٨/ ١٣٥٤) والترمذي (٣/ ١٧٣-١٧٤/ ٨٠٩) والنسائي (٥/ ٢٢٥-٢٢٦/ ٢٨٧٦).

(٣) أحمد (٣/ ٣٤٧ و٣٩٣) ومسلم (٢/ ٩٨٩/ ١٣٥٦).

فأما من أراد أن يعرفها ثم يتملكها فلا .

ولا يختلى خلاها : الخلا : الرطب من النبات ، واختلاؤه : قطعه واحتشاشه .

الإذخر : نبت معروف عند أهل مكة طيب الريح له أصل مندفن وقضبان دقاق ينبت في السهل والحزن ، وبالمغرب صنف منه فيما قاله ابن البيطار ، قال : والذي بمكة أجوده ، وأهل مكة يسقفون به البيوت بين الخشب ، ويسدون به الخلل بين اللبنات في القبور ، ويستعملونه بدلا من الحلفاء في الوقود[(١)] .

لقينهم : بفتح القاف وسكون التحتانية بعدها نون ؛ أي : الحداد . قال الطبري : القين عند العرب كل ذي صناعة يعالجها بنفسه .

لا يعيذ عاصيًا : أي : لا يعصم العاصي عن إقامة الحد عليه .

بخربة : بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء بعدها باء موحدة ، وهي السرقة .

ولا ينفر صيده : أي : لا يهاج عن حاله ، ولا يعرض له .

★ فوائد الأحاديث:

قوله : «**وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي**» **قال القرطبي** : «ظاهر هذا أن حكم اللَّه تعالى كان في مكة ألا يقاتل أهلها ، ويؤمن من استجار بها ، ولا يتعرض له . وهو أحد أقوال المفسرين في قوله تعالى : ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ ، وهو قول قتادة وغيره . قالوا : هو آمن من الغارات . وهو ظاهر قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾[(٢)] ، وهو منقول من عادة العرب في احترامهم مكة ، ومن كتب التواريخ .

وقوله : «**ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام**» الضمير في (يحل) هو ، وهو يعود على القتال قطعًا ، كما يدل عليه مساقه ، فيلزم منه تحريم القتال فيه مطلقًا ، سواء كان ساكنه مستحقا للقتال أو لم يكن»[(٣)] .

قال ابن بطال : «قال الطبري : فيه الإبانة عن أن مكة غير جائز استحلالها ، ولا نصب الحرب عليها لقتال أهلها بعد ما حرمها رسول اللَّه إلى قيام الساعة ،

---

(١) فتح الباري (٤/ ٦٠) .
(٢) العنكبوت : الآية (٦٧) .
(٣) المفهم (٣/ ٤٦٩-٤٧٠) .

وذلك أنه ﷺ أخبر حين فرغ من أمر المشركين بها أنها لله حرم، وأنها لم تحل لأحد قبله، ولا تحل لأحد بعده بعد تلك الساعة التي حارب فيها المشركين، وأنها قد عادت حرمتها كما كانت، فكان معلوم بقوله هذا أنها لا تحل لأحد بعده بالمعنى الذي أحلت له به، وذلك محاربة أهلها وقتالهم وردهم عن دينهم.

قلت: إن قال قائل: قد رأينا الحجاج وغيره قاتل مكة ونصب الحرب عليها، وأن القرمطي الكافر قلع الحجر الأسود منها وأمسكه سبعة عشر عامًا، فما وجه ذلك؟ قيل له: معناه بين بحمد اللَّه، وذلك أن الحجاج وكل من نصب الحرب عليها بعد الرسول لم يكن ذلك مباحًا ولا حلالًا كما حل للنبي ﷺ وليس قول الرسول: «**وقد عادت حرمتها كما كانت، ولا يحل القتال بها لأحد بعدي**»، أن هذا لا يقع ولا يكون، وقد يرد ذلك، وقد أنذرنا ﷺ أن ذا السويقتين من الحبشة يهدم الكعبة حجرًا حجرًا[1]، وإنما معناه: أن قتالها ونصب الحرب عليها حرام بعد النبي ﷺ على كل أحد إلى يوم القيامة، وأن من استباح ذلك فقد ركب ذنبًا عظيمًا، واستحل محرمًا شنيعًا»[2].

وانظر بقية الفوائد عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾[3].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١٧)، والبخاري (٣/ ٥٨٧/ ١٥٩١)، ومسلم (٤/ ١٢٣٨/ ٢٩٠٩)، والنسائي (٥/ ٢٣٧/ ٢٩٠٤).

(٢) شرح ابن بطال (٤/ ٥٠٤-٥٠٥).

(٣) البقرة: الآية (١٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[١]

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه آية وجوب الحج عند الجمهور. وقيل: بل هي قوله: ﴿وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[٢] والأول أظهر، وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده. وأجمع المسلمون على ذلك إجماعًا ضروريًا، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «أما قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فهو بيان آية ثالثة من آيات هذا البيت جاءت بصيغة الإيجاب والفرضية في معرض ذكر مزاياه ودلائل كونه أول بيوت العبادة المعروفة للمعترضين من اليهود على استقباله في الصلاة، فهو يفيد بمقتضى السياق معنى خبريًا، وبمقتضى الصيغة معنى إنشائيًا، وهو وجوب الحج على المستطيع من هذه الأمة. أشار إلى ذلك الأستاذ الإمام بقوله: هذه الجملة -وإن جاءت بصيغة الإيجاب- هي واردة في معرض تعظيم البيت، وأي تعظيم أكبر من افتراض حج الناس إليه؟ وما زالوا يحجونه من عهد إبراهيم إلى عهد محمد -صلى اللَّه عليهما وعلى آلهما وسلم-. ولم يمنع العرب عن ذلك شركها، وإنما كانوا يحجون عملًا بسنة إبراهيم؛ يعني: أن الحج عام جروا عليه جيلًا بعد جيل على أنه من دين إبراهيم، وهذه آية متواترة على نسبة هذا البيت إلى إبراهيم»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فريضة الحج والعمرة

* عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ الْفَضْلُ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ فَجَعَلَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْرِفُ وَجْهَ

(١) آل عمران: الآية (٩٧).
(٢) البقرة: الآية (١٩٦).
(٣) التفسير (٢/ ٦٧).
(٤) تفسير المنار (٤/ ١٠).

الْفَضْلِ إِلَى الشِّقِّ الْآخَرِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لَا يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». وَذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ(١).

★ غريب الحديث:

خثعم: بفتح الخاء المعجمة وسكون الثاء المثلثة وفتح العين المهملة، وهي قبيلة باليمن.

★ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «وأما اختلاف أهل العلم في معنى هذا الحديث، فإن جماعة منهم ذهبوا إلى أن هذا الحديث مخصوص به أبو الخثعمية، لا يجوز أن يتعدى به إلى غيره بدليل قول اللَّه ﷻ: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ وكان أبو الخثعمية ممن لا يستطيع، فلم يكن عليه الحج، فلما لم يكن ذلك عليه لعدم استطاعته، كانت ابنته مخصوصة بذلك الجواب، وممن قال ذلك: مالك بن أنس وأصحابه، وجعلوا أبا الخثعمية مخصوصًا بالحج عنه، كما كان سالم مولى أبي حذيفة عندهم وعند من خالفهم في هذه المسألة مخصوصًا برضاعه في حال الكبر، مع اشتراط اللَّه ﷻ تمام الرضاعة في الحولين، فكذلك أبو الخثعمية مع شرط اللَّه في وجوب الحج الاستطاعة وهي القدرة. وذهب آخرون إلى أن الاستطاعة تكون بالبدن والقدرة، وتكون أيضًا في المال لمن لم يستطع ببدنه. واستدلوا بهذا الحديث ومثله، وممن قال ذلك: الشافعي»(٢).

«قولها: «**إن فريضة اللَّه على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة**». هذا هو المسمى بالمعضوب، والعضب: القطع، وبه سمي السيف عضبًا، وكأن من انتهى إلى هذه الحالة قطعت أعضاؤه، إذ لا يقدر على شيء»(٣).

---

(١) أحمد (١/ ٣٥٩) والبخاري (٣/ ٤٨٢/ ١٥١٣) ومسلم (٢/ ٩٧٣/ ١٣٣٤) وأبو داود (٢/ ٤٠٠-٤٠٢/ ١٨٠٩) والنسائي (٥/ ١٢٦-١٢٧/ ٢٦٤٠).
(٢) التمهيد (فتح البر: ٨/ ١٢٧-١٢٨).
(٣) المفهم (٣/ ٤٤١).

قال الخطابي: «استدل الشافعي بخبر الخثعمية على وجوب الحج على المعضوب الزمِن إذا وجد من يبذل له طاعته من ولده وولد ولده. ووجه ما استدل به من هذا الحديث أنها ذكرت وجوب فرض الحج على أبيها في حال الزمانة، وهو قولها: «**إن فريضة اللَّه على عباده أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يستطيع أن يستمسك على الراحلة**»، ولابد من تعلق وجوبه بأحد أمور: إما بمال أو بقوة بدن أو وجود طاعة من ذي قوة، وقد علمنا عجزه ببدنه، ولم يجر للمال ذكر، وإنما جرى الذكر لطاعتها وبذلها نفسها عنه فدل أن الوجود تعلق به، ومعلوم في اللسان أن يقال: فلان مستطيع لأن يبني داره إذا كان يجد من يطيعه في ابتنائها كما إذا وجد مالًا ينفقه في بنائها وكما لو قدر عليه بنفسه»[١].

قال ابن حجر: «والمراد منه هنا تفسير الاستطاعة المذكورة في الآية، وأنها لا تختص بالزاد والراحلة بل تتعلق بالمال والبدن؛ لأنها لو اختصت للزم المعضوب أن يشد على الراحلة ولو شق عليه»[٢].

قال المهلب: «في هذا الحديث أن الاستطاعة لا تكون الزاد والراحلة؛ ألا ترى أن ما اعتذرت به هذه المرأة عن أبيها ليس بزاد ولا راحلة، وإنما كان ضعف جسمه، فثبت أن الاستطاعة شائعة كيفما وقعت وتمكنت»[٣].

وقال الخطابي: «في هذا الحديث: بيان جواز حج الإنسان عن غيره حيا وميتا، وأنه ليس كالصلاة والصيام وسائر الأعمال البدنية التي لا تجري فيها النيابة، وإلى هذا ذهب الشافعي.

وفيه دليل على أن فرض الحج يلزم من استفاد مالًا في حال كبره وزمانته إذا كان قادرا به على أن يأمر غيره فيحج عنه كما لو قدر على ذلك بنفسه. وقد يتأول بعضهم قولها «**إن فريضة اللَّه أدركت أبي شيخا**» فقال: معناه أنه أسلم وهو شيخ كبير.

وفيه دليل على أن حج المرأة عن الرجل جائز. وقد منع ذلك بعض أهل العلم وزعم أن المرأة تلبس في الإحرام ما لا يلبسه الرجل فلا يحج عنه إلا رجل مثله»[٤].

* عن ابن عباس: أن الأقرع بن حابس سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه،

---

(١) معالم السنن (٢/ ١٤٨).
(٢) فتح الباري (٣/ ٤٨٣).
(٣) شرح ابن بطال (٤/ ١٨٦).
(٤) معالم السنن (٢/ ١٤٧).

الحج في كل سنة، أو مرة واحدة؟ قال: «**بل مرة واحدة، فمن زاد فهو تطوع**»[١].

* عن أنس رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول اللَّه، الحج في كل عام؟ قال: «**لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت لم تقوموا بها، ولو لم تقوموا بها عذبتم**»[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول اللَّه ﷺ فقال: «**أيها الناس، قد فرض اللَّه عليكم الحج فحجوا**». فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم**»، ثم قال: «**ذروني ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**»[٣].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال الخطابي: «لا خلاف بين العلماء في أن الحج لا يتكرر وجوبه، إلا أن هذا الإجماع إنما حصل منهم بدليل، فأما نفس اللفظ فقد كان موهما التكرار، ومن أجله عرض هذا السؤال. وذلك أن الحج في اللغة قصد فيه تكرار ومن ذلك قول الشاعر:

يحجون سب الزبرقان المزعفرا

يريد أنهم يقصدونه في أمورهم ويختلفون إليه في حاجاتهم مرة بعد أخرى إذ كان سيدًا لهم ورئيسًا فيهم. وقد استدلوا بهذا المعنى في إيجاب العمرة. وقالوا: إذا كان الحج قصدا فيه تكرار فإن معناه لا يتحقق إلا بوجود العمرة؛ لأن القصد في الحج إنما هو مرة واحدة لا يتكرر.

وفي الحديث: دليل على أن المسلم إذا حج مرة ثم ارتد ثم أسلم أنه لا إعادة عليه للحج»[٤].

قال الطيبي: «"**أكل عام**"؛ أي: أتأمرنا أن نحج كل عام؟ وهذا يدل على أن مجرد الأمر لا يفيد التكرار، ولا المرة، وإلا لما صح الاستفهام. وإنما سكت ﷺ

---

(١) أحمد (١/ ٢٥٥) وأبو داود (٢/ ٣٤٤-٣٤٥/ ١٧٢١) والنسائي (٥/ ١١٦-١١٧/ ٢٦١٨) وابن ماجه (٢/ ٩٦٣/ ٢٨٨٦) والحاكم (١/ ٤٤١) وقال: هذا إسناد صحيح، ووافقه الذهبي.

(٢) ابن ماجه (٢/ ٩٦٣/ ٢٨٨٥) وقال البوصيري في الزوائد: هذا إسناد صحيح.

(٣) أحمد (٢/ ٥٠٨) ومسلم (٢/ ٩٧٥/ ١٣٣٧) والنسائي (٥/ ١١٦-١١٧/ ٢٦١٨).

(٤) معالم السنن (٢/ ١٢٣).

حتى قالها ثلاثًا زجرًا له عن السؤال، فإن التقدم بين يدي رسول اللَّه ﷺ منهي عنه لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[١]؛ لأنه ﷺ مبعوث لبيان الشرائع، وتبليغ الأحكام، فلو وجب الحج كل سنة لبينه الرسول -صلوات اللَّه عليه- لا محالة، ولا يقتصر على الأمر به مطلقًا، سواء سئل عنه أو لم يسأل، فيكون السؤال استعجالًا ضائعًا. ثم لما رأى أنه لا ينزجر به ولا يقنع إلا بالجواب الصريح، أجاب عنه بقوله: «**ولو قلت نعم لوجبت كل عام حجة**» فأفاد به أنه لا يجب كل عام، لما في «**لو**» من الدلالة على انتفاء الشيء لانتفاء غيره، وأنه إنما لم يتكرر؛ لما فيه من الحرج، والكلفة الشاقة. ونبه على أن العاقل ينبغي له أن لا يستقبل الكلف الخارجة عن وسعه، وأن لا يسأل عن شيء إن يبد له أساءه»[٢].

* عن جابر رضي الله عنه قال: . . وأن سراقة بن مالك بن جعشم لقي النبي ﷺ وهو بالعقبة وهو يرميها، فقال: ألكم هذه خاصة يا رسول الله؟ قال: «**لا، بل للأبد**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «اختلف العلماء في معناه على أقوال: أصحها -وبه قال جمهورهم- معناه: أن العمرة يجوز فعلها في أشهر الحج إلى يوم القيامة، والمقصود به بيان إبطال ما كانت الجاهلية تزعمه من امتناع العمرة في أشهر الحج. والثاني: معناه جواز القران، وتقدير الكلام: دخلت أفعال العمرة في أفعال الحج إلى يوم القيامة. والثالث: تأويل بعض القائلين بأن العمرة ليست واجبة، قالوا: معناه سقوط العمرة. قالوا: ودخولها في الحج معناه سقوط وجوبها، وهذا ضعيف أو باطل، وسياق الحديث يقتضي بطلانه. والرابع: تأويل بعض أهل الظاهر أن معناه جواز فسخ الحج إلى العمرة وهذا أيضًا ضعيف»[٤].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**تعجَّلوا إلى الحج** -يعني

---

(١) الحجرات: الآية (١).

(٢) شرح الطيبي (٦/ ١٩٣٦-١٩٣٧).

(٣) أحمد (٣/ ٣٢٠-٣٢١) والبخاري (٣/ ٧٧٣/ ١٧٨٥) ومسلم (٢/ ٨٨٦/ ١٢١٨) وأبو داود (٢/ ٤٥٥-٤٦٤/ ١٩٠٧) والنسائي (٥/ ١٩٦/ ٢٨٠٤) وابن ماجه (٢/ ١٠٢٢/ ٣٠٧٤).

(٤) شرح مسلم (٨/ ١٣٤-١٣٥).

الفريضة- **فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له**»[١].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أراد الحج فليتعجَّل**»[٢].

★ **فوائد الحديثين:**

«فيه دليل على أن الحج واجب على الفور، وإلى القول بالفور ذهب مالك وأبو حنيفة وبعض أصحاب الشافعي. وقال الشافعي والأوزاعي وأبو يوسف ومحمد: إنه على التراخي، واحتجوا بأنه ﷺ حج سنة عشر، وفرض الحج كان سنة ست أو خمس. وأجيب بأنه قد اختلف في الوقت الذي فرض فيه الحج. ومن جملة الأقوال أنه فرض في سنة عشر، فلا تأخير. ولو سلم أنه فرض قبل العاشرة فتراخيه صلى الله عليه وآله وسلم إنما كان لكراهة اختلاط في الحج بأهل الشرك؛ لأنهم كانوا يحجون ويطوفون بالبيت عراة، فلما طهر الله البيت الحرام منهم حج صلى الله عليه وآله وسلم، فتراخيه لعذر. ومحل النزاع التراخي مع عدمه»[٣].

* عَنِ ابْنٍ لِأَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لِأَزْوَاجِهِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «**هَذِهِ ثُمَّ ظُهُورَ الْحُصْرِ**»[٤].

---

(١) أحمد (١/ ٣١٤) وابن ماجه (٢/ ٩٦٢/ ٢٧٧٣) والبيهقي (٤/ ٣٤٠) وقال البوصيري في الزوائد: «في إسناده إسماعيل أبو خليفة أبو إسرائيل الملائي قال فيه ابن عدي: عامة ما يرويه يخالف الثقات، وقال النسائي: ضعيف..» اهـ. وقال الحافظ في التقريب: صدوق سيئ الحفظ، نسب إلى الغلو في التشيع. وللحديث متابعة وهو الحديث الآتي بعده.

(٢) أحمد (١/ ٢٢٥) وأبو داود (٢/ ٣٥٠/ ١٧٣٢) والبيهقي (٤/ ٣٤٠) والحاكم (٢/ ٦١٧/ ١٦٤٥) من طرق عن الحسن بن عمرو الفقيمي عن مهران أبي صفوان عن ابن عباس به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأبو صفوان هذا سماه غيره مهران مولى لقريش ولا يعرف بالجرح. ووافقه الذهبي. وتعقبهما الألباني في الإرواء (٤/ ١٦٩/ ٩٩٠) بقوله: «وهذا منهما عجب، ولاسيما الذهبي فقد أورده في الميزان قائلا: «لا يدرى من هو، قال أبو زرعة: لا أعرفه إلا في هذا الحديث». وقال الحافظ في التقريب: «مجهول».

قلت: لكن لعله يتقوى حديثه بالطريق الأولى -أي الحديث السابق- فيرتقي إلى درجة الحسن لاسيما وبعض العلماء يحسن حديث أمثاله من التابعين كالحافظ ابن كثير وابن رجب وغيرهما والله أعلم. وقد صححه عبد الحق في «الأحكام» اهـ، والحديث صحح إسناده كذلك الشيخ شاكر رحمه الله في تعليقه على المسند (٣/ ٢٩٩-٣٠٠/ ١٩٧٣).

(٣) عون المعبود (٥/ ١٥٧).

(٤) أحمد (٥/ ٢١٩) وأبو داود (٢/ ٣٤٥/ ١٧٢٢). وصحح إسناده الحافظ في الفتح (٤/ ٩٠).

★ **غريب الحديث:**

الحصر: جمع الحصير الذي يبسط في البيوت، وتضم الصاد وتسكن تخفيفًا. ثم ظهور الحصر؛ أي: ثم لزوم البيوت.

★ **فوائد الحديث:**

قال صاحب عون المعبود: «هذا الحديث يدل على أن الحج فرض مرة، ولذا أورده المؤلف في باب فرض الحج. والحديث استدل به أيضًا على عدم جواز الحج لأزواج النبي ﷺ بعد حجة الوداع وأجيب عن هذا من وجهين: الأول: أن حديث أبي واقد محتمل لمعنيين، وليس بصريح ولا واضح على المنع، فلا يترك به المتيقن وهو الجواز، وذلك لما أخرجه البخاري عن عائشة أم المؤمنين قالت: قلت: يا رسول اللَّه ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: «**لكن أحسن الجهاد وأجمله، الحج حج مبرور**»، فقالت عائشة: فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول اللَّه ﷺ[1] والثاني: المراد بحديث أبي واقد جواز الترك لا النهي من الحج لهن بعد حجة الوداع، فقد ثبت حجهن بعد النبي ﷺ لما أخرج البخاري من طريق إبراهيم عن أبيه عن جده، إذن عمر رضي الله عنه لأزواج النبي ﷺ في آخر حجة حجها، فبعث معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن»[2][3].

قال البيهقي: «في حج عائشة رضي الله عنها وغيرها من أمهات المؤمنين -رضي اللَّه عنهن- بعد رسول اللَّه ﷺ دلالة على أن المراد من هذا الخبر وجوب الحج عليهن مرة واحدة، كما بين وجوبه على الرجال مرة لا المنع من الزيادة عليه، واللَّه أعلم»[4].

* * *

(١) أحمد (٦/ ٧٩) والبخاري (٤/ ٨٨/ ١٨٦١) والنسائي (٥/ ١٢١/ ١٦٢٧) وابن ماجه (٢/ ٩٦٨/ ٢٩٠١) بمعناه.

(٢) البخاري (٤/ ٨٨/ ١٨٦٠) تعليقا.

(٣) عون المعبود (٥/ ١٤٦-١٦٧).

(٤) السنن الكبرى (٤/ ٣٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «هذا خرج مخرج التغليظ؛ ولهذا قال علماؤنا: تضمنت الآية أن من مات ولم يحج وهو قادر فالوعيد يتوجه عليه، ولا يجزئ أن يحج عنه غيره؛ لأن حج الغير لو أسقط عنه الفرض لسقط عنه الوعيد، واللَّه أعلم»[(١)].

قال الشنقيطي: «﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ يدل على أن من لم يحج كافر، واللَّه غني عنه.

وفي المراد بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ أوجه للعلماء:

الأول: أن المراد بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ أي: ومن جحد فريضة الحج، فقد كفر واللَّه غني عنه، وبه قال: ابن عباس ومجاهد وغير واحد قاله ابن كثير. ويدل لهذا الوجه ما روي عن عكرمة ومجاهد من أنهما قالا لما نزلت: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ قالت اليهود: فنحن المسلمون، فقال النبي ﷺ: «**إن اللَّه فرض على المسلمين حج البيت من استطاع إليه سبيلًا**»[(٢)] فقالوا: لم يكتب علينا، وأبوا أن يحجوا. قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

الوجه الثاني: أن المراد بقوله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ أي: ومن لم يحجّ على سبيل التغليظ البالغ في الزجر عن ترك الحج مع الاستطاعة كقوله للمقداد الثابت في الصحيحين حين سأله عن قتل من أسلم من الكفار بعد أن قطع يده في الحرب: «**لا تقتله، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول الكلمة التي قال**»[(٣)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٩٩).

(٢) أخرجه البيهقي (٤/ ٣٢٤) عن عكرمة.

(٣) أخرجه البخاري (١٢/ ٢٣٠/ ٦٨٦٥) ومسلم (١/ ٩٥/ ٩٥) وأبو داود (٣/ ١٠٣-١٠٤/ ٢٦٤٤) والنسائي في الكبرى (٥/ ١٧٤-١٧٥/ ٨٥٩١) من حديث المقداد بن عمرو الكندي ﷺ.

الوجه الثالث: حمل الآية على ظاهرها وأن من لم يحج مع الاستطاعة فقد كفر»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تأكيد لما سبق ووعيد على جحوده، وبيان لتنزيه اللَّه تعالى بإزالة ما عساه يسبق إلى أوهام الضعفاء عند سماع نسبة البيت إلى اللَّه، والعلم بفرضه على الناس أن يحجوه من كونه محتاجًا إلى ذلك.

فالمراد بالكفر جحود كون هذا البيت أول بيت وضعه إبراهيم للعبادة الصحيحة، بعد إقامة الحجج على ذلك، وعدم الإذعان لما فرض اللَّه من حجه والتوجه إليه بالعبادة. هذا هو المتبادر. وحمله بعضهم على الكفر مطلقًا على أنه كلام مستقل لا متمم لما قبله، وهو بعيد جدًّا، وبعضهم على ترك الحجّ وهو بعيد أيضًا»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الوعيد فيمن تهاون في أمر الحج

* عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «لِيمُت يهوديًّا أو نصرانيًّا -يقولها ثلاث مرات- رجل مات ولم يحج، وجد لذلك سعةً، وخُلِّيت سبيله، فحجة أحجها وأنا صَرورة أحب إلي من ست غزوات أو سبع»[(٣)].

★ غريب الأثر:

صرورة: رجل صرور وصرورة، لم يحج قط، وأصله من الصّر: الحبس والمنع، وقيل: الذي لم يتزوج.

★ فوائد الأثر:

قال شاه ولي اللَّه الدهلوي: «ترْك ركنٍ من أركان الإسلام يشبه الخروج عن

---

(١) أضواء البيان (١/ ٢٠٣-٢٠٤).

(٢) تفسير المنار (٤/ ١١).

(٣) البيهقي (٤/ ٣٣٤) وصححه الحافظ ابن حجر في التلخيص (٢/ ٢٢٣) وكذا السيوطي في الدر (٢/ ١٠٠) وزاد نسبته إلى سعيد بن منصور.

الملة، وإنما شبه تارك الحج باليهودي والنصراني، وتارك الصلاة بالمشرك؛ لأن اليهودي والنصراني يصلون ولا يحجون، ومشركو العرب يحجون ولا يصلون»[١].

قال ابن حجر: «وَمَحْمَلُهُ عَلَى مَنِ اسْتَحَلَّ التَّرْكَ»[٢].

* * *

(١) حجة الله البالغة (٢/ ٥٧).

(٢) التلخيص الحبير (٢/ ٢٢٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تصدون: تمنعون.

عوجًا: معوجة؛ أي: مائلة عن الحق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك: يا معشر يهود بني إسرائيل وغيرهم من سائر من ينتحل الدِّيانة بما أنزلَ اللَّه ﷻ من كتبه، ممن كفَر بمحمد ﷺ وجحد نبوَّته: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، يقول: لم تجحدون حجج اللَّه التي آتاها محمدًا في كتبكم وغيرها، التي قد ثبتت عليكم بصدقه ونبوَّته وحُجته، وأنتم تعلمون، يقول: لم تجحدون ذلك من أمره، وأنتم تعلمون صدقه؟ فأخبر -جل ثناؤه- عنهم أنهم متعمِّدون الكفر باللَّه وبرسوله على علم منهم، ومعرفةٍ من كفرهم»[1].

قال ابن كثير: «هذا تعنيف من اللَّه تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق، وكفرهم بآيات اللَّه، وصدهم عن سبيل اللَّه من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم، مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من اللَّه، بما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المرسلين -صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين-، وما بشروا به، ونوهوا من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي، سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء. وقد توعدهم تعالى على ذلك بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومعاملتهم الرسول المبشر بالتكذيب والجحود والعناد، وأخبر تعالى أنه ليس بغافل

(١) جامع البيان (٧/ ٥٢ شاكر).

عما يعملون؛ أي: وسيجزيهم على ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون»[1].

وقال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾: فإنه يعني: شهداء على أنّ الذي تصدّون عنه من السبيل حقٌّ، تعلمونه وتجدونه في كتبكم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، يقول: ليس اللَّه بغافل عن أعمالكم التي تعملونها مما لا يرضاه لعباده وغير ذلك من أعمالكم، حتى يعاجلكم بالعقوبة عليها معجَّلة، أو يؤخر ذلك لكم حتى تلقَوْهُ فيجازيكم عليها»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «أقول لما أقام سبحانه الحجة على أهل الكتاب، وبيّن بطلان شبهاتهم على نبوة محمد ﷺ وكونه على ملة إبراهيم عليه السلام أمره أن يبكّتهم على كفرهم وصدهم عن سبيل الإيمان، وابتغائه عوجًا وضلالهم بذلك على علم، فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في بيته الدالة على كونه أول بيت وضع لعبادته، وعلى بناء إبراهيم له، وتعبده فيه قبل وجود بني إسرائيل وبيت المقدس، أو بآياته على صحة نبوة محمد وإحيائه لملة إبراهيم الذي تعترفون بنبوته وفضله. ومنها ما ذكر عن البيت. ﴿وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: والحال أن اللَّه تعالى مطلع على عملكم هذا وسائر أعمالكم محيط به، أفلا تخافون أن يأخذكم به ويجازيكم عليه أشدّ الجزاء؟

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾؛ أي: لأي شيء تصرفون من آمن بمحمد ﷺ واتبعه عن الإيمان، وهو سبيل اللَّه الموصلة إلى رضوانه ورحمته بما ترقي من عقل المؤمن بالعقائد الصحيحة ومن نفسه بالأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة، تصدون عنها بالتكذيب كبرًا وحسدًا، وإلقاء الشبهات الباطلة مكابرة وبغيا، والكيد للنبي والمؤمنين بغيًا وعدوانًا ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾؛ أي: لِم تصدون عنها قاصدين بصدكم أن تكون معوجّة في نظرِ من نظرَ مَن يؤمن لكم ويغترّ بكيدكم ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ بأنها سبيل اللَّه المستقيمة، لا ترون فيها عوجًا ولا أمتًا عارفون بما ورد فيها من البشارات عن الأنبياء. ويلزم من ذلك أن من صدّ عنها ضالّ مضلّ. وقيل: الشهداء في قومكم توصَفون فيهم بالعدل وتُستَشهدون في القضايا. ومن كان كذلك

---

(١) التفسير (٢/ ٨١).

(٢) جامع البيان (٧/ ٥٤ شاكر).

كان أقدر على الصدّ. وقال الأستاذ الإمام: المعنى وأنتم شهداء على بقايا الكتاب وما يؤثر عن النبيين؛ فكان من حقكم أن تكونوا أقرب الناس إلى معرفة هذه السبيل سبيل الحق والسبق إليها بالإيمان بمحمد ﷺ.

﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ من هذا الصدّ وغيره، فهو يجازيكم عليه. فالتذييل تهديد لهم ووعيد. وقد جاء بنفي الغفلة؛ لأن صدّهم عن الإسلام كان بضروب من المكايد والحيل الخفية التي لا تروج إلا على الغافل. كما ختم الآية السابقة بكونه شهيدًا على عملهم؛ لأن العمل الذي ذكر فيها هو الكفر، وهو ظاهر مشهود، فذكر في كل آية ما يناسب المقام»[1].

قلت: ما ذكره الشيخ محمد رشيد رضا نقلا عن شيخه محمد عبده من وصف أهل الكتاب بالصد عن الإسلام -بالمكر والكيد والشبه المتنوعة على النبي ﷺ وعلى القرآن، وعلى الصحابة -رضوان اللّه عليهم- وعلى علماء الإسلام ممن كتبوا في العقيدة والتفسير والفقه- بلغت مؤلفاته المئات، وأعداد هذا الحزب بالآلاف، وتاريخهم يبتدئ ببداية النبوات، لكن التخصص لهذا النبي ﷺ ولدينه قد ظهر واضحًا في تأسيس الاستشراق وما أخرجه من شبهات، واستخرجه من كتب ومؤلفات، وإخوانهم المنصّرون الموجودون في كل مكان لا يقلون عنهم خطرًا في هذا الباب، وإذا أعجزهم هذا الأمر لجؤوا إلى التدخل العسكري والذبح والاستعمار.

وهذا الأمر نفسه هو الذي لجأ له المبتدعة في كل زمان ومكان، وخصوصًا الرافضة والصوفية والجهمية والخوارج والمرجئة، فقد تصدوا للسنة وأهلها، وحاربوهم بالشبه الكاذبة والدعايات المغرضة، وبتحريض الأمراء والسلاطين عليهم، فلا يقلون خطرًا عن أعداء الإسلام في حربهم للسنة والدين، فإن كان هؤلاء يحاربون الإسلام عمومًا فهؤلاء يحاربون السنة خصوصًا، نسأل اللّه أن يكفينا شرهم بما شاء وكيف شاء.

* * *

---

(١) تفسير المنار (٤/ ١٤-١٥).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «تأويل الآية: يا أيها الذين صدقوا اللَّه ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيهم ﷺ من عند اللَّه، إن تطيعوا جماعة ممن ينتحل الكتاب من أهل التوراة والإنجيل، فتقبلوا منهم ما يأمرونكم به، يضلوكم فيردوكم بعد تصديقكم رسول ربكم، وبعد إقراركم بما جاء به من عند ربكم كافرين، يقول: جاحدين لما قد آمنتم به وصدقتموه من الحق الذي جاءكم من عند ربكم، فنهاهم -جل ثناؤه- أن ينتصحوهم، ويقبلوا منهم رأيًا أو مشورة، ويعلمهم -تعالى ذكره- أنهم لهم منطوون على غل وغش وحسد وبغض»[1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: وكيف تكفرون أيها المؤمنون بعد إيمانكم باللَّه وبرسوله، فترتدوا على أعقابكم وأنتم تتلى عليكم آيات اللَّه؛ يعني: حجج اللَّه عليكم التي أنزلها في كتابه على نبيه محمد ﷺ، وفيكم رسوله حجة أخرى عليكم لله مع آي كتابه يدعوكم جميع ذلك إلى الحق، ويبصركم الهدى والرشاد، وينهاكم عن الغي والضلال، يقول لهم -تعالى ذكره-: فما وجه عذركم عند ربكم في جحودكم نبوة نبيكم، وارتدادكم على أعقابكم، ورجوعكم إلى أمر جاهليتكم، إن أنتم راجعتم ذلك وكفرتم، وفيه هذه الحجج الواضحة، والآيات البينة، على خطأ فعلكم ذلك إن فعلتموه»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «أما اتصال الآية بما قبلها على هذا فظاهر جلي؛ فإنه بعد ما وبّخ أهل الكتاب على كفرهم وصدّهم عن سبيل اللَّه، وهو الإسلام إثر إقامة

---

(١) جامع البيان (٧/ ٥٩-٦٠ شاكر).

(٢) جامع البيان (٦/ ٦١ شاكر).

الحجج عليهم وإزالة شبهاتهم؛ ناسب أن يخاطب المؤمنين مبينًا لهم أن من كان هذا شأنهم في الكفر، وهذا شأن ما دعوا إليه في ظهور حقيقته لا ينبغي أن يطاعوا ولا أن يسمع لهم قول. فإنهم دعاة الفتنة ورواد الكفر، ولذلك قال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ بطاعتهم واتباع أهوائهم: ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ وهي روح الهداية وحفاظ الإيمان: ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ﴾ يبين لكم ما نزل إليكم، ولكم في سنته وإخلاصه خير أسوة تغذي إيمانكم وتنير برهانكم، فهل يليق بمن أوتوا هذه الآيات، ووجد فيهم هذا الرسول الحكيم الرؤوف الرحيم، أن يتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا، حتى استحوذ عليهم الشيطان، وغلب عليهم البغي والعدوان، وعرفوا بالكذب والبهتان؟ فالاستفهام في الآية للإنكار والاستبعاد»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٤/ ١٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

★ غريب الآية:

يعتصم: الاعتصام التمسك بالشيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني: ومن يتعلق بأسباب اللَّه، ويتمسك بدينه وطاعته، فقد هدي، يقول: فقد وفق لطريق واضح، ومحجة مستقيمة غير معوجة، فيستقيم به إلى رضا اللَّه، وإلى النجاة من عذاب اللَّه، والفوز بجنته»[1].

قال ابن القيم: «ما هو الصراط المستقيم؟ فنذكر فيه قولا وجيزا، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه، وترجمتهم عنه، بحسب صفاته ومتعلقاته، وحقيقته شيء واحد؛ وهو طريق اللَّه الذي نصبه لعباده على ألسن رسله، وجعله موصلًا لعباده إليه، ولا طريق لهم إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا؛ وهو إفراده بالعبودية، وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحدًا في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحدًا في طاعته، فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول، وهذا معنى قول بعض العارفين: إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين: صدق محبته، وحسن معاملته، وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه. فأي شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين، ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله، وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته. والأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا اللَّه، والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمدًا رسول اللَّه، وهذا هو الهدى ودين الحق، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة ما بعث اللَّه به رسله، والقيام به. فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها، وقطب رحاها؛ وهي معنى قول

---

(١) جامع البيان (٦/ ٦١ شاكر).

من قال: علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة، ومعنى قول من قال: متابعة رسول اللَّه ظاهرًا وباطنًا علمًا وعملًا، ومعنى قول من قال: الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة على أمره.

وأما ما عدا هذا من الأقوال، كقول من قال: الصلوات الخمس، وقول من قال: حب أبي بكر وعمر، وقول من قال: هو أركان الإسلام الخمس التي بني عليها، فكل هذه الأقوال تمثيل وتنويع لا تفسير مطابق له، بل هي جزء من أجزائه، وحقيقته الجامعة ما تقدم واللَّه أعلم»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ وبكتابه يكون الاعتصام إذن هو حبله الممدود، ورسوله هو الوسيلة إليه، وهو ورده المورود؛ ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا يضل فيه السالك، ولا يخشى عليه من المهالك، فلا تروج عنده الشبهات، ولا تروق في عينه الترهات، وقد جاء جواب الشرط بصيغة الماضي المحقق للإشعار بأن من يلتجئ إليه تعالى ويعتصم بحبله؛ فقد تحققت هدايته، وثبتت استقامته»[٢].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٠-٤١).

(٢) تفسير المنار (٤/ ١٨).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: يا معشر من صدّق اللَّه ورسوله ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، خافوا اللَّه وراقبوه بطاعته واجتناب معاصيه ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، حقّ خوفه، وهو أن يُطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يكفر، ويُذكر فلا يُنسى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ﴾، أيها المؤمنون باللَّه ورسوله ﴿إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ لربكم، مذعنون له بالطاعة. مخلصون له الألوهةَ والعبادة»(١).

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما حذر المؤمنين من إضلال الكفار، ومن تلبيساتهم في الآية الأولى أمر المؤمنين في هذه الآيات بمجامع الطاعات، ومعاقد الخيرات. فأمرهم أولًا بتقوى اللَّه وهو قوله ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وثانيًا بالاعتصام بحبل اللَّه، وهو قوله ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾، وثالثًا بذكر نعم اللَّه، وهو قوله ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾، والسبب في هذا الترتيب أن فعل الإنسان لابد وأن يكون معللًا، إما بالرهبة وإما بالرغبة، والرهبة مقدمة على الرغبة؛ لأن دفع الضرر مقدم على جلب النفع، فقوله ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ إشارة إلى التخويف من عقاب اللَّه تعالى، ثم جعله سببا للأمر بالتمسك بدين اللَّه والاعتصام بحبل اللَّه، ثم أردفه بالرغبة، وهي قوله ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ فكأنه قال: خوف عقاب اللَّه يوجب ذلك، وكثرة نعم اللَّه توجب ذلك، فلم تبق جهة من الجهات الموجبة للفعل إلا وهي حاصلة في وجوب انقيادكم لأمر اللَّه، ووجوب طاعتكم لحكم اللَّه، فظهر بما ذكرناه أن الأمور الثلاثة المذكورة في هذه الآية مرتبة على أحسن الوجوه»(٢).

وقال ابن عاشور: «انتقل مِن تحذير المخاطبين من الانخداع لوساوس بعض

---

(١) جامع البيان (٧/ ٦٤-٦٥ شاكر).
(٢) التفسير الكبير (٨/ ١٧٦-١٧٧).

أهل الكتاب، إلى تحريضهم على تمام التَّقوى؛ لأنّ في ذلك زيادة صلاح لهم ورسوخًا لإيمانهم، وهو خطاب لأصحاب محمَّد ﷺ ويَسري إلى جميع من يكون بعدهم.

وهذه الآية أصل عظيم من أصول الأخلاق الإسلامية. والتَّقوى تقدّم تفسيرها عند قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[(١)]، وحاصلها امتثال الأمر، واجتناب المنهي عنه، في الأعمال الظَّاهرة، والنَّوايا الباطنة. وحقُّ التقوى هو أن لا يكون فيها تقصير، وتظاهر بما ليس من عمله، وذلك هو معنى قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[(٢)] لأنّ الاستطاعة هي القدرة، والتَّقوى مقدورة للنَّاس. وبذلك لم يكن تعارض بين الآيتين ولا نسخ. وقيل: هاته منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ لأنّ هاته دلّت على تقوى كاملة كما فسَّرها ابن مسعود: أن يطاع فلا يعصى، ويُشكر فلا يكفر، ويذكر فلا يُنْسى، ورووا أنّ هذه الآية لمَّا نزلت قالوا: «يا رسول اللَّه من يَقوىَ لهذا» فنزل قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فنسَخ هذه بناء على أنّ الأمر في الآيتين للوجوب، وعلى اختلاف المراد من التقويين. والحقّ أنّ هذا بيان لا نسخ، كما حقَّقه المحقِّقون، ولكن شاع عند المتقدّمين إطلاق النَّسخ على ما يشمل البيان»[(٣)].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؛ أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياذا باللَّه من خلاف ذلك»[(٤)].

وقال ابن عاشور: «فالنهي عن الموت على غير الإسلام يستلزم النَّهي عن مفارقة الإسلام في سائر أحيان الحياة، ولو كان المراد به معناه الأصلي، لكان ترخيصًا في مفارقة الإسلام إلَّا عند حضور الموت، وهو معنى فاسد وقد تقدّم ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[(٥)]»[(٦)].

---

(١) البقرة: الآية (٢).
(٢) التغابن: الآية (١٦).
(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٣٠).
(٤) التفسير (٢/ ٨٣).
(٥) البقرة: الآية (١٣٢).
(٦) التحرير والتنوير (٤/ ٣١).

وقال محمد رشيد رضا: «فالمراد بالإسلام على هذا هو الدين: إيمانه وعمله. ووجه الاختيار أنه جاء في مقابلة قوله: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ وبعد الأمر بالتقوى حق التقوى. وقيل: إن المراد به الإخلاص. وقيل: الإيمان دون العمل؛ لأنه هو الذي يستمرّ إلى الموت. أقول: وهذا النهي مبني على قاعدة: أن المرء يموت غالبًا على ما عاش عليه، فإذا عاش على اليقين والتقوى حق التقوى والاحتراس مما ينافي الإسلام مات على ذلك بفضل اللّه الذي كانت تلك القاعدة من سننه في خلقه»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية

* عن ابن مسعود في قوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ قال: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر[(٢)].

★ فوائد الأثر:

قال ابن رجب: «وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه»[(٣)].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويدخل في التقوى الكاملة فعل الواجبات، وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات، وترك المكروهات، وهو

---

(١) تفسير المنار (٤/ ١٩).

(٢) ابن أبي شيبة (٧/ ١٠٦/ ٣٤٥٥٣) وابن المبارك في الزهد (١/ ١١٨/ ٢٠) وعبد الرزاق (التفسير ١/ ١٣٤) وابن أبي حاتم (٣/ ٧٢٢/ ٣٩٠٨) والطبراني (٩/ ٩٢/ ٨٥٠٢) والحاكم (٢/ ٢٩٤) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، والنحاس: الناسخ والمنسوخ (٢/ ١٢٨/ ٢٩٩). وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٢٦) وقال: «رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح والآخر ضعيف». قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٨٢) -عن إسناد ابن أبي حاتم-: «هذا إسناد صحيح موقوف وقد تابع مرة عليه عمرو بن ميمون عن ابن مسعود، وقد رواه ابن مردويه من حديث يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن سفيان الثوري عن زبيد عن مرة عن عبد اللّه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «**اتقوا اللّه حق تقاته**..» فذكره. وكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث مسعر عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود مرفوعًا فذكره ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا قال، والأظهر أنه موقوف واللّه أعلم».

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٨).

أعلى درجات التقوى، قال اللَّه تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[2]»[3].

وقال أيضًا: «وشكره يدخل فيه جميع فعل الطاعات. ومعنى ذكره فلا ينسى: ذكر العبد بقلبه لأوامر اللَّه في حركاته وسكناته وكلماته فيمتثلها، ولنواهيه في ذلك كله فيجتنبها»[4].

* عن ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ قرأ هذه الآية ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ قال رسول اللَّه ﷺ: «**لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه**»[5].

★ غريب الحديث:

الزقوم: ما وصف اللَّه في كتابه العزيز فقال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۞ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[6] وهي فعُّول من الزقم: اللقم الشديد، والشرب المفرط.

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «بالغوا في التقوى حتى لا تتركوا من المستطاع منها شيئًا وهذا معنى قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[7].

---

(١) البقرة الآيات (١-٤).
(٢) البقرة: الآية (١٧٧).
(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٩-٤٠٠).
(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠١-٤٠٢).
(٥) أحمد (١/ ٣٠٠-٣٠١ و٣٣٨) والترمذي (٤/ ٦٠٩/ ٢٥٨٥) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي: الكبرى (٦/ ٣١٣/ ١١٠٧٠) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٦/ ٤٣٢٥) والحاكم (٢/ ٢٩٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وأقره الذهبي، وابن حبان (الإحسان ١٦/ ٥١١/ ٧٤٧٠).
(٦) الصافات: الآيتان (٦٤-٦٥).
(٧) التغابن: الآية (١٦).

وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ تأكيد لهذا المعنى؛ أي: لا تكونن على حال سوى حال الإسلام إذا أدرككم الموت، فمن واظب على هذه الحالة وداوم عليها مات مسلمًا، وسلم في الدنيا من الآفات، وفي الآخرة من العقوبات، ومن تقاعد عنها وقع في العذاب في الآخرة، ومن ثم أتبعه ﷺ بقوله: «**لو أن قطرة من الزقوم...**» الحديث»[١].

* عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

يزحزح: أي: نحاه عن مكانه وباعده منه؛ يعني: باعده عن النار.

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**وهو يؤمن بالله واليوم الآخر**» **قال ابن علان**: المراد ليدم على الإيمان بذلك حتى يأتيه الموت وهو كذلك، فهو في الحقيقة أمر بدوام الإيمان، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾»[٣].

* عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاثة أيام: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل**»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «قال العلماء: هذا تحذير من القنوط وحث على الرجاء عند الخاتمة»[٥].

---

(١) شرح الطيبي (١١/ ٣٥٩١).
(٢) أحمد (٢/ ١٦١) ومسلم (٣/ ١٤٧٢-١٤٧٣/ ١٨٤٤) وأبو داود (٤/ ٤٤٨/ ٤٢٤٨) مختصرًا دون ذكر موضع الشاهد، والنسائي (٧/ ١٧٢-١٧٣/ ٤٢٠٢) وابن ماجه (٢/ ١٣٠٦-١٣٠٧/ ٣٩٥٦).
(٣) دليل الفالحين (٣/ ١٣٣).
(٤) أحمد (٣/ ٣١٥) ومسلم (٤/ ٢٢٠٦/ ٢٨٧٧) وأبو داود (٣/ ٤٨٤-٤٨٥/ ٣١١٣) وابن ماجه (٢/ ١٣٩٥/ ٤١٦٧).
(٥) شرح النووي (١٧/ ١٧٢).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا ويكونان سواء، وقيل: يكون الخوف أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محضه؛ لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى والإذعان له»(١).

قال الخطابي: «إنما يحسن الظن بالله من حسن عمله، فكأنه قال: أحسنوا أعمالكم يحسن ظنكم بالله، فمن ساء عمله ساء ظنه»(٢).

* عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ دخل على شاب، وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك؟**» قال: والله، يا رسول الله، إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف**»(٣).

★ فوائد الحديث:

قال السندي: «قوله: «**لا يجتمعان في قلب عبد**»: يدل على أنه ينبغي وجود الأمرين على الدوام حتى في ذلك الوقت، وأنه لا ينبغي أن يغلب الرجاء في ذلك الوقت بحيث لا يبقى من الخوف شيء»(٤).

قال الطيبي: «وأيضًا راعى في نسبة الرجاء إلى الله، والخوف إلى الذنب أدبًا حسنًا، وكذلك ينبغي للمؤمن أن يحسن الظن بالله، ويرجح جانب الرجاء على الخوف»(٥).

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ منهم، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا**

---

(١) شرح النووي (١٧/ ١٧٢). (٢) عون المعبود (٨/ ٣٨٢).

(٣) الترمذي (٣/ ٣١١/ ٩٨٣) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣/ ٤٢٦١). وحسن إسناده المنذري في الترغيب (٤/ ٢٦٨).

(٤) شرح سنن ابن ماجه (٢/ ٥٦٦). (٥) شرح الطيبي (٤/ ١٣٦٩).

تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا ، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً[١] .

★ **غريب الحديث:**

باعًا : قال الخطابي : الباع معروف ، وهو قدر مد اليدين . وقال الباجي : الباع طول ذراعي الإنسان وعضديه وعرض صدره ، وذلك قدر أربعة أذرع ، وهو من الدواب قدر خطوها في المشي وهو ما بين قوائمها .

هرولة : قال ابن التين : والهرولة : ضرب من المشي السريع وهي دون العدو .

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي : «قال التوربشتي : الظن لما كان واسطة بين الشك واليقين استعمل تارة بمعنى يقين وذلك إذا ظهرت أماراته ، وبمعنى الشك إذا ضعفت أماراته ، وفي المعنى الأول ورد قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾[٢] ؛ أي : يوقنون ، وعلى الثاني قوله تعالى : ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾[٣] ؛ أي : توهموا .

قال القاضي البيضاوي : الظن في الحديث يصح إجراؤه على ظاهره ، ويكون المعنى : أنا عند ظن عبدي بي ؛ أي : أعامله على حسب ظنه ، وأفعل به ما يتوقعه مني . والمراد : الحث على تغليب الرجاء على الخوف ، وحسن الظن بالله»[٤] .

* عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : «بايعت رسول اللَّه ﷺ أن لا أخرَّ إلا قائمًا»[٥] .

★ **فوائد الحديث:**

قال أبو عبيد : وقد أكثر الناس في معنى هذا الحديث وما له عندي وجه إلا أنه أراد بقوله : «**لا أخرّ**» ، لا أموت ؛ لأنه إذا مات فقد خرّ وسقط .

---

(١) أحمد (٢/ ٢٥١) والبخاري (١٣/ ٤٧٣-٤٧٤/ ٧٤٠٥) ومسلم (٤/ ٢٠٦١/ ٢٦٧٥) والترمذي (٥/ ٥٤٢/ ٣٦٠٣) والنسائي في الكبرى (٤/ ٤١٢/ ٧٧٣٠) وابن ماجه (٢/ ١٢٥٥-١٢٥٦/ ٣٨٢٢) .

(٢) البقرة : الآية (٤٦) .

(٣) القصص : الآية (٣٩) .

(٤) شرح الطيبي (٥/ ١٧٢٣) .

(٥) أحمد (٣/ ٤٠٢) والنسائي (٢/ ٥٥١/ ١٠٨٣) ، والحديث صحح إسناده الشيخ ناصر الدين الألباني في «صحيح سنن النسائي» .

وقوله: «**إلا قائمًا**»: إلا ثابتًا على الإسلام؛ وكل من ثبت على شيء وتمسك به فهو قائم عليه. قال اللَّه تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[1] وإنما هذا من المواظبة على الدين والقيام به، وقال: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾[2]»[3].

* * *

(١) آل عمران: الآية (١١٣).

(٢) آل عمران: الآية (٧٥).

(٣) غريب الحديث (٢/ ١٣٠-١٣١).

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾(١)

★ **غريب الآية:**

حبل الله: الحبل السبب الموصل إلى البغية. والمقصود به هنا القرآن والإسلام.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «والاعتصام: افتعال من العصمة وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف. فالعصمة: الحمية، والاعتصام: الاحتماء. ومنه سميت القلاع: العواصم لمنعها وحمايتها.

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية: على الاعتصام بالله، والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين.

فأما الاعتصام بحبله: فإنه يعصم من الضلالة، والاعتصام به: يعصم من الهلكة. فإن السائر إلى الله كالسائر على طريق نحو مقصده فهو محتاج إلى هداية الطريق والسلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة، وأن يهديه إلى الطريق، والعدة والقوة والسلاح التي بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلم بها في طريقه. ولهذا اختلفت عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى». اهـ(٢).

وقال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: وتعلقوا بأسباب الله جميعًا. يريد بذلك -تعالى ذكره-: وتمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم

---

(١) الآية (١٠٣).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٦٠-٤٦١).

في كتابه إليكم من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر اللَّه، وأما الحبل، فإنه السبب الذي يوصل به إلى البغية والحاجة، ولذلك سمي الأمان حبلًا؛ لأنه سبب يوصل له إلى زوال الخوف، والنجاة من الجزع والذعر، ومنه قول أعشى بني ثعلبة:

وإذا تجوّزها حبال قبيلة أخذت من الأخرى إليك حبالها

ومنه قول اللَّه ﷻ: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[1]»[2].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ ثنّى أمرهم بما فيه صلاح أنفسهم لأخراهم بأمرهم بما فيه صلاح حالهم في دنياهم، وذلك بالاجتماع على هذا الدّين، وعدم التّفرّق ليكتسبوا باتّحادهم قوّة ونماء. والاعتصام افتعال من عَصَم، وهو: طلب ما يعصم؛ أي: يمنع.

والحَبْل: ما يشدّ به للارتقاء، أو التدلّي، أو للنّجاة من غَرَق، أو نحوه، والكلام تمثيل لهيئة اجتماعهم، والتفافهم على دين اللَّه، ووصاياه، وعهوده بهيئة استمساك جماعة بحبل ألقي إليهم من مُنقذ لهم من غرق أو سقوط، وإضافة الحبل إلى اللَّه قرينة هذا التّمثيل. وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ حال، وهو الّذي رجّح إرادة التّمثيل، إذ ليس المقصود الأمر باعتصام كُلّ مسلم في حال انفراده اعتصامًا بهذا الدّين؛ بل المقصود الأمر باعتصام الأمّة كُلّها، ويحصل في ضِمن ذلك أمرُ كُلّ واحد بالتّمسك بهذا الدّين، فالكلام أمر لهم بأن يكونوا على هاته الهيئة، وهذا هو الوجه المناسب لتمام البلاغة لكثرة ما فيه من المعاني»[3].

وقال ابن العربي: «التفرق المنهي عنه يحتمل ثلاثة أوجه:

الأول: التفرق في العقائد، لقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾[4].

الثاني: قوله ﷺ: «**لا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد اللَّه**

---

(١) آل عمران: الآية (١١٢).

(٢) جامع البيان (٧/ ٧٠-٧١ شاكر).

(٣) التحرير والتنوير (٤/ ٣١).

(٤) الشورى: الآية (١٣).

إخوانا»(١)، ويعضده قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾.

الثالث: ترك التخطئة في الفروع والتبري فيها، وليمض كل أحد على اجتهاده؛ فإن الكل بحبل اللّه معتصم، وبدليله عامل؛ وقد قال ﷺ: «**لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة**»(٢)؛ فمنهم من حضرت العصر فأخرها حتى بلغ بني قريظة أخذا بظاهر قول النبي ﷺ. ومنهم من قال: لم يرد هذا منا؛ يعني: وإنما أراد الاستعجال فلم يعنف النبي عليه السلام أحدا منهم»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاعتصام بالكتاب والسنة، والمبايعة عليهما، ووجوب طاعة الإمام

* عن ابن مسعود في قول اللّه ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ قال: حبل اللّه القرآن(٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن تيمية: «وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ قيل: حبل اللّه هو دين الإسلام، وقيل: القرآن، وقيل: عهده، وقيل: طاعته وأمره، وقيل: جماعة المسلمين؛ وكل هذا حق. وكذلك إذا قلنا: الكتاب والسنة والإجماع، فمدلول الثلاثة واحد، فإن كل ما في الكتاب فالرسول موافق له، والأمة مجمعة عليه من حيث الجملة، فليس في المؤمنين إلا من يوجب اتباع الكتاب، وكذلك كل ما سنه الرسول ﷺ فالقرآن يأمر باتباعه فيه، والمؤمنون مجمعون على ذلك. وكذلك كل ما أجمع عليه المسلمون، فإنه لا يكون إلا حقًّا موافقًا لما في الكتاب والسنة»(٥).

---

(١) أخرجه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أحمد (٣/ ١١٠)، والبخاري (١٠/ ٦٠٣/ ٦٠٧٦)، ومسلم (٤/ ١٩٨٣/ ٢٥٥٩)، وأبو داود (٥/ ٢١٣-٢١٤/ ٤٩١٠)، والترمذي (٤/ ٢٩٠/ ١٩٣٥) وفي الباب عن أبي هريرة وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: البخاري (٢/ ٥٥٥/ ٩٤٦)، ومسلم (٣/ ١٣٩١/ ١٧٧٠) بلفظ: الظهر بدل العصر.

(٣) أحكام القرآن (١/ ٢٩١).

(٤) سعيد بن منصور (٣/ ١٠٨٣/ ٥١٩)، وابن جرير (٤/ ٣١)، والطبراني (٩/ ٢١٢/ ٩٠٣٢) وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٢٦) وقال: «رجاله رجال الصحيح».

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٠).

* عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أحدهما أعظم من الآخر: كتاب اللَّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**»[١].

★ غريب الحديث:

عترتي: عترة الرجل أخص أقاربه.

تخلفوني: يقال: خلفت الرجل في أهله، إذا أقمت بعده فيهم وقمت عنه بما كان يفعله.

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «قوله: «**ما إن تمسكتم به**» ما: موصولة، والجملة الشرطية صلتها، وإمساك الشيء التعلق به وحفظه، قال اللَّه تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾[٢]. واستمسك بالشيء إذا تحرى الإمساك به، ولهذا لما ذكر التمسك عقبه بالمتمسك به صريحًا وهو الحبل في قوله: «**كتاب اللَّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض**» وفيه تلويح إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[٣] كأن الناس واقعون في مهواة طبيعتهم مشتغلون بشهواتها، وأن اللَّه يريد بلطفه رفعهم فيدلي **حبل** القرآن إليهم ليخلصهم من تلك الورطة، فمن تمسك به نجا، ومن أخلد إلى الأرض هلك.

ومعنى التمسك بالقرآن: العمل بما فيه، وهو الائتمار بأوامره، والانتهاء عن نواهيه. والتمسك بالعترة محبتهم والاهتداء بهديهم وسيرتهم»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤-١٧)، والترمذي (٥/ ٦٢٢/ ٣٧٨٨) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن أبي عاصم (٢/ ٦٤٣-٦٤٤/ ١٥٥٣)، والطبراني (٣/ ٦٢-٦٣/ ٢٦٧٨). من طرق عن عطية العوفي عن أبي سعيد ﷺ، وعطية هذا قال الحافظ في التقريب: «صدوق يخطئ كثيرًا، كان شيعيًّا مدلسًا». قال الشيخ الألباني في الصحيحة (٤/ ٣٥٧): وهو إسناد حسن في الشواهد. وله شاهد من حديث جابر عند مسلم (٢/ ٨٨٦/ ١٢١٨) بلفظ: «**وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب اللَّه..**»، وآخر من حديث زيد بن أرقم وسيأتي في نفس الآية.

(٢) الحج: الآية (٦٥).

(٣) الأعراف: الآية (١٧٦).

(٤) شرح المشكاة (١٢/ ٣٩٠٩).

وقال المباركفوري: «قوله: «**أحدهما**» وهو كتاب اللَّه «**أعظم من الآخر**» وهو العترة «**كتاب الله**» بالنصب والرفع «**حبل ممدود**»؛ أي: هو حبل ممدود من السماء إلى الأرض يوصل العبد إلى ربه ويتوسل به إلى قربه «**وعترتي**»؛ أي: والثاني عترتي «**أهل بيتي**» بيان لعترتي، قال الطيبي في قوله: «**إني تارك فيكم**» إشارة إلى أنهما بمنزلة التوأمين الخلفين عن رسول اللَّه ﷺ، وأنه يوصي الأمة بحسن المخالقة معهما، وإيثار حقهما على أنفسهم، كما يوصي الأب المشفق الناس في حق أولاده، ويعضده ما في حديث زيد بن أرقم عند مسلم: «**أذكركم اللَّه في أهل بيتي**»(١) كما يقول الأب المشفق: اللَّه اللَّه في حق أولادي. «**ولن يتفرقا**»؛ أي: كتاب اللَّه وعترتي في مواقف القيامة «**حتى يردا عليّ**» بتشديد الياء «**الحوض**»؛ أي: الكوثر يعني فيشكرانكم صنيعكم عندي «**فانظروا كيف تخلفوني**» بتشديد النون وتخفف؛ أي: كيف تكونون بعدي خلفاء؛ أي: عاملين متمسكين بهما»(٢).

* عن أبي شريح الخزاعي قال: خرج علينا رسول اللَّه ﷺ فقال: «**أبشروا أبشروا، أليس تشهدون أن لا إله إلا اللَّه وأني رسول الله؟**» قالوا: نعم. قال: «**فإن هذا القرآن سبب، طرفه بيد اللَّه وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدًا**»(٣).

★ غريب الحديث:

سبب: أصل السبب الحبل الذي يتوصل به إلى الماء، ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى شيء كقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾(٤)؛ أي: الوصل والمودات. اهـ.

* عن زيد بن أرقم قال: قام رسول اللَّه ﷺ يومًا فينا خطيبًا بماء يدعى خمًّا بين مكة والمدينة، فحمد اللَّه وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «**أما بعد، ألا أيها**

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا. (٢) تحفة الأحوذي (١٠/ ١٩٧).

(٣) أخرجه: الطبراني (٢٢/ ١٨٨/ ٤٩١)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٢٥/ ٣٠٠٠٦)، وابن حبان: الإحسان (١/ ٣٢٩-٣٣٠/ ١٢٢) وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٦٩) وقال: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح». وجود إسناده المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٢٤).

(٤) البقرة: الآية (١٦٦).

الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما: كتاب اللَّه فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب اللَّه واستمسكوا به». فحث على كتاب اللَّه ورغب فيه، ثم قال: «**وأهل بيتي، أذكركم اللَّه في أهل بيتي، أذكركم اللَّه في أهل بيتي، أذكركم اللَّه في أهل بيتي**». فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته. ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم(١).

* عن زيد بن ثابت قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إني تارك فيكم خليفتين: كتاب اللَّه حبل ممدود ما بين السماء والأرض أو ما بين السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض**»(٢).

⋆ فوائد الحديثين:

قال ابن الأثير: «سماهما «**ثقلين**»: لأن الأخذ بهما والعمل بهما ثقيل. ويقال لكل خطير نفيس: ثَقَل، فسماهما ثقلين إعظامًا لقدرهما وتفخيمًا لشأنهما»(٣).

قال القاضي: «وقوله في كتاب اللَّه «**هو حبل الله**»(٤)؛ أي: عهده الذي يعتصم به، وقيل في قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾(٥)؛ أي: بعهده. قال أبو عبيد: هو القرآن، وترك الفرقة. ومنه قول عبد الله: عليك بحبل اللَّه، فإنه كتابه، ويكون -أيضًا- بمعنى عهده هنا؛ أي: أمانته من عذابه. ومنه قوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾(٦)؛ أي: عهد وأمان، ويكون الحبل هنا بمعنى: السبب الموصّل إليه؛ أي: إلى طاعته ورضاه ورحمته، استعارة من الحبل

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦٦-٣٦٧)، ومسلم (٤/ ١٨٧٣/ ٢٤٠٨(٣٦)، والترمذي (٥/ ٦٢٢/ ٣٧٨٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٥١/ ٨١٧٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٨١-١٨٢)، والطبراني (٥/ ١٥٣-١٥٤/ ٤٩٢١)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ١٦٢-١٦٣): رواه أحمد وإسناده جيد، وفي (١/ ١٧٠): «رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات».

(٣) النهاية (١/ ٢١٦).

(٤) هي رواية أخرى لمسلم (٤/ ١٨٧٤/ ٢٤٠٨ (٣٧)».

(٥) آل عمران: الآية (١٠٣).

(٦) آل عمران: الآية (١١٢).

المعروف للتوصل إلى استقاء الماء، والصعود تجاه النخل وغير ذلك من المنافع.

ويكون -أيضًا- تسمية القرآن حبل اللَّه؛ أي: نوره الذي هدى به، كما قال في الحديث بعده: «**فيه الهدى والنور**»، وكما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[1]. وقد جاء في الحديث الآخر: «**كتاب اللَّه حبل ممدود بين السماء والأرض**»»[2].

وقال القاري: ««**فخذوا بكتاب الله**»؛ أي: استنباطًا وحفظًا وعلمًا «**واستمسكوا به**»؛ أي: وتمسكوا به اعتقادًا وعملًا، ومن جملة كتاب اللَّه: العمل بأحاديث رسول اللَّه ﷺ لقوله سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[3] و﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[4] و﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[5] وفي رواية: «**فتمسكوا بكتاب اللَّه وخذوا به**»»[6].

قال الشيخ الألباني: «واعلم أيها القارئ الكريم، أن من المعروف أن الحديث مما يحتج به الشيعة، ويلهجون بذلك كثيرًا، حتى يتوهم بعض أهل السنة أنهم مصيبون في ذلك، وهم جميعًا واهمون في ذلك، وبيانه من وجهين:

الأول: أن المراد من الحديث في قوله ﷺ: «**عترتي**» أكثر مما يريده الشيعة، ولا يرده أهل السنة؛ بل هم مستمسكون به، ألا وهو أن العترة فيه هم أهل بيته ﷺ، وقد جاء ذلك موضحًا في بعض طرقه كحديث الترجمة: «**عترتي أهل بيتي**» وأهل بيته في الأصل هم نساؤه ﷺ، و فيهن الصديقة عائشة -رضي الله عنهن جميعًا- كما هو صريح قوله تعالى في الأحزاب: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[7] بدليل الآية التي قبلها والتي بعدها: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾[8]،

---

(١) النساء: الآية (١٧٤).
(٢) إكمال المعلم (٧/ ٤٢٠).
(٣) الحشر: الآية (٧).
(٤) النساء: الآية (٨٠).
(٥) آل عمران: الآية (٣١).
(٦) المرقاة (١٠/ ٥١٧).
(٧) الآية (٣٣).
(٨) الأحزاب الآيات (٣٢-٣٤).

وتخصيص الشيعة (أهل البيت) في الآية بعلي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ دون نسائه ﷺ من تحريفهم لآيات الله تعالى انتصارًا لأهوائهم كما هو مشروح في موضعه، و حديث الكساء وما في معناه غاية ما فيه توسيع دلالة الآية ودخول علي وأهله فيها كما بينه الحافظ ابن كثير و غيره، و كذلك حديث «**العترة**» قد بين النبي ﷺ أن المقصود أهل بيته ﷺ بالمعنى الشامل لزوجاته وعلي وأهله. و لذلك قال التوربشتي - كما في المرقاة (٥/ ٦٠٠): «عترة الرجل: أهل بيته ورهطه الأدنون، ولاستعمالهم «العترة» على أنحاء كثيرة بينها رسول الله ﷺ بقوله: «**أهل بيتي**» ليعلم أنه أراد بذلك نسله وعصابته الأدنين وأزواجه».

والوجه الآخر: أن المقصود من «**أهل البيت**» إنما هم العلماء الصالحون منهم والمتمسكون بالكتاب والسنة، قال الإمام أبو جعفر الطحاوي -رحمه الله تعالى-: ««**العترة**» هم أهل بيته ﷺ الذين هم على دينه وعلى التمسك بأمره». و ذكر نحوه الشيخ علي القاري في الموضع المشار إليه آنفًا. ثم استظهر أن الوجه في تخصيص أهل البيت بالذكر ما أفاده بقوله: «إن أهل البيت غالبًا يكونون أعرف بصاحب البيت و أحواله، فالمراد بهم أهل العلم منهم المطلعون على سيرته، الواقفون على طريقته، العارفون بحكمه وحكمته. و بهذا يصلح أن يكون مقابلًا لكتاب الله سبحانه كما قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1]».

قلت: ومثله قوله تعالى في خطاب أزواجه ﷺ في آية التطهير المتقدمة: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾. فتبين أن المراد بـ(أهل البيت) المتمسكين منهم بسنته ﷺ، فتكون هي المقصود بالذات في الحديث، ولذلك جعلها أحد (الثقلين) في حديث زيد بن أرقم المقابل للثقل الأول وهو القرآن، وهو ما يشير إليه قول ابن الأثير في النهاية: «سماهما (ثقلين) لأن الآخذ بهما (يعني الكتاب والسنة) والعمل بهما ثقيل، و يقال لكل خطير نفيس (ثقل)، فسماهما (ثقلين) إعظامًا لقدرهما وتفخيمًا لشأنهما».

قلت: والحاصل أن ذكر أهل البيت في مقابل القرآن في هذا الحديث كذكر سنة

---

(١) البقرة: الآية (١٢٩).

الخلفاء الراشدين مع سنته ﷺ في قوله: «**فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين...**»[(١)]. قال الشيخ القاري (١/ ١٩٩): «فإنهم لم يعملوا إلا بسنتي، فالإضافة إليهم، إما لعملهم بها، أو لاستنباطهم واختيارهم إياها»[(٢)].

* جاء عبد اللَّه بن عمر إلى عبد اللَّه بن مطيع، حين كان من أمر الحرة ما كان، زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس، أتيتك لأحدثك حديثًا سمعت رسول اللَّه ﷺ يقوله. سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من خلع يدًا من طاعة لقي اللَّه يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قوله: «**من طاعة**» أي طاعة كانت قليلة أو كثيرة. ولما كان وضع اليد كناية عن العهد وإنشاء البيعة، لجري العادة على وضع اليد على اليد حال المعاهدة، كنى عن النقض بخلع اليد ونزعها، يريد من نقض العهد وخلع نفسه عن بيعة الإمام، لقي اللَّه تعالى آثمًا لا عذر له»[(٤)].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمِّيَّة يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل فقِتلة جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه**»[(٥)].

★ **غريب الحديث:**

عمية: قيل هو فِعِّيلة من العماء: الضلالة.

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٦-١٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٣-١٥/ ٤٦٠٧)، والترمذي (٥/ ٤٣/ ٢٦٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (١/ ١٧٨-١٧٩/ ٥)، والحاكم (١/ ٩٥-٩٧) ووافقه الذهبي، كلهم من حديث العرباض بن سارية ﷺ.

(٢) السلسلة الصحيحة (٤/ ٣٥٩-٣٦١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٨٣)، ومسلم (٣/ ١٤٧٨/ ١٨٥١).

(٤) شرح الطيبي (٨/ ٢٥٦٤).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٦)، ومسلم (٣/ ١٤٧٦-١٤٧٧/ ١٨٤٨)، والنسائي (٧/ ١٣٩-١٤٠/ ٤١٢٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٢/ ٣٩٤٨) مختصرا.

عصبة: من التعصب وهو الغضب للعصبة وهم الأقارب من جهة الأب يغضب لهم ويحامي عنهم وإن كانوا مبطلين.

يتحاشى: أي: لا يفزع لذلك ولا يكترث له ولا ينفر منه.

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «والمعنى أن من خرج عن طاعة الإمام وفارق جماعة الإسلام، وشذ عنهم وخالف إجماعهم ومات على ذلك، فمات على هيئة كان يموت عليها أهل الجاهلية؛ لأنهم كانوا لا يرجعون إلى طاعة أمير، ولا يتبعون هدى إمام؛ بل كانوا مستنكفين عنها مستبدين في الأمور، لا يجتمعون في شيء ولا يتفقون على رأي».

وقال: «قوله: «**تحت راية عمية**» كناية عن جماعة مجتمعين على أمر مجهول لا يعرف أنه حق أو باطل، فيدعون الناس إليه ويقاتلون له».

وقال أيضًا: «فيه أن من قاتل تعصبًا لا لإظهار دينه، ولا لإعلاء كلمة اللَّه، وإن كان المغضوب له محقًّا كان على الباطل»[١].

* * *

(١) شرح الطيبي (٨/ ٢٥٦١).

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

★ غريب الآية:

ألَّف: من الإلف، وهو اجتماع مع التمام.

شفا حفرة: أي طرفها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وتأويل ذلك: واذكروا أيها المؤمنون نعمة اللَّه عليكم التي أنعمَ بها عليكم، حين كنتم أعداء في شرككم، يقتل بعضكم بعضًا، عصبيةً في غير طاعة اللَّه ولا طاعة رسوله، فألف اللَّه بالإسلام بين قلوبكم، فجعل بعضكم لبعض إخوانًا بعد إذ كنتم أعداءً تتواصلون بألفة الإسلام، واجتماع كلمتكم عليه..

وقال: فالنعمة التي أنعم اللَّه على الأنصار التي أمرهم -تعالى ذكره- في هذه الآية أن يذكرُوها، هي ألفة الإسلام، واجتماع كلمتهم عليها، والعداوةُ التي كانت بينهم التي قال اللَّه ﷻ: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ فإنها عداوة الحروب التي كانت بين الحيين من الأوس والخزرج في الجاهلية قبل الإسلام،.. فذكَّرهم -جل ثناؤه- إذ وعظهم عظيمَ ما كانوا فيه في جاهليتهم من البلاء والشقاء بمعاداة بعضهم بعضًا، وقتل بعضهم بعضًا، وخوف بعضهم من بعض، وما صارُوا إليه بالإسلام واتباع الرّسول ﷺ، والإيمان به وبما جاء به، من الائتلاف والاجتماع، وأمن بعضهم من بعض، ومصير بعضهم لبعض إخوانًا»(١).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم

---

(١) جامع البيان (٧/ ٧٧-٧٨ شاكر).

حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن وإحن وذحول[١] طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء اللَّه بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانا متحابين بجلال اللَّه، متواصلين في ذات اللَّه، متعاونين على البر والتقوى، قال اللَّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ﴾[٢]، وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فأنقذهم اللَّه منها أن هداهم للإيمان»[٣].

قال القرطبي: «أمر تعالى بتذكر نعمه وأعظمها الإسلام، واتباع نبيه محمد ﷺ، فإن به زالت العداوة والفرقة، وكانت المحبة والألفة، والمراد الأوس والخزرج، والآية تعم»[٤].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ تصوير لحالهم الَّتي كانوا عليها ليحصل من استفظاعها انكشاف فائدة الحالة الَّتي أمروا بأن يكونوا عليها، وهي الاعتصام جميعًا بجامعة الإسلام الَّذي كان سبب نجاتهم من تلك الحالة، وفي ضمن ذلك تذكير بنعمة اللَّه تعالى الَّذي اختار لهم هذا الدّين، وفي ذلك تحريض على إجابة أمره تعالى إياهم بالاتِّفاق. والتَّذكيرُ بنعمة اللَّه تعالى طريق من طُرق مواعظ الرّسل. قال تعالى حكاية عن هود: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[٥]وقال عن شعيب: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ﴾[٦] وقال اللَّه لموسى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ﴾[٧]. وهذا التَّذكير خاصّ بمن أسلم من المسلمين بعد أن كان في الجاهلية؛ لأنّ الآية خطاب للصّحابة، ولكن المنّة به مستمرة على سائر المسلمين؛ لأن كُلّ جيل يُقَدّر أن لو لم يَسبق إسلام الجيل الَّذي قبله لكانوا هم أعداء، وكانوا على شفا حفرة من النَّار.

والظرفية في قوله: ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ معتبر فيها التَّعقيب من قوله: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ إذ النعمة لم تكن عند العداوة، ولكن عند حصول التأليف عقب تلك العداوة.

---

(١) ذحول: جمع ذحل، وهو الثأر. يقال: طلب بذحله، أي: بثأره.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان (٦٢-٦٣).

(٣) التفسير (٢/ ٨٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٠٦).

(٥) الأعراف: الآية (٦٩).

(٦) الأعراف: الآية (٨٦).

(٧) إبراهيم: الآية (٥).

والخطاب للمؤمنين وهم يومئذ المهاجرون والأنصار وأفراد قليلون من بعض القبائل القريبة، وكان جميعهم قبل الإسلام في عداوة وحروب، فالأوس والخزرج كانت بينهم حروب دامت مائة وعشرين سنة قبل الهجرة، ومنها كان يوم بعاث، والعرب كانوا في حروب وغارات؛ بل وسائر الأمم الّتي دعاها الإسلام كانوا في تفرّق وتخاذل، فصار الّذين دخلوا في الإسلام إخوانًا وأولياء بعضهم لبعض، لا يصدّهم عن ذلك اختلاف أنساب، ولا تباعد مواطن، ولقد حاولت حكماؤهم وأولو الرأي منهم التأليف بينهم، وإصلاح ذات بينهم، بأفانين الدّعاية من خطابة وجاه وشعر فلم يصلوا إلى ما ابتغوا حتّى ألّف اللّه بين قلوبهم بالإسلام فصاروا بذلك التّأليف بمنزلة الإخوان»[١].

وقال الشنقيطي: «لم يبيّن هنا ما بلغته معاداتهم من الشدة، ولكنّه بيّن في موضع آخر أن معاداتهم بلغت من الشدة أمرًا عظيمًا حتى لو أنفق ما في الأرض كله؛ لإزالتها وللتأليف بين قلوبهم لم يفد ذلك شيئًا، وذلك في قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «يشير إلى ما كان عليه المؤمنون في عصر التنزيل من أخوة الإيمان التي بها قاسم الأنصار المهاجرين أموالهم وديارهم، وبها كانوا يؤثر بعضهم بعضًا بالشيء على نفسه وهو في خصاصة وحاجة شديدة إلى ذلك الشيء بعد ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة والبغضاء وتسافك الدماء ما هو معروف في جملته للجماهير، وفي تفاصيله الغريبة للمطلعين على أخبارهم المروية والمدونة، ومنها أن الحروب تطاولت بين الأوس والخزرج مئة وعشرين سنة حتى أطفأها الإسلام، وألف اللّه بين قلوبهم برسوله -عليه الصلاة والسلام-، فهذا بعض ما أفادهم الإسلام في حياتهم الدنيا، وقد أنقذهم فيما يستقبلون من أمر الآخرة مما هو شر، وأدهى وأمر، وذلك قوله ﷻ: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ﴾ أي كنتم بوثنيتكم وشرككم باللّه تعالى وما يتبعه من الخرافات

(١) التحرير والتنوير (٤/ ٣٢-٣٣).
(٢) أضواء البيان (١/ ٢٨٥).

والمفاسد التي أطفأت نور الفطرة وهبطت بالأرواح إلى درك سافل حتى كانت كأنها على طرف حفرة يوشك أن تنهار بها في النار . .

فما أعظم منة اللَّه تعالى على المؤمنين الصادقين لاسيما الأولين الذين خوطبوا بهذه الآية أولا أن أخرجهم بالإسلام من الشرك ومخازيه وشقائه، وألف بينهم حتى صاروا بهذه الألفة أسعد الناس، ثم صاروا سادات الأرض، وأنقذهم بذلك من النار فكانوا به سعداء الدارين والفائزين بالحسنيين، أفليس أول واجب من شكر هذه النعمة التي لا تفضلها نعمة أن يعرضوا عن وساوس ودسائس أولئك المغرورين بسلفهم من الأنبياء وهم ليسوا على شيء من هدايتهم؟ بلى، فقد وضح الحق، وبطل الإفك»[1].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ نعمة أخرى، وهي نعمة التَّعليم والإرشاد، وإيضاح الحقائق حتَّى تكمل عقولهم، ويَتَبَيَّنوا مَا فيه صلاحهم. والبيان هنا بمعنى الإظهار والإيضاح. والآيات يجوز أن يكون المراد بها النعم، كقول الحرث بن حلزة:

مَنْ لنا عنده من الخَيْر آيا تٌ ثلاث في كلّهن القضاء

ويجوز أن يراد بها دلائل عنايته تعالى بهم، وتثقيف عقولهم وقلوبهم بأنوار المعارف الإلهية. وأن يراد بها آيات القرآن فإنها غاية في الإفصاح عن المقاصد وإبلاغ المعاني إلى الأذهان»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في هدي النبي ﷺ في تأليف القلوب وجبرها، وأن ذلك من كمال نبوته وصحة رسالته

* عن عبد اللَّه لما أفاء اللَّه على رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئًا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «**يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا فهداكم اللَّه بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم اللَّه بي؟ وكنتم عالة فأغناكم اللَّه بي؟**». كلما قال شيئًا قالوا: اللَّه

(١) تفسير المنار (٤/ ٢١-٢٢).
(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٣٦).

ورسوله أمن، قال: «**ما يمنعكم أن تجيبوا رسول اللَّه ﷺ**». قال: كلما قال شيئًا قالوا: اللَّه ورسوله أمنّ. قال: «**لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار، والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»[1].

★ **غريب الحديث:**

لما أفاء اللَّه رسوله يوم حنين: أي: أعطاه غنائم الذين قاتلهم يوم حنين، وأصل الفيء الرد والرجوع، ومنه سمي الظل بعد الزوال فيئًا لأنه رجع من جانب إلى جانب، فكأن أموال الكفار سميت فيئًا؛ لأنها كانت في الأصل للمؤمنين، إذ الإيمان هو الأصل، والكفر طارئ عليه، فإذا غلب الكفار على شيء من المال فهو بطريق التعدي، فإذا غنمه المسلمون منهم فكأنه رجع إليهم ما كان لهم»[2].

وجدوا: أي حزنوا.

عالة: أي فقراء لا مال لهم، والعيلة الفقر.

شعبا: بكسر الشين المعجمة وهو اسم لما انفرج بين جبلين، وقيل: الطريق في الجبل.

الأنصار شعار والناس دثار: الشعار -بكسر المعجمة بعدها مهملة خفيفة-: الثوب الذي يلي الجلد من الجسد، والدثار -بكسر المهملة ومثلثة خفيفة- الذي فوقه، وهي استعارة لطيفة لفرط قربهم منه.

أثرة: بضم الهمزة وسكون المثلثة وبفتحتين، ويجوز كسر أوله مع الإسكان؛ أي: الانفراد بالشيء المشترك دون من يشركه فيه.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «**ألم أجدكم ضلالًا**» بالضم والتشديد جمع ضال،

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢)، والبخاري (٨/ ٥٩/ ٤٣٣٠)، ومسلم (٢/ ٧٣٨-٧٣٩/ ١٠٦١).
(٢) فتح الباري (٨/ ٥٩).

والمراد هنا ضلالة الشرك، وبالهداية الإيمان. وقد رتب ﷺ ما منّ اللّه عليهم على يده من النعم ترتيبًا بالغًا، فبدأ بنعمة الإيمان التي لا يوازيها شيء من أمر الدنيا، وثنى بنعمة الألفة وهي أعظم من نعمة المال؛ لأن الأموال تبذل في تحصيلها وقد لا تحصل، وقد كانت الأنصار قبل الهجرة في غاية التنافر والتقاطع لما وقع بينهم من حرب بعاث وغيرها . . .، فزال ذلك كله بالإسلام كما قال اللّه تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾(1)»(2).

* * *

(١) الأنفال: الآية (٦٣).

(٢) الفتح (٨/ ٦٣).

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

★ غريب الآية:

المعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو الشرع حسنه.

المنكر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه أو تتوقف في استقباحه واستحسانه، فتحكم بقبحه الشريعة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «فخص هؤلاء بالفلاح دون من عداهم، والداعون إلى الخير هم الداعون إلى كتاب الله وسنة رسوله لا الداعون إلى رأي فلان وفلان»[1].

قال أبو بكر الجصاص: «قد حوت هذه الآية معنيين: أحدهما: وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والآخر: أنه فرض على الكفاية ليس بفرض على كل أحد في نفسه إذا قام به غيره، لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ وحقيقته تقتضي البعض دون البعض، فدل على أنه فرض على الكفاية إذا قام به بعضهم سقط عن الباقين. ومن الناس من يقول: هو فرض على كل أحد في نفسه، ويجعل مخرج الكلام مخرج الخصوص في قوله ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ مجازًا كقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[2] ومعناه: ذنوبكم. والذي يدل على صحة هذا القول أنه إذا قام به بعضهم سقط عن الباقين كالجهاد، وغسل الموتى وتكفينهم، والصلاة عليهم ودفنهم، ولولا أنه فرض على الكفاية لما سقط عن الآخرين بقيام بعضهم به»[3].

قال ابن العربي: «في مطلق قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ﴾ دليل على أن الأمر

---

(١) إعلام الموقعين (٢/ ٢٢٩).

(٢) الأحقاف: الآية (٣١).

(٣) أحكام القرآن (٢/ ٢٩).

بالمعروف والنهي عن المنكر فرض يقوم به المسلم، وإن لم يكن عدلًا، خلافًا للمبتدعة الذين يشترطون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العدالة. وقد بينا في كتب الأصول أن شروط الطاعات لا تثبت إلا بالأدلة، وكل أحد عليه فرض في نفسه أن يطيع، وعليه فرض في دينه أن ينبه غيره على ما يجهله من طاعة أو معصية، وينهاه عما يكون عليه من ذنب»(١).

قال شيخ الإسلام: «إجماع هذه الأمة حجة؛ لأن اللَّه تعالى أخبر أنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر، فلو اتفقوا على إباحة محرم، أو إسقاط واجب، أو تحريم حلال، أو إخبار عن اللَّه تعالى، أو خلقه بباطل لكانوا متصفين بالأمر بمنكر والنهي عن معروف من الكلم الطيب والعمل الصالح؛ بل الآية تقتضي أن ما لم تأمر به الأمة فليس من المعروف، وما لم تنه عنه فليس من المنكر. وإذا كانت آمرة بكل معروف ناهية عن كل منكر فكيف يجوز أن تأمر كلها بمنكر أو تنهى كلها عن معروف؟ واللَّه تعالى كما أخبر بأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فقد أوجب ذلك على الكفاية منها بقوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وإذا أخبر بوقوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منها لم يكن من شرط ذلك أن يصل أمر الآمر ونهي الناهي منها إلى كل مكلف في العالم؛ إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة، فكيف يشترط فيما هو من توابعها؟ بل الشرط أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم. ثم إذا فرطوا فلم يسعوا في وصوله إليهم مع قيام فاعله بما يجب عليه كان التفريط منهم لا منه. وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على كل أحد بعينه؛ بل هو على الكفاية كما دل عليه القرآن، ولما كان الجهاد من تمام ذلك كان الجهاد أيضًا كذلك، فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه أثم كل قادر بحسب قدرته؛ إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته، كما قال النبي ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(٢). وإذا كان كذلك، فمعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإتمامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذي أمرنا به، ولهذا قيل: ليكن

(١) أحكام القرآن (١/ ٢٩٢-٢٩٣).

(٢) سيأتي تخريجه قريبا.

أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر. وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات، فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة؛ إذ بهذا بعثت الرسل، ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد؛ بل كل ما أمر الله به فهو صلاح. وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم المفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم؛ إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباده وليس عليه هداهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾[1]، والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب، فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام بغيره من الواجبات لم يضره ضلال الضلال. وذلك يكون تارة بالقلب، وتارة باللسان، وتارة باليد»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «ثم إن هذه الدعوة إلى الخير والأمر والنهي لها مراتب:

فالمرتبة الأولى: هي دعوة هذه الأمة سائر الأمم إلى الخير، وأن يشاركوهم فيما هم عليه من النور والهدى، وهو الذي يتجه به قول المفسر إن المراد بالخير الإسلام، وقد فسرنا الإسلام من قبل بأنه دين الله على لسان جميع الأنبياء لجميع الأمم، وهو الإخلاص لله تعالى والرجوع عن الهوى إلى حكمه، وهذا مطلوب منا بحكم جعلنا أمة وسطا وشهداء على الناس كما تقدم في سورة البقرة، وخير أمة أخرجت للناس كما سيأتي بعد آيات مقيدًا بكوننا نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، وبحكم قوله في وصف المؤمنين الذين أذن لهم بالقتال: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾[3] فالواجب دعوة الناس إلى الإسلام أولا، فإن أجابوا فالواجب أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر. (قال) وأما كون هذا حفاظًا للوحدة ومانعًا من الفرقة فهو أن الأمة إذا اجتمعت على هذا المقصد العالي الشريف وهو أن تكون مسيطرة على

(١) المائدة: الآية (١٠٥).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٢٥-١٢٧).

(٣) الحج: الآية (٤١).

الأمم كلها ومربية لها ومهذبة لنفوسها، فلا شك أن جميع الأهواء الشخصية تتلاشى من بينهم، فإذا عرض الحسد والبغي لأحد من أفرادهم تذكروا وظيفتهم العالية الشريفة التي لا تتم إلا بالتعاون والاجتماع فأزالت الذكرى ما عرض، وشفت النفوس قبل تمكن المرض.

والمرتبة الثانية في الدعوة والأمر والنهي هي: دعوة المسلمين بعضهم بعضًا إلى الخير، وتآمرهم فيما بينهم بالمعروف، وتناهيهم عن المنكر، والعموم فيها ظاهر أيضًا، وله طريقان: أحدهما: الدعوة العامة الكلية ببيان طرق الخير وتطبيق ذلك على أحوال الناس، وضرب الأمثال المؤثرة في النفوس التي يأخذ كل سامع منها بحسب حاله. وإنما يقوم على هذا الطريق خواص الأمة العارفون بأسرار الأحكام وحكمة الدين وفقهه وهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(١) ومن مزايا هؤلاء تطبيق أحكام اللَّه تعالى على مصالح العباد في كل زمان ومكان، فهم يأخذون من الأمر العام بالدعوة والأمر والنهي على مقدار علمهم. والطريق الثاني الدعوة الجزئية الخاصة وهي ما يكون بين الأفراد بعضهم مع بعض ويستوي فيه العالم والجاهل، وهو ما يكون بين المتعارفين من الدلالة على الخير، والحث عليه عند عروضه، والنهي عن الشر والتحذير منه، وكل ذلك من التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وكل واحد يأخذ من الفريضة العامة بقدره»(٢).

قلت: وهذا الذي قاله العلماء وخصوصًا الشيخ محمد رشيد في بيان وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو إن دل على شيء فإنما يدل على وعي الأمة ويقظتها، والأمة مهما كانت عظمتها في الحضارة والسبق العلمي والعمران والغنى والسيطرة على الأحوال المالية والاقتصادية فلا بد لها من هذه اليقظة، ولا بد لها من هذه الدراسة، والبشر بطبعه مهما كان؛ تصيبه الغفلة، ويصيبه الانحراف، وتتجاذبه أمواج الفتن، وتظلله غيوم الشبهات، وتتدافعه أمواج شياطين الجن والإنس، وتتقاذفه الأهواء والشهوات، فلا بد له من مرشد ومذكر ومعلم وواعظ

(١) التوبة: الآية (١٢٢).

(٢) تفسير المنار (٤/ ٢٧-٢٨).

وقاض وحاكم وإمام وصاحب، وهكذا تتعدد جوانب التذكير والدلالة على الخير كل بحسبه، فالعالم له مكانته في تولي قيادة الأمة في الحلال والحرام وحراسة المعتقد، والحاكم في الأخذ على يد الطغاة والظلمة والمتربصين بالأمة من الداخل والخارج، والأب في أسرته يحرسها حراسة قوية بداية من زوجته وأبنائه ومن تحت كفالته حتى لا تتخطفهم الذئاب، والإمام في مسجده يعلم الناس التوحيد ويحذرهم من المخالفات والمعاصي، والجار يتفقد جاره، والصديق يتفقد صديقه، وهكذا تتسع هذه الوظيفة في جميع المجالات، فلا تقل أهمية في مجال عن مجال، وإذا انمحت هذه الوظيفة من الأمة فلا خير فيها، وهي إلى الزوال أقرب، وإلى البوار والهلاك تتجه، وسنة اللَّه الكونية في الخلق لا تتخلف ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾[١].

وقال الشوكاني: «وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها. وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، إظهارًا لشرفهما، وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر اللَّه عباده بالدعاء إليه، كما قيل في عطف جبريل وميكائيل على الملائكة، وحذف متعلق الأفعال الثلاثة؛ أي: يدعون، ويأمرون، وينهون لقصد التعميم؛ أي: كل من وقع منه سبب يقتضي ذلك، والإشارة في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ ترجع إلى الأمة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾؛ أي: المختصون بالفلاح، وتعريف المفلحين للعهد، أو للحقيقة التي يعرفها كل أحد»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

* عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف**

---

(١) العنكبوت: الآية (٤٠).

(٢) فتح القدير (١/ ٥٥٠).

الإيمان»[١].

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجبات الإيمان ودعائم الإسلام بالكتاب والسنة وبإجماع الأمة، ولا خلاف في ذلك إلا ممن لا يعتد بخلافه من الرافضة. ووجوبه شرعًا لا عقلًا خلافًا للمعتزلة»[٢].

قال القرطبي: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، فذلك على الكفاية، من قام به أجزأه عن غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٣] ولوجوبه شرطان:

أحدهما: العلم بكون ذلك الفعل منكرًا أو معروفًا.

والثاني: القدرة على التغيير.

فإذا كان كذلك تعين التغيير باليد إن كان ذلك المنكر مما يحتاج في تغييره إليها، مثل: كسر أواني الخمر، وآلات اللهو كالمزامير والأوتار والكِبَر[٤]، وكمنع الظالم من الضرب والقتل وغير ذلك. فإن لم يقدر بنفسه استعان بغيره، فإن خاف من ذلك ثوران فتنة، وإشهار سلاح، تعين رفع ذلك، فإن لم يقدر بنفسه على ذلك غيّر بالقول المرتجى نفعه من لين أو إغلاظ حسب ما يكون أنفع، وقد يبلغ بالرفق والسياسة ما لا يبلغ بالسيف والرياسة، فإن خاف من القول القتل أو الأذى، غيّر بقلبه. ومعناه: أن يكره ذلك الفعل بقلبه، ويعزم على أن لو قدر على التغيير لغيّره. وهذا آخر خصلة من الخصال المتعيّنة على المؤمن في تغيير المنكر، وهي المعبّر عنها في الحديث بأنها أضعف الإيمان؛ أي: خصال الإيمان. ولم يبق بعدها للمؤمن مرتبة أخرى في تغيير المنكر؛ ولذلك قال في الرواية الأخرى: «**ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**»[٥]؛ أي: لم يبق وراء هذه المرتبة رتبة أخرى»[٦].

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠)، ومسلم (١/ ٦٩/ ٤٩)، وأبو داود (١/ ٦٧٧-٦٧٨/ ١١٤٠)، والترمذي (٤/ ٤٠٧-٤٠٨/ ٢١٧٢)، والنسائي (٨/ ٤٨٥-٤٨٦/ ٥٠٢٣)، وابن ماجه (١/ ٤٠٦/ ١٢٧٥).

(٢) إكمال المعلم (١/ ٢٨٩).

(٣) آل عمران (١٠٤).

(٤) الكِبَرُ: جمع كِبْر: وهو الطبل.

(٥) مسلم (١/ ٦٩-٧٠/ ٥٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٦) المفهم (١/ ٢٣٣-٢٣٤).

وقال ابن عطية: «والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة، وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم هي اليد، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام والولاة بعد النهي عنه قولًا، وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى أحد نازلة بديهة من المنكر، كالسلب والزنى ونحوه، فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يحتمل في تغيير المنكر، وإن ناله بعض الأذى، ويؤيد هذا المنزع أن في قراءة عثمان بن عفان، وابن مسعود، وابن الزبير: «**يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويستعينون باللَّه على ما أصابهم**»، فهذا وإن كان لم يثبت في المصحف، ففيه إشارة إلى التعرض لما يصيب عقب الأمر والنهي، كما هي في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[2] معناه إذا لم يقبل منكم ولم تقدروا على تغيير منكره»[3].

قال النووي: «واعلم أن هذا الباب -أعني: باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- قد ضيع أكثره من أزمان متطاولة، ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدًّا، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح. وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم اللَّه تعالى بعقابه، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[4]، فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا اللَّه ﷻ أن يعتني بهذا الباب، فإن نفعه عظيم لاسيما وقد ذهب معظمه، ويخلص نيته، ولا يهاب من ينكر عليه لارتفاع مرتبته فإن اللَّه تعالى قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[6]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[7]. وقال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ

---

(١) لقمان: الآية (١٧).
(٢) المائدة: الآية (١٠٥).
(٣) المحرر الوجيز (١/ ٤٨٦).
(٤) النور: الآية (٦٣).
(٥) الحج: الآية (٤٠).
(٦) آل عمران: الآية (١٠١).
(٧) العنكبوت: الآية (٦٩).

﴿٣ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[١]. واعلم أن الأجر على قدر النصب. ولا يتاركه أيضًا لصداقته، ومودته، ومداهنته، وطلب الوجاهة عنده ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته ومودته توجب له حرمة وحقًّا، ومن حقه أن ينصحه، ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها، وصديق الإنسان ومحبه هو من سعى في عمارة آخرته وإن أدى ذلك إلى نقص في دنياه، وعدوه من سعى في ذهاب أو نقص آخرته، وإن حصل بسبب ذلك صورة نفع في دنياه وإنما كان إبليس عدوًّا لنا لهذا، وكانت الأنبياء -صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين- أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها، ونسأل اللَّه الكريم توفيقنا وأحبابنا وسائر المسلمين لمرضاته، وأن يعمنا بجوده ورحمته، واللَّه أعلم»[٢].

* * *

(١) العنكبوت: الآيتان (٢و٣).

(٢) شرح مسلم (٢/ ٢١-٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «في النظم وجهان: الأول: أنه تعالى ذكر في الآيات المتقدمة أنه بيّن في التوراة والإنجيل ما يدل على صحة دين الإسلام وصحة نبوّة محمد ﷺ، ثم ذكر أن أهل الكتاب حسدوا محمدًا ﷺ واحتالوا في إلقاء الشكوك والشبهات في تلك النصوص الظاهرة، ثم إنه تعالى أمر المؤمنين بالإيمان بالله والدعوة إلى الله، ثم ختم ذلك بأن حذر المؤمنين من مثل فعل أهل الكتاب، وهو إلقاء الشبهات في هذه النصوص، واستخراج التأويلات الفاسدة الرافعة لدلالة هذه النصوص فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ أيها المؤمنون عند سماع هذه البينات ﴿كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ من أهل الكتاب ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ﴾ في التوراة والإنجيل تلك النصوص الظاهرة، فعلى هذا الوجه تكون الآية من تتمة جملة الآيات المتقدمة.

والثاني: وهو أنه تعالى لما أمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك مما لا يتم إلا إذا كان الآمر بالمعروف قادرًا على تنفيذ هذا التكليف على الظلمة والمتغالين، ولا تحصل هذه القدرة إلا إذا حصلت الألفة والمحبة بين أهل الحق والدين، لا جرم حذرهم تعالى من الفرقة والاختلاف لكي لا يصير ذلك سببًا لعجزهم عن القيام بهذا التكليف»[١].

وقال ابن كثير: «ينهى هذه الأمة أن تكون كالأمم الماضين في تفرقهم واختلافهم، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم»[٢].

وقال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: ولا تكونوا يا معشر الذين آمنوا كالذين تفرقوا من أهل الكتاب، واختلفوا في دين الله وأمره ونهيه، من بعدما

---

(١) تفسير الرازي (٨/ ١٨٥).

(٢) التفسير (٢/ ٧٥).

جاءهم البينات من حجج اللَّه فيما اختلفوا فيه، وعلموا الحق فيه، فتعمدوا خلافه، وخالفوا أمر اللَّه، ونقضوا عهده وميثاقه، جراءة على اللَّه، وأولئك لهم؛ يعني: ولهؤلاء الذين تفرقوا، واختلفوا من أهل الكتاب، من بعد ما جاءهم عذاب من عند اللَّه عظيم، يقول -جل ثناؤه-: فلا تفرقوا يا معشر المؤمنين في دينكم تفرق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنوا في دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب اللَّه العظيم مثل الذي لهم»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «بعد أن أمر ﷺ بأن تكون منا أمة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وبين أن أولئك هم المفلحون دون سواهم لأنهم هم الذين يقيمون الدين، ويحفظون سياجه، وبهم تتحقق الوحدة المقصودة منه نهانا عن التفرق والاختلاف الذي يذهب بتلك الوحدة، ويتعذر معه القيام بتلك الدعوة الصالحة، فقال -عز من قائل-: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وهم أهل الكتاب تفرقوا في الدين وكانوا شيعًا، كل شيعة تذهب مذهبا يخالف مذهب الأخرى، وصار كل ينصر مذهبه، ويدعو إليه، ويخطئ ما سواه؛ حتى تعادوا واقتتلوا على ذلك. . ولو كانوا أمة أو كان فيهم أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر معتصمين بحبل واحد متوجهين إلى غاية واحدة لما تفرقوا في المقاصد، ولو لم يتفرقوا لما اختلفوا في الدين، وتعددت فيهم المذاهب في أصوله وفروعه حتى قاتل بعضهم بعضًا. فلا تكونوا مثلهم فيحل بكم ما حل بهم. فهذه الآية متممة لقوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾[(٢)] وما بعدها، فالاعتصام بحبل اللَّه هو الأصل، وبه يكون الاجتماع والاتحاد الذي يجعل الأمة كالشخص الواحد، والدعوة إلى الخير هي التي تغذي هذه الوحدة، وتمدها وتنميها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقوم به أمة قوية هو الذي يحفظها ويؤيدها ويشد أزرها.

قال الأستاذ الإمام: إن هذه الآية كالدليل على أنه يجب أن تكون وجهة الأمة الداعية الآمرة الناهية واحد؛ لأن الذين سبقوهم ما أفلحوا لعدم وحدتهم كأنه يقول: لا يمكن أن تتكون فيكم أمة للدعوة والأمر والنهي إلا إذا اجتمعت على

---

(١) جامع البيان (٧/ ٩٢ شاكر).

(٢) آل عمران: الآية (١٠٣).

مقصد واحد، فالترتيب في الآيات طبيعي، إذ من البديهي أن المتفقين في المقصد لا يختلفون اختلافا ضارا ينافيه، وإنما يقع الاختلاف بعد التفرق في المقاصد والتباين في الأهواء بذهاب كل إلى تأييد مقصده وإرضاء هواه فيه. والاختلاف في الرأي لأجل تأييد المقصد المتفق عليه لا يضر؛ بل ينفع وهو طبيعي لا مندوحة عنه»[١].

وقال: «قال تعالى في المتفرقين المختلفين بعد مجيء البينات: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فهذا الوعيد يقابل الوعد الكريم في الآية التي قبل هذه الآية بقوله تعالى في الداعين إلى الخير الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فالفلاح في ذلك الوعد يشمل الفوز بخير الدنيا والآخرة. والعذاب في هذا الوعيد يشمل خسران الدنيا والآخرة»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في التحذير من الاختلاف في المناهج والعقائد

* عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**افترقت اليهود على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو ثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة**»[٣].

* عن أبي عامر الهوزني عن معاوية بن أبي سفيان أنه قام فينا فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: «**ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة**»[٤].

---

(١) تفسير المنار (٤/ ٤٦-٤٧). (٢) تفسير المنار (٤/ ٤٩-٥٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٢)، وأبو داود (٥/ ٤/ ٤٥٩٦)، والترمذي (٥/ ٢٥/ ٢٦٤٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ١٣٢١/ ٣٩٩١)، والحاكم (١/ ١٢٨)، وابن حبان (١٤/ ١٤٠/ ٦٢٤٧)، وأبو يعلى (١٠/ ٣١٧/ ٥٩١٠) وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي. قال الشيخ ناصر رحمه الله في الصحيحة (٢٠٣) «وفيه نظر، فإن محمد بن عمرو فيه كلام، ولذلك لم يحتج به مسلم وإنما روى له متابعة، وهو حسن الحديث».

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٠٢)، وأبو داود (٥/ ٥-٦/ ٤٥٩٧)، والحاكم (١/ ١٢٨)، والحديث صححه الشيخ الألباني رحمه الله، انظر الصحيحة (٢٠٤).

★ **فوائد الحديثين:**

قال الخطابي: «قوله «**ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة**» فيه دلالة على أن هذه الفرق كلها غير خارجة من الدين، إذ قد جعلهم النبي ﷺ كلهم من أمته»[١].

قال السهارنفوري: «المراد من هذا التفرق التفرق المذموم الواقع في أصول الدين، وأما اختلاف الأمة في فروعه فليس بمذموم؛ بل هو من رحمة الله سبحانه، فإنك ترى أن الفرق المختلفة في فروع الدين كلهم متحدون في الأصول ولا يضللون بعضهم بعضا، وأما المتفرقون في الأصول فيكفر بعضهم بعضًا ويضللون. وأما العدد فيحمل على التكثير، ولو نظر إلى جميعها من الأصول والفروع فإنها تزيد على المئات، وأما لو نظر إلى أصول الفرق فيمكن أن يكون للتحديد فإن الفرق المختلفة وإن تشعبت شعبهم ما يزيد على هذا القدر بكثير، ولكن أصولهم يبلغون هذا العدد. والأولى أن يقال: إن هذا العدد لابد أن يوفى ويبلغ بهذا المقدار ولا ينقص منه، ولكن لو تزاد على هذا العدد فلا مضايقة فيه»[٢].

قال شيخ الإسلام: «ولهذا وصف الفرقة الناجية بأنها أهل السنة والجماعة وهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم. وأما الفرق الباقية فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريبًا من مبلغ الفرقة الناجية فضلًا عن أن تكون بقدرها؛ بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلة. وشعار هذه الفرق مفارقة الكتاب والسنة والإجماع، فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزًا بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها، وأهل معرفة بمعانيها واتباعًا لها تصديقًا وعملًا وحبًّا وموالاة لمن والاها ومعاداة لمن عاداها، الذين يروون[٣] المقالات المجملة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة، فلا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به الرسول؛ بل يجعلون ما بعث به الرسول من الكتاب والحكمة هو الأصل

---

(١) معالم السنن (٤/ ٢٧٣). (٢) بذل المجهود (١٨/ ١١٧).

(٣) هكذا في الأصل، ولعلها: يردون.

الذي يعتقدونه ويعتمدونه. وما تنازع فيه الناس من مسائل الصفات والقدر والوعيد والأسماء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك يردونه إلى اللَّه ورسوله، ويفسرون الألفاظ المجملة التي تنازع فيها أهل التفرق والاختلاف، فما كان من معانيها موافقًا للكتاب والسنة أثبتوه، وما كان منها مخالفًا للكتاب والسنة أبطلوه، ولا يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، فإن اتباع الظن جهل، واتباع هوى النفس بغير هدى من اللَّه ظلم»[1].

* عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**»[2].

★ غريب الحديث:

اجتهد: الاجتهاد: بذل الوسع في طلب الأمر وهو افتعال من الجهد: الطاقة.

والمراد به: رد القضية التي تعرض للحاكم من طريق القياس إلى الكتاب والسنة. ولم يرد الرأي الذي يراه من قبل نفسه من غير حمل على كتاب أو سنة[3].

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «قوله «**إذا حكم الحاكم ثم اجتهد**» قال أهل العلم: وهو ما لا خلاف فيه ولا شك أن هذا إنما هو في الحاكم العالم الذي يصح منه الاجتهاد، وأما الجاهل فهو مأثوم في اجتهاده بكل حال، عاص بتقلده ما لا يحل له من ذلك؛ ولأنه متكلف في دين اللَّه متحرض على شرعته متحكم في حكمه، فهو مخطئ كيفما تصرف، ومأثوم في كل ما تكلف، وإصابته ليس بإصابة إنما هو اتفاق وتخرص، وخطؤه غير موضوع لأنه يجهله كالعامد، والجاهل والعامد سواء»[4].

وقال: «وقد استدل بهذا الحديث من يرى أن الحق في طرفين، وأن كل مجتهد مصيب، قال: لأنه ﷺ جعل له أجرًا.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٤٥-٣٤٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٩٨)، والبخاري (١٣/ ٣٩٣/ ٧٣٥٢)، ومسلم (٣/ ١٣٤٢/ ١٧١٦)، وأبو داود (٤/ ٦-٧/ ٣٥٧٤)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٦١/ ٥٩١٨)، وابن ماجه (٢/ ٧٧٦/ ٢٣١٤).

(٣) النهاية (١/ ٣١٩-٣٢٠).

(٤) الإكمال (٥/ ٥٧٢).

واحتج به أيضًا أصحاب القول الآخر بأن المصيب واحد والحق في طرف واحد؛ لأنه لو كان واحد مصيبًا لم يسم أحدهم مخطئًا، فجمع الضدين في حالة واحدة»[١].

ثم قال: «والقول بأن الحق في طرفين هو قول أكثر أهل التحقيق من المتكلمين والفقهاء، وهو مروي عن مالك والشافعي وأبي حنيفة، وإن كان قد حكي عن كل واحد منهم اختلاف في هذا الأصل، وهذا كله في الأحكام الشرعية وما لا يتعلق بأصل وقاعدة من أصول التوحيد وقواعد التوحيد، مما مبناه على قواطع الأدلة القطعية، فإن الخطأ في هذا غير موضوع، والحق فيها في طرف واحد بإجماع من أرباب الأصول، والمصيب فيها واحد، إلا ما حكي عن عبيد اللَّه بن الحسن العنبري أن مذهبه في ذلك على العموم. وعندي أنه إنما يقول ذلك في أهل الملة دون الكفرة»[٢].

وقال الخطابي: «وفيه من العلم: ليس كل مجتهد مصيبًا، ولو كان كل مجتهد مصيبًا لم يكن لهذا التفسير معنى، وإنما يعطي هذا: أن كل مجتهد معذور لا غير، وهذا إنما هو في الفروع المحتملة للوجوه المختلفة، دون الأصول التي هي أركان الشريعة، وأمهات الأحكام التي لا تحتمل الوجوه، ولا مدخل فيها للتأويل، فإن من أخطأ فيها كان غير معذور في الخطأ، وكان حكمه في ذلك مردودًا»[٣].

* **تنبيه**: ستأتي فوائد أخرى لهذا الحديث عند قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾[٤].

* * *

---

(١) الإكمال (٥/ ٥٧٣).
(٢) الإكمال (٥/ ٥٧٤).
(٣) معالم السنن (٥/ ٢٠٥-٢٠٦).
(٤) الأنعام: الآية (٦٥).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «تأويل الآية أولئك لهم عذاب عظيمٌ في يوم تبيضُّ وجوه قوم وتسودُّ وجوه آخرين. فأما الذين اسودت وجوههم، فيقال: أجحدتم توحيد اللَّه وعهدَه وميثاقَه الذي واثقتموه عليه، بأن لا تشركوا به شيئًا، وتخلصوا له العبادة ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ يعني: بعد تصديقكم به؟ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، يقول: بما كنتم تجحدون في الدنيا ما كان اللَّه قد أخذ ميثاقكم بالإقرار به والتصديق ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾. ممن ثبتَ على عهد اللَّه وميثاقه، فلم يبدِّل دينه، ولم ينقلب على عَقِبيه بعد الإقرار بالتوحيد، والشهادة لربه بالألوهة، وأنه لا إله غيره.

﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، يقول: فهم في رحمة اللَّه؛ يعني: في جنته ونعيمها، وما أعد اللَّه لأهلها فيها، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾؛ أي: باقون فيها أبدًا بغير نهاية ولا غاية»[(١)].

قال الشنقيطي: «بيّن في هذه الآية الكريمة أن من أسباب اسوداد الوجوه يوم القيامة الكفر بعد الإيمان، وذلك في قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾. وبيّن في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكذب على اللَّه تعالى وهو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[(٢)]. وبيّن في موضع آخر أن من أسباب ذلك اكتساب السيئات، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾[(٣)]. وبيّن في موضع آخر أن من أسباب ذلك الكفر والفجور وهو قوله

(١) جامع البيان (٧/ ٩٦ شاكر).
(٢) الزمر: الآية (٦٠).
(٣) يونس: الآية (٢٧).

تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾[١].

وهذه الأسباب في الحقيقة شيء واحد عبّر عنه بعبارات مختلفة، وهو الكفر بالله تعالى، وبيّن في موضع آخر شدة تشويه وجوههم بزرقة العيون، وهو قوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾[٢]، وأقبح صورة أن تكون الوجوه سودًا والعيون زرقًا، ألا ترى الشاعر لما أراد أن يصور علل البخيل في أقبح صورة وأشوهها اقترح لها زرقة العيون، واسوداد الوجوه في قوله:

وللبخيل على أمواله علل زرق العيون عليها أوجه سود»[٣].

وقال القرطبي: «فمن بدل أو غير أو ابتدع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المبتعدين منه المسودي الوجوه، وأشدهم طردا وإبعادا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم؛ كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها؛ فهؤلاء كلهم مبدلون ومبتدعون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع؛ كل يخاف عليهم أن يكونوا عنوا بالآية، والخبر كما بينا، ولا يخلد في النار إلا كافر جاحد ليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»[٤].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم أهل البدع ومدح أهل السنة

* عن أبي غالب قال: رأى أبو أمامة رؤوسًا منصوبة على درج مسجد دمشق فقال أبو أمامة: كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء، خير قتلى من قتلوه. ثم قرأ ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ إلى آخر الآية. قلت لأبي أمامة: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: لو لم أسمعه إلا مرة، أو مرتين، أو ثلاثًا، أو أربعًا حتى عد سبعا ما حدثتكموه»[٥].

---

(١) عبس الآيات (٤٠-٤٢).
(٢) طه: الآية (١٠٢).
(٣) أضواء البيان (١/ ٢٠٥-٢٠٦).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٠٨).
(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٥٣)، والترمذي (٥/ ٢١٠-٢١١/ ٣٠٠٠) وقال: «هذا حديث حسن، وأبو غالب يقال اسمه حزور، وأبو أمامة الباهلي اسمه صدي بن عجلان وهو سيد باهلة»، وابن ماجه (١/ ٦٢/ ١٧٦).

★ **غريب الحديث:**

الدرج: الطريق وجمعه الأدراج، والدرجة المرقاة وجمعه الدرج وهو المراد هنا؛ أي: رأى أبو أمامة رؤوس المقتولين من الخوارج رفعت على درج دمشق.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبد البر: «قال إسماعيل بن إسحاق: رأى مالك قتل الخوارج وأهل القدر من أجل الفساد الداخل في الدين، وهو من باب الفساد في الأرض، وليس إفسادهم بدون فساد قطاع الطريق والمحاربين للمسلمين على أموالهم، فوجب بذلك قتلهم، إلا أنه يرى استتابتهم لعلهم يراجعون الحق، فإن تمادوا قتلوا على إفسادهم لا على كفر»[١].

وقد تقدم الكلام عن فرقة الخوارج الضالة عند قوله تعالى من هذه السورة: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[٢].

* * *

(١) التمهيد: فتح البر (١/ ٤٧١-٤٧٢).

(٢) آل عمران: الآية (٧).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وإنما يعني بقوله: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ هذه الآيات التي ذكر فيها أمورَ المؤمنين من أنصار رسول اللَّه ﷺ وأمور يهود بني إسرائيل وأهل الكتاب، وما هو فاعل بأهل الوفاء بعهده، والمبدِّلين دينه، والناقضين عهدَه بعد الإقرار به. ثم أخبر ﷻ نبيه محمدًا ﷺ أنه يتلو ذلك عليه بالحق، وأعلمه أن من عاقبَ من خلقه بما أخبر أنه معاقبه به: من تسويد وجهه، وتخليده في أليم عذابه، وعظيم عقابه، ومن جازاه منهم بما جازاه: من تبييض وجهه وتكريمه وتشريف منزلته لديه، بتخليده في دائم نعيمه، فبغير ظلم منه لفريق منهم؛ بل بحق استوجبوه، وأعمال لهم سلفت جازاهم عليها، فقال -تعالى ذكره-: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني بذلك: وليس اللَّه يا محمد بتسويد وجوه هؤلاء، وإذاقتهم العذاب العظيم، وتبييض وجوه هؤلاء وتنعيمه إياهم في جنته- طالبًا وضعَ شيء مما فعل من ذلك في غير موضعه الذي هو موضعه إعلامًا بذلك عباده أنه لن يصلح في حكمته بخلقه غير ما وعد أهل طاعته والإيمان به، وغير ما أوعد أهل معصيته والكفر به، وإنذارًا منه هؤلاء وتبشيرًا منه هؤلاء»(١).

وقال: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: أنه يعاقب الذين كفروا بعد إيمانهم بما ذكر أنه معاقبهم به من العذاب العظيم، وتسويد الوجوه، ويثيب أهل الإيمان به، الذين ثبتوا على التصديق والوفاء بعهودهم التي عاهدوا عليها، بما وصف أنه مثيبهم به من الخلود في جنانه، من غير ظلم منه لأحد الفريقين فيما فعل؛ لأنه لا حاجة به إلى الظلم، وذلك أن الظالم إنما يظلم غيره ليزداد إلى عزته عزة بظلمه إياه، وإلى سلطانه سلطانًا، وإلى ملكه ملكًا، لنقصان في بعض أسبابه، يتمم بما ظلم غيره فيه

---

(١) جامع البيان (٧/ ٩٧-٨٩ شاكر).

ما كان ناقصا من أسبابه عن التمام، فأما من كان له جميع ما بين أقطار المشارق والمغارب، وما في الدنيا والآخرة، فلا معنى لظلمه أحدًا، فيجوز أن يظلم شيئًا؛ لأنه ليس من أسبابه شيء ناقص يحتاج إلى تمام، فيتم ذلك بظلم غيره، تعالى اللَّه علوًّا كبيرًا، ولذلك قال -جل ثناؤه- عقيب قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾»[1].

وقال الشوكاني: «وقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ جملة تذييلية مقررة لمضمون ما قبلها، وفي توجه النفي إلى الإرادة الواقعة على النكرة دليل على أنه سبحانه لا يريد فردًا من أفراد الظلم الواقعة على فرد من أفراد العالم. والمراد بما في السموات وما في الأرض: مخلوقاته سبحانه؛ أي: له ذلك يتصرف فيه كيف يشاء، وعلى ما يريد، وعبر بـ«ما» تغليبًا لغير العقلاء على العقلاء لكثرتهم، أو لتنزيل العقلاء منزلة غيرهم. قال المهدوي: وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين، والكافرين، وأنه لا يريد ظلمًا للعالمين، وصله بذكر اتساع قدرته، وغناه عن الظلم لكون ما في السموات، وما في الأرض في قبضته، وقيل: هو ابتداء كلام يتضمن البيان لعباده بأن جميع ما في السموات، وما في الأرض له حتى يسألوه، ويعبدوه، ولا يعبدوا غيره. وقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ أي: لا إلى غيره، لا شركة، ولا استقلالًا»[2].

* * *

(١) جامع البيان (٧/ ٩٨-٩٩ شاكر).

(٢) فتح القدير (١/ ٥٥١-٥٥٢).

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١)

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال محمد رشيد رضا: «بعد ما أمر اللَّه تعالى بالاعتصام بحبله وذكر بنعمته على المؤمنين بتأليف القلوب وأخوة الإسلام وبعد ما نهى عن التفرق في الأهواء والاختلاف في الدين، وتوعد على ذلك بالعذاب العظيم- بين فضل المعتصمين بحبله، المتآخين في دينه، المتحابين فيه، ووصفهم بهذا الوصف الشريف ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ فعلم منه أن خيرية الأمة وفضلها على غيرها تكون بهذه الأمور: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان باللَّه تعالى»(٢).

قال صديق حسن خان: «فيه دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق، وأن هذه الخيرية مشتركة بين أول هذه الأمة وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم، وإن كانت متفاضلة في ذات بينها، كما ورد في فضل الصحابة على غيرهم»(٣).

قال شيخ الإسلام: «صلاح العباد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن صلاح المعاش والعباد في طاعة اللَّه ورسوله، ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبه صارت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس»(٤).

قال السعدي: «هذا تفضيل من اللَّه لهذه الأمة بهذه الأسباب التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم. وأنهم خير الناس للناس، نصحًا، ومحبة للخير، ودعوة وتعليمًا وإرشادًا، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر. وجمعًا بين تكميل الخلق، والسعي في منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان باللَّه، والقيام

---

(١) الآية (١١٠).
(٢) تفسير المنار (٤/ ٥٦).
(٣) فتح البيان (٢/ ٣١٠).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٠٦).

بحقوق الإيمان»[١].

وقال ابن عطية: «وهذه الخيرية التي فرضها اللَّه لهذه الأمة إنما يأخذ بحظه منها من عمل هذه الشروط من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان باللَّه، وقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ وما بعده، أحوال في موضع نصب، ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب على جهة التوبيخ المقرون بالنصح، أنهم لو آمنوا لنجوا أنفسهم من عذاب اللَّه، وجاءت لفظة ﴿خَيْرًا﴾ في هذه الآية وهي صيغة تفضيل، ولا مشاركة بين كفرهم وإيمانهم في الخير، وإنما جاز ذلك لما في لفظة ﴿خَيْرًا﴾ من الشياع وتشعب الوجوه، وكذلك هي لفظة أفضل وأحب وما جرى مجراها، وقد بيّن هذا المعنى في غير هذا الموضع بأوعب من هذا، وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تنبيه على حال عبد اللَّه بن سلام وأخيه وثعلبة بن سعية وغيرهم ممن آمن، ثم حكم اللَّه على أكثرهم بالفسق في كفره لأنهم حرفوا، وبدلوا، وعاندوا بعد معرفتهم بحقيقة أمر محمد ﷺ، فهم كفار فسقة في الكفر قد جمعوا المذمتين»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة هذه الأمة والسلف الصالح

* عن ابن عباس في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: هم الذين هاجروا مع رسول اللَّه ﷺ من مكة إلى المدينة[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال السندي: «يريد أن الخطاب لا يعم تمام الصحابة، فضلًا عن أن يعم تمام الأمة؛ بل هو مخصوص بالمهاجرين منهم، وذلك لأن الخطاب يقتضي الوجود، فلا يشمل الأمة، وقد وصفوا بأنهم أخرجوا؛ أي: من بلادهم، للناس؛ أي: لانتفاعهم بهم، وهذا الوصف لا يوجد من بين الموجودين في ذلك الوقت إلا في

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٠٩). (٢) المحرر الوجيز (١/ ٤٨٩-٤٩٠).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٣/ ١١٠٧٢)، والحاكم (٤/ ٧٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والطبراني (١٢/ ٦/ ١٢٣٠٣) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٢٧): «رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح». وجود إسناده الحافظ في الفتح (٨/ ٢٨٤).

المهاجرين، وأيضًا السوق يدل على أن المخاطبين غير من أريد بالناس، فالظاهر أنهم المهاجرون؛ لأنهم أحق بذلك من غيرهم، والله تعالى أعلم»[١].

قال ابن كثير: «والصحيح: أن هذه الآية عامة في جميع الأمة، كل قرن بحسبه، وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ أي: خيارًا ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٢]»[٣].

* عن معاوية بن حيدة أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «**إنكم تتمون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله**»[٤].

★ غريب الحديث:

تتمون: أي: تكملون وتوفون.

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «فالمراد بالسبعين: التكثير لا التحديد ليناسب إضافة الخير إلى المفرد والنكرة لأنه لاستغراق الأمم الفائتة للحصر باعتبار أفرادها؛ أي: إذا تقصيت أمة أمة من الأمم كنتم خيرها. وتتمون علة للخيرية؛ لأن المراد به الختم؛ يعني: كما أن نبيكم خاتم الأنبياء أنتم خاتم الأمم، وكما أن نبيكم حاز ما تفرق في الأنبياء السالفة من الكمالات والخصال الفاضلة، كذلك حكمكم مع الأمم السالفة»[٥].

قال المناوي: «ويظهر هذا الإكرام في أعمالهم، وأخلاقهم، وتوحيدهم، ومنازلهم في الجنة، ومقامهم في الموقف، ووقوفهم على تل يشرفون عليهم إلى

---

(١) هامش مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٧٢-٢٧٣).

(٢) البقرة: الآية (١٤٣).

(٣) التفسير (٢/ ٧٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣)، والترمذي (٥/ ٢١١/ ٣٠٠١) وقال: «حديث حسن، وقد روى غير واحد هذا الحديث عن بهز بن حكيم نحو هذا ولم يذكروا فيه ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾» وابن ماجه (٢/ ١٤٣٣/ ٤٢٨٨)، والحاكم (٤/ ٨٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٨٥): وهو حديث حسن صحيح. وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٧٨): «هو حديث مشهور، وقد حسنه الترمذي».

(٥) شرح المشكاة (١٢/ ٣٩٧٣).

غير ذلك، ومما فضلوا به الذكاء، وقوة الفهم، ودقة النظر، وحسن الاستنباط، فإنهم أوتوا من ذلك ما لم ينله أحد ممن قبلهم»[١].

قلت: هذه الأوصاف التي ذكرها المناوي شارح (الجامع الصغير) تنطبق على الأمة التي تمسكت بدينها فكان لها ما ذكره من أوصاف، وأما الأمة التي تخلت وتنصلت وتنكرت، وخرج من أبنائها من يشوه دينها، ويصفه بأوصاف لم يسبق لليهود ولا النصارى أنهم وصفوه بها؛ فالبلادة والغباء على صفحات وجوههم، والارتكاس والانحطاط هو واقعهم، وتبعيتهم للكفار واليهود والنصارى هي صفتهم، فهذه الفئة لا تتحرك ولا تفعل شيئًا إلا بأمر سادتها من اليهودية والصليبية، والانغماس في الإلحاد والشيوعية والاشتراكية هو الأمر الذي يغلب على سمة مفكريها ودكاترتها وأساتذتها وجامعاتها ومدارسها، والله المستعان.

* عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء**». فقلنا: يا رسول الله ما هو؟ قال: «**نصرت بالرعب، وأعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهورًا، وجعلت أمتي خير الأمم**»[٢].

★ غريب الحديث:

نصرت بالرعب: أي: أن الله ﷻ ينصرني على العدو بخوفهم مني.

مفاتيح: جمع مفتاح وهو اسم لكل ما يتوصل به إلى استخراج المغلقات، استعاره ﷺ لوعد الله إياه بفتح البلاد.

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «**وجعلت أمتي خير الأمم**» بنص ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾

---

(١) فيض القدير (٢/ ٥٥٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٩٨)، والبيهقي (١/ ٢١٣-٢١٤) قال الهيثمي في المجمع (١/ ٢٦٠-٢٦١): «رواه أحمد، وفيه عبد الله بن محمد بن عقيل وهو سيئ الحفظ قال الترمذي: صدوق وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه، وسمعت محمد بن إسماعيل يعني البخاري يقول: كان أحمد بن حنبل وإسحاق بن إبراهيم والحميدي يحتجون بحديث ابن عقيل قلت: فالحديث حسن والله أعلم اهـ». قال الحافظ في الفتح (٨/ ٢٨٥): إسناده حسن. وكذا قال السيوطي في الدر (٢/ ١١٤) بعد أن عزاه لأحمد. وقال ابن كثير في التفسير (٢/ ٧٨): تفرد به أحمد من هذا الوجه وإسناده حسن.

وشرف أمته من شرفه»[(١)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ قال: «خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام»[(٢)].

* **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «**خير الناس للناس**»؛ أي: خير بعض الناس لبعضهم؛ أي: أنفعهم لهم، وإنما كان ذلك لكونهم كانوا سببًا في إسلامهم»[(٣)].

وقال أيضًا: «قال ابن الجوزي: معناه أنهم أسروا وقيدوا، فلما عرفوا صحة الإسلام دخلوا طوعًا فدخلوا الجنة، فكان الإكراه على الأسر والتقييد هو السبب الأول. وكأنه أطلق على الإكراه التسلسل ولما كان هو السبب في دخول الجنة أقام المسبب مقام السبب»[(٤)].

* قال شريح بن عبيد: مرض ثوبان بحمص، وعليها عبد اللَّه بن قرط الأزدي، فلم يعده، فدخل على ثوبان رجل من الكلاعيين عائدًا، فقال له ثوبان: أتكتب؟ فقال: نعم، فقال: اكتب. فكتب للأمير عبد اللَّه بن قرط: من ثوبان مولى رسول اللَّه ﷺ أما بعد، فإنه لو كان لموسى وعيسى مولى بحضرتك لعدته ثم طوى الكتاب، وقال له: أتبلغه إياه؟ فقال: نعم. فانطلق الرجل بكتابه فدفعه إلى ابن قرط، فلما رآه قام فزعًا، فقال الناس: ما شأنه؟ أحدث أمر؟ فأتى ثوبان حتى دخل عليه فعاده وجلس عنده ساعة ثم قام، فأخذ ثوبان بردائه وقال: اجلس حتى أحدثك حديثا سمعته من رسول اللَّه ﷺ سمعته يقول: «**ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب من كل ألف سبعون ألفا**»[(٥)].

* عن محمد -يعني: ابن سيرين- قال: حدثني عمران قال: قال نبي اللَّه ﷺ:

---

(١) فيض القدير (١/ ٥٦٤).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٢٨٤/ ٤٥٥٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٣/ ١١٠٧١).

(٣) الفتح (٨/ ٢٨٤).

(٤) الفتح (٦/ ١٧٩).

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٨٠-٢٨١) من طريق إسماعيل بن عياش عن ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن ثوبان. وصححه ابن كثير (٢/ ٧٩)، والطبراني (٢/ ٩٢/ ١٤١٣). من طريق إسماعيل الحمصي عن ضمضم ابن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان. قال ابن كثير (٢/ ٧٩): هذا لعله هو المحفوظ بزيادة أبي أسماء الرحبي بين شريح وبين ثوبان واللَّه أعلم.

«**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟. قال: «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون»**. فقام عكاشة فقال: ادع اللَّه أن يجعلني منهم. قال: «**أنت منهم**». قال: فقام رجل فقال: يا نبي اللَّه ادع اللَّه أن يجعلني منهم. قال: «**سبقك بها عكاشة**»[١].

* عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ: «**عرضت علي الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير. قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم، لا حساب عليهم، ولا عذاب. قلت: ولم؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**». فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادع اللَّه أن يجعلني منهم. قال: «**اللهم اجعله منهم**»، ثم قام إليه رجل آخر قال: ادع اللَّه أن يجعلني منهم. قال: «**سبقك بها عكاشة**»[٢].

* عن سهل بن سعد ؓ أن النبي ﷺ قال: «**ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفًا -أو: سبعمائة ألف**، شك في أحدهما- **متماسكين، آخذ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، ووجوهم على ضوء القمر ليلة البدر**»[٣].

* عن أبي أمامة ؓ عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفًا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعون ألفًا، وثلاث حثيات من حثياته**»[٤].

* عن أنس ؓ عن النبي ﷺ قال: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا**»، قالوا:

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٦ و٤٤١)، ومسلم (١/ ١٩٨/ ٢١٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧١)، والبخاري (١١/ ٤٩٤/ ٦٥٤١)، ومسلم (١/ ١٩٩-٢٠٠/ ٢٢٠)، والترمذي (٤/ ٥٤٤/ ٢٤٤٦) قال ابن حجر في الفتح (١١/ ٤٩٨): «ووقع في رواية سعيد بن منصور عند مسلم «ولا يرقون» بدل «ولا يكتوون» وقد أنكر الشيخ تقي الدين بن تيمية هذه الرواية وزعم أنها غلط من راويها اهـ. قال الشيخ الألباني في «تحقيقه لرياض الصالحين» (ص ٨٠): ولفظ مسلم شاذ سندًا ومتنًا، فإن البخاري ليس عنده «لا يرقون» وعنده مكانها «لا يكتوون» وهو المحفوظ.

(٣) أخرجه: البخاري (١١/ ٤٩٥/ ٦٥٤٣) ومسلم (١/ ١٩٨-١٩٩/ ٢١٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٦٨)، والترمذي (٤/ ٥٤٠/ ٢٤٣٧) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٣/ ٤٢٨٦). وأخرجه مطولا: أحمد (٥/ ٢٥٠)، والطبراني (٨/ ١٥٥/ ٧٥٥٦) وقال الهيثمي في=

زدنا يا رسول اللَّه، قال: «**لكل رجل سبعون ألفًا**»، قالوا: زدنا يا رسول اللَّه، وكان على كثيب، فحثا بيده، قالوا: زدنا يا رسول اللَّه، فقال: «**هذا**». وحثا بيده. قالوا: يا نبي اللَّه أبعد اللَّه من دخل النار بعد هذا[1].

★ غريب الأحاديث:

حمص: مدينة معروفة بالشام.

النفر: ما دون العشرين من الرجال.

الأفق: الناحية والجهة. يجمع على آفاق.

لا يكتوون: لا يطلبون من يكويهم، والكيّ: إحراق الجلد بحديدة ونحوها.

لا يسترقون: لا يطلبون من أحد أن يرقيهم. والرقية هي القراءة على المريض أو المصاب أو العائن. وتكون بالقرآن والأدعية المأثورة.

لا يتطيرون: مأخوذ من الطير. وهو التشاؤم بالمرئي والمسموع أو بالزمان والمكان، وهو عادة جاهلية.

يتوكلون: التوكل هو الاعتماد على اللَّه ﷻ في جلب المنافع ودفع المضار مع الأخذ بالأسباب المشروعة.

حثيات: جمع حثية، من الحثي كالرمي، وهو ما رفعت به يدك. الحثية: هي ملء الكف من اليد. وحثوث له أعطيته يسيرًا.

كثيب: مفرد كثبان. والكثيب: الرمل المستطيل المحدودب.

★ فوائد الأحاديث:

قال ابن هبيرة: «وأما قوله: «**هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا**» فإنه يدل على أن السبعين ألفا غير الذين رآهم، فكأن السبعين ألفا لم يحضروا الموقف إذ لا حساب

= المجمع (١٠/ ٣٦٢): «قلت عند الترمذي وابن ماجه بعضه، رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد وبعض أسانيد الطبراني رجال الصحيح. وصححه ابن حبان (الإحسان: ١٦/ ٢٣٠/ ٧٢٤٦).

(١) أخرجه: أبو يعلى (٦/ ٤١٧/ ٣٧٨٣)، وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٤٠٤) وقال: رواه أبو يعلى. وسكت عنه. قال ابن كثير (٢/ ٨٣): وهذا إسناد جيد رجاله ثقات ماعدا عبد القاهر بن السري، وقد سئل عنه ابن معين فقال: صالح اهـ. وقال البوصيري: رواه أبو يعلى ورواته ثقات.

عليهم»[١].

قال النووي: «فيه عظم ما أكرم اللَّه ﷻ به النبي ﷺ وأمته، زادها اللَّه فضلًا وشرفًا»[٢].

قال عبد الرحمن آل الشيخ: «فيه فضيلة هذه الأمة، وأنهم أكثر الأمم تابعًا لنبيهم ﷺ، وقد كثروا في عهد الصحابة ﷺ، وفي وقت الخلفاء الراشدين ومن بعدهم، فملأوا القرى والأمصار والقفار، وكثر فيهم العلم، واجتمعت لهم الفنون في العلوم النافعة، فما زالت هذه الأمة على السنة في القرون الثلاثة المفضلة، وقد قلوا في آخر الزمان»[٣].

* عن عبد اللَّه قال: كنا مع النبي ﷺ في قبة فقال: «**أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟**» قلنا: نعم، قال: «**أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟**» قلنا: نعم. قال: «**والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذاك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد ثور أسود، أو السوداء في جلد ثور أحمر**»[٤].

★ غريب الحديث:

قبة: وفي لفظ «من آدم» والقبة بيت صغير مستدير.

★ فوائد الحديث:

قال الوزير ابن هبيرة: «في هذا الحديث أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وأن الأنبياء كلهم مسلمون ومن تبعهم، وأن اليهودية والنصرانية بدعتان.

وفيه أيضًا: أن أمة محمد ﷺ يكونون نصف أهل الجنة، وذلك لأن أمة محمد ﷺ عقبت الأمم فورثت ما كانت عليه الأمم بأسرها ثم لا يعقبهم غيرهم، وإذا نزل المسيح ابن مريم كان على ملتهم، فمن حيث العدد والكثرة فإنهم فيما

---

(١) الإفصاح (٣/ ٦٥). (٢) صحيح مسلم (٣/ ٧٤).

(٣) قرة عيون الموحدين (ص: ٤٠).

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٦)، والبخاري (١١/ ٤٦٠/ ٦٥٢٨)، ومسلم (١/ ٢٠٠/ ٢٢١)، والترمذي (٤/ ٥٩٠/ ٢٥٤٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٢/ ٤٢٨٣) عن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ.

يوضحه التأمل لا يرد الجمع من أهل الجنة من يكون أكثر عددًا منهم.

فأما من أهلكه اللَّه من الأمم التي كذبت الرسل من قوم نوح، وعاد، وثمود، فإن أولئك ليسوا من أهل الجنة.

ويكون قوله: «**أنتم في أهل الشرك كالشعرة البيضاء**»، إشارة إلى جميع الخلق، وذلك أن الخلق خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، كما قال اللَّه ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾[1]. فلم يفق من سكرة ذلك إلا من وفقه اللَّه ﷻ للعلم واتباع المرسلين»[2].

قال النووي: «وأما قوله ﷺ: «**ربع أهل الجنة**»، ثم «**ثلث أهل الجنة**»، ثم «**الشطر**»، ولم يقل أولًا شطر أهل الجنة؛ فلفائدة حسنة وهي أن ذلك أوقع في نفوسهم وأبلغ في إكرامهم، فإن إعطاء الإنسان مرة بعد أخرى دليل على الاعتناء به ودوام ملاحظته، وفيه فائدة أخرى هي: تكريره البشارة مرة بعد أخرى، وفيه أيضًا حملهم على تجديد شكر اللَّه تعالى وتكبيره وحمده على كثرة نعمه، واللَّه أعلم.

ثم إنه وقع في هذا الحديث: «**شطر أهل الجنة**»، وفي الرواية الأخرى: «**نصف أهل الجنة**»، وقد ثبت في الحديث الآخر: «**أن أهل الجنة عشرون ومائة صف، هذه الأمة منها ثمانون صفًّا**»[3] فهذا دليل على أنهم يكونون ثلثي أهل الجنة، فيكون النبي ﷺ أخبر أولًا بحديث الشطر، ثم تفضل اللَّه سبحانه بالزيادة فأعلم بحديث الصفوف، فأخبر به النبي ﷺ بعد ذلك»[4].

* * *

---

(١) النحل: الآية (٧٨).

(٢) الإفصاح (٢/ ٣١-٣٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٧ و٣٥٥)، والترمذي (٤/ ٥٨٩/ ٢٥٤٦) وحسنه، وابن ماجه (٢/ ١٤٣٣-١٤٣٤/ ٧٤٥٩) وصححه ابن حبان: الإحسان (١٦/ ٤٩٨/ ٧٤٥٩)، والحاكم (١/ ٨١-٨٢) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. كلهم من حديث بريدة.

(٤) شرح مسلم (٣/ ٨١).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -تعالى ذكره-: ولو صدق أهل التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى بمحمد ﷺ، وما جاءهم به من عند اللَّه، لكان خيرا لهم عند اللَّه في عاجل دنياهم، وآجل آخرتهم، ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني من أهل الكتاب من اليهود والنصارى المؤمنون المصدقون رسول اللَّه ﷺ فيما جاءهم به من عند اللَّه، وهم عبد اللَّه بن سلام وأخوه، وثعلبة بن سَعْيَة وأخوه، وأشباههم ممن آمنوا باللَّه، وصدقوا برسوله محمد ﷺ، واتبعوا ما جاءهم به من عند اللَّه، ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ يعني الخارجون عن دينهم، وذلك أن من دين اليهود اتباع ما في التوراة، والتصديق بمحمد ﷺ، ومن دين النصارى اتباع ما في الإنجيل، والتصديق به وبما في التوراة، وفي كلا الكتابين صفة محمد ﷺ ونعته ومبعثه، وأنه نبي اللَّه وكلتا الفرقتين -أعني: اليهود والنصارى- مكذبة، فذلك فسقهم وخروجهم عن دينهم الذي يدعون أنهم يدينون به، الذي قال -جل ثناؤه-: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «أي: لو آمنوا الإيمان الصحيح الذي يستولي على النفوس، ويملك أزمة الأهواء فيكون مصدرًا لأحاسن الأعمال كما تؤمنون أنتم لكان خيرا لهم مما يدعون من الإيمان التقليدي الذي لا يزع عن الشرور، ولا يرفع صاحبه إلى معالي الأمور..

وجمهور المفسرين على أن المعنى: ولو آمن أهل الكتاب بما آمنتم به كما آمنتم لكان خيرًا لهم في الدنيا والآخرة، ولكن آمن بعضهم فمنهم المؤمنون كعبد اللَّه بن سلام ورهطه من اليهود، والنجاشي ورهطه من النصارى، وأكثرهم فاسقون عن

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٠٧ شاكر).

دينهم؛ أي: خارجون منه أو فاسقون في دينهم غير عدول فيه فلا حصلوا الإسلام وهو أكمل الأديان ولا تمسكوا بما عندهم، أو أكثرهم متمردون في الكفر، هكذا اختلف تعبيرهم فيؤخذ منه أنه لم يكن في أهل الكتاب أحد متمسك بدينه مخلصًا فيه، عاملا بأوامره ونواهيه، وهذا غير معقول ولا موافق لما عرف من طبيعة البشر من ميل أناس منهم إلى الغلو في الدين، واعتدال أناس آخرين، وميل غير هؤلاء وأولئك إلى الفسوق والعصيان. فما من أهل دين إلا وفيهم الفرق الثلاث، وإنما يكثر الاستمساك بالدين في أوائل ظهوره، ويكثر الفسق بعد طول الأمد عليه. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾(١) فما عدا هذا الكثير هم المستمسكون بدينهم. والقرآن لم يحكم على أمة بالضلال والفسق بنص عام يستغرق جميع الأفراد؛ بل يعبر تارة بالكثير وتارة بالأكثر، وإذا أطلق أداة العموم يستثني بمثل قوله في بني إسرائيل: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾(٢) وقوله فيهم: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٣) أو يحكم على البعض ابتداء كما تقدم في قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(٤) وقال تعالى فيهم: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾(٥) وقال فيهم وفي النصارى: ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾(٦) فقد أثبت لبعضهم الإيمان والاقتصاد أي الاعتدال في الدين والهداية بالحق والعدل. وقال: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾(٧) فجعل أهل العلم الذين يفهمون الدلائل والبراهين وأهل الإيمان المخلصين الذين يتحرون الحق هم الذين يقبلون دعوة النبي ﷺ لقوة استعدادهم»(٨).

* * *

(١) الحديد: الآية (١٦).
(٢) البقرة: الآية (٨٣).
(٣) النساء: الآية (١٥٥).
(٤) آل عمران: الآية (٧٥).
(٥) الأعراف: الآية (١٥٩).
(٦) المائدة: الآية (٦٦).
(٧) النساء: الآية (١٦٢).
(٨) تفسير المنار (٤/ ٦٣-٦٥).

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الأدبار: جمع دبر، وهو مؤخرة كل شيء. يقال: ولى دبره في الحرب؛ أي: انهزم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما رغب المؤمنين في التصلب في إيمانهم، وترك الالتفات إلى أقوال الكفار وأفعالهم بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ رغبهم في وجه آخر؛ وهو أنهم لا قدرة لهم على الإضرار بالمسلمين إلا بالقليل من القول الذي لا عبرة به، ولو أنهم قاتلوا المسلمين صاروا منهزمين مخذولين، وإذا كان كذلك لم يجب الالتفات إلى أقوالهم وأفعالهم، وكل ذلك تقرير لما تقدم من قوله ﴿إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فهذا وجه النظم»[1].

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: لن يضركم يا أهل الإيمان بالله ورسوله، هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب بكفرهم وتكذيبهم نبيّكم محمدًا ﷺ شيئًا ﴿إِلَّآ أَذًى﴾؛ يعني بذلك: ولكنهم يؤذونكم بشركهم، وإسماعكم كفرهم، وقولهم في عيسى وأمه وعزير، ودعائهم إياكم إلى الضلالة، ولن يضروكم بذلك..

وإن يقاتلكم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى يُهزَموا عنكم، فيولوكم أدبارهم انهزامًا.

فقوله: ﴿يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ كناية عن انهزامهم؛ لأن المنهزم يحوِّل ظهره إلى جهة الطالب هربًا إلى ملجأ وموئل يئل إليه منه، خوفًا على نفسه، والطالبُ في أثره. فدُبُر المطلوب حينئذ يكون محاذي وجه الطالب الهازِمة.

---

(١) التفسير (٢/ ٨٦).

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ يعني: ثم لا ينصرهم اللَّه، أيها المؤمنون، عليكم، لكفرهم باللَّه ورسوله، وإيمانكم بما آتاكم نبيكم محمد ﷺ؛ لأن اللَّه ﷻ قد ألقى الرعب في قلوبهم، فأيدكم أيها المؤمنون بنصركم، وهذا وعدٌ من اللَّه -تعالى ذكره- نبيه محمدًا ﷺ وأهل الإيمان، نصرَهم على الكفرة به من أهل الكتاب»[(١)].

قال ابن عطية: «وتنقصهم المؤمنين وطعنهم عليهم جملة وأفرادًا، وهذا كله عظيم مقلق وبسببه استحقوا القتل والإجلاء، وضرب الجزية، لكن أراد اللَّه تعالى بهذه الآية أن يلحظهم المؤمنون بعين الاحتقار حتى لا يصدوا أحدًا عن دينه ولا يشغلوه عن عبادة ربه، وهكذا هي فصاحة العرب»[(٢)].

وقال ابن كثير: «قال تعالى مخبرًا عباده المؤمنين ومبشرا لهم: أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة الملحدين، فقال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَۖ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾. وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلهم اللَّه وأرغم آنافهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة كلهم أذلهم اللَّه، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم وهم كذلك، ويحكم عليه السلام بشرع محمد -عليه أفضل الصلاة والسلام-، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام»[(٣)].

وقال القرطبي: «فالآية وعد من اللَّه لرسوله ﷺ وللمؤمنين، إن أهل الكتاب لا يغلبونهم وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم اصطلام إلا إيذاء بالبهت والتحريف، وأما العاقبة فتكون للمؤمنين. وقيل: هو منقطع، والمعنى: لن يضروكم ألبتة، لكن يؤذونكم بما يسمعونكم»[(٤)].

* * *

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٠٨-١١٠ شاكر).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٤٩٠).

(٣) تفسير الرازي (٨/ ١٩٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١١٢).

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الذلة: من ذل: إذا ضعف وهان فهو ذليل.

ثقفوا: وجدوا وأدركوا.

حبل من الناس: أي أمان منهم.

باءوا: رجعوا.

المسكنة: الفقر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «وقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾ كأنه بالمعنى هلكوا واستؤصلوا، فلذلك حسن أن يجيء بعده ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ﴾، وقرب فهم ذلك للسامع، قال الزجّاج: المعنى ضربت عليهم الذلة إلا أنهم يعتصمون بالعهد إذا أعطوه، و«**الحبل**» العهد، شبه به لأنه يصل قومًا بقوم كما يفعل الحبل في الأجرام، ﴿وَبَآءُو﴾ معناه مضوا متحملين لهذا الحكم، و«**غضب الله عليهم**»، بما دلت عليه هذه الأمور التي أوقع بهم، وأفعال بني إسرائيل على وجه الدهر من التعنت والعصيان توجب الغضب، فلذلك خصوا به، والنصارى إنما ضلوا فقط، و﴿ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ التذلل والضعة، وهي حالة الطواف الملتمس للقمة واللقمتين المضارع المفارق لحالة التعفف والتعزز به، فليس أحد من اليهود وإن كان غنيًّا إلا وهو بهذه الحال، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الغضب وضرب الذلة والمسكنة، فعاقبهم الله على كفرهم وقتلهم الأنبياء بذلك، و﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: يحتمل

أن يراد بها المتلوة، ويحتمل أن يريد العبر التي عرضت عليهم، وقوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ تأكيد ومبالغة وقطع لما عسى أن يكون في وهم إنسان ممكنًا بوجه ما، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ حمله المفسرون على أن الإشارة بذلك إلى الشيء الذي أشير إليه بذلك الأول، قاله الطبري والزجّاج وغيرهما. والذي أقول: إن الإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخير إنما هي إلى كفرهم وقتلهم، وذلك أن اللَّه تعالى، استدرجهم فعاقبهم على العصيان والاعتداء بالمصير إلى الكفر وقتل الأنبياء، وهو الذي يقول أهل العلم: إن اللَّه تعالى يعاقب على المعصية بالإيقاع في معصية، ويجازي على الطاعة بالتوفيق إلى الطاعة، وذلك موجود في الناس إذا تؤمل، وعصيان بني إسرائيل واعتداؤهم في السبت وغيره متقرر في غير ما موضع من كتاب اللَّه، وقال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ عندما فسر هذه الآية: اجتنبوا المعصية والعدوان فإن بها أهلك من كان قبلكم من الناس»[١].

قال الشوكاني: «معنى الآية: أن اللَّه ضرب عليهم الذلة والمسكنة، والبواء بالغضب منه، لكونهم كفروا بآياته، فقتلوا أنبياءه بسبب عصيانهم واعتدائهم»[٢].

وقال السعدي: «هذا إخبار من اللَّه تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة، فهم خائفون أينما ثقفوا. ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة، وسبب يأمنون به، يرضخون لأحكام الإسلام، ويعترفون بالجزية. أو بـ ﴿حَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم، كما شوهد حالهم سابقًا ولاحقًا. فإنهم لم يتمكنوا في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين إلا بنصر الدول الكبرى، وتمهيدها لهم كل سبب. ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قد غضب اللَّه عليهم، وعاقبهم بالذلة والمسكنة. والسبب في ذلك كفرهم بآيات اللَّه، وقتلهم الأنبياء بغير حق؛ أي: ليس ذلك عن جهل، وإنما هو بغي وعناد. تلك العقوبات المتنوعة عليهم ﴿بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ فاللَّه تعالى لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما الذي أجراه عليهم بسبب بغيهم وعدوانهم، وكفرهم وتكذيبهم للرسل، وجناياتهم الفظيعة»[٣].

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٤٩١).
(٢) فتح القدير (١/ ٥٥٥).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤١٠).

وقال ابن جرير: «فأعلم رُّبنا -جل ثناؤه- عبادَه ما فعل بهؤلاء القوم من أهل الكتاب، من إحلال الذلة والخزي بهم في عاجل الدنيا، مع ما ذخر لهم في الأجل من العقوبة والنكال وأليم العذاب، إذ تعدوا حدودَ اللَّه، واستحلوا محارمه تذكيرًا منه تعالى ذكره لهم، وتنبيهًا على موضع البلاء الذي من قِبَله أتوا لينيبوا ويذّكروا، وعِظة منه لأمتنا أن لا يستنُّوا بسنتهم ويركبوا منهاجهم، فيسلك بهم مسالكهم، ويحل بهم من نقم اللَّه ومثُلاته ما أحل بهم»[١].

* * *

(١) جامع البيان (٧/ ١١٧-١١٨).

قوله تعالى: ﴿ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

★ غريب الآية:

قائمة: مستقيمة.

ءاناء الليل: ساعات الليل، مفرده: إني وإنى.

يكفروه: يحرموه ويجحدوه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه- ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ ليس فريقًا أهل الكتاب، أهل الإيمان منهم والكفر سواء؛ يعني بذلك: أنهم غير متساوين، يقول: ليسوا متعادلين، ولكنهم متفاوتون في الصلاح والفساد والخير والشر، وإنما قيل: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ لأن فيه ذكر الفريقين من أهل الكتاب اللذين ذكرهما اللَّه في قوله: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[1]، ثم أخبر -جل ثناؤه- عن حال الفريقين عنده؛ المؤمنة والكافرة، فقال: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾؛ أي: ليس هؤلاء سواء؛ المؤمنون منهم والكافرون، ثم ابتدأ الخبر -جل ثناؤه- عن صفة الفرقة المؤمنة من أهل الكتاب ومدحهم، وأثنى عليهم بعد ما وصف الفرقة الفاسقة منهم بما وصفها به من الهلع، ونخب الجنان، ومحالفة الذل والصغار، وملازمة الفاقة والمسكنة، وتحمل خزي الدنيا وفضيحة الآخرة»[2].

---

(١) آل عمران: الآية (١١٠).

(٢) جامع البيان (٧/ ١١٨-١١٩ شاكر).

وقال ابن عطية: «لما مضت الضمائر في الكفر والقتل والعصيان والاعتداء عامة في جميع أهل الكتاب، عقب ذلك بتخصيص الذين هم على خير وإيمان، وذلك أن أهل الكتاب لم يزل فيهم من هو على استقامة، فمنهم من مات قبل أن يدرك الشرائع فذلك من الصالحين، ومنهم من أدرك الإسلام فدخل فيه.

قال القاضي أبو محمد: ويعترض هذا النظر أن جميع اليهود على عوج من وقت عيسى، وتجيء الآية إشارة إلى من أسلم فقط، أو يكون اليهود في معنى الأمة القائمة إلى وقت عيسى، ثم ينتقل الحكم في النصارى، ولفظ ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعم الجميع، والضمير في ﴿لَيْسُواْ﴾ لمن تقدم ذكره في قوله: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

وقال: «وحكم هذه الآية لا يتفق في شخص بأن يكون كل واحد يصلي جميع ساعات الليل، وإنما يقوم هذا الحكم من جماعة الأمة، إذ بعض الناس يقوم أول الليل، وبعضهم آخره، وبعضهم بعد هجعة ثم يعود إلى نومه، فيأتي من مجموع ذلك في المدن والجماعات عبارة ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[(٣)] بالقيام، وهكذا كان صدر هذه الأمة، وعرف الناس القيام في أول الثلث الآخر من الليل أو قبله بشيء، وحينئذ كان يقوم الأكثر، والقيام طول الليل قليل، وقد كان في الصالحين من يلتزمه، وقد ذكر اللَّه تعالى القصد من ذلك في سورة المزمل، وقيام الليل لقراءة العلم المبتغى به وجه اللَّه داخل في هذه الآية، وهو أفضل من التنفل لمن يرجى انتفاع المسلمين بعلمه»[(٤)].

وقال الرازي: «واعلم أن اليهود كانوا أيضًا يقومون في الليالي للتهجد وقراءة التوراة، فلما مدح المؤمنين بالتهجد وقراءة القرآن أردف ذلك بقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ وقد بينا أن الإيمان باللَّه يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله، والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من المعاصي وهؤلاء اليهود ينكرون أنبياء اللَّه ولا يحترزون عن معاصي اللَّه، فلم يحصل لهم الإيمان بالمبدأ والمعاد.

---

(١) الآية (١١٠).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٤٩٢).

(٣) آل عمران: الآية (١١٣).

(٤) المحرر الوجيز (١/ ٤٩٣).

واعلم أن كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، وأفضل الأعمال الصلاة، وأفضل الأذكار ذكر اللَّه، وأفضل المعارف معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، فقوله: ﴿يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ إشارة إلى الأعمال الصالحة الصادرة عنهم. وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إشارة إلى فضل المعارف الحاصلة في قلوبهم، فكان هذا إشارة إلى كمال حالهم في القوة العملية وفي القوة النظرية، وذلك أكمل أحوال الإنسان»[1].

قال الشنقيطي: «ذكر هنا من صفات هذه الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب أنها قائمة؛ أي: مستقيمة على الحق وأنها تتلو آيات اللَّه آناء الليل وتصلّي وتؤمن باللَّه وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر.

وذكر في موضع آخر أنها تتلو الكتاب حقّ تلاوته وتؤمن باللَّه، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[2]. وذكر في موضع آخر أنهم يؤمنون باللَّه وما أُنزل إلينا وما أُنزل إليهم، وأنهم خاشعون للَّه لا يشترون بآياته ثمنًا قليلا، وهو قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[3]. وذكر في موضع آخر أنهم يفرحون بإنزال القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[4]. وذكر في موضع آخر أنهم يعلمون أن إنزال القرآن من اللَّه حقّ، وهو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[5]، وذكر في موضع آخر أنهم إذا تلي عليهم القرآن خرّوا لأذقانهم سجدًا وسبحوا ربهم وبكوا، وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩﴾[6]. وقال في بكائهم عند سماعه أيضًا: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[7]. وذكر في موضع آخر أن هذه الطائفة من أهل الكتاب، تؤتى أجرها مرتين، وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ

---

(١) التفسير الكبير (٨/ ٢٠٨).
(٢) البقرة: الآية (١٢١).
(٣) آل عمران: الآية (١٩٩).
(٤) الرعد: الآية (٣٦).
(٥) الأنعام: الآية (١١٤).
(٦) الإسراء الآيات (١٠٧-١٠٩).
(٧) المائدة: الآية (٨٣).

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن جرير: «وصف هؤلاء القوم بأنهم يتلون آيات اللَّه في ساعات الليل وهي آناؤه، وقد يكون تاليها في صلاة العشاء تاليًا لها آناء الليل، وكذلك من تلاها فيما بين المغرب والعشاء، ومن تلاها جوف الليل، فكل تال له ساعات الليل. غير أن أولى الأقوال بتأويل الآية قول من قال: عني بذلك تلاوة القرآن في صلاة العشاء؛ لأنها صلاة لا يصليها أحد من أهل الكتاب، فوصف اللَّه أمة محمد ﷺ بأنهم يصلونها دون أهل الكتاب الذين كفروا باللَّه ورسوله»[(٣)].

وقال: «يعني بقوله -جل وعز-: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ يصدِّقون باللَّه وبالبعث بعد الممات، ويعلمون أن اللَّه مجازيهم بأعمالهم، وليسوا كالمشركين الذين يجحدون وحدانية اللَّه، ويعبدون معه غيره، ويكذبون بالبعث بعد الممات، وينكرون المجازاة على الأعمال والثوابَ والعقابَ.

وقوله: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾، يقول: يأمرون الناس بالإيمان باللَّه ورسوله، وتصديق محمد ﷺ وما جاءهم به. ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، يقول: وينهون الناس عن الكفر باللَّه، وتكذيب محمد، وما جاءهم به من عند الله: يعني بذلك: أنهم ليسوا كاليهود والنصارى الذين يأمرون الناس بالكفر وتكذيب محمد فيما جاءهم به، وينهونهم عن المعروف من الأعمال، وهو تصديق محمد فيما أتاهم به من عند اللَّه. ﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، يقول: ويبتدرون فعل الخيرات خشية أن يفوتهم ذلك قبل معاجلتهم مناياهم.

ثم أخبر -جل ثناؤه- أن هؤلاء الذين هذه صفتهم من أهل الكتاب هم من عداد الصالحين؛ لأن من كان منهم فاسقًا، قد باء بغضب من اللَّه لكفره باللَّه وآياته، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وعصيانه ربّه واعتدائه في حدوده»[(٤)].

قال القاسمي: «﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ أي: على الوجه الذي نطق به الشرع. وظاهر أن الإيمان باللَّه يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه ورسله. والإيمان

---

(١) القصص الآيات (٥١-٥٤).

(٢) أضواء البيان (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

(٣) جامع البيان (٧/ ١٢٩ شاكر).

(٤) جامع البيان (٧/ ١٣٠ شاكر).

باليوم الآخر يستلزم الحذر من المعاصي، وهؤلاء اليهود ينكرون أنبياء اللَّه، ولا يحترزون عن معاصي اللَّه، فلم يحصل لهم الإيمان بالمبدأ والمعاد ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ تعريض بمداهنة اليهود في الاحتساب، بل بتعكيسهم في الأمر بإضلال الناس وصدهم عن سبيل اللَّه، فإنه أمر بالمنكر ونهي عن المعروف، وقوله تعالى: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ صفة أخرى جامعة لفنون المحاسن المتعلقة بالنفس وبالغير. والمسارعة في الخير فرط الرغبة فيه. وفيه تعريض بتباطؤ اليهود فيها، بل بمبادرتهم إلى الشرور ﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: المنعوتون بتلك الصفات الفاضلة ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: من عداد من صلحت أحوالهم عند اللَّه تعالى واستحقوا رضاه. والوصف بالصلاح دال على أكمل الدرجات. فهو غاية المدح، ولذا وصفت به الأنبياء في التنزيل»[١].

قال الرازي: «﴿فَلَن يُكْفَرُوهُ﴾؛ أي: لن تمنعوا ثوابه وجزاءه، وإنما سمي منع الجزاء كفر لوجهين: الأول: أنه تعالى سمى إيصال الثواب شكرا قال اللَّه تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[٢] وقال: ﴿فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٣]، فلما سمي إيصال الجزاء شكرًا سمي منعه كفرًا. والثاني: أن الكفر في اللغة هو الستر، فسمي منع الجزاء كفرًا؛ لأنه بمنزلة الجحد والستر»[٤].

وقال ابن جرير: «وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ فإنه يقول -تعالى ذكره-: واللَّه ذو علم بمن اتقاه، لطاعته واجتناب معاصيه، وحافظ أعمالهم الصالحة حتى يثيبهم عليها ويجازيهم بها، تبشيرًا منه لهم -جل ذكره- في عاجل الدنيا، وحضًا لهم على التمسك بالذي هم عليه من صالح الأخلاق التي ارتضاها لهم»[٥].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية، وفضيلة تأخير وقت صلاة العشاء

* عن ابن مسعود قال: أخر رسول اللَّه ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة قال: «**أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد**

(١) محاسن التأويل (٤/ ١٩٨-١٩٩).
(٢) البقرة: الآية (١٥٨).
(٣) الإسراء: الآية (١٩).
(٤) تفسير الرازي (٨/ ٢١٠).
(٥) جامع البيان (٧/ ١٣٢ شاكر).

يذكر اللَّه هذه الساعة غيركم». قال: وأنزل هذه الآيات ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ حتى بلغ ﴿وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾(١).

* عن معاذ بن جبل قال: أبقينا النبي ﷺ في صلاة العتمة فتأخر حتى ظن الظان أنه ليس بخارج، والقائل منا يقول: صلَّى، فإنا لكذلك حتى خرج النبي ﷺ فقالوا له كما قالوا، فقال لهم: «**أعتموا بهذه الصلاة فإنكم قد فضلتم بها على سائر الأمم ولم تصلها أمة قبلكم**»(٢).

* عن عروة أن عائشة قالت: أعتم رسول اللَّه ﷺ بالعشاء حتى ناداه عمر: الصلاة، نام النساء والصبيان، فخرج فقال: «**ما ينتظرها أحد من أهل الأرض غيركم. قال: ولا يصلى يومئذ إلا بالمدينة، وكانوا يصلون فيما بين أن يغيب الشفق إلى ثلث الليل الأول**»(٣).

* عن عبد اللَّه بن عمر أن رسول اللَّه ﷺ شُغل عنها ليلة، فأخرها حتى رقدنا في المسجد، ثم استيقظنا، ثم رقدنا، ثم استيقظنا، ثم خرج علينا النبي ﷺ، ثم قال: «**ليس أحد من أهل الأرض ينتظر الصلاة غيركم**». وكان ابن عمر لا يبالي أقدمها أم أخرها، إذا كان لا يخشى أن يغلبه النوم عن وقتها، وكان يرقد قبلها(٤).

★ **غريب الأحاديث:**

أبقينا: وبقينا: انتظرنا، يقال: بقيت الرجل أبقيه إذا انتظرته.

أعتم: العتمة: من الليل بعد غيبوبة الشفق إلى آخر الثلث الأول. وعتمة الليل:

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٣/ ١١٠٧٣)، والطبراني (١٠/ ١٣١/ ١٠٢٠٩)، وابن حبان: الإحسان (٤/ ٣٩٧-٣٩٨/ ١٥٣٠) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٣١٢): «.. ورجال أحمد ثقات ليس فيهم غير عاصم بن أبي النجود وهو مختلف في الاحتجاج به، وفي إسناد الطبراني عبيد اللَّه بن زحر وهو ضعيف»، والحديث صحح إسناده أحمد شاكر في تحقيقه للمسند.

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٣٧)، وأبو داود (١/ ٢٩٢/ ٤٢١) وقال الألباني في تحقيقه للمشكاة (١/ ١٩٣/ ٦١٢): «إسناده صحيح».

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٤- ٢٧٢)، والبخاري (٢/ ٦٢/ ٥٦٩)، ومسلم (١/ ٤٤١-٤٤٢/ ٦٣٨(٢١٨»، والنسائي (١/ ٢٨٨/ ٥٣٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٨٨)، والبخاري (٢/ ٦٣/ ٥٧٠)، ومسلم (١/ ٤٤٢/ ٦٣٩)، وأبو داود (١/ ١٣٧/ ١٩٩) و(١/ ٢٩٢/ ٤٢٠)، والنسائي (١/ ٢٨٩/ ٥٣٦).

ظلام أوله عند سقوط نور الشفق، وأعتم: دخل في العتمة مثل أصبح دخل في الصباح.

★ **فوائد الأحاديث:**

قال الحافظ: «استدل بذلك على فضل تأخير صلاة العشاء، ولا يعارض ذلك فضيلة أول الوقت، لما في الانتظار من الفضل، لكن قال ابن بطال: ولا يصلح ذلك الآن للأئمة؛ لأنه ﷺ أمر بالتخفيف، وقال: «**إن فيهم الضعيف وذا الحاجة**»[١]. فترك التطويل عليهم في الانتظار أولى. قلت: وقد روى أحمد وأبو داود والنسائي وابن خزيمة وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري: صلينا مع رسول اللَّه ﷺ صلاة العتمة فلم يخرج حتى مضى نحو من شطر الليل فقال: «**إن الناس قد صلوا وأخذوا مضاجعهم، وإنكم لن تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة، ولولا ضعف الضعيف، وسقم السقيم، وحاجة ذي الحاجة، لأخرت هذه الصلاة إلى شطر الليل**»[٢]. فعلى هذا من وجد به قوة على تأخيرها، ولم يغلبه النوم، ولم يشق على أحد من المأمومين فالتأخير في حقه أفضل، وقد قرر النووي ذلك في شرح مسلم، وهو اختيار كثير من أهل الحديث من الشافعية وغيرهم، واللَّه أعلم»[٣].

قال القرطبي: «قال الخطابي: إنما أخرهم ليقل حظ النوم، وتطول مدة الصلاة، فيكثر أجرهم؛ لأنهم في صلاة ما داموا ينتظرون الصلاة»[٤].

قوله: «**شغل عنها ليلة فأخرها**» **قال الحافظ**: «فيه دلالة على أن تأخير النبي ﷺ إلى هذه الغاية لم يكن قصدًا».

ثم بين رَحِمَهُ اللَّهُ بعد ذلك سبيل هذا الشغل فقال: «الشغل المذكور كان في تجهيز جيش، رواه الطبري[٥] من وجه صحيح عن الأعمش عن أبي سفيان

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٣)، والبخاري (٢/ ٢٥١-٢٥٢/ ٧٠٢)، ومسلم (١/ ٣٤٠-٣٤١/ ٤٦٦)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٤٩/ ٥٨٩١)، وابن ماجه (١/ ٣١٥/ ٩٨٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٥)، وأبو داود (١/ ٢٩٣/ ٤٢٢)، والنسائي (١/ ٢٨٩-٢٩٠/ ٥٣٧)، وابن ماجه (١/ ٢٢٦/ ٦٩٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) الفتح (٢/ ٦١).

(٤) المفهم (٢/ ٢٦٤).

(٥) ورواه أيضا: أحمد (٣/ ٣٦٧)، وأبو يعلى (٣/ ٤٤٢/ ١٩٣٦)، وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٣١٢) وقال: رواه أحمد وأبو يعلى.. وإسناد أبي يعلى رجاله رجال الصحيح.

عن جابر»[١].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد دلت الأحاديث على فضل ذكر اللَّه تعالى في الأوقات التي يغفل عموم الناس فيها، ولهذا فضل التهجد في وسط الليل على غيره من الأوقات لقلة من يذكر اللَّه في تلك الحال»[٢].

قال ابن هبيرة رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيه ما يدل على أن تفرد الإنسان بعبادة دون أهل الأرض في وقت ينيله فضلًا، لقول رسول اللَّه ﷺ: «**فليس في الأرض من ينتظر الصلاة غيركم**»»[٣].

* * *

(١) الفتح (٢/ ٦١).
(٢) فتح الباري لابن رجب الحنبلي (٤/ ٣٧٥).
(٣) الإفصاح (٣/ ٤٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «وهذا وعيد من اللَّه ﷻ للأمة الأخرى الفاسقة من أهل الكتاب، الذين أخبر عنهم بأنهم فاسقون وأنهم قد باؤوا بغضب منه، ولمن كان من نظرائهم من أهل الكفر باللَّه ورسوله، وما جاء به محمد ﷺ من عند اللَّه، يقول -تعالى ذكره-: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ يعني: الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ، وكذبوا به، وبما جاءهم به من عند اللَّه. ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾؛ يعني: لن تدفع أمواله التي جمعها في الدنيا، وأولاده الذين رباهم فيها شيئًا من عقوبة اللَّه يوم القيامة إن أخرها لهم إلى يوم القيامة، ولا في الدنيا إن عجلها لهم فيها، وإنما خص أولاده وأمواله؛ لأن أولاد الرجل أقرب أنسبائه إليه، وهو على ماله أقدر منه على مال غيره، وأمره فيه أجوز من أمره في مال غيره، فإذا لم يغن عنه ولده لصلبه وماله الذي هو نافذ الأمر فيه، فغير ذلك من أقربائه وسائر أنسبائه وأموالهم أبعد من أن تغني عنه من اللَّه شيئًا. ثم أخبر -جل ثناؤه- أنهم هم أهل النار الذين هم أهلها بقوله: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ﴾: وإنما جعلهم أصحابها؛ لأنهم أهلها الذين لا يخرجون منها، ولا يفارقونها كصاحب الرجل الذي لا يفارقه، وقرينه الذي لا يزايله، ثم وكد ذلك بإخباره عنهم أنهم ﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، أن صحبتهم إياها صحبة لا انقطاع لها، إذ كان من الأشياء ما يفارق صاحبه في بعض الأحوال، ويزايله في بعض الأوقات، وليس كذلك صحبة الذين كفروا بالله النار التي أصلوها، ولكنها صحبة دائمة لا نهاية لها ولا انقطاع، نعوذ باللَّه منها ومما قرب منها من قول وعمل»[1].

(١) جامع البيان (٧/ ١٣٣-١٣٤ شاكر)

قال ابن عطية: «خص اللَّه تعالى الأموال والأولاد بالذكر لوجوه: منها: أنها زينة الحياة الدنيا، وعظم ما تجري إليه الآمال، ومنها أنها ألصق النصرة بالإنسان وأيسرها، ومنها أن الكفار يفخرون بالآخرة لا همة لهم إلا فيها هي عندهم غاية المرء وبها كانوا يفخرون على المؤمنين، فذكر اللَّه أن هذين اللذين هما بهذه الأوصاف لا غناء فيهما من عقاب اللَّه في الآخرة، فإذا لم تغن هذه فغيرها من الأمور البعيدة أحرى أن لا يغني»[1].

قال السعدي: «بين تعالى: أن الكفار، والذين كفروا بآيات اللَّه، وكذبوا رسله أنه لا ينقذهم من عذاب اللَّه منقذ، ولا ينفعهم نافع، ولا يشفع لهم عند اللَّه شافع. وأن أموالهم وأولادهم التي كانوا يعدونها للشدائد والمكاره لا تفيدهم شيئًا. وأن نفقاتهم التي أنفقوها في الدنيا لنصر باطلهم ستضمحل»[2].

* * *

(١) المحرر الوجيز (١/ ٤٩٤).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤١٢).

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

صر: برد شديد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «شبه ما ينفق الذين كفروا؛ أي: شبه ما يتصدق به الكافر من ماله، ليعطيه من يعطيه على وجه القربة إلى ربه، وهو لوحدانية اللَّه جاحد، ولمحمد ﷺ مكذب في أن ذلك غير نافعه مع كفره، وأنه مضمحل عند حاجته إليه، ذاهب بعد الذي كان يرجو من عائدة نفعه عليه كشبه ريح فيها برد شديد، أصابت هذه الريح التي فيها البرد الشديد ﴿حَرْثَ قَوْمٍ﴾؛ يعني: زرع قوم قد أملوا إدراكه، ورجوا ريعه، وعائدة نفعه، ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾؛ يعني: أصحاب الزرع عصوا اللَّه، وتعدوا حدوده ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾؛ يعني: فأهلكت الريح التي فيها الصر زرعهم ذلك، بعد الذي كانوا عليه من الأمل، ورجاء عائدة نفعه عليهم، يقول -تعالى ذكره-: فكذلك فعل اللَّه بنفقة الكافر وصدقته في حياته حين يلقاه يبطل ثوابها، ويخيب رجاؤه منها، وخرج المثل للنفقة»[1].

وقال ابن القيم: «هذا مثل ضربه اللَّه تعالى لمن أنفق ماله في غير طاعته ومرضاته، فشبه سبحانه ما ينفقه هؤلاء من أموالهم في المكارم والمفاخر وكسب الثناء وحسن الذكر لا يبتغون به وجه اللَّه، وما ينفقونه ليصدوا به عن سبيل اللَّه واتباع رسله، بالزرع الذي زرعه صاحبه يرجو نفعه وخيره فأصابته ريح شديدة البرد جدا، يحرق بردها ما يمر عليه من الزرع والثمار فأهلكت ذلك الزرع وأيبسته»[2].

---

(١) جامع البيان (٤/ ٥٨).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٦).

وقال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: وما فعل اللَّه بهؤلاء الكفار ما فعل بهم، من إحباطه ثواب أعمالهم، وإبطاله أجورها ظلمًا منه لهم؛ يعني: وضعًا منه لما فعل بهم من ذلك في غير موضعه وعند غير أهله؛ بل وضَع فعله ذلك في موضعه، وفعل بهم ما هم أهله؛ لأن عملهم الذي عملوه لم يكن لله وهم له بالوحدانية دائنون، ولأمره مُتبعون، ولرسله مصدقون؛ بل كان ذلك منهم وهم به مشركون، ولأمره مخالفون، ولرسله مكذبون، بعد تقدُّم منه إليهم أنه لا يقبل عملا من عامل إلا مع إخلاص التوحيد له، والإقرار بنبوة أنبيائه، وتصديق ما جاءوهم به، وتوكيده الحجج بذلك عليهم. فلم يكن بفعله ما فعل بمن كفر به وخالف أمره في ذلك بعد الاعتذار إليه، من إحباط وَفْر عمله له ظالمًا؛ بل الكافرُ هو الظالم نفسه، لإكسابها من معصية اللَّه وخلاف أمره، ما أوردها به نار جهنم، وأصلاها به سعير سقَرَ»(١).

* * *

(١) جامع البيان (٧/ ١٣٧-١٣٨ شاكر).

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بطانة: خاصة الرجل الذين يباطنهم في الأمور.

لا يألونكم: يقال: ألا في الأمر، يألو؛ أي: قصر.

خبالا: فسادا. وأصله ما يلحق الحيوان من مرض وفتور فيورثه فسادا واضطرابا.

عنتم: من العنت وهو إدخال المشقة على الإنسان.

بدت: ظهرت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -تعالى ذكره-: يا أيها الذين صدقوا اللَّه ورسوله، وأقروا بما جاءهم به نبيهم من عند ربهم ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾، يقول: لا تتخذوا أولياء وأصدقاء لأنفسكم ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾ يقول: من دون أهل دينكم وملَّتكم؛ يعني: من غير المؤمنين. وإنما جعل «البطانة» مثلا لخليل الرجل، فشبهه بما ولي بطنه من ثيابه، لحلوله منه -في اطِّلاعه على أسراره وما يطويه عن أباعده وكثير من أقاربه- محلَّ ما وَلِيَ جَسده من ثيابه. فنهى اللَّه المؤمنين به أن يتخذوا من الكفار به أخلاء وأصفياء، ثم عرّفهم ما هم عليه لهم منطوون من الغش والخيانة، وبغيهم إياهم الغوائل، فحذرهم بذلك منهم ومن مخالَّتهم، فقال -تعالى ذكره-: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾؛ يعني: لا يستطيعونكم شرًّا، . .

وإنما يعني جل ذكره بقوله: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾، البطانةَ التي نهى المؤمنين عن اتخاذها من دونهم، فقال: إن هذه البطانة لا تترككم طاقتها خبالًا؛ أي: لا تدع

جهدها فيما أورثكم الخبال»[١].

قال القرطبي: «نهى اللَّه ﷻ المؤمنين بهذه الآية أن يتخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهواء دخلاء وولجاء، يفاوضونهم في الآراء، ويسندون إليهم أمورهم»[٢].

قلت: للَّه در الإمام أبي عبد اللَّه القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا التوجيه الطيب، والاستنباط الواضح في نهي اللَّه ﷻ المؤمنين عن إسناد أمور أهل الإسلام إلى الكفار والمبتدعة في إدارة أعمال الأمة التي يجعلونها طريقًا لإفسادها وإضعافها وتشتيت شملها، فكان ذلك كذلك، فاتخذ أهل الإسلام من اليهود والنصارى وزراء، وأسندوا لهم أموالهم وسياستهم، فتلاعبوا بهم ودخلوا عليهم من كل مدخل، فلم يتركوا صغيرة ولا كبيرة إلا ملكوها، فرسموا لهم المناهج التعليمية وتربية النشء في جميع مراحلها، فكان هؤلاء الناشئة نسخة مطابقة لما عليه الكفار من أخلاق ورذائل في الظاهر والباطن، وفي الحركات والسكنات، وكما قال ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**»[٣] فكان كذلك، فأولئك حلقوا نصف الرأس فتبعهم أبناء المسلمين في ذلك، ولبس أولئك السلاسل في أعناقهم فلبسها أبناء المسلمين، وتعرت نساؤهم فتعرت نساء المسلمين وبناتهم، وتزوج الذكر بالذكر في بلادهم فقامت فئات من الشباب بالمطالبة بهذا القانون في بلاد المسلمين، وهكذا لا تجد مسألة من المسائل وحالة من الحالات إلا وتجد لأعداء الإسلام فيها يدًا وقيادة وتسييرًا.

وأما أهل الأهواء والبدع فتولوا وزارتهم ومساجدهم وكل ما له علاقة بشؤون دينهم، فأمروا بكل منكر وأحيوا كل بدعة، وأمروا بكل ما يناقض التوحيد والسنة، وحاربوا السنة وأهلها، وتتبعوهم واحدًا واحدًا، وحرضوا ولاة الأمور عليهم، وأوهموهم خطرهم، وهم الخطر المحقق الذي لا شك فيه، فأهلكوا الحرث والنسل، وعطلوا المساجد من السنن، وملؤوها بالبدع، ورفعوا ألوية البدعة، وأقاموا المواسم، ولمعوا كل دجال ونصاب ومحتال باسم الدين، وكونوا

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٣٨-١٤٠ شاكر). (٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١١٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٨٤)، والبخاري (٦/ ٦١٣/ ٣٤٥٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٤/ ٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

عصابات كثيرة سموها بأسماء ظاهرها الرحمة وباطنها النفاق والارتزاق، والتزلف إلى ولاة الأمور بكل رذيلة ونقيصة، فرحمة اللَّه على أبي عبد اللَّه القرطبي الذي يذكرنا بأحوال أهل الزيغ والضلال للتحذير منهم والتخويف، واللَّه المستعان.

وقال ابن جرير: «قوله: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ يعني بذلك -جل ثناؤه-: قد بدت بغضاء هؤلاء الذين نهيتكم أيها المؤمنون، أن تتخذوهم بطانة من دونكم لكم ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾؛ يعني: بألسنتهم. والذي بدا لهم منهم بألسنتهم، إقامتهم على كفرهم، وعداوتهم من خالف ما هم عليه مقيمونَ من الضلالة. فذلك من أوكد الأسباب في معاداتهم أهل الإيمان؛ لأن ذلك عداوة على الدين، والعداوة على الدين العداوة التي لا زوال لها إلا بانتقال أحد المتعاديين إلى ملة الآخر منهما، وذلك انتقال من هدى إلا ضلالة كانت عند المنتقل إليها ضلالة قبل ذلك. فكان في إبدائهم ذلك للمؤمنين، ومقامهم عليه، أبينُ الدلالة لأهل الإيمان على ما هم عليه من البغضاء والعداوة»[(١)].

قال السعدي: «هذا تحذير من اللَّه لعباده عن ولاية الكفار، واتخاذهم بطانة، أو خصيصة وأصدقاء، يسرون إليهم، ويفضون لهم بأسرار المؤمنين. فوضح لعباده المؤمنين الأمور الواجبة للبراءة من اتخاذهم بطانة بأنهم لا يألونكم خبالًا؛ أي: هم حريصون غير مقصرين، في إيصال الضرر بكم، وقد بدت البغضاء من كلامهم، وفلتات ألسنتهم، وما تخفيه صدورهم من البغضاء والعداوة أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم وأفعالهم. فإن كانت لكم فهوم وعقول، فقد وضح اللَّه لكم أمرهم»[(٢)].

وقال الجصاص: «في هذه الآية دلالة على أنه لا تجوز الاستعانة بأهل الذمة في أمور المسلمين من العمالات والكتبة»[(٣)].

وقال ابن عطية: «ويدخل في هذه الآية استكتاب أهل الذمة وتصريفهم في البيع والشراء والاستنامة إليهم»[(٤)].

قال محمد المكي الناصري: «ومن هنا يعود كتاب اللَّه إلى تحذير المؤمنين مرة أخرى من دسائس خصوم الإسلام، فينهاهم نهيًا باتًّا عن اتخاذهم بطانة لهم من

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٤٥ شاكر).
(٢) تفسير السعدي (١/ ٤١٣-٤١٤).
(٣) أحكام القرآن (٢/ ٣٧).
(٤) المحرر الوجيز (١/ ٤٩٦).

دون المؤمنين، ويمنع المسلمين من الإفضاء إليهم بأسرارهم، وذلك حتى لا يستعين عليهم بها أعداؤهم.

ولا يقف كتاب اللَّه عند هذا الحد؛ بل يكشف للمسلمين حقائق خصوم الإسلام الدفينة، ونواياهم الخفية، فهم بشهادة اللَّه الذي يعلم السر والنجوى حريصون كل الحرص على أن يبلبلوا أفكار المسلمين، ويجعلوها مضطربة متناقضة متشاكسة باستمرار، ليظل المسلمون على الدوام في حيرة واضطراب وبلبلة، ولا يهتدوا سبيلًا. وهم بشهادة كتاب اللَّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يحملون للمسلمين بغضًا دفينًا، وكرهًا عميقًا، وهذا البغض يتجلى في فلتات ألسنتهم، ويبرز على ملامحهم وفي انطباعاتهم، كلما جاءت مناسبة أو دعت ضرورة لبروزه.

ثم ينعى كتاب اللَّه على السذج من المسلمين ما هم عليه من سذاجة يستغلها خصومهم إلى أقصى الحدود، حتى إنهم ليبادرون إلى محبة أولئك الخصوم الألداء، بينما خصومهم ثابتون على حقدهم، ولا يتنازلون عن بغضهم للإسلام وأهله قيد شعرة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير البطانة

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ما بعث اللَّه من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله**»[٢].

★ **غريب الحديث:**

بطانة: البطانة: الدخلاء. والدخلاء بضم ثم فتح جمع دخيل: وهو الذي يدخل على الرئيس في مكان خلوته ويفضي إليه بسره ويصدقه فيما يخبره به مما يخفى عليه من أمر رعيته ويعمل بمقتضاه.

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير (١/ ٢٥٧-٢٥٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩)، والبخاري (١٣/ ٢٣٤-٢٣٥/ ٧١٩٨)، والنسائي (٧/ ١٧٨/ ٤٢١٣).

تحضه عليه: بالحاء المهملة وضاد معجمة ثقيلة؛ أي: ترغبه فيه. وتؤكده عليه.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «قال المهلب: ليس من خليفة ولا أمير إلا والناس حوله رجلان: رجل يريد الدنيا والاستكثار منها، فهو يأمره بالشر ويحضه عليه؛ ليجد به السبيل إلى انطلاق اليد على المحظورات ومخالفة الشرع، ويوهمه أنه إن لم يقتل ويغصب ويخف الناس لم يتم له شيء، ولم يرض بسياسة اللَّه لعباده ببسط العدل وبخمد الأيدي، وأن في ذلك صلاح العباد والبلاد. ولا يخلو سلطان أن يكون في بطانته رجل يحضه على الخير، ويأمره به لتقوم به الحجة عليه من اللَّه في القيامة، وهم الأقل، والمعصوم من الأمراء من عصمه اللَّه، لا من عصمته نفسه الأمارة بالسوء بشهادة اللَّه عليها الخالق لها، ومن أصدق من اللَّه حديثا»[1].

قال الحافظ: قوله: «**وبطانة تأمره بالشر**» في رواية الأوزاعي: «**وبطانة لا تألوه خبالًا**»، وقد استشكل هذا التقسيم بالنسبة للنبي ﷺ لأنه وإن جاز عقلًا أن يكون فيمن يداخله من يكون من أهل الشر، لكنه لا يتصور منه أن يصغى إليه ولا يعمل بقوله لوجود العصمة، وأجيب بأن في بقية الحديث الإشارة إلى سلامة النبي ﷺ من ذلك بقوله: «**فالمعصوم من عصم اللَّه تعالى**» فلا يلزم من وجود من يشير على النبي ﷺ بالشر أن يقبل منه»[2].

* عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: ««**الرجل على دين خليله**»؛ أي: صاحبه «**فلينظر أحدكم من يخالل**»؛ أي: فليتأمل أحدكم بعين بصيرته إلى امرئ يريد صداقته فمن رضي دينه وخلقه صادقه وإلا تجنبه»[4].

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٣١٠-٣١١). (٢) فتح الباري (١٣/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٣)، وأبو داود (٥/ ١٦٨/ ٤٨٣٣)، والترمذي (٤/ ٥٠٩/ ٢٣٧٨) وقال: هذا حديث حسن غريب. وصحح إسناده النووي في رياض الصالحين (٣٧١).

(٤) فيض القدير (٤/ ٥٢).

قال شيخ الإسلام: «إن المتحابين يحب أحدهما ما يحب الآخر، بحسب الحب فإذا اتبع أحدهما صاحبه على محبته ما يبغضه اللَّه ورسوله نقص من دينهما بحسب ذلك»(١).

* عن عياض الأشعري أن أبا موسى رضي الله عنه وفد إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ومعه كاتب نصراني فأعجب عمر رضي الله عنه ما رأى من حفظه فقال: قل لكاتبك يقرأ لنا كتابًا. قال: إنه نصراني لا يدخل المسجد، فانتهره عمر رضي الله عنه وهمّ به، وقال: لا تكرموهم إذ أهانهم اللَّه، ولا تدنوهم إذ أقصاهم اللَّه، ولا تأتمنوهم إذ خونهم اللَّه عز وجل(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «في هذا الأثر مع هذه الآية دلالة على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة، التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾»(٣).

قال شيخ الإسلام بعد سياقه لهذه الآية وغيرها: «وهذه الآيات العزيزة فيها عبرة لأولي الألباب فإن اللَّه تعالى أنزلها بسبب أنه كان بالمدينة النبوية من أهل الذمة من كان له عز ومنعة على عهد النبي ﷺ، وكان أقوام من المسلمين عندهم ضعف يقين وإيمان، وفيهم منافقون يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر مثل عبد اللَّه بن أُبي رأس المنافقين وأمثاله، وكانوا يخافون أن تكون للكفار دولة فكانوا يوالونهم ويباطنونهم.. فقد عرف أهل الخبرة أن أهل الذمة من اليهود والنصارى والمنافقين يكاتبون أهل دينهم بأخبار المسلمين، وبما يطلعون على ذلك من أسرارهم، حتى أخذ جماعة من المسلمين في بلاد التتر وسبي، وغير ذلك؛ بمطالعة أهل الذمة لأهل دينهم. ومن الأبيات المشهورة قول بعضهم:

كل العداوات ترجى مودتها   إلا عداوة من عاداك في الدين

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٣).

(٢) أخرجه: البيهقي (١٠/ ١٢٧)، وابن أبي حاتم في التفسير (٣/ ٧٤٣)، وقال الشيخ الألباني رحمه الله في الإرواء (٨/ ٢٥٦): إسناده صحيح.

(٣) التفسير (٢/ ٨٩).

ولهذا وغيره منعوا أن يكونوا على ولاية المسلمين، أو على مصلحة من يقويهم، أو يفضل عليهم في الخبرة والأمانة من المسلمين؛ بل استعمال من هو دونهم في الكفاية أنفع للمسلمين في دينهم ودنياهم، والقليل من الحلال يبارك فيه، والحرام الكثير يذهب ويمحقه اللَّه تعالى واللَّه أعلم»[١].

قال القرطبي: «وقد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان باتخاذ أهل الكتاب كتبة وأمناء، وتسودوا بذلك عند الجهلة الأغبياء من الولاة والأمراء»[٢].

وقد بوب الإمام البيهقي على هذا الأثر: باب لا ينبغي للقاضي ولا للوالي أن يتخذ كاتبًا ذميًّا، ولا يضع الذمي في موضع يتفضل فيه مسلمًا»[٣].

* * *

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٦٤٥-٦٤٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١١٥).

(٣) السنن الكبرى (١٠/ ١٢٦).

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾

★ **غريب الآية:**

الأنامل: أطراف الأصابع.

الغيظ: أشد الغضب، وهو الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «ها أنتم أيها المؤمنون الذين تحبونهم، يقول: تحبون هؤلاء الكفار الذين نهيتكم عن اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، فتودونهم وتواصلونهم، وهم لا يحبونكم؛ بل يبطنون لكم العداوة والغش ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾، ومعنى (الكتاب) في هذا الموضع معنى الجمع، كما يقال: كثُر الدرهم في أيدي الناس، بمعنى الدراهم فكذلك قوله: ﴿وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ إنما معناه: بالكتب كلها، كتابكم الذي أنزل اللّه إليكم، وكتابهم الذي أنزله إليهم، وغير ذلك من الكتب التي أنزلها اللّه على عباده. يقول -تعالى ذكره-: فأنتم إذ كنتم أيها المؤمنون تؤمنون بالكتب كلها، وتعلمون أن الذين نهيتكم عن أن تتخذوهم بطانة من دونكم كفار بذلك كله، بجحودهم ذلك كله من عهود اللّه إليهم، وتبديلهم ما فيه من أمر اللّه ونهيه، أولى بعداوتكم إياهم، وبغضائهم وغشهم منهم بعداوتكم وبغضائكم مع جحودهم بعض الكتب وتكذيبهم ببعضها»[(١)].

قال الرازي: «تقدير الكلام: أنكم تؤمنون بكتبهم كلها، وهم مع ذلك يبغضونكم، فما بالكم مع ذلك تحبونهم وهم لا يؤمنون بشيء من كتابكم، وفيه

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٤٨-١٥٩ شاكر).

توبيخ شديد بأنهم في باطلهم أصلب منكم في حقكم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

قال الطبري: «يعني بذلك -تعالى ذكره-: إن هؤلاء الذين نهى اللَّه المؤمنين أن يتخذوهم بطانة من دونهم، ووصفهم بصفتهم إذا لقوا المؤمنين من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، أعطوهم بألسنتهم تقية، حذرا على أنفسهم منهم، فقالوا لهم: قد آمنا وصدقنا بما جاء به محمد ﷺ، وإذا هم خلوا فصاروا في خلاء حيث لا يراهم المؤمنون، ﴿عَضُّوا﴾ على ما يرون من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم وصلاح ذات بينهم أناملهم: وهي أطراف أصابعهم، تغيظًا مما بهم من الموجدة عليهم، وأسى على ظهر يسندون إليه لمكاشفتهم العداوة، ومناجزتهم المحاربة»[(٣)].

وقال الرازي: «والمعنى: أنه إذا خلا بعضهم ببعض أظهروا شدة العداوة، وشدة الغيظ على المؤمنين حتى تبلغ تلك الشدة إلى عض الأنامل، كما يفعل ذلك أحدنا إذا اشتد غيظه وعظم حزنه على فوات مطلوبه، ولما كثر هذا الفعل من الغضبان، صار ذلك كناية عن الغضب حتى يقال في الغضبان: إنه يعض يده غيظًا، وإن لم يكن هناك عض، قال المفسرون: وإنما حصل لهم هذا الغيظ الشديد لما رأوا من ائتلاف المؤمنين، واجتماع كلمتهم، وصلاح ذات بينهم»[(٤)].

قلت: هذا الذي قاله الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ كان في الصدر الأول، أو في فترة من فترات الزمن، وإلا فواقع المسلمين الآن هو التشتت والافتراق، ونجد في الدولة الصغيرة ألف طائفة وحزب واتجاه، عنوانها في كل أحوالها هو الفرقة والاختلاف، ونجد الحق آخذًا في جهة اليمين وهم في جهة الشمال، والصواب في الغرب وهم في الشرق، فنشكو إلى اللَّه هذه الأحوال الغريبة التي أخبر بها الرسول ﷺ والتي هي آية من آياته، واللَّه المستعان.

قال القرطبي: «إن قيل: كيف لم يموتوا واللَّه تعالى إذا قال لشيء: كن فيكون. قيل عنه جوابان: أحدهما: قال فيه الطبري وكثير من المفسرين: هو دعاء عليهم؛ أي: قل يا محمد أدام اللَّه غيظكم إلى أن تموتوا. فعلى هذا يتجه أن يدعوا عليهم

---

(١) النساء: الآية (١٠٤).

(٢) تفسير الرازي (٨/ ٢٢٠-٢٢١).

(٣) جامع البيان (٤/ ٦٦).

(٤) تفسير الرازي (٨/ ٢٢١).

بهذا مواجهة وغير مواجهة بخلاف اللعنة. الثاني: إن المعنى أخبرهم أنهم لا يدركون ما يأملون، فإن الموت دون ذلك فعلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقي معنى التقريع والإغاضة. ويجري هذا المعنى مع قول مسافر بن أبي عمرو:

ويـتـمـنـى فـي أورمـتـنـا ونـفـقـأ عـيـن مـن حـسـدا»[1].

* * *

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١١٧-١١٨).

قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «إن تنالوا أيها المؤمنون سرورا بظهوركم على عدوكم، وتتابع الناس في الدخول في دينكم، وتصديق نبيكم، ومعاونتكم على أعدائكم، يسؤهم، وإن تنلكم مساءة بإخفاق سرية لكم، أو بإصابة عدو لكم منكم، أو اختلاف يكون بين جماعتكم، يفرحوا بها»[١].

قال ابن كثير: «وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين؛ وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب، ونصر وتأييد، وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين، وإن أصاب المسلمين سنة -أي: جدب- أو أديل عليهم الأعداء، لما لله تعالى في ذلك من الحكمة -كما جرى يوم أحد- فرح المنافقون بذلك»[٢].

قال القرطبي: «والمعنى في الآية: أن من كانت هذه صفته من شدة العداوة والحقد والفرح بنزول الشدائد على المؤمنين، لم يكن أهلًا لأن يتخذ بطانة، لاسيما في هذا الأمر الجسيم من الجهاد الذي هو ملاك الدنيا والآخرة؛ وقد أحسن القائل في قوله:

كل العداوة ترجى إفاقتها إلا عداوة من عاداك من حسد»[٣].

قال ابن عطية: «**«الحسنة والسيئة»** في هذه الآية لفظ عام في كل ما يحسن ويسوء، وما ذكر المفسرون من الخصب والجدب واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة بينهم وغير ذلك من الأقوال، فإنما هي أمثلة وليس ذلك باختلاف، وذكر تعالى

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٥٥ شاكر).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٩٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١١٨).

المس في الحسنة ليبين أن بأدنى طروء الحسنة تقع المساءة بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادل ذلك بالسيئة بلفظ الإصابة وهي عبارة عن التمكن؛ لأن الشيء المصيب لشيء فهو متمكن منه أو فيه، فدل هذا المنزع البليغ على شدة العداوة، إذ هو حقد لا يذهب عند الشدائد، بل يفرحون بنزول الشدائد بالمؤمنين، وهكذا هي عداوة الحسد في الأغلب، ولاسيما في مثل هذا الأمر الجسيم الذي هو ملاك الدنيا والآخرة»[١].

وقال: «لما قرر تعالى هذا الحال لهؤلاء المذكورين، وأوجبت الآية أن يعتقدهم المؤمنون بهذه الصفة، جاء قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ تسلية للمؤمنين وتقوية لنفوسهم، وشرط ذلك بالصبر والتقوى»[٢].

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: وإن تصبروا أيها المؤمنون على طاعة اللّه، واتباع أمره فيما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه، من اتخاذ بطانة لأنفسكم من هؤلاء اليهود الذين وصف اللّه صفتهم من دون المؤمنين، وغير ذلك من سائر ما نهاكم، ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ ربكم فتخافوا التقدم بين يديه فيما ألزمكم، وأوجب عليكم من حقه وحق رسوله ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾؛ أي: كيد هؤلاء الذين وصف صفتهم. ويعني بـ﴿ كَيْدُهُمْ﴾: غوائلهم التي يبتغونها للمسلمين، ومكرهم بهم ليصدوهم عن الهدى وسبيل الحق»[٣].

وقال ابن كثير: «يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على اللّه الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل عليه كفاه»[٤].

وقال محمد رشيد رضا: «ومن الاعتبار في الآية أنه تعالى أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكائدين، وباتقاء شرهم، ولم يأمرهم بمقابلة كيدهم وشرهم بمثله، وهكذا شأن القرآن لا يأمر إلا بالمحبة والخير، والإحسان، ودفع السيئة بالحسنة إن أمكن كما قال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ

(١) المحرر الوجيز (١/ ٤٩٨).
(٢) المحرر الوجيز (١/ ٤٩٨).
(٣) جامع البيان (٧/ ١٥٦ شاكر).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٩٠).

﴿كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[١]، فإن لم يمكن تحويل العدو إلى محب بدفع سيئاته بما هو أحسن منها فإنه يجيز دفع السيئة بمثلها من غير بغي ولا اعتداء»[٢].

قال ابن جرير: وقوله: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ يقول -جل ثناؤه-: إن اللَّه بما يعمل هؤلاء الكفار في عباده وبلاده من الفساد، والصد عن سبيله، والعداوة لأهل دينه، وغير ذلك من معاصي اللَّه ﴿مُحِيطٌ﴾ بجميعه حافظ له لا يعزب عنه شيء منه حتى يوفيهم جزاءهم على ذلك كله، ويذيقهم عقوبته عليه»[٣].

* * *

(١) فصلت: الآية (٣٤).

(٢) تفسير المنار (٤/ ٩٢-٩٣).

(٣) جامع البيان (٧/ ١٥٨ شاكر).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

★ غريب الآية:

غدوت: من الغدو وهو الخروج أول النهار.

تبوئ: أي: تتخذ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أتبعه بما يدلهم على سنة اللَّه تعالى فيهم في باب النصرة والمعونة، ودفع مضار العدو إذا هم صبروا واتقوا، وخلاف ذلك فيهم إذا لم يصبروا فقال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾؛ يعني: أنهم يوم أحد كانوا كثيرين للقتال، فلما خالفوا أمر الرسول انهزموا، ويوم بدر كانوا قليلين غير مستعدين للقتال فلما أطاعوا أمر الرسول غلبوا واستولوا على خصومهم، وذلك يؤكد قولنا، وفيه وجه آخر وهو أن الانكسار يوم أحد إنما حصل بسبب تخلف عبد اللَّه بن أبي بن سلول المنافق، وذلك يدل على أنه لا يجوز اتخاذ هؤلاء المنافقين بطانة»[1].

وقال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم أيها المؤمنون كيد هؤلاء الكفار من اليهود شيئًا، ولكن اللَّه ينصركم عليهم إن صبرتم على طاعتي، واتباع أمر رسولي، كما نصرتكم ببدر وأنتم أذلة، وإن أنتم خالفتم أيها المؤمنون أمري، ولم تصبروا على ما كلفتكم من فرائضي، ولم تتقوا ما نهيتكم عنه وخالفتم أمري، وأمر رسولي، فإنه نازل بكم ما نزل بكم بأحد، واذكروا ذلك اليوم إذ غدا نبيكم يبوئ المؤمنين، فترك ذكر الخبر عن أمر القوم إن لم يصبروا على أمر ربهم، ولم يتقوه

---

(١) تفسير الرازي (٨/ ٢٢٤).

اكتفاء بدلالة ما ظهر من الكلام على معناه، إذ ذكر ما هو فاعل بهم من صرف كيد أعدائهم عنهم، إن صبروا على أمره، واتقوا محارمه، وتعقيبه ذلك بتذكيرهم ما حل بهم من البلاء بأحد، إذ خالف بعضهم أمر رسول الله ﷺ، وتنازعوا الرأي بينهم، وأخرج الخطاب في قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ على وجه الخطاب لرسول الله ﷺ، والمراد بمعناه: الذين نهاهم أن يتخذ الكفار من اليهود بطانة من دون المؤمنين»(١).

وقال ابن عطية: «ذهب الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من الآيات، والظاهر أنها استقبال أمر آخر؛ لأن تلك مقاولة في شأن منافقي اليهود، وهذا ابتداء عتب المؤمنين في أمر أحد، فالعامل في «إذ» فعل مضمر تقديره واذكر»(٢).

وقال ابن جرير: «تأويل الكلام: واذكر إذ غدوت يا محمد من أهلك تتخذ للمؤمنين معسكرا، وموضعا لقتال عدوهم، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعني بذلك -تعالى ذكره-: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لما يقول المؤمنون لك، فيما شاورتهم فيه من موضع لقائك ولقائهم عدوك وعدوهم من قول من قال: اخرج بنا إليهم حتى نلقاهم خارج المدينة، وقول من قال لك: لا تخرج إليهم وأقم بالمدينة حتى يدخلوها علينا،.. ومما تشير به عليهم أنت يا محمد ﴿عَلِيمٌ﴾ بأصلح تلك الآراء لك ولهم وبما تخفيه صدور المشيرين عليك بالخروج إلى عدوك، وصدور المشيرين عليك بالمقام في المدينة، وغير ذلك من أمرك وأمورهم»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في غزوة أحد والتعريف بها

* عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: تنفل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر. قال ابن عباس: وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رأي رسول الله ﷺ أن يقيم بالمدينة يقاتلهم فيها، فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدرًا: أتخرج بنا يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد؟ ورجوا أن

(١) جامع البيان (٧/ ١٥٩ شاكر). (٢) المحرر الوجيز (١/ ٤٩٩).
(٣) جامع البيان (٧/ ١٦٥ شاكر).

يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر، فما زالوا برسول اللَّه ﷺ حتى لبس أداته. فندموا، وقالوا: يا رسول اللَّه أقم فالرأي رأيك. فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد أن لبسها حتى يحكم اللَّه بينه وبين عدوه**». قال: وكان لما قال لهم رسول اللَّه ﷺ يومئذ قبل أن يلبس الأداة: «**إني رأيت أني في درع حصينة، فأولتها المدينة، وأني مردف كبشًا فأولته كبش الكتيبة، ورأيت أن سيفي ذا الفقار فل فأولته فلا فيكم، ورأيت بقرا تذبح، فبقر واللَّه خير، فبقر واللَّه خير**»[1].

★ غريب الحديث:

تنفل رسول اللَّه ﷺ سيفه: أي أخذه.

أداته: من الآلة من درع وبيضة وغيرهما من السلاح.

الكتيبة: القطعة العظيمة من الجيش.

فل: يقال: فل السيف فلًّا: ثلمه وكسره في حده.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «قال المهلب: فيها ضرب المثل؛ لأنه رأى بقرًا تنحر، فكانت البقر أصحابه، فعبر عليه السلام عن حال الحرب بالبقر من أجل ما لها من السلاح والقرون شبهت بالرماح، ولما كان من طبع البقر المناطحة والدفاع عن أنفسها بقرونها كما يفعل رجال الحرب، وشبه عليه السلام النحر بالقتل. وقوله: «**واللَّه خير**» يعني: ما عند اللَّه من ثواب القتل في سبيل اللَّه خير للمقتول من الدنيا. وقيل: معنى «**واللَّه خير**» إن صنع اللَّه خير لهم؛ وهو قتلهم يوم أحد»[2].

قال ابن القيم: «فيه أن الجهاد يلزم بالشروع فيه، حتى إن من لبس لأمته وشرع

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧١)، والحاكم (٢/ ١٢٨-١٢٩) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي (٧/ ٤١) وحسن إسناده الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٢١). وأخرجه مختصرا: الترمذي (٤/ ١١٠/ ١٥٦١) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٢/ ٢٣٩/ ٢٨٠٨).
ورواه أيضا: أحمد (٣/ ٣٥١)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٩/ ٧٦٤٧) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه.
وقال الشيخ الألباني رحمه الله في تعليقه على فقه السيرة (ص: ٢٦٩): سنده على شرط مسلم غير أن الزبير مدلس، وقد عنعنه، لكن له شاهد من حديث ابن عباس.. فالحديث صحيح» اهـ.

(٢) شرح ابن بطال (٩/ ٥١٠).

في أسبابه وتأهب للخروج، ليس له أن يرجع عن الخروج حتى يقاتل عدوه..

فيه أنه لا يجب على المسلمين إذا طرقهم عدوهم في ديارهم الخروج إليه؛ بل يجوز لهم أن يلزموا ديارهم، ويقاتلوهم فيها إذا كان ذلك أنصر لهم على عدوهم»[١].

قال الحافظ: «قوله «**واللَّه خير**»: هذا من جملة الرؤيا كما جزم به عياض وغيره، كذا بالرفع فيهما على أنه مبتدأ وخبر، وفيه حذف تقديره وصنع اللَّه خير. قال السهيلي: معناه رأيت بقرا تنحر واللَّه عنده خير. قلت: في رواية ابن إسحاق: «**وإني رأيت واللَّه خيرًا، رأيت بقرًا**». وهي أوضح، والواو للقسم، واللَّه بالجر، وخيرا مفعول رأيت. وقال السهيلي: البقر في التعبير بمعنى رجال متسلحين يتناطحون. قلت: وفيه نظر، فقد رأى الملك بمصر البقر وأولها يوسف عليه السلام بالسنين»[٢].

* عَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: لَقِينَا الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْلَسَ النَّبِيُّ ﷺ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاةِ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ، وَقَالَ: لَا تَبْرَحُوا إِنْ رَأَيْتُمُونَا ظَهَرْنَا عَلَيْهِمْ فَلَا تَبْرَحُوا، وَإِنْ رَأَيْتُمُوهُمْ ظَهَرُوا عَلَيْنَا فَلَا تُعِينُونَا فَلَمَّا لَقِينَا هَرَبُوا، حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدِدْنَ فِي الْجَبَلِ، رَفَعْنَ عَنْ سُوقِهِنَّ قَدْ بَدَتْ خَلَاخِلُهُنَّ فَأَخَذُوا يَقُولُونَ: الْغَنِيمَةَ الْغَنِيمَةَ. فَقَالَ عَبْدُاللَّهِ: عَهِدَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لَا تَبْرَحُوا فَأَبَوْا. فَلَمَّا أَبَوْا صُرِفَ وُجُوهُهُمْ، فَأُصِيبَ سَبْعُونَ قَتِيلًا. وَأَشْرَفَ أَبُو سُفْيَانَ فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَقَالَ: «**لَا تُجِيبُوهُ**». فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ قَالَ: «**لَا تُجِيبُوهُ**». فَقَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ قُتِلُوا فَلَوْ كَانُوا أَحْيَاءً. لَأَجَابُوا فَلَمْ يَمْلِكْ عُمَرُ نَفْسَهُ فَقَالَ: كَذَبْتَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ أَبْقَى اللَّهُ عَلَيْكَ مَا يُخْزِيكَ. قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: اعْلُ هُبَلُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَجِيبُوهُ**». قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**». قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: لَنَا الْعُزَّى وَلَا عُزَّى لَكُمْ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَجِيبُوهُ**» قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا اللَّهُ مَوْلَانَا وَلَا مَوْلَى لَكُمْ**». قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ،

(١) زاد المعاد (٣/ ٢١١).

(٢) فتح الباري (٧/ ٤٧٩).

وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، وَتَجِدُونَ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي[١].

★ غريب الحديث:

يشتددن: بفتح أوله وسكون المعجمة وفتح المثناة بعدها دال مكسورة ثم أخرى ساكنة؛ أي: يسرعن المشي. يقال: اشتد في مشيه، إذا أسرع.

صرف وجوههم: أي: تحيروا فلم يدروا أين يذهبون وأين يتوجهون.

سجال: يعني: ساجلة؛ أي: متداولة، يوم لنا ويوم علينا.

مثلة: بضم الميم على وزن: فعلة، من مثل إذا قطع وجدع.

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «وفي هذا الحديث من الفوائد منزلة أبي بكر وعمر من النبي ﷺ وخصوصيتهما به بحيث كان أعداؤه لا يعرفون بذلك غيرهما، إذ لم يسأل أبو سفيان عن غيرهما. وأنه ينبغي للمرء أن يتذكر نعمة اللَّه ويعترف بالتقصير عن أداء شكرها. وفيه شؤم ارتكاب النهي، وأنه يعم ضرره من لم يقع منه، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[٢] وأن من آثر دنياه أضر بأمر آخرته ولم تحصل له دنياه. واستفيد من هذه الكائنة أخذ الصحابة الحذر من العود إلى مثلها، والمبالغة في الطاعة، والتحرز من العدو الذين كانوا يظهرون أنهم منهم وليسوا منهم، وإلى ذلك أشار ﷻ في سورة آل عمران أيضًا ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾[٣]، وقال: ﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[٤]»[٥].

وقال ابن بطال: «قوله: «**قد بقي لك ما يسوؤك**»[٦]: أرهب عليه لما ظن به الوقيعة، وكسر شوكة الإسلام، وأنه قد مضى النبي وسادة أصحابه، فعرفهم أنهم

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩٣)، والبخاري (٧/ ٤٤٣/ ٤٠٤٣)، وأبو داود (٣/ ١١٧-١١٨/ ٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٨٩-١٩٠/ ٨٦٣٥٤).

(٢) الأنفال: الآية (٢٥).

(٣) آل عمران: الآيتان (١٤٠ و ١٤١).

(٤) آل عمران: الآية (١٧٩).

(٥) الفتح (٧/ ٤٤٧-٤٤٨).

(٦) هي رواية أخرى للبخاري (٦/ ١٩٩-٢٠٠/ ٣٠٣٩).

أحياء، وأنه قد بقي له ما يسوؤه. «**وهبل**» صنم كانوا يعبدونه في الجاهلية، وأمر النبي ﷺ بجوابه؛ لأنه بعث بإعلاء كلمة اللَّه تعالى وإظهار دينه، فلما كلم هذا الكلام لم يسعه السكوت عنه، حتى تعلو كلمة اللَّه، ثم عرفهم في جوابه أنهم يقرون أن اللَّه أعلى وأجل لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[١] فلم يراجعه أبو سفيان، ولا نقض عليه كلامه، اعترافًا بما قال. ثم ذكر صنمًا آخر، فقال: «**إن لنا العزى ولا عزى لكم**» فأمر الرسول ﷺ بمجاوبته، وعرف في جوابه أن العزى ومثلها من الأصنام لا موالاة لها ولا نصر. فقال: «**اللَّه مولانا ولا مولى لكم**». فعرف أن النصر من عند اللَّه وأن الموالاة والنصر لا تكون من الأصنام، فبكته بذلك، ولم يراجعه، وإنما ترك النبي ﷺ مجاوبته بنفسه تهاونًا من خصام مثله، وأمر من ينوب عنه تنزهًا عنه»[٢].

* عن جابر قال: «اصطبح الخمر يوم أحد ناس ثم قتلوا شهداء»[٣].

★ غريب الحديث:

اصطبح الخمر: أي: شربه صبوحًا، والصبوح كل ما أكل أو شرب غدوة.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «وقوله في حديث جابر: «**ثم قتلوا شهداء**»؛ يعني: والخمر في بطونهم؛ فإنما كان هذا قبل نزول تحريمها، فلم يمنعهم ما كان في علم اللَّه من تحريمها، ولا كونها في بطونهم من حكم الشهادة، وفضلها؛ لأن التحريم إنما يلزم بالنهي، وما كان قبل النهي فهو معفو عنه»[٤].

قال الحافظ: «دل ذلك على أن تحريم الخمر كان بعد أحد»[٥].

* عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال: قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: «**في الجنة**». فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قتل[٦].

---

(١) الزمر: الآية (٣).
(٢) شرح ابن بطال (٥/ ١٩٦-١٩٧).
(٣) البخاري (٧/ ٤٤٨/ ٤٠٤٤).
(٤) شرح ابن بطال (٥/ ٢٩).
(٥) الفتح (٧/ ٤٤٨).
(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٨)، والبخاري (٧/ ٤٤٩/ ٤٠٤٦)، ومسلم (٣/ ١٥٠٩/ ١٨٩٩)، والنسائي (٦/ ٣٤٠/ ٣١٥٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «**قال رجل**» لم أقف على اسمه، وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحمام وهو بضم المهملة وتخفيف الميم، وسبقه إلى ذلك الخطيب واحتج بما أخرجه مسلم من حديث أنس «أن عمير بن الحمام أخرج تمرات فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا أحييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، ثم قاتل حتى قتل»[(١)]. قلت: لكن وقع التصريح في حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر، والقصة التي في الباب وقع التصريح في حديث جابر أنها كانت يوم أحد، فالذي يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين، والله أعلم. وفيه ما كان الصحابة عليه من حب نصر الإسلام، والرغبة في الشهادة ابتغاء مرضاة الله»[(٢)].

قال النووي: «فيه ثبوت الجنة للشهيد، وفيه المبادرة بالخير وأنه لا يشتغل عنه بحظوظ النفوس»[(٣)].

قال القاضي عياض: «فيه جواز الاستقتال في الحرب، ومنية الشهادة، وحمل الإنسان وحده عن الكفار إن علم أنهم يقتلونه في حملته تلك، وليس هو من إلقاء اليد إلى التهلكة، وقد فعله كثير من الصحابة والسلف، وروي عن عمر بن الخطاب وأبي هريرة قالوا فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[(٤)] ونحوها من الآيات. وروي عن مالك مثله في الرجل إذا علم من نفسه قوة، وعنى أن يبارز الجماعة. وقال محمد بن الحسن: لو حمل واحد على ألف وحده لم يكن به بأس إذا طمع في نجاة أو نكاية، أو أن يفعل المسلمون مثل فعلته أو يرهب العدو بما يريهم من صلابة المسلمين في دينهم، وإلا فهو مكروه إلا أنه كره العلماء أن يفعل ذلك من يكون رأس الكتيبة، وعلم إن أصيب هلك من معه من الجيش. فالصواب ألا يتعرض للقتل إلا أن يضطر إلى ذلك، وقد روي أيضًا عن عمر كره هذا الاستقتال، وقال: لأن أموت على فراشي خير من أن أقتل بين يدي صف؛ يعني: يستقتل، ورأى بعضهم هذا من إلقاء اليد للتهلكة»[(٥)].

---

(١) أحمد (٣/ ١٣٦)، ومسلم (٣/ ١٥٠٩-١٥١١/ ١٩٠١).
(٢) الفتح (٧/ ٤٥٠).
(٣) شرح مسلم (١٣/ ٣٨).
(٤) البقرة: الآية (٢٠٧).
(٥) إكمال المعلم (٦/ ٣٢٤).

قلت: وهذا الخلاف الذي ذكره القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ في الرجل الذي يلقي نفسه في جيش العدو، ويظهر الشجاعة، وربما يصيب منهم العدد الكثير، ويوقع بهم الخسارة الفادحة، ينبغي أن يحمل على ما إذا كان الجيش تحت راية إمام شرعي يبايعه المسلمون، أو أن هذا الفعل إذا نزل العدو بأرض بغتة وليس للبلد قيادة، وأهل البلد يدفعون عدوهم بكل الوسائل الممكنة. أما إذا كان ما يقع في وقتنا الحاضر أن يتسلح الإنسان بأنواع الأسلحة، ويفجر نفسه في مكان قد يصيب منهم العدد الكثير، وليست له أية إمامة ولا قيادة شرعية؛ فلا شك أن هذا انتحار وتعرض للتهلكة. أما وقوعه في بلاد المسلمين -على ما نسمع ويبلغنا- فلا شك أن هذا محرم قطعًا، والفاعل له ظالم مجرم عاتٍ، قاتل للنفوس البريئة.

* عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت عن يمين رسول اللَّه ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بياض ما رأيتهما قبل ولا بعد؛ يعني: جبريل وميكائيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «فيه بيان كرامة النبي ﷺ على اللَّه تعالى وإكرامه إياه بإنزال الملائكة تقاتل معه، وبيان أن الملائكة تقاتل، وأن قتالهم لم يختص بيوم بدر، وهذا هو الصواب خلافًا لمن زعم اختصاصه، فهذا صريح في الرد عليه. وفيه فضيلة الثياب البيض وأن رؤية الملائكة لا تختص بالأنبياء؛ بل يراهم الصحابة والأولياء. وفيه منقبة لسعد بن أبي وقاص الذي رأى الملائكة، واللَّه أعلم»[(٢)].

وقال القرطبي: «رؤية سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهذين الملكين في ذلك اليوم كرامة من اللَّه تعالى خصه بها، كما قد خص عمران بن حصين بتسليم الملائكة عليه، وأسيد بن حضير برؤية الملائكة الذين تنزلوا لقراءة القرآن، وقتال الملائكة للكفار يوم بدر ويوم أحد لم يخرج عن عادة القتال المعتاد بين الناس، ولو أذن اللَّه تعالى لملك من أولئك الملائكة بأن يصيح صيحة واحدة في عسكر العدو لهلكوا في لحظة واحدة، أو لخسف بهم موضعهم، أن أسقط عليهم قطعة من الجبل المطل عليهم، لكن لو

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٧)، والبخاري (٧/ ٤٥٤/ ٤٠٥٤)، ومسلم (٤/ ١٨٠٢/ ٢٣٠٦).

(٢) شرح مسلم (١٥/ ٥٤).

كان ذلك لصار الخبر عيانًا، والإيمان بالغيب مشاهدة، فيبطل سر التكليف، فلا يتوجه لوم ولا تعنيف، كما قد صرح اللَّه تعالى بذلك قولًا وذكرًا، إذ قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾[١]»[٢].

قلت: رؤية الملائكة من بني آدم على خلقتهم وهيئتهم كما كان الرسول ﷺ يراهم ويراه جبريل ويخاطبه بالوحي ويبلغه عن ربه؛ هذا أمر مستحيل لم يقع لأحد، فهو خاص بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وأما أن يرى الملك في صورة رجل كما رأى الصحابة جبريل لما سأل الرسول ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، ووصفوه ببياض الثياب وسواد الشعر؛ فهذا ليس فيه خصوصية لأحد، فكما وقع في هذه الغزوة أنهم رأوا الملائكة تقاتل على خيلها، فهذا ليس فيه خصوصية ولا فضيلة، فما ذكره الإمام النووي فيه نظر، والصحيح ما قدمنا حتى لا يتذرع به المخرفون وأدعياء علم الغيب الكذبة، والمرجفون في كل زمان ومكان فيزعمون لأنفسهم من المزاعم ما ليس للأنبياء والرسل، فليتنبه لهذا فما أكثر الدجالين والكذابين لا كثرهم اللَّه.

* عن ابن شداد قال: سمعت عليا رضي الله عنه يقول: ما جمع رسول اللَّه ﷺ أبويه لأحد غير سعد بن أبي وقاص، فإنه جعل يقول له يوم أحد: «**ارم فداك أبي وأمي**»[٣].

★ فوائد الحديث:

قال المهلب: «هذا مما خص به سعد، وفيه دليل أن الرجل إذا كان له أبوان وإن كانا على غير دينه فلهما عليه حرمة وحق؛ لأنه لا يفدي إلا بذي حرمة ومنزلة، وإلا لم يكن يفديه، ولا فضيلة للمفدي. فمن ها هنا قال مالك: إنه من آذى مسلمًا في أبويه الكافرين عوقب وأدب لحرمتهما عليه»[٤].

قال النووي: «فيه جواز التفدية بالأبوين وبه قال جماهير العلماء، وكرهه عمر ابن الخطاب والحسن البصري رضي الله عنهما، وكرهه بعضهم في التفدية بالمسلم من أبويه،

---

(١) الأنعام: الآية (١٥٨). (٢) المفهم (٦/ ١٠١).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ١٧٤)، والبخاري (٧/ ٤٥٥/ ٤٠٥٨)، ومسلم (٤/ ١٨٧٦/ ٢٤١١)، والترمذي (٣/ ١٢٠/ ٢٢٣٠)، وابن ماجه (١/ ٤٧/ ١٣٠). (٤) شرح ابن بطال (٥/ ٩٧).

والصحيح الجواز مطلقًا؛ لأنه ليس فيه حقيقة فداء، وإنما هو كلام وإلطاف وإعلام بمحبته له ومنزلته، وقد وردت الأحاديث الصحيحة بالتفدية مطلقا، وأما قوله: ما جمع أبويه لغير سعد، وذكر بعد أنه جمعهما للزبير، وقد جاء جمعهما لغيرهما أيضًا، فيحمل قول علي رضي الله عنه على نفي علم نفسه؛ أي: لا أعلمه جمعهما إلا لسعد ابن أبي وقاص، وهو سعد بن مالك. وفيه فضيلة الرمي والحث عليه والدعاء لمن فعل خيرا»[١].

* عن معتمر عن أبيه قال: زعم أبو عثمان أنه لم يبق مع النبي ﷺ في بعض تلك الأيام التي يقاتل فيهن غير طلحة وسعد عن حديثهما[٢].

* عن قيس قال: رأيت يد طلحة شلاء وقى بها النبي ﷺ يوم أحد[٣].

* عن أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ مجوب عليه بحجفة له، وكان أبو طلحة رجلًا راميًا شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثًا، وكان الرجل يمر معه بجعبة من النبل فيقول: انثرها لأبي طلحة. قال: ويشرف النبي ﷺ ينظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقزان القراب على متونهما تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يدي أبي طلحة إما مرتين وإما ثلاثًا[٤].

★ **غريب الأحاديث:**

شلاء: بفتح المعجمة وتشديد اللام مع المد؛ أي: أصابها الشلل، وهو ما يبطل عمل الأصابع أو بعضها.

مجوب: بضم الميم وفتح الجيم وتشديد الواو المكسورة، ومعناه مترس، من

(١) شرح مسلم (١٥/ ١٤٩).
(٢) البخاري (٧/ ٤٥٦/ ٤٠٦٠-٤٠٦١)، ومسلم (٤/ ١٨٧٩/ ٢٤١٤).
(٣) أحمد (١/ ١٦١)، والبخاري (٧/ ٤٥٦/ ٤٠٦٣)، وابن ماجه (١/ ٤٦/ ١٢٨).
(٤) أحمد (٣/ ١٠٥)، والبخاري (٧/ ٤٥٨/ ٤٠٦٤)، ومسلم (٣/ ١٤٤٣/ ١٨١١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٧٧/ ٨٢٨٤).

الجوبة وهي الترس.

حجفة: هي الترس.

شديد النزع: بفتح النون والزاي الساكنة ثم المهملة؛ أي: رمي السهم.

بجعبة: هي الآلة التي يوضع فيها السهام.

انثرها: من نثر الشيء نثرًا ونثارًا رمى به متفرقًا.

أرى خدم سوقهما: هو بفتح الخاء المعجمة والدال المهملة جمع خدمة وهي: الخلخال، وأما السوق فجمع ساق.

تنقزان القرب: أي: تحملانها، وتنقزان بها وثبًا.

متونهما: ظهورهما.

★ فوائد الأحاديث:

قوله في حديث أبي عثمان «**في تلك الأيام**»: **قال الحافظ**: «في رواية غير أبي ذر «**في بعض تلك الأيام**» وهو أبين؛ لأن المراد بالبعض يوم أحد، وقوله: «**الذي يقاتل فيهن**» في رواية أبي ذر «**التي**» وقوله: «**غير طلحة**» ابن عبيد اللَّه «**وسعد**» ابن وقاص، وقوله: «**عن حديثهما**» يريد أنهما حدثا أبا عثمان بذلك. ووقع عند أبي نعيم في المستخرج من طريق عبد اللَّه بن معاذ عن معتمر «**في هذا الحديث قال سليمان فقلت لأبي عثمان: وما علمك بذلك؟ قال: عن حديثهما**». وهذا قد يعكر عليه ما تقدم قريبا في الحديث الخامس[1] أن المقداد كان ممن بقي معه، لكن يحتمل أن المقداد إنما حضر بعد تلك الجولة، ويحتمل أن يكون انفرادهما عنه في بعض المقامات، فقد روى مسلم من طريق ثابت عن أنس قال: «أفرد رسول اللَّه ﷺ يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش» وكأن المراد بالرجلين طلحة وسعد، وكأن المراد بالحصر المذكور في حديث الباب تخصيصه بالمهاجرين، فكأنه قال: لم يبق معه من المهاجرين غير هذين، وتعين حمله على ما أولته وأن ذلك باعتبار اختلاف الأحوال، وأنهم تفرقوا في القتال، فلما وقعت الهزيمة فيمن انهزم وصاح الشيطان قتل محمد، اشتغل كل واحد منهم بهمه والذب عن نفسه كما في حديث

---

(١) برقم (٤٠٥٥)، وله سبب وهو ما رواه الحاكم (٣/ ٢٦).

سعد، ثم عرفوا عن قرب ببقائه فتراجعوا إليه أولًا فأولًا، ثم بعد ذلك كان يندبهم إلى القتال فيشتغلون به»[(١)].

وقال: «قوله: «**انهزم الناس**»: أي بعضهم، أو أطلق ذلك باعتبار تفرقهم كما تقدم بيانه، والواقع أنهم صاروا ثلاث فرق: فرقة استمروا في الهزيمة إلى قرب المدينة فما رجعوا حتى انفض القتال وهم قليل، وهم الذين نزل فيهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾[(٢)]. وفرقة صاروا حيارى لما سمعوا أن النبي ﷺ قتل، فصار غاية الواحد منهم أن يذب عن نفسه أو يستمر على بصيرته في القتال إلى أن يقتل، وهم أكثر الصحابة. وفرقة ثبتت مع النبي ﷺ، ثم تراجع إليه القسم الثاني شيئًا فشيئا لما عرفوا أنه حي»[(٣)].

في حديث أنس: فضيلة لأبي طلحة الأنصاري، ولذلك بوب عليه البخاري: «باب مناقب أبي طلحة رضي اللَّه تعالى عنه».

وفيه: جواز الغزو بالنساء، والاستعانة بهن في الجهاد[(٤)].

قال ابن بطال: «وإنما غزوهن تطوع وفضيلة، وعونهن للغزاة بسقي، وسقيهن وتشميرهن هو ضرب من القتال؛ لأن العون على الشيء ضرب منه»[(٥)].

قال النووي: «فيه خروج النساء في الغزو والانتفاع بهن في السقي والمداواة ونحوهما، وهذه المداواة لمحارمهن وأزواجهن، وما كان منها لغيرهم لا يكون فيه مس بشرة إلا في موضع الحاجة»[(٦)].

قوله: «**أرى خدم سوقهما**» **قال النووي**: «وهذه لم يكن فيها نهي لأن هذا كان يوم أحد قبل أمر النساء بالحجاب وتحريم النظر إليهن، ولأنه لم يذكر هنا أنه تعمد النظر إلى نفس الساق، فهو محمول على أنه حصلت تلك النظرة فجأة بغير قصد ولم يستدمها»[(٧)].

وفيه: أن النساء ألطف بمعالجة الرجال والجرحى[(٨)].

---

(١) فتح الباري (٧/ ٤٥٧).
(٢) آل عمران: الآية (١٥٥).
(٣) فتح الباري (٧/ ٤٥٩).
(٤) زاد المعاد (٣/ ٢١١).
(٥) شرح البخاري (٥/ ٧٧).
(٦) شرح مسلم (١٢/ ١٥٨).
(٧) شرح مسلم (١٢/ ١٥٨-١٥٩).
(٨) ابن بطال (٥/ ٩٦).

* عن عائشة ﵄ قالت: لما كان يوم أحد هزم المشركون، فصرخ إبليس لعنة اللَّه عليه؛ أي: عباد اللَّه أخراكم، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أي عباد اللَّه أبي أبي. قال: قالت: فواللَّه ما احتجزوا حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر اللَّه لكم. قال عروة: فواللَّه ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله(١).

★ غريب الحديث:

أخراكم: أي: احترزوا من جهة أخراكم، وهي كلمة تقال لمن يخشى أن يؤتى عند القتال من ورائه.

اجتلدت هي وأخراهم: أي: أولاهم نفرت مع أخراهم.

ما احتجزوا: أي: ما امتنعوا من قتله حتى قتلوه.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «هذا أصل مجمع عليه أن عفو الولي لا يكون إلا بعد الموت، إذ قد يمكن أن يبرأ فلا يموت، وأما عفو القتيل فإنه قبل الموت»(٢).

قال الحافظ: «يؤخذ منه أن فعل الخير تعود بركته على صاحبه في طول حياته»(٣).

فيه فضيلة لحذيفة بن اليمان ﵁.

* عَنْ أَنَسٍ ﵁ قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول اللَّه، غبت عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن اللَّه أشهدني قتال المشركين ليرين اللَّه ما أصنع. فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء؛ يعني: أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء؛ يعني: المشركين. ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد. قال سعد: فما استطعت يا رسول اللَّه

---

(١) البخاري (٧/ ٤٥٩/ ٤٠٦٥).
(٢) شرح ابن بطال (٨/ ٥١٢).
(٣) فتح الباري (٧/ ١٧٨).

ما صنع . قال أنس : فوجدنا به بضعًا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون ، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه . قال أنس : كنا نرى أو نظن- أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ﴾[١][٢] .

★ غريب الحديث:

ببنانه : البنان الأصبع ، وقيل : طرف الأصبع .

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال : قال المهلب : فيه الأخذ بالشدة واستهلاك الإنسان نفسه في طاعة الله[٣] .

وقال : «وفيه الوفاء بالعهد لله بإهلاك النفس ، ولا يعارض قوله : ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٤] لأن هؤلاء عاهدوا اللَّه فوفوا بما عاهدوه من العناء في المشركين وأخذوا في الشدة بأن باعوا نفوسهم من اللَّه بالجنة ، كما قال تعالى . ألا ترى قوله «**فما استطعت ما صنع**» يريد : ما استطعت أن أصف ما صنع من كثرة ما أغنى وأبلى في المشركين»[٥] .

وتعقبه الحافظ بقوله : «قلت : وقع عند يزيد بن هارون عن حميد «**فقلت : أنا معك فلم أستطع أن أصنع ما صنع**» وظاهره أنه نفى استطاعة إقدامه الذي صدر منه حتى وقع له ما وقع من الصبر على تلك الأهوال ؛ بحيث وجد في جسده ما يزيد على الثمانين من طعنة وضربة ورمية ، فاعترف سعد بأنه لم يستطع أن يقدم إقدامه ولا يصنع صنيعه وهذا أولى مما تأوله ابن بطال»[٦] .

قال ابن بطال : «قوله «**إني أجد ريح الجنة من قبل أحد**» يمكن أن يكون على الحقيقة ؛ لأن ريح الجنة يوجد من مسيرة خمسمائة عام ، فيجوز أن يشم رائحة طيبة

---

(١) الأحزاب : الآية (٢٣) .

(٢) أخرجه : أحمد (٣/ ١٩٤) ، والبخاري (٦/ ٢٦/ ٢٨٠٥) ، ومسلم (٣/ ١٥١٢/ ١٩٠٣) ، والترمذي (٥/ ٣٢٥/ ٣٢٠٠) ، والنسائي الكبرى (٦/ ٤٣٠-٤٣١/ ١١٤٠٣) .

(٣) شرح ابن بطال (٥/ ٢٣) .

(٤) البقرة : الآية (١٩٥) .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) فتح الباري (٦/ ٢٨) .

تشهيه الجنة وتحببها إليه، ويمكن أن يكون مجازًا، فيكون المعنى: إني لأعلم أن الجنة في هذا الموضع الذي يقاتل فيه؛ لأن الجنة في هذا الموضع تكتسب وتشترى»[١].

قال ابن حجر: «في قصة أنس بن النضر من الفوائد: جواز بذل النفس في الجهاد، وفضل الوفاء بالعهد ولو شق على النفس حتى يصل إلى إهلاكها، وأن طلب الشهادة في الجهاد لا يتناوله النهي عن الإلقاء إلى التهلكة. وفيه فضيلة ظاهرة لأنس بن النضر وما كان عليه من صحة الإيمان وكثرة التوقي والتورع وقوة اليقين. قال الزين بن المنير: من أبلغ الكلام وأفصحه قول أنس بن النضر في حق المسلمين «**أعتذر إليك**» وفي حق المشركين «**أبرأ إليك**»، فأشار إلى أنه لم يرض الأمرين جميعًا مع تغايرهما في المعنى»[٢].

* عن سعد بن إبراهيم عن أبيه إبراهيم أن عبد الرحمن بن عوف أتي بطعام وكان صائما- فقال: قتل مصعب بن عمير وهو خير مني، كفن في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطي رجلاه بدا رأسه، وأراه قال: وقتل حمزة وهو خير مني، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط أو قال أعطينا من الدنيا ما أعطينا- وقد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا. ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام[٣].

* عن خباب بن الأرت ﷺ قال: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، ومنا من مضى أو ذهب لم يأكل من أجره شيئًا، كان منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد، لم يترك إلا نمرة كنا إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه، وإذا غطي بها رجلاه خرج رأسه. فقال لنا النبي ﷺ «**غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجله الإذخر**»، أو قال: «**ألقوا على رجله من الإذخر**». ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها[٤].

★ غريب الحديثين:

بردة: الشملة المخططة، وقيل: كساء أسود مربع فيه صور، تلبسه الأعراب

---

(١) شرح ابن بطال (٥/ ٢٣).

(٢) الفتح (٦/ ٢٩).

(٣) البخاري (٧/ ٤٤٨/ ٤٠٤٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٠٩)، والبخاري (٧/ ٤٤٩-٤٥٠/ ٤٠٤٧)، ومسلم (٢/ ٦٤٩/ ٩٤٠)، وأبو داود (٣/ ٢٩٦/ ٢٨٧٦)، والترمذي (٥/ ٦٤٩/ ٣٨٥٣)، والنسائي (٤/ ٣٣٩/ ١٩٠٢).

وجمعها برد.

نمرة: بفتح النون وكسر الميم ثم راء هي إزار من صوف مخطط أو بردة، وقيل: إنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض.

الإذخر: حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب.

أينعت: أي: انتهت واستحقت القطف.

يهدبها: أي: يقطفها ويجتنيها.

★ فوائد الحديثين:

قال ابن بطال: «في حديث عبد الرحمن من الفقه أن العالم ينبغي له أن يذكر بسير الصالحين وتقللهم من الدنيا لتقل رغبته فيها، ويبكي من تأخر لحاقه بالأخيار ويشفق من ذلك؛ ألا ترى أنه بكى وترك الطعام. وفيه أنه ينبغي للمرء أيضًا أن يذكر نعم اللَّه عنده، ويعترف بالتقصير عن أداء شكرها، ويتخوف أن يقاص بها في الآخرة، ويذهب سعيه فيها.

وقال عبد الواحد: إن قال قائل: لم بكى عبد الرحمن وقد ضمن له النبي الجنة، وهو أحد العشرة؟ قيل له: كان الصحابة مشفقين خائفين من طول الحساب والوقوف له، مستصغرين لأنفسهم، راغبين في إعلاء الدرجات، وإن كانت الجنة قد ضمنت لهم؛ فلذلك كانوا يبكون خوفًا من التأخر عن اللحاق بالدرجات العلى، ومن طول الحساب واللَّه أعلم»[(١)].

* عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف كنت أسمع رسول اللَّه ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾[(٢)] فألحقناها في سورتها في المصحف[(٣)].

(١) شرح ابن بطال (٣/ ٢٦٥).

(٢) سورة الأحزاب: الآية (٢٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٨٨)، والبخاري (٧/ ٤٥١-٤٥٢/ ٤٠٤٩)، والترمذي (٥/ ٢٦٥-٢٦٦/ ٣١٠٤) مطولًا، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٠/ ١١٤٠١).

★ **فوائد الحديث:**

أورد البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث في باب غزوة أحد.

قال العيني: «مطابقته للترجمة من حيث أن في هذه الآية ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ وإنما قضوه في أحد، منهم أنس بن النضر المذكور في الحديث السابق، ونزولها في أنس بن النضر ونظائره من شهداء أحد -رضي اللَّه تعالى عنهم-»(١).

* عَنْ جَابِرٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هَلْ نَكَحْتَ يَا جَابِرُ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «**مَاذَا أَبِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟**». قُلْتُ: لَا بَلْ ثَيِّبًا. قَالَ: «**فَهَلَّا جَارِيَةً تُلَاعِبُكَ**». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَبِي قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ وَتَرَكَ تِسْعَ بَنَاتٍ كُنَّ لِي تِسْعَ أَخَوَاتٍ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَجْمَعَ إِلَيْهِنَّ جَارِيَةً خَرْقَاءَ مِثْلَهُنَّ، وَلَكِنِ امْرَأَةً تَمْشُطُهُنَّ وَتَقُومُ عَلَيْهِنَّ. قَالَ: «**أَصَبْتَ**»(٢).

* عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: حَدَّثَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ رضي الله عنهما أَنَّ أَبَاهُ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ عَلَيْهِ دَيْنًا، وَتَرَكَ سِتَّ بَنَاتٍ، فَلَمَّا حَضَرَ جذاذ النَّخْلِ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ: قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ وَالِدِي قَدِ اسْتُشْهِدَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ دَيْنًا كَثِيرًا، وَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَرَاكَ الْغُرَمَاءُ. فَقَالَ: «**اذْهَبْ فَبَيْدِرْ كُلَّ تَمْرٍ عَلَى نَاحِيَةٍ**». فَفَعَلْتُ، ثُمَّ دَعَوْتُهُ فَلَمَّا نَظَرُوا إِلَيْهِ كَأَنَّهُمْ أُغْرُوا بِي تِلْكَ السَّاعَةَ، فَلَمَّا رَأَى مَا يَصْنَعُونَ أَطَافَ حَوْلَ أَعْظَمِهَا بَيْدَرًا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ جَلَسَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «**ادعُ لك أَصْحَابَكَ**» فَمَا زَالَ يَكِيلُ لَهُمْ حَتَّى أَدَّى اللَّهُ عَنْ وَالِدِي أَمَانَتَهُ، وَأَنَا أَرْضَى أَنْ يُؤَدِّيَ اللَّهُ أَمَانَةَ وَالِدِي وَلَا أَرْجِعَ إِلَى أَخَوَاتِي بِتَمْرَةٍ فَسَلَّمَ اللَّهُ الْبَيَادِرَ كُلَّهَا، وَحَتَّى إِنِّي أَنْظُرُ إِلَى الْبَيْدَرِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ كَأَنَّهَا لَمْ تَنْقُصْ تَمْرَةً وَاحِدَةً(٣).

---

(١) عمدة القاري (١٢/ ٩٧).

(٢) أخرجه: البخاري (٧/ ٣٥٧/ ٤٠٥٢)، ومسلم (٢/ ١٠٨٧-١٠٨٨/ ٧١٥)، وأبو داود (٢/ ٥٤٠-٥٤١/ ٢٠٤٨)، والترمذي (٣/ ٤٠٦/ ١١٠٠)، والنسائي (٦/ ٣٦٩-٣٧٠/ ٣٢١٩-٣٢٢٠)، وابن ماجه (١/ ٥٩٨/ ١٨٦٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣١٣)، والبخاري (٧/ ٤٥٣-٤٥٤/ ٤٠٥٣)، وأبو داود (٣/ ٣٠٣/ ٢٨٨٤)، والنسائي (٦/ ٥٥٥/ ٣٦٣٨)، وابن ماجه (٢/ ٨١٣-٨١٤/ ٢٤٣٤) بألفاظ مختلفة.

★ غريب الحديثين:

خرقاء: تأنيث الأخرق. وهي الحمقاء الجاهلة، وقيل الخرقاء المرأة التي لا رفق بها ولا سياسة.

جذاذ النخل: بفتح الجيم وكسرها أي قطعه.

فبيدر: أمر من بيدر؛ أي: إذا جمع الطعام في موضع يسمى بيدرًا.

أغروا: أي: هيجوا.

أطاف: ألم وقارب.

★ فوائد الحديثين:

قال ابن حجر: «والغرض من إيراده هنا -أي: في كتاب المغازي- أن عبد اللَّه والد جابر كان ممن استشهد بأحد، وعند الترمذي[1] من طريق طلحة بن خراش «سمعت جابرًا يقول: لقيني النبي ﷺ فقال: **مالي أراك منكسرًا؟** قلت: يا رسول اللَّه استشهد أبي بأحد وترك دينًا وعيالًا قال: **أفلا أبشرك؟ إن اللَّه قد لقي أباك فقال: تمنَّ عليَّ، قال: تحييني فأقتل فيك مرة أخرى** وأنزلت هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾[2]»[3].

قال ابن القيم: «الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو»[4].

* * *

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢١٤-٢١٥/ ٣٠١٠) وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجه (١/ ٦٨/ ١٩٠٠).
(٢) آل عمران الآية: (١٦٩). (٣) فتح الباري (٧/ ٤٥٤).
(٤) زاد المعاد (٣/ ٢٢١-٢٢٢).

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

همت: أرادت ولم تفعل.

تفشلا: الفشل: ضعف مع جبن.

وليهما: نصيرهما وظهيرهما.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وكان همُّهما الذي همَّا به من الفشل الانصرافَ عن رسول اللَّه ﷺ والمؤمنين حين انصرف عنهم عبد اللَّه بن أبي ابن سلول بمن معه، جبنًا منهم، من غير شك منهم في الإسلام ولا نفاق، فعصمهم اللَّه مما هموا به من ذلك، ومضوا مع رسول اللَّه ﷺ لوجهه الذي مضى له، وتركوا عبد اللَّه بن أبي ابن سلول والمنافقين معه، فأثنى اللَّه ﷻ عليهما بثبوتهما على الحق، وأخبر أنه وليُّهما وناصرهما على أعدائهما من الكفار»[(١)].

قال السعدي: «هم بنو سلمة وبنو حارثة. لكن تولاهما الباري بلطفه ورعايته وتوفيقه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم إذا توكلوا عليه كفاهم وأعانهم، وعصمهم من وقوع ما يضرهم في دينهم ودنياهم.

وفي هذه الآية وغيرها وجوب التوكل، وأنه على حسب إيمان العبد يكون توكله. والتوكل هو اعتماد العبد على ربه في حصول منافعه، ودفع مضاره»[(٢)].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: متولي أمورهما لصدق إيمانهما،

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٦٨ شاكر).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤١٥).

لذلك صرف الفشل عنهما وثبتهما، فلم يجيبا داعي الضعف الذي ألم بهما عند رجوع نحو ثلث العسكر؛ بل تذكرا ولاية اللَّه للمؤمنين فوثقا به وتوكلا عليه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أمثالهم لا على حولهم وقوتهم ولا على أعوانهم وأنصارهم، وإنما يبذلون حولهم وقوتهم ويأخذون أهبتهم وعدتهم إقامة لسنن اللَّه تعالى في خلقه، إذ جعل الأسباب مفضية إلى المسببات وهو الفاعل المسخر للسبب والمسبب والموفق بينهما، فينصر الفئة القليلة على الكثيرة إن شاء كما نصر المؤمنين يوم بدر»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن جابر ﷺ قال: «نزلت هذه الآية فينا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ بني سلمة وبني حارثة، وما أحب أنها لم تنزل واللَّه يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾»(٢).

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «قوله: «**وما أحب أنها لم تنزل واللَّه يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾**»؛ أي: وأن الآية وإن كانت في ظاهرها غض منهما لكن في آخرها غاية الشرف لهم. قال ابن إسحاق: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي: الدافع عنهما ما هموا به من الفشل؛ لأن ذلك كان من وسوسة الشيطان من غير وهن منهم»(٣).

قال القرطبي: «والهم من الطائفتين كان بعد الخروج لما رجع عبد اللَّه بن أبي بمن معه من المنافقين، فحفظ اللَّه قلوبهم فلم يرجعوا، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يعني قلوبهما عن تحقيق هذا الهم. وقيل: أرادوا التقاعد عن الخروج، وكان ذلك صغيرة منهم. وقيل: كان ذلك حديث نفس منهم خطر ببالهم، فأطلع اللَّه نبيه ﵇ عليه فازدادوا بصيرة، ولم يكن ذلك الخور مكتسبًا لهم فعصمهم اللَّه، وذم بعضهم بعضا، ونهضوا مع النبي ﷺ فمضى رسول اللَّه ﷺ حتى أطل على المشركين»(٤).

---

(١) تفسير المنار (٤/ ١٠٩).
(٢) أخرجه: البخاري (٧/ ٤٥٣/ ٤٠٥١)، ومسلم (٤/ ١٩٤٨/ ٢٥٠٥).
(٣) الفتح (٧/ ٤٥٤).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١١٩-١٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أذلة: مفرده ذليل؛ أي: عددكم قليل.

بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء بينه وبين ساحل البحر ليلة، وبينه وبين المدينة سبعة برد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: وإن تصبروا وتتقوا، لا يضركم كيدهم شيئًا، وينصركم ربكم، ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ على أعدائكم وأنتم يومئذ ﴿أَذِلَّةٌ﴾؛ يعني: قليلون في غير منعة من الناس، حتى أظهركم اللَّه على عدوكم مع كثرة عددهم، وقلة عددكم، وأنتم اليوم أكثر عددا منكم حينئذ، فإن تصبروا لأمر اللَّه ينصركم كما نصركم ذلك اليوم، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فاتقوا ربكم بطاعته، واجتناب محارمه، ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول: لتشكروه على ما من به عليكم من النصر على أعدائكم، وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضل عنه مخالفوكم»[١].

قال ابن عطية: «لما أمر اللَّه تعالى بالتوكل عليه، ذكر بأمر بدر الذي كان ثمرة التوكل على اللَّه والثقة به، فمن قال من المفسرين إن قول النبي ﷺ للمؤمنين: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ كان في غزوة بدر، فيجيء التذكير بأمر بدر وبأمر الملائكة وقتالهم فيه مع المؤمنين، محرضًا على الجد والتوكل على اللَّه، ومن قال: إن قول النبي ﷺ: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ الآية، إنما كان في غزوة أحد، كان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ إلى ﴿تَشْكُرُونَ﴾ اعتراضًا بين الكلام جميلًا، والنصر ببدر هو المشهور

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٦٩ شاكر).

الذي قتل فيه صناديد قريش، وعلى ذلك اليوم انبنى الإسلام»[١].

وقال البقاعي: «ولما كان ظاهر الحال فيما أصاب الكفار من المسلمين في هذه الغزوة ربما كان سببا في شك من لم يحقق بواطن الأمور، ولا له أهلية النفوذ في الدقائق من عجائب المقدور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[٢] ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ﴾[٣] ذكرهم الله تعالى نصره لهم في غزوة بدر، وهم في القلة دون ما هم الآن بكثير، مشيرا لهم إلى ما أثمره توكلهم من النصر، وحالهم إذ ذاك حال الآئس منه، ولذلك كانوا في غاية الكراهة للقاء بخلاف ما كانوا عليه في هذه الكرة، حثًّا على ملازمة التوكل، منبهًا على أنه لا يزال يريهم مثل ذلك النصر ويذيق الكفار أضعاف ذلك الهوان حتى يحق الحق ويبطل الباطل، ويظهر دينه الإسلام على الدين كله، فقال -عاطفًا على ما تقديره فمن توكل عليه نصره وكفاه وإن كان قليلًا-: فلقد نصركم الله أول النهار في هذه الغزوة حيث صبرتم واتقيتم بطاعتكم للرسول ﷺ في ملازمة التعب والإقبال على الحرب وغير ذلك بما أمركم به ﷺ، ولم تضركم قلتكم ولا ضعفكم بمن رجع عنكم شيئًا ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾»[٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقوله تعالى: ﴿بِبَدْرٍ﴾؛ أي: يوم بدر، وكان يوم جمعة وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرب محله وحزبه، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلًا، فيهم فارسان وسبعون بعيرًا، والباقون مشاة، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه. وكان العدو يومئذ ما بين التسع مئة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسومة والحلي الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيض وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله، ولهذا قال تعالى ممتنا على عباده المؤمنين وحزبه المتقين: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾؛ أي: قليل عددكم لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد، ولهذا قال تعالى في

(١) المحرر الوجيز (١/ ٥٠٢).
(٢) آل عمران: الآية (١١٦).
(٣) آل عمران: الآية (١٢).
(٤) نظم الدرر (٥/ ٥٠-٥١).

الآية الأخرى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ -إلى قوله- ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)]»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في غزوة بدر

* عن سماك قال: سمعت عياضًا الأشعري قال: شهدت اليرموك، وعلينا خمسة أمراء: أبو عبيدة بن الجراح، ويزيد بن أبي سفيان، وابن حسنة، وخالد بن الوليد، وعياض، -وليس عياض هذا بالذي حدث سماكا- قال: وقال عمر: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة. قال: فكتبنا إليه أنه قد جاش إلينا الموت، واستمددناه. فكتب إلينا: إنه قد جاءني كتابكم تستمدونني، وإني أدلكم على من هو أعز نصرا وأحضر جندًا، اللَّه ﷻ، فاستنصروه فإن محمدًا ﷺ قد نصر يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فقاتلوهم ولا تراجعوني. قال: فقاتلناهم فهزمناهم، وقتلناهم أربعة فراسخ. قال: وأصبنا أموالًا، فتشاوروا فأشار علينا عياض أن نعطي عن كل رأس عشرة. قال: وقال أبو عبيدة: من يراهني؟ فقال شاب: أنا إن لم تغضب. قال: فسبقه، فرأيت عقيصتي أبي عبيدة تنقزان وهو خلفه على فرس عربي[(٣)].

* **غريب الحديث:**

جاش إلينا الموت: أي: تدفق وفاض.

عقيصتي: العقيصة الشعر المعقوص، وهو نحو من المضفور، وأصل العقص: اللي، وإدخال أطراف الشعر في أصوله.

تنقزان: تهتزان وتثبان من شدة العدو.

* عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه -وكان أبوه من أهل بدر- قال:

---

(١) التوبة الآيات (٢٥-٢٧).

(٢) التفسير (٢/ ٩٢).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٤٩) وابن حبان: الإحسان (١١/ ٨٣/ ٤٧٦٦)، وصحح إسناده ابن كثير في التفسير (٢/ ٩٢-٩٣) وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٢١٣) وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: «**من أفضل المسلمين**»، أو كلمة نحوها، قال: «**وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة**»»[١].

★ **فوائد الحديث:**

فيه فضل من شهد بدرًا من الصحابة والملائكة.

قال الشيخ تقي الدين السبكي: «سئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه[٢]، فقلت: وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها اللَّه تعالى في عباده، واللَّه تعالى هو فاعل الجميع، واللَّه أعلم»[٣].

قال القرطبي: «نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب تعالى، وإنما يحتاج إليه المخلوق، فليعلق القلب باللَّه وليثق به، فهو الناصر بسبب وبغير سبب، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٤] ولكن أخبر بذلك ليتمثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلت من قبل، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[٥] ولا يقدح ذلك في التوكل»[٦].

* عن كَعْب بْن مَالِكٍ رضي الله عنه قال: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي تَخَلَّفْتُ عَنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهَا، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ[٧].

★ **غريب الحديث:**

عير: بكسر المهملة وسكون التحتانية؛ أي: القافلة التي كانت مع أبي سفيان.

---

(١) أخرجه: البخاري (٧/ ٣٩٥/ ٣٩٩٢) عن معاذ بن رفاعة بن رافع عن أبيه. ورواه أحمد (٣/ ٤٦٥)، وابن ماجه (١/ ٥٦/ ١٦٠) عن عباية بن رفاعة عن جده رافع بن خديج.

(٢) إثبات الريش للملائكة يحتاج إلى دليل صحيح.

(٣) الفتح (٧/ ٣٩٨).

(٤) يس: الآية (٨٢).

(٥) الأحزاب: الآية (٦٢).

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٢٥).

(٧) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٨٦)، والبخاري (٧/ ٣٦١-٣٦٢/ ٣٩٥١)، ومسلم (٤/ ٢١٢٠/ ٢٧٦٩)، وأبو داود (٢/ ٦٥٢-٦٥٣/ ٢٢٠٢)، والنسائي (٢/ ٣٨٦/ ٧٣٠).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «**غير أني تخلفت في غزوة بدر**» وهو استثناء من المفهوم في قوله: «لم أتخلف إلا في تبوك»، فإن مفهومه إني حضرت في جميع الغزوات ما خلا غزوة تبوك، والسبب في كونه لم يستثنهما معًا بلفظ واحد كونه تخلف في تبوك مختارا لذلك، مع تقدم الطلب ووقوع العتاب على من تخلف، بخلاف بدر في ذلك كله، فلذلك غاير بين التخلفين»[١].

* * *

(١) فتح الباري (٧/ ٣٦٣).

قوله تعالى : ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يمدكم: من الإمداد وهو الإعطاء حالًا بعد حال.

فورهم: أصل الفور شدة الغليان، ثم استعملت لقصد السرعة والمعنى: من ساعتهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «قد اختلف في هذا الإمداد الذي بثلاثة آلاف، والذي بالخمسة على قولين:

أحدهما: أنه كان يوم أحد وكان إمدادًا معلقًا على شرط، فلما فات شرطه، فات الإمداد، وهذا قول الضحاك ومقاتل، وإحدى الروايتين عن عكرمة.

والثاني: أنه كان يوم بدر، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة، والرواية الأخرى عن عكرمة، اختاره جماعة من المفسرين. وحجة هؤلاء أن السياق يدل على ذلك فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾[1] إلى أن قال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: هذا الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾. قال هؤلاء: فلما استغاثوا، أمدهم بتمام ثلاثة آلاف، ثم

(١) آل عمران الآيات (١٢٣-١٢٥).

أمدهم بتمام خمسة آلاف لما صبروا واتقوا، فكان هذا التدريج، ومتابعة الإمداد أحسن موقعًا، وأقوى لنفوسهم، وأسر لها من أن يأتي به مرة واحدة، وهو بمنزلة متابعة الوحي ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقة الأولى: القصة في سياق أحد، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضًا في أثنائها، فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٢١ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[(١)] ثم قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فذكرهم نعمته عليهم لما نصرهم ببدر، وهم أذلة، ثم عاد إلى قصة أحد، وأخبر عن قول رسوله لهم: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾، ثم وعدهم أنهم إن صبروا واتقوا أمدهم بخمسة آلاف، فهذا من قول رسوله، والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة آلاف، وإمداد بدر بألف، وهذا معلق على شرط، وذلك مطلق، والقصة في سورة آل عمران هي قصة أحد مستوفاة مطولة، وبدر ذكرت فيها اعتراضا، والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطولة، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال. يوضح هذا أن قوله: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾[(٢)] قد قال مجاهد: إنه يوم أحد، وهذا يستلزم أن يكون الإمداد المذكور فيه فلا يصح قوله: إن الإمداد بهذا العدد كان يوم بدر، وإتيانهم من فورهم هذا يوم أحد. والله أعلم»[(٣)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اختلف المفسرون في هذا الوعد: هل كان يوم بدر أو يوم أحد؟ على قولين:

أحدهما: أن قوله: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وروي هذا عن الحسن البصري، وعامر الشعبي، والربيع بن أنس، وغيرهم. واختاره ابن جرير. . وقال الربيع بن أنس: أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف.

فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية -على هذا القول- وبين قوله تعالى في قصة

---

(١) آل عمران: الآيتان (١٢١-١٢٢).

(٢) آل عمران: الآية (١٢٥).

(٣) زاد المعاد (٣/ ١٧٧-١٧٨).

بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١]؟.

فالجواب: أن التنصيص على الألف -ههنا- لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله: ﴿مردَفين﴾[٢]، بمعنى: يردفهم غيرهم، ويتبعهم ألوف أخر مثلهم. وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران. فالظاهر: أن ذلك كان يوم بدر كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر، والله أعلم. قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف.

القول الثاني: أن هذا الوعد متعلق بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ وذلك يوم أحد، وهو قول مجاهد، وعكرمة، والضحاك، والزهري، وموسى بن عقبة، وغيرهم، لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف؛ لأن المسلمين فروا يومئذ. زاد عكرمة: ولا بالثلاثة الآلاف؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾ فلم يصبروا، بل فروا، فلم يمدوا بملك واحد. وقوله: ﴿بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾؛ يعني: تصبروا على مصابرة عدوكم، وتتقوني وتطيعوا أمري»[٣].

قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال للمؤمنين: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾؟ فوعدهم الله بثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم، ثم وعدهم بعد الثلاثة الآلاف خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم، واتقوا الله، ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف، ولا بالخمسة آلاف، ولا على أنهم لم يمدوا بهم. وقد يجوز أن يكون الله ﷻ أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم. وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك، ولا خبر عندنا صح من الوجه الذي يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة الآلاف، وغير جائز أن يقال في

---

(١) الأنفال: الآيتان (٩-١٠).

(٢) هي قراءة نافع وجماعة من أهل المدينة بفتح الدال، وباقي السبعة بكسرها.

(٣) التفسير (٢/ ٩٣-٩٤).

ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به، ولا خبر به كذلك، فنسلم لأحد الفريقين قوله، غير أن في القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة وذلك قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ فأما في يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها في أنهم أمدوا، وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا، وينال ما نيل منهم»[١].

قال ابن العربي: «قيل: نزلت يوم أحد، وقيل: يوم بدر، والصحيح يوم بدر، وعليه يدل ظاهر الآية»[٢].

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره-: وما جعل اللَّه وعده إياكم ما وعدكم من إمداده إياكم بالملائكة الذين ذكر عددهم ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾؛ يعني: بشرى يبشركم بها، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ يقول: وكي تطمئن بوعده الذي وعدكم من ذلك قلوبكم، فتسكن إليه، ولا تجزع من كثرة عدد عدوكم، وقلة عددكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾؛ يعني: وما ظفركم إن ظفرتم بعدوكم إلا بعون اللَّه، لا من قبل المدد الذي يأتيكم من الملائكة، يقول: فعلى اللَّه فتوكلوا، وبه فاستعينوا، لا بالجموع وكثرة العدد، فإن نصركم إن كان إنما يكون باللَّه وبعونه معكم من ملائكته خمسة آلاف، فإنه إلى أن يكون ذلك بعون اللَّه وبتقويته إياكم على عدوكم، وإن كان معكم من البشر جموع كثيرة أخرى، فاتقوا اللَّه واصبروا على جهاده عدوكم، فإن اللَّه ناصركم عليهم»[٣].

وقال محمد رشيد رضا -بعد أن ساق قول ابن جرير-: «الظاهر أن يكون التقدير: وما جعل اللَّه ذلك القول الذي قاله لكم الرسول وهو ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ﴾ الخ إلا بشرى يفرح بها روعكم، وتنبسط به أسارير وجوهكم، وطمأنينة لقلوبكم التي طرقها الخوف من كثرة عدوكم واستعدادهم. أي إن قول الرسول له هذا التأثير في تقوية القلوب وتثبيت النفوس، وإنما أرجعنا ضمير ﴿جَعَلَهُ﴾ إلى قول الرسول ﷺ لا إلى وعد اللَّه ﷻ لأن الآيتين السابقتين ليستا وعدًا من اللَّه بالإمداد بالملائكة، وإنما هما إخبار عما قاله الرسول ﷺ، فقد أخبر تعالى في تينك الآيتين أن رسوله

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٨٠-١٨١ شاكر).
(٢) أحكام القرآن (١/ ٢٩٦).
(٣) جامع البيان (٧/ ١٩٠-١٩١ شاكر).

قال لأصحابه ذلك القول وبين في هذه الآية فائدة ذلك القول ومنفعته مع بيان الحقيقة وهي أن النصر بيد اللَّه العزيز؛ أي: القوي الذي لا يمتنع عليه شيء، الحكيم الذي يدبر الأمر على خير سنن، ويقيمه بأحسن سنن، فيهدي لأسباب النصر الظاهرة والباطنة من يشاء، ويصرف عنهما من يشاء، فإن حصل الإمداد بالملائكة فعلًا فما يكون إلا جزءًا من أجزاء سبب النصر أو فردًا من أفراده، ومنه إلقاء الرعب والخوف في قلوب الأعداء، ومنه سائر الأسباب المعروفة من الصبر والثبات وحسن التدبير ومعرفة المواقع وغير ذلك، فإن النبي ﷺ سلك إلى أحد أقرب الطرق، وأخفاها عن العدو، وعسكر في أحسن موضع وهو الشعب (الوادي)، وجعل ظهر عسكره إلى الجبل، وجعل الرماة من ورائهم، فلما اختل بعض هذه التدبيرات لم ينتصروا»[١].

* * *

(١) تفسير المنار (٤/ ١١٢-١١٣).

قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

طرفًا: طائفة وجماعة.

يكبتهم: يهزمهم.

خائبين: الخائب الذي لم ينل ما أمل وطلب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «تأويل الكلام: ولقد نصركم اللّه ببدر، ليهلك فريقًا من الكفار بالسيف، ويخزيهم بخيبتهم مما طمعوا فيه من الظفر، فينقلبوا خائبين، يقول: فيرجعوا عنكم خائبين لم يصيبوا منكم شيئًا مما رجوا أن ينالوه منكم»[١].

قال ابن كثير: «أي: أمركم بالجهاد والجلاد، لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين فقال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾؛ أي: ليهلك أمة ﴿مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾؛ أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم لما لم ينالوا منكم ما أرادوا، ولهذا قال: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا﴾؛ أي: يرجعوا ﴿خَائِبِينَ﴾؛ أي: لم يحصلوا على ما أملوا»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ وبعض آخر إلى أنه من الكلام في وقعة أحد المقصودة بالذات، فإن ذكر النصر ببدر إنما جاء استطرادًا، ولذلك أنكروا أن يكون ذكر الملائكة الثلاثة الآلاف والخمسة الآلاف متعلقا به. وهذا هو المختار عندنا؛ أي: أنه فعل ما فعل ليقطع طرفًا، أو: ما النصر إلا من عنده ليقطع طرفًا. ومعنى قطع الطرف منهم: إهلاك طائفة منهم، يقال: قطع دابر القوم: إذا هلكوا، وقد نطق به التنزيل. وعبر عن الطائفة بالطرف لأنهم الأقرب إلى المسلمين من الوسط، أو أراد

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٩٣ شاكر).

(٢) التفسير (٢/ ٩٥).

بهم الأشراف منهم كذا قيل، والمتبادر الأول لا لأنه من باب ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾[١] كما قيل بل لأن الطرف هو أول ما يوصل إليه من الجيش. وقد أهلك اللَّه من المشركين يوم أحد طائفة في أول الحرب»[٢].

* * *

(١) التوبة: الآية (١٢٣).

(٢) تفسير المنار (٤/ ١١٦).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وتأويل قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: ليس إليك يا محمد من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمري، وتنتهي فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إلي، والقضاء فيهم بيدي دون غيري أقضي فيهم، وأحكم بالذي أشاء من التوبة على من كفر بي وعصاني، وخالف أمري، أو العذاب إما في عاجل الدنيا بالقتل والنقم المبيرة، وإما في آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بي»[(١)].

قال الشيخ السعدي: «.. وبين أن الأمر كله لله، وأن رسول الله ﷺ ليس له من الأمر شيء؛ لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربهم، مدبَّرون لا مدبِّرون. وهؤلاء الذين دعوت عليهم، أيها الرسول، أو استبعدت فلاحهم وهدايتهم، إن شاء الله تاب عليهم، ووفقهم للدخول في الإسلام، وقد فعل، فإن أكثر أولئك ظالمون مستحقون لعقوبات الله وعذابه» اهـ[(٢)].

وقال ابن جرير: «يعني بذلك -تعالى ذكره-: ليس لك يا محمد من الأمر شيء، ولله جميع ما بين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها، دونك ودونهم، يحكم فيهم بما شاء، ويقضي فيهم ما أحب، فيتوب على من أحب من خلقه العاصين أمره ونهيه، ثم يغفر له، ويعاقب من شاء منهم على جرمه، فينتقم منه، وهو الغفور الذي يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه من خلقه بفضله عليهم بالعفو والصفح، والرحيم بهم في تركه عقوبتهم عاجلًا على عظيم ما يأتون من المآثم»[(٣)].

وقال محمد رشيد رضا: «فمن كان له ملك السموات والأرض كان حقيقًا بأن

---

(١) جامع البيان (٧/ ١٩٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤١٧).
(٣) جامع البيان (٧/ ٢٠٣ شاكر).

يكون له الأمر كله في السموات والأرض، ولا يمكن أن يكون لأحد من أهلهما شركة معه، ولا رأي، ولا وساطة تأثير في تدبيرهما، وإن كان ملكًا مقربًا أو نبيًّا مرسلًا إلا من سخره تعالى للقيام بشيء فإنه يكون خاضعًا لذلك التسخير لا يستطيع الخروج فيه عن السنن العامة التي قام بها نظام الكون ونظام الاجتماع. وفي ذلك تأديب من اللَّه تعالى لرسوله وإعلام بأن ذلك اللعن والدعاء على المشركين مما لم يكن ينبغي له»(١).

قلت: هذا الفهم لتفسير الآية وإنزالها على واقع المخلوقات مهما عظم شأنها وكبرت قوتها؛ هو فهم طيب؛ فهذا رسول اللَّه ﷺ سيد الأولين والآخرين ينفي عنه اللَّه كل تصرف، ويبين له أن الأمر كله له، وهذا تأديب للأمة كلها إلى أن تقوم الساعة، فماذا عن الديوان المزعوم الذي كتبه المخرف عبد العزيز الدباغ بالقلم المشؤوم عن المسمى ابن المبارك، والذي رسم فيه الشرك الأكبر والمقت الأعظم، ويدل ما رسمه على الانحطاط البالغ الذي وصلت إليه الأمة، وأنها رجعت إلى عبادة اللات والعزى ومناة إذا كانت تعتقد ما كتبه هذا المخرف، والكتاب كله من أوله إلى آخره في الذب عن الشرك والدعوة إلى عبادة الأوثان، فالأمر كله للَّه، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل، ولا لولي معظم ولا لأي أحد كان، فإعراض الأمة عن التوحيد ودراسته أوقعها في هذه المزالق الشركية، نسأل اللَّه السلامة والعافية.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وبيان أن الأمر كله لله

* عن أنس: أن رسول اللَّه ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد، وشج في رأسه فجعل يسلت الدم عنه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟** فأنزل اللَّه ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾»(٢).

---

(١) تفسير المنار (٤/ ١٢٠).

(٢) أخرجه: البخاري تعليقًا (٧/ ٤٦٣/ ٤٠٦٩) من حديث حميد وثابت عن أنس. أما حديث حميد فوصله: أحمد (٣/ ٩٩) والترمذي (٥/ ٢١١/ ٣٠٠٢) وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٤/ ١١٠٧٦). أما حديث ثابت فوصله: مسلم (٣/ ١٤١٧/ ١٧٩١).

* عن ابن عمر: «أنه سمع رسول اللَّه ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع من الركعة الآخرة من الفجر يقول: «**اللهم العن فلانًا وفلانًا**» بعدما يقول: سمع اللَّه لمن حمده ربنا ولك الحمد، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾»(١).

★ غريب الحديثين:

الرباعية: السن التي بعد كل ثنية، وقبل الناب، وهي أربع رباعيات.

شج: ضرب الرأس خاصة وجرحه وشقه.

يسلت: ينحي ويزيل.

لعن الله: اللعن البعد عن مظان الرحمة ومواطنها. قيل: واللعين والملعون من حقت عليه اللعنة أو دعي عليه بها. قال أبو السعادات: أصل اللعن: الطرد والإبعاد من اللَّه، ومن الخلق: السب والدعاء.

★ فوائد الحديثين:

قال المباركفوري: «وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾؛ أي: لست تملك إصلاحهم ولا تعذيبهم بل ذلك ملك اللَّه فاصبر ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بالإسلام ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ بالقتل والأسر والنهب ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بالكفر. والمعنى أن اللَّه مالك أمرهم يصنع بهم ما يشاء من الإهلاك والهزيمة أو التوبة إن أسلموا، أو العذاب إن أصروا على الكفر»(٢).

قال القرطبي: «قوله: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم**» هذا منه ﷺ استبعاد لتوفيق من فعل ذلك به. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ تقريب لما استبعده،

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٤٧)، والبخاري (٧/ ٤٦٣/ ٤٠٦٩)، والنسائي (٢/ ٥٤٩/ ١٠٧٧) من طرق عن معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه، والحديث عند: أحمد (٢/ ٩٣)، والترمذي (٥/ ٢١٢/ ٣٠٠٤) من حديث عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب يستغرب من حديث عمر بن حمزة عن سالم عن أبيه، وقد رواه الزهري عن سالم عن أبيه، لم يعرفه محمد بن إسماعيل من حديث عمر بن حمزة، وعرفه من حديث الزهري. قلت: ولفظ الترمذي: «اللهم العن أبا سفيان، واللهم العن الحارث بن هشام، واللهم العن صفوان بن أمية». قال فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فتاب اللَّه عليهم فأسلموا فحسن إسلامهم».

(٢) التحفة (٨/ ٢٨٢).

وإطماع في إسلامهم»[١].

قال النووي: «في هذا وقوع الانتقام والابتلاء بالأنبياء -صلوات اللَّه وسلامه عليهم- لينالوا جزيل الأجر، ولتعرف أممهم وغيرهم ما أصابهم، ويتأسوا بهم»[٢].

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع، فربما قال إذا قال: «**سمع اللَّه لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد، اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها سنين كسني يوسف**»، يجهر بذلك. وكان يقول في بعض صلاته في صلاة الفجر: «**اللهم العن فلانًا وفلانًا**» لأحياء من العرب حتى أنزل اللَّه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الْآيَةَ[٣].

★ غريب الحديث:

قنت: القنوت يطلق على معان، والمراد به هنا الدعاء في الصلاة في محل مخصوص من القيام.

وطأتك: أي: خذهم أخذًا شديدًا.

سني يوسف: أراد سبعًا شدادًا ذات قحط وغلاء.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «هؤلاء المدعو لهم هم قوم من أهل مكة أسلموا، ففتنهم أهل مكة، وعذبوهم، وبعد ذلك نجوا منهم، وهاجروا إلى النبي ﷺ. وقوله: «**واجعلها عليهم كسني يوسف**» يعني به قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾[٤]. فاستجيب له ﷺ، فأجدبوا سبعًا أكلوا فيها كل شيء، حتى أكلوا الميتة والعظام، وكان الواحد منهم يرى بينه وبين السماء دخانًا من شدة الجوع والضعف، حتى جاء أبو سفيان فكلم النبي ﷺ فدعا لهم، فسقوا»[٥].

---

(١) المفهم (٣/ ٦٥٠). (٢) شرح مسلم (١٠/ ١٢٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٥)، والبخاري (٨/ ٢٨٥-٢٨٦/ ٤٥٦٠)، ومسلم (١/ ٤٦٦-٤٦٧/ ٦٧٥)، والنسائي (٢/ ٥٤٧/ ١٠٧٣).

(٤) يوسف: الآية (٤٨).

(٥) المفهم (٢/ ٣٠٣).

وقال أيضًا: «وفي هذا الحديث من الفقه: جواز الدعاء على معين وله، وجواز الدعاء بغير ألفاظ القرآن في الصلاة، وهو حجة على أبي حنيفة في منعه ذلك كله فيها. ولا خلاف في جواز لعن الكفرة والدعاء عليهم. واختلفوا في جواز الدعاء على أهل المعاصي: فأجازه قوم، ومنعه آخرون، وقالوا: يدعى لهم بالتوبة لا عليهم. وقيل: إنما يدعى على أهل الانتهاك في حين فعلهم ذلك، وأما في إدبارهم فيدعى لهم بالتوبة»[1].

* * *

(١) المفهم (٢/ ٣٠٤).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تأكلوا الربا في إسلامكم بعد إذ هداكم له، كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم، وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم: أن الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه فيقول له الذي عليه المال: أخر عني دينك، وأزيدك على مالك، فيفعلان ذلك: فذلك هو ﴿ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ فنهاهم الله ﷻ في إسلامهم عنه»[١].

قال ابن عطية: «قوله: ﴿مُّضَٰعَفَةً﴾: إشارة إلى تكرار التضعيف عامًا بعد عام، كما كانوا يصنعون، فدلت هذه العبارة المؤكدة على شنعة فعلهم وقبحه، ولذلك ذكرت حال التضعيف خاصة، وقد حرم الله جميع أنواع الربا، فهذا هو مفهوم الخطاب إذ المسكوت عنه من الربا في حكم المذكور، وأيضا فإن الربا يدخل جميع أنواعه التضعيف والزيادة على وجوه مختلفة من العين أو من التأخير ونحوه»[٢].

قال الجصاص: «قيل في معنى ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ وجهان: أحدهما: المضاعفة بالتأجيل أجلًا بعد أجل، ولكل أجل قسط من الزيادة على المال. والثاني: ما يضاعفون به أموالهم، وفي هذا دلالة على أن المخصوص بالذكر لا يدل على أن ما عداه بخلافه؛ لأنه لو كان كذلك لوجب أن يكون ذكر تحريم الربا أضعافا مضاعفة دلالة على إباحته إذا لم يكن أضعافًا مضاعفة، فلما كان الربا

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٠٤ شاكر).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٥٠٧).

محظورًا بهذه الصفة وبعدمها دل ذلك على فساد قولهم في ذلك، ويلزمهم في ذلك أن تكون هذه الدلالة منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[(١)] إذا لم يبق لها حكم في الاستعمال»[(٢)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين: واتقوا أيها المؤمنون النار أن تصلوها بأكلكم الربا بعد نهيي إياكم عنه التي أعددتها لمن كفر بي، فتدخلوا مداخلهم بعد إيمانكم بي بخلافكم أمري، وترككم طاعتي»[(٣)].

وقال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ تحذير وتنفير من النار وما يوقع فيها، بأنها معدودة للكافرين. وإعدادها للكافرين عدل من اللَّه تعالى وحكمة؛ لأن ترتب الأشياء على أمثالها من أكبر مظاهر الحكمة، ومن أشركوا باللَّه مخلوقاته، فقد استحقوا الحرمان من رحماته، والمسلمون لا يرضون بمشاركة الكافرين لأن الإسلام الحق يوجب كراهية ما ينشأ عن الكفر، وذلك تعريض واضح في الوعيد على أخذ الربا»[(٤)].

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: وأطيعوا اللَّه أيها المؤمنون فيما نهاكم عنه من أكل الربا وغيره من الأشياء، وفيما أمركم به الرسول، يقول: وأطيعوا الرسول أيضًا كذلك ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ يقول: لترحموا فلا تعذبوا.

وقد قيل إن ذلك معاتبة من اللَّه ﷿ أصحاب رسول اللَّه ﷺ الذين خالفوا أمره يوم أحد، فأخلوا بمراكزهم التي أمروا بالثبات عليها»[(٥)].

قال صديق حسن خان: «وفيه أن المرحومين هم المطيعون لهما. والمراد بإطاعتهما إطاعة الكتاب والسنة. ومعلوم أن إطاعة الفتاوى والدفاتر المجموعة في الآراء ليست بإطاعة لهما، بل هي إطاعة لمن ألفها وجمعها كيفما كان»[(٦)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الترهيب من الربا

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما**

---

(١) البقرة: الآية (٢٧٥).
(٢) أحكام القرآن (٢/ ٣٧).
(٣) جامع البيان (٧/ ٢٠٦ شاكر).
(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٨٨).
(٥) جامع البيان (٧/ ٢٠٦).
(٦) الدين الخالص (٣/ ٢١٧).

أخذ المال، أمن الحلال أم من الحرام»[١].

★ فوائد الحديث:

قال ابن التين: «أخبر النبي ﷺ بهذا تحذيرًا من فتنة المال، وهو من بعض دلائل نبوته لإخباره بالأمور التي لم تكن في زمنه. ووجه الذم من جهة التسوية بين الأمرين، وإلا فأخذ المال من الحلال ليس مذمومًا من حيث هو، واللَّه أعلم»[٢].

قال ابن بطال: «وأما وجه حديث أبي هريرة في هذا الباب، فإن الربا محرم في القرآن، متوعد عليه، فمن لم يبال عن الحرام من أين أخذه، لم يبال عن الربا؛ لأنه نوع من الحرام»[٣].

قال السندي: «قوله «**من أين أصاب المال**»[٤]؛ أي: من أي وجه؛ أي: لا يبحث أحد عن الوجه الذي أصاب المال منه أهو حلال أم هو حرام؟ وإنما المال نفسه يكون مطلوبًا بأي وجه وصل اليد إليه أخذه، ومثل هذا الحديث حديث «**يأتي على الناس زمان يأكلون الربا**»[٥] قلت: هو زماننا هذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وفيه معجزة بينة له صلى اللَّه تعالى عليه وسلم»[٦].

قلت: هذه نصوص القرآن ونصوص السنة -وقد سبق الكثير منها في سورة (البقرة)-، وهذا كلام العلماء والمفسرين وشراح الحديث، كلهم مطبقون على تحريم الربا قليله وكثيره، وقد نعى السندي على أهل زمانه كثرة أكلهم الربا، فكيف لو رأى أهل زماننا هذا الذي أطبق فيه أهل الأرض كلهم مسلمهم وكافرهم -إلا من حفظه الله- على المشاركة في أكل الربا، وتجد الإعلان عن الربا في كل وسائل الإعلام، وتسميتها بأسماء ترغب فيها، كالوفاء والتنمية والاستثمار وغيرها من

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٥)، والبخاري (٤/ ٣٩٢/ ٢٠٨٣)، والنسائي (٧/ ٢٧٩/ ٤٤٦٦).

(٢) فتح الباري (٤/ ٣٧٢).

(٣) شرح صحيح البخاري (٦/ ٢١٧).

(٤) هي رواية الإمام النسائي.

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٩٤)، وأبو داود (٣/ ٦٢٦-٦٢٧/ ٣٣٣١)، والنسائي (٧/ ٢٧٩-٢٨٠/ ٤٤٦٧)، وابن ماجه (٢/ ٧٦٥/ ٢٢٧٨)، والحاكم (٢/ ١١) وقال: إن صح سماعه منه -أي الحسن من أبي هريرة- فهذا حديث صحيح. قال الذهبي: سماع الحسن من أبي هريرة بهذا صحيح. وضعفه الشيخ الألباني في ضعيف ابن ماجه (٤٩٧).

(٦) حاشية السندي على سنن النسائي (٧/ ٢٧٩).

الألفاظ والعناوين، التي هي باب من أبواب جهنم، من ولجه دخل فيها، فليحذر المسلمون هذه الموبقة الكبرى، التي لا أعظم منها في باب الأموال، فإن اللَّه ذكرها بصيغ التنفير، وكذا رسوله ﷺ، فمهما قال القائلون في الترغيب فيها فإن اللَّه تعالى ورسوله ﷺ حذرًا منها. نرجو اللَّه أن يحفظ علينا ديننا وأن يبعدنا عن هذه الموبقات.

* * *

قوله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾

★ **غريب الآية:**

سارعوا: بادروا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾ وبادروا وسابقوا ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾؛ يعني: إلى ما يستر عليكم ذنوبكم من رحمته، وما يغطيها عليكم من عفوه عن عقوبتكم عليها، ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾؛ يعني: وسارعوا أيضًا إلى جنة عرضها السموات والأرض، ذكر أن معنى ذلك: وجنة عرضها كعرض السموات السبع والأرضين السبع، إذا ضم بعضها إلى بعض»[1].

وقال الرازي: «والمعنى: وسارعوا إلى ما يوجب مغفرة من ربكم، ولا شك أن الموجب للمغفرة ليس إلا فعل المأمورات وترك المنهيات، فكان هذا أمرًا بالمسارعة إلى فعل المأمورات وترك المنهيات، وتمسك كثير من الأصوليين بهذه الآية في أن ظاهر الأمر يوجب الفور ويمنع من التراخي ووجهه ظاهر، وللمفسرين فيه كلمات:

إحداها: قال ابن عباس: هو الإسلام أقول وجهه ظاهر؛ لأنه ذكر المغفرة على سبيل التنكير، والمراد منه المغفرة العظيمة المتناهية في العظم وذلك هو المغفرة الحاصلة بسبب الإسلام.

الثاني: روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: هو أداء الفرائض، ووجهه أن اللفظ مطلق فيجب أن يعم الكل.

والثالث: إنه الإخلاص وهو قول عثمان بن عفان رضي الله عنه: ووجهه أن المقصود من

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٠٧).

جميع العبادات الإخلاص، كما قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1].

الرابع: قال أبو العالية: هو الهجرة.

والخامس: أنه الجهاد وهو قول الضحاك ومحمد بن إسحاق، قال: لأن من قوله: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾[2] إلى تمام ستين آية نزل في يوم أحد، فكان كل هذه الأوامر والنواهي مختصة بما يتعلق بباب الجهاد.

السادس: قال سعيد بن جبير: إنها التكبيرة الأولى.

والسابع: قال عثمان: إنها الصلوات الخمس.

والثامن: قال عكرمة: إنها جميع الطاعات؛ لأن اللفظ عام فيتناول الكل.

والتاسع: قال الأصم: سارعوا: أي بادروا إلى التوبة من الربا والذنوب، والوجه فيه أنه تعالى نهى أولًا عن الربا، ثم قال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فهذا يدل على أن المراد منه المسارعة في ترك ما تقدم النهي عنه، والأولى ما تقدم من وجوب حمله على أداء الواجبات والتوبة عن جميع المحظورات؛ لأن اللفظ عام فلا وجه في تخصيصه، ثم أنه تعالى بين أنه كما تجب المسارعة إلى المغفرة فكذلك تجب المسارعة إلى الجنة، وإنما فصل بينهما لأن الغفران معناه إزالة العقاب، والجنة معناها إيصال الثواب، فجمع بينهما للإشعار بأنه لا بد للمكلف من تحصيل الأمرين»[3].

وقال السعدي: «أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته، التي عرضها السموات والأرض، فكيف بطولها التي أعدها اللّه للمتقين، فهم أهلها، وأعمال التقوى هي الموصولة إليها»[4].

وقال ابن عاشور: «أعقب وصف الجنَّة بذكر أهلها لأنّ ذلك ممَّا يزيد التَّنويه بها، ولم يزل العقلاء يتخيّرون حسن الجوار كما قال أبو تمام:

من مبلغ أفنان يعرب كلها ... أني بنيت الجار قبل المنزل

وجملةُ ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ استئناف بياني؛ لأنّ ذكر الجنَّة عقب ذكر النَّار

(١) البينة: الآية (٥).

(٢) آل عمران: الآية (١٢١).

(٣) تفسير الرازي (٩/ ٦).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٢٢).

الموصوفة بأنَّها أعدّت للكافرين يثير في نفوس السامعين أن يتعرّفوا مَن الذين أعدّت لهم؟ فإن أريد بالمتَّقين أكمل ما يتحقّق فيه التَّقوى، فإعدادها لهم لأنَّهم أهلها فضلًا من اللَّه تعالى الّذين لا يلجون النار أصلًا عدلًا من اللَّه تعالى فيكون مقابلَ قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾(١)، ويكون عصاة المؤمنين غير التَّائبين قد أخذوا بحظّ من الدارين، لمشابهة حالهم حالَ الفريقين عدلًا من اللَّه وفضلًا، وبمقدار الاقتراب من أحدهما يكون الأخذ بنصيب منه، وأريد المتّقون في الجملة فالإعداد لهم باعتبار أنَّهم مقدّرون من أهلها في العاقبة.

وقد أجرى على المتَّقين صفات ثناءٍ وتنويه، هي ليست جماع التَّقوى، ولكن اجتماعها في محلّها مؤذن بأنّ ذلك المحلّ الموصوف بها قد استكمل ما به التقوى، وتلك هي مقاومة الشحّ المُطاع، والهوَى المتَّبع»(٢).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عظم الجنة

* عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا محمد، أرأيت جنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ فقال النبي ﷺ: «**أرأيت هذا الليل قد كان ثم ليس شيء أين جعل؟**» قال: اللَّه أعلم. قال: «**فإن اللَّه يفعل ما يشاء**»(٣).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن كثير: «وهذا يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون المعنى في ذلك: أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذا جاء النهار أن لا يكون في مكان، وإن كنا لا نعلمه، وكذلك النار تكون حيث يشاء اللَّه ﷻ، وهذا أظهر كما تقدم في حديث أبي هريرة عند البزار.

الثاني: أن يكون المعنى: أن النهار إذا تغشى وجه العالم من هذا الجانب، فإن الليل يكون من الجانب الآخر، فكذلك الجنة في أعلى علّيّين فوق السموات تحت

---

(١) آل عمران: الآية (١٣١). (٢) التحرير والتنوير (٤/ ٩٠).

(٣) أخرجه: البزار: كشف الأستار (٣/ ٤٣/ ٢١٩٦) والحاكم (١/ ٣٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعلم له علة، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن حبان: الإحسان (١/ ٣٠٦-٣٠٧/ ١٠٣) وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٢٧) وقال: «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح».

العرش، وعرضها كما قال اللَّه ﷻ: ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، والنار في أسفل سافلين. فلا تنافي بين كونها كعرض السموات والأرض، وبين وجود النار، واللَّه أعلم»[2].

* عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِي سُفْيَانَ، فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: لَا أَدْرِي مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ، قَالَ: فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَكَلَّمَ، فَقَالَ: «**إِنَّ لَنَا طَلِبَةً، فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا**» فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِي ظُهْرَانِهِمْ فِي عُلْوِ الْمَدِينَةِ. فَقَالَ: «**لَا، إِلَّا مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا**»، فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ، وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ**». فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السموات وَالْأَرْضُ**». قَالَ: يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السموات وَالْأَرْضُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**». قَالَ: بَخٍ بَخٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟**». قَالَ: لَا، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: «**فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا**». فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ. قَالَ: فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ»[3].

★ غريب الحديث:

بسيسة: المعلوم في كتب السير: بَسْبَس، وهو ابن عمرو الأنصاري الخزرجي.

عينًا: جاسوسًا.

عير: هي الإبل بأحمالها، فعل من عار يعير إذا سار. وقيل: هي قافلة الحمير فكثرت حتى سميت بها كل قافلة.

طَلِبة: حاجة.

---

(١) الحديد: الآية (٢١). (٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٩٩).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٦)، ومسلم (٣/ ١٥٠٩-١٥١١/ ١٩٠١)، والحديث عند أبي داود (٣/ ٨٨/ ٢٦١٨) مختصرًا دون ذكر موضع الشاهد.

ظهر: الإبل التي يحمل عليها وتركب.

دونه: قدامه متقدمًا في ذلك الشيء.

بخ بخ: كلمة تقال عند المدح والرضا بالشيء، وتكرر للمبالغة وهي مبنية على السكون، فإن وصلت جررت ونوّنت فقلت: بخٍ بخٍ، وربما شددت، وبخبخت الرجل: إذا قلت له ذلك. ومعناها تعظيم الأمر وتفخيمه.

رجاءة: أي: إلا لرجاء.

قرنه: القرن -بالتحريك-: جعبة من جلود تشق ويجعل فيه النشاب.

⋆ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «وقوله: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**»؛ أي: كعرض السماء والأرض. شبه الجنة بسعة السموات والأرض، وإن كانت الجنة أوسع، مخاطبة لنا بما شاهدنا؛ إذ لم نشاهد أوسع من السموات والأرض. وهذا أشبه ما قيل في هذا المعنى»(١).

* عن أبي هريرة ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «**من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها**». فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: «**إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة** -أراه قال: **وفوقه عرش الرحمن- ومنه تفجر أنهار الجنة**»(٢).

⋆ غريب الحديث:

الفردوس: هو البستان. قال الزجاج: هو من الأودية ما ينبت ضروبًا من النبت. قال الفراء: هو عربي واشتقاقه من الفردسة وهي السعة.

أوسط الجنة: المراد بالأوسط هنا الأعدل والأفضل كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾(٣).

---

(١) المفهم (٣/ ٧٣٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٣٥)، والبخاري (٦/ ١٣/ ٢٧٩٠)، والترمذي (٤/ ٥٨٢/ ٢٥٣٠).

(٣) البقرة: الآية (١٤٣).

أعلى الجنة: أرفعها.

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «فيه عظم الجنة، وعظم الفردوس منها، وفيه إشارة إلى أن درجة المجاهد قد ينالها غير المجاهد إما بالنية الخالصة، أو بما يوازيه من الأعمال الصالحة؛ لأنه ﷺ أمر الجميع بالدعاء بالفردوس بعد أن أعلمهم أنه أعد للمجاهدين، وقيل فيه جواز الدعاء بما لا يحصل للداعي لما ذكرته، والأول أولى، والله أعلم»(١).

قال الطيبي: «الجواب من الأسلوب الحكيم؛ أي: بشرهم بدخول الجنة بالإيمان والصوم والصلاة، وإيجابها لهم بحسب الأجر على سبيل الوعد، ولم يكتف بذلك بل زاد على تلك البشارة البشارة الأخرى؛ وهو الفوز بدرجات الشهداء فضلًا من الله تعالى وزيادة على ذلك، ولم يقنع بهذا أيضًا فبشرهم بالفردوس الذي هو أعلاها وأوسطها. وفيه الحث على ما يحصل به أقصى درجات الجنان؛ وهي الفردوس الأعلى، من المجاهدة مع العدو والنفس والشيطان. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾(٢)»(٣).

* * *

(١) الفتح (٦/ ١٦).
(٢) الحج: الآية (٧٨).
(٣) شرح الطيبي على المشكاة (٨/ ٢٦٢٣).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾[1]

★ **غريب الآية:**

السراء: الرخاء.

الضراء: الشدة والضيق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -جل ثناؤه- بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أعدت الجنة التي عرضها السموات والأرض للمتقين، وهم المنفقون أموالهم في سبيل اللَّه، إما في صرفه على محتاج، وإما في تقوية مضعف على النهوض للجهاد في سبيل الله»[2].

قال الرازي: «فيه وجوه:

الأول: أن المعنى أنهم في حال الرخاء واليسر والقدرة والعسر لا يتركون الإنفاق، وبالجملة فالسراء هو الغنى، والضراء هو الفقر..

والثاني: أن المعنى أنهم سواء كانوا في سرور أو في حزن أو في عسر أو في يسر فإنهم لا يدعون الإحسان إلى الناس.

الثالث: المعنى أن ذلك الإحسان والإنفاق سواء سرهم بأن كان على وفق طبعهم، أو ساءهم بأن كان على خلاف طبعهم فإنهم لا يتركونه، وإنما افتتح اللَّه بذكر الإنفاق لأنه طاعة شاقة، ولأنه كان في ذلك الوقت أشرف الطاعات لأجل الحاجة إليه في مجاهدة العدو، ومواساة فقراء المسلمين»[3].

وقال محمد رشيد رضا: «وقد بدأ وصف المتقين بالإنفاق لوجهين:

أحدهما: مقابلته بالربا الذي نهى عنه في الآية السابقة، فإن الربا هو استغلال

---

(١) الآية (١٣٤).

(٢) جامع البيان (٧/ ٢١٣ شاكر).

(٣) تفسير الرازي (٩/ ٨).

الغني حاجة المعوز وأكل ماله بلا مقابل، والصدقة إعانة له، وإطعامه مالا يستحقه، فهي ضد الربا. ولم يرد في القرآن ذكر الربا إلا وقبح ومدحت معه الزكاة والصدقة كما قال في سورة الروم: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾[1] وفي سورة البقرة: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ﴾[2].

ثانيها: أن الإنفاق في السراء والضراء أدل على التقوى، وأشق على النفوس، وأنفع للبشر من سائر الصفات والأعمال. قال الأستاذ الإمام ما مثاله: إن المال عزيز على النفس؛ لأنه الآلة لجلب المنافع والملذات، ورفع المضار والمؤلمات، وبذله في طرق الخير والمنافع العامة التي ترضي اللَّه تعالى يشق على النفس، أما في السراء فلما يحدثه السرور والغنى من الأشر والبطر والطغيان وشدة الطمع وبعد الأمل، وأما في الضراء فلأن الإنسان يرى نفسه فيها جديرًا بأن يأخذ ومعذورًا إن لم يعط وإن لم يكن معذورًا بالفعل، إذ مهما كان فقيرًا لا يعدم وقتًا يجد فيه فضلًا ينفقه في سبيل اللَّه ولو قليلًا. وداعية البذل في النفس هي التي تنبه الإنسان إلى هذا العفو الذي يجده أحيانًا ليبذله، فإن لم تكن الداعية موجودة في أصل الفطرة فأمر الدين الذي وضعه اللَّه لتعديل الفطرة المائلة وتصحيح مزاج المعتلة يوجدها ويكون نعم المنبه لها.. يقول من لا علم عنده إن تكليف الفقير والمسكين البذل في سبيل اللَّه لا معنى له ولا غناء فيه. وربما يقول أكثر من هذا. يعني أنه ينتقد ذلك من الدين- والعلم الصحيح يفيدنا أنه يجب أن تكون نفس الفقير كريمة في ذاتها، وأن يتعود صاحبها الإحسان بقدر الطاقة وبذلك ترتفع نفسه، وتطهر من الخسة وهي الرذيلة التي تعرض للفقراء فتجرهم إلى رذائل كثيرة، ثم إن النظر يهدينا إلى أن القليل من الكثير كثير، فلو أن كل فقير في القطر المصري مثلًا يبذل في السنة قرشا واحدا لأجل التعليم لاجتمع من ذلك ألوف الألوف وتيسر به عمل في البلاد كبير، فكيف إذا أنفق كل أحد على قدره كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ﴾[3] الخ. إذا كان اللَّه تعالى قد جعل الإنفاق في سبيله علامة على التقوى أو أثرا من آثارها حتى في حال الضراء. وكان انتفاؤه علامة على عدم التقوى التي هي

---

(١) الروم: الآية (٣٩). (٢) البقرة: الآية (٢٧٦).

(٣) الطلاق: الآية (٧).

سبب دخول الجنة فكيف يكون حال أهل السراء الذين يقبضون أيديهم؟ وهل يغني عن هؤلاء من شيء أداء الرسوم الدينية الظاهرة التي يتمرنون عليها عادة مع الناس»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٤/ ١٣٢-١٣٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾

★ **غريب الآية:**

الكاظمين: من الكظم وهو الحبس، يقال: كظم الرجل غيظه إذا رده وحبسه، فهو رجل كظيم.

العافين: العفو عن الناس هو التجافي عن ذنب المذنب منهم وترك مؤاخذته مع القدرة عليها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني: والجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم به. يقال منه: كظم فلان غيظه إذا تجرعه، فحفظ نفسه من أن تمضي ما هي قادرة على إمضائه باستمكانها ممن غاظها وانتصارها ممن ظلمها»[١].

وقال القرطبي: «مدح اللَّه تعالى الذين يغفرون عند الغضب، وأثنى عليهم فقال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾[٢]، وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم في ذلك.

ووردت في كظم الغيظ والعفو عن الناس وملك النفس عند الغضب أحاديث، وذلك من أعظم العبادة وجهاد النفس..

قال العرجي:

وإذا غضبت فكن وقورًا كاظما ... للغيظ تبصر ما تقول وتسمع
فكفى به شرفًا تَصَبُّر ساعة ... يرضى بها عنك الإله وترفع

وقال عروة بن الزبير في العفو:

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢١٤ شاكر).

(٢) الشورى: الآية (٣٧).

لن يبلغ المجد أقوام وإن شرفوا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويشتموا فترى الألوان مشرقة لا عفو ذل ولكن عفو إكرام»[(١)].

وقال السعدي: «أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم -وهو امتلاء قلوبهم من الحنق، الموجب للانتقام بالقول والفعل- هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ يدخل في العفو عن الناس العفو عن كل من أساء إليك بقول أو بفعل. والعفو أبلغ من الكظم؛ لأن العفو ترك المؤاخذة، مع السماحة عن المسيء. وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتخلى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله، رحمة بهم، وإحسانًا إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[(٢)]. ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن، وأعلى، وأجل، وهي الإحسان، فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق فسرها النبي ﷺ بقوله: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[(٣)].

وأما الإحسان إلى المخلوق فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم. فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم، وتباين أوصافهم. فيدخل في ذلك بذل الندى، وكف الأذى،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٣٤).
(٢) الشورى: الآية (٤٠).
(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧)، ومسلم (١/ ٣٦-٣٨/ ٨)، وأبو داود (٥/ ٦٩-٧٣/ ٤٦٩٥)، والترمذي (٥/ ٨-٩/ ٢٦١٠)، والنسائي (٨/ ٤٧٢/ ٥٠٠٥)، وابن ماجه (١/ ٢٤/ ٦٣) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ. وفي الباب عن أبي هريرة وابن عباس وغيرهما.

واحتمال الأذى، كما وصف اللَّه به المتقين في هذه الآيات. فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحق اللَّه وحق عبيده»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ العفو عن الناس هو التجافي عن ذنب المذنب منهم، وترك مؤاخذته مع القدرة عليها، وتلك مرتبة في ضبط النفس والحكم عليها وكرم المعاملة قلّ من يتبوأها. فالعفو مرتبة فوق مرتبة كظم المرء إذ ربما يكظم المرء غيظه على حقد وضغينة، وهناك مرتبة أعلى منهما وهي ما أفاده قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فالإحسان وصف من أوصاف المتقين، ولم يعطفه على ما سبقه من الصفات؛ بل صاغه بهذه الصيغة تمييزًا له بكونه محبوبًا عند اللَّه. لا لمزيد مدح من ذكر من المتقين المتصفين بالصفات السابقة ولا مجرد مدح المحسنين الذي يدخل في عمومه أولئك المتقون كما قيل - فالذي يظهر لي هو ما أشرت إليه من أنه وصف رابع للمتقين»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل كظم الغيظ، وفضل حسن الخلق

* عن ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما من جرعة أعظم أجرًا عند اللَّه من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله**»[٣].

★ غريب الحديث:

جرعة: تروى بالضم والفتح، فالضم: الاسم من الشرب اليسير. والفتح: المرة الواحدة منه.

الغيظ: أصله الغضب، وكثيرًا ما يتلازمان، لكن فرقان ما بينهما: أن الغيظ لا يظهر على الجوارح، بخلاف الغضب فإنه يظهر في الجوارح مع فعل ما ولا بد.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٢٢-٤٢٣). (٢) تفسير المنار (٤/ ١٣٤-١٣٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٢٨)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠١/ ٤١٨٩)، قال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح، رجاله ثقات. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٤٤٩): رواه ابن ماجه ورواته محتج بهم في الصحيح. وقال العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٤/ ١٨١٠/ ٢٨٦٩): رواه ابن ماجه بإسناد جيد.

كظم: كظم الغيظ رده في الجوف، يقال: كظم غيظه سكت عليه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوه.

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «شبه جرع غيظه ورده إلى باطنه بتجرع الماء، وهي أحب جرعة يتجرعها العبد، وأعظمها ثوابًا، وأرفعها درجة، كحبس نفسه من التشفي، ولا يحصل هذا الحب إلا بكونه قادرا على الانتقام، ويكن غضبه لله بنية سلامة دينه، ونيل ثوابه»(١).

❋ عن معاذ بن أنس: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه اللَّه ﷻ على رؤوس الخلائق يوم القيامة، حتى يخيره اللَّه من الحور العين ما شاء**»(٢).

★ **غريب الحديث:**

ينفذه: من الإنفاذ؛ أي: قادر على أن يأتي بمقتضاه.

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «إنما حمد الكظم لأنه قهر للنفس الأمارة بالسوء، ولذلك مدحهم اللَّه تعالى بقوله: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ ومن نهى النفس عن هواه فإن الجنة مثواه، والحور العين جزاؤه، والمعني بقوله «**على رؤوس الخلائق**» أنه يشتهر بين الناس، ويباهى به، ويقال في حقه هذا الذي صدرت منه هذه الخصلة العظيمة»(٣).

قال القاري: «وهذا الثناء الجميل والجزاء إذا ترتب على مجرد كظم الغيظ، فكيف إذا انضم العفو إليه أو زاد بالإحسان عليه»(٤).

---

(١) فيض القدير (٥/ ٤٧٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٣٨)، وأبو داود (٥/ ١٣٧/ ٤٧٧٧)، والترمذي (٤/ ٣٢٦/ ٢٠٢١) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٠/ ٤١٨٦).

(٣) شرح الطيبي على المشكاة (١٠/ ٣٢٣٨-٣٢٣٩).

(٤) المرقاة (٨/ ٨١٦).

قال المناوي: «لأنه قهر النفس الأمارة بالسوء فانحلت ظلمة قلبه فامتلأ يقينًا وإيمانًا، ولهذا أثنى اللَّه على الكاظمين الغيظ في كتابه، وكان ذلك من آداب الأنبياء والمرسلين، ومن ثم خدم أنس المصطفى ﷺ عشر سنين فلم يقل له في شيء فعله لم فعلته، ولا في شيء تركه لم تركته»[(١)].

قال السندي: «فيه أنه إنما يحمد القادر على إجراء مقتضاه، وغيره يكظم جبرًا، لكن إن ترك الانتقام لميل طبعه إلى المسامحة والتحمل حتى لو قدر لترك أيضًا -لا لعدم القدرة- فهو ممن يرجى له ذلك»[(٢)].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب**»[(٣)].

* عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟**» قال: قالوا: يا رسول اللَّه، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، قال: «**اعلموا أنه ليس منكم أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله، ما لك من مالك إلا ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت**»، قال: وقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما تعدون فيكم الصرعة؟**» قال: قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: قال: «**لا، ولكن الصرعة الذي يملك نفسه عند الغضب**». قال: وقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما تعدون فيكم الرقوب؟**» قال: قلنا: الذي لا ولد له. قال: «**لا، ولكن الرقوب الذي لم يقدم من ولده شيئا**»[(٤)].

★ **غريب الحديثين:**

الصرعة: الصرعة بضم الصاد وفتح الراء: المبالغ في الصراع الذي لا يغلب.

الرقوب: الرقوب في اللغة: الرجل والمرأة إذا لم يعش لهما ولد؛ لأنه يرقب

---

(١) الفيض (٦/ ٢١٧).

(٢) حاشية السندي على المسند (٢٤/ ٣٨٥) طبعة الأرنؤوط.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٦)، والبخاري (١٠/ ٦٣٥/ ٦١١٤)، ومسلم (٤/ ٢٠١٤/ ٢٦٠٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٠٥/ ١٠٢٢٦)..

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢-٣٨٣) والبخاري في الأدب المفرد (١٥٣-١٥٥). وأخرجه مختصرا: البخاري (١١/ ٣١٣/ ٦٤٤٢)، والنسائي (٦/ ٥٤٧/ ٣٦١٤).

موته ويرصده خوفًا عليه، فنقله النبي ﷺ إلى الذي لم يقدم من الولد شيئًا.

★ **فوائد الحديثين:**

قال القاضي عياض: «في هذا فضل كظم الغيظ وأن مجاهدة النفس أشد من مجاهدة العدو؛ لأن النبي ﷺ جعل غلبته لنفسه أشد من غلبته لمناوئه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[1]»[2].

قال الباجي: «**«ليس الشديد بالصرعة»**: لم يرد نفي الشدة عن الصرعة، فإنه يعلم بالضرورة شدته؛ وإنما أراد ﷺ -واللَّه أعلم- أحد أمرين: يحتمل أنه أراد أنه ليس بالنهاية في الشدة، وأشد منه الذي يملك نفسه عند الغضب، ويحتمل أن يريد به أنها شدة ليس لها كثير منفعة، وإنما الشدة التي ينتفع بها: الشدة التي يملك بها نفسه عند الغضب، ولهذا يقال: لا كريم إلا يوسف. ولم يرد به نفي الكرم عن غيره، وإنما يريد به إثبات مزية له في الكرم، وكذلك قولهم: لا سيف إلا ذو الفقار، ولا شجاع إلا علي، وما جرى مجرى ذلك واللَّه أعلم، فندب بهذا إلى ملك الرجل نفسه عند الغضب عن إمضاء ما يقتضيه الغضب من أذى من يملك أذاه، أو منازعة من ينازعه، وقد قال اللَّه ﷻ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾»[4].

قال الأبي: «ومعنى «**يملك نفسه عند الغضب**»: يحبسها عن الانبعاث عند وجود سببه، وهو أرجح ممن لا يغضب رأسًا؛ لأن الأجر على قدر المشقة»[5].

* عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ قال: علمني شيئًا ولا تكثر علي لعلي أعيه. قال: «**لا تغضب**»، فردد ذلك مرارا كل ذلك يقول: «**لا تغضب**»[6].

* عن جارية بن قدامة قال: «قلت: يا رسول اللَّه قل لي قولا ينفعني، وأقلل علي لعلي أعيه فقال: «**لا تغضب**». وأعادها علي مرارًا يقول: «**لا تغضب**»[7].

---

(١) العنكبوت: الآية (٦٩).

(٢) إكمال المعلم (٨/ ٨٤).

(٣) الشورى: الآية (٣٧).

(٤) المنتقى (٧/ ٢١٤-٢١٥).

(٥) شرح مسلم (٨/ ٥٧٥).

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٢)، والبخاري (١٠/ ٦٣٥/ ٦١١٦)، والترمذي (٤/ ٣٢٦/ ٢٠٢٠).

(٧) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤ و ٣٧٢). قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٦٩): «رواه أحمد والطبراني في الأوسط، =

★ **فوائد الحديثين:**

قال ابن عبد البر: «هذا من الكلام القليل الألفاظ الجامع للمعاني الكثيرة والفوائد الجليلة، ومن كظم غيظه ورد غضبه أخزى شيطانه، وسلمت مروءته ودينه. ولقد أحسن القائل: لا يعرف الحلم إلا ساعة الغضب. وقال علي بن ثابت:

العقل آفته الإعجاب والغضب ... والمال آفته التبذير والنهب

وقال أبو العتاهية:

ولم أر في الأعداء حين خبرتهم ... عدوًّا لعقل المرء أعدى من الغضب»[(١)]

قال ابن رجب: «هذا الرجل طلب من النبي ﷺ أن يوصيه وصية وجيزة، جامعة لخصال الخير ليحفظها عنه خشية أن لا يحفظها لكثرتها، ووصاه النبي أن لا يغضب، ثم ردد هذه المسألة عليه مرارًا، والنبي ﷺ يردد عليه هذا الجواب، فهذا يدل على أن الغضب جماع الشر، وأن التحرز منه جماع الخير»[(٢)].

وقال أيضًا: «قوله ﷺ لمن استوصاه: «**لا تغضب**» يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون مراده الأمر بالأسباب التي توجب حسن الخلق من الكرم، والسخاء، والحلم، والحياء، والتواضع، والاحتمال، وكف الأذى، والصفح والعفو، وكظم الغيظ، والطلاقة والبشر، ونحو ذلك من الأخلاق الجميلة، فإن النفس إذا تخلقت بهذه الأخلاق، وصارت لها عادة، أوجب لها ذلك دفع الغضب عند حصول أسبابه. والثاني: أن يكون المراد: لا تعمل بمقتضى الغضب إذا حصل لك، بل جاهد نفسك على ترك تنفيذه، والعمل بما يأمر به، فإن الغضب إذا ملك ابن آدم كان كالآمر الناهي له، ولهذا المعنى قال اللَّه ﷻ: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾[(٣)] فإذا لم يمتثل الإنسان ما يأمره به غضبه، وجاهد نفسه على ذلك اندفع عنه شر الغضب، وربما سكن غضبه، وذهب عاجلًا وكأنه حينئذ لم يغضب، وإلى هذا المعنى وقعت الإشارة في القرآن بقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[(٤)]

= ورواه في الكبير كذلك. وفي رواية عنده عن جارية بن قدامة أن عمه أتى النبي ﷺ فذكر نحوه ورجاله رجال الصحيح»، والحاكم (٣/ ٦١٥) وابن حبان: الإحسان (١٢/ ٥٠١-٥٠٢/ ٥٦٨٩).

(١) التمهيد (١٠/ ٤٥٤-٤٥٥ فتح البر).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦١-٣٦٢).

(٣) الأعراف: الآية (١٥٤).

(٤) الشورى: الآية (٣٧).

وبقوله ﷻ ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ »(١).

وقال الباجي: «وإنما أراد النبي ﷺ امتناعه من الغضب في معاني دنياه ومعاملته، وأما فيما يعاد إلى القيام بالحق فالغضب فيه قد يكون واجبًا: وهو الغضب على الكفار والمبالغة فيهم بالجهاد، وكذلك الغضب على أهل الباطل وإنكاره عليهم بما يجوز، وقد يكون مندوبًا إليه: وهو الغضب على المخطئ إذا علمت أن في إبداء غضبك عليه ردعًا له، وباعثًا على الحق»(٢).

وقال ابن رجب: «الغضب هو غليان دم القلب طلبًا لدفع المؤذي عنه خشية وقوعه، أو طلبًا للانتقام ممن حصل منه الأذى بعد وقوعه، وينشأ من ذلك كثير من الأفعال المحرمة كالقتل، والضرب، وأنواع الظلم، والعدوان، وكثير من الأقوال المحرمة كالقذف، والسب والفحش، وربما ارتقى إلى درجة الكفر كما جرى لجبلة بن الأيهم، وكالأيمان التي لا يجوز التزامها شرعًا، وكطلاق الزوجة الذي يعقب الندم. والواجب على المؤمن أن تكون شهوته مقصورة على طلب ما أباحه اللَّه له، وربما تناولها بنية صالحة فأثيب عليها، وأن يكون غضبه دفعًا للأذى في الدين له أو لغيره، وانتقامًا ممن عصى اللَّه ورسوله، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ۝١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾(٣) وهذه كانت حال النبي ﷺ فإنه كان لا ينتقم لنفسه، ولكن إذا انتهكت حرمات اللَّه لم يقم لغضبه شيء(٤)، ولم يضرب بيده خادمًا ولا امرأة إلا أن يجاهد في سبيل الله(٥)، وخدمه أنس عشر سنين فما قال له: أف قط. ولا قال له لشيء فعله: لم فعلت كذا، ولا لشيء لم يفعله ألا فعلت كذا(٦)، وفي رواية: أنه كان إذا لامه بعض أهله قال ﷺ: دعوه، فلو قضي شيء كان، وفي رواية للطبراني قال

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٦٣-٣٦٤).

(٢) المنتقى (٧/ ٢١٤).

(٣) التوبة: الآيتان (١٤-١٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ١٣٠)، والبخاري (١٠/ ٦٤٣/ ٦١٢٦)، ومسلم (٤/ ١٨١٣/ ٢٣٢٧)، وأبو داود (٥/ ١٤٢/ ٤٧٨٥) والترمذي في مختصر الشمائل (٣٠٠).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩٧)، ومسلم (٤/ ١٨١٤/ ٢٣٢٨)، وأبو داود (٥/ ١٤٢/ ٤٧٨٦)، والترمذي في مختصر الشمائل (٢٩٩) وابن ماجه (١/ ٦٣٨/ ١٩٨٤).

(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٢)، والبخاري (١٠/ ٥٥٩/ ٦٠٣٨)، ومسلم (٤/ ١٨٠٤/ ٢٣٠٩)، وأبو داود (٥/ ١٣٣/ ٤٧٧٤)، والترمذي (٤/ ٣٢٣-٣٢٤/ ٢٠١٥).

أنس: خدمت رسول اللَّه ﷺ عشر سنين، فما دريت شيئًا قط وافقه ولا شيئًا قط خالفه، رضي من اللَّه بما كان[1]. وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول اللَّه ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن[2]. تعني أنه تأدب بآدابه وتخلق بأخلاقه، فما مدحه القرآن كان فيه رضاه، وما ذمه القرآن كان فيه سخطه. وجاء في رواية عنها قالت: «**كان خلقه القرآن، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه**»[3]، وكان ﷺ لشدة حيائه لا يواجه أحدًا بما يكره؛ بل تعرف الكراهة في وجهه كما في الصحيح عن أبي سعيد الخدري قال: «كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه»[4]. ولما بلغه ابن مسعود قول القائل هذه قسمة ما أريد بها وجه اللَّه شق عليه ﷺ وتغير وجهه، وغضب، ولم يزد على أن قال: «**قد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر**»[5]. وكان ﷺ إذا رأى أو سمع ما يكرهه اللَّه غضب لذلك، وقال فيه، ولم يسكت. وقد دخل بيت عائشة رضي الله عنها فرأى سترا فيه تصاوير فتلون وجهه وهتكه، وقال: «**إن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يصورون هذه الصور**»[6]. ولما شكي إليه الإمام الذي يطيل بالناس صلاته حتى يتأخر بعضهم عن الصلاة معه غضب، واشتد غضبه، ووعظ الناس، وأمر بالتخفيف[7]. ولما رأى النخامة في قبلة المسجد تغيظ وحكها وقال: «**إن أحدكم إذا كان في الصلاة فإن اللَّه حيال وجهه، فلا يتنخمن حيال وجهه في الصلاة**»[8]. وكان من دعائه ﷺ:

---

(١) أخرجه: الطبراني في الأوسط (١٠/ ٧٣-٧٤/ ٩١٤٨)، والصغير (٢/ ١١٨-١١٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١٦) وقال: فيه من لم أعرفه وفي الصحيح بعضه.

(٢) أخرجه مطولا: أحمد (٦/ ٥٤)، ومسلم (١/ ٥١٢-٥١٤/ ٧٤٦)، وأبو داود (٢/ ٨٧-٨٨/ ١٣٤٢)، والنسائي (٣/ ٢٢١-٢٢٢/ ١٦٠٠)، وأخرجه ابن ماجه (١/ ٣٧٦/ ١١٩١) دون ذكر موطن الشاهد.

(٣) أخرجه: الطبراني في الأوسط (١/ ٨٣/ ٧٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٥٤/ ١٤٢٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٧١)، والبخاري (١٠/ ٦٢٩/ ٦١٠٢)، ومسلم (٤/ ١٨٠٩-١٨١٠/ ٢٣٢٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٩/ ٤١٨٠).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٠)، والبخاري (٨/ ٦٨/ ٤٣٣٦)، ومسلم (٢/ ٧٣٩/ ١٠٦٢).

(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ١٩٩)، والبخاري (١٠/ ٦٣٣/ ٦١٠٩)، ومسلم (٣/ ١٦٦٧/ ٢١٠٧(٩١»، والنسائي (٨/ ٦٠٤-٦٠٥/ ٥٣٧٢).

(٧) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٣)، والبخاري (١٠/ ٦٣٣/ ٦١١٠)، ومسلم (١/ ٣٤٠/ ٤٦٦)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٤٩/ ٥٨٩١)، وابن ماجه (١/ ٣١٥/ ٩٨٤) من حديث أبي مسعود البدري.

(٨) أخرجه: أحمد (٢/ ٧٢)، والبخاري (٢/ ٢٩٩/ ٧٥٣)، ومسلم (١/ ٣٨٨/ ٥٤٧)، وأبو داود (١/ ٣٢٣/ ٤٧٩)، والنسائي (٢/ ٣٨٣/ ٧٢٣)، وابن ماجه (١/ ٢٥١/ ٧٦٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وفي الباب عن أنس بن مالك وأبي سعيد الخدري وغيرهما رضي الله عنهم.

«**أسألك كلمة الحق في الغضب والرضا**»[(١)]. وهذا عزيز جدًّا؛ وهو أن الإنسان لا يقول سوى الحق سواء غضب أو رضي، فإن أكثر الناس إذا غضب لا يتوقف فيما يقول»[(٢)].

قال الطيبي: «قال القاضي: لعله ﷺ لما رأى أن جميع المفاسد التي تعرض للإنسان وتعتريه إنما تعرض له من فرط شهوته واستيلاء غضبه، والشهوة مكثورة بالنسبة إلى ما يقتضيه الغضب غير ملتفت إليها، فلما سأله الرجل أن يشير إليه بما يتوصل به إلى التجنب عن القبائح والتحرز عن مظانها، نهاه عن الغضب الداعي إلى ما هو أعظم ضررًا وأكثر وزرًا، فإن ارتفاع السبب يوجب ارتفاع مسبباته لا محالة»[(٣)].

قال ابن حجر: «قال بعض العلماء: خلق اللَّه الغضب من النار وجعله غريزة في الإنسان، فمهما قصد أو نوزع في غرض ما اشتعلت نار الغضب وثارت حتى يحمر الوجه والعينان من الدم؛ لأن البشرة تحكي لون ما وراءها، وهذا إذا غضب على من دونه واستشعر القدرة عليه، وإن كان ممن فوقه تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب فيصفر اللون حزنًا، وإن كان على النظير تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر، ويترتب على الغضب تغير الظاهر والباطن كتغير اللون والرعدة في الأطراف، وخروج الأفعال عن ترتيب، واستحالة الخلقة حتى لو رأى الغضبان نفسه في حال غضبه لكان غضبه حياء من قبح صورته، واستحالة خلقته، هذا كله في الظاهر، وأما الباطن فقبحه أشد من الظاهر؛ لأنه يولد الحقد في القلب والحسد، وإضمار السوء على اختلاف أنواعه، بل أولى شيء يقبح منه باطنه وتغير ظاهره ثمرة تغير باطنه، وهذا كله أثره في الجسد، وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحي منه العاقل، ويندم قائله عند سكون الغضب، ويظهر أثر الغضب أيضًا في الفعل بالضرب أو القتل، وإن فات ذلك بهرب المغضوب عليه رجع إلى نفسه فيمزق ثوب نفسه، ويلطم خده، وربما سقط

---

(١) هو قطعة من حديث رواه: أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي (٣/ ٦٢/ ١٣٠٤)، والحاكم (١/ ٥٢٤-٥٢٥) وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وابن حبان: الإحسان (٥/ ٦٠٤-٦٠٥/ ١٩٧١) من حديث عمار بن ياسر ﷺ.

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٦٩-٣٧٢).

(٣) شرح المشكاة (١٠/ ٣٢٤٣).

صريعا، وربما أغمي عليه، وربما كسر الآنية، وضرب من ليس له في ذلك جريمة، ومن تأمل هذه المفاسد عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله ﷺ: «**لا تغضب**»، من الحكمة، واستجلاب المصلحة في درء المفسدة مما يتعذر إحصاؤه، والوقوف على نهايته، وهذا كله في الغضب الدنيوي لا الغضب الديني»[١].

* عن سُلَيْمَان بْن صُرَدٍ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ عِنْدَهُ جُلُوسٌ، وَأَحَدُهُمَا يَسُبُّ صَاحِبَهُ مُغْضَبًا قَدِ احْمَرَّ وَجْهُهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**». فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ[٢].

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «فيه أن الغضب في غير اللَّه تعالى من نزغ الشيطان، وأنه ينبغي لصاحب الغضب أن يستعيذ فيقول: أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم، وأنه سبب لزوال الغضب، وأما قول هذا الرجل الذي اشتد غضبه هل ترى بي من جنون؟ فهو كلام من لم يفقه في دين اللَّه تعالى، ولم يتهذب بأنوار الشريعة المكرمة، وتوهم أن الاستعاذة مختصة بالمجنون، ولم يعلم أن الغضب من نزغات الشيطان، ولهذا يخرج الإنسان من اعتدال حاله، ويتكلم بالباطل ويفعل المذموم، وينوي الحقد والبغض، وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب. ولهذا قال النبي ﷺ للذي قال له أوصني: «**لا تغضب**»، فردد مرارًا قال: «**لا تغضب**». فلم يزده في الوصية على لا تغضب مع تكراره الطلب، وهذا دليل ظاهر في عظم مفسدة الغضب وما ينشأ منه»[٣].

قال القرطبي: «قوله للغضبان: «**إني لأعرف كلمة لو قالها**» يدل على أن الشيطان له تأثير في تهييج الغضب وزيادته حتى يحمله على البطش بالمغضوب

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٦٣٧-٦٣٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٩٤)، والبخاري (١٠/ ٦٣٥/ ٦١١٥)، ومسلم (٤/ ٢٠١٥/ ٢٦١٠)، وأبو داود (٥/ ١٤٠/ ٤٧٨١)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٠٤-١٠٥/ ١٠٢٢٤-١٠٢٢٥).

(٣) شرح مسلم (١٦/ ١٣٤).

عليه، أو إتلافه، أو إتلاف نفسه، أو شر يفعله يستحق به العقوبة في الدنيا والآخرة، فإذا تعوذ الغضبان باللَّه من الشيطان الرجيم، وصح قصده لذلك فقد التجأ إلى اللَّه تعالى، وقصده واستجار به، واللَّه تعالى أكرم من أن يخذل من استجار به، ولما جهل ذلك الرجل ذلك المعنى، وظن أن الذي يحتاج إلى التعوذ إنما هو المجنون، فقال: أمجنونًا تراني؟ منكرًا على من نبهه على ما يصلحه، ورادًّا لما ينفعه، وهذا من أقبح الجنون، والجنون فنون، وكأن هذا الرجل كان من جفاة الأعراب الذين قلوبهم من الفقه والفهم خراب»(١).

قال ابن حجر: «يعين على ترك الغضب استحضار ما جاء في كظم الغيظ من الفضل، وما جاء في عاقبة ثمرة الغضب من الوعيد، وأن يستعيذ من الشيطان كما تقدم في حديث سليمان بن صرد. . . وقال الطوفي: أقوى الأشياء في دفع الغضب استحضار التوحيد الحقيقي؛ وهو أن لا فاعل إلا اللَّه، وكل فاعل غيره فهو آلة له، فمن توجه إليه بمكروه من جهة غيره فاستحضر أن اللَّه لو شاء لم يمكن ذلك الغير منه اندفع غضبه؛ لأنه لو غضب والحالة هذه كان غضبه على ربه جل وعلا، وهو خلاف العبودية. قلت: وبهذا يظهر السر في أمره ﷺ الذي غضب بأن يستعيذ من الشيطان؛ لأنه إذا توجه إلى اللَّه في تلك الحالة بالاستعاذة به من الشيطان أمكنه استحضار ما ذكر، وإذا استمر الشيطان متلبسًا متمكنًا من الوسوسة لم يمكنه من استحضار شيء من ذلك»(٢).

* عن أبي ذر قال: إن رسول اللَّه ﷺ قال لنا: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن يذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**»(٣).

---

(١) المفهم (٦/ ٥٩٤).

(٢) الفتح (١٠/ ٦٣٨).

(٣) أخرجه: أبو داود (٥/ ١٤١/ ٤٧٨٢)، وابن حبان: الإحسان (١٢/ ٥٠١/ ٥٦٨٨). من طريق أبي معاوية عن داود بن أبي هند عن أبي حرب ابن أبي الأسود عن أبي ذر به. إلا أن أبا حرب لا يعرف له سماع من أبي ذر. قال الحافظ المزي في تهذيب الكمال (٣٣/ ٢٣١/ ٧٣٠٥) روى عن أبيه أبي الأسود الديلي وعن أبي ذر الغفاري والصحيح عن أبيه عن أبي ذر وعن عمه عن أبي ذر. لكن وصله: أحمد (٥/ ١٥٢) من طريق أبي معاوية عن داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود عن أبي الأسود عن أبي ذر. قال الهيثمي في المجمع (٨/ ٧٠): رواه أبو داود باختصار القصة ودون ذكر أبي الأسود، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وقال العراقي في تخريج إحياء علوم الدين (٤/ ١٨٠٦/ ٢٨٦٢): رواه أحمد بإسناد جيد، والمرفوع عند أبي داود عنده فيه انقطاع سقط منه أبو الأسود. اهـ. وحسنه الحافظ في الأمالي المطلقة نقلًا عن الموسوعة الحديثية (٥/ ٤٩٦).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن العربي: «أمر النبي ﷺ من غضب أن يضطجع؛ لأن الغضب ثور والاضطجاع سكون، فإن لم يذهب فأمره بالاغتسال، فإن الماء يطفئ النار معنى وحسا وذلك لأن الغضب يهيج اللسان: أولًا: ودواؤه السكوت والجوارح بالاستطالة. ثانيًا: ودواؤه الاضطجاع أو الاغتسال، وهذا كله ما لم يكن لله فإذا كان الغضب لله فهو من الدين وقوة النفس في الحق، فبالغضب قوتل الكفار، وأقيمت الحدود، وذهبت الرحمة على أهل ذلك في القلوب، وهذا يوجب أن يكون القلب عاقلًا، والبدن عاملًا بمقتضى الشرع، يسترسلان إذا أرسلهما ويمسكان إذا أمسكهما»[(١)].

قال الخطابي: «القائم متهيئ للحركة والبطش، والقاعد دونه في هذا المعنى، والمضطجع ممنوع منهما، فيشبه أن يكون النبي ﷺ إنما أمره بالقعود والاضطجاع لئلا تبدر منه في حال قيامه وقعوده بادرة يندم عليها فيما بعد، والله أعلم»[(٢)].

قال الطيبي: «لعله أراد به التواضع والخفض؛ لأن الغضب منشأه التكبر والترفع»[(٣)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**»[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**» قال القرطبي: «فيه وجهان: أحدهما: ظاهره، فإن من عرف بالصفح والعفو ساد وعظم في القلوب. والثاني: أن يكون أجره وثوابه وجاهه وعزه في الآخرة أكثر»[(٥)].

وقال رحمه الله أيضًا: «**وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله**» «التواضع: الانكسار، والتذلل، ونقيضه التكبر والترفع. والتواضع يقتضي متواضعًا له؛ فإن كان

---

(١) عارضة الأحوذي (٨/ ١٧٧-١٧٨). (٢) المعالم (٤/ ١٠٠-١٠١).

(٣) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٤٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٨٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٠١/ ٢٥٨٨)، والترمذي (٤/ ٣٣٠/ ٢٠٢٩).

(٥) المفهم (٦/ ٥٧٤-٥٧٥).

المتواضع له هو اللَّه تعالى، أو من أمر اللَّه بالتواضع له كالرسول، والإمام، والحاكم، والوالد، والعالم، فهو التواضع الواجب المحمود؛ الذي يرفع اللَّه تعالى به صاحبه في الدنيا والآخرة، وأما التواضع لسائر الخلق فالأصل فيه: أنه محمود، ومندوب إليه، ومرغب فيه إذا قصد به وجه اللَّه، ومن كان كذلك رفع اللَّه تعالى قدره في القلوب، وطيب ذكره في الأفواه، ورفع درجته في الآخرة، وأما التواضع لأهل الدنيا، ولأهل الظلم، فذلك هو الذل الذي لا عز معه، والخسة التي لا رفعة معها، بل يترتب عليها ذل الآخرة، وكل صفقة خاسرة -نعوذ باللَّه من ذلك-»[١].

قال المناوي: «قوله: «**وما تواضع أحد لله**» من المؤمنين رقًّا وعبودية في ائتمار أمره، والانتهاء عن نهيه، ومشاهدته لحقارة النفس، ونفي التعجب عنها إلا رفعه اللَّه في الدنيا بأن يثبت له في القلوب بتواضعه منزلة عند الناس، ويجل مكانه، وكذا في الآخرة على سرير خلد لا يفنى، ومنبر ملك لا يبلى. ومن تواضع لله في تحمل مؤن خلقه كفاه اللَّه مؤنة ما يرفعه إلى هذا المقام، ومن تواضع في قبول الحق ممن دونه قبل اللَّه منه مدخول طاعاته، ونفعه بقليل حسناته، وزاد في رفعة درجاته، وحفظه بمعقبات رحمته من بين يديه ومن خلفه. واعلم أن من جبلة الإنسان الشح بالمال ومتابعة السبعية من آثار الغضب والانتقام والاسترسال في الكبر الذي هو نتائج الشيطنة، فأراد الشارع أن يقلعها من نسخها، فحث أولًا على الصدقة ليتحلى بالسخاء والكرم، وثانيًا على العفو ليتعزز بعز الحلم والوقار، وثالثًا على التواضع ليرفع درجاته في الدارين»[٢].

قال النووي: «قال العلماء: وهذه الأوجه في الألفاظ الثلاثة موجودة في العادة معروفة، وقد يكون المراد الوجهين معًا في جميعها في الدنيا والآخرة، واللَّه أعلم»[٣].

* عن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال رسول ﷺ: «**ألا أخبركم بمن يحرم على النار أو بمن تحرم عليه النار، على كل قريب هين سهل**»[٤].

---

(١) المفهم (٦/ ٥٧٥). (٢) فيض القدير (٥/ ٥٠٤).

(٣) شرح صحيح مسلم (١٦/ ١١٦).

(٤) رواه: أحمد (١/ ٤١٥)، والترمذي (٤/ ٥٦٤/ ٢٤٨٨) وقال: «حديث حسن غريب». وصححه ابن حبان: =

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «ومن ثم كان المصطفى ﷺ في غاية اللين، فكان إذا ذكر أصحابه الدنيا ذكرها معهم، وإذا ذكروا الآخرة ذكرها معهم، وإذا ذكروا الطعام ذكره معهم»[(١)].

وقال السندي: «يريد حسن الأخلاق، حميد الخصال، مقبولًا عند الناس، محبوبا لديهم كذلك»[(٢)].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقا**»[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «الأخلاق جمع خلق، وهي عبارة عن أوصاف الإنسان التي يعامل بها غيره، ويخالطه، وهي إلى محمود ومذموم. فالمحمود منها: صفات الأنبياء والأولياء والفضلاء، كالصبر عند المكاره، والحلم عند الجفاء، وتحمل الأذى، والإحسان للناس، والتودد لهم، والمسارعة في حوائجهم، والرحمة، والشفقة، واللطف في المجادلة، والتثبت في الأمور، ومجانبة المفاسد والشرور. وعلى الجملة فاعتدالها: أن تكون مع غيرك على نفسك، فتنصف منها ولا تنتصف لها، فتعفو عن من ظلمك، وتعطي من حرمك. والمذموم منها: نقيض ذلك كله»[(٤)].

وقال القرطبي أيضًا: «حسن الخلق أعظم خصال البر، كما قال: «**الحج عرفة**»[(٥)] ويعني بحسن الخلق: الإنصاف في المعاملة، والرفق في المجادلة،

= الإحسان (٢/ ٢١٥-٢١٦/ ٤٦٩-٤٧٠). وفيه عبد اللَّه بن عمرو الأودي لم يوثقه غير ابن حبان. ولكن للحديث شواهد انظرها في الصحيحة (٩٣٨).

(١) فيض القدير (٦/ ٢٠٧).

(٢) حاشية السندي على المسند (٧/ ٥٣-٥٤) طبعة الأرنؤوط.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٠)، وأبو داود (٥/ ٦٠/ ٤٦٨٢)، والترمذي (٣/ ٤٦٦/ ١١٦٢) وقال: «حديث حسن صحيح». وصححه الحاكم (١/ ٣)، وابن حبان: الإحسان (٢/ ٢٢٧/ ٤٧٩).

(٤) المفهم (٦/ ١١٦-١١٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٠٩-٣١٠)، وأبو داود (٢/ ٤٨٥-٤٨٦/ ١٩٤٩)، والترمذي (٣/ ٢٣٧/ ٨٨٩)، والنسائي (٥/ ٢٩٢/ ٣٠٤٤)، وابن ماجه (٢/ ١٠٠٣/ ٣٠١٥)، وصححه ابن حبان (٩/ ٢٠٣/ ٣٨٩٢ الإحسان) والحاكم (١/ ٤٦٣-٤٦٤)، . كلهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي ﷺ.

والعدل في الأحكام، والبذل، والإحسان»(١).

قال المناوي: «هذا الدين مبني على السخاء وحسن الخلق، ولا يصلح إلا بهما، وكمال إيمان الإنسان ونقصه على قدر ذلك، ولا يناقضه ما سلف أنه جبلي غريزي؛ لأنه وإن كان سجية أصالة، لكن يمكن اكتساب تحسينه بنحو نظر في أخلاق المصطفى ﷺ والحكماء، ثم بتصفية النفس عن ذميم الأوصاف، وقبيح الخصال»(٢).

وقال أيضًا: «قال الحليمي: دل على أن حسن الخلق إيمان، وعدمه نقصان إيمان، وأن المؤمنين يتفاوتون في إيمانهم؛ فبعضهم أكمل إيمانًا من بعض، ومن ثم كان المصطفى ﷺ أحسن الناس خلقا لكونه أكملهم إيمانا»(٣).

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: لم يكن رسول اللَّه ﷺ فاحشًا، ولا متفحشًا، وإنه كان يقول: «**إن خياركم أحسنكم أخلاقًا**»(٤).

* عن جابر بن سمرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن الفحش والتفحش ليسا من الإسلام، وإن أحسن الناس إسلامًا أحسنهم خلقًا**»(٥).

⋆ غريب الحديثين:

فاحشًا: قال ابن بطال: «الفاحش البذيء اللسان، وأصل الفحش عند العرب في كل شيء خروج الشيء عن مقداره وحده حتى يستقبح، ولذلك يقال للرجل المفرط الطول الخارج عن طول الناس المستحسن: فاحش الطول، يراد به قبيح الطول غير أن أكثر ما استعمل ذلك في الإنسان إذا وصف به غير موصول بشيء في المنطق، فإذا قيل: فلان فاحش ولم يوصل بشيء فالأغلب أن معناه فاحش منطقه،

---

(١) المفهم (٦/ ٥٢٢). (٢) فيض القدير (٢/ ٩٧).

(٣) المصدر نفسه.

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦١)، والبخاري (١٠/ ٥٥٩/ ٦٠٣٥)، ومسلم (٤/ ١٨١٠/ ٢٣٢١)، والترمذي (٤/ ٣٠٨/ ١٩٧٥).

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٨٩)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٠/ ٢٥٣١٦)، والطبراني في الكبير (٢/ ٢٥٦/ ٢٠٧٢)، وأبو يعلى (١٣/ ٤٥٨/ ٧٤٦٨)، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٥) وقال: «رجاله ثقات». وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٤٦٠): إسناد أحمد جيد. وقال العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ١٦٥٦): رواه أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح.

بذيء لسانه، ولذلك قيل للزنا فاحشة لقبحه وخروجه عما أباحه اللَّه لخلقه»[١].

★ **فوائد الحديثين:**

قال النووي: «فيه الحث على حسن الخلق، وبيان فضيلة صاحبه، وهو صفة أنبياء اللَّه تعالى وأوليائه»[٢].

قال القاضي عياض: «حسن الخلق اعتدالها بين طرفي مذمومها، ومخالفة[٣] الناس بالجميل منها، والبشر والتودد لهم، والإشفاق عليهم، والاحتمال، والحلم والصبر في المكاره، وترك الاستطالة والكبر على الناس والمؤاخذة، واستعمال الغضب والسلاطة والغلظة، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٤]. وحكى الطبري اختلاف السلف في الخلق، هل هي غريزة غير مكتسبة أو مكتسبة؟ والصحيح أن منها ما يخلق اللَّه تعالى عليه العبد، وأنها تكتسب أيضًا، ويتخلق بها، ويقتدي بغيره فيها، وينشأ عليها، حتى يصير له كالغريزة»[٥].

❁ عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «**ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق**»[٦].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «أوقع قوله: «**وإن اللَّه يبغض الفاحش البذيء**»[٧] مقابلًا لقوله: «**إن أثقل شيء يوضع في الميزان**» دلالة على أن أخف ما يوضع في الميزان هو سوء الخلق، وأن حسن الخلق أحب الأشياء عند اللَّه تعالى، والخلق السيئ أبغضها، وأن الفحش والبذاءة أسوأ شيء في مساوئ الأخلاق»[٨].

---

(١) شرح ابن بطال (٩/ ٢٢٩).
(٢) شرح مسلم (١٥/ ٦٣).
(٣) كذا في الأصل ولعل الصواب: مخالقة. وانظر شرح الأبي للحديث.
(٤) آل عمران: الآية (١٥٩).
(٥) الإكمال (٧/ ٢٨٥).
(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٤٦- ٤٤٨)، وأبو داود (٥/ ١٤٩/ ٤٧٩٩) وصححه ابن حبان: الإحسان (٢/ ٢٣٠/ ٤٨١)، والترمذي (٤/ ٣١٨-٣١٩/ ٢٠٠٢) وصححه بزيادة: «.. **وإن اللَّه ليبغض الفاحش البذيء**» وفي (٤/ ٣١٩/ ٢٠٠٣) بزيادة: «.. **وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ بها درجة صاحب الصوم والصلاة**» وقال: غريب من هذا الوجه. عن أم الدرداء عن أبي الدرداء به. وللحديث متابعات وشواهد ذكرها الشيخ الألباني رحمه الله في الصحيحة (٨٧٦).
(٧) هي رواية الترمذي.
(٨) شرح المشكاة (١٠/ ٣٢٣٥).

وقال القاري: «ومن المقرر أن كل ما يكون مبغوضا لله ليس له وزن وقدر، كما أن كل ما يكون محبوبًا له يكون عنده عظيمًا، قال تعالى في حق الكفار: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾[(١)] وفي الحديث المشهور: «**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان اللَّه وبحمده، سبحان اللَّه العظيم**»[(٢)] وبهذا تمت المقابلة بين القرينتين»[(٣)].

* عن أبي هريرة قال: سئل رسول اللَّه ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «**تقوى اللَّه وحسن الخلق**»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال: «**الفم والفرج**»[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن رجب الحنبلي: «وفي الجملة فالتقوى هي وصية اللَّه لجميع خلقه، ووصية رسول اللَّه ﷺ لأمته. وكان ﷺ إذا بعث أميرًا على سرية أوصاه في خاصة نفسه بتقوى اللَّه، وبمن معه من المسلمين خيرا[(٥)]»[(٦)].

قال الطيبي: «**«تقوى الله»**: إشارة إلى حسن المعاملة مع الخالق، بأن يأتي جميع ما أمر به وينتهي عما نهى عنه، وحسن الخلق إشارة إلى حسن المعاملة مع الخلق، وهاتان الخصلتان موجبتان لدخول الجنة، ونقيضهما لدخول النار، فأوقع الفم والفرج مقابلًا لهما.

أما الفم فمشتمل على اللسان، وحفظه ملاك أمر الدين كله، وأكل الحلال رأس

---

(١) الكهف: الآية (١٠٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٢)، والبخاري (١١/ ٢٤٦-٢٤٧/ ٦٤٠٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٧٢/ ٢٦٩٤)، والترمذي (٥/ ٤٧٨/ ٣٤٦٧)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥١/ ٣٨٠٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) مرقاة المفاتيح (٤/ ٧٤٠).

(٤) أحمد (٢/ ٣٩٢) والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٩) والترمذي (٤/ ٣١٩/ ٢٠٠٤) وقال: هذا حديث صحيح غريب، وابن ماجه (٢/ ١٤١٨/ ٤٢٤٦) والحاكم (٤/ ٣٢٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وابن حبان: الإحسان (٢/ ٢٢٤/ ٤٧٦) وصححه.

(٥) قطعة من حديث مطول رواه: أحمد (٥/ ٣٥٢ و٣٥٨)، ومسلم (٣/ ١٣٥٧-١٣٥٨/ ١٧٣١)، وأبو داود (٣/ ٨٣-٨٤/ ٢٦١٢)، والترمذي (٤/ ١٣٨-١٣٩/ ١٦١٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٣٢-٢٣٣/ ٨٧٦٥)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٣-٩٥٤/ ٢٨٥٨) من حديث بريدة ﷺ.

(٦) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٤).

التقوى كله. وأما الفرج فصونه من أعظم مراتب الدين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾[(١)]؛ لأن هذه الشهوة أغلب الشهوات على الإنسان، وأعصاها عند الهيجان على العقل، ومن ترك الزنا خوفًا من اللَّه تعالى، مع القدرة وارتفاع الموانع، وتيسير الأسباب لاسيما عند صدق الشهوة- وصل إلى درجة الصديقين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾[(٢)]»[(٣)].

وقال أيضًا: «معنى الأكثرية في القرينتين: أن أكثر أسباب السعادة الأبدية الجمع بين هاتين الخلتين، وأن أكثر أسباب الشقاوة الجمع بين هاتين الخلتين»[(٤)].

* عن عائشة: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم**»[(٥)].

* عن عبد اللَّه بن عمرو: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إن المسلم المسدد ليدرك درجة الصوام القوام بآيات اللَّه لكرم ضريبته وحسن خلقه**»[(٦)].

⭑ غريب الحديثين:

المسدد: يروى بكسر الدال وفتحها؛ أي: الموفق للخير والاستقامة على نهج الصواب.

ضريبته: أي طبيعته وسجيته.

---

(١) المعارج: الآية (٢٩).
(٢) النازعات: الآيتان (٤٠-٤١).
(٣) شرح الطيبي (١٠/ ٣١٢٠-٣١٢١).
(٤) المصدر نفسه.
(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٩٤)، وأبو داود (٥/ ١٤٩/ ٤٧٩٨)، والحاكم (١/ ٦٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وابن حبان: الإحسان (٢/ ٢٢٨-٢٢٩/ ٤٨٠). كلهم من طرق عن عمرو بن أبي عمرو عن المطلب بن عبد اللَّه بن حنطب عن عائشة ﵂، والمطلب صدوق كثير الإرسال والتدليس كما قال الحافظ في التقريب. وفي سماعه من عائشة خلافًا. قال أبو زرعة: نرجو أن يكون سمع منها.
وله شاهد من حديث أبي هريرة عند الحاكم (١/ ٦٠) وقال: على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وآخر من حديث عبد اللَّه بن عمرو وهو الآتي بعده. وثالث من حديث أبي أمامة عند البغوي في شرح السنة (١٣/ ٨٠/ ٣٤٩٩) وفي سنده عفير بن معدان وهو ضعيف. وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٥) وعزاه للطبراني.
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٢٠). ذكره المنذري في الترغيب (٣/ ٤٠٤) وقال: رواه أحمد والطبراني في الكبير ورواة أحمد ثقات إلا ابن لهيعة. وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢) وقال بعد أن عزاه لأحمد والطبراني في الكبير والأوسط: «وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف». قلت: إلا أن الراوي عنه هو عبد اللَّه ابن المبارك وهو ممن روى عنه قبل أن يختلط ويسوء حفظه. وزاد «وبقية رجاله رجال الصحيح».

★ **فوائد الحديثين:**

قال الباجي: «يريد -واللَّه أعلم- أنه يدرك بحسن خلقه درجة المتنفل بالصوم، والصلاة لصبره على الأذى، وكفه عن أذى غيره، والمعارضة عليه مع سلامة صدره من الغل»[(١)].

قال العظيم الآبادي: «**درجة الصائم القائم**»؛ أي: قائم الليل في الطاعة، وإنما أعطي صاحب الخلق الحسن هذا الفضل العظيم؛ لأن الصائم والمصلي في الليل يجاهدان أنفسهما في مخالفة حظهما، وأما من يحسن خلقه مع الناس مع تباين طبائعهم وأخلاقهم فكأنه يجاهد نفوسا كثيرة فأدرك ما أدركه، فاستويا في الدرجة بل ربما زاد»[(٢)].

* عن أبي أمامة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»[(٣)].

★ **غريب الحديث:**

ربض الجنة: هو بفتح الباء، ما حولها خارجًا عنها، تشبيهًا بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع.

المراء: الجِدَالُ، والتَّمارِي والممَارَاةُ: المُجَادَلَةُ على مذهب الشَّكِّ والرِّيبة. ويقالُ للمناظرة: مُمَاراة؛ لأن كلَّ واحدٍ منهما يستخرجُ ما عند صاحبه ويَمْتَرِيه، كما يَمْتَري الحالِبُ اللَّبَنَ من الضَّرْعِ.

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «ولما كانت مكارم الأخلاق متضمنة لترك رذائلها وللإتيان

---

(١) المنتقى (٧/ ٢١٢). (٢) عون المعبود (١٣/ ١٥٤).

(٣) أخرجه: أبو داود (٥/ ١٥٠/ ٤٨٠٠). وفيه أيوب بن محمد، ويقال أيوب بن موسى. قال الحافظ في التقريب (٦٢٦): «صدوق». وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحيحة (٢٧٣): «ولا يطمئن القلب لذلك، لتفرد أبي الجماهر عنه، بل هو بوصف الجهالة أولى، كما تقتضيه القواعد الحديثية أن الراوي لا ترتفع عنه الجهالة برواية الواحد، لكن للحديث شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن على أقل الأحوال».

تنبيه: ذكر الحديث السيوطي في الدر وزاد نسبته للترمذي وابن ماجه وهو عندهما من حديث أنس بن مالك لا من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، انظر سنن الترمذي (٤/ ١٩-٢٠/ ٥١).

بمحاسنها، عقبها بقوله «**ومن حسن خلقه**» تخلية بعد التحلية»[(١)].

قال ابن علان: «**«لمن حسن خلقه»** بتشديد المهملة «**خلقه**» وفي الإتيان به بصيغة التفعيل إيماء إلى مشقة التخلق بذلك والاحتياج فيه إلى مزاولة للنفس ورياضة لها»[(٢)].

* عن جابر بن عبد الله: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون، والمتفيهقون**»، قالوا: يا رسول اللَّه قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**»[(٣)].

* عن عبد اللَّه بن عمرو: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة؟**» فسكت القوم، فأعادها مرتين أو ثلاثًا، قال القوم: نعم يا رسول اللَّه. قال: «**أحسنكم خلقًا**»[(٤)].

⋆ غريب الحديثين:

الثرثارون: الثرثار: هو الكثير الكلام.

المتشدقون: المتشدق من يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم.

⋆ فوائد الحديثين:

قال ابن علان: «**«وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة»** أي: في الجنة فإنها دار الراحة والجلوس، أما الموقف فالناس فيه قيام لرب العالمين، والنبي ﷺ حينئذ قائم للشفاعة للعباد، وتخليصهم مما هم فيه من الكرب؛ إذ هو المقام المحمود الذي أعطيه يومئذ»[(٥)].

---

(١) شرح الطيبي (١٠/ ٣١٢٠). (٢) دليل الفالحين (٣/ ٨٤).

(٣) أخرجه: الترمذي (٤/ ٣٢٥/ ٢٠١٨) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. وحسن إسناده الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في الصحيحة (٧٩١).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٥، ٢١٧، ٢١٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٢) وابن حبان: الإحسان (٢/ ٢٣٥/ ٤٨٥). من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢١) وقال: «رواه أحمد وإسناده جيد».

(٥) دليل الفالحين (٣/ ٨٤).

قال النووي: «يكره التقعير في الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة، والتصنع بالمقدمات التي يعتادها المتفاصحون وزخارف القول، فكل ذلك من التكلف المذموم، وكذلك تكلف السجع، وكذلك التحري في دقائق الإعراب ووحشي اللغة في حال مخاطبة العوام؛ بل ينبغي أن يقصد في مخاطبته لفظًا يفهمه صاحبه فهمًا جليًا ولا يستثقله»[(١)].

وقال أيضًا: «اعلم أنه لا يدخل في الذم تحسين ألفاظ الخطب والمواعظ إذا لم يكن فيها إفراط وإغراب؛ لأن المقصود منها تهييج القلوب إلى طاعة اللَّه ﷻ، ولحسن اللفظ في هذا أثر ظاهر»[(٢)].

قال ابن علان: «قال العاقولي في شرح المصابيح: هذا الحديث مبني على قاعدة: هي أن المؤمنين من حيث الإيمان محبوبون، ويتفاضلون بعد في صفات الخير وشعب الإيمان. فيتميز الفاضل بزيادة محبة، وقد يتفاوتون في الرذائل فيصيرون مبغوضين من حيث ذلك، ويصير بعضهم أبغض من بعض، وقد يكون الشخص الواحد محبوبا من وجه مبغوضا من وجه. وعلى هذه القاعدة فرسول اللَّه ﷺ يحب المؤمنين كافة من حيث هم مؤمنون، وحبه لأحسنهم خلقًا أشد، ويبغض العصاة من حيث هم عاصون، وبغضه لأسوئهم أخلاقًا أشد، كما يؤخذ ذلك من المعاملة»[(٣)].

* عن أسامة بن شريك قال: شهدت الأعراب يسألون النبي ﷺ: أعلينا حرج في كذا؟ أعلينا حرج في كذا؟ فقال لهم: «**عباد اللَّه، وضع اللَّه الحرج إلا من اقترض من عرض أخيه شيئًا. فذاك الذي حرج**». فقالوا: يا رسول اللَّه، هل علينا جناح أن لا نتداوى؟ قال: «**تداووا، عباد اللَّه، فإن اللَّه سبحانه، لم يضع داء إلا وضع معه شفاء إلا الهرم**». قالوا: يا رسول اللَّه، ما خير ما أعطي العبد؟ قال: «**خلق حسن**»[(٤)].

---

(١) الأذكار (٢/ ٨٩٩).

(٢) الأذكار (٢/ ٩٠١).

(٣) دليل الفالحين (٣/ ٨٤-٨٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٧٨)، وابن ماجه (٢/ ١١٣٧/ ٣٤٣٦)، وصححه الحاكم (٤/ ٣٩٩-٤٠٠)، وابن حبان: الإحسان (٢/ ٢٣٦-٢٣٧/ ٤٨٦). قال البوصيري في الزوائد: «إسناده صحيح، رجاله ثقات، وقد روى بعضه أبو داود والترمذي أيضًا». =

★ **غريب الحديث:**

الحرج: الحرج في الأصل: الضيق ويقع على الإثم والحرام.

★ **فوائد الحديث:**

قال السندي: «**خلق حسن**» يعامل به مع اللَّه تعالى ومع عباده أحسن معاملة»[١].

* عن عبد اللَّه بن عمرو: أن معاذ بن جبل أراد سفرًا فقال: يا رسول اللَّه أوصني قال: «**اعبد اللَّه ولا تشرك به شيئًا**». قال: يا رسول اللَّه زدني. قال: «**وإذا أسأت فأحسن**». قال: يا رسول اللَّه زدني. قال: «**استقم، ولتحسن خلقك**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «بين به أن الاستقامة نوعان: استقامة مع الحق بفعل طاعته عقدًا وفعلًا وقولًا، واستقامة مع الخلق بمخالقتهم بخلق حسن، وبذلك تحصل الاستقامة الجامعة التي هي الدرجة القصوى التي بها كمال المعارف والأحوال، وصفاء القلوب في الأعمال، وتنزيه العقائد عن سفاسف البدع والضلال»[٣].

* عن أبي ذر قال: قال لي رسول اللَّه ﷺ: «**اتق اللَّه حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[٤].

= قلت: ما أشار إليه البوصيري هو عند أبي داود (٤/ ١٩٢-١٩٣/ ٣٨٥٥)، والترمذي (٤/ ٣٣٥-٢٢٦/ ٢٠٣٨) لكن دون ذكر موضع الشاهد.

(١) حاشية السندي على المسند (٣٠/ ٣٩٨) طبعة الأرنؤوط.

(٢) أخرجه: الطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٩/ ٥٨) وفي الأوسط (٩/ ٣٤١/ ٨٧٤٢) وصححه ابن حبان: الإحسان (٢/ ٢٨٣/ ٥٢٤) والحاكم (١/ ٥٤) و(٤/ ٢٤٤)، ووافقه الذهبي.

(٣) فيض القدير (١/ ٤٩٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٣)، والترمذي (٤/ ٣١٢-٣١٣/ ١٩٨٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم (١/ ٥٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. من طريق ميمون بن أبي شبيب عن أبي ذر، لكن ميمون لم يسمع من أبي ذر كما قال أبو حاتم وعمرو بن علي. قال الحافظ في التهذيب (١٠/ ٣٨٩): «وصحح له الترمذي روايته عن أبي ذر، لكن في بعض النسخ وفي أكثرها قال: حسن فقط». لكن للحديث شواهد يتقوى بها.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن رجب: «وقوله ﷺ: «**وخالق الناس بخلق حسن**» هذا من خصال التقوى ولا تتم التقوى إلا به، وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه؛ فإن كثيرا من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق اللَّه دون حقوق عباده، فنص له على الأمر بإحسان العشرة للناس، فإنه كان قد بعثه إلى اليمن معلمًا لهم ومفقهًا وقاضيًا، ومن كان كذلك فإنه يحتاج إلى مخالقة الناس بخلق حسن ما لا يحتاج إليه غيره مما لا حاجة للناس به ولا يخالطهم، وكثيرًا ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق اللَّه، والانعكاف على محبته وخشيته وطاعته، وإهمال حقوق العباد بالكلية، أو التقصير فيها، والجمع بين القيام بحقوق اللَّه وحقوق عباده عزيز جدًّا، لا يقوى عليه إلا الكمل من الأنبياء والصديقين»[(١)].

قال المناوي: ««**وخالق الناس بخلق حسن**»؛ أي: تكلف معاشرتهم بالمجاملة من نحو طلاقة وجه، وحلم، وشفقة، وخفض جانب، وعدم ظن السوء بهم، وتودد إلى كل كبير وصغير، وتلطف في سياستهم مع تباين طباعهم. يقال: فلان يتخلق بغير خلقه؛ أي: يتكلف. وجمع هذا بعضهم في قوله: وأن تفعل معهم ما تحب أن يفعلوه معك، فتجتمع القلوب، وتتفق الكلمة، وتنتظم الأحوال، وذلك جماع الخير وملاك الأمر»[(٢)].

* * *

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٥٤).
(٢) فيض القدير (١/ ١٢٠).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.

يصروا: من أصر؛ أي: داوم ولازم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «ذكر اللَّه تعالى في هذه الآية صنفًا دون الصنف الأول، فألحقهم بهم برحمته ومنه، فهؤلاء هم التوابون»[(١)].

وقال ابن كثير: «أي: إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار»[(٢)].

وقال الرازي: «واعلم أن وجه النظم من وجهين: الأول: أنه تعالى لما وصف الجنة بأنها معدة للمتقين بين أن المتقين قسمان: أحدهما: الذين أقبلوا على الطاعات والعبادات؛ وهم الذين وصفهم اللَّه بالإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس. وثانيهما: الذين أذنبوا ثم تابوا وهو المراد بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً﴾، وبين تعالى أن هذه الفرقة كالفرقة الأولى في كونها متقية، وذلك لأن المذنب إذا تاب عن الذنب صار حاله كحال من لم يذنب قط في استحقاق المنزلة والكرامة عند اللَّه.

والوجه الثاني: أنه تعالى ندب في الآية الأولى إلى الإحسان إلى الغير، وندب في هذه الآية إلى الإحسان إلى النفس، فإن المذنب العاصي إذا تاب كانت تلك التوبة إحسانًا منه إلى نفسه»[(٣)].

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٥١٠).

(٢) التفسير (٢/ ١٠٣).

(٣) تفسير الرازي (٩/ ١٠).

وقال البقاعي: «ولما كان هذا مفهمًا لأنه تعالى يغفر كل ذنب أتبعه تحقيق ذلك، ونفى القدرة عليه من غيره؛ لأن المخلوق لا يمضي غفرانه لذنب إلا إذا كان مما شرع اللَّه غفرانه، فكان لا غافر في الحقيقة إلا اللَّه، قال مرغبا في الإقبال عليه بالاعتراض بين المتعاطفين: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ أي: يمحو آثارها حتى لا تذكر ولا يجازي عليها ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: الملك الأعلى»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «وذكر اللَّه عند الذنب يكون بتذكر نهيه ووعيده أو عقابه، أو تذكر عظمته وجلاله، وهما مرتبتان مرتبة دنيا لعامة المؤمنين المتقين المستحقين للجنة وهي أن يتذكرو عند الذنب النهي والعقوبة فيبادروا إلى التوبة والاستغفار، ومرتبة عليا لخواص المتقين وهي أن يذكروا إذا فرط منهم ذنب ذلك المقام الإلهي الأعلى المنزه عن النقص الذي هو مصدر كل كمال، وما يجب من طلب قربه بالمعرفة والتخلق الذي هو منتهى الآمال، فإذا هم تذكروا انصرف عنهم طائف الشيطان، ووجدوا نفس الرحمن، فرجعوا إليه طالبين مغفرته، راجين رحمته، ملتزمين سنته، واردين شرعته، عالمين أنه لا يغفر الذنوب سواه، وأنه يضل من يدعون عند الحاجة إلا إياه؛ لأن الكل منه وإليه، وهو المتصرف بسننه فيه والحاكم بسلطانه عليه، ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ لا يصر المؤمن المتقي من أهل الدرجة الدنيا على ذنبه وهو يعلم أن اللَّه تعالى نهى عنه وتوعد عليه، ولا يصر كذلك بالأولى صاحب الدرجة العليا، من أهل الإيمان والتقوى، وهو يعلم أن الذنب فسوق عن نظام الفطرة السليمة، واعتداء على قانون الشريعة القويمة، وبعد عن مقام النظام العام الذي يعرج عليه البشر إلى قرب ذي الجلال والإكرام. . .

فالآية هادية إلى أن المتقين الذين أعد اللَّه لهم الجنة لا يصرون على ذنب يرتكبونه صغيرًا كان أو كبيرًا؛ لأن ذكره ﷻ يمنع المؤمن بطبيعته أن يقيم على الذنب. وقد بينا في مواضع كثيرة من التفسير أن الإيمان والعمل بمقتضاه متلازمان. وقد قالوا: إن الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة، وهذا أقل ما يقال فيها، ورُبَّ كبيرة أصابها المؤمن بجهالة وبادر إلى التوبة منها فكانت دائمًا مذكرة له بضعفه البشري وسلطان الغضب أو الشهوة عليه ووجوب مقاومة هذا السلطان،

---

(١) نظم الدرر (٥/ ٧٥).

طلبًا للكمال بالقرب من الرحمن خير من صغيرة يقترفها المرء مستهينًا بها فيصر عليها فتأنس نفسه بالمعصية، وتزول منها هيبة الشريعة، فيتجرأ بعد ذلك على الكبائر فيكون من الهالكين»[١].

وقال القرطبي: «قال علماؤنا: الباعث على التوبة وحل الإصرار إدامة الفكر في كتاب اللَّه العزيز الغفار، وما ذكره اللَّه سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطيعين، وما وصفه من عذاب النار وتهدد به العاصين، ودام على ذلك حتى قوي خوفه ورجاؤه فدعا اللَّه رغبًا ورهبًا، والرغبة والرهبة ثمرة الخوف والرجاء، يخاف من العقاب ويرجو الثواب، واللَّه الموفق للصواب.

وقد قيل: إن الباعث على ذلك تنبيه إلهي ينبه به من أراد سعادته، لقبح الذنوب وضررها إذ هي سموم مهلكة.

قلت: وهذا خلاف في اللفظ لا في المعنى، فإن الإنسان لا يتفكر في وعد اللَّه ووعيده إلا بتنبيهه، فإذا نظر العبد بتوفيق اللَّه تعالى إلى نفسه فوجدها مشحونة بذنوب اكتسبها وسيئات اقترفها، وانبعث منه الندم على ما فرط، وترك مثل ما سبق مخافة عقوبة اللَّه تعالى صدق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك كان مصرًّا على المعصية وملازمًا لأسباب الهلكة.

قال سهل بن عبد الله: علامة التائب أن يشغله الذنب على الطعام والشراب، كالثلاثة الذين خلفوا»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستغفار والتوبة

* عن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني، وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي، اغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**». قال: «**ومن قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح**

---
(١) تفسير المنار (٤/ ١٣٥-١٣٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٣٦).

فهو من أهل الجنة»(١).

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قوله «**سيد الاستغفار**» السيد هنا مستعار من الرئيس المقدم، الذي يصمد إليه في الحوائج، ويرجع إليه في الأمور بهذا الدعاء، الذي هو جامع لمعاني التوبة كلها»(٢).

قوله: «**أبوء لك بذنبي**»، **قال ابن علان**: «ولك أن تقول ليس في هذا إثبات وقوع الذنب منه ﷺ حتى ينافي العصمة، إنما المقصود أنه لكمال فضله وخضوعه لربه يرى ذلك، وكلما كمل الإنسان زاد اتهامه لنفسه، ومثاله في الشاهد أن البريء من الذنب المقرب مثلًا إذا قال للملك: أنا مسيء في حقك، ونحو ذلك عد منه تواضعا، وسببا لترقيه عند ذلك الملك، وليس فيه إثبات للذنب، والله أعلم»(٣).

قال الحافظ: «قال ابن أبي جمرة: جمع ﷺ في هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أنه يسمى سيد الاستغفار، ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية، والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعده به، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وإضافة النعماء إلى موجدها، وإضافة الذنب إلى نفسه، ورغبته في المغفرة واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو»(٤).

وقال العيني: «قوله «**فإنه**»؛ أي: فإن الشأن أنه «**لا يغفر الذنوب إلا أنت**»؛ لأن غفران الذنوب مخصوص لله تعالى»(٥).

* عن علي قال: إني كنت رجلًا إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثًا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني به، وإذا حدثني رجل من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإنه حدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من رجل يذنب ذنبًا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له**». ثم

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٢)، والبخاري (١١/ ١١٧/ ٦٣٠٦)، والترمذي (٥/ ٤٣٦/ ٣٣٩٣)، والنسائي (٨/ ٦٧٤-٦٧٥/ ٥٥٣٧).

(٢) شرح المشكاة (٦/ ١٨٤٤).

(٣) الفتوحات (٣/ ٨١).

(٤) فتح الباري (١١/ ١٢١)، وانظر بهجة النفوس (٤/ ١٩٨).

(٥) العلم الهيب (ص: ١٣١).

قرأ هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١].

★ فوائد الحديث:

قال ابن العربي: «قوله: «**ثم يقوم فيتطهر**» هذه طهارة الظاهر العلانية على طهارة الباطن. وفيه فضل الوضوء والصلاة والاستغفار. وفيه تفسير الآية. وفيه استيفاء وجوه الطاعة في التوبة؛ لأنه ندم فطهر باطنه، ثم توضأ، ثم صلى، ثم استغفر»[٢].

وقال المباركفوري: «والمراد بالاستغفار التوبة بالندامة، والإقلاع والعزم على أن لا يعود إليه أبدًا، وأن يتدارك الحقوق إن كانت»[٣].

* عن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا -وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْبًا- فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ ذنبا - وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ- فَاغْفِرْ. فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا -أَوْ: أَذْنَبَ ذَنْبًا- فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ -أَوْ: أَصَبْتُ- آخَرَ فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا -وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا- فقَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ -أَوْ قَالَ: أَذْنَبْتُ- آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ**»[٤].

* عن عقبة بن عامر الجهني أن رجلًا أتى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول اللَّه أحدنا يذنب قال: «**يكتب عليه**». قال: ثم يستغفر منه ويتوب. قال: «**يغفر له ويتاب عليه**» قال: فيعود فيذنب قال: «**يكتب عليه، ولا يمل اللَّه حتى تملوا**»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٩-١٠)، وأبو داود (٢/ ١٨٠/ ١٥٢١)، والترمذي (٢/ ٢٥٧-٢٥٨/ ٤٠٦) وقال: حديث حسن، لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث عثمان بن المغيرة، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٥/ ١١٠٧٨)، وابن ماجه (١/ ٤٤٦/ ١٣٩٥)، وصححه ابن حبان: الإحسان (٢/ ٣٨٩/ ٦٢٣). من طرق عن عثمان بن المغيرة عن علي بن ربيعة عن أسماء بن الحكم الفزاري عن علي به.

(٢) عارضة الأحوذي (٢/ ١٩٧). (٣) تحفة الأحوذي (٢/ ٣٦٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٦)، والبخاري (١٣/ ٥٧٠-٥٧١/ ٧٥٠٧)، ومسلم (٤/ ٢١١٢/ ٢٧٥٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١١١/ ١٠٢٥٢).

(٥) أخرجه: الطبراني (١٧/ ٢٨٧/ ٧٩١)، والبيهقي: شعب الإيمان (٥/ ٤٠٧/ ٧٠٩٧)، والحاكم (٤/ ٢٥٦-٢٥٧) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. ذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠٠) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناده حسن».

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قلنا: يا رسول اللّه إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا، وكنا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد، قال: «**لو تكونون** -أو قال: **لو أنكم تكونون- على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي، لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم، ولو لم تذنبوا لجاء اللّه بقوم يذنبون كي يغفر لهم**». قال: قلنا: يا رسول اللّه، حدثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «**لبنة ذهب، ولبنة فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه. ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب عز وجل: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**»[1].

★ **غريب الأحاديث:**

رقت: لانت.

الملاط: الطين الذي يجعل بين اللبن لبناء الجدر.

أذفر: الذفر بفتحتين كل ريح ذكية من طيب أونتن، يقال مسك أذفر بين الذفر.

★ **فوائد الأحاديث:**

قال ابن بطال: «الرجل الذي واقع الذنب مرة بعد مرة ثم استغفر ربه ثم غفر له.. فيه دليل على أن المصر في مشيئة اللّه تعالى إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له، مغلبًا لخشيته التي جاء بها وهي اعتقاده، أن له ربًّا خالقًا يعذبه ويغفر له، واستغفاره إياه على ذلك، يدل على ذلك قوله ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[2]، ولا حسنة أعظم من توحيد اللّه، والإقرار بوجوده، والتضرع إليه في المغفرة.

فإن قيل: فإن استغفاره ربه توبة منه، ولم يكن مصرًّا. قيل له: ليس الاستغفار أكثر من طلب غفرانه، وقد يطلبها المصر والتائب، ولا دليل في الحديث على أنه

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٤-٣٠٥)، وابن حبان: الإحسان (١٦/ ٣٩٦/ ٧٣٨٧). وأخرجه مختصرًا ودون ذكر محل الشاهد: الترمذي (٥/ ٥٣٩/ ٣٥٩٨) وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه (١/ ٥٥٧/ ١٧٥٢).

(٢) الأنعام: الآية (١٦٠).

قد كان تاب مما سأل الغفران منه؛ لأن التوبة الرجوع عن الذنب، والعزم على أن لا يعود إلى مثله، والاستغفار لا يفهم منه ذلك، وبالله التوفيق»[١].

وقال القرطبي: «يدل على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله وسعة رحمته، وحلمه وكرمه، ولا شك في أن هذا الاستغفار ليس هو الذي ينطق به اللسان، بل الذي يثبت معناه في الجنان، فيحل به عقد الإصرار، ويندم معه على ما سلف من الأوزار، فإذا الاستغفار ترجمة التوبة، وعبارة عنها».

وقال: «وأما من قال بلسانه: أستغفر الله، وقلبه مصر على معصيته، فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار وصغيرته لاحقة بالكبار، إذ لا صغيرة من إصرار، ولا كبيرة مع استغفار. وفائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب -وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه انضاف إلى الذنب نقض التوبة فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنها انضاف إليها ملازمة في الإلحاح بباب الكريم، وأنه لا غافر للذنوب سواه»[٢].

قال النووي: «لو تكرر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر، وتاب في كل مرة قبلت توبته، وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحد بعد جميعها صحت توبته»[٣].

وقال السندي: «قوله: «**فليعمل ما شاء**»؛ أي: إنه يغفر له ما يعمل ما دام يستغفر، فهذا ترغيب له في الاستغفار وفي الثبات على الرجاء والخوف، لا إذن له في الذنوب، والله تعالى أعلم»[٤].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم**»[٥].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «حاصل هذا الحديث: أن الله تعالى سبق في علمه أنه يخلق من

---

(١) ابن بطال شرح صحيح البخاري (١٠/ ٥٠٣-٥٠٤).
(٢) المفهم (٧/ ٨٥-٨٦).
(٣) شرح مسلم (١٧/ ٦٣).
(٤) حاشية المسند (١٣/ ٣٣٠/ ٣٣١) طبعة الأرنؤوط.
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٩)، ومسلم (٤/ ٢١٠٦/ ٢٧٤٩).

يعصيه فيتوب، فيغفر له، فلو قدر ألا عاصي يظهر في الوجود لذهب اللَّه تعالى بالطائعين إلى جنته، ولخلق من يعصيه فيغفر له، حتى يوجد ما سبق في علمه، ويظهر من مغفرته ما تضمنه اسمه الغفار، ففيه من الفوائد: رجاء مغفرته، والطماعية في سعة رحمته»[(١)].

وقال الطيبي: «لم يرد هذا الحديث مورد تسلية المنهمكين في الذنوب، وقلة احتفال منهم بمواقعة الذنوب، على ما يتوهم الغرة؛ فإن الأنبياء -صلوات اللَّه عليهم- إما بعثوا ليردعوا الناس عن غشيان الذنوب، بل ورد مورد البيان لعفو اللَّه عن المذنبين، وحسن التجاوز عنهم، ليعظموا الرغبة في التوبة والاستغفار. والمعنى المراد من الحديث هو أن اللَّه تعالى كما أحب أن يحسن إلى المحسن، أحب أن يتجاوز عن المسيء، وقد دل على ذلك غير واحد من أسماءه الغفار، الحليم، التواب، العفو، لم يكن ليجعل العباد شأنًا واحدًا كالملائكة مجبولين على التنزه من الذنوب، بل يخلق فيهم من يكون بطبعه ميالًا إلى الهوى، متفتنًا بما يقتضيه، ثم يكلفه التوقي عنه، ويحذره عن مداناته، ويعرفه التوبة بعد الابتلاء، فإن وفى فأجره على اللَّه، وإن أخطأ الطريق فالتوبة بين يديه، فأراد النبي ﷺ: إنكم لو كنتم مجبولين على ما جبلت عليه الملائكة، لجاء اللَّه بقوم يتأتى منه الذنب، فيتحلى عليهم بتلك الصفات على مقتضى الحكمة، فإن الغفار يستدعي مغفورا، كما أن الرزاق يستدعي مرزوقًا»[(٢)].

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ قال وهو على المنبر: **«ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقماع القول، ويل للمصرين الذين يصرون على ما فعلوا وهم يعلمون»**[(٣)].

---

(١) المفهم (٧/ ٨١).

(٢) شرح الطيبي على المشكاة (٦/ ١٨٤٠-١٨٤١).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٥، ٢١٩)، والبخاري: الأدب المفرد (٣٨٠). عن حريز بن عثمان، حدثنا حبان الشرعبي وهو ابن زيد عن عبد اللَّه بن عمرو مرفوعًا. وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٩١) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير حبان بن يزيد الشرعبي، وثقه ابن حبان، ورواه الطبراني كذلك» وذكره أيضا المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٠٨) وقال: «رواه أحمد بإسناد جيد».

★ **غريب الحديث:**

الأقماع: جمع قمع كضلع وهو الإناء التي يترك في رؤوس الظروف لتملأ بالمائعات من الأشربة والأدهان.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن الأثير: «شبه أسماع الذين يستمعون القول ولا يعونه ويحفظونه ويعملون به[(١)] بالأقماع التي لا تعي شيئًا مما يفرغ فيها، فكأنه يمر عليها مجازًا، كما يمر الشراب في الأقماع اجتيازًا»[(٢)].

قال المناوي: «**«واغفروا يغفر لكم»** لأنه ﷻ يحب أسماءه وصفاته التي منها الرحمة والعفو، ويحب من خلقه من تخلق بها»[(٣)].

* عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، فتحت له ثمانية أبواب الجنة يدخل من أيها شاء**»[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «وفي هذا الحديث ما يدل على أن الذكر بعد الوضوء فضيلة من فضائله. وعلى أن أبواب الجنة الثمانية لا غير. وعلى أن داخل الجنة يخير في أي الأبواب شاء»[(٥)].

---

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: ولا يعملون به.

(٢) النهاية (٤/ ١٠٩). (٣) الفيض (١/ ٤٧٤).

(٤) أخرجه: الترمذي (١/ ٧٧/ ٥٥)، والنسائي (١/ ١٠٠/ ١٤٨)، وابن ماجه (١/ ١٥٩/ ٤٧٠) قال الترمذي: «هذا حديث في إسناده اضطراب ولا يصح عن النبيﷺ في هذا الباب كبير شيء. وتعقبه الحافظ في التلخيص (١/ ١٠١) فقال: لكن رواية مسلم سالمة من هذا الاعتراض. وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على سنن الترمذي (١/ ٧٩): وقد أخطأ الترمذي فيما زعم من اضطراب الإسناد لهذا الحديث ومن أنه لا يصح في الباب كبير شيء. وأصل الحديث صحيح مستقيم الإسناد، وإنما جاء الاضطراب في الأسانيد التي نقلها الترمذي منه أو ممن حدثه بها. وأخرجه مطولًا: أحمد (٤/ ١٤٥-١٤٦)، ومسلم (١/ ٢٠٩/ ٢٣٤)، وأبو داود (١/ ١١٨/ ١٦٩). من طرق عن عمر رضي الله عنه به.

(٥) المفهم (١/ ٤٩٥).

وقال المباركفوري: «قوله: «**اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين**» جمع بينهما إلمامًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(١)، ولما كانت التوبة طهارة الباطن عن أدران الذنوب، والوضوء طهارة الظاهر عن الأحداث المانعة عن التقرب إليه تعالى، ناسب الجمع بينهما»(٢).

* عن ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ عَطَاءَ بْنَ يَزِيدَ أَخْبَرَهُ أَنَّ حُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ رَأَى عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ دَعَا بِإِنَاءٍ فَأَفْرَغَ عَلَى كَفَّيْهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ فَغَسَلَهُمَا، ثُمَّ أَدْخَلَ يَمِينَهُ فِي الْإِنَاءِ فَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثًا وَيَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ ثَلَاثَ مِرَارٍ، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَيْهِ ثَلَاثَ مِرَارٍ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «**مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٣).

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله: «**من ذنبه**» ظاهره يعم الكبائر والصغائر، لكن العلماء خصوه بالصغائر لوروده مقيدا باستثناء الكبائر في غير هذه الرواية، وهو في حق من له كبائر وصغائر، فمن ليس له إلا صغائر كفرت عنه، ومن ليس له إلا كبائر خفف عنه منها بمقدار ما لصاحب الصغائر، ومن ليس له كبائر ولا صغائر يزداد في حسناته بنظير ذلك»(٤).

قال ابن بطال: «قال المهلب: وفيه أن الإخلاص لله في العبادة، وترك الشغل بأسباب الدنيا، يوجب الله عليه الغفران ويتقبله من عبده، وإذا صح هذا وجب أن يكون من لها في صلاته عما هو فيه وشغل نفسه بالأماني، فقد أتلف أجر عمله، وقد وبخ الله بذلك أقوامًا فقال: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾(٥)»(٦).

* * *

(١) البقرة: الآية (٢٢٢). (٢) تحفة الأحوذي (١/ ١٥٠).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٥٩)، والبخاري (١/ ٣٤٤/ ١٥٩)، ومسلم (١/ ٢٠٤-٢٠٥/ ٢٢٦)، وأبو داود (١/ ٧٨-٧٩/ ١٠٦)، والنسائي (١/ ٦٨-٦٩/ ٨٤).

(٤) فتح الباري (١/ ٣٤٦). (٥) الأنبياء: الآية (٣).

(٦) شرح ابن بطال (١/ ٢٥٠).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني تعالى بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين ذكر أنه أعد لهم الجنة التي عرضها السموات والأرض من المتقين، ووصفهم بما وصفهم به، ثم قال: هؤلاء الذين هذه صفتهم ﴿جَزَآؤُهُم﴾؛ يعني: ثوابهم من أعمالهم التي وصفهم -تعالى ذكره- أنهم عملوها ﴿مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ يقول: عفو لهم من اللَّه عن عقوبتهم على ما سلف من ذنوبهم، ولهم على ما أطاعوا اللَّه فيه من أعمالهم بالحسن منها ﴿جَنَّاتٌ﴾ وهي البساتين ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يقول: تجري خلال أشجارها الأنهار، وفي أسافلها جزاء لهم على صالح أعمالهم، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾؛ يعني: دائمي المقام في هذه الجنات التي وصفها، ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾؛ يعني: ونعم جزاء العاملين لله الجنات التي وصفها»[(١)].

قال البقاعي: «ولما أتم وصف السابقين؛ وهم المتقون، واللاحقين؛ وهم التائبون، قال -معلمًا بجزائهم الذي سارعوا إليه من المغفرة والجنة، مشيرًا إليهم بأداة البعد، تعظيما لشأنهم على وجه معلم بأن أحدًا لا يقدر أن يقدر اللَّه حق قدره-: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: العالو الرتبة ﴿جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾؛ أي: لتقصيرهم أو لهفواتهم أو لذنوبهم، وعظمها بقوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ﴾؛ أي: المحسن إليهم بكل إحسان، وأتبع ذلك للإكرام فقال: ﴿وَجَنَّٰتٞ﴾؛ أي: جنات ثم بين عظمها بقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ حال كونكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ هي أجرهم على عملهم ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ هي، هذا على تقدير أن تكون الإشارة لجميع الموصوفين، وإن كانت للمستغفرين خاصة فالأمر واضح في نزول رتبتهم عمن قبلهم»[(٢)].

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٢٧ شاكر).

(٢) نظم الدرر (٥/ ٧٥).

وقال محمد رشيد رضا: «وأما قوله ﷻ ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ فهو نص في أن هذا الجزاء إنما هو على تلك الأعمال التي منها ما هو إصلاح لحال الأمة كإنفاق المال، ومنها ما هو إصلاح لنفس العامل، وكلها مما يرقي النفس البشرية، حتى تكون أهلا لتلك المراتب العلية؛ أي: ونعم ذلك الجزاء الذي ذكر من المغفرة والجنات أجرا للعاملين تلك الأعمال البدنية كالإنفاق والنفسية كعدم الإضرار، وإن كانوا يتفاوتون فيه لتفاوتهم في التقوى والأعمال»[١].

* * *

(١) تفسير المنار (٤/ ١٣٧).

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

خلت: من خلا يخلو؛ أي: مضى وسلف.

سنن: جمع سنة وهي الطريقة.

عاقبة: يقال: عاقبه، وعقبه تعقيبًا، وعاقبة كل شيء: آخره، وكل شيء جاء بعد شيء فقد عاقبه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الطبري: «يعني بقوله -تعالى ذكره-: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ مضت وسلفت مني فيمن كان قبلكم يا معشر أصحاب محمد وأهل الإيمان به، من نحو قوم عاد، وثمود، وقوم هود، وقوم لوط، وغيرهم من سلاف الأمم قبلكم ﴿سُنَنٌ﴾؛ يعني: مثلات سير بها فيهم وفيمن كذبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم، بإمهالي أهل التكذيب بهم، واستدراجي إياهم، حتى بلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجلته لإدالة أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحللت بهم عقوبتي، ونزلت بساحتهم نقمي، فتركتهم لمن بعدهم أمثالًا وعبرًا. ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول: فسيروا أيها الظانون أن إدالتي من أدلت من أهل الشرك يوم أحد على محمد وأصحابه لغير استدراج مني لمن أشرك بي، وكفر برسلي، وخالف أمري في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم، ممن كان على مثل الذي عليه هؤلاء المكذبون برسولي، والجاحدون وحدانيتي، فانظروا كيف كان عاقبة تكذيبهم أنبيائي، وما الذي آل إليه غب خلافهم أمري، وإنكارهم وحدانيتي، فتعلموا عند ذلك أن إدالتي من أدلت من المشركين على نبيي محمد وأصحابه بأحد إنما هي استدراج وإمهال، ليبلغ الكتاب أجله الذي أجلت لهم، ثم إما أن يؤول حالهم إلى مثل ما آل إليه حال الأمم الذين سلفوا قبلهم من تعجيل العقوبة عليهم،

أو ينيبوا إلى طاعتي واتباع رسولي»[١].

وقال ابن كثير: «يقول تعالى مخاطبا عباده المؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد، وقتل منهم سبعون ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾؛ أي: قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء، ثم كانت العاقبة لهم والدائرة على الكافرين. ولهذا قال تعالى: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾»[٢].

وقال السعدي: «هذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة أحد يعزي تعالى عباده المؤمنين ويسليهم، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين فلم يزالوا في مداولة ومجاولة حتى جعل اللّه العاقبة للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين. وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين، وخذلهم اللّه بنصر رسله وأتباعهم.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية. قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم، وزال بذخهم وفخرهم. أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد، على صدق ما جاءت به الرسل»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «جاء ذكر السنن الإلهية في مواضع من الكتاب العزيز كقوله في سياق أحكام القتال وما كان في وقعة بدر ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾[٤] وقوله في سياق أحوال الأمم مع أنبيائهم ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾[٥] وقوله في سياق دعوة الإسلام ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾[٦] وقوله في مثل هذا السياق ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾[٧] وصرح في سور أخرى كما صرح هنا بأن سننه لا تتبدل ولا تتحول كسورة بني إسرائيل وسورة الأحزاب وسورة الفتح.

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٢٨-٢٢٩ شاكر).
(٢) التفسير (٢/ ١٠٧).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٢٥).
(٤) الأنفال: الآية (٣٨).
(٥) الحجر: الآية (١٣).
(٦) الكهف: الآية (٥٥).
(٧) فاطر: الآية (٤٣).

هذا إرشاد إلهي لم يعهد في كتاب سماوي، ولعله أرجئ إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده الاجتماعي، فلم يرد إلا في القرآن الذي ختم اللَّه به الأديان، كان الملِّيون من جميع الأجيال يعتقدون أن أفعال اللَّه تعالى في خلقه تشبه أفعال الحاكم المستبد في حكومته، المطلق في سلطته، فهو يحابي بعض الناس فيتجاوز لهم عما يعاقب لأجله غيرهم، ويثيبهم على العمل الذي لا يقبله من سواهم لمجرد دخولهم في عنوان معين، وانتمائهم إلى نبي مرسل، وينتقم من بعض الناس لأنهم لم يطلق عليهم ذلك العنوان، أو لم يتفق لهم الانتماء إلى ذلك الإنسان.

هذا ما كانوا يظنون في دينهم ويسندونه إلى مشيئة اللَّه المطلقة، من غير تفكر في حكمته البالغة، وتطبيقها على سننه العادلة، فإن نبههم منبه إلى ما يصيبهم بل ما أصاب أنبياءهم من البلاء قالوا: إنه تعالى يفعل ما يشاء، وذلك رفع درجات، أو تكفير للسيئات، وأشباه هذا الكلام الذي يشتبه عليهم حقه بباطله، ويلتبس حاليه بعاطله، وقد كان وما زال علة غرور أصحابه بدينهم، واحتقارهم لكل ما عليه غيرهم، فجاء القرآن يبين للناس أن مشيئة اللَّه تعالى في خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة، وطرائق قويمة، فمن سار على سننه في الحرب (مثلًا) ظفر بمشيئة اللَّه وإن كان ملحدا أو وثنيا، ومن تنكبها خسر وإن كان صدّيقا أو نبيا، وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في وقعة أحد حتى وصل المشركون إلى النبي ﷺ فشجوا رأسه، وكسروا سنه، وردَّوه في تلك الحفرة، كما بينا ذلك في تفسير الآيات السابقة، وسيأتي بسطه في الآيات اللاحقة، ولكن المؤمنين الصادقين أجدر الناس بمعرفة سنن اللَّه تعالى في الأمم، وأحق الناس بالسير على طريقها الأمم، لذلك لم يلبث أصحاب النبي ﷺ أن ثابوا يومئذ إلى رشدهم، وتراجعوا إلى الدفاع عن نبيهم، وثبتوا حتى انجلى عنهم المشركون، ولم ينالوا منهم ما كانوا يقصدون.

وكأن بعض المسلمين لم يكونوا قد حفظوا ما ورد في السور المكية من إثبات سنن اللَّه في خلقه وكونها لا تتبدل ولا تتحول كسورة الحجر وبني إسرائيل والكهف والملائكة (أو فاطر) وهي التي ذكرنا بعضها آنفًا وأشرنا إلى بعض أو حفظوه ولم يفقهوه ولم يظهر لهم انطباقه على ما وقع لهم في أحد كما يعلم من قوله الآتي: ﴿أَوَ

لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾[١] لذلك صرح لهم في بدء الآيات التي تبين لهم سننه أن له سننًا عامة جرى عليها نظام الأمم من قبل وأن ما وقع لهم مما يقص حكمته عليهم هو مطابق لتلك السنن التي لا تتحول ولا تتبدل.

ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما ينسى أو يقل الاعتبار به نبههم على هذا التطبيق في أنفسهم وأرشدهم إلى تطبيقه على أحوال الأمم الأخرى فقال: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[٢].

قال الأستاذ الإمام: أي: إن المصارعة بين الحق والباطل قد وقعت من الأمم الماضية، وكان أهل الحق يغلبون أهل الباطل، وينصرون عليهم بالصبر والتقوى (أي: اتقاء ما يجب اتقاؤه في الحرب بحسب الزمان والمكان ودرجة استعداد الأعداء) وكان ذلك يجري بأسباب مطردة، وعلى طرائق مستقيمة، يعلم منها أن صاحب الحق إذا حافظ عليه ينصر ويرث الأرض، وأن من ينحرف عنه ويعيث في الأرض فسادا يخذل وتكون عاقبته الدمار، فسيروا في الأرض واستقروا ما حل بالأمم ليحصل لكم العلم الصحيح التفصيلي بذلك وهو الذي يحصل به اليقين ويترتب عليه العمل. وقال بعض المفسرين: أي: لم تصدقوا فسيروا. وهذا قول باطل.

قال: والسير في الأرض والبحث من أحوال الماضين، وتعرف ما حل بهم هو الذي يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغي.

نعم إن النظر في التاريخ الذي يشرح ما عرفه الذين ساروا في الأرض، ورأوا آثار الذين خلوا يعطي الإنسان من معرفة ما يهديه إلى تلك السنن، ويفيده عظة واعتبارا، ولكن دون اعتبار الذي يسير في الأرض بنفسه ويرى الآثار بعينه، ولذلك أمر بالسير والنظر»[٣].

قلت: اتفقت كلمة المفسرين على تحقق سنن اللّه في الظالمين المعتدين، الذين عتوا في الأرض فسادًا، وعارضوا دعوات الأنبياء بأهوائهم وشهواتهم وعقولهم

---

(١) آل عمران: الآية (١٦٥).
(٢) آل عمران: الآية (١٣٧).
(٣) تفسير المنار (٤/ ١٤٠-١٤٢).

وأذواقهم وعاداتهم وسنن أجدادهم وأوطانهم، وردوا كل ما جاؤوهم به من الحق، وسنوا لأنفسهم قوانين وطرقًا تخالف طريق الأنبياء، فكان فيهم ما كان من انهيار ودمار وخراب ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[١].

هذا وإنا قد شاهدنا وسمعنا أممًا زعمت لنفسها الحضارة والتقدم وبلغت في السلاح الفتاك مبلغًا ونشرت الإلحاد في الأرض، وقالت: (إن الدين أفيون الشعوب، وإنه لا إله والحياة مادة)، فأصبحت كالأمس الذاهب ولم يبق من ذكرها إلا الاسم، وكل ذيولها في العالم الشرقي والغربي انهارت وما زالت شعوبها تعاني من آثار فتنها، وما وقع في العراق من بحار الدم وفي لبنان كل ذلك من آثار هذه الفتن التي زعمتها دول لنفسها، وهكذا تجد كل من نصب نفسه حربًا على اللَّه ودينه ورسوله وقرآنه يلقى جزاءه فردًا وجماعة. وكم رأينا من العجائب في ذلك مما لا يحصى، فصدق اللَّه العظيم في هذا الخطاب الكريم، ولله در هؤلاء العلماء على هذا التوضيح الحسن، فرحمة اللَّه عليهم جميعًا، وجعلنا ممن اعتبر وأطاع نبيه وآمن بالقضاء والقدر.

* * *

---

(١) الحج: الآيات (٤٦-٤٨).

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ١٣٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يعني: القرآن فيه بيان للأمور على جليتها، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم»(١).

وقال ابن عطية: «كونه بيانا للناس ظاهر، وهو في ذاته أيضًا هدى منصوب وموعظة، لكن من عمي بالكفر وضل وقسا قلبه لا يحسب أن يضاف إليه القرآن، وتحسن إضافته إلى (المتقين) الذين فيهم نفع وإياهم هدى»(٢).

وقال ابن جرير: «﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى ما تقدم هذه الآية من تذكير اللَّه -جل ثناؤه- المؤمنين، وتعريفهم حدوده، وحضهم على لزوم طاعته، والصبر على جهاد أعدائه وأعدائهم؛ لأن قوله: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى حاضر: إما مرئي، وإما مسموع، وهو في هذا الموضع إلى حاضر مسموع من الآيات المتقدمة.

فمعنى الكلام: هذا الذي أوضحت لكم وعرفتكموه بيان للناس؛ يعني: بالبيان الشرح والتفسير»(٣).

وقال محمد رشيد رضا: «وأقول: إيضاح النكتة في جعل البيان للناس كافة والهدى والموعظة للمتقين خاصة هو بيان أن الإرشاد عام، وأن جريان الأمور على السنن المطردة حجة على جميع الناس مؤمنهم وكافرهم تقيهم وفاجرهم، فهي تدحض ما وقع للمشركين والمنافقين من الشبهة على الإسلام، إذ قالوا: لو كان محمد ﷺ رسولا من عند اللَّه لما نيل منه. فكأنه يقول لهم: إن سنن اللَّه حاكمة على رسوله وأنبيائه كما هي حاكمة على سائر خلقه. فما من قائد عسكر يكون في الحالة التي كان عليها المسلمون في أحد ويعمل ما عملوا إلا وينال منه؛ أي: لا يخالفه جنده، ويتركون حماية الثغر الذي يؤثرون من قبله، ويخلون بين عدوهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٠٧).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٥١٢)

(٣) جامع البيان (٧/ ٢٣٢ شاكر).

وبين ظهورهم، وما يعبر عنه بخط الرجعة من مواقعهم، والعدو مشرف عليهم، إلا ويكونون عرضة للانكسار إذا هو كر عليهم من ورائهم، لاسيما إذا كان ذلك بعد فشل وتنازع كما يأتي بيانه. فما ذكر من أن لله تعالى سننًا في الأمم هو بيان لجميع الناس لاستعداد كل عاقل لفهمه، واضطراره إلى قبول الحجة المؤلفة منه، إلا أن يترك النظر أو يكابر ويعاند.

وأما كونه هدى وموعظة للمتقين خاصة فهو أنهم هم الذين يهتدون بمثل هذه الحقيقة، ويتعظون بما ينطق عليها من الوقائع فيستقيمون على الطريقة، هم الذين تكمل لهم الفائدة والموعظة؛ لأنهم يتجنبون ويتقون نتائج الإهمال التي يظهر لهم أن عاقبتها ضارة. فليزن مسلمو هذا الزمان إيمانهم وإسلامهم بهذه الآيات، ولينظروا أين مكانهم من هدايتها، وما هو حظهم من موعظتها؟.

أما أنهم لو فعلو فبدأوا بالسير في الأرض لمعرفة أحوال الأمم البائدة وأسباب هلاكها، ثم اعتبروا بحال الأمم القائمة، وبحثوا عن أسباب عزها وثباتها، لعلموا أنهم أمسوا من أجهل الناس بسنن اللَّه، وأبعدهم عن معرفة أحوال خلق اللَّه، ولرأوا أن غيرهم أكثر منهم سيرا في الأرض، وأشد منهم استنباطا لسنن الاجتماع، وأعرق منهم في الاعتبار بما أصاب الأولين، والاتعاظ بجهل المعاصرين، فهل يليق بمن هذا كتابهم أن يكون من يَسِمونه بسمة العداوة له أقرب إلى هدايته هذه منهم؟؟

كلا إن المؤمن بهذا الكتاب هو من يهتدي به، ويتعظ بمواعظه، ولذلك جعل الهداية والموعظة من شؤون المتقين الثابتة لهم. والمتقون هم المؤمنون القائمون بحقوق الإيمان كما قال في أول سورة البقرة ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾[1] إلخ وقد مر وصف المتقين، وذكر جزائهم في الآيات التي قبل هاتين الآيتين. وهذا التعبير أبلغ من الأمر بالهدى والموعظة، وهو يتضمن الأمر بالثبات فيه والحث على المحافظة عليه؛ لأنه قوام التقوى التي هي قوام الإيمان»[2].

---

(١) البقرة: الآيتان (٢و٣).

(٢) تفسير المنار (٤/ ١٤٣-١٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تهنوا: من الوهن وهو الضعف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وهذا من اللَّه -تعالى ذكره- تعزية لأصحاب رسول اللَّه ﷺ على ما أصابهم من الجراح والقتل بأحد، قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ يا أصحاب محمد؛ يعني: ولا تضعفوا بالذي نالكم من عدوكم بأحد من القتل والقروح، عن جهاد عدوكم وحربهم، من قول القائل: وهن فلان في هذا الأمر فهو يهن وهنا. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ ولا تأسوا فتجزعوا على ما أصابكم من المصيبة يومئذ فإنكم، ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾؛ يعني: الظاهرون عليهم، ولكم العقبى في الظفر والنصرة عليهم، يقول: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول: إن كنتم مصدقي نبيي محمد ﷺ فيما يعدكم، وفيما ينبئكم من الخبر عما يؤول إليه أمركم وأمرهم»[1].

قال ابن عطية: «نهى ﷻ المؤمنين عن الوهن لما أصابهم بأحد، والحزن على من فقد، وعلى مذمة الهزيمة، وآنسهم بأنهم ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أصحاب العاقبة. ومن كرم الخلق ألا يهن الإنسان في حربه وخصامه، ولا يلين إذا كان محقًّا، وأن يتقصى جميع قدرته ولا يضرع ولو مات، وإنما يحسن اللين في السلم والرضى»[2].

قال السعدي: «يقول تعالى مشجعًا لعباده المؤمنين، ومقويًا لعزائمهم، ومنهضًا لهممهم: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾؛ أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتم بهذه البلوى. فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وأعون لعدوكم عليكم. بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن، وتصلبوا على قتال عدوكم.

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٣٤ شاكر).
(٢) المحرر الوجيز (١/ ٥١٢).

وذكر تعالى أنه لا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر اللَّه وثوابه. فالمؤمن المبتغي ما وعده اللَّه من الثواب الدنيوي والأخروي لا ينبغي له ذلك ولهذا قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾»[1].

قال القرطبي: «في هذه الآية بيان فضل هذه الأمة؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه؛ لأنه قال لموسى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2] وقال لهذه الأمة: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾. وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى فهو سبحانه العلي، وقال للمؤمنين: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾»[3].

وقال محمد رشيد رضا: «ويصح أن يكون هذا النهي إنشاء بمعنى الخبر أي إن ما أصابكم من القرح في أحد ليس مما ينبغي أن يكون موهنا لأمركم ومضعفا لكم في عملكم ولا موجبا لحزنكم وانكسار قلوبكم، فإنه لم يكن نصرا تاما للمشركين عليكم، وإنما هو تربية لكم على ما وقع منكم من مخالفة قائدكم ﷺ في تدبيره الحربي المحكم، وفشلكم وتنازعكم في الأمر، وذلك خروج عن سنة اللَّه في أسباب الظفر، وبهذه التربية تكونوا أحقاء بأن لا تعودوا إلى مثل تلك الذنوب فتكون التربية خيرًا لكم من عدمها؛ بل يجب أن تزيدكم المصائب قوة وثباتا بما تربيكم على اتباع سنن اللَّه في الحزم والبصيرة، وإحكام العزيمة، واستيفاء الأسباب في القتال وغيره، وأن تعلموا أن الذين قتلوا منكم شهداء، وذلك ما كنتم تتمنونه، فتذكره مما يذهب بالحزن من نفس المؤمن. (وهاتان العلتان قد ذكرتا في الآية التي بعد هذه). وكيف تهنون وتحزنون وأنتم الأعلون بمقتضى سنن اللَّه تعالى في جعل العاقبة للمتقين (الذين يتقون الحيدان عن سنن) وفي نصر من ينصره ويتبع سننه بإحقاق الحق وإقامة العدل، والمؤمنون أجدر بذلك من الكافرين الذين يقاتلون لمحض البغي والانتقام، أو الطمع فيما في أيدي الناس، فهمة الكافرين تكون على قدر ما يرمون إليه من الغرض الخسيس، وما يطلبونه من العرض القريب، فهي لا تكون كهمة المؤمن الذي غرضه إقامة الحق والعدل في الدنيا، والسعادة الباقية في الآخرة؛ أي: إن كنتم مؤمنين بصدق وعد اللَّه بنصر من ينصره

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٢٦).

(٢) طه: الآية (٦٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٤٠).

وجعل العاقبة للمتقين المتبعين لسننه في نظام الاجتماع بحيث صار هذا الإيمان وصفًا ثابتًا لكم حاكمًا في ضمائركم وأعمالكم، فأنتم الأعلون وإن أصابكم ما أصابكم، وإذا كان الأمر كذلك فلا تهنوا ولا تحزنوا فإن ما أصابكم يعدكم للتقوى فتستحقون تلك العاقبة وهي علو السيادة عليهم. وقيل: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ متعلق بالنهي وجملة ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ حال معترضة؛ أي: فلا تضعفوا ولا تحزنوا إن كنتم مؤمنين؛ لأن من مقتضى الإيمان الصبر والثبات والرغبة في إحدى الحسنيين الظفر أو الشهادة- على أن مجموع الأمة موعود بالحسنيين جميعًا..

وقد يقال هنا: لماذا نهاهم عن الوهن بما عرض لهم، والحزن على ما فقدوا في أحد، وكل من الوهن والحزن كان قد وقع وهو أمر طبيعي في مثل الحال التي كانوا عليها؟ والجواب: أن المراد بالنهي ما يمكن أن يتعلق به الكسب من معالجة وجدان النفس بالعمل ولو تكلفًا. كأنه يقول: انظروا في سنن من قبلكم تجدوا أنه ما اجتمع قوم على حق، وأحكموا أمرهم، وأخذوا أهبتهم، وأعدوا لكل أمر عدته، ولم يظلموا أنفسهم في العمل لنصرته إلا وظفروا بما طلبوا، وعوضوا مما خسروا، فحولوا وجوهكم عن جهة ما خسرتم، وولوها جهة ما يستقبلكم، وانهضوا به بالعزيمة والحزم، مع التوكل على الله ﷻ، والحزن إنما يكون على فقد مالا عوض منه وإن لكم خير عوض مما فقدتم، وأنتم الأعلون برجحانكم عليهم في مجموع الوقعتين بدر وأحد- إذ الذين قتلوا منهم أكثر من الذين قتلوا منكم، على كثرتهم وقلتكم، أو جملة وأنتم الأعلون معترضة يراد بها التبشير بما يكون في المستقبل من النصر. وهما قولان للمفسرين. وسواء كانت للتسلية أو للبشارة فهي مرتبطة بالإيمان الصحيح الذي لا شائبة فيه، فإن من اخترق هذا الإيمان فؤاده وتمكن من سويدائه يكون على يقين من العاقبة، بعد الثقة من مراعاة السنن العامة، والأسباب المطردة، ولذلك قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ ومثل هذا الشرط كثير في القرآن، وهو ليس للشك، وإنما يراد به تنبيه المؤمن إلى حاله، ومحاسبة نفسه على أعماله»[(١)].

* * *

(١) تفسير المنار (٤/ ١٤٤-١٤٦).

قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قرح: الجراح وألمها.

نداولها: من المداولة وهي المناوبة على الشيء والمعاودة، وتعهده مرة بعد أخرى.

يمحص: من المحص وهو تخليص الشيء مما فيه من عيب، يقال محصت الذهب ومحصته إذا أزلت عنه ما يشوبه من خبث.

يمحق: المحق النقصان، يقال محقه: إذا نقصه وأذهب بركته. والمعنى هنا: استأصلهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن هذا من تمام قوله ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾، فبين تعالى أن الذي يصيبهم من القرح لا يجب أن يزيل جدهم واجتهادهم في جهاد العدو، وذلك لأنه كما أصابهم فقد أصاب عدوهم مثله قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم، وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى»[١].

قال الشنقيطي: «المراد بالقرح الذي مس المسلمين هو ما أصابهم يوم أحد من القتل والجرح، كما أشار له تعالى في هذه السورة الكريمة في مواضع متعددة كقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[٢]، وقوله

(١) تفسير الرازي (٩/ ١٦).

(٢) آل عمران: الآية (١٤٣).

﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾[(١)] الآية، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ﴾[(٢)]، وقوله: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[(٣)]، ونحو ذلك من الآيات.

وأما المراد بالقرح الذي مسّ القوم المشركين فيحتمل أنه هو ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر، وعليه فإليه الإشارة بقوله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[(٤)]. ويحتمل أيضًا أنه هزيمة المشركين أولا يوم أحد»[(٥)].

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، أيام بدر وأحد ويعني بقوله: ﴿نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ نجعلها دولا بين الناس مصرفة ويعني بـ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ المسلمين والمشركين، وذلك أن اللَّه ﷻ أدال المسلمين من المشركين ببدر، فقتلوا منهم سبعين، وأسروا سبعين، وأدال المشركين من المسلمين بأحد، فقتلوا منهم سبعين، سوى من جرحوا منهم»[(٦)].

قال ابن القيم: «ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عرض حاضر، يقسمها دولًا بين أوليائه وأعدائه بخلاف الآخرة، فإن عزها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا»[(٧)].

وقال محمد رشيد رضا: «قال الأستاذ الإمام: هذه قاعدة كقاعدة (قد خلت من قبلكم سنن) أي هذه سنة من تلك السنن، وهي ظاهرة بين الناس بصرف النظر عن المحقين والمبطلين، والمداولة في الواقع تكون مبنية على أعمال الناس فلا تكون الدولة لفريق دون آخر جزافًا وإنما تكون لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها. أي إذا علمتم أن ذلك سنة فعليكم أن لا تهنوا وتضعفوا بما أصابكم لأنكم تعلمون

---

(١) آل عمران: الآية (١٤٠).
(٢) آل عمران: الآية (١٥٢).
(٣) آل عمران: الآية (١٥٣).
(٤) الأنفال: الآيتان (١٢-١٣).
(٥) أضواء البيان (١/ ٢٠٧-٢٠٨).
(٦) جامع البيان (٧/ ٢٣٩ شاكر).
(٧) زاد المعاد (٣/ ٢٢٢).

أن الدولة تدول. والعبارة تومئ إلى شيء مطوي كان معلومًا لهم وهو أن لكل دولة سبب، فكأنه قال: إذا كانت المداولة منوطة بالأعمال التي تفضي إليها كالاجتماع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة وأخذ الأهبة وإعداد ما يستطاع من القوة فعليكم أن تقوموا بهذه الأعمال وتحكموها أتم الإحكام. وفي الجملة من الإيجاز وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ما لا يعهد مثله في غير القرآن»[(١)].

قال القرطبي: «معناه: وإنما كانت هذه المداولة ليرى المؤمن من المنافق فيميز بعضهم من بعض، كما قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾[(٢)]. وقيل: ليعلم صبر المؤمنين»[(٣)].

وقال السعدي: «هذا أيضًا من الحكم أنه يبتلي اللَّه عباده بالهزيمة والابتلاء، ليتبين المؤمن من المنافق؛ لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريده. فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء، تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام في الضراء والسراء، واليسر والعسر، ممن ليس كذلك»[(٤)].

قال ابن جرير: «﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾ فإنه؛ يعني: وليعلم اللَّه الذين آمنوا، وليتخذ منكم شهداء؛ أي: ليكرم منكم بالشهادة من أراد أن يكرمه بها»[(٥)].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ﴾ أي: يكرمكم بالشهادة؛ أي: ليقتل قوم فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم. وقيل: لهذا قيل شهيد. وقيل: سمي شهيدا لأنه مشهود له بالجنة. وقيل: سمي شهيدًا؛ لأن أرواحهم احتضرت دار السلام؛ لأنهم أحياء عند ربهم، وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة؛ فالشهيد بمعنىالشاهد أي الحاضر للجنة، وهذا هو الصحيح على ما يأتي. والشهادة فضلها عظيم، ويكفيك في فضلها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾[(٦)] الآية، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[(٧)]»[(٨)].

---

(١) تفسير المنار (٤/ ١٤٧-١٤٨).
(٢) آل عمران: الآيتان (١٦٦-١٦٧).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٤٠).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٢٧).
(٥) جامع البيان (٧/ ٢٤٣ شاكر).
(٦) التوبة: الآية (١١١).
(٧) الصف الآيات (١٠-١٢).
(٨) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٤٠-١٤١).

قال السعدي: «﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾: وهذا أيضًا من بعض الحكم؛ لأن الشهادة عند اللَّه من أرفع المنازل، ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها. فهذا من رحمته بعباده المؤمنين أن قيض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس لينيلهم ما يحبون من المنازل العالية، والنعيم المقيم»(١).

قال ابن القيم: «وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تنبيه لطيف الموقع جدًّا على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخذلوا عن نبيه يوم أحد، فلم يشهدوه، ولم يتخذ منهم شهداء؛ لأنه لم يحبهم، فأركسهم وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحزبه»(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جملة معترضة مسوقة لبيان أن الشهداء يكونون ممن خلصوا لله وأخلصوا في إيمانهم وأعمالهم فلم يظلموا أنفسهم بمخالفة الأمر أو النهي، ولا بالخروج عن سنن اللَّه في الخلق، وأنه تعالى لا يصطفي للشهادة الظالمين ما داموا على ظلمهم، وفي ذلك بشارة للمتقين، وإنذار للمقصرين، فالناس قبل الابتلاء بالمحن والفتن يكونون سواء فإذا ابتلوا تبين المخلص والصادق، والظالم والنافق، وما أسهل ادعاء الإخلاص والصدق إذا كانت آياتهما مجهولة. فبيان السبب مؤدب للمقصرين، وقاطع لألسنة المدعين، إلا أن يكونوا مع الأغبياء الجاهلين»(٣).

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وليختبر اللَّه الذين صدقوا اللَّه ورسوله فيبتليهم بإدالة المشركين منهم حتى يتبين المؤمن منهم المخلص الصحيح الإيمان من المنافق»(٤).

قال ابن القيم: «ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم؛ وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب، ومن آفات النفوس، وأيضًا فإنه خلصهم ومحصهم من المنافقين، فتميزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم، وهو عدوهم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٢٧-٤٢٨).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٢٣).
(٣) تفسير المنار (٤/ ١٥٠-١٥١).
(٤) جامع البيان (٧/ ٢٤٤ شاكر).

ثم ذكر حكمة أخرى وهي محق الكافرين بطغيانهم وبغيهم وعدوانهم»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «كل إنسان يحكم لنفسه في نفسه بأمور كثيرة يصدقه فيها الحق الواقع أو يكذبه، فالمعتقد حقية الدين قد يتصور وقت الرخاء أنه يسهل عليه بذل ماله ونفسه في سبيل اللَّه ليحفظ شرف دينه ويدفع عنه كيد المعتدين، فإذا جاء البأس ظهر له من نفسه خلاف ما كان يتصور..

فالإنسان يلتبس عليه أمر نفسه فلا يتجلى كمال التجلي إلا بالتجارب الكثيرة والامتحان بالشدائد العظيمة، فالتجارب والشدائد كتمحيص الذهب يظهر به زيفه ونضاره. ثم إنها أيضًا تنفي خبثه وزغله. كذلك كان الأمر في أحد: تميز المؤمنون الصادقون من المنافقين، وتطهرت نفوس بعض ضعفاء المؤمنين من كدورتها فصارت تبرًا خالصًا، وهؤلاء هم الذين خالفوا أمر النبي ﷺ، وطمعوا في الغنيمة، والذين انهزموا وولوا وهم مدبرون، محص الجميع بتلك الشدة فعلموا أن المسلم ما خلق ليلهو ويلعب، ولا ليكسل ويتواكل، ولا لينال الظفر والسيادة بخوارق العادات، وتبديل سنن اللَّه في المخلوقات؛ بل خلق ليكون أكثر الناس جدا في العمل، وأشدهم محافظة على النواميس والسنن.

أقول: وقد تجلى أثر هذا التمحيص أكمل التجلي في غزوة حمراء الأسد، إذ أمر النبي ﷺ أن لا يتبع المشركين فيها إلا من شهد القتال بأحد فامتثلوا الأمر بقلوب مطمئنة، وعزائم شديدة، وهم على ما هم من تبريح الجراح بهم كما تقدم بيانه..

فليعتبر بهذا مسلمو هذا الزمان، وليعلموا ما هو من مقدار حظهم من الإسلام والإيمان.

وأما محق الكافرين بالشدائد فليس معناه فناؤهم وهلاكهم وإنما هو اليأس يسطو عليهم، وفقد الرجاء يذهب بعزائمهم، لعدم الإيمان الذي يثبت قلوب أصحابه في الشدائد حتى يذهب ما كان قد بقي من نور الفضيلة في نفوسهم، فلا تبقى لهم شجاعة ولا بأس، ولا شيء من عزة النفس، فيكون أحدهم كالهلال في المحاق لا نور له؛ بل يكون وجوده كالعدم؛ لأنه لا أثر له ولا فائدة فيه،

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٢٣).

فكذلك محقه إذا غلب على أمره. وإذا هو انتصر طغى وتجبر، وبغى وظلم، وذلك محق معنوي، تكون عاقبته المحق الصوري، كذلك لا يثبت للكافرين المبطلين وجود مع المؤمنين الصادقين، وإنما يبقون ظاهرين إذا لم يظهر من أهل الحق والعدل من ينازعهم ويقاوم باطلهم»[١].

قلت: للَّه در الشيخ محمد رشيد رضا على هذا التصوير العظيم في بيان الفرق بين ابتلاء المؤمن وعقاب الكافر، فابتلاء المؤمن يزيده نصاعة وخيرًا ويقينًا وجدًّا بخلاف الكافر والمنافق، فإن العقاب يمحقه ويبيده، ويدخل عليه اليأس من كل جانب، وسنة اللَّه في الأمم أن أهل الباطل لا تعلو لهم كلمة، ولا ترفع لهم راية، إلا إذا انمحى أهل الحق وقلوا، ولا نسبة لعددهم ولا عدتهم كما هو واقع زماننا هذا، فإن أهل الكفر هم أهل الظهور وأهل الشأن، وهم أهل الحل والعقد، وأزمة أهل الإسلام بأيديهم، وهم الذين يخططون لهم ما يريدون، فيعطونهم من نفاياتهم وزبالاتهم، ويأخذون من جواهرهم حتى في الأنواع البشرية، فإنهم يتخيرون كل ذكي لامع، فيخطفونه ويستخدمونه في أغراضهم، ويؤهلونه لمخططاتهم، فرحمة اللَّه على هذا المفسر الكبير إذ أنزل الآية على واقعه، وهي على واقعنا أَنزلُ وأَلصقُ، فإن واقعنا هزيل، وحالتنا ضعيفة، وأكثرنا ضعفًا أهل الحق وأهل السنة، فاللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، إنك خير الناصرين ورب المستضعفين.

* * *

(١) تفسير المنار (٤/ ١٥٢).

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: أم حسبتم يا معشر أصحاب محمد، وظننتم أن تدخلوا الجنة وتنالوا كرامة ربكم، وشرف المنازل عنده ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ يقول: ولما يتبين لعبادي المؤمنين المجاهد منكم في سبيل اللَّه على ما أمره به»[(١)].

قال ابن القيم: «أنكر عليهم حسبانهم وظنهم دخول الجنة بغير جهاد ولا صبر. وأن حكمته تأبى ذلك، فلا يدخلونها إلا بالجهاد والصبر، ولو كانوا دائمًا منصورين غالبين لما جاهدهم أحد، ولما ابتلوا بما يصبرون عليه من أذى أعدائهم»[(٢)].

قال الشنقيطي: «أنكر اللَّه في هذه الآية على من ظن أنه يدخل الجنة دون أن يبتلى بشدائد التكاليف التي يحصل بها الفرق بين الصابر المخلص في دينه وبين غيره، وأوضح هذا المعنى في آيات متعددة كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[(٣)]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[(٤)]، وقوله: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[(٥)].

وفي هذه الآيات سر لطيف وعبرة وحكمة، وذلك أن أبانا آدم كان في الجنة

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٤٦ شاكر).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٢٧٥).

(٣) البقرة: الآية (٢١٤).

(٤) التوبة: الآية (١٦).

(٥) العنكبوت الآيات (١-٢-٣).

يأكل منها رغدًا حيث شاء في أتم نعمة وأكمل سرور، وأرغد عيش، كما قال له ربه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾(١)، ولو تناسلنا فيها لكنا في أرغد عيش وأتم نعمة، ولكن إبليس عليه لعائن اللَّه احتال بمكره وخداعه على أبوينا حتى أخرجهما من الجنة، إلى دار الشقاء والتعب. وحينئذ حكم اللَّه تعالى أن جنته لا يدخلها أحد إلا بعد الابتلاء بالشدائد وصعوبة التكاليف. فعلى العاقل منا معاشر بني آدم أن يتصور الواقع، ويعلم أننا في الحقيقة سبي سباه إبليس بمكره وخداعه من وطنه الكريم إلى دار الشقاء والبلاء، فيجاهد عدوه إبليس ونفسه الأمّارة بالسوء حتى يرجع إلى الوطن الأول الكريم، كما قال ابن القيم:

ولكننا سبي العدو فهل ترى نرد إلى أوطاننا ونسلم

ولهذه الحكمة أكثر اللَّه تعالى في كتابه من ذكر قصة إبليس مع آدم لتكون نصب أعيننا دائمًا»(٢).

وقال السعدي: «هذا استفهام إنكاري؛ أي: لا تظنوا، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة، واحتمال المكاره في سبيل اللَّه، وابتغاء مرضاته. فإن في الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون. وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه. فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم. ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل اللَّه -عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها، ومعرفة ما تؤول إليه- تنقلب عند أرباب البصائر منحا يسرون بها، ولا يبالون بها، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء»(٣).

* * *

---

(١) طه: الآيتان (١١٨-١١٩).

(٢) أضواء البيان (١/ ٢٠٩-٢١٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٢٨-٤٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ١٤٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال القرطبي: «تمني الموت يرجع من المسلمين إلى تمني الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد، لا إلى قتل الكفار لهم؛ لأنه معصية وكفر، ولا يجوز إرادة المعصية، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من اللَّه أن يرزقهم الشهادة، فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدى إلى القتل»(١).

قال ابن كثير: «أي: قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتتحرقون عليهم، وتودون مناجزتهم ومصابرتهم، فها قد حصل لكم الذي تمنيتموه وطلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا»(٢).

قال السعدي: «ثم وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونه، ويودون حصوله فقال: ﴿وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ وذلك أن كثيرا من الصحابة ﷺ ممن فاته بدر كانوا يتمنون أن يحضرهم اللَّه مشهدا يبذلون فيه جهدهم. قال اللَّه تعال لهم: ﴿فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ﴾؛ أي: ما تمنيتم بأعينكم ﴿وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن خصوصًا لمن تمنى ذلك، وحصل له ما تمنى. فإن الواجب عليه بذل الجهد واستفراغ الوسع في ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمني الشهادة. ووجه الدلالة أن اللَّه تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم. وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، واللَّه أعلم»(٣).

وقال محمد رشيد رضا: «الخطاب لجماعة المسلمين الذين شهدوا وقعة أحد.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٤٢).
(٢) التفسير (٢/ ١٠٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٢٩).

وقد ذكرنا في تلخيص القصة أن النبي ﷺ كان يرى أن لا يخرج للمشركين بل يستعد لمدافعتهم في المدينة، وكان على هذا الرأي جماعة من كبراء الصحابة وبه صرح عبد اللّٰه بن أبي ابن سلول زعيم المنافقين، وأن أكثر الصحابة أشاروا بالخروج إلى أحد حيث عسكر المشركون ومناجزتهم هناك، وأن الشبان ومن لم يشهد بدرا كانوا يلحون في الخروج. لهذا قال مجاهد: إن هذه الآية عتاب لرجال غابوا عن بدر فكانوا يتمنون مثل يوم بدر أن يلقوه فيصيبوا من الخير والأجر مثل ما أصاب أهل بدر فلما كان يوم أحد ولى منهم من ولى فعاتبهم اللّٰه. وروي نحو ذلك عن غيره منهم الربيع والسدي. وروي عن الحسن أنه قال: بلغني أن رجالًا من أصحاب النبي ﷺ كانوا يقولون: لئن لقينا مع النبي ﷺ لنفعلن ولنفعلن فابتلوا بذلك، فلا واللّٰه ما كلهم صدق، فأنزل اللّٰه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ﴾ الآية. فأطلق الحسن ولم يخص من لم يشهد بدرًا وهو الصواب. فإن الذين كانوا يتمنون القتال كثيرون.

قلنا: إن هذه الآية أظهرت للمؤمنين تأويل قوله تعالى في إيمانهم وجهادهم وصبرهم، وعلمتهم كيف يحاسبون أنفسهم، ويمتحنون قلوبهم. وبيان ذلك أنهم تمنوا القتال أو الموت في القتال لينالوا مرتبة الشهادة، وقد أثبت اللّٰه لهم هذا التمني وأكده بقوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ فلم يكن ذلك منهم دعوى قولية، ولا صورة في الذهن خالية، بل كان حقيقة واقعة في النفس، ولكنها زالت عند مجيء دور الفعل، وهذه مرتبة من مراتب النفس في شعورها وعرفانها هي دون مرتبة الكمال الذي يصدقه العمل، وفوق مرتبة التصور والتخيل مع الانصراف عن تمني العمل بمقتضاه، أو مع كراهته والهرب منه كما يتوهم بعض الناس أنه يحب ملته أو وطنه، ولكنه يهرب من كل طريق يخشى أن يطالب فيه بعمل يأتيه لأجلهما، أو مال يعاون به العاملين لهما، أو يكون خالي الذهن من الفكر في العمل أو البذل لإعلاء شأن هذا المحبوب، أو كف العدوان أو الشر عنه، فهاتان مرتبتان دون مرتبة من يتصور أنه يحب ملته ووطنه ويفكر في خدمتهما ويتمنى لو يتاح له ذلك حتى إذا احتيج إلى خدمته التي كان يفكر فيها ويتمناها وجد من نفسه الضعف فأعرض عن العمل قبل الشروع أو بعد أن ذاق مرارته، وكابد مشقته، وإنما المطلوب في الإيمان ما هو أعلى من هذه المرتبة، المطلوب فيه مرتبة اليقين والإذعان النفسي التي من مقتضاها

العمل مهما كان شاقًّا، والجهاد مهما كان عسرًا، والصبر على المكاره، وإيثار الحق على الباطل...

فهذه الآية تنبه كل مؤمن إلى اتقاء الغرور بحديث النفس والتمني والتشهي، وتهديه إلى امتحان نفسه بالعمل الشاق، وعدم الثقة منها بما دون الجهاد والصبر على المكاره في سبيل الحق، حتى يأمن الدعوى الخادعة، بله الدعوى الباطلة، وإنما الخادعة أن تدعي ما تتوهم أنك صادق فيه، مع الغفلة أو الجهل بعجزك عنه، والباطلة لا تخفى عليك، وإنما تظن أنها تخفى على سواك»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عدم تمني لقاء العدو

* عن موسى بن عقبة قال: حدثني سالم أبو النضر مولى عمر بن عبد اللّه، كنت كاتبا له قال: كتب إليه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى حِينَ خرج إِلَى الْحَرُورِيَّةِ فقرأته فإذا فيه: إن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتِي لَقِيَ فِيهَا الْعَدُوَّ انْتَظر حَتَّى إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ. ثم قَامَ فِي الناس فَقَالَ: «**لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا. وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ**». ثُمَّ قَال: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**»[٢].

★ غريب الحديث:

الحرورية: قال ابن الأثير: طائفة من الخوارج نسبوا إلى حروراء بالمد والقصر، وهو موضع قريب من الكوفة، كان أول مجتمعهم وتحكيمهم فيها، وهم أحد الخوارج الذين قاتلهم علي.

مالت الشمس: ميولًا: ضفيت للغروب، وقيل: مالت: زاغت عن الكبد.

الأحزاب: الطوائف من الناس، جمع حزب بالكسر. والأحزاب جنود الكفار، تألبوا وتظاهروا على حرب النبي ﷺ وهم قريش وغطفان وبنو قريظة.

---

(١) تفسير المنار (٤/ ١٥٦-١٥٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٥٣)، والبخاري (٦/ ١٩٢/ ٣٠٢٤-٣٠٢٥)، ومسلم (٣/ ١٣٦٢/ ١٧٤٢)، وأبو داود (٣/ ٩٥-٩٦/ ٢٦٣١).

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**لا تتمنوا لقاء العدو**» فيه النهي ألا يستخف أمر العدو، فيتساهل في الاستعداد له، والتحرز منه، وهذا لما فيه من المكاره والمحن والنكال، ولذلك قال متصلا به «**واسألوا اللّه العافية**»»[١].

قال ابن بطال: «وفي ذلك من الفقه النهي عن تمني المكروهات، والتصدي للمحذورات، ولذلك سأل السلف العافية من الفتن والمحن؛ لأن الناس مختلفون في الصبر على البلاء»[٢].

قوله: «**الجنة تحت ظلال السيوف**»:

قال القرطبي: «هذا من الكلام النفيس البديع، الذي جمع ضروب البلاغة من جزالة اللفظ، وعذوبته، وحسن استعارته، وشمول المعاني الكثيرة، مع الألفاظ المعسولة الوجيزة، بحيث تعجز الفصحاء اللسن البلغاء عن إيراد مثله، أو أن يأتوا بنظيره وشكله، فإنه استفيد منه مع وجازته الحض على الجهاد، والإخبار بالثواب عليه، والحض على مقاربة العدو، واستعمال السيوف، والاعتماد عليها، واجتماع المقاتلين حين الزحف بعضهم لبعض، حتى تكون سيوفهم بعضها يقع على العدو، وبعضها يرتفع عنهم؛ حتى كأن السيوف أظلت الضاربين بها، ويعني: أن الضارب بالسيف في سبيل اللّه يدخله اللّه الجنة بذلك»[٣].

قوله: «**اللهم منزل الكتاب..**» **قال الحافظ ابن حجر**: «أشار بهذا الدعاء إلى وجوه النصر عليهم، فبالكتاب إلى قوله تعالى ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾[٤] وبمجري السحاب إلى القدرة الظاهرة في تسخير السحاب حيث يحرك الريح بمشيئة اللّه تعالى، وحيث يستمر في مكانه مع هبوب الريح، وحيث تمطر تارة وأخرى لا تمطر فأشار بحركته إلى إعانة المجاهدين في حركتهم في القتال، وبوقوفه إلى إمساك أيدي الكفار عنهم، وبإنزال المطر إلى غنيمة ما معهم حيث يتفق قتلهم، وبعدمه إلى هزيمتهم حيث لا يحصل الظفر بشيء منهم، وكلها أحوال صالحة للمسلمين. وأشار بهازم الأحزاب إلى التوسل بالنعمة السابقة، وإلى تجريد

---

(١) المفهم (٣/ ٥٢٣).
(٢) شرح البخاري (٥/ ١٨٥).
(٣) المفهم (٣/ ٥٢٥-٥٢٦).
(٤) التوبة: الآية (١٤).

التوكل، واعتقاد أن اللَّه هو المنفرد بالفعل. وفيه التنبيه على عظم هذه النعم الثلاث، فإن بإنزال الكتاب حصلت النعمة الأخروية وهي الإسلام، وبإجراء السحاب حصلت النعمة الدنيوية وهي الرزق، وبهزيمة الأحزاب حصل حفظ النعمتين، وكأنه قال: اللهم كما أنعمت بعظيم النعمتين الأخروية والدنيوية وحفظتهما فأبقهما»[1].

* * *

(١) فتح الباري (٦/ ١٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

انقلبتم على أعقابكم: ارتددتم عن دينكم. يقال: انقلب على عقبه: إذا رجع على ما كان عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بذلك: وما محمد إلا رسول كبعض رسل اللَّه الذين أرسلهم إلى خلقه داعيًا إلى اللَّه وإلى طاعته، الذين حين انقضت آجالهم ماتوا وقبضهم اللَّه إليه، يقول -جل ثناؤه-: فمحمد ﷺ إنما هو فيما اللَّه به صانع من قبضه إليه عند انقضاء مدة أجله كسائر مدة رسله إلى خلقه الذين مضوا قبله، وماتوا عند انقضاء مدة آجالهم. ثم قال لأصحاب محمد معاتبهم على ما كان منهم من الهلع والجزع حين قيل لهم بأحد: إن محمدًا قتل، ومقبحًا إليهم انصراف من انصرف منهم عن عدوهم وانهزامه عنهم: أفئن مات محمد أيها القوم لانقضاء مدة أجله أو قتله عدوكم ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾؛ يعني: ارتددتم عن دينكم الذي بعث اللَّه محمدا بالدعاء إليه، ورجعتم عنه كفارًا باللَّه بعد الإيمان به، وبعد ما قد وضحت لكم صحة ما دعاكم محمد إليه، وحقيقة ما جاءكم به من عند ربه. ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ يعني بذلك: ومن يرتد منكم عن دينه، ويرجع كافرًا بعد إيمانه ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ يقول: فلن يوهن ذلك عزة اللَّه ولا سلطانه، ولا يدخل بذاك نقص في ملكه، بل نفسه يضر بردته، وحظ نفسه ينقص بكفره. ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ يقول: وسيثيب اللَّه من شكره على توفيقه، وهدايته إياه لدينه بثبوته على ما جاء به محمد ﷺ إن هو مات أو قتل، واستقامته على منهاجه، وتمسكه بدينه

وملته بعده»[١].

قال القرطبي: «أعلم اللَّه تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبدًا، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإن فقد الرسول بموت أو قتل. وأكرم نبيه ﷺ وصفيه باسمين مشتقين من اسمه: محمد وأحمد تقول العرب: رجل محمود ومحمد إذا كثرت خصاله المحمودة قال الشاعر:

إلى الماجد القرم الجواد المحمد

وقال عباس بن مرداس:

يا خاتم النبآء إنك مرسل بالخير كل هدى السبيل هداكا
إن الإله بنى عليك محبة في خلقه ومحمدا سماكا

فهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين؛ أي: لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمد، والنبوة لا تدرأ الموت والأديان لا تزول بموت الأنبياء، واللَّه أعلم»[٢].

قال ابن القيم: «ومنها أي من الحكم والغايات المحمودة التي كانت في غزوة أحد-: أن وقعة أحد كانت مقدمة وإرهاصًا بين يدي موت رسول اللَّه ﷺ، فثبتهم ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم أن مات رسول اللَّه ﷺ أو قتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد، وهو حي لا يموت، فلو مات محمد أو قتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه، وما جاء به، فكل نفس ذائقة الموت، وما بعث محمد ﷺ ليخلد لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد فإن الموت لا بد منه سواء مات رسول اللَّه ﷺ أو بقي ولهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان: إن محمدًا قد قتل فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا، فظهر أثر هذا العتاب وحكم هذا الخطاب، يوم مات رسول اللَّه ﷺ وارتد من ارتد على عقبيه، وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم اللَّه وأعزهم وظفرهم

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٥١-٢٥٢ شاكر).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٤٣).

بأعدائهم وجعل العاقبة لهم»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «وحاصل المعنى: أن محمدًا ليس إلا بشرًا رسولًا، قد خلت ومضت الرسل من قبله فماتوا وقد قتل بعض النبيين كزكريا ويحيى فلم يكن لأحد منهم الخلد وهو لابد أن تحكم عليه سنة اللَّه بالموت فيخلو كما خلوا من قبله إذ لا بقاء إلا لله وحده، ولا ينبغي للمؤمن الموحد أن يعتقده لغيره، أفئن مات كما مات موسى وعيسى، أو قتل كما قتل زكريا ويحيى، تنقلبون على أعقابكم؛ أي: تولون الدبر راجعين عما كان عليه، يهديهم اللَّه بهذا إلى أن الرسول ليس مقصودًا لذاته، فيبقى للناس وإنما المقصود من إرساله ما أرسل به من الهداية فيجب العمل بها من بعده، كما وجب في عهده»[٢].

قال السعدي: «وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من اللَّه تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم، أو عن بعض لوازمه، فقد رئيس ولو عظم. وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره. وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين اللَّه، والجهاد عنه بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس. فبهذه الحال، يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضًا: أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول اللَّه ﷺ؛ لأنهم هم سادات الشاكرين»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وفاة النبي ﷺ ومواقف الصحابة رضي الله عنهم من ذلك

* عن عَائِشَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ -قَالَ إِسْمَاعِيلُ: يَعْنِي بِالْعَالِيَةِ- فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ. فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ، فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَبَّلَهُ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي،

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٢٤-٢٢٥). (٢) تفسير المنار (٤/ ١٦١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٣٠-٤٣١).

طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللَّهُ الْمَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ. فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللَّهَ أَبُو بَكْرٍ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1] وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[2] قَالَ: فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ. قَالَ: وَاجْتَمَعَتِ الْأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فَأَسْكَتَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي قَدْ هَيَّأْتُ كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ. ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ، فَقَالَ فِي كَلَامِهِ: نَحْنُ الْأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ. فَقَالَ حُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ: لَا وَاللَّهِ لَا نَفْعَلُ، مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ. فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا، وَلَكِنَّا الْأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ. هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا، وَأَعْرَبُهُمْ أَحْسَابًا، فَبَايِعُوا عُمَرَ أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ. فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا وَخَيْرُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ. فَقَالَ قَائِلٌ: قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ. فَقَالَ عُمَرُ: قَتَلَهُ اللَّهُ[3].

★ **غريب الحديث:**

السنح: بضم المهملة وسكون النون بعدها حاء مهملة: منازل بني الحارث بن الخزرج بالعوالي، وبينه وبين المسجد النبوي ميل.

ما كان يقع في نفسي إلا ذاك: يعني: عدم موته ﷺ حينئذ.

على رسلك: بكسر الراء؛ أي: هينتك ولا تستعجل.

نشيج: بفتح النون وكسر المعجمة بعدها جيم؛ أي: بكى بغير انتحاب، والنشج ما يعرض في حلق الباكي من الفصة، وقيل هو صوت معه ترجيع كما يردد

---

(١) الزمر: الآية (٣٠). (٢) آل عمران: الآية (١٤٤).

(٣) أخرجه: البخاري (٧/ ٢٣-٢٤/ ٣٦٦٧-٣٦٦٨)، والنسائي (٤/ ٣٠٩-٣١٠/ ١٨٤٠). مختصرًا من طريق الزهري عن أبي سلمة عن عائشة به.

الصبي بكاءه في صدره.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «قال المهلب: فيه جواز كشف الثوب عن الميت إذا لم يبد منه أذى. وفيه جواز تقبيل الميت عند وداعه»(١).

قال الحافظ: «وأشد ما فيه إشكالًا قول أبي بكر: «**لا يجمع اللَّه عليك موتتين**» وعنه أجوبة: فقيل: هو على حقيقته، وأشار بذلك إلى الرد على من زعم أنه سيحيا فيقطع أيدي رجال؛ لأنه لو صح ذلك للزم أن يموت موتة أخرى، فأخبر أنه أكرم على اللَّه من أن يجمع عليه موتتين كما جمعهما على غيره؛ كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، وكالذي مر على قرية، وهذا أوضح الأجوبة وأسلمها. وقيل: أراد لا يموت موتة أخرى في القبر كغيره إذ يحيا ليسأل ثم يموت، وهذا جواب الداودي. وقيل: لا يجمع اللَّه موت نفسك وموت شريعتك. وقيل: كنى بالموت الثاني عن الكرب؛ أي: لا تلقى بعد كرب هذا الموت كربا آخر»(٢).

وقال أيضًا: «وقد تمسك به من أنكر الحياة في القبر، وأجيب عن أهل السنة المثبتين لذلك بأن المراد نفي الموت اللازم من الذي أثبته عمر بقوله: «**وليبعثه اللَّه في الدنيا ليقطع أيدي القائلين بموته**»، وليس فيه تعرض لما يقع في البرزخ، وأحسن من هذا الجواب أن يقال: إن حياته ﷺ في القبر لا يعقبها موت بل يستمر حيا، والأنبياء أحياء في قبورهم، ولعل هذا هو الحكمة في تعريف الموتتين حيث قال: «**لا يذيقك اللَّه الموتتين**»؛ أي: المعروفتين المشهورتين الواقعتين لكل أحد غير الأنبياء، وأما وقوع الحلف من عمر على ما ذكره فبناه على ظنه الذي أداه إليه اجتهاده»(٣).

وقال ابن بطال: «وفيه أن أبا بكر أعلم من عمر، وهذه إحدى المسائل التي ظهر فيها ثاقب علم أبي بكر، وفضل معرفته، ورجاحة رأيه، وبارع فهمه، وسرعة انتزاعه بالقرآن، وثبات نفسه، وكذلك مكانته عند الأمة لا يساويه فيها أحد، ألا ترى أنه حين تشهد وبدأ بالكلام مال الناس إليه وتركوا عمر. ولم يكن ذلك إلا لعظيم منزلته

(١) شرح ابن بطال (٣/ ٢٤٠).
(٢) الفتح (٣/ ١٤٨).
(٣) الفتح (٧/ ٣٥-٣٦).

في نفوسهم على عمر وسمو محله عندهم»[١].

قال ابن أبي جمرة: «فيه دليل على جواز تقسيم الكلام بين الحق والباطل؛ ليتبين به الحق، يؤخذ ذلك من قول أبي بكر رضي الله عنه: «**من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات**»، وهو رضي الله عنه يعلم بالقطع أنه ما كان أحد منهم يعبد محمدا، ثم قال: «**ومن كان يعبد اللَّه فإن اللَّه حي لا يموت**»، فذكر ما هو محال قطعا مع ما هو محقق عندهم حقًّا، تأكيدًا للحق، وتثبيتًا لأهله»[٢].

* * *

(١) شرح ابن بطال (٣/ ٢٤١).

(٢) بهجة النفوس (٢/ ١٠٨).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[١]

★ **غريب الآية:**

مؤجلا: مؤقتا. والأجل: هو الوقت المعلوم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بذلك: وما يموت محمد ولا غيره من خلق اللَّه إلا بعد بلوغ أجله الذي جعله اللَّه غاية لحياته وبقائه، فإذا بلغ ذلك من الأجل الذي كتبه اللَّه له، وأذن له بالموت، فحينئذ يموت، فأما قبل ذلك فلن يموت بكيد كائد، ولا بحيلة محتال»[٢].

قال ابن عطية: «أخبر تعالى عن النفوس أنها إنما تموت بأجل مكتوب محتوم واحد عند اللَّه تعالى؛ أي: فالجبن لا يزيد فيه، والشجاعة والإقدام لا تنقص منه، وفي هذه الآية تقوية النفوس للجهاد»[٣].

وقال السعدي: «ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها معلقة بآجالها بإذن اللَّه وقدره وقضائه، فمن حتَّم عليه بالقدر أن يموت مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه فلو وقع من الأسباب كل سبب لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن اللَّه قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمّى، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون»[٤].

وقال الزمخشري: «المعنى: أن موت الأنفس محال أن يكون إلا بمشيئة اللَّه، فأخرجه مخرج فعل لا ينبغي لأحد أن يقدم عليه إلا أن يأذن اللَّه له فيه تمثيلًا، ولأن ملك الموت هو الموكل بذلك، فليس له أن يقبض نفسًا إلا بإذن من اللَّه. وهو على معنيين:

---

(١) الآية (١٤٥).

(٢) جامع البيان (٧/ ٢٦٠ شاكر).

(٣) المحرر الوجيز (١/ ٥١٧).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٢٤٨) طبعة دار ابن الجوزي.

أحدهما: تحريضهم على الجهاد وتشجيعهم على لقاء العدوّ بإعلامهم أن الحذر لا ينفع، وأن أحدًا لا يموت قبل بلوغ أجله، وإن خاض المهالك واقتحم المعارك.

والثاني: ذكر ما صنع اللَّه برسوله عند غلبة العدو والتفافهم عليه وإسلام قومه له، نهزة للمختلس من الحفظ، والكلاءة، وتأخير الأجل»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «وأما قوله: ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ﴾ فهو مؤكد لمضمون ما قبله؛ أي: كتبه اللَّه كتابًا مؤجلًا؛ أي: أثبته مقرونًا بأجل معين لا يتغير، ومؤقتًا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر، فالمؤجل ذو الأجل، والأجل المدة المضروبة للشيء قال تعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَاۚ﴾[٢]ومنه الدين المؤجل الذي ضرب له أجل؛ أي: مدة يؤدى في نهايتها. وقد يتوهم بعض أصحاب العقول المقيدة، والأفهام الضيقة أن كون الموت مؤجلًا بأجل محدود في علم اللَّه ينافي كونه بأسباب تجري على سنن اللَّه، وليس لهذا التوهم أدنى شبهة من العقل فيرد بالدلائل النظرية، ولا من الوجود فيفسر بالسنن الاجتماعية، إلا أن كون الموت لا يكون إلا بالأجل أظهر من كونه لا يكون إلا مقرونًا بالسبب، فإن الناس يتعرضون لأسباب المنايا بخوض غمرات الحروب، والتعرض لعدوى الأمراض، والتصدي لأفاعيل الطبيعة، ثم قد يسلم في الحرب الشجاع المقدم، ويقتل الجبان المتخلف، ويفتك المرض بالشاب القوي، من حيث تعدو عدواه الغلام القميء، وتغتال فواعل الحر والبرد الكهل المستوي، وتتجاوز عن الشيخ الضعيف، ولكل عمر أجل، ولكل أجل قدر، والأقدار هي السنن التي بها يقوم النظام، والحكم فيها مرتبطة بالأحكام، وإن خفي بعضها على بعض الأفهام»[٣].

* * *

(١) الكشاف (١/ ٤٦٨).
(٢) الأنعام: الآية (١٢٨).
(٣) تفسير المنار (٤/ ١٦٦-١٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: من يرد منكم أيها المؤمنون بعمله جزاء منه بعض أعراض الدنيا دون ما عند اللّٰه من الكرامة، لمن ابتغى بعمله ما عنده ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ يقول: نعطه منها؛ يعني: من الدنيا؛ يعني: أنه يعطيه منها ما قسم له فيها من رزق أيام حياته، ثم لا نصيب له في كرامة اللّٰه التي أعدها لمن أطاعه، وطلب ما عنده في الآخرة. ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ يقول: ومن يرد منكم بعمله جزاء منه ثواب الآخرة؛ يعني: ما عند اللّٰه من كرامته التي أعدها للعاملين له في الآخرة، ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ يقول: نعطه منها يعني من الآخرة والمعنى: من كرامة اللّٰه التي خص بها أهل طاعته في الآخرة فخرج الكلام على الدنيا والآخرة، والمعنيُّ ما فيهما»[(١)].

قال ابن كثير: «أي: من كان عمله للدنيا فقط نال منها ما قدره اللّٰه له، ولم يكن له في الآخرة نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه اللّٰه منها مع ما قسم له في الدنيا كما قال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[(٣)]»[(٤)].

قال القاسمي: «واعلم أن الآية وإن كان سياقها في الجهاد ولكنها عامة في جميع الأعمال، وذلك لأن المؤثر في جلب الثواب أو العقاب هو النيات والدواعي

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٦٢ شاكر).

(٢) الشورى: الآية (٢٠).

(٣) الإسراء: الآيتان (١٨-١٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١١٠).

لا ظواهر الأعمال»(١).

وقال محمد رشيد رضا: «وفيه بيان أن من يطلب الدنيا وحدها ولا يعمل للآخرة عملها فليس له في الآخرة من خلاق، وأن من هدي الإسلام أن يطلب المرء خير الدنيا وخير الآخرة، ويقول: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، فالإنسان يطلب ويريد بحسب سعة معرفته وعلو همته ودرجة إيمانه، وله ما يريد كله أو بعضه بحسب سنن اللَّه وتدبيره لنظام هذه الحياة. وفي سورة الإسراء تفصيل وتقييد في هذه المسألة قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾(٢) ولا تُنسين التقاليد الشائعة قارئ هذه الآيات عن سنن اللَّه التي أثبتها في كتابه فيظن أن عطاءه تعالى وتفضيله لبعض الناس على بعض يكون جزافًا بل الإدارة تجري على السنن التي اقتضتها الحكمة ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾(٣) ولإرادة الإنسان دخل في تلك السنن والمقادير ولذلك قال ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ ﴿وَمَنْ أَرَادَ﴾ فاعرف قيمة إرادتك، واعرف قبل ذلك قيمة نفسك، فلا تجعلها كنفوس الحشرات التي تعيش زمنًا محدودا، ثم تفنى كأن لم تكن شيئًا مذكورًا. إنك قد خلقت للبقاء ولك في الوجود طوران طور عاجل قصير وهو طور الحياة الدنيا، وطور آجل أبدي وهو طور الحياة الآخرة، وسعادتك في كل من الطورين تابعة لإرادتك، وما توجهك إليه من العمل في حياتك، فأعمال الناس متشابهة، ومشقتهم فيها متقاربة، وإنما يتفاضلون بالإرادات والمقاصد؛ لأنها هي التي تكون تارة علة وتارة معلولًا لطهارة الروح وعلو النفس وسمو العقل ورقة الوجدان، وهي هي المزايا التي يفضل بها إنسان على إنسان، يحارب قوم حبا في الربح والكسب، أو ضراوة بالقتل والفتك، فإذا غلبوا أفسدوا في الأرض، وأهلكوا الحرث والنسل، ويحارب آخرون دفاعا عن الحق، وإقامة لقوانين العدل، فإذا غلبوا عمروا الأرض، وأمروا بالمعروف

(١) محاسن التأويل (٤/ ٢٤٥).

(٢) الإسراء الآيات (١٨-٢١).

(٣) الرعد: الآية (٨).

ونهوا عن المنكر، فهل يستوي الفريقان، إذ استوى في البداية العملان؟ وهما في القصد والإرادة متباينان.

يكسب الرجل طلبًا للذات، وحبًّا في الشهوات، فيغلوا في الطمع، ويوغل في الحيل، ويأكل الربا أضعافًا مضاعفة، حتى يجمع القناطير المقنطرة، فإذا هو يمنع الماعون ويدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، ولهو إذا سئل البذل في المصالح العامة أشد بخلًا، وأكزّ يدًا وأقبض كفًّا.

ويكسب الرجل طلبًا للتجمل في معيشته، وحبًّا للكرامة في قومه وعشيرته، فيجمل في الطلب، ويتحرى الحلال من الربح، ويلتزم الصدق والأمانة، ويتوقى الغش والخيانة، ثم هو ينفق من سعته فيواسي البائس الفقير، ويعين العاجز والضعيف، وتكون له اليد في بناء المدارس والمعابد، والمستشفيات والملاجيء، فهل يستوي الرجلان، وهما في الثروة سيان؟ وفي ظاهر العمل متشابهان، أم يفضل أحدهما الآخر بحسن الإرادة؟

الإرادة تصغر الكبير، وتكبر الصغير، وترفع الوضيع، وتضع الرفيع، وبها تتسع دائرة وجود الشخص، حتى تحيط بكرة الأرض، بل تكون أكبر من ذلك، بما يتبوأ من منازل الكرامة في عالم العقول والأرواح، وإذا كان يريد بعمله دار البقاء فإن وجوده يكون كبيرًا بحسب كبر إرادته، وواسعًا بسعة مقصده، وبذلك تعلو نفسه على نفوس من أخلدوا إلى الشهوات، وكان حظهم من عملهم كحظ الحشرات، وغيرها من الحيوانات: أكل وشرب وسفاد وبغي من القوي على الضعيف، قس على هذا وجود من يريد بعمله القرب من اللَّه والتخلق بأخلاقه، والتحقق بتجليات أسمائه وصفاته، القرب من الواسع العليم، الخلاق الحكيم، الرحمن الرحيم، بسعة القلب، وبسطة العلم، وإقامة النظام والحكمة، ونصب ميزان العدل وبسط ميزان العدل وبسط بساط الرحمة، ألا تراه يكون أشرف وجود بشري وأعلاه بحسب إرادته وسنن اللَّه، لست بهذا الرمز إلى مكانة إرادة البشر من تصريف أعمالهم، وتوجيهها إلى سعادتهم أو شقاوتهم بخارج عن موضوع تفسير الآية الكريمة، فإن رب العزة قد جعل عطاءه للناس معلقا على إرادتهم، ولا يقدر هذا حق قدره إلا قليل منهم، فهم في حاجة إلى مثل هذا التذكير بل إلى أكثر منه.

إذا فقهت هذا فقهت معنى قوله: ﴿وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: الذين يعرفون نعمة

اللَّه عليهم بقوة الإرادة ويستعملونها فيما يعرج بهم إلى مستوى الكمال فتكون أعمالهم صالحة رافعة لنفوسهم ونافعة لغيرهم، وأبهم هذا الجزاء لتعظيم شأنه»[١].

قلت: هذا كلام عظيم من هذا المفسر الشيخ محمد رشيد في تنزيل الآية على الواقع، والفرق الكبير بين من تكون حياته لا نهاية لها، ومن تكون حياته أشبه بحياة الحشرات والمؤذيات، كالبعوض والعقارب والحيات وغيرها.

فحياة التقوى والعلم والدعوة والإرشاد والبيان لمن أخلص فيها حياة طويلة وواسعة، زمانًا ومكانًا، فالرسل -عليهم الصلاة والسلام- كانوا في أزمنة غابرة، وفي أمكنة أكثرها عندنا مجهولة، ومع ذلك طال ذكرهم وعظم اللَّه أمرهم وأثنى عليهم بثناء يناسبهم ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[٢]، ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[٣]، ونبينا محمد ﷺ قال عن نفسه: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»[٤] وهو صاحب لواء الحمد، وهو صاحب الشفاعة الكبرى، ولا يذكر اللَّه إلا ويذكر معه على رؤوس المآذن والمنارات، وكل من تشهد يقرن شهادة اللَّه بشهادة محمد ﷺ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[٥]، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[٧]. فمن تصفح سجل التاريخ يجد فيه النجوم والأقمار والشموس والبدور، لا يغيب ضوؤها أطباق الشهور، ولا غياب الذوات، فهي ما تزال مضيئة إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها، كصحابة رسول اللَّه ﷺ وتابعيهم، والعلماء في كل عصر ومصر، يذكرون فيترضى عليهم ويترحم عليهم، وما ذلك إلا لأثرهم الحميد على أممهم وأهليهم، فذكر اللَّه نصيحة صاحب ياسين، ومؤمن آل فرعون، وأصحاب الكهف وأصحاب الأخدود، وما ذلك إلا لما لهم من المآثر الحميدة على أهلهم وأممهم، وما انفردوا به من الدعوة إلى التوحيد، وتأييد الأنبياء

---

(١) تفسير المنار (٤/ ١٦٨-١٧٠).

(٢) النحل: الآية (١٢٠).

(٣) البقرة: الآية (١٢٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٦)، والبخاري (٦/ ٤٥٧-٤٥٨/ ٣٣٤٠)، ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦/ ١٩٤)، والترمذي (٤/ ٥٣٧-٥٣٨/ ٢٤٣٤)، وأخرجه أبو داود (٥/ ٥٤/ ٤٦٧٣) بلفظ: «**أنا سيد ولد آدم**»، كلهم من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) الشرح: الآية (٤).

(٦) القلم: الآية (٤).

(٧) الأحزاب: الآيتان (٤٥و٤٦).

والرسل، والمحدثون نالوا النصيب الأوفر من هذا، فلا يذكرون إلا بالثناء والتعظيم. وخلاصة القول أن ذكر الشخص مقرون بعلمه وعمله، فمن ملأ الكون نورًا وإضاءة، فاستضاء الناس بنوره، واهتدوا بهديه؛ فإنهم يكثرون من ذكره بالدعاء والرحمة له ولوالديه ولمشايخه، وبالعكس ففرعون يلعنه كل من ذكر عنده، وقارون لا يذكر إلا بالخسف والإهانة، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[1]. وهكذا كل عدو وجبار يحارب دينه ويحارب كتابه وسنة نبيه ﷺ. فاللهم اجعلنا أنصار دينك، واجعلنا مصابيح يستضاء بها، ولا تجعل لنا في المقت نصيبًا، إنك سميع مجيب.

* * *

(١) القصص: الآية (٨١).

قوله تعالى : ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

★ **غريب الآيات:**

ربيون: جمع ربي وهو الجماعة. وقيل: الربيون العلماء الأتقياء الصبر على ما يصيبهم في الله ﷻ.

استكانوا: استسلموا وخضعوا.

إسرافنا: من السرف: وهو تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ الآية، هذه الآية الكريمة على قراءة من قرأ قتل بالبناء للمفعول، يحتمل نائب الفاعل فيها أن يكون لفظة ربيون، وعليه فليس في قتل ضمير أصلًا، ويحتمل أن يكون نائب الفاعل ضميرًا عائدًا إلى النبيّ ﷺ، وعليه فمعه خبر مقدم وربيون مبتدأ مؤخر سوغ الابتداء به اعتماده على الظرف قبله ووصفه بما بعده والجملة حالية والرابط الضمير، وسوغ إتيان الحال من النكرة التي هي نبي وصفه بالقتل ظلمًا، وهذا هو أجود الأعاريب المذكورة في الآية على هذا القول، وبهذين الاحتمالين في نائب الفاعل المذكور يظهر أن في الآية إجمالًا. والآيات القرآنية مبينة أن النبيّ المقاتل غير مغلوب بل هو غالب، كما صرّح تعالى بذلك في قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا

وَرُسُلِيٓ﴾[١] وقال قبل هذا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾[٢]، وقال بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾[٣].

وأغلب معاني الغلبة في القرآن الغلبة بالسيف والسنان كقوله: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٤]، وقوله: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ﴾[٥] وقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾[٦]، وقوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ﴾[٧]، وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ﴾[٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبيّن تعالى أن المقتول ليس بغالب؛ بل هو قسم مقابل للغالب بقوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾[٩]، فاتضح من هذه الآيات أن القتل ليس واقعًا على النبيّ المقاتل؛ لأن اللَّه كتب وقضى له في أزله أنه غالب، وصرّح بأن المقتول غير غالب.

وقد حقق العلماء أن غلبة الأنبياء على قسمين: غلبة بالحجة والبيان، وهي ثابتة لجميعهم. وغلبة بالسيف والسنان، وهي ثابتة لخصوص الذين أمروا منهم بالقتال في سبيل اللَّه؛ لأن من لم يؤمر بالقتال ليس بغالب ولا مغلوب؛ لأنه لم يغالب في شيء وتصريحه تعالى، بأنه كتب إن رسله غالبون شامل لغلبتهم من غالبهم بالسيف، كما بيّنا أن ذلك هو معنى الغلبة في القرآن، وشامل أيضًا لغلبتهم بالحجة والبيان، فهو مبين أن نصر الرسل المذكور في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾[١٠]، وفي قوله: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾[١١]، أنه نصر غلبة بالسيف والسنان للذين أمروا منهم بالجهاد؛ لأن الغلبة التي بيّن أنها كتبها لهم أخص من مطلق النصر؛ لأنها نصر خاص، والغلبة لغة القهر والنصر لغة إعانة

---

(١) المجادلة: الآية (٢١).
(٢) المجادلة: الآية (٢٠).
(٣) المجادلة: الآية (٢١).
(٤) الأنفال: الآية (٦٥).
(٥) الأنفال: الآية (٦٦).
(٦) الروم الآيات (١-٤).
(٧) البقرة: الآية (٢٤٩).
(٨) آل عمران: الآية (١٢).
(٩) النساء: الآية (٧٤).
(١٠) غافر: الآية (٥١).
(١١) الصافات: الآيتان (١٧١-١٧٢).

المظلوم، فيجب بيان هذا الأعم بذلك الأخص.

وبهذا تعلم أن ما قاله الإمام الكبير ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ ومن تبعه في تفسير قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ﴾ الآية، من أنه لا مانع من قتل الرسول المأمور بالجهاد، وأن نصره المنصوص في الآية، حينئذ يحمل على أحد أمرين:

أحدهما: أن اللَّه ينصره بعد الموت، بأن يسلط على من قتله من ينتقم منه، كما فعل بالذين قتلوا يحيى وزكرياء وشعيا من تسليط بختنصر عليهم، ونحو ذلك.

الثاني: حمل الرسل في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾، على خصوص نبيّنا ﷺ وحده، أنه لا يجوز حمل القرآن عليه لأمرين:

أحدهما: أنه خروج بكتاب اللَّه عن ظاهره المبتادر منه بغير دليل من كتاب، ولا سنة ولا إجماع، والحكم بأن المقتول من المتقاتلين هو المنصور بعيد جدًّا، غير معروف في لسان العرب، فحمل القرآن عليه بلا دليل غلط ظاهر، وكذلك حمل الرسل على نبيّنا وحده ﷺ فهو بعيد جدًّا أيضًا، والآيات الدالّة على عموم الوعد بالنصر لجميع الرسل كثيرة، لا نزاع فيها.

الثاني: أن اللَّه لم يقتصر في كتابه على مطلق النصر؛ الذي هو في اللغة إعانة المظلوم، بل صرح بأن ذلك النصر المذكور للرسل نصر غلبة بقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾، وقد رأيت معنى الغلبة في القرآن، ومر عليك أن اللَّه جعل المقتول قسمًا مقابلًا للغالب في قوله: ﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ﴾، وصرح تعالى بأن ما وعد به رسله لا يمكن تبديله بقوله -جلّ وعلا-: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1]، ولا شكّ أن قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾، من كلماته التي صرّح بأنها لا مبدل لها، وقد نفى -جلّ وعلا- عن المنصور أن يكون مغلوبًا نفيًا باتًّا بقوله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾[2]، وذكر مقاتل أن سبب نزول قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾ الآية، أن بعض الناس قال: أيظن محمد وأصحابه أن يغلبوا الروم وفارس، كما غلبوا العرب زاعمًا أن

---

(١) الأنعام: الآية (٣٤).

(٢) آل عمران: الآية (١٦٠).

الروم وفارس لا يغلبهم النبيّ ﷺ لكثرتهم وقوّتهم فأنزل اللَّه الآية، وهو يدل على أن الغلبة المذكورة فيها غلبة بالسيف والسنان؛ لأن صورة السبب لا يمكن إخراجها، ويدل له قوله قبله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾، وقوله بعده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب، أننا نستشهد للبيان بالقراءة السبعية بقراءة شاذّة، فيشهد للبيان الذي بيّنا به، أن نائب الفاعل ربيون، وأن بعض القراء غير السبعة قرأ (قتل معه ربيون) بالتشديد؛ لأن التكثير المدلول عليه بالتشديد يقتضي أن القتل واقع على الربيين. ولهذه القراءة رجح الزمخشري، والبيضاوي، وابن جني؛ أن نائب الفاعل ربيون، ومال إلى ذلك الألوسي في «تفسيره» مبيّنًا أن دعوى كون التشديد لا ينافي وقوع القتل على النبيّ؛ لأن: كَأَيِّن إخبار بعدد كثير؛ أي: كثير من أفراد النبيّ قتل خلاف الظاهر، وهو كما قال، فإن قيل: قد عرفنا أن نائب الفاعل المذكور محتمل لأمرين، وقد ادعيتم أن القرآن دل على أنه ربيون لا ضمير النبي لتصريحه بأن الرسل غالبون، والمقتول غير غالب، ونحن نقول دل القرآن في آيات أُخر، على أن نائب الفاعل ضمير النبيّ، لتصريحه في آيات كثيرة بقتل بعض الرسل كقوله: ﴿فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾، وقوله: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ﴾، فما وجه ترجيح ما استدللتم به على أن النائب ربيون، على ما استدللنا به على أن النائب ضمير النبيّ؟.

فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن ما استدللنا به أخص مما استدللتم به، والأخص مقدم على الأعم، ولا يتعارض عام وخاص، كما تقرر في الأصول، وإيضاحه أن دليلنا في خصوص نبي أمر بالمغالبة في شيء، فنحن نجزم بأنه غالب فيه تصديقًا لربنا في قوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾، سواء أكانت تلك المغالبة في الحجّة والبيان، أم بالسيف والسنان، ودليلكم فيما هو أعم من هذا؛ لأن الآيات التي دلّت على قتل بعض الرسل، لم تدلّ على أنه في خصوص جهاد، بل ظاهرها أنه في غير جهاد، كما يوضحه.

الوجه الثاني: وهو أن جميع الآيات الدالّة على أن بعض الرسل قتلهم أعداء اللَّه كلها في قتل بني إسرائيل أنبياءهم، في غير جهاد ومقاتلة إلا موضع النزاع وحده.

الوجه الثالث: أن ما رجحناه من أن نائب الفاعل ربيون، تتفق عليه آيات القرآن اتفاقًا واضحًا، لا لبس فيه على مقتضى اللسان العربي في أفصح لغاته، ولم تتصادم منه آيتان، حيث حملنا الرسول المقتول على الذي لم يؤمر بالجهاد، فقتله إذن لا إشكال فيه، ولا يؤدي إلى معارضة آية واحدة من كتاب اللَّه؛ لأن اللَّه حكم للرسل بالغلبة، والغلبة لا تكون إلا مع مغالبة، وهذا لم يؤمر بالمغالبة في شيء، ولو أمر بها في شيء لغلب فيه، ولو قلنا بأن نائب الفاعل ضمير النبي لصار المعنى أن كثيرًا من الأنبياء المقاتلين قتلوا في ميدان الحرب، كما تدل عليه صيغة ﴿وَكَأَيِّن﴾ المميزة بقوله: ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾، وقتل الأعداء هذا العدد الكثير من الأنبياء المقاتلين في ميدان الحرب مناقض مناقضة صريحة لقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾، وقد عرفت معنى الغلبة في القرآن، وعرفت أنه تعالى، بين أن المقتول غير الغالب، كما تقدم. وهذا الكتاب العزيز ما أنزل ليضرب بعضه بعضًا، ولكن أنزل ليصدق بعضه بعضًا، فاتضح أن القرآن دلّ دلالة واضحة على أن نائب الفاعل ربيون، وأنه لم يقتل رسول في جهاد، كما جزم به الحسن البصري وسعيد بن جبير، والزجاج، والفراء، وغير واحد، وقصدنا في هذا الكتاب البيان بالقرآن، لا بأقوال العلماء، ولذا لم ننقل أقوال من رجح ما ذكرنا.

وما رجح به بعض العلماء كون نائب الفاعل ضمير النبي من أن سبب النزول يدل على ذلك؛ لأن سبب نزولها أن الصائح صاح قتل محمّد ﷺ وأن قوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾، يدلّ على ذلك، وأن قوله: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، يدلّ على أن الربيين لم يقتلوا؛ لأنهم لو قتلوا لما قال عنهم: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ الآية، فهو كلام كله ساقط، وترجيحات لا معول عليها فالترجيح بسبب النزول فيه أن سبب النزول لو كان يقتضي تعيين ذكر قتل النبيّ لكانت قراءة الجمهور قاتل بصيغة الماضي من المفاعلة، جارية على خلاف المتعين، وهو ظاهر السقوط كما ترى والترجيح بقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾، ظاهر السقوط؛ لأنهما معلقان بأداة الشرط، والمعلق بها لا يدل على وقوع نسبة أصلًا لا إيجابًا ولا سلبًا حتى يرجح بها غيرها.

وإذا نظرنا إلى الواقع في نفس الأمر وجدنا نبيهم ﷺ في ذلك الوقت لم يقتل ولم يمت والترجيح بقوله: ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾، سقوطه كالشمس في رابعة النهار، وأعظم دليل

قطعي على سقوطه قراءة حمزة والكسائي: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾، كل الأفعال من القتل لا من القتال وهذه القراءة السبعية المتواترة فيها. (فإن قتلوكم) بلا ألف بعد القاف فعل ماض من القتل فاقتلوهم، أفتقولون هذا لا يصح؛ لأن المقتول لا يمكن أن يؤمر بقتل قاتله. بل المعنى قتلوا بعضكم وهو معنى مشهور في اللغة العربية يقولون: قتلونا وقتلناهم، يعنون وقوع القتل على البعض كما لا يخفى. . . ، والعلم عند اللَّه تعالى»[1].

قال ابن القيم: «أخبر سبحانه أن جماعة كثيرة من أنبيائه قتلوا وقتل معهم أتباع لهم كثيرون، فما وهن من بقي منهم لما أصابهم في سبيله، وما ضعفوا، وما استكانوا، وما وهنوا عند القتل، ولا ضعفوا، ولا استكانوا، بل تلقوا الشهادة بالقوة والعزيمة والإقدام، فلم يستشهدوا مدبرين مستكينين أذلة، بل استشهدوا أعزة كراما مقبلين غير مدبرين، والصحيح: أن الآية تتناول الفريقين كليهما.

ثم أخبر سبحانه عما استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم، أن يثبت أقدامهم، وأن ينصرهم على أعدائهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق أو تجاوز لحد، وأن النصرة منوطة بالطاعة قالوا: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾، ثم علموا أن ربهم -تبارك وتعالى- إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم، لم يقدروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنه بيده دونهم، وأنه إن لم يثبت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا، فوفوا المقامين حقهما: مقام المقتضي وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه. ومقام إزالة المانع من النصرة، وهو الذنوب والإسراف»[2].

قال الشوكاني: «وفي هذا توبيخ لمن انهزم يوم أحد وذل واستكان وضعف بسبب ذلك الإرجاف الواقع من الشيطان، ولم يصنع كما صنع أصحاب من خلا من

---

(١) أضواء البيان (١/ ٢١٠-٢١٤).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٢٥-٢٢٦).

قبلهم من الرسل»[1].

قال القرطبي: «أخبر تعالى عنهم بعد أن قتل منهم أو قتل نبيهم بأنهم صبروا ولم يفروا ووطنوا أنفسهم على الموت، واستغفروا ليكون موتهم على التوبة من الذنوب إن رزقوا الشهادة، ودعوا في الثبات حتى لا ينهزموا، وبالنصر على أعدائهم. وخصوا الأقدام بالثبات دون غيرها من الجوارح لأن الاعتماد عليها. يقول: فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد؟ فأجاب دعاءهم وأعطاهم النصر والظفر والغنيمة في الدنيا والمغفرة في الآخرة إذا صاروا إليها. وهكذا يفعل اللَّه مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه، الثابتين عند لقاء عدوه بوعده الحق، وقوله الصدق»[2].

قال الجصاص عند قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ الآية: فيه حكاية دعاء الربيين من أتباع الأنبياء المتقدمين، وتعليم لنا لأن نقول مثل قولهم عند حضور القتال، فينبغي للمسلمين أن يدعوا بمثله عند معاينة العدو، ولأن اللَّه تعالى حكى ذلك عنهم على وجه المدح لهم، والرضا بقولهم لنفعل مثل فعلهم، ونستحق من المدح كاستحقاقهم»[3].

قال ابن جرير عند قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ : يعني بذلك -تعالى ذكره-: فأعطى اللَّه الذين وصفهم بما وصفهم من الصبر على طاعة اللَّه بعد مقتل أنبيائهم، وعلى جهاد عدوهم، والاستعانة باللَّه في أمورهم، واقتفائهم مناهج إمامهم على ما أبلوا في اللَّه ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ يعني: جزاء في الدنيا، وذلك: النصر على عدوهم، وعدو اللَّه، والظفر، والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد. ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ يعني: وخير جزاء الآخرة على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة، وذلك: الجنة ونعيمها»[4].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ بالنصر والظفر بالعدو، والسيادة في الأرض، وما يتبع ذلك من الكرامة والعزة، وحسن الأحدوثة وشرف الذكر، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بنيل رضوان اللَّه وقربه، والنعيم بدار كرامته، وهو ما

(١) فتح القدير (١/ ٥٧٦).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٤٨-١٤٩).
(٣) أحكام القرآن (٢/ ٣٨).
(٤) جامع البيان (٧/ ٢٧٥ شاكر).

لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كما ورد في الخبر، أخذا من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾[١] وما آتاهم ذلك إلا بحسن إرادتهم، وما كان لها من حسن الأثر في نفوسهم وأعمالهم، إذ أتوا البيوت من أبوابها، وطلبوا المقاصد بأسبابها ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ لأنهم خلفاؤه في الأرض يقيمون سننه، ويظهرون بأنفسهم وأعمالهم حكمته، فيكون عملهم لله بالله، كما ورد في صفة العبد الذي يحبه الله: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها**»[٢] أي أن مشاعره وأعماله لا تكون مشغولة إلا بما يرضي الله، ويقيم سننه، ويظهر حكمه في خلقه، وإنما جمع لهم بين ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة لأنهم أرادوا بعملهم سعادة الدنيا والآخرة، وإنما الجزاء على حسب الإرادة وهذا هو شأن المؤمن كما تقدم آنفًا، وهو حجة على الغالين في الزهد. وخص ثواب الآخرة بالحسن للإيذان بفضله ومزيته، وأنه المعتد به عند الله تعالى»[٣].

* * *

(١) السجدة: الآية (١٧).

(٢) أخرجه: البخاري (١١/ ٤١٤/ ٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تفسير المنار (٤/ ١٧٣).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -تعالى ذكره-: يا أيها الذين صدقوا اللَّه ورسوله في وعد اللَّه ووعيده وأمره ونهيه ﴿إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ يعني: الذين جحدوا نبوة نبيكم محمد ﷺ من اليهود والنصارى، فيما يأمرونكم به وفيما ينهونكم عنه، فتقبلوا رأيهم في ذلك وتنتصحوهم فيما يزعمون أنهم لكم فيه ناصحون، ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ يقول: يحملوكم على الردة بعد الإيمان، والكفر باللَّه وآياته وبرسوله بعد الإسلام، ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ يقول: فترجعوا عن إيمانكم ودينكم الذي هداكم اللَّه له ﴿خَٰسِرِينَ﴾؛ يعني: هالكين، قد خسرتم أنفسكم، وضللتم عن دينكم وذهبت دنياكم وآخرتكم، ينهى بذلك أهل الإيمان باللَّه أن يطيعوا أهل الكفر في آرائهم وينتصحوهم في أديانهم»[١].

قال ابن كثير: «يحذر تعالى عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة»[٢].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ معناه إن تطيعوا الذين جحدوا نبوة محمد ولم يقبلوا دعوته إلى التوحيد والخير كأبي سفيان ومن معه من مشركي مكة الذين دعوكم من مرضى القلوب إلى الرجوع إليهم، وتوسيط رئيس المنافقين عبد اللَّه بن أبي بينكم وبين رئيسهم (أبي سفيان) ليطلب لكم منه الأمان أو الذين كفروا بقلوبهم وآمنوا بأفواههم كعبد اللَّه بن أبي وأصحابه الذين خذلوكم قبل الشروع في الحرب ثم دعوكم بعدها إلى الرجوع إلى دينكم، وقالوا: لو كان محمد نبيًّا لما أصابه ما أصابه ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ إلى ما كنتم

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٧٦-٢٧٧ شاكر).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١١٢).

عليه من الكفر ابتداء أو استدراجًا. قال الأستاذ الإمام: أي: إن طلبتم الأمان منهم، وكانت حالكم معهم حال المغلوب مع الغالب يتولوا عليكم، وتكونوا معهم أذلاء مقهورين حتى يردوكم عن دينكم ﴿فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ للدنيا والآخرة، أما الأول فبخضوعكم لسلطانهم، وامتهانكم بينهم، وحرمانكم مما وعد اللَّه الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات من استخلافهم في الأرض بالسيادة والملك، ومن تمكين دينهم، وتبديلهم من بعد خوفهم أمنًا، وأما الآخر فبما يمسكم في الآخرة من عذاب المرتدين مع الحرمان مما وعد اللَّه المتقين»[١].

وقال ابن عاشور: «استئناف ابتدائي للانتقال من التَّوبيخ واللوم والعتاب إلى التَّحذير، ليتوسّل منه إلى معاودة التسلية على ما حصل من الهزيمة، وفي ضمن ذلك كلّه، من الحقائق الحكمية والمواعظ الأخلاقية والعبر التَّاريخية ما لا يحصيه مريد إحصائه. والطاعة تطلق على امتثال أمْر الآمِر وهو معروف، وعلى الدخول تحت حكم الغالب، فيُقال طَاعَت قبيلة كذا وطوّع الجيش بلاد كذا.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ شائع في اصطلاح القرآن أن يراد به المشركون، واللفظ صالح بالوضع لكلّ كافر من مشرك وكتابي، مظهر أو منافق.

والردّ على الأعقاب: الارتداد، والانقلاب: الرجوع، وقد تقدّم القول فيهما عند قوله: ﴿أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾[٢] فالظاهر أنَّه أراد من هذا الكلام تحذير المؤمنين من أن يُخامرهم خاطر الدخول في صلح المشركين وأمانهم؛ لأنّ في ذلك إظهار الضّعف أمامهم، والحاجة إليهم، فإذا مالوا إليهم استدرجوهم رويدًا رويدًا، بإظهار عدم كراهية دينهم المخالف لهم، حتَّى يردّوهم عن دينهم لأنَّهم لن يرضوا عنهم حتَّى يرجعوا إلى ملّتهم، فالردّ على الأعقاب على هذا يحصل بالإخارة والمآل، وقد وقعت هذه العبرة في طاعة مسلمي الأندلس لطاغية الجلالقة. وعلى هذا الوجه تكون الآية مشيرة إلى تسفيهِ رأي من قال: «**لو كلّمنا عبد اللَّه بن أبي يأخذ لنا أمانًا من أبي سفيان**» كما يدلّ عليه قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾[٣].

---

(١) تفسير المنار (٤/ ١٧٦).
(٢) الأنعام: الآية (١٤٤).
(٣) الآية (١٥٠).

ويحتمل أن يراد من الطاعة طاعة القول والإشارة؛ أي: الامتثال، وذلك قول المنافقين لهم: لو كان محمد نبيًا ما قُتل فارجعوا إلى إخوانكم وملّتكم. ومعنى الردّ على الأعقاب في هذا الوجه أنَّه يحصل مباشرة في حال طاعتهم إيّاهم»[1].

قلت: هذه الآية الكريمة جالت فيها أقوال المفسرين، وخلاصتها هو الثبات على التوحيد والسنة، خصوصًا في أيامنا هذه، فبعد رجوع كثير من الناس إلى التوحيد والسنة في بلاد الإسلام؛ أخذت الغيرة الصليبية واليهودية أصحابها، وجندوا لحرب السنة والتوحيد كل جواسيسهم وعيونهم، بجميع الطبقات الاستخبارية والأمنية عندهم؛ لحرب التوحيد والسنة، سواء على مستوى الدول التي ترفع لواء السنة أو الجماعات الموجودة في العالم أجمع، فهي تتصدى الآن لحرب السنة والتوحيد بكل وسائلها، وهدفهم أن يرجع دعاة السنة فيقبلوا الاقتراحات والقرارات، ويخضعوا لجواسيسهم الذين يمثلونهم في البلاد الإسلامية، برجوعهم إلى نكسة البدع والشرك والعياذ باللَّه، والدخول إلى الحسينيات والزوايا، وإرجاع الناس إلى الرقص باسم الذكر، وإقامة المواسم الشركية والحضرة الإلهية والعمارة، وهي أحق أن تسمى الخسارة، وهم ماضون في هذه القرارات، بل أصبحوا يهددون كل موحد وصاحب سنة، ويفرضونها عليه فرضًا عسكريًا، وإلا سيطرد من عمله ووظيفته. فاللهم عليك بهم، اللهم شتت شملهم، وزلزل الأرض من تحت أقدامهم، وأذبهم كما يذاب الملح في الطعام، ولا تبقي عليهم، اللهم انصر الإسلام وأهله، والتوحيد والسنة، إنك سميع مجيب.

* * *

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٢١-١٢٢).

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -تعالى ذكره-: أن اللَّه مسددكم أيها المؤمنون، فمنقذكم من طاعة الذين كفروا. وإنما قيل: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ لأن في قوله: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ نهيًا لهم عن طاعتهم، فكأنه قال: يا أيها الذين آمنوا لا تطيعوا الذين كفروا، فيردوكم على أعقابكم، ثم ابتدأ الخبر فقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ فأطيعوه دون الذين كفروا فهو خير من نصر، ولذلك رفع اسم ﴿ٱللَّهُ﴾، ولو كان منصوبًا على معنى: بل أطيعوا اللَّه مولاكم دون الذين كفروا، كان وجهًا صحيحًا ويعني بقوله ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾: وليكم وناصركم على أعدائكم الذين كفروا. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾: لا من فررتم إليه من اليهود وأهل الكفر باللَّه، فباللَّه الذي هو ناصركم ومولاكم فاعتصموا، وإياه فاستنصروا دون غيره ممن يبغيكم الغوائل، ويرصدكم بالمكاره»(١).

قال السعدي: «أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك، وبشارة بأنه يتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور. وفي ضمن، ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده وليا وناصرا من دون كل أحد»(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «فلا ينبغي أن تفكروا في ولاية أبي سفيان وحزبه ولا عبد اللَّه بن أبيّ وشيعته، ولا أن تصغوا لإغواء من يدعوكم إلى موالاتهم، فإنهم لا يستطيعون لكم نصرًا ولا أنفسهم ينصرون، وإنما اللَّه هو المولى القادر على نصركم إذا هو تولى شؤونكم بعنايته الخاصة التي وعدكم بها في قوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾(٣)، وبين لكم أن سنته قد مضت بأنه يتولى الصالحين ويخذل من يناوئهم من الكافرين ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢٧٧- ٢٧٨ شاكر).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٣٤).
(٣) الأنفال: الآية (٤٠).

عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[١] ومن هنا أخذ النبي ﷺ جوابه لأبي سفيان حين قال بعد وقعة أحد التي نزلت هذه الآيات فيها «**لنا العزى ولا عزى لكم**» إذ أمر -عليه الصلاة والسلام- بأن يجاب «**اللَّه مولانا ولا مولى لكم**»، كأنه تعالى يذكر المؤمنين بقوله هذا المنبئ عن سنته وبتذكير الرسول لهم به. وإذا كان هو مولاكم وناصركم إذا قمتم بما شرطه عليكم في ذلك من الإيمان والصلاح ونصر الحق فهل تحتاجون إلى أحد من بعده؟ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ فإن من يطلق عليهم لفظ الناصر من الناس إنما ينصر بعضهم بعضًا بما أوتوا من القوى وما تيسر لهم من الأسباب، وإنما اللَّه هو الذي آتاهم القوى وسخر لهم الأسباب، وهو القادر بذاته على نصر من شاء من عباده بإيتائهم أفضل ما يؤتي غيرهم من الصبر والثبات والعزيمة وإحكام الرأي، وإقامة السنن والتوفيق للأسباب»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن اللَّه ولي المومنين

* عن البراء ﷺ قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرماة، وأمر عليهم عبد اللَّه، وقال: «**لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا**» فلما لقينا هربوا، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال عبد الله: عهد إلي النبي ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا. فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلًا. وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال: «**لا تجيبوه**». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «**لا تجيبوه**». فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا، فلم يملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدو اللَّه، أبقى اللَّه عليك ما يخزيك. قال أبو سفيان: أعل هبل. فقال النبي ﷺ: «**أجيبوه**». قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: اللَّه أعلى وأجل**». قال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ:

(١) محمد: الآيتان (١٠-١١).

(٢) تفسير المنار (٤/ ١٧٦-١٧٧).

«**أجيبوه**» قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: اللَّه مولانا، ولا مولى لكم**». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مثلة لم آمر بها ولم تسؤني»[١].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩٣)، والبخاري (٧/ ٤٤٣/ ٤٠٤٣)، وأبو داود (٣/ ١١٧-١١٨/ ٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٨٩-١٩٠/ ٨٦٣٥٤).

قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الرعب: الخوف.

سلطانًا: برهانًا وحجة.

مأواهم: مسكنهم.

مثوى: من الثواء وهي الإقامة مع الاستقرار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: سيلقي اللَّه أيها المؤمنون ﴿فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بربهم، وجحدوا نبوة محمد ﷺ ممن حاربكم بأحد ﴿الرُّعْبَ﴾: وهو الجزع والهلع ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾؛ يعني: بشركهم باللَّه وعبادتهم الأصنام، وطاعتهم الشيطان التي لم أجعل لهم بها حجة، وهي السلطان التي أخبر ﷻ أنه لم ينزله بكفرهم وشركهم، وهذا وعد من اللَّه -جل ثناؤه- أصحاب رسول اللَّه ﷺ بالنصر على أعدائهم، والفلج عليهم ما استقاموا على عهده، وتمسكوا بطاعته، ثم أخبرهم ما هو فاعل بأعدائهم بعد مصيرهم إليه، فقال -جل ثناؤه-: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾؛ يعني: ومرجعهم الذي يرجعون إليه يوم القيامة النار. ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ يقول: وبئس مقام الظالمين -الذين ظلموا أنفسهم باكتسابهم ما أوجب لها عقاب الله- النار»[١].

قال السعدي: «فمن ولايته ونصره لهم، أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب

(١) جامع البيان (٧/ ٢٧٩ شاكر).

أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم، الذي يمنعهم من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى. وذلك أن المشركين -بعدما انصرفوا من وقعة أحد- تشاوروا فيما بينهم، وقالوا: كيف ننصرف بعد أن قتلنا منهم من قتلنا، وهزمناهم ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك. فألقى اللَّه في قلوبهم الرعب، فانصرفوا خائبين.

ولا شك أن هذا من أعظم النصر؛ لأنه قد تقدم أن نصر اللَّه لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطع طرفًا ممن كفروا، أو يكبتهم فينقلبوا خائبين. وهذا من الثاني.

ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين فقال: ﴿بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾؛ أي: ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة، من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن. فمن ثم كان المشرك مرعوبًا من المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، هذا حاله في الدنيا. وأما الآخرة فأشد وأعظم»[1].

وقال القاسمي: «أفادت الآية أن ذلك الرعب بسبب ما في قلوبهم من الشرك باللَّه، وعلى قدر الشرك يكون الرعب. قال القاشانيّ: جعل إلقاء الرعب في قلوب الكفار مسببًا عن شركهم لأن الشجاعة وسائر الفضائل اعتدالات في قوى النفس لتنورها بنور التوحيد، فلا تكون تامة إلا للموحد الموقن في توحيده. وأما المشرك فلأنه محجوب عن منيع القدرة بما أشرك باللَّه من الموجود المشوب بالعدم الذي لم يكن له بحسب نفسه قوة، ولم ينزل اللَّه بوجوده حجة، فليس له إلا العجز والجبن وجميع الرذائل»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «المتبادر لنا أن الآية تعليل أو تصوير لكونه تعالى خير الناصرين للمؤمنين الموحدين مبينة لبعض وجوهه تبيينا يقبح لهم الشرك ويزيدهم حبًّا في الإيمان، وبيانه أنه سيحكم في أعدائهم المشركين سنته العادلة، وهي أنه يلقي في قلوبهم الرعب وهو.. شدة الخوف التي تملأ القلب بسبب إشراكهم باللَّه أصناما

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٣٤-٤٣٥).

(٢) محاسن التأويل (٤/ ٢٤٩).

ومعبودات لم ينزل بها سلطانًا ؛ أي : لم يقم برهانًا من العقل ولا من الوحي على ما زعموا من ألوهيتها وكونها واسطة بين اللّٰه وبين خلقه، وإنما قلدوا في اتخاذها واعتقادها آباءهم الذين اتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل، ومن كان كذلك غير مطمئن في دينه، ولا متبع للدليل في اعتقاده فهو دائمًا عرضة لاضطراب القلب، واتباع خطرات الوهم، يعد الوساوس أسبابًا، ويرى الهواجس مؤثرات وعللًا، قياسا على اتخاذه بعض المخلوقات أولياء، وجعلهم وسائط عند اللّٰه شفعاء، واعتياده بذلك أن يرجو ما لا يرجى منه خير، ويخاف ما لا يخاف منه ضير، فالإشراك قد يكون سببًا طبيعيًّا لوقوع الرعب في القلب، وما كان كذلك فإن اللّٰه يسنده إلى نفسه وإن لم يذكر السبب؛ لأنه هو واضع الأسباب والسنن، ولكنه قد صرح به هنا ليكون برهانا على بطلان الشرك، وسوء أثره، وهذا الوجه المختار في تفسير الآية يوافق قول من جعل الوعيد فيها عامًّا وليس كل الكفر يثير الرعب بطبيعته، وإنما تلك طبيعة الشرك وهو اعتقاد أن لبعض المخلوقات تأثير غيبيًّا وراء السنن الإلهية والأسباب.

وصرح كثير من المفسرين بأن قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى﴾ وعد للمؤمنين أنجزه اللّٰه يوم أحد في أول الحرب. ولا يظهر هذا بغير تأويل ولا تقدير إلا إذا كانت الآية قد نزلت قبل القتال، والظاهر أنها نزلت مع ما قبلها وما بعدها عقب القتال وانصراف المشركين. وقال بعضهم: إن الوعد أنجز في غزوة حمراء الأسد إذ أراد أبو سفيان ومن معه بعد الانصراف من أحد أن يرجعوا لاستئصال المسلمين فأوقع اللّٰه الرعب في قلوبهم لمّا قال لهم معبد ما قال.

قال الأستاذ الإمام: في الآية وجهان: (أحدهما): أن إلقاء الرعب خاص بتلك الواقعة، ولو كان عاما لشمل غزوة حنين، ولم يكن الكفار فيها مرعوبين؛ بل كانوا مستميتين، وكذلك نرى أن كثيرًا من الكافرين قد حاربوا ولم يصبهم الرعب، وهذا الوجه هو الذي عليه مفسرنا (الجلال) وكثير من المفسرين.

(والوجه الثاني) أن الآية بيان لسنة إلهية عامة وهو الحق، وبيانه يتوقف على فهم المعنى المراد من لفظ المؤمنين ولفظ الكافرين، وهو ما كان عليه المؤمنون والكافرون في الوقت الذي نزلت فيه هذه الآيات. فأما أولئك المؤمنون فهم الذين كانوا في مرتبة من اليقين والإذعان، قد صدقها العمل الذي كان منه بذل الأنفس

والأموال في سبيل الإيمان، الذين عاتبهم اللَّه ووبخهم على تلك الهفوة التي وقعت من بعضهم بما تقدم وما يأتي في هذا السياق من الآيات. وأما أولئك الكافرون فهم الذين دعوا إلى الإيمان، وأقيم لهم على الدعوة الدليل والبرهان، فجاحدوا وعاندوا وكابروا الحق، وآثروا مقارعة الداعي ومن استجاب له بالسيف، وقعدوا له ولهم كل مرصد، فإذا نظرنا في شرك هؤلاء الكافرين وفي حالهم مع أولئك المؤمنين نجد أن شأنهم معهم كشأن من يرى نور الحق مع خصمه فيحمله البغي والعدوان على مجاحدته من غير حجة ولا دليل يرتاب فيما هو فيه ويتزلزل فإذا شاهد الذين دعوه ثابتين مطمئنين يعظم ارتيابه ويهاب خصمه حتى يمتلأ قلبه رعبًا منهم. هذا هو شأن الكافرين المعاندين مع المؤمنين الصادقين، كأنه تعالى يقول هذه هي الطبيعة في المشركين إذا قاوموا المؤمنين فلا تخافوهم ولا تبالوا بقول من يدعوكم إلى موالاتهم والالتجاء إليهم.

قال: وبهذا يندفع قول من يقول: ما بالنا نجد الرعب كثيرًا ما يقع في قلوب المسلمين ولا يقع في قلوب الكافرين، فإن الذين يسمون أنفسهم مسلمين قد يكونون على غير ما كان عليه أولئك الذين خوطبوا بهذا الوعد من قوة اليقين والإذعان والثبات والصبر وبذل النفس والمال في سبيل اللَّه وتمني الموت في الدفاع عن الحق، فمعنى المؤمنين غير متحقق فيهم، وإنما رعب المشركين مرتبط بإيمان المؤمنين وما يكون له من الآثار، فحال المسلمين اليوم لا يقوم حجة على القرآن لأن أكثرهم قد انصرفوا عن الاجتماع على ما جاء به الإسلام من الحق وما كان عليه سلفهم من الإيمان والصفات والأعمال، فالقرآن باق على وعده ولكن هات لنا المؤمنين الذين ينطبق إيمانهم على آياته ولك من إنجاز وعده في هذه الآية وغيرها ما تشاء. وتلا قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1] الآية.

قال: وعلى هذا يكون الإشراك سببًا للرعب كسائر الأسباب العادية التي ربط اللَّه بها المسببات كالشرب للري، والأكل للشبع، فمن وصل إليه الحق تزلزل الباطل في نفسه لا محالة.

(١) النور: الآية (٥٥).

أقول: ومن تمام التشبيه أن تكون بعض الوقائع التي لا يقع فيها الرعب في قلوب المشركين كالوقائع التي يشرب فيها المرء ولا يروى لعارض مرضي. فسنن الاجتماع كسنن الأجسام الطبيعة لها عوارض وشروط وموانع.

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: هي مكانهم الذي يأوون إليه في الآخرة بعدما يصيبهم من الخذلان في الدنيا.

﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: والنار التي يأوون إليها بئس المثوى والمقام لهم بسبب ظلمهم لأنفسهم بالكفر والجحود ومعاندة الحق ومقاومة أهله وظلم الناس بسوء المعاملة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن من آيات نبوته ﷺ خوف أعدائه منه من مسافة بعيدة

* عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِاللَّهِ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ ﷺ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ، ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ[٢].

★ **غريب الحديث:**

بإيلياء: بهمزة مكسورة بعدها ياء أخيرة ساكنة ثم لام مكسورة ثم ياء أخيرة ثم ألف مهموزة. وحكى البكري فيها القصر. ويقال لها أيضًا: إليا... قيل: معناه بيت اللَّه.

هرقل: هو ملك الروم وهرقل اسمه، وهو بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف ولقبه قيصر.

الصخب: الصخب اللغط، وهو اختلاط الأصوات في المخاصمة.

---

(١) تفسير المنار (٤/ ١٧٧-١٨٠).

(٢) أخرجه مطولًا ومختصرًا: أحمد (١/ ٢٦٢-٢٦٣)، والبخاري (٦/ ١٥٨/ ٢٩٧٨)، ومسلم (٣/ ١٣٩٣-١٣٩٧/ ١٧٧٣)، وأبو داود (٥/ ٣٤٨-٣٤٩(٥١٣٦))، والترمذي (٥/ ٦٥/ ٢٧١٧)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٣٦/ ٥٨٥٨).

أَمِرَ: هو بفتح الهمزة وكسر الميم؛ أي: عظم.

ابن أبي كبشة: أراد به النبي ﷺ لأن أبا كبشة أحد أجداده، وعادة العرب إذا انتقصت نسبت إلى جد غامض، وقيل هو أبوه من الرضاعة، وقيل هو رجل من خزاعة خالف قريشًا في عبادة الأوثان فعبد الشعرى فنسبوه إليه للاشتراك في مطلق المخالفة.

ملك بنو الأصفر: هم الروم.

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «والغرض منه هنا قوله: «**إنه يخافه ملك بني الأصفر**»؛ لأنه كان بين المدينة وبين المكان الذي كان قيصر ينزل فيه مدة شهر أو نحوه»[(١)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، فبينا أنا نائم أوتيت مفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي**» قال أبو هريرة: وقد ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تنتثلونها[(٢)].

* عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «**فضلني ربي على الأنبياء** -أو قال: **على الأمم** -**بأربع قال: أرسلت إلى الناس كافة، وجعلت الأرض كلها لي ولأمتي مسجدًا وطهورًا، فأينما أدركت رجلًا من أمتي الصلاة فعنده مسجده وعنده طهوره، ونصرت بالرعب مسيرة شهر يقذفه في قلوب أعدائي، وأحل لنا الغنائم**»[(٣)].

★ غريب الحديثين:

جوامع الكلم: القرآن، فإنه تقع فيه المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة. وكذلك يقع في الأحاديث النبوية الكثير من ذلك.

مفاتيح خزائن الأرض: المراد منها ما يفتح لأمته من بعده من الفتوح وقيل

---

(١) فتح الباري (٦/ ١٥٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٤)، والبخاري (٦/ ١٥٨/ ٢٩٧٧)، ومسلم (١/ ٣٧١/ ٥٢٣[٦])، والنسائي (٦/ ٣١٠-٣١١/ ٣٠٨٧) من طريق ابن شهاب الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة به.

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٤٨)، والترمذي (٤/ ١٠٤/ ١٥٥٣) مختصرًا وقال: حسن صحيح، والبيهقي (١/ ٢١٢). من طرق عن سليمان التيمي عن سيار عن أبي أمامة رضي الله عنه. قال الحافظ ابن حجر في التلخيص (١/ ١٤٩): «وفي الثقفيات عن أبي أمامة نحو الأربع المذكورة وإسناده صحيح، وأصله عند البيهقي.

المعادن.

تنتثلونها: بوزن تفتعلونها من النثل بالنون والمثلثة؛ أي: تستخرجونها تقول: نثلت البئر إذا استخرجت ترابها.

★ فوائد الحديثين:

قال السندي: «**«ونصرت بالرعب»**: أي: بإيقاع اللَّه تعالى الخوف في قلوب الأعداء بلا أسباب عادية كما لأبناء الدنيا»[١].

وقال ابن حجر: «وليس المراد بالخصوصية مجرد حصول الرعب بل هو وما ينشأ عنه من الظفر بالعدو»[٢].

وقال أيضًا: «قوله: «**مسيرة شهر**»: مفهومه أنه لم يوجد لغيره النصر بالرعب في هذه المدة ولا في أكثر منها، أما ما دونها فلا -إلى أن قال:- وإنما جعل الغاية شهرًا لأنه لم يكن بين بلده وبين أحد من أعدائه أكثر منه، وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق حتى لو كان وحده بغير عسكر، وهل هي حاصلة لأمته من بعده؟ فيه احتمال»[٣].

* * *

---

(١) حاشية السندي على سنن النسائي (٤/ ٣١٠).
(٢) فتح الباري (٦/ ١٥٨).
(٣) فتح الباري (١/ ٥٧٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تحسونهم: تقتلونهم، يقال حسسته أحسه: أقتله.

صرفكم: من الصرف وهو رد الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره.

ليبتليكم: ليختبركم. من بلوت فلانا إذا اختبرته.

عفا عنكم: تاب عليكم، من العفو وهو التجافي عن الذنب.

تصعدون: من الإصعاد، يقال: أصعد في الأرض إذا ذهب فيها وأبعد. وقيل من الصعود وهو الارتفاع والرقي من أسفل إلى فوق.

لا تلوون: أي: لا تلتفتون. وأصله أن المعرج على الشيء يلوي إليه عنقه فإذا مضى ولم يعرج: قيل: لم يلوه.

أخراكم: في آخركم أو من وراءكم.

أثابكم: جازاكم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ﴾ بالنصر، فنصركم عليهم حتى ولوكم أكتافهم، وطفقتم فيهم قتلًا، حتى صرتم سببًا لأنفسكم، وعونًا لأعدائكم عليكم. فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ الذي فيه ترك أمر اللَّه بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلفتم. فمن قائل: نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ. ومن قائل: ما مقامنا فيه، وقد انهزم العدو، ولم يبق محذور فعصيتم الرسول وتركتم أمره من بعد ما أراكم اللَّه ما تحبون. وهو انخذال أعدائكم؛ لأن الواجب على من أنعم اللَّه عليه بما أحب أعظم من غيره. فالواجب في هذه الحال خصوصًا وفي غيرها عمومًا، امتثال أمر اللَّه ورسوله.

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ وهم الذين لزموا أمر رسول اللَّه، وثبتوا حيث أمروا. ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾؛ أي: بعدما وجدت هذه الأمور منكم، صرف اللَّه وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم ابتلاء من اللَّه لكم وامتحانًا، ليتبين المؤمن من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفر اللَّه عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم فلهذا قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ذو فضل عظيم عليهم، حيث من عليهم بالإسلام، وهداهم لشرائعه، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيباتهم. ومن فضله على المؤمنين أن لا يقدر عليهم خيرًا ولا مصيبة إلا كان خيرًا لهم. إن أصابتهم سراء فشكروا جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم ضراء فصبروا جازاهم جزاء الصابرين.

يذكرهم تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم على ذلك فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾؛ أي: تجدون في الهرب ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾؛ أي: لا يلوي أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه؛ بل ليس لكم هم إلا الفرار، والنجاء من القتال. والحال أنه ليس عليكم خطر كبير. إذ لستم آخر الناس، مما يلي الأعداء، ويباشر الهيجاء. بل ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾؛ أي: مما يلي القوم يقول: «إلي عباد الله». فلم تلتفتوا إليه. ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه، موجب للوم. ودعوة الرسول الموجبة لتقديمه على النفس، أعظم لومًا، بتخلفكم

عنها. ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾؛ أي: جازاكم على فعلكم ﴿غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾؛ أي: غمًّا يتبعه غم. غم بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم، وغم أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمدًا ﷺ قد قتل. ولكن اللَّه -بلطفه، وحسن نظره لعباده- جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين، خيرًا لهم فقال: ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ من النصر والظفر، ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ من الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققتم أن الرسول ﷺ لم يُقتل، هانت عليكم تلك المصيبات، واغتبطتم بوجوده المسلي عن كل مصيبة ومحنة. فلله ما في ضمن البلايا والمحن من الأسرار والحكم. وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته بأعمالكم، وظواهركم، وبواطنكم، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾. ويحتمل أن معنى قوله ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾؛ يعني: أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم، وتمرنوا على الصبر على المصيبات، ويخف عليكم تحمل المشاق»[1].

قال الرازي: «ذكر تعالى أمورًا ثلاثة: أولها: الفشل وهو الضعف، وقيل الفشل هو الجبن، وهذا باطل بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾[2] أي فتضعفوا؛ لأنه لا يليق به أن يكون المعنى فتجبنوا. ثانيها: التنازع في الأمر وفيه بحثان. البحث الأول: المراد من التنازع أنه -عليه الصلاة والسلام- أمر الرماة بأن لا يبرحوا عن مكانهم ألبتة، وجعل أميرهم عبد اللَّه بن جبير؛ فلما ظهر المشركون أقبل الرماة عليهم بالرمي الكثير حتى انهزم المشركون، ثم إن الرماة رأوا نساء المشركين صعدن الجبل وكشفن عن سوقهن بحيث بدت خلاخيلهن، فقالوا: الغنيمة الغنيمة. فقال عبد الله: عهد الرسول إلينا أن لا نبرح عن هذا المكان فأبوا عليه وذهبوا إلى طلب الغنيمة، وبقي عبد اللَّه مع طائفة قليلة دون العشرة إلى أن قتلهم المشركون؛ فهذا هو التنازع.

البحث الثاني: قوله: ﴿فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ فيه وجهان: الأول: أن الأمر ههنا بمعنى الشأن والقصة؛ أي: تنازعتم فيما كنتم فيه من الشأن. والثاني: أنه الأمر الذي يضاده النهي. والمعنى: وتنازعتم فيما أمركم الرسول به من ملازمة ذلك المكان.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٣٦-٤٣٩). (٢) الأنفال: الآية (٤٦).

وثالثها: وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون. والمراد عصيتم بترك ملازمة ذلك المكان. بقي في هذه الآية سؤالات:

الأول: لم قدم ذكر الفشل على ذكر التنازع والمعصية؟.

والجواب: أن القوم لما رأوا هزيمة الكفار وطمعوا في الغنيمة، فشلوا في أنفسهم عن الثبات طمعًا في الغنيمة، ثم تنازعوا بطريق القول في أنا: هل نذهب لطلب الغنيمة أم لا؟ ثم اشتغلوا بطلب الغنيمة.

السؤال الثاني: لما كانت المعصية بمفارقة تلك المواضع خاصة بالبعض، فلم جاء هذا العتاب باللفظ العام؟.

والجواب: هذا اللفظ وإن كان عامًّا إلا أنه جاء المخصص بعده، وهو قوله: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾.

السؤال الثالث: ما الفائدة في قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾.

والجواب عنه: أن المقصود منه التنبيه على عظم المعصية؛ لأنهم لما شاهدوا أن اللَّه تعالى أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموا عليها لا جرم سلبهم اللَّه ذلك الإكرام، وأذاقهم وبال أمرهم»[1].

قال ابن القيم: «ثم أخبرهم أنه صدقهم وعده في نصرتهم على عدوهم، وهو الصادق الوعد وأنهم لو استمروا على الطاعة ولزوم أمر الرسول لاستمرت نصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصرة، فصرفهم عن عدوهم عقوبة وابتلاء، وتعريفًا لهم بسوء عواقب المعصية وحسن عاقبة الطاعة.

ثم أخبر أنه عفا عنهم بعد ذلك كله، وأنه ذو فضل على عباده المؤمنين. قيل للحسن: كيف يعفو عنهم، وقد سلط عليهم أعداءهم حتى قتلوا منهم من قتلوا، ومثلوا بهم، ونالوا منهم ما نالوه؟ فقال: لولا عفوه عنهم لاستأصلهم، ولكن بعفوه عنهم دفع عنهم عدوهم بعد أن كانوا مجمعين على استئصالهم.

ثم ذكرهم بحالهم وقت الفرار مصعدين؛ أي: جادين في الهرب والذهاب في

(١) تفسير الرازي (٩/ ٣٩-٤٠).

الأرض، أو صاعدين في الجبل لا يلوون على أحد من نبيهم ولا أصحابهم، والرسول يدعوهم في أخراهم: إلي عباد اللَّه، أنا رسول اللَّه، فأثابهم بهذا الهرب والفرار غمًّا بعد غم: غم الهزيمة والكسرة، وغم صرخة الشيطان فيهم بأن محمدًا قد قتل.

وقيل: جازاكم غمًّا بما غممتم رسوله بفراركم عنه، وأسلمتموه إلى عدوه، فالغم الذي حصل لكم جزاء على الغم الذي أوقعتموه بنبيه، والقول الأول أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لِّكَيْلَا تَحْـزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ تنبيه على حكمة هذا الغم بعد الغم، وهو أن ينسيهم الحزن على ما فاتهم من الظفر، وعلى ما أصابهم من الهزيمة والجراح، فنسوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصل بالغم الذي يعقبه غم آخر.

الثاني: أنه مطابق للواقع، فإنه حصل لهم غم فوات الغنيمة، ثم أعقبه غم الهزيمة، ثم غم الجراح التي أصابتهم، ثم غم القتل، ثم غم سماعهم أن رسول اللَّه ﷺ قد قتل، ثم غم ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غمين اثنين خاصة بل غما متتابعا لتمام الابتلاء والامتحان.

الثالث: أن قوله: ﴿بِغَمٍّ﴾ من تمام الثواب لا أنه سبب جزاء الثواب، والمعنى: أثابكم غمًّا متصلًا بغم جزاء على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيهم ﷺ وأصحابه، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له في لزوم مركزهم، وتنازعهم في الأمر وفشلهم وكل واحد من هذه الأمور يوجب غما يخصه فترادفت عليهم الغموم كما ترادفت منهم أسبابها وموجباتها، ولولا أن تداركهم بعفوه لكان أمرًا آخر. ومن لطفه بهم، ورأفته، ورحمته، أن هذه الأمور التي صدرت منهم كانت من موجبات الطباع؛ وهي من بقايا النفوس التي تمنع من النصرة المستقرة، فقيض لهم بلطفه أسبابًا أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتب عليها آثارها المكروهة، فعلموا حينئذ أن التوبة منها والاحتراز من أمثالها، ودفعها بأضدادها أمر متعين، لا يتم لهم الفلاح والنصرة الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشد حذرًا بعدها ومعرفة بالأبواب التي دخل عليهم منها»[1].

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٢٦-٢٢٨).

وقال محمد رشيد رضا: «وحاصل المعنى: أنه بعد أن صدقكم وعده فكنتم تقتلونهم بإذنه ومعونته قتل حس واستئصال صرفكم عنهم بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم وحال بينكم وبين تمام النصر ليمتحنكم بذلك؛ أي: ليعاملكم معاملة من يمتحن ويختبر، أو لأجل أن يكون ذلك ابتلاء واختبارًا لكم يمحصكم به ويميز بين الصادقين والمنافقين ويزيل بين الأقوياء والضعفاء كما علم من الآيات السابقة. وقد أسند اللَّه تعالى صرف المؤمنين عن المشركين إلى نفسه هنا باعتبار غايته الحميدة في تربيتهم وتمحيصهم الذي يعدهم للنصر الكامل والظفر الشامل في المستقبل، وأضاف ما أصابهم إليهم في قوله الذي سيأتي في السياق ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[1] باعتبار سببه وهو ما كان منهم من الفشل والتنازع والعصيان..

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ بذلك التمحيص الذي محا أثر الذنب من نفوسكم فصرتم كأنكم لم تفشلوا ولم تتنازعوا ولم تعصوا، وقد ظهر أثر هذا العفو في حمراء الأسد كما علم مما مر وما يأتي ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلا يذرهم على ما هم عليه من ضعف يلمّ ببعضهم، أو تقصير يهبط بنفوس غير الراسخين منهم حتى يبتلي ما في قلوبهم، ويمحص ما في صدورهم فيكونوا من المخلصين.

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾ أي: صرفكم عنهم في ذلك الوقت الذي أصعدتم فيه أي ذهبتم وأبعدتم في الأرض منهزمين وهو غير الصعود الذي هو الذهاب في المرتفعات كالجبال- لا تلوون- أي: لا تعطفون على أحد بنجدة ولا مدافعة، ولا تلتفتون إلى من ورائكم لشدة الدهشة التي عرتكم والذعر الذي فاجأكم.

﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ أي: تفعلون ذلك والرسول من ورائكم يدعوكم إليه فيمن تأخر معه منكم فكانوا ساقة الجيش.. وأنتم لا تسمعون ولا تنظرون، وكان يجب أن يكون لكم أسوة حسنة بالرسول فتقتدوا به في صبره وثباته ولكن أكثركم لم يفعل ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أي: فجازاكم اللَّه غما بسبب الغم الذي أصاب الرسول من فشلكم وهزيمتكم أو غمًّا متصلًا بغم فنال العدو منكم

(١) آل عمران: الآية (١٦٥).

ونلتم من أنفسكم، إذ صرتم من الدهشة يضرب بعضكم بعضًا وفاتتكم الغنيمة التي طمعتم فيها..

﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ أي: لأجل أن لا تحزنوا بعد هذا التأديب والتمرين على ما فاتكم من غنيمة ومنفعة ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ من قرح ومصيبة، فإن التربية إنما تكون بالعمل والتمرن الذي به يكمل الإيمان، وترسخ الأخلاق..

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من دقائقه وأسبابه ولا من نيتكم فيه وعاقبته فيكم. ومن بلاغة هذه الجملة في هذا الموضع أن كل واحد من المخاطبين يتذكر عند سماعها أو تلاوتها أن اللَّه تعالى مطلع على عمله عالم بنيته وخواطره، فيحاسب نفسه، فإن كان مقصرًا تاب من ذنبه، وإن كان مشمرًا ازداد نشاطًا خوف الوقوع في التقصير، وأن يراه اللَّه حيث لا يرضى»[1].

قلت: هذه الوقعة هي وقعة أحد، حصل فيها هذا الدرس العظيم، الذي سيبقى درسًا لكل مسلم وجماعة ودولة إلى يوم القيامة؛ فمخالفة أمر النبي ﷺ ووصيته في أي باب من أبواب الخير والعلم والعبادات والمعتقد، وفي باب الدعوة إلى اللَّه والجهاد في سبيله يعرض المسلم أو الجماعة أو الدولة إلى البلاء، فقد تبتلى بالقحط والزلازل والأمراض والغلاء وفساد الأجيال والذرية وتسليط العدو عليها من خارجها أو من داخلها، وكل هذا واقع مع الأسف لمخالفة الأمة لأوامره ﷺ ووصاياه. فما أكثر محنها ومصائبها! وسببه مخالفتها لهدي نبيها محمد ﷺ، ابتغت الرقي في غير هديه، وتنكبت عن طريقته، ورأت النصرة بيد عدوها، والرقي والعلو في مناهج أعدائها، فعاملها اللَّه بما تستحق من نكسة وانتكاس وانحراف، نرجو اللَّه أن يعصمنا ويهدينا لمتابعة نبينا ﷺ.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قصة أحد

* عن عبيد اللَّه عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: مَا نَصَرَ اللَّهُ -تبارك وتعالى- فِي مَوْطِنٍ كَمَا نَصَرَ يَوْمَ أُحُدٍ. قَالَ: فَأَنْكَرْنَا ذَلِكَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ

(١) تفسير المنار (٤/ ١٨٣-١٨٥).

كِتَابُ اللَّهِ -تبارك وتعالى-، إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ فِي يَوْمِ أُحُدٍ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾، يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَالْحَسُّ: الْقَتْلُ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وَإِنَّمَا عَنَى بِهَذَا الرُّمَاةَ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقَامَهُمْ فِي مَوْضِعٍ، ثُمَّ قَالَ: «**احْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ فَلَا تَنْصُرُونَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تَشْرَكُونَا**» فَلَمَّا غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَبَاحُوا عَسْكَرَ الْمُشْرِكِينَ، أَكَبَّ الرُّمَاةُ جَمِيعًا، فَدَخَلُوا فِي الْعَسْكَرِ يَنْهَبُونَ، وَقَدِ الْتَقَتْ صُفُوفُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَهُمْ هكَذَا -وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدَيْهِ- وَالْتَبَسُوا، فَلَمَّا أَخَلَّ الرُّمَاةُ تِلْكَ الْخَلَّةَ الَّتِي كَانُوا فِيهَا، دَخَلَتِ الْخَيْلُ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَضَرَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَالْتَبَسُوا وَقُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَاسٌ كَثِيرٌ وَقَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ أَوَّلُ النَّهَارِ، حَتَّى قُتِلَ مِنْ أَصْحَابِ لِوَاءِ الْمُشْرِكِينَ سَبْعَةٌ أَوْ تِسْعَةٌ، وَجَالَ الْمُسْلِمُونَ جَوْلَةً نَحْوَ الْجَبَلِ، وَلَمْ يَبْلُغُوا -حَيْثُ يَقُولُ النَّاسُ- الْغَارَ، إِنَّمَا كَانُوا تَحْتَ الْمِهْرَاسِ، وَصَاحَ الشَّيْطَانُ: قُتِلَ مُحَمَّدٌ، فَلَمْ يُشَكَّ فِيهِ أَنَّهُ حَقٌّ، فَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ مَا نَشُكُّ أَنَّهُ قَدْ قُتِلَ حَتَّى طَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ السَّعْدَيْنِ نَعْرِفُهُ بِتَكَفُّئِهِ إِذَا مَشَى، قَالَ: فَفَرِحْنَا حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يُصِبْنَا مَا أَصَابَنَا، قَالَ: فَرَقِيَ نَحْوَنَا وَهُوَ يَقُولُ: «**اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ دَمَّوْا وَجْهَ رَسُولِهِ**» قَالَ: وَيَقُولُ مَرَّةً أُخْرَى: «**اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا**» حَتَّى انْتَهَى إِلَيْنَا، فَمَكَثَ سَاعَةً، فَإِذَا أَبُو سُفْيَانَ يَصِيحُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ: اعْلُ هُبَلُ -مَرَّتَيْنِ، يَعْنِي آلِهَتَهُ- أَيْنَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَلَا أُجِيبُهُ؟ قَالَ: «**بَلَى**». فَلَمَّا قَالَ: اعْلُ هُبَلُ، قَالَ عُمَرُ: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ. قَالَ: فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، إِنَّهُ قَدْ أَنْعَمَتْ عَيْنُهَا، فَعَادِ عَنْهَا، أَوْ فَعَالِ عَنْهَا، فَقَالَ: أَيْنَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ أَيْنَ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا أَبُو بَكْرٍ، وَهَا أَنَا ذَا عُمَرُ. قَالَ: فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، الْأَيَّامُ دُوَلٌ، وَإِنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ. قَالَ: فَقَالَ عُمَرُ:

لَا سَوَاءً قَتْلَانَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتْلَاكُمْ فِي النَّارِ. قَالَ: إِنَّكُمْ لَتَزْعُمُونَ ذَلِكَ لَقَدْ خِبْنَا إِذَنْ وَخَسِرْنَا، ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَمَا إِنَّكُمْ سَوْفَ تَجِدُونَ فِي قَتْلَاكُمْ مُثْلًا، وَلَمْ يَكُنْ ذَاكَ عَنْ رَأْيِ سَرَاتِنَا، قَالَ: ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ قَالَ: فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَانَ ذَاكَ وَلَمْ يكْرَهه[1].

* عن البراء بن عازب قال: جعل رسول اللَّه ﷺ على الرماة -وكانوا خمسين رجلًا- عبد اللَّه بن جبير يوم أحد، وقال: «**إن رأيتم العدو ورأيتم الطير تخطفنا، فلا تبرحوا**» فلما رأوا الغنائم قالوا: عليكم الغنائم، فقال عبد الله: ألم يقل رسول اللَّه ﷺ: لا تبرحوا؟ قال غيره: فنزلت: ﴿وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ يقول: عصيتم الرسول من بعد ما أراكم الغنائم، وهزيمة العدو»[2].

★ **غريب الحديثين:**

التبسوا: اختلطوا خالط بعضهم بعضًا، والملابسة المخالطة.

الخلة: بفتح فتشديد؛ أي: تلك الحاجة التي هي دفع العساكر من وراء الظهر؛ أي: قصروا فيها، من أخل بالشيء، أو المراد بالخلة تلك البقعة، سميت خلة لأنها مح الخلة بمعنى الحاجة؛ لأنها كانت محتاجة إلى وجود العسكر فيها؛ أي: ترك تلك البقعة من أخل الرجل بمركزه؛ أي: تركه.

وجال المسلمون: انكشفوا.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٨٧-٢٨٨)، والطبراني (١٠/ ٣٠١/ ١٠٧٣١)، والحاكم (٢/ ٢٩٦-٢٩٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١١٠-١١١) وقال: «رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن أبي الزناد وقد وثق على ضعفه».

قال الحافظ ابن كثير في التفسير (٢/ ١١٤): «هذا حديث غريب، وسياق عجيب، وهو من مرسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحدًا ولا أبوه، ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها». واستظهر الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على المسند أن ابن عباس حكاه عن واحد من الصحابة ممن شهد أحدًا، ونسي بعض الرواة أن يذكر من حدث ابن عباس به. وللحديث شواهد من وجوه كثيرة كما ذكر ذلك ابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٢٥-٢٧) منها حديث البراء بن عازب عند البخاري وهو الآتي، وابن مسعود عند أحمد (١/ ٤٦٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩٤) واللفظ له، والبخاري (٧/ ٤٤٣/ ٤٠٤٣)، وأبو داود (٣/ ١١٧-١١٨/ ٢٦٦٢)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٥/ ١١٠٧٩).

المهراس: بكسر الميم، صخرة منقورة تسع كثيرًا من الماء، وقيل: اسم ماء بأحد.

التكفؤ: التمايل إلى قدام.

دموا وجه رسوله: أي أسالوا دمه.

ابن أبي كبشة: يريد به رسول الله ﷺ.

ابن أبي قحافة: يريد أبا بكر.

أنعمت عينها: على بناء الفاعل من أنعم: إذا أجاب بنعم؛ أي: أنها أجابت بنعم، يريد أنه حين أراد الخروج إلى أحد، كتب على سهم (نعم)، وعلى آخر (لا)، وأجالهما عند هبل، فخرج سهم نعم، فخرج إلى أحد، وكان عادتهم ذلك إذا أرادوا ابتداء فعل.

عاد عنها أو عال عنها: كلاهما بمعنى، وهو تجاف عن ذكرها وتجاوز من «التعدي» وهو مجاوزة الشيء إلى غيره أو من «التعادي» وهو التباعد.

سجال: بكسر السين جمع «سجل» بفتح السين وسكون الجيم؛ أي: مرة لنا ومرة علينا، وأصله أن المستقين بالسجل يكون لكل واحد منهم سجل، وهو الدلو.

مثلًا: بفتح الميم وسكون الثاء كما في النسخة الكتانية ومجمع الزوائد وغيره، مصدر: مثل بالقتيل. من بابي ضرب ونصر: إذا نكل به بجدع أنفه أو قطع أذنه أو نحو ذلك، تمثل به تمثيلا.

سراتنا: السراة بفتح السين: جمع سري وهم الأشراف والكبراء.

★ فوائد الحديثين:

قال ابن القيم في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد-: «منها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم إنما هو بشؤم ذلك كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾.

فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول وتنازعهم وفشلهم كانوا بعد ذلك أشد حذرًا ويقظة وتحرزًا من أسباب الخذلان»[١].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومنها استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، وفيما يحبون وما يكرهون، وفي حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون، فهم عبيده حقًّا وليسوا كمن يعبد اللَّه على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائمًا، وأظفرهم بعدوهم في كل موطن، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبدا لطغت نفوسهم وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصر والظفر لكانوا في الحال التي يكونون فيها لو بسط لهم الرزق، فلا يصلح عباده إلا السراء والضراء والشدة والرخاء والقبض والبسط، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، إنه بهم خبير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغلبة، والكسرة، والهزيمة، ذلوا وانكسروا، وخضعوا، فاستوجبوا منه العز والنصر، فإن خلعة النصر إنما تكون مع ولاية الذل والانكسار قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[٢] وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾[٣] فهو سبحانه إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره، كسره أولا ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى اللَّه والدار الآخرة، فإذا أراد بها ربها ومالكها وراحمها كرامته، قيض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السير الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) آل عمران: الآية (١٢٣).

(٣) التوبة: الآية (٢٥).

الطبيب يسقي العليل الدواء الكريه، ويقطع منه العروق المؤلمة لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه لغلبته الأدواء حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة، وهو سبحانه يحب أن يتخذ من عباده شهداء، تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن اللَّه سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قيض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم، وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم. وقد ذكر ﷻ ذلك في قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1] فجمع لهم في هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبين حسن التسلية وذكر الحكم الباهرة التي اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾[2] فقد استويتم في القرح والألم، وتباينتم في الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾[3] فما بالكم تهنون وتضعفون عند القرح والألم، فقد أصابهم ذلك في سبيل الشيطان، وأنتم أصبتم في سبيلي، وابتغاء مرضاتي.

ثم أخبر أنه يداول أيام هذه الحياة الدنيا بين الناس، وأنها عرض حاضر، يقسمها دولا بين أوليائه وأعدائه، بخلاف الآخرة؛ فإن عزها ونصرها ورجاءها خالص للذين آمنوا.

---

(١) آل عمران: الآيتان (١٣٩ و١٤١). (٢) آل عمران: الآية (١٤٠).

(٣) النساء: الآية (١٠٤).

ثم ذكر حكمة أخرى: وهي أن يتميز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحس.

ثم ذكر حكمة أخرى: وهي اتخاذه سبحانه منهم شهداء، فإنه يحب الشهداء من عباده، وقد أعد لهم أعلى المنازل وأفضلها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بد أن ينيلهم درجة الشهادة وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(1) تنبيه لطيف الموقع جدا على كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخذلوا عن نبيه يوم أحد، فلم يشهدوه، ولم يتخذ منهم شهداء؛ لأنه لم يحبهم فأركسهم وردهم ليحرمهم ما خص به المؤمنين في ذلك اليوم، وما أعطاه من استشهد منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التي وفق لها أولياءه وحزبه.

ثم ذكر حكمة أخرى فيما أصابهم ذلك اليوم: وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب ومن آفات النفوس، وأيضا فإنه خلصهم ومحصهم من المنافقين فتميزوا منهم فحصل له تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يظهر أنه منهم، وهو عدوهم.

ثم ذكر حكمة أخرى: وهي محق الكافرين بطغيانهم، وبغيهم وعدوانهم، ثم أنكر عليهم حسبانهم وظنهم أن يدخلوا الجنة بدون الجهاد في سبيله، والصبر على أذى أعدائه، وأن هذا ممتنع بحيث ينكر على من ظنه وحسبه، فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(2)؛ أي: ولما يقع ذلك منكم، فيعلمه فإنه لو وقع لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكون الجزاء على الواقع المعلوم لا على مجرد العلم، فإن اللّه لا يجزي العبد على مجرد علمه فيه دون أن يقع معلومه، ثم وبخهم على هزيمتهم من أمر كانوا يتمنونه ويودون لقاءه فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾(3)»(4).

---

(1) آل عمران: الآية (١٣٩).

(2) آل عمران: الآية (١٤٢).

(3) آل عمران: الآية (١٤٣).

(4) زاد المعاد (٣/ ٢٢٠-٢٢٤).

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رهقوه قال: «**من يردهم عنا وله الجنة، أو: وهو رفيقي في الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، ثم رهقوه أيضًا، فقال: «**من يردهم عنا وله الجنة، أو: هو رفيقي في الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول اللَّه ﷺ لصاحبيه: «**ما أنصفنا أصحابنا**»(١).

★ غريب الحديث:

رهقوه: بكسر الهاء؛ أي: غشوه وقربوا منه، أرهقه؛ أي: غشيه. قال صاحب الأفعال: رهقته وأرهقته؛ أي: أدركته. قال القاضي في المشارق: قيل: لا يستعمل ذلك إلا في المكروه، قال: وقال ثابت: كل شيء دنوت منه فقد رهقته.

★ فوائد الحديث:

قال النووي رحمه الله: «**ما أنصفنا أصحابنا**»: الرواية المشهورة فيه ما أنصفنا بإسكان الفاء، وأصحابنا منصوب مفعول به، هكذا ضبطه جماهير العلماء من المتقدمين والمتأخرين، ومعناه: ما أنصفت قريش الأنصار، لكون القرشيين لم يخرجا للقتال، بل خرجت الأنصار واحدًا بعد واحد. وذكر القاضي وغيره أن بعضهم رواه «**ما أنصفنا**»: بفتح الفاء والمراد على هذا: الذين فروا من القتال، فإنهم لم ينصفوا لفرارهم»(٢).

وقال الأبي: «هو ﷺ غير داخل في نفي الإنصاف، وإنما خلط نفسه في ذلك على سبيل التنزل والإيناس للقرشيين، ثم إن الأظهر أن عدم إنصافهما إنما هو لترك مندوب؛ لأنه ﷺ لا يجب عليه أن يدفع عن نفسه إلا إذا لم يكن معه أحد، وأما إن كان معه أحد فالدفع إنما يجب على من معه. ثم الدفع إنما هو فرض كفاية وقد قام به السبعة، فهو في حق القرشيين مندوب»(٣).

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٨٦)، ومسلم (٣/ ١٤١٥/ ١٧٨٩)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٩١/ ٨٦٥١).
(٢) شرح مسلم (١٢/ ١٢٥).
(٣) شرح مسلم للأبي (٦/ ٤٣٥).

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**اشتد غضب اللَّه على قوم فعلوا بنبيه** -يشير إلى رباعيته-، **اشتد غضب اللَّه على رجل يقتله رسول اللَّه ﷺ في سبيل الله**»[١].

* عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ دَمَّوْا وَجْهَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ[٢].

* عن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد يسأل عن جرح رسول اللَّه ﷺ يوم أحد، فقال: جرح وجه رسول اللَّه ﷺ وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول اللَّه ﷺ تغسل الدم، وكان علي بن أبي طالب يسكب عليها بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رمادًا ثم ألصقته بالجرح، فاستمسك الدم[٣].

⋆ غريب الأحاديث:

هشمت: من الهشم: كسر الشيء اليابس والأجوف، ومنه الهاشمة وهي الشجة التي تهشم العظم.

البيضة: ما يلبس في الرأس من آلات السلاح.

المجن: الترس لأنه يستجن به؛ أي: يستتر.

استمسك الدم: أي انحبس وانقطع.

⋆ فوائد الأحاديث:

قال ابن حجر: «مجموع ما ذكر في الأخبار أنه شج وجهه، وكسرت رباعيته، وجرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها، وهي منسكبة من ضربة ابن قمئة، وجحشت ركبته»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٧)، والبخاري (٧/ ٤٧٣/ ٤٠٧٣)، ومسلم (٣/ ١٤١٧/ ١٧٩٣).

(٢) أخرجه: البخاري (٧/ ٤٧٣/ ٤٠٧٤). وأخرجه مطولا: أحمد (١/ ٢٨٧-٢٨٨) من طرق عن ابن عباس ﷺ نحوه. وقد تقدم.

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٠)، والبخاري (٧/ ٤٧٣/ ٤٠٧٥)، ومسلم (٣/ ١٤١٦/ ١٧٩٠)، والترمذي (٤/ ٣٥٨/ ٢٠٨٥)، وابن ماجه (٢/ ١١٤٧/ ٣٤٦٤).

(٤) فتح الباري (٧/ ٤٧٣).

قال ابن بطال: «في حديث سهل: جواز امتحان الأنبياء وإيلامهم، ليعظم بذلك أجرهم، ويكون أسوة لمن ناله جرح وألم من أصحابه، فلا يجدون في أنفسهم مما نالهم غضاضة، ولا يجد الشيطان السبيل إليهم بأن يقول لهم: تقتلون أنفسكم، وتحملون الآلام في صون هذا، فإذا أصابه ما أصابهم فقدت هذه المكيدة من اللعين، وتأسى الناس به فجدوا في مساواتهم له في جميع أحواله»(١).

قال القاضي عياض: «فيه ما ابتلي به الأنبياء وأهل الفضل لينالوا جزيل الأجر، ويسهل على أممهم وغيرهم ما أصابهم، ويتأسوا بهم، وليعلم أنهم من البشر يصيبهم محن الدنيا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر ليتحققوا أنهم مخلوقون مربوبون، ولا يدخل اللبس في المفعول بسبب ما ظهر على أيديهم من العجائب والآيات ما يشكك في بشريتهم، ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبس به على النصارى وأشباههم، حتى اعتقدوا في عيسى عليه السلام أنه إله»(٢).

قال النووي: «فيه استحباب لبس البيضة والدروع وغيرها من أسباب التحصن في الحرب، وأنه ليس بقادح في التوكل»(٣).

وقال: «في الحديث: إثبات المداواة ومعالجة الجراح، وأنه لا يقدح في التوكل لأن النبي ﷺ فعله مع قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾(٤)»(٥).

وقال ابن حجر: «وفي الحديث جواز التداوي، وأن الأنبياء قد يصابون ببعض العوارض الدنيوية من الجراحات والآلام والأسقام ليعظم لهم بذلك الأجر، وتزداد درجاتهم رفعة، وليتأسى بهم أتباعهم في الصبر على المكاره، والعاقبة للمتقين»(٦).

قوله: «**فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم..**»: قال المهلب: وفيه دليل على جواز مباشرة المرأة أباها وذوي محارمها، وإلطافها إياهم، ومداواة أمراضهم»(٧).

---

(١) شرح ابن بطال (٥/ ٩٦).
(٢) إكمال المعلم (٦/ ١٦٤).
(٣) شرح صحيح مسلم (١٢/ ١٢٦).
(٤) الفرقان: الآية (٥٨).
(٥) المصدر نفسه.
(٦) الفتح (٧/ ٤٧٤).
(٧) شرح ابن بطال (١/ ٣٦٢).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أمنة: اسم: تقول أمن الرجل آمنا وآمانة إذا لم ينله خوف.

يغشى: غشيه غشاوة وغشاء؛ أي: ستره والغشاوة: ما يغطى به الشيء.

أهمتهم: من أهمني الأمر أقلقني.

مضاجعهم: من ضجعت ضجعًا: وضعت جنبي بالأرض وأضجعته: ألقيته على جنبه. والمقصود هنا: مصارعهم ومكان قتلهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى ممتنًّا على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة وهو النعاس الذي غشيهم وهم مستلئمو السلاح في حال همهم وغمهم، والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، كما قال تعالى في سورة الأنفال في قصة بدر ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾[1] الآية».

وقال: «﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ﴾؛ يعني: أهل

(١) الأنفال: الآية (١١) وهي قراءة مجاهد وابن محيصن وأبي عمرو وابن كثير.

الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن اللَّه سينصر رسوله وينجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾؛ يعني: لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ كما قال في الآية الأخرى، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾[1] إلى آخر الآية. وهكذا هؤلاء، اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة، تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة. ثم أخبر تعالى عنهم أنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ في تلك الحال ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾، ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾؛ أي: يسرون هذه المقالة عن رسول اللَّه ﷺ. . .

قال اللَّه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾؛ أي: هذا قدر مقدر من اللَّه ﷻ وحكم حتم لازم لا يحاد عنه، ولا مناص منه. وقوله: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: يختبركم بما جرى عليكم، ليميز الخبيث من الطيب، ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال والأفعال ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ أي: بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر»[2].

قال الجصاص: «وفي ذلك أعظم الدلائل وأكبر الحجج في صحة نبوة النبي ﷺ من وجوه: أحدها: وقوع الأمنة مع استعلاء العدو من غير مدد أتاهم، ولا نكاية في العدو، ولا انصرافهم عنهم، ولا قلة عددهم، فينزل اللَّه تعالى على قلوبهم الأمنة، وذلك في أهل الإيمان واليقين خاصة. والثاني: وقوع النعاس عليهم في مثل تلك الحال التي يطير في مثلها النعاس عمن شاهدها بعد الانصراف والرجوع، فكيف في حال المشاهدة وقصد العدو نحوهم لاستيصالهم وقتلهم. والثالث: تمييز المؤمنين من المنافقين حتى خص المؤمنين بتلك الأمنة والنعاس دون المنافقين، فكان المؤمنون في غاية الأمن والطمأنينة، والمنافقون في غاية الهلع والخوف والقلق والاضطراب فسبحان اللَّه العزيز العليم الذي لا يضيع أجر المؤمنين»[3].

---

(١) الفتح: الآية (١٢). (٢) التفسير (٢/ ١٢٥-١٢٦).

(٣) أحكام القرآن (٢/ ٤٠).

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾: «ولا شك أن هذا رحمة بهم، وإحسان وتثبيت لقلوبهم، وزيادة طمأنينة؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس، لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس. وهذه الطائفة التي أنعم اللَّه عليها بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم إلا إقامة دين اللَّه، ورضا اللَّه ورسوله، ومصلحة إخوانهم المسلمين. وأما الطائفة الأخرى الذين قد أهمتهم أنفسهم فليس لهم هم في غيرها، لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم»[1].

قال ابن القيم في ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة أحد-: «ثم إنه تداركهم سبحانه برحمته، وخفف عنهم ذلك الغم وغيبه عنهم بالنعاس الذي أنزله عليهم أمنًا منه ورحمة. والنعاس في الحرب علامة النصرة والأمن كما أنزله عليهم يوم بدر، وأخبر أن من لم يصبه ذلك النعاس فهو ممن أهمته نفسه لا دينه ولا نبيه ولا أصحابه، وأنهم يظنون باللَّه غير الحق ظن الجاهلية وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق باللَّه بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل وأنه يسلمه للقتل، وقد فسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضائه وقدره ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ويظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سورة الفتح حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[2]»[3].

.. **ثم قال**: «ثم أخبر عن الكلام الذي صدر عن ظنهم الباطل، وهو قولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ﴾، وقولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾، فليس مقصودهم بالكلمة الأولى والثانية إثبات القدر، ورد الأمر كله إلى اللَّه، ولو كان ذلك مقصودهم بالكلمة الأولى، لما ذموا عليه، ولما حسن الرد عليه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ﴾ ولا كان مصدر هذا الكلام ظن الجاهلية. ولهذا قال غير واحد من المفسرين: إن ظنهم الباطل هاهنا: هو التكذيب بالقدر، وظنهم أن الأمر لو كان إليهم، وكان رسول اللَّه ﷺ وأصحابه تبعًا لهم يسمعون منهم، لما أصابهم

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٣٩).

(٢) الفتح: الآية (٦).

(٣) زاد المعاد (٣/ ٢٢٨).

القتل، ولكان النصر والظفر لهم، فأكذبهم اللَّه ﷻ في هذا الظن الباطل الذي هو ظن الجاهلية، وهو الظن المنسوب إلى أهل الجهل الذين يزعمون بعد نفاذ القضاء والقدر الذي لم يكن بد من نفاذه أنهم كانوا قادرين على دفعه، وأن الأمر لو كان إليهم لما نفذ القضاء، فأكذبهم اللَّه بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾، فلا يكون إلا ما سبق به قضاؤه وقدره، وجرى به علمه وكتابه السابق، وما شاء اللَّه كان ولا بد، شاء الناس أم أبوا، وما لم يشأ لم يكن، شاءه الناس أم لم يشاؤوه، وما جرى عليكم من الهزيمة والقتل فبأمره الكوني الذي لا سبيل إلى دفعه، سواء كان لكم من الأمر شيء أو لم يكن لكم، وأنكم لو كنتم في بيوتكم، وقد كتب القتل على بعضكم لخرج الذين كتب عليهم القتل من بيوتهم إلى مضاجعهم ولا بد، سواء كان لهم من الأمر شيء أو لم يكن. وهذا من أظهر الأشياء إبطالًا لقول القدرية النفاة الذين يجوزون أن يقع ما لا يشاؤه اللَّه، وأن يشاء ما لا يقع.

ثم أخبر سبحانه عن حكمة أخرى في هذا التقدير؛ هي ابتلاء ما في صدورهم، وهو اختبار ما فيها من الإيمان والنفاق؛ فالمؤمن لا يزداد بذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، والمنافق ومن في قلبه مرض لا بد أن يظهر ما في قلبه على جوارحه ولسانه.

ثم ذكر حكمة أخرى: وهو تمحيص ما في قلوب المؤمنين، وهو تخليصه وتنقيته وتهذيبه، فإن القلوب يخالطها بغلبات الطبائع، وميل النفوس، وحكم العادة، وتزيين الشيطان، واستيلاء الغفلة، ما يضاد ما أودع فيها من الإيمان والإسلام والبر والتقوى، فلو تركت في عافية دائمة مستمرة لم تتخلص من هذه المخالطة ولم تتمحص منه، فاقتضت حكمة العزيز أن قيض لها من المحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خيف عليه من الفساد والهلاك، فكانت نعمته سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل من قتل منهم تعادل نعمته عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمة التامة في هذا وهذا»[1].

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٣٦-٢٣٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية، وبيان رحمة اللَّه تعالى بالمجاهدين في سبيله والدعاة إليه في كل زمان ومكان

* عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ قَالَ: غُشِينَا وَنَحْنُ فِي مَصَافِّنَا يَوْمَ أُحُدٍ، حَدَّثَ أَنَّهُ كَانَ فِيمَنْ غَشِيَهُ النُّعَاسُ يَوْمَئِذٍ، قَالَ: فَجَعَلَ سَيْفِي يَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَآخُذُهُ، وَيَسْقُطُ مِنْ يَدِي وَآخُذُهُ، وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى الْمُنَافِقُونَ لَيْسَ لَهُمْ هَمٌّ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ، أَجْبَنُ قَوْمٍ وَأَرْعَبُهُ وَأَخْذَلُهُ لِلْحَقِّ[1].

* عن طلحة قَالَ: رَفَعْتُ رَأْسِي يَوْمَ أُحُدٍ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ وَمَا مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا يَمِيدُ تَحْتَ حَجَفَتِهِ مِنَ النُّعَاسِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾[2].

★ **غريب الحديثين:**

مصافنا: بتشديد الفاء، جمع مصف، وهو الموقف من الحرب.

غشيه النعاس: النعاس أول النوم، وغشيانه مجيئه القوم وملابسته إياهم.

يميد: أي يميل، من ماد يميد ميدا وميدانا إذا تحرك وزاغ.

حجفته: بفتح الحاء المهملة والجيم أي ترسه.

* عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩)، والبخاري (٨/ ٢٨٨/ ٤٥٦٢)، والترمذي (٥/ ٢١٤/ ٣٠٠٨) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٦/ ١١٠٨٠).

(٢) أخرجه: الترمذي (٥/ ٢١٣/ ٣٠٠٧) وقال: «حسن صحيح»، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٩/ ١١١٩٨)، والحاكم (٢/ ٢٧٩) وصححه ووافقه الذهبي. وعن الزبير بن العوام ﷺ مثله.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٥٢/ ٢٦٦٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٥٩/ ١٠٤٥٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٥/ ٤١٦٨).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرعاوي: «دل الحديث على وجوب الاستسلام للقضاء والقدر؛ لأن ذلك من كمال التوحيد»[١].

قال عبد الرحمن آل الشيخ: «قوله: «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ..**» لأن ما قدر يكون، فيجب الإيمان بالقدر والتسليم، وأرشده إلى أن يقول: «**قدر الله**»؛ أي: هذا قدر اللَّه والمبتدأ محذوف وتقديره: هذا قدر اللَّه وما شاء فعل؛ لأن أفعاله تعالى إنما تصدر عن حكمة وعلم وفضل وعدل، ولا يظلم ربك أحدا. قوله «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**»؛ أي: لما فيها من التأسف على ما فات والحزن فيأثم في ذلك، وذلك من عمل الشيطان»[٢].

وقال القرطبي: «قوله: «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ..**»: يعني أن الذي يتعين بعد وقوع المقدور التسليم لأمر اللَّه، والرضا بما قدره اللَّه تعالى، والإعراض عن الالتفات لما مضى وفات، فإن افتكر فيما فاته من ذلك وقال: لو أني فعلت كذا لكان كذا جاءت وساوس الشيطان، ولا تزال به حتى يفضي به إلى الخسران»[٣].

وقال القاضي عياض: «والذي عندي في هذا الحديث المتقدم أن النهي فيه على وجهه عموما، لكن على طريق الندب والتنزيه، ويدل عليه قوله «**فإن لو تفتح عمل الشيطان**»؛ أي: تلقي في القلب معارضة القدر، وتشوش به تشويش الشيطان»[٤].

وانظر الكلام على حكم (لو) في سورة هود عند قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ﴾[٥].

* * *

---

(١) الجديد في شرح كتاب التوحيد (ص: ٤٢٥).

(٢) قرة عيون الموحدين (ص ٢٣٥).

(٣) المفهم (٦/ ٦٨٣).

(٤) إكمال المعلم (٨/ ١٥٨).

(٥) هود: الآية (٨٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

★ غريب الآية:

استزلهم: أي: حملهم على الزلة: وهي الخطيئة والمعصية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم أحد، وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم. فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي؛ لأنها مركبه ومدخله. فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[1] ثم أخبر أنه عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخذة. وإلا فلو آخذهم لاستأصلهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمذنبين الخطائين بما يوفقهم له من التوبة والاستغفار، والمصائب المكفرة لا يعاجل من عصاه، بل يستأني به، ويدعوه إلى الإنابة إليه، والإقبال عليه، ثم إن تاب وأناب قبل منه، وصيره كأنه لم يجر منه ذنب، ولم يصدر عنه عيب، فلله الحمد على إحسانه»[2].

قال ابن القيم: «ثم أخبر ﷻ عن تولي من تولى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم، فاستزلهم الشيطان بتلك الأعمال حتى تولوا، فكانت أعمالهم جندًا عليهم، ازداد بها عدوهم قوة، فإن الأعمال جند للعبد وجند عليه ولابد، فللعبد كل وقت سرية من نفسه تهزمه، أو تنصره، فهو يمد عدوه بأعماله من حيث يظن أنه يقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه، فأعمال العبد تسوقه قسرًا إلى مقتضاها من الخير والشر، والعبد

(١) الإسراء: الآية (٦٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٤١-٤٤٢).

لا يشعر أو يشعر ويتعامى، ففرار الإنسان من عدوه وهو يطيقه إنما هو بجند من عمله، بعثه له الشيطان واستزله به.

ثم أخبر سبحانه: أنه عفا عنهم؛ لأن هذا الفرار لم يكن عن نفاق ولا شك وإنما كان عارضًا عفا اللّه عنه، فعادت شجاعة الإيمان وثباته إلى مركزها ونصابها»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «أي: إن الذين تولوا وفروا من أماكنهم يوم التقى جمعكم بجمع المشركين في أحد لم يكن ذلك التولي منهم إلا بإيقاع الشيطان لهم في الزلل؛ أي: زلوا وانحرفوا عما يجب أن يكونوا ثابتين عليه باستجرار الشيطان لهم بالوسوسة.

قال الراغب: استجرهم حتى زلوا، فإن الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه. اهـ

ولعله يشير بذلك أن المراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ﴾ الرماة الذين أمرهم الرسول ﷺ أن يثبتوا في أماكنهم ليدفعوا المشركين عن ظهور المؤمنين، فإنهم ما زلوا وانحرفوا عن مكانهم إلا مترخصين في ذلك، إذ ظنوا أنه ليس للمشركين رجعة من هزيمتهم، فلا يترتب على ذهابهم وراء الغنيمة ضرر، فكان هذا الترخص والتأويل للنهي الصريح عن التحول وترك المكان سببًا لكل ما جرى من المصائب، وأعظمها ما أصاب الرسول -عليه الصلاة والسلام-.

وهناك وجه آخر وهو أن الذين تولوا هم جميع الذين تخلوا عن القتال من الرماة وغيرهم كالذين انهزموا عندما ما جاءهم العدو من خلفهم. واستدل القائلون بهذا الوجه بما روي من أن عثمان بن عفان عوتب في هزيمته يوم أحد فقال: «إن ذلك خطأ عفا اللّه عنه»[2].

أما كون الاستزلال قد كان ببعض ما كسبوا فقد قيل: إن الباء في قوله: ﴿بِبَعۡضِ﴾ على أصلها، وأن الزلل الذي وقع هو عين ما كسبوا من التولي عن القتال، وقيل: إنها للسببية؛ أي: إن بعض ما كسبوا قد كان سببًا لزلتهم، ولما كان

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠١)، والبخاري (٧/ ٦٦-٦٧/ ٣٦٩٩)، والترمذي (٥/ ٥٨٧-٥٨٨/ ٣٧٠٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

السبب متقدما دائمًا على المسبب وجب أن يكون ذلك البعض من كسبهم متقدمًا على زللهم هذا ومفضيًا إليه. فإن كان المراد بالذين تولوا الرماة جاز أن يكون المراد بالزلل الذي أوقعهم الشيطان فيه ما كان من الهزيمة والفشل بعد توليتهم عن مكانهم طمعا في الغنيمة، ويكون هذا التولي هو المراد ببعض ما كسبوا. ولا يصح هذا التأويل على الوجه الآخر القائل بأن الذين تولوا هم جميع الذين أدبروا عن القتال إلا إذا أريد ببعض ما كسبوا ما كسب الرماة منهم وهم بعضهم، فيكون المعنى: إن الذين تولوا منكم مدبرين عن القتال إنما استزلهم الشيطان بسبب بعض ما كسبت طائفة منهم وهم بعض الرماة، فإنه لولا ذلك لما كرّ المشركون بعد هزيمتهم وجاؤا المؤمنين من ورائهم حتى أدهشوهم وهزموهم.

وللسببية وجه آخر ينطبق على كل من القولين في الذين تولوا وهو: أن توليتهم عن القتال لم يكن إلا ناشئًا عن بعض ما كسبوا من السيئات من قبل، فإنها هي التي أحدثت الضعف في نفوسهم حتى أعدتها إلى ما وقع منها. ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[1] فهو بمعنى ما هنا إلا أنه هنالك عام وهنا خاص بالذين تولوا يوم أحد، فالآيتان واردتان في بيان سنة من سنن اللَّه تعالى في أخلاق البشر وأعمالهم وهي أن المصائب التي تعرض لهم في أبدانهم وشؤونهم الاجتماعية إنما هي آثار طبيعية لبعض أعمالهم، وأن من أعمالهم ما لا يترتب عليه عقوبة تعد مصيبة وهو المعفو عنه؛ أي: الذي مضت سنة اللَّه تعالى بأن يعفى ويمحى أثره من النفس فلا تترتب عليه الأعمال، وهو بعض اللمم والهفو الذي لا يتكرر ولا يصير ملكة وعادة. وقد عبر عنه في الآية التي هي الأصل والقاعدة في بيان هذه السنة بقوله: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾[2] أي: بجميع ما كسبوا فإن (ما) من الكلمات التي تفيد العموم. وقد بينا هذه السنة الإلهية في مواضع كثيرة من التفسير وجرينا على أنها عامة في عقوبات الدنيا والآخرة، فجميعها آثار طبيعية للأعمال السيئة، وقد اهتدى إلى هذه السنة بعض حكماء الغرب في هذا العصر.

---

(١) الشورى: الآية (٣٠). (٢) فاطر: الآية (٤٥).

أما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فالعفو فيه غير العفو في آية الشورى. ذلك عفو عام وهذا عفو خاص، ذلك عفو يراد به أن من سنة اللَّه في فطرة البشر أن تكون بعض هفواتهم وذنوبهم غير مفضية إلى العقوبة بالمصائب في الدنيا والعذاب في الآخرة وهذا العفو خاص بالمؤمنين، يراد به أن ذنبهم يوم أحد الذي كان من شأنه أن يعاقب عليه في الدنيا والآخرة قد كانت عقوبته الدنيوية تربية وتمحيصًا وعفا اللَّه عن العقوبة عليه في الآخرة، ولذلك قال: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[(١)] أي: فضل خاص لا يشاركهم فيه غيرهم، وهو عناية بهم وتوفيقهم للاستفادة مما وقع منهم، وإثابتهم الغم الذي دفعهم إلى التوبة حتى تمحص ما في قلوبهم، واستحقوا العفو عن ذنوبهم»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عفو اللَّه ﷻ عمن تخلف يوم أحد

* عن عثمان هو ابن موهب قال: جاء رجل من أهل مصر وحج البيت، فرأى قوما جلوسا فقال: من هؤلاء القوم؟ فقالوا: هؤلاء قريش. قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبد اللَّه بن عمر. قال: يا ابن عمر إني سائلك عن شيء فحدثني عنه: هل تعلم أن عثمان فر يوم أحد؟ قال: نعم. فقال: تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟ قال: نعم. قال الرجل: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم. قال: اللَّه أكبر. قال ابن عمر: تعال أبين لك، أما فراره يوم أحد فاشهد أن اللَّه عفا عنه وغفر له. وأما تغيبه عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول اللَّه ﷺ وكانت مريضة، فقال له رسول اللَّه ﷺ: «**إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه**». وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث رسول اللَّه ﷺ عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول اللَّه ﷺ بيده اليمنى: «**هذه يد عثمان**». فضرب بها على يده فقال: «**هذه لعثمان**». فقال له ابن عمر: اذهب بها الآن معك[(٣)].

---

(١) آل عمران (١٧٤). (٢) تفسير المنار (٤/ ١٩١-١٩٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٢٠)، والبخاري (٧/ ٦٦/ ٣٦٩٩)، والترمذي (٥/ ٥٨٧/ ٣٧٠٦). وأخرجه بنحوه مختصرا أبو داود (٣/ ١٦٨/ ٢٧٢٦).

★ **فوائد الحديث:**

بوب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ على هذا الحديث بقوله: باب مناقب عثمان بن عفان.

قال العيني: «مطابقته للترجمة من حيث إن فيه فضيلة عظيمة لعثمان، وهي أن اللَّه عفا عنه وغفر له وحصل له السهم والأجر وهو غائب، ولم يحصل ذلك لغيره، وأشار النبي ﷺ إلى يده اليمنى، وقال: «**هذه يد عثمان**» وهذا فضل عظيم أعطاه إياه»[١].

قال ابن حجر: «قال ابن عمر: «**تعال أبين لك**» كأن ابن عمر فهم منه مراده لما كبر، وإلا لو فهم ذلك من أول سؤاله لقرن العذر بالجواب، وحاصله أنه عابه بثلاثة أشياء، فأظهر له ابن عمر العذر عن جميعها: أما الفرار فبالعفو، وأما التخلف فبالأمر، وقد حصل له مقصود من شهد من ترتب الأمرين الدنيوي وهو الهم والأخروي وهو الأجر، وأما البيعة فكان مأذونا له في ذلك أيضًا ويد رسول اللَّه ﷺ خير لعثمان من يده، كما ثبت ذلك أيضًا عن عثمان نفسه فيما رواه البزار[٢] بإسناد جيد أنه عاتب عبد الرحمن بن عوف فقال له: لم ترفع صوتك علي؟ فذكر الأمور الثلاثة فأجابه عثمان بمثل ما أجاب به ابن عمر، قال في هذه: فشمال رسول اللَّه ﷺ خير لي من يميني»[٣].

وقال الطيبي: **قوله**: «**اللَّه أكبر**»: بعدما عد من الأمور بمنزلة «**اللَّه أكبر**» في الحديث السابق، فإنه أراد أن يلزم ابن عمر، ويحط من منزلة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من الطريق المذكور، فلما قال ابن عمر: نعم. قال اللَّه أكبر! تعجبًا وتعجيبًا وإظهارًا لإفحامه إياه، ثم إن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما نقض كل واحد مما نبأه به، خلعه من سنخه. قال: فكأنه أذهب بها؛ أي: إنما جئت به وتمسكت بعدما بينت لك الحق المحض الذي لا استراب منه»[٤].

* * *

---

(١) عمدة القاري (١١/ ٤٣١).

(٢) رواه البزار: كشف الأستار (٣/ ١٧٨/ ٢٥١١)، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٨٥): رواه البزار وإسناده حسن.

(٣) الفتح (٧/ ٧٣).

(٤) شرح الطيبي على المشكاة (١٢/ ٣٨٧٨).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾

★ **غريب الآية:**

ضربوا في الأرض: ذهبوا فيها، وسافروا.

غزى: جمع غاز: والغزو: الخروج إلى محاربة العدو.

حسرة: الغم على ما فات والندم عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ ذكر في هذه الآية الكريمة أن المنافقين إذا مات بعض إخوانهم يقولون: لو أطاعونا، فلم يخرجوا إلى الغزو ما قتلوا، ولم يبيّن هنا هل يقولون لهم ذلك قبل السفر إلى الغزو ليثبطوهم أو لا؟ ونظير هذه الآية: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾[١]، ولكنه بيّن في آيات أُخر أنهم يقولون لهم ذلك قبل الغزو ليثبطوهم كقوله: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾[٢]، وقوله: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾[٤]، إلى غير ذلك من الآيات»[٥].

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: يا أيها الذين صدقوا اللَّه ورسوله،

(١) آل عمران: الآية (١٦٨).
(٢) التوبة: الآية (٨١).
(٣) الأحزاب: الآية (١٨).
(٤) النساء: الآية (٧٢).
(٥) أضواء البيان (١/ ٢١٤).

وأقروا بما جاء به محمد من عند اللَّه، لا تكونوا كمن كفر باللَّه وبرسوله، فجحد نبوة محمد ﷺ، وقال لإخوانه من أهل الكفر ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فخرجوا من بلادهم سفرا في تجارة، ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ يقول: أو كان خروجهم من بلادهم غزاة، فهلكوا فماتوا في سفرهم، أو قتلوا في غزوهم، ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ يخبر بذلك عن قول هؤلاء الكفار أنهم يقولون لمن غزا منهم فقتل أو مات في سفر خرج فيه في طاعة اللَّه أو تجارة: لو لم يكونوا خرجوا من عندنا، وكانوا أقاموا في بلادهم ما ماتوا، وما قتلوا، ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾؛ يعني: أنهم يقولون ذلك كي يجعل اللَّه قولهم ذلك حزنا في قلوبهم وغما، ويجهلون أن ذلك إلى اللَّه -جل ثناؤه- وبيده.

وقد قيل: إن الذين نهى اللَّه المؤمنين بهذه الآية أن يتشبهوا بهم فيما نهاهم عنه من سوء اليقين باللَّه هم عبد اللَّه بن أبي ابن سلول وأصحابه»[1].

قال السعدي: «ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين الذين لا يؤمنون بربهم، ولا بقضائه وقدره من المنافقين وغيرهم. ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر الخاص وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في النسب: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: سافروا للتجارة ﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾؛ أي: غزاة، ثم جرى عليهم قتل أو موت يعارضون القدر ويقولون: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ وهذا كذب منهم فقد قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ ولكن هذا التكذيب لم يفدهم، إلا أن يجعل اللَّه هذا القول وهذه العقيدة حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم. وأما المؤمنون فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر اللَّه، فيؤمنون ويسلمون، فيهدي اللَّه قلوبهم، ويثبتها، ويخفف بذلك عنهم المصيبة، قال اللَّه ردا عليهم: ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: هو المنفرد بذلك فلا يغني حذر عن قدر. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم»[2].

---

(١) جامع البيان (٧/ ٣٣٠-٣٣١ شاكر).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٤٢-٤٤٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ذكر في هذه الآية الكريمة أن المقتول في الجهاد والميت كلاهما ينال مغفرة من اللَّه ورحمة خيرًا له مما يجمعه من حطام الدنيا، وأوضح وجه ذلك في آية أخرى بيّن فيها أن اللَّه اشترى منه حياة قصيرة فانية منغصة بالمصائب والآلام بحياة أبدية لذيذة، لا تنقطع ولا يتأذى صاحبها بشيء، واشترى منه مالًا قليلًا فانيًا بملك لا ينفذ ولا ينقضي أبدًا، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[2]، وبيّن في آية أخرى أن فضل اللَّه ورحمته خير مما يجمعه أهل الدنيا من حطامها، وزاد فيها الأمر بالفرح بفضل اللَّه ورحمته دون حطام الدنيا، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[3]، وتقديم المعمول يؤذن بالحصر أعني قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾؛ أي: دون غيره، فلا يفرحوا بحطام الدنيا الذي يجمعونه.

وقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[4]»[5].

---

(١) التوبة: الآية (١١١).
(٢) الإنسان: الآية (٢٠).
(٣) يونس: الآية (٥٨).
(٤) الزخرف: الآية (٣٢).
(٥) أضواء البيان (١/ ٢١٤-٢١٥).

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل اللَّه والموت أيضًا وسيلة إلى نيل رحمة اللَّه وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني. ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى اللَّه ﷻ، فيجزيه بعمله، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر فقال تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾»[1].

قال السعدي: «أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه ليس فيه نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون؛ لأنه سبب مفض وموصل إلى مغفرة اللَّه ورحمته، وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضًا إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت فإنما مرجعهم إلى اللَّه، ومآلهم إليه فيجازي كلا بعمله. فأين الفرار إلا إلى اللَّه، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله؟!»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «وبيان ذلك أن حظ الحي من هذه الحياة هو ما يجمعه من المال والمتاع الذي تتحقق به شهواته وحظوظه، وما يلاقيه من يقتل أو يموت في سبيل اللَّه من مغفرته تعالى ورحمته فهو خير له من جميع ما يتمتع به في هذه الدار الفانية. والموت في سبيل اللَّه هو الموت في أي عمل من الأعمال التي يعملها الإنسان لله أي سبيل البر والخير التي هدى اللَّه الإنسان إليها ويرضاها منه. وقد يموت الإنسان في أثناء الحرب من التعب أو غير ذلك من الأسباب التي يأتيها المحارب في أثنائها فيكون ذلك من الموت في سبيل اللَّه ﷻ.

أقول: وهذا هو المقصود هنا أولا وبالذات؛ لأن السياق في الحرب، ولذلك قدم ذكر القتل على الموت، فإن القتل هو الذي يقع كثيرًا في الحرب، والموت يكون فيها أقل فذكره تبعًا بخلاف الآية الآتية.

وحاصل معنى الآية أن رب العزة يخبرنا مؤكدا خبره بالقسم بأن من يقتل في سبيله أو يموت فإن ما ينتظره من مغفرة تمحو ما كان من ذنوبه وسيئاته ورحمة ترفع درجاته خير له مما يجمع الذين يحرصون على الحياة ليتمتعوا بالشهوات واللذات.

---

(١) التفسير (٢/ ١٢٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٤٣).

إذ لا يليق بالمؤمنين الذين يؤثرون مغفرة اللَّه ورحمته الدائمة على الحظوظ الفانية أن يتحسروا على من يقتل منهم أو يموت في سبيل اللَّه، ويودوا لو لم يكونوا خرجوا من دورهم إلى حيث لقوا حتفهم، فإن ما يلقونه بعد هذا الحتف خير مما كانوا فيه قبله. وبهذا الذي بينته تظهر نكتة الخطاب في أول الآية والغيبة في آخرها، وكذلك تنكير مغفرة ورحمة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ قالوا: إن الموت والقتل هنا أعم مما في الآية السابقة؛ لأن كل من يموت ومن يقتل في سبيل اللَّه وهي طريق الحق والخير أو في سبيل الشيطان وهي طريق الباطل والشر، فلابد أن يحشر إلى اللَّه تعالى دون غيره فهو الذي يحشرهم بعد الموت في نشأة أخرى وهو الذي يحاسبهم أو يجازيهم، وههنا قدم ذكر الموت لأنه أعم من القتل وأكثر»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٤/ ١٩٧).

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[(١)]

★ **غريب الآية:**

فظًّا: كريه الخلق وسيأها.

انفضوا: تفرقوا: من الانفضاض وهو التفرق في الأجزاء وانتشارها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «إن المقصود من البعثة أن يبلغ الرسول تكاليف اللَّه في الخلق، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا مالت قلوبهم إليه وسكنت نفوسهم لديه، وهذا المقصود لا يتم إلا إذا كان رحيمًا كريمًا، يتجاوز عن ذنبهم، ويعفو عن إساءتهم، ويخصهم بوجوه البر والمكرمة والشفقة، فلهذه الأسباب وجب أن يكون الرسول مبرأ عن سوء الخلق، وكما يكون كذلك وجب أن يكون غير غليظ القلب، بل يكون كثير الميل إلى إعانة الضعفاء، كثير القيام بإعانة الفقراء، كثير التجاوز عن سيآتهم، كثير الصفح عن زلاتهم، فلهذا المعنى قال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولو انفضوا من حولك فات المقصود من البعثة والرسالة»[(٢)].

وقال: «اللين والرفق إنما يجوز إذا لم يفض إلى إهمال حق من حقوق اللَّه، فأما إذا أدى إلى ذلك لم يجز، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[(٣)] وقال للمؤمنين في إقامة حد الزنا: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾.

وههنا دقيقة أخرى: وهي أنه تعالى منعه من الغلظ في هذه الآية، وأمره بالغلظ في قوله: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ فههنا نهاه عن الغلظة على المؤمنين، وهناك أمره بالغلظة مع الكافرين، فهو كقوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[(٤)] وقوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى

---

(١) الآية (١٥٩).

(٢) تفسير الرازي (٩/ ٦٧).

(٣) التوبة: الآية (٧٣).

(٤) المائدة: الآية (٥٤).

﴿ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[(١)] وتحقيق القول فيه أن طرفي الإفراط والتفريط مذمومان، والفضيلة في الوسط، فورود الأمر بالتغليظ تارة، وأخرى بالنهي عنه، إنما كان لأجل أن يتباعد عن الإفراط والتفريط، فيبقى على الوسط الذي هو الصراط المستقيم، فلهذا السر مدح اللَّه الوسط فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[(٢)]»[(٣)].

قال الجصاص: «قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ يدل على وجوب استعمال اللين والرفق، وترك الفظاظة والغلظة في الدعاء إلى اللَّه تعالى كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[(٤)] وقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[(٥)]»[(٦)].

قال السعدي: «أي: برحمة اللَّه لك ولأصحابك، من اللَّه عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك وامتثلوا أمرك.

﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا﴾؛ أي: سيئ الخلق ﴿غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾؛ أي: قاسيه ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ لأن هذا ينفرهم ويبغضهم لمن قام به هذا الخلق السيء فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدنيا تجذب الناس إلى دين اللَّه، وترغبهم فيه مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص. والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص.

فهذا الرسول المعصوم يقول اللَّه له ما يقول، فكيف بغيره؟! أليس من أوجب الواجبات وأهم المهمات الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما كان يعاملهم به ﷺ من اللين، وحسن الخلق والتأليف امتثالًا لأمر اللَّه وجذبًا لعباد اللَّه لدين اللَّه.

ثم أمره تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ، ويستغفر

---

(١) الفتح: الآية (٢٩).
(٢) البقرة: الآية (١٤٣).
(٣) تفسير الرازي (٩/ ٦٧).
(٤) النحل: الآية (١٢٥).
(٥) طه: الآية (٤٤).
(٦) أحكام القرآن (٢/ ٤٠).

لهم في التقصير في حق اللَّه، فيجمع بين العفو والإحسان»[١].

قال القاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال بعض المفسرين: ثمرة الآية وجوب التمسك بمكارم الأخلاق، وخصوصًا لمن يدعو إلى اللَّه تعالى، ويأمر بالمعروف»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفات النبي ﷺ

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾[٣] قال في التوراة: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه اللَّه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا اللَّه، فيفتح بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا»[٤].

★ غريب الحديث:

حرزًا للأميين: بكسر المهملة وسكون الراء بعدها زاي؛ أي: حصنًا، والأميين هم العرب[٥].

بفظ: رجل فَظٌّ: سيِّئ الخلق.

سخاب: السخب بفتح المهملة والخاء المعجمة بعدها موحدة ويقال: فيه الصخب بالصاد المهملة بدل السين؛ وهو رفع الصوت بالخصام.

الملة العوجاء: أي: ملة العرب، ووصفها بالعوج لما دخل فيها من عبادة الأصنام.

الغلف: كل شيء في غلاف.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «في هذا الحديث مدح النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ ببعض صفاته الشريفة التي

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٤٤).
(٢) محاسن التأويل (٤/ ٢٧٩).
(٣) الأحزاب: الآية (٤٥).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٤)، والبخاري (٨/ ٧٥٢/ ٤٨٣٨).
(٥) فتح الباري (٨/ ٧٥٣).

خصه اللّه تعالى بها وجبله عليها»[١].

وقال الحافظ: «قوله «**بفظ ولا غليظ**» هو موافق لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ ولا يعارض من قوله تعالى ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[٢]؛ لأن النفي محمول على طبعه الذي جبل عليه، والأمر محمول على المعالجة، أو النفي بالنسبة للمؤمنين، والأمر بالنسبة للكفار والمنافقين، كما هو مصرح به في نفس الآية»[٣].

* * *

(١) شرح ابن بطال (٦/ ٢٥٤).
(٢) التوبة: الآية (٧٣).
(٣) الفتح (٨/ ٧٥٣).

قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١]

★ **غريب الآية:**

عزمت: يقال: عزمت الأمر، وعزمت عليه، واعتزمت عزيمة وعزمًا: عقدت القلب على إمضاء الأمر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «أمر اللَّه تعالى رسوله بهذه الأوامر التي هي بتدريج بليغ، وذلك أنه أمره بأن يعفو ﷺ عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة وحق، فإذا صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر لهم فيما لله عليهم من تبعة، فإذا صاروا في هذه الدرجة كانوا أهلًا للاستشارة في الأمور والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه، وقد مدح اللَّه المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[٢] وقال النبي ﷺ: «**ما خاب من استخار ولا ندم من استشار**»[٣]، وقال ﷺ: «**المستشار مؤتمن**»[٤]، وصفة المستشار في الأحكام أن يكون عالمًا دينًا، وقل ما يكون ذلك إلا في عاقل، فقد قال الحسن بن أبي الحسن: ما كمل دين امرئ لم يكمل عقله، وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلًا مجربًا وادًا في المستشير، والشورى بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب الخلافة -وهي أعظم النوازل- شورى، وقال الحسن: واللَّه ما تشاور قوم بينهم إلا هداهم اللَّه لأفضل ما بحضرتهم، وكان رسول اللَّه ﷺ يشاور أصحابه، وقد قال في غزوة بدر: **أشيروا عليّ أيها الناس**[٥]، في اليوم الذي تكلم فيه المقداد، ثم سعد

---

(١) الآية (١٥٩). (٢) الشورى: الآية (٣٨).

(٣) أخرجه: الطبراني في الأوسط (٧/ ٣٢٩/ ٦٦٢٣) وفي الصغير (٢/ ٣٥٢/ ٩٦٠)، والقضاعي (٢/ ٧/ ٧٧٤) كلهم من حديث أنس. وقال الشيخ الألباني في الضعيفة (٦١١): موضوع.

(٤) سيأتي تخريجه. (٥) سيأتي تخريجه ضمن أحاديث الباب.

ابن عبادة، ومشاورته ﷺ إنما هي في أمور الحروب والبعوث ونحوه من أشخاص النوازل، وأما في حلال أو حرام أو حد فتلك قوانين شرع. ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1] وكأن الآية نزلت مؤنسة للمؤمنين، إذ كان تغلبهم على الرأي في قصة -أحد- يقتضي أن يعاقبوا بأن لا يشاوروا في المستأنف»[2].

قال ابن كثير: «كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث تطييبًا لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير، فقالوا: يا رسول الله، لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[3] ولكن نقول: اذهب فنحن معك، وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون فكان يشاورهم في الحروب ونحوها، وقد اختلف الفقهاء هل كان ذلك واجبًا عليه، أو من باب الندب تطييبًا لقلوبهم على قولين»[4].

وقال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[5] يدل على جواز الاجتهاد في الأمور والأخذ بالظنون مع إمكان الوحي، فإن الله أذن لرسوله ﷺ في ذلك.

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي أمر الله نبيه ﷺ أن يشاور فيه أصحابه، فقالت طائفة: ذلك في مكائد الحروب، وعند لقاء العدو، وتطييبًا لنفوسهم، ورفعا لأقدارهم، وتألفا على دينهم، وإن كان الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بوحيه. روي هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق والشافعي.

قال الشافعي: هو كقوله: «والبكر تستأمر» تطييبًا لقلبها، لا أنه واجب.

وقال مقاتل وقتادة والربيع: كانت سادات العرب إذا لم يشاوروا في الأمر شق عليهم، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يشاورهم في الأمر، فإن ذلك أعطف لهم عليه وأذهب لأضغانهم، وأطيب لنفوسهم. فإذا شاورهم عرفوا إكرامه لهم.

وقال آخرون: ذلك فيما لم يأته فيه وحي. روي ذلك عن الحسن البصري

---

(١) الأنعام: الآية (٣٨).

(٢) المحرر الوجيز (١/ ٥٣٣-٥٣٤).

(٣) المائدة: الآية (٢٤).

(٤) التفسير (٢/ ١٢٨-١٢٩).

(٥) آل عمران: الآية (١٥٩).

والضحاك قالا: ما أمر اللَّه تعالى نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتدي به أمته من بعده»[١].

قال ابن القيم: «قد تضمنت هذه الكلمات مراعاة حق اللَّه، وحق الخلق؛ فإنهم إما يسيئوا في حق اللَّه وفي حق رسوله، فإن أساءوا في حقك فقابل ذلك بعفوك عنهم، وإن أساءوا في حقي فاسألني أغفر لهم، واستجلب قلوبهم، واستخرج ما عندهم من الرأي بمشاورتهم؛ فإن ذلك أحرى في استجلاب طاعتهم، وبذل النصيحة فإذا عزمت فلا استشارة بعد ذلك، بل توكل على اللَّه، وامض لما عزمت عليه من أمرك، فإن اللَّه يحب المتوكلين»[٢].

قال السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ «أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة، ونظر، وفكر. فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية، ما لا يمكن حصره.

منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى اللَّه.

ومنها: أن فيها تسميحًا لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث. فإن من له الأمر على الناس إذا جمع أهل الرأي والفضل، وشاورهم في حادثة من الحوادث، اطمأنت إليه نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس يستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع. فبذلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم. بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه، وإن أطاعوه، فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة، تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة، من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطئ في فعله، وإن أخطأ، أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم.

فإذا كان اللَّه يقول لرسوله ﷺ -وهو أكمل الناس عقلًا وأغزرهم علمًا وأفضلهم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٦١).

(٢) الرسالة التبوكية (ص: ٧٨).

رأيًا-: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ فكيف بغيره»[١].

قال محمد رشيد رضا: «﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ العام الذي هو سياسة الأمة في الحرب والسلم، والخوف والأمن، وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية؛ أي: دم على المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب في هذه الواقعة (غزوة أحد)، وإن أخطأوا الرأي فيها فإن الخير كل الخير في تربيتهم على المشاورة بالعمل دون العمل برأي الرئيس وإن كان صوابًا، لما في ذلك من النفع لهم في مستقبل حكومتهم إن أقاموا هذا الركن العظيم (المشاورة)، فإن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد في الأكثر، والخطر على الأمة في تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر.

قال الأستاذ الإمام: ليس من السهل أن يشاور الإنسان ولا أن يشير، وإذا كان المستشارون كثارا كثر النزاع وتشعب الرأي، ولهذه الصعوبة والوعورة أمر اللَّه تعالى نبيه أن يقرر سنة المشاورة في هذه الأمة بالعمل فكان ﷺ يستشير أصحابه بغاية اللطف، ويصغي إلى كل قول ويرجع عن رأيه إلى رأيهم. . .

وأقول: الأمر المعرف هنا هو أمر المسلمين المضاف إليهم في القاعدة الأولى التي وضعت للحكومة الإسلامية في سورة الشورى المكية وهي قوله تعالى في بيان ما يجب أن يكون عليه أهل هذا الدين ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فالمراد بالأمر أمر الأمة الدنيوي الذي يقوم به الحكام عادة لا أمر الدين المحض الذي مداره على الوحي دون الرأي، إذ لو كانت المسائل الدينية كالعقائد والعبادات والحلال والحرام مما يقرر بالمشاورة لكان الدين من وضع البشر، وإنما هو وضع إلهي ليس لأحد فيه رأي لا في عهد النبي ﷺ ولا بعده، . .

أقام النبي ﷺ هذا الركن (الشورى) في زمنه بحسب مقتضى الحال من حيث قلة المسلمين، واجتماعهم معه في مسجد واحد في زمن وجوب الهجرة التي انتهت بفتح مكة فكان يستشير السواد الأعظم منهم وهم الذين يكونون معه ويخص أهل الرأي والمكانة من الراسخين بالأمور التي يضر إفشاؤها فاستشارهم يوم بدر لما علم بخروج قريش من مكة للحرب فلم يبرم الأمر حتى صرح المهاجرون ثم الأنصار

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٤٤٤-٤٤٥).

بالموافقة. واستشارهم جميعًا يوم أحد أيضًا كما تقدم. وهكذا كان يستشيرهم في كل أمر من أمور الأمة إلا ما ينزل عليه الوحي ببيانه فينفذه حتمًا، ولما كثر المسلمون وامتد حكم الإسلام بعد الفتح إلى الأماكن البعيدة عن المدينة وكان في كل قبيلة أو قرية من أولئك المسلمين رجال من أهل المكانة والرأي يمكن أن يقال إنه قد احتيج إلى وضع قاعدة أو نظام للشورى يبين فيه طرق اشتراك أولئك البعداء عن مكان السلطة العليا فيها»(١).

قال ابن جرير: «فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك، فامض لما أمرناك به على ما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها. وتوكل فيما تأتي من أمورك وتدع وتحاول أو تزاول على ربك فثق به في كل ذلك، وارض بقضائه في جميعه دون آراء سائر خلقه ومعونتهم، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ وهم الراضون بقضائه والمستسلمون لحكمه فيهم، وافق ذلك منهم هوى أو خالفه»(٢).

قال الرازي: «المعنى: أنه إذا حصل الرأي المتأكد بالمشورة فلا يجب أن يقع الاعتماد عليه؛ بل يجب أن يكون الاعتماد على إعانة اللَّه وتسديده وعصمته، والمقصود أن لا يكون للعبد اعتماد على شيء إلا على اللَّه في جميع الأمور.

دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يهمل الإنسان نفسه، كما يقوله بعض الجهال، وإلا لكان الأمر بالمشاورة منافيًا للأمر بالتوكل، بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة، ولكن لا يعول بقلبه عليها؛ بل يعول على عصمة الحق»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المشورة

* عن طارق عن عبد اللَّه قال: قال المقداد يوم بدر: يا رسول اللَّه، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾(٤) ولكن امض ونحن معك، فكأنه سري عن رسول اللَّه ﷺ(٥).

---

(١) تفسير المنار (٤/ ١٩٩-٢٠١).
(٢) جامع البيان (٧/ ٣٤٦ شاكر).
(٣) تفسير الرازي (٩/ ٧٠-٧١).
(٤) المائدة: الآية (٢٤).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩٠)، والبخاري (٨/ ٣٤٧/ ٤٦٠٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣٣/ ١١١٤٠).

* عن أنس أن رسول اللَّه ﷺ شاور حين بلغه إقبال أبي سفيان. قال: فتكلم أبو بكر فأعرض عنه. ثم تكلم عمر فأعرض عنه. فقام سعد بن عبادة فقال: إيانا تريد يا رسول الله؟ والذي نفسي بيده لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى برك الغماد لفعلنا..(١).

* عن عبد اللَّه بن عمرو قال: كتب أبو بكر الصديق إلى عمرو: «أن رسول اللَّه ﷺ كان يشاور في الحرب فعليك به»(٢).

⋆ غريب الأحاديث:

سُرِّيَ: تفسره الرواية الأخرى: فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره؛ يعني: قوله.

برك الغماد: موضع بأقصى هجر بينه وبينهم بعد عظيم.

⋆ فوائد الأحاديث:

قال ابن بطال: «المشاورة سنة لا يستغني عنها أحد، ولو استغني عنها لكان النبي عليه السلام أغنى الناس عنها؛ لأن جبريل كان يأتيه بصواب الرأي من السماء، ومع ذلك فإن اللَّه تعالى قال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ ولو لم يكن في المشاورة إلا استألاف النفوس، وإظهار المفاوضة والثقة بالمستشار لعلمه أن يبدو من الرأي ما لم يكن ظهر. وأما العزيمة والعمل فإلى الإمام لا يشركه فيه أحد، لقول تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فجعل العزيمة إليه، وجعله مشاركا في الرأي لغيره»(٣).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «اختلف أهل التأويل في المعنى الذي أمر اللَّه نبيه أن يشاور أصحابه، فقالت طائفة: أمر اللَّه أن يشاورهم في مكائد الحروب، وعند لقاء العدو تطييبًا لنفوسهم، وتألفًا لهم على دينهم، وليروا أنه يسمع منهم ويستعين بهم، وإن كان اللَّه قد أغناه عن رأيهم بوحيه، روي هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق. وقال آخرون: إنما أمر بمشورتهم فيما لم يأته فيه وحي، ليبين لهم صواب الرأي، روي

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢١٩-٢٢٠)، ومسلم (٣/ ١٤٠٣-١٤٠٤/ ١٧٧٩)، وأبو داود (٣/ ١٣٠-١٣١/ ٢٦٨١).
(٢) الطبراني (١/ ٦٣-٦٤/ ٤٦) وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٣١٩) وقال: «رواه الطبراني ورجاله قد وثقوا». وجود إسناده السيوطي في الدر.
(٣) شرح البخاري (٥/ ٣٣٤).

ذلك عن الحسن البصري والضحاك، قالا: ما أمر اللَّه نبيه بالمشاورة لحاجة منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلمهم ما في المشورة من الفضل. قال الحسن: وما شاور قوم إلى هدوا لأرشد أمورهم. وقال آخرون: إنما أمره اللَّه بمشاورة أصحابه مع غناه عنهم بتدبيره تعالى له وسياسته إياه؛ ليستن به من بعده، ويقتدوا به فيما ينزل بهم من النوازل. قال سفيان الثوري: وقد سن رسول اللَّه الاستشارة في غير موضع، استشار أبا بكر وعمر في أسارى بدر، واستشار أصحابه في يوم الحديبية»[(١)].

وقال القرطبي: «مشاورة النبي ﷺ أصحابه حين بلغه إقبال أبي سفيان، وإعراضه عن تكليم المهاجرين إنما كان ليستخرج ما عند الأنصار من خروجهم معه للحرب، وذلك أنهم إنما كانوا بايعوه ليمنعوه من الأحمر والأسود ولم يأخذ عليهم أن يخرجوا معه، فأراد أن يعلم ما عندهم من ذلك، فعرض عليهم ذلك، فأجابوه بالجواب الذي ذكره سعد بن عبادة، الذي حصل لهم به المقام المحمود، والشرف المشهود»[(٢)].

وقال النووي: «فيه استشارة الأصحاب وأهل الرأي والخبرة»[(٣)].

* عَنْ عَائِشَةَ ﵂ -حِينَ قَالَ- لَهَا أَهْلُ الْإِفْكِ مَا قَالُوا قَالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ﵄ حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْأَلُهُمَا وَهُوَ يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَأَمَّا عَلِيٌّ فَقَالَ: لَمْ يُضَيِّقِ اللَّهُ عَلَيْكَ وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ وَسَلِ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ. فَقَالَ: «**هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟**» قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَمْرًا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ. فَقَامَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «**يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا**»، فَذَكَرَ بَرَاءَةَ عَائِشَةَ[(٤)].

---

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ٣٩٨). (٢) المفهم (٣/ ٦٢٥-٦٢٦).

(٣) شرح مسلم (١٢/ ١٠٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ١٩٤)، والبخاري (١٣/ ٤١٩/ ٧٣٦٩)، ومسلم (٤/ ٢١٢٩-٢١٣٧/ ٢٧٧٠)، والترمذي (٥/ ٣١٠-٣١٣/ ٣١٨٠) دون ذكر محل الشاهد، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٥-٤١٨/ ١١٣٦٠).

★ **غريب الحديث:**

استلبث الوحي: هو استفعل من اللبث: الإبطاء والتأخر. وقال ابن حجر: بالرفع؛ أي: طال لبث نزوله، وبالنصب؛ أي: استبطأ النبي ﷺ نزوله.

الداجن: وهي بدال مهملة ثم جيم: الشاة التي تألف البيت ولا تخرج إلى المرعى. وقيل: هي كل ما يألف البيوت مطلقًا شاة أو طيرًا.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «وقوله: «**فسمع منهما**»؛ أي: فسمع كلامهما ولم يعمل بجميعه حتى نزل الوحي، أما علي فأومأ إلى الفراق بقوله: «والنساء سواها كثير..»، وأما أسامة فنفى أن يعلم عليها إلا الخير، فلم يعمل بما أومأ إليه عليّ من المفارقة، وعمل بقوله «**وسل الجارية**» فسألها، وعمل بقول أسامة في عدم المفارقة، ولكنه أذن لها في التوجه إلى بيت أبيها»[١].

قلت: ما جاء في الحديث الذي في الصحيح في جواب علي للنبي ﷺ عن أم المؤمنين في قوله: «والنساء سواها كثير» هو قول إمام من أئمة الدين، وناصح للَّه ورسوله من الناصحين، وهذا الذي ظهر له رضي الله عنه واستلهمه من حالة الرسول ﷺ؛ لما رآه عليه من تغير من هذه الفتنة، فأراد للرسول ﷺ الخير وعدم الانشغال بهذا الأمر، وهذا لا يدل على أن في نفسه على أم المؤمنين شيئًا، حاشا وكلاّ، فهو يحبها ويوقرها ويبجلها، فكل ما تعلق به الرافضة عليهم لعائن اللَّه في هذه القضية كله باطل، لا يقوله إلا مغرض حاقد، فرضي اللَّه عن أمير المؤمنين علي، ورضي اللَّه عن أم المؤمنين عائشة، وصلى اللَّه على نبينا محمد.

وقال النووي: «فيها استحباب مشاورة الرجل بطانته وأهله وأصدقاءه فيما ينوبه من الأمور»[٢].

وقال ابن حجر: «والعلة في اختصاص علي وأسامة بالمشاورة أن عليًّا كان عنده كالولد لأنه رباه من حال صغره ثم لم يفارقه، بل وازداد اتصاله بتزويج فاطمة فلذلك كان مخصوصًا بالمشاورة فيما يتعلق بأهله لمزيد اطلاعه على أحواله أكثر من غيره،

---

(١) فتح الباري (١٣/ ٤٢٢).
(٢) شرح مسلم (١٧/ ٩٩).

وكان أهل مشورته فيما يتعلق بالأمور العامة أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر. وأما أسامة فهو كعلي في طول الملازمة ومزيد الاختصاص والمحبة، ولذلك كانوا يطلقون عليه أنه حب رسول اللَّه ﷺ، وخصه دون أبيه وأمه لكونه كان شابًّا كعلي، وإن كان علي أسن منه. وذلك أن للشاب من صفاء الذهن ما ليس لغيره، ولأنه أكثر جرأة على الجواب بما يظهر له من المسن؛ لأن المسن غالبًا يحسب العاقبة فربما أخفى بعض ما يظهر له رعاية للقائل تارة والمسؤول عنه أخرى، مع ما ورد في بعض الأخبار أنه استشار غيرهما»[(١)].

وقال ابن بطال: «وفيه من الفقه أن للمستشير والحاكم أن يعزم من الحكم على غير ما قال به مشاوره إذا كان من أهل الرسوخ في العلم، وأن يأخذ بما يراه، كما فعل النبي عليه السلام في مسألة عائشة، فإنه شاور عليًّا وأسامة، فأشار عليه أسامة بإمساكها، وأشار عليه علي بفراقها، فلم يأخذ بقول أحدهما وتركها عند أهلها حتى نزل القرآن فأخذ به، وكذلك فعل أبو بكر الصديق فإنه شاور أصحابه في مقاتلة من منع الزكاة، وأخذ بخلاف ما أشاروا به عليه من ترك قتالهم لما كان عنده متضحًا من قول النبي عليه السلام: «**إلا بحقها**»[(٢)]. وفهمه هذه النكتة مع ما يعضدها من قوله: «**من غير دينه فاقتلوه**»[(٣)]»[(٤)].

قال ابن أبي جمرة: «فيه جواز المشورة لكن بشرط أن يكون المستشار إليه فيه أهلية لذلك؛ لأن النبي ﷺ لما أن وقع له ما وقع دعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما في فراق أهله، وعلي بن أبي طالب وأسامة بن زيد فيهما أهلية للمشورة على ما تواتر وعلم من فضلهما. وفيه دليل على أن من السنة استشارة الشباب في النوازل؛ لأن النبي ﷺ استشارهما وكانا شابين، ومن هذا الباب -واللَّه أعلم- كان عمر بن الخطاب يجمع الشباب إذا وقعت به النوازل ويستشيرهم فيها.

---

(١) فتح الباري (٨/ ٦٠٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩٩)، والبخاري (١/ ٦٥٤/ ٣٩٢)، وأبو داود (٣/ ١٠١-١٠٢/ ٢٦٤١)، والترمذي (٥/ ٦-٧/ ٢٦٠٨) والنسائي (٧/ ٨٧-٨٨/ ٣٩٧٦ و٣٩٧٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٧)، والبخاري (١٢/ ٣٣١/ ٦٩٢٢)، وأبو داود (٤/ ٥٢٠-٥٢٢/ ٤٣٥١)، والترمذي (٤/ ٤٨/ ١٤٥٨)، والنسائي (٧/ ١٢٠/ ٤٠٧١)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٨/ ٢٥٣٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) شرح ابن بطال (٨/ ٦٠٠).

وفيه أن السيد في قومه أو الحاكم عليهم أو من فاق غيره في الخير والصلاح إذا نزلت به نازلة فله أن يستشير من هو أدنى منه فيها؛ لأن النبي ﷺ كما قد علم هو أفضل البشر، لكن لما أن وقع له ما وقع استشار فيه أسامة وعليا، لكن تكون المشورة لمن فيه أهلية لها كما تقدم»[١].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تنفل رسول اللَّه ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر، قال ابن عباس: وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد وذلك أن رسول اللَّه ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رأي رسول اللَّه ﷺ أن يقيم بالمدينة يقاتلهم فيها. فقال له ناس -لم يكونوا شهدوا بدرًا-: أتخرج بنا يا رسول اللَّه إليهم نقاتلهم بأحد؟ ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر. فما زالوا برسول اللَّه ﷺ حتى لبس أداته فندموا وقالوا: يا رسول اللَّه أقم فالرأي رأيك، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد أن لبسها حتى يحكم اللَّه بينه وبين عدوه**». قال: وكان لما قال لهم رسول اللَّه ﷺ يومئذ قبل أن يلبس الأداة: «**إني رأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة، وأني مردف كبشًا فأولته كبش الكتيبة، ورأيت سيفي ذا الفقار فل فأولته فلا فيكم، ورأيت بقرا تذبح، فَبَقْرٌ وَاللَّهُ خَيْرٌ، فَبَقْرٌ وَاللَّهُ خَيْرٌ**[٢]»[٣].

★ **غريب الحديث:**

تنفل: أي: أخذه.

أداته: بفتح الهمزة وتخفيف الدال وهي الآلة من درع وبيضة وغيرهما من السلاح.

---

(١) بهجة النفوس (٣/ ٥٧).

(٢) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٧٩): «كذا بالرفع فيهما على أنه مبتدأ وخبر، وفيه حذف تقديره: وصنع الله خير».

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢٧١) الحاكم (٢/ ١٢٨-١٢٩) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، والبيهقي (٧/ ٤١) وحسن إسناده الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٢١). وأخرجه مختصرا: الترمذي (٤/ ١١٠/ ١٥٦١) وقال: «حسن غريب»، وابن ماجه (٢/ ٢٣٩/ ٢٨٠٨).
ورواه أيضا: أحمد (٣/ ٣٥١)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٨٩/ ٧٦٤٧) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه. وقال الشيخ الألباني رحمه الله في تعليقه على فقه السيرة (ص: ٢٦٩): سنده على شرط مسلم غير الزبير مدلس، وقد عنعنه، له شاهد من حديث ابن عباس.. فالحديث صحيح» اهـ.

الكتيبة: القطعة العظيمة من الجيش والجمع: الكتائب.

الفلة: الثلمة في السيف. والفل: القوم المنهزمون.

بقر: بسكون القاف: وهو شق البطن.

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «وأما قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ قال قتادة: أمر الله نبيه إذا عزم على أمر أن يمضي فيه ويتوكل على الله.

قال المهلب: «وامتثل هذا النبي ﷺ فقال: «**لا ينبغي لنبي أن يضع أداته بعد أن لبسها حتى يحكم الله**»؛ أي: ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف؛ لأنه نقض التوكل الذي شرط الله مع العزيمة، فلبسه لأمته دال على العزيمة، وفي أخذ النبي ﷺ بما أمره الله من الرأي بعد المشورة حجة لمن قال من الفقهاء أن الأنبياء يجوز لهم الاجتهاد فيما لا وحي عندهم فيه»[1].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**المستشار مؤتمن**»[2].

★ غريب الحديث:

المستشار: أي: الذي طلب منه المشورة والرأي.

مؤتمن: اسم مفعول من الأمن أو الأمانة.

★ فوائد الحديث:

قال المباركفوري: «معناه أن المستشار أمين فيما يسأل من الأمور لا ينبغي أن يخون المستشير بكتمان مصلحته»[3].

قال ابن حجر: «وأما تقييده بالأمناء فهي صفة موضحة؛ لأن غير المؤتمن لا يستشار ولا يلتفت لقوله»[4].

---

(١) شرح ابن بطال (١٠/ ٣٩٩).

(٢) أخرجه: أبو داود (٥/ ٣٤٥/ ٥١٢٨)، والترمذي (٥/ ١١٥/ ٢٨٢٢) وقال: «هذا حديث حسن»، وابن ماجه (٢/ ١٢٣٣/ ٣٧٤٥). كلهم من طريق شيبان عن عبد الملك بن عمير عن أبي سلمة عن أبي هريرة به.
وأخرجه أيضًا: أحمد (٥/ ٢٧٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٣٣/ ٣٧٤٦) من حديث أبي مسعود الأنصاري به.

(٣) تحفة الأحوذي (٨/ ٨٨).

(٤) فتح الباري (١٣/ ٤٢٢).

قال ابن العربي: «الشورى منزلة عظيمة وخطة كريمة. . ومن لم يكن من أهل التعديل فليس بمشاور ولا أمين، ومن سألك عما يجهل ليعلم أو يعمل، فقد أنزلك منزلة الأمين المشاور، كما لو حكمك فقد أنزلك منزلة الحاكم، والخطتان تتركبان على خطة النصح ومرتبته، والدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[(١)].

قلت: ما تقدم من نصوص السنة الصحيحة، ومن آيات كتاب اللَّه العظيمة الواضحة، ومن كلام أهل العلم الأخيار الأبرار، مصابيح الأمة وشموسها؛ يبين أن الاستشارة في الأمور التي يحتاج فيها إلى استشارة أمر عقلي وشرعي وفطري، وهي بالنسبة لقادة الأمة في أية قيادة صغرى أو كبرى، ولاسيما في سياسة التسيير والتوجيه والدعوة والجهاد في سبيل اللَّه لأمر عظيم، فهذه أمور لا يمكن أن يستغنى عن الاستشارة فيها بحال، وقد ذكر اللَّه قصصًا كثيرة في كتابه في هذا الموضوع، ومن أشهرها وأوضحها قصة المرأة التي أسلمت على يد نبي اللَّه سليمان، ملكة سبإ بلقيس، حيث قال تعالى على لسانها: ﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾[(٢)]، وأفعاله وأقواله ﷺ في باب الاستشارة كثيرة، وأفعال خلفائه من بعده وأقوالهم تكتب فيها المجلدات، وما يزال أهل العلم يستشيرون مشايخهم فيما ألفوه من كتب، كالبخاري رَحِمَهُ اللَّهُ مع شيخه إسحق بن إبراهيم، ومسلم مع مشايخه، ومالك في موطئه مع مشايخه، ولو تتبعنا سير أهل العلم لوجدت معظم ما ألفوه كله ناتج عن الاستشارة والاستخارة.

أما المعتقد فلا استشارة فيه، فهو أمر مستنده الوحي والقرآن وصحيح السنن، فليس لصاحبه إلا العلم والتعلم، وكذلك العبادات برمتها لا يحتاج فيها إلى استشارة، فهي نصوص وحي من كتاب وسنة، وهكذا كل باب الحلال والحرام، فالمنصوص منه لا يحتاج فيه إلى استشارة؛ كالربا والخنزير والخمر وتزويج المحارم، وكل الأمور القطعية لا يحتاج فيه إلى استشارة، وإنما يستفسر فيما اشتبه أمره وتنازعت فيه الأدلة، فهذا يرجع فيه إلى أهل العلم، فهم الذين يرجعون

(١) عارضة الأحوذي (١٠/ ٢٦٢).
(٢) النمل: الآية (٣٢).

ويدلون فيه على الصواب. وإن كان المستفتى مجتهدًا فيستشير نظراءه ومن هو أعلم منه إن أمكن، وكذلك القضاة يستشيرون نظراءهم أو من هو أعلم منهم فيما اشتبه أمره عليهم. وهكذا المفتون وسائر من يحتاج إلى استشارة.

فالمريض يستشير الأطباء، والتاجر يستشير التجار، والفلاح يستشير الفلاحين، وهكذا يرجع في كل قضية إلى أصحابها في الاختصاص، ويشترط في المستشار شروط:

أولها: أن يكون عدلًا صادقًا، فلا يستشار الفاسق ولا الكذاب، فهؤلاء ليسوا أهلًا للاستشارة، فضلًا أن يستشار الكافر في أمور المسلمين، كاليهودي والنصراني والمجوسي الذي هو بالأصل عدو لأهل الإسلام. فهذا يستشار فيما يختص به إن كان له تخصص فيما ينفع الإسلام أو المسلمين، فهذا لا يشترط له الإسلام ولا العدالة، وإنما يشترط فيه الصدق في اختصاصه، فلا يعرف بتلاعب ولا بضعف رأي ولا بجهل في اختصاصه.

ثانيها: أن يكون أمينًا فيما استشير فيه؛ فهناك أمور قد يستشار فيها الإنسان وينبغي فيها الكتمان، فلا ينبغي للمستشار أن يفشوها إن كان ذلك خاصًّا بالمستشير، ولا سيما في باب الأعراض وما يترتب على إذاعته من مفاسد، وهكذا فلا يستشار في محرم كالزنا واللواط والسرقة والقتل، فمن استشار في هذه الأمور يجب ردعه، وإن كان هناك ولي للأمر ولم يرتدع فيجب إعلام الولي بشأنه؛ حتى لا ينتشر الفساد وتسفك الدماء وتسرق الأموال، فأمن الأمة في مالها ودمائها وأعراضها يجب أن يتعاون عليه، ولا ينبغي الإخلال به مهما كان واقع الأمة.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بذلك: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أيها المؤمنون بالله ورسوله على من ناوأكم وعاداكم من أعدائه والكافرين به، ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ من الناس يقول: فلن يغلبكم مع نصره إياكم أحد، ولو اجتمع عليكم من بين أقطارها من خلقه، فلا تهابوا أعداء الله لقلة عددكم، وكثرة عددهم ما كنتم على أمره، واستقمتم على طاعته وطاعة رسوله، فإن الغلبة لكم والظفر دونهم. ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾؛ يعني: إن يخذلكم ربكم بخلافكم أمره، وترككم طاعته وطاعة رسوله فيكلكم إلى أنفسكم، ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ يقول: فأيسوا من نصرة الناس، فإنكم لا تجدون أمرا من بعد خذلان الله إياكم أن خذلكم، يقول: فلا تتركوا أمري وطاعتي وطاعة رسولي فتهلكوا بخذلاني إياكم. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ يعني: ولكن على ربكم أيها المؤمنون فتوكلوا دون سائر خلقه، وبه فارضوا من جميع من دونه، ولقضائه فاستسلموا وجاهدوا فيه أعداءه، يكفكم بعونه، ويمددكم بنصره»[١].

قال صديق حسن خان: «فيه لطف بالمؤمنين حيث صرح لهم بعدم الغلبة في الأول، ولم يصرح لهم بأنه لا ناصر لهم في الثاني، بل أتى به في صورة الاستفهام وإن كان معناه نفيا ليكون أبلغ، ومن علم أنه لا ناصر له إلا الله سبحانه وأن من نصره الله لا غالب له، ومن خذله لا ناصر له فوض أموره إليه وتوكل عليه، ولم يشتغل بغيره»[٢].

قال السعدي: «أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته فلا غالب لكم، فلو اجتمع

---

(١) جامع البيان (٧/ ٣٤٦-٣٤٧ شاكر).

(٢) فتح البيان (٢/ ٣٦٦).

عليكم من في أقطارها وما عندهم من العدد والعدد؛ لأن اللَّه لا مغالب له وقد قهر العباد وأخذ بنواصيهم. فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه. ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فلا بد أن تنخذلوا ولو أعانكم جميع الخلق. وقد ضمن ذلك الأمر بالاستنصار باللَّه والاعتماد عليه والبراءة من الحول والقوة؛ ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وتقدم المعمول يؤذن بالحصر؛ أي: توكلوا على اللَّه لا غيره لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود. والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه بل ضار. وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على اللَّه وحده وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «قد علم مما تقدم أن التوكل إنما يكون مع الأخذ بالأسباب، وأن ترك الأسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع، أو فساد في العقل، فالتوكل محله القلب، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح، والإنسان مسوق إليه بمقتضى فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[(٢)] ومأمور به في الشرع قال تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[(٣)] وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ﴾[(٤)] وقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[(٥)] وقال: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[(٦)] وقال لنبيه لوط عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[(٧)] وقال في الحكاية عن نبيه يعقوب لنبيه يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾[(٨)]، وقال حكاية عنه أيضًا: ﴿وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[(٩)] فأمرهم بالحذر مع التنبيه على أنه متوكل على اللَّه والتذكير بوجوب التوكل عليه، فجمع بين الواجبين وبين أنه لا تنافي بينهما، ولا غناء للمؤمن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٤٦).
(٢) الروم: الآية (٣٠).
(٣) الملك: الآية (١٥).
(٤) النساء: الآية (٧١).
(٥) الأنفال: الآية (٦٠).
(٦) البقرة: الآية (١٩٧).
(٧) هود: الآية (٨١).
(٨) يوسف: الآية (٥).
(٩) يوسف: الآية (٦٧).

عنهما ، ذلك بأن الإنسان إذا توكل ولم يستعد للأمر ويأخذ له أهبته بحسب سنة اللَّه في الأسباب والمسببات يقع في الحسرة والندم عند ما يخيب ويفوته غرضه فيكون ملومًا شرعًا وعقلًا كما قال تعالى في مسألة الإسراف في المال ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾(١) وإذا هو استعد وأخذ بالأسباب واعتمد عليها غافلا قلبه عن اللَّه تعالى ، فإنه يكون عرضة للجزع والهلع إذا خاب سعيه ولم ينل مراده فيفوته الصبر والثبات اللذان يهونان عليه الأمر حتى لا يدري كيف يستفيد من الخيبة ويتدارك أمره فيها ، وربما وقع في اليأس الذي لا مطمع معه في فلاح ولا نجاح ، ولذلك قرن اللَّه الصبر بالتوكل في عدة آيات من كتابه قال تعالى حكاية عن الرسل عليهم السلام في محاجة أقوامهم ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٢) وذكروا أن اللَّه هداهم سبله وهي سننه في الأسباب ، وأنهم موطنون أنفسهم على الصبر لأنهم متوكلون عليه تعالى . ووصف الذين هاجروا من بعدما ظلموا بقوله : ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٣) وقال : ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٤) لوصفهم بالعمل وأسند إليهم الصبر والتوكل ، وقال لخاتم أنبيائه ورسله : ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾(٥) كما قال له : ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(٦) فهنا قرن أمره بالتوكل بنهيه عن العمل بقول من لا يوثق بقوله ؛ لأنه يغش ولا ينصح كما أنه قرنه بالأمر بالمشاورة في الآية السابقة من الآيات التي نحن بصدد تفسيرها أعني قوله : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾(٧) ، وكل ذلك من اتخاذ الأسباب سلبًا وإيجابًا .

وجاء ذكر التوكل في مقام ذكر الحرمان من الرزق أو من سعته كما جاء في مقام الصبر على إيذاء المعتدين كقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾(٨) وقوله في مقام وجوب نبذ الاغترار بسعة الرزق خشية الغفلة عن الآخرة : ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ

(١) الإسراء : الآية (٢٩).
(٢) إبراهيم : الآية (١٢).
(٣) النحل : الآية (٤٢).
(٤) العنكبوت : الآيتان (٥٨-٥٩).
(٥) المزمل : الآيتان (٩-١٠).
(٦) الأحزاب : الآية (٤٨).
(٧) آل عمران (١٥٩).
(٨) الطلاق : الآيتان (٢-٣).

خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

* **تنبيه**: قد ورد في التوكل وفضله أحاديث، انظرها في سورة الطلاق.

* * *

(١) الشورى: الآية (٣٦).

(٢) تفسير المنار (٤/ ٢٠٧-٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يغل: من الغلول وهو الخيانة في خفاء، يقال: أغل الرجل يغل إغلالًا: إذا خان، ولم يؤد الأمانة. وأغل الجازر إذا سرق أو ترك في الإهاب شيئًا من اللحم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الجصاص: «وخص النبي ﷺ بذلك وإن كانت خيانة سائر الناس محظورة تعظيما لأمر خيانته على خيانة غيره، كما قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[1] وإن كان الرجس كله محظورًا، ونحن مأمورون باجتنابه»[2].

قال الرازي: «واعلم أن الخيانة مع كل أحد محرمة، وتخصيص النبي بهذه الحرمة فيه فوائد: أحدها: أن المجني عليه كلما كان أشرف وأعظم درجة كانت الخيانة في حقه أفحش، والرسول أفضل البشر فكانت الخيانة في حقه أفحش. وثانيها: أن الوحي كان يأتيه حالًا فحالًا، فمن خانه فربما نزل الوحي فيه فيحصل له مع عذاب الآخرة فضيحة الدنيا. وثالثها: ان المسلمين كانوا في غاية الفقر في ذلك الوقت فكانت تلك الخيانة هناك أفحش»[3].

قال ابن عطية: «﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وعيد لمن يغل من الغنيمة أو في زكاته، فيجحدها ويمسكها، فالفضيحة يوم القيامة بأن يأتي على رؤوس الأشهاد بالشيء الذي غل في الدنيا»[4].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذه الفضيحة التي يوقع اللَّه بالغال، هي نظيرة الفضيحة التي

---

(١) الحج: الآية (٣٠).
(٢) أحكام القرآن (٢/ ٤٢).
(٣) تفسير الرازي (٩/ ٧٥).
(٤) المحرر الوجيز (١/ ٥٣٦).

توقع بالغادر، في أن ينصب له لواء بغدرته حسب قوله ﷺ، وجعل اللَّه هذه المعاقبات حسبما يعهده البشر ويفهمونه، ألا ترى إلى قول الحارد:

أسمي ويحك هل سمعت بغدرة رفع اللواء لنا بها في المجمع

وكانت العرب ترفع للغادر لواء، وكذلك يطاف بالجاني مع جنايته»[١].

وقال السعدي: «أخبر اللَّه تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغل؛ لأن الغلول كما علمت من أعظم الذنوب وشر العيوب. وقد صان اللَّه تعالى أنبياءه عن كل ما يدنسهم ويقدح فيهم وجعلهم أفضل العالمين أخلاقًا، وأطهرهم نفوسًا، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب وجعلهم محل رسالته ومعدن حكمته ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[٢]. فبمجرد علم العبد بالواحد منهم يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدح فيهم. ولا يحتاج إلى دليل على فساد ما قيل فيهم من أعدائهم؛ لأن معرفته بنبوتهم تستلزم دفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾؛ أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم اللَّه لنبوته، ثم ذكر الوعيد على من غل فقال: ﴿وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾؛ أي: يأت به حامله على ظهره حيوانا كان أو متاعا أو غير ذلك يعذب به يوم القيامة ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ﴾ الغال وغيره، كل يوفى أجره ووزره على مقدار كسبه، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾؛ أي: لا يزاد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئًا من حسناتهم، وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة.

لما ذكر عقوبة الغال وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر توفيته وجزاءه، وكان اقتصاره على الغال يوهم -بالمفهوم- أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون - أتى بلفظ عام جامع له ولغيره»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وذم الغلول

* عن ابن عباس ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ قال: ما كان للنبي أن يتهمه أصحابه[٤].

---

(١) المحرر الوجيز (١/ ٥٣٦). (٢) الأنعام: الآية (١٢٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٤٧-٤٤٨).

(٤) البزار: كشف الأستار (٣/ ٤٣-٤٤/ ٢١٩٧). وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٢٨) وقال: «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح».

* عن ابن عباس نزلت هذه الآية ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ في قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر. فقال بعض الناس: لعل رسول اللَّه ﷺ أخذها فأنزل اللَّه ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾[(١)].

★ **غريب الحديثين:**

الغل: الخيانة في المغنم والسرقة في الغنيمة قبل القسمة، وكل من خان في شيء خفية فقد غلّ، وسميت غلولًا لأن الأيدي فيها مغلولة؛ أي: ممنوعة مجعول فيها غلّ، وهو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه، ويقال لها: الجامعة أيضًا.

★ **فوائد الحديثين:**

قوله: فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ قال ابن العربي: «قرئ بضم الياء وبفتحها، فإذا كان بفتح الياء كان معناه: أن يأخذ باسم الخيانة، فإن الأنبياء معصومون عن الكبائر بعد النبوة بإجماع من الأمة. وقول من قال أخذها النبي إن صح يحتمل: أن يريد أخذها بما يجوز له من نفل أو صفي فهذا لا شيء عليه فيه، وإن كان أراد أنه أخذها خيانة فهو كافر، ولا ينطق بهذا إلا كافر أو منافق. وإن قرئت يغل بضم الياء، فيحتمل أن يريد أن يوجد غالا فيرجع إلى الأول، ويحتمل أن يريد به أن يخان؛ أي: أن يغل بأخذ ما جرى على يديه، فإن اللَّه يطلعه عليه، روى في الصحيح إذ قال الناس في مدعم غلام النبي عليه السلام هنيئًا له الجنة، فقال: «**كلا، والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر لم يصبها المقاسم لتشتعل عليه النار**»[(٢)]. وفيه أن النبي ﷺ ترك الدعاء لقبيلة من القبائل فوجدوا في بردعة رجل منهم عقد جزع غلولا، فكبر النبي عليه السلام كما يكبر على الميت، وكان من تقدم من الأنبياء يعلم الغلول بأن تجمع الغنائم فتنزل عليها نار من السماء فتحرقها، فإذا لم تحترق علم النبي أن فيها غلولًا، وكان وجه علم النبي بها بعد إحلال اللَّه له إياها اطلاعه على الغال وعلى ما يغل منها بوقته، وكان ﷺ لا يغل شيئًا من الوحي إلا أداه، وكذلك سائر الأنبياء قبله، قال اللَّه تعالى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ

(١) أخرجه: أبو داود (٤/ ٢٨٠/ ٣٩٧١)، والترمذي (٥/ ٢١٤/ ٣٠٠٩) وقال: حسن غريب: انظر الصحيحة (٢٧٨٨).

(٢) سيأتي تخريجه.

إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[(١)]»[(٢)].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بُضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولمّا يبنِ بها، ولا أحد بنى بيوتًا ولم يرفع سقوفها، ولا آخر اشترى غنمًا أو خلفات وهو ينتظر ولادها. فغزا. فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبًا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحُبست حتى فتح اللَّه عليهم، فجمع الغنائم، فجاءت -يعني: النار- لتأكلها فلم تطعمها، فقال: إن فيكم غلولًا، فليبايعني من كل قبيلة رجل، فلزقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، فليبايعني قبيلتك، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده، فقال: فيكم الغلول، فجاؤوا برأس بقرة من الذهب فوضعوها، فجاءت النار فأكلتها. ثم أحل اللَّه لنا الغنائم، رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا**»[(٣)].

★ **غريب الحديث:**

ملك بضع امرأة: بضم الباء، وهو النكاح؛ أي: ملك عقدة نكاحها.

خَلِفات: جمع خلفة، وهي الناقة الحامل.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «وفيه أن من مضى كانوا يغزون ويأخذون أموال أعدائهم وأسلابهم، لكن لا يتصرفون فيها بل يجمعونها، وعلامة قبول غزوهم ذلك أن تنزل النار من السماء فتأكلها، وعلامة عدم قبوله أن لا تنزل. ومن أسباب عدم القبول أن يقع فيهم الغلول، وقد من اللَّه على هذه الأمة ورحمها لشرف نبيها عنده فأحل لهم الغنيمة، وستر عليهم الغلول، فطوى عنهم فضيحة أمر عدم القبول، فلله الحمد على نعمه تترى»[(٤)].

قال ابن بطال: «كانت المغانم للأنبياء المتقدمين يجمعونها في برية، فتأتي نار

---

(١) المائدة الآية: (٦٧).
(٢) عارضة الأحوذي (١١/ ١٣٧-١٣٨).
(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٨)، والبخاري (٦/ ٢٧١/ ٣١٢٤)، ومسلم (٣/ ١٣٦٦-١٣٦٧/ ١٧٤٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٧٧/ ٨٨٧٨).
(٤) فتح الباري (٦/ ٢٧٥).

من السماء فتحرقها، فإن كانت فيها غلول أو ما لا يحل لم تأكلها، وكذلك كانوا يفعلون في قربانهم، كان المتقبل تأكله النار وما لا يتقبل يبقى على حاله لا تأكله.

ودعاء هذا النبي قومه بالمبايعة بمصافحة أيديهم اختار منه للقبيل الذي فيهم الغلول، من أجل ظهور هذه الآية، وهي لصوق يد المبايع بيد النبي»[(١)].

* عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ فِينَا النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرَ الْغُلُولَ فَعَظَّمَهُ وَعَظَّمَ أَمْرَهُ قَالَ: «**لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ أَوْ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ**».
وَقَالَ أَيُّوبُ عَنْ أَبِي حَيَّانَ: فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ»[(٢)].

* **غريب الحديث:**

لا ألفين: بضم أوله وبالفاء؛ أي: لا أجد.

ثغاء: بضم المثلثة وتخفيف المعجمة وبالمد: صوت الشاة، يقال: ثغت تثغو.

حمحمة: بمهملتين مفتوحتين بينهما ميم ساكنة ثم ميم قبل الهاء، وهو صوت الفرس عند العلف، وهو دون الصهيل.

رغاء: بضم الراء وتخفيف المعجمة وبالمد صوت البعير.

صامت: أي: الذهب والفضة، وقيل: ما لا روح فيه من أصناف المال.

رقاع تخفق: أي تتقعقع وتضطرب إذا حركتها الرياح، وقيل معناه تلمع، والمراد بها الثياب.

* **فوائد الحديث:**

قال النووي: «أجمع المسلمون على تغليظ تحريم الغلول، وأنه من

---

(١) شرح البخاري (٥/ ٢٧٨).

(٢) أحمد (٢/ ٤٢٦)، والبخاري (٦/ ٢٢٨/ ٣٠٧٣)، ومسلم (٣/ ١٤٦١-١٤٦٢/ ١٨٣١).

الكبائر»[١].

قال ابن بطال: «قال المهلب: هذا الحديث على سبيل الوعيد من اللَّه لمن أنفذه عليه من أهل الغلول، وقد تكون العقوبة حمل البعير وسائر ما غله على رقبته على رؤوس الأشهاد وفضيحته به، ثم اللَّه مخير بعد ذلك في تعذيبه بالنار أو العفو عنه، فإن عذبه بناره أدركته الشفاعة إن شاء اللَّه، وإن لم يعذبه بناره فهو واسع المغفرة»[٢].

وقال الصنعاني: «دل الحديث على أنه يأتي الغال بهذه الصفة الشنيعة يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، فلعل هذا هو العار يوم القيامة، ويحتمل أنه شيء أعظم من هذا، ويؤخذ من هذا الحديث أن هذا ذنب لا يغفر بالشفاعة، لقوله ﷺ: «**لا أملك لك من اللَّه شيئًا**»، ويحتمل أنه أورده في محل التغليظ والتشديد، ويحتمل أنه يغفر له بعد تشهيره في ذلك الموقف»[٣].

وقال ابن بطال: «وهذا الحديث يفسر قوله: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أنه يأتي يحمله على رقبته ليكون أبلغ في فضيحته، وليتبين للأشهاد جنايته، وحسبك بهذا تعظيمًا لإثم الغلول وتحذير أمته...

وقال ابن المنذر: وأجمع العلماء أن على الغالّ أن يرد ما غلّ إلى صاحب المقسم ما لم يفترق الناس.

واختلفوا فيما يفعل بذلك إذا افترق الناس»[٤].

وقال محمد رشيد رضا: «قال بعض العلماء: لا مانع من إمضاء هذا الإتيان على ظاهره، وإن غل الإنسان بالعدد الكثير من الإبل والغنم والبقر والخيل والبغال والحمير والأشياء الصامتة فإنها تكون يوم القيامة على رقبته مهما كثرت... وجعل بعض العلماء حديث حمل ما يغل به الغال على رقبته من باب التمثيل شبهت حال الغال بما يرهقه من أثقال ذنبه وفضيحته به مع فقد المعين والمغيث بمن يحمل ذلك عينه على عاتقه ويقصد أرجى الناس لإغاثته فيخذله ويتنصل من إغاثته. وما زال الناس يشبهون الأثقال المعنوية بالأثقال الحسية، ويعبرون عنها الحمل، يقولون:

---

(١) شرح مسلم (١٢/ ١٨٣).
(٢) شرح ابن بطال (٥/ ٢٣٣).
(٣) سبل السلام (٧/ ٢٧٢).
(٤) شرح ابن بطال (٥/ ٢٣٣-٢٣٤).

فلان حامل أثقال أهله أو أثقال البلد وفي التنزيل: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[١] ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[٢] على أن حديث الشيخين لم يذكر فيه أنه تفسير للآية»[٣].

* عن عبد الله بن عمرو قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أصاب غنيمة أمر بلالًا فنادى في الناس، فيجيئون بغنائمهم فيخمسه ويقسمه، فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال: يا رسول الله هذا فيما كنا أصبناه من الغنيمة فقال: **أسمعت بلالًا ينادي ثلاثا؟** قال: نعم. قال: **فما منعك أن تجيء به؟** فاعتذر إليه فقال: **كن أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله عنك**»[٤].

★ فوائد الحديث:

قال الشوكاني: «فيه دليل على أنه لا يقبل الإمام من الغال ما جاء به بعد وقوع القسمة ولو كان يسيرا»[٥].

قال الطيبي: «قال المظهر: إنما لم يقبل ذلك منه؛ لأن لجميع الغانمين فيه شركة وقد تفرقوا، وتعذر إيصال نصيب كل واحد منهم إليه، فتركه في يده؛ ليكون إثمه عليه لأنه هو الغاصب.

وقال: «وهذا وارد على سبيل التغليظ لا أن توبته غير مقبولة، ولا أن رد المظالم على أصحابها أو الاستحلال منهم غير ممكن»[٦].

* عن ابن عمرو قال: كان على ثقل النبي ﷺ رجل يقال له كركرة فمات، فقال رسول الله ﷺ: «**هو في النار**». فذهبوا ينظرون فوجدوا عليه عباءة قد غلها[٧].

---

(١) العنكبوت: الآيتان (١٢-١٣). (٢) فاطر: الآية (١٨).
(٣) تفسير المنار (٤/ ٢١٧).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٣)، وأبو داود (٣/ ١٥٦/ ٢٧١٢)، والحاكم (٢/ ١٢٧) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وابن حبان (١١/ ١٣٨/ ٤٨٠٩).
(٥) نيل الأوطار (٧/ ٣٠١). (٦) شرح الطيبي (٩/ ٢٧٧١).
(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٠)، والبخاري (٦/ ٢٣٠/ ٣٠٧٤)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٠/ ٢٨٤٩).

★ **غريب الحديث:**

ثقل: متاع السفر.

★ **فوائد الحديث:**

في هذا الحديث: تحريم قليل الغلول وكثيره، كما قال ﷺ للذي أتاه بالشراك من الغنم قال: «**شراك أو شراكين من نار**». وقال في الشملة: «**إنها تشتعل عليه نارًا يوم القيامة**»»[(١)].

* عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ يَقُولُ: «افْتَتَحْنَا خَيْبَرَ وَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً إِنَّمَا غَنِمْنَا الْبَقَرَ وَالْإِبِلَ وَالْمَتَاعَ وَالْحَوَائِطَ، ثُمَّ انْصَرَفْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى وَادِي الْقُرَى وَمَعَهُ عَبْدٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ مِدْعَمٌ أَهْدَاهُ لَهُ أَحَدُ بَنِي الضِّبَابِ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَحُطُّ رَحْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ جَاءَهُ سَهْمٌ عَائِرٌ حَتَّى أَصَابَ ذَلِكَ الْعَبْدَ فَقَالَ النَّاسُ هَنِيئًا لَهُ الشَّهَادَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتِي أَصَابَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الْمَغَانِمِ لَمْ تُصِبْهَا الْمَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نَارًا**». فَجَاءَ رَجُلٌ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ بِشِرَاكٍ أَوْ بِشِرَاكَيْنِ فَقَالَ: هَذَا شَيْءٌ كُنْتُ أَصَبْتُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ**»[(٢)].

★ **غريب الحديث:**

سهم عائر: أي: لا يدرى من رمى به، وقيل هو الحائد عن قصده.

الشملة: كساء ذو خمل، وقال الأخفش: الشملة الإزار من الصوف.

شراك: بكسر المعجمة وتخفيف الراء سير النعل على ظهر القدم.

★ **فوائد الحديث:**

دل الحديث على أحكام: «منها غلظ تحريم الغلول، ومنها أنه لا فرق بين قليله

---

(١) ابن بطال (٥/ ٢٣٥).

(٢) البخاري (٧/ ٦٢٠/ ٤٢٣٤)، ومسلم (١/ ١٠٨/ ١١٥)، وأبو داود (٣/ ١٥٥-١٥٦/ ٢٧١١)، والنسائي (٧/ ٣٠-٣١/ ٣٨٣٦).

وكثيره حتى الشراك، ومنها أن الغلول يمنع من إطلاق اسم الشهادة على من غل إذا قتل»[١].

وقال أبو عمر: «أما قوله في الحديث: «**شراك أو شراكان من نار**»، وقوله في حديث عمرو بن شعيب: «**أدوا الخيط والمخيط**»، فيدل على أن القليل والكثير لا يحل لأحد أخذه في الغزو قبل المقاسم، إلا ما أجمعوا عليه من أكل الطعام في أرض العدو من الاحتطاب والاصطياد. وهذا أولى ما قيل به في هذا الباب، وما خالفه مما جاء عن بعض أصحابنا وغيرهم فليس بشيء؛ لأن عموم قول الله ﷻ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾[٢] يوجب أن يكون الجميع غنيمة، خمسها لمن سمى الله، وأربعة أخماسها لمن شهد القتال من البالغين الأحرار الذكور، فلا يحل لأحد منها شيء إلا سهمه الذي يقع له في المقاسم بعد إخراج الخمس المذكور، إلا أن الطعام خرج بدليل إخراج رسول الله ﷺ له عن جملة ذلك»[٣].

وقال: «ففي قوله هذا كله دليل على تعظيم الغلول وتعظيم الذنب فيه. وأظن حقوق الآدميين كلها كذلك في التعظيم وإن لم يقطع على أنه يأتي به حاملًا له كما يأتي بالغلول والله أعلم»[٤].

* عن أبي مالك الأشعري عن النبي ﷺ قال: «**أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض، تجدون الرجلين جارين في الأرض أو في الدار فيقتطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعًا، فإذا اقتطعه طوقه من سبع أرضين إلى يوم القيامة**»[٥].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**عند الله يوم القيامة**»[٦]: خصه لأنه يوم وقوع الجزاء وكشف الغطاء. «**ذراع**» أو دونه كما يفيده خبر: «**من غصب قيد شبر من أرض**». «**من الأرض**»؛

---

(١) شرح مسلم (٢/ ١١١).
(٢) الأنفال: الآية (٤١).
(٣) التمهيد: فتح البر (١١/ ١١١).
(٤) التمهيد: فتح البر (١١/ ١١٣).
(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤١-٣٤٤)، والطبراني في الكبير (٣/ ٣٤٠/ ٣٤٦٣). قال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٧٥): رواه أحمد والطبراني في الكبير وإسناده حسن. وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ١٦): رواه أحمد بإسناد حسن والطبراني في الكبير، وحسنه ابن حجر في الفتح (٥/ ١٣٢).
(٦) وهي رواية للإمام أحمد.

أي: إثم غصبه ذراع من الأرض كما بينه بقوله: «**تجدون الرجلين جارين**» أي متجاورين «**في الأرض أو الدار**» أو نحوها «**فيقتطع أحدهما من حظ صاحبه**»؛ أي: من حق جاره المسلم، ومثله الذمي؛ أي: مما يستحقه بملك أو وقف أو غيرهما، «**ذراعا**» مثلا «**فإذا اقتطعه**» منه «**طوقه**» بالبناء للمجهول؛ أي: يخسف به الأرض فتصير البقعة المغصوبة منها في عنقه كالطوق «**من سبع أرضين**» يعني يعاقب بالخسف فيصير ما اقتطعه وما تحته من كل أرض من السبع طوقًا له، ويعظم عنقه حتى يسع ذلك، أو يتكلف أن يجعل له ذلك طوقا، ولا يستطيع فيعذب به كما في خبر: «**من كذب في منامه كلف أن يعقد شعيرة**»[(١)]، والتطويق تطويق الإثم، أو المراد أن الظلم المذكور لازم له لزوم الطوق للعنق من قبيل ﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾[(٢)] «**يوم القيامة**» زاد في رواية في الكبير: «**إلى قعر الأرض، ولا يعلم قعرها إلا الذي خلقها**» وهذا وعيد شديد يفيد أن الغصب كبيرة، بل يكفر مستحله لكونه مجمعا عليه، معلوما من الدين بالضرورة، وفيه إمكان غصب الأرض، وأنه من الكبائر، وأن غصبها أعظم من غصب غيرها، إذ لم يرد فيه مثل هذا الوعيد»[(٣)].

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص قال: شهدت رسول اللَّه ﷺ يوم حنين، وجاءته وفود هوازن، فقالوا: يا محمد إنا أصل وعشيرة فمن علينا من اللَّه عليك فإنه قد نزل بنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فقال: «**اختاروا بين نسائكم وأموالكم وأبنائكم**»، قالوا: خيرتنا بين أحسابنا وأموالنا نختار أبناءنا. فقال: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فإذا صليت الظهر فقولوا: إنا نستشفع برسول اللَّه ﷺ على المؤمنين وبالمؤمنين على رسول اللَّه ﷺ على المؤمنين وبالمؤمنين على رسول اللَّه ﷺ في نسائنا وأبنائنا**». قال: ففعلوا فقال رسول اللَّه ﷺ: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم**». وقال المهاجرون: ما كان لنا فهو لرسول اللَّه ﷺ، وقالت الأنصار مثل ذلك، وقال عيينة بن بدر: أما ما كان لي ولبني فزارة فلا، وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا، فقالت الحيان: كذبت بل هو لرسول اللَّه ﷺ. فقال رسول اللَّه

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٧٦-٧٧)، والترمذي (٤/ ٤٦٦/ ٢٢٨١) وقال: هذا حديث حسن من حديث علي وفي الباب عن ابن عباس وأبي هريرة وأبي شريح وواثلة.

(٢) الإسراء الآية: (١٣).

(٣) فيض القدير (٢/ ٣-٤).

ﷺ: «**يا أيها الناس ردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، فمن تمسك بشيء من الفيء فله علينا ستة فرائض من أول شيء يفيئه اللَّه علينا**»، ثم ركب راحلته وتعلق به الناس يقولون: اقسم علينا فيئنا بيننا، حتى ألجئوه إلى سمرة فخطفت رداءه فقال: «**يا أيها الناس ردوا علي ردائي، فواللَّه لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعم لقسمته بينكم، ثم لا تلقوني بخيلًا ولا جبانًا ولا كذوبًا**»، ثم دنا من بعيره فأخذ وبرة من سنامه فجعلها بين أصابعه السبابة والوسطى ثم رفعها فقال: «**يا أيها الناس ليس لي من هذا الفيء هؤلاء هذه إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فردوا الخياط والمخيط، فإن الغلول يكون على أهله يوم القيامة عارًا ونارًا وشنارًا**». فقام رجل معه كبة من شعر فقال: إني أخذت هذه أصلح بها بردعة بعير لي دبر. قال: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لك**». فقال الرجل: يا رسول اللَّه أما إذ بلغت ما أرى فلا أرب لي بها ونبذها[١].

★ غريب الحديث:

الفيء: ما صولح عليه الكفار، والغنيمة ما غلبوا عليه قسرًا.

سمرة: شجرة الطلح.

وبرة: الوبر للبعير كالصوف للغنم.

شنار: كلمة تجمع العار والنار ومنهم من قال: تجمع الشين والنار.

★ فوائد الحديث:

قال أبو عمر: «في هذا الحديث دليل على أن الغلول كثيره وقليله حرام نار، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٢].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٤)، والنسائي (٦/ ٥٧٤/ ٣٦٩٠). وأخرجه مختصرا: أبو داود (٣/ ١٤٢/ ٢٦٩٤).
كلهم من طريق محمد بن إسحاق عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به. قال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٨٨): قلت: -رواه أبو داود باختصار كثير- رواه أحمد ورجال أحد إسناديه ثقات.
قال الشيخ أحمد شاكر رحمه اللَّه تعالى في تعليقه على المسند (٦٧٢٩): وهذا صنيع غير جيد، يوهم أن أحد الإسنادين فيه مطعن، في حين أن إسناديه في المسند هذا وإسناد (٢/ ٢١٨) كلاهما رجاله ثقات اهـ. وله شاهد من حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة عند البخاري (٤/ ٦٠٩/ ٢٣٠٧-٢٣٠٨).

(٢) التمهيد: فتح البر (١١/ ١٢٠).

وقال: «يريد أن الغلول شين وعار ومنقصة في الدنيا، ونار وعذاب في الآخرة. والغلول مما لا بد فيه من المجازاة؛ لأنه من حقوق الآدميين وإن لم يتعين صاحبه، فإن جملة أصحابه متعينة، وهو أشد في المطالبة، ولا بد من المجازاة فيه بالحسنات والسيئات، واللَّه أعلم»[١].

* عن زيد بن خالد الجهني أن رجلًا من أصحاب النبي ﷺ توفي يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول اللَّه ﷺ فقال: «**صلوا على صاحبكم**»، فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال: «**إن صاحبكم غل في سبيل الله**» ففتشنا متاعه، فوجدنا خرزًا من خرز يهود لا يساوي درهمين»[٢].

★ غريب الحديث:

خرز: بالتحريك الذي ينظم، الواحدة خرزة.

★ فوائد الحديث:

قال الباجي: «قوله ﷺ: «**إن صاحبكم قد غل**» على وجه التبيين للمعنى الذي منعه من الصلاة عليه، وفي ذلك زجر عن الغلول، وإذهاب لما في نفس من لم يغل وأمان له من امتناعه ﷺ من أن يصلي عليه، ولما سمع المسلمون ذلك فتحوا متاعه لينظروا هل يجدوا مما غل فيه فيردوه إلى الغنائم، ولعله قد فعل ذلك أولياؤه، فوجدوا خرزات من خرز يهود يحتمل أنهم عرفوا أنها من الغنائم؛ لأنهم انفصلوا عن غنائم اليهود بخيبر، ولم يكن عنده مثل هذا من المتاع، لاسيما في ذلك الموضع الذي لا يحمل فيه الخرز لزينة ولا لبيع، فعلموا بذلك أنها غل من الغنائم. ويحتمل أن يكون عرف ذلك من رآها من دور اليهود فظن أنه قد أداها، فلما وجدها في متاعه بعد موته عرفها ووصفها بذلك على معنى الإعلام بجنسها وقلة الانتفاع بها كما أخبر بقيمتها ليعلم بتفاهة قيمتها، وإن أخذ هذا المقدار على تفاهته على هذا الوجه من جملة الكبائر التي تمنع من صلاة النبي ﷺ وصلاة الأئمة وأهل الفضل

---

(١) التمهيد: فتح البر (١١/ ١٢١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٩٢) و(٤/ ١١٤)، وأبو داود (٣/ ١٥٥/ ٢٧١٠)، والنسائي (٤/ ٣٦٦/ ١٩٥٨)، وابن ماجه (٢/ ٩٥٠/ ٢٨٤٨)، والحاكم (٢/ ١٢٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين وأظنهما لم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان (الإحسان: ١١/ ١٩٠-١٩١/ ٤٨٥٣).

على من فعل ذلك، ورضيه، واستأثر به على جماعة المسلمين»[١].

قال أبو عمر: «وأما قوله ﷺ في هذا الحديث: «**صلوا على صاحبكم**» فإن ذلك كان كالتشديد بغير الميت من أجل أن الميت قد غل لينتهي الناس عن الغلول، لما رأوا من ترك رسول اللَّه ﷺ الصلاة على من غل، وكانت صلاته على من صلى عليه رحمة، فلهذا لم يصل عليه عقوبة له وتشديدًا لغيره، واللَّه أعلم.

وفي قوله: «**صلوا على صاحبكم**» دليل على أن الذنوب لا تخرج المذنب عن الإيمان؛ لأنه لو كفر بغلوله -كما زعمت الخوارج- لم يكن ليأمر بالصلاة عليه، فإن الكافر والمشرك لا يصلي عليه المسلمون؛ لا أهل الفضل ولا غيرهم، ويجوز أن يكون رسول اللَّه ﷺ علم أن ذلك الميت قد كان غل بوحي من اللَّه، ويجوز بغير ذلك، واللَّه أعلم»[٢].

قال القرطبي: «وامتناعه من الصلاة على من غل دليل على تعظيم الغلول، وتعظيم الذنب فيه وأنه من الكبائر، وهو من حقوق الآدميين، ولا بد فيه من القصاص بالحسنات والسيئات، ثم صاحبه في المشيئة»[٣].

* عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوْقَهُ كَانَ غُلُولًا يَأْتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». قَالَ: فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الْأَنْصَارِ -كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ- فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَكَ. قَالَ: «**وَمَا لَكَ**» قَالَ: سَمِعْتُكَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: «**وَأَنَا أَقُولُهُ الْآنَ، مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى**»[٤].

* عن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**من كان لنا عاملًا فليكتسب زوجة، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادمًا، فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنًا**» قال: قال أبو بكر: أخبرت أن النبي ﷺ قال: «**من اتخذ غير ذلك**

(١) المنتقى (٣/ ٢٠٠-٢٠١).
(٢) التمهيد: فتح البر (١١/ ١٣٣).
(٣) تفسير القرطبي (٤/ ٢٥٨).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٩٢)، ومسلم (٣/ ١٤٦٥/ ١٨٣٣)، وأبو داود (٤/ ١٠/ ٣٥٨١)، والبيهقي (١٠/ ١٣٨).

فهو غالّ، أو سارق»(١).

* عن أبي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيُّ قَالَ: اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا مِنْ بَنِي أَسْدٍ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْأُتَبِيَّةِ عَلَى صَدَقَةٍ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ لِي فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ -قَالَ سُفْيَانُ أَيْضًا: فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ- فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «**مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبْعَثُهُ فَيَأْتِي يَقُولُ هَذَا لَكَ وَهَذَا لِي، فَهَلَّا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، فَيَنْظُرُ أَيُهْدَى لَهُ أَمْ لَا؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَأْتِي بِشَيْءٍ إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ**»، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْنَا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ «**أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟**» ثَلَاثًا»(٢).

⋆ غريب الحديث:

تيعر: بفتح المثناة الفوقانية وسكون التحتانية بعدها مهملة مفتوحة ويجوز كسرها، وهو صوت الشاة الشديد.

العفرة: بضم المهملة وسكون الفاء من العفر: بياض ليس بالناصع.

خوار: صوت العجل، ويستعمل في غر البقر من الحيوان.

⋆ فوائد الحديث:

قال أبو العباس القرطبي: «هذا الحديث يدل دلالة صحيحة واضحة على أن هدايا الأمراء والقضاة، وكل من ولي أمرًا من أمور المسلمين العامة لا تجوز، وأن حكمها حكم الغلول في التغليظ، والتحريم؛ لأنها أكل المال بالباطل، ورشًا. وهو قول مالك وغيره»(٣).

قال أبو عبد اللَّه القرطبي: «ومن الغلول هدايا العمال، وحكمه في الفضيحة في الآخرة حكم الغالّ»(٤).

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٢٩)، أبو داود (٣/ ٣٥٤/ ٢٩٤٥)، والحاكم (١/ ٤٠٦) وصححه على شرط البخاري، وأقره الذهبي.

(٢) أحمد (٥/ ٤٢٣)، والبخاري (١٣/ ٢٠٤/ ٧١٧٤)، ومسلم (٣/ ١٤٦٣/ ١٨٣٢)، أبو داود (٣/ ٣٥٤-٣٥٥/ ٢٩٤٦).

(٣) المفهم (٤/ ٣١).

(٤) تفسير القرطبي (٤/ ٢٦١).

قال الصنعاني: «والحديث الذي سقناه ورد في خطاب العاملين على الصدقات فدل على أن الغلول عام لكل ما فيه حق للعباد، وهو مشترك بين الغال وغيره»[١].

قال القاضي عياض: «في إنكار النبي ﷺ أخذها باسم الهدية، وأن عقابه عقاب الغال، كما ذكر في الحديث من أنه يجيء به على عنقه، كما ذكر في الغال، مطابق لقوله: «**هدايا الأمراء غلول**»[٢] وإن كان ذلك كأنه خيانة لله تعالى وللمسلمين، إما لأنه يأخذه لنفسه منهم باسم الهدية ليسامحهم في بقية ما يأخذ منهم، فهي خيانة للطائفتين. أو لأجل مجرد ولايته والتصنع إليه بما يهدى إليه، فيه خيانة لأمانة اللَّه. وكله غلول. وبين له النبي ﷺ علة المنع من ذلك، وأنه إنما يهدى إليه لما ذكر لقوله: «**هلا جلس في بيت أبيه وأمه، فينظر هل يُهدى له**»»[٣].

* * *

(١) سبل السلام (٧/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه بلفظ «**العمال**» بدل «**الأمراء**»: أحمد (٥/ ٤٢٤) والبزار الكشف: (٢/ ٢٣٦-٢٣٧/ ١٥٩٩) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٠٠): رواه البزار من رواية إسماعيل بن عياش عن الحجازيين وهي ضعيفة، والحديث صححه الشيخ الألباني في الإرواء (٢٦٢٢)، وقال الحافظ في الفتح (٥/ ٢٧٦): وقيل إنه رواه بالمعنى من قصة ابن اللتبية.

(٣) إكمال المعلم (٦/ ٢٣٦-٢٣٧).

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

★ غريب الآية:

سخط: من السخط وهو الغضب الشديد المقتضي للعقوبة. والسخط صفة من صفات اللَّه الفعلية الثابتة له ﷻ على ما يليق به من غير تشبيه ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تعطيل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ذكر في هذه الآية أن من اتبع رضوان اللَّه ليس كمن باء بسخط منه؛ لأن همزة الإنكار بمعنى النفي ولم يذكر هنا صفة من اتبع رضوان اللَّه، ولكن أشار إلى بعضها في موضع آخر وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[(١)].

وأشار إلى بعض صفات من باء بسخط من اللَّه بقوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾[(٢)]، وبقوله هنا: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ﴾»[(٣)].

قال ابن جرير: «فمعنى قوله: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إذا: أفمن ترك الغلول، وما نهاه اللَّه عنه من معاصيه وعمل بطاعة اللَّه في تركه ذلك، وفي غيره مما أمره به ونهاه من فرائضه، متبعًا في كل ذلك رضى اللَّه، ومجتنبًا سخطه، ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: كمن انصرف متحملًا سخط اللَّه وغضبه،

---

(١) آل عمران: الآيتان (١٧٣-١٧٤).

(٢) المائدة: الآية (٨٠).

(٣) أضواء البيان (١/ ٢١٥-٢١٦).

فاستحق بذلك سكنى جهنم، يقول: ليسا سواء. وأما قوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فإنه؛ يعني: وبئس المصير الذي يصير إليه ويئوب إليه من باء بسخط من اللَّه جهنم»[١].

قال السعدي: «يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان اللَّه، والعمل على ما يرضيه، كمن ليس كذلك ممن هو مكب على المعاصي، مسخط لربه. هذان لا يستويان في حكم اللَّه، وحكمة اللَّه وفي فطر عباد اللَّه، ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾[٢]»[٣].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: جعل ما يرضيه من فعل وترك إماما له فجد واجتهد في الخيرات والأعمال الصالحات، واتقى الغلول وغيره من الفواحش والمنكرات، حتى زكت نفسه، وارتقت روحه، فوفي جزاءه الحسن، وكان عند ربه في جنات عدن، ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي انتهى إلى مبادئه في الآخرة مصاحبًا ومقترنًا بغضب عظيم من اللَّه ﷻ لتدسية نفسه بما خفي من الخطايا كالسرقة والغلول، وتدنيسها بما ظهر منها كالسلب والنهب، وإهمال تطهيرها بالعبادات، وعمل الخيرات، ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ذلك المأوى الذي يأوي إليه، وساء ذلك المنتهى الذي ينتهي إليه، كلا إنهما لا يستويان كما لا يستوي الظلمة والنور، ولا الظل والحرور، وقد جعل الخير متبعًا للرضوان لأن أسباب الرضوان أعلام هداية تتبع، ولم يقل ذلك في الشرير لأنه في ظلمة يبتدع ولا يتبع»[٤].

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بذلك: أن من اتبع رضوان اللَّه، ومن باء بسخط من اللَّه مختلفو المنازل عند اللَّه، فلمن اتبع رضوان اللَّه الكرامة والثواب الجزيل، ولمن باء بسخط من اللَّه المهانة والعقاب الأليم»[٥].

قال السعدي: «كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم، بحسب تفاوتهم في أعمالهم. فالمتبعون لرضوان اللَّه، يسعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيهم اللَّه من فضله وجوده على قدر أعمالهم. والمتبعون لمساخط

---

(١) جامع البيان (٧/ ٣٦٦ شاكر).
(٢) السجدة: الآية (١٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٤٨).
(٤) تفسير المنار (٤/ ٢١٨-٢١٩).
(٥) جامع البيان (٧/ ٣٦٧).

اللَّه، يسعون في النزول في الدركات إلى أسفل سافلين، كل على حسب عمله. واللَّه بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء. بل قد علمها وأثبتها في اللوح المحفوظ، ووكل ملائكته الأمناء الكرام أن يكتبوها ويحفظوها ويضبطوها»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «والمعنى أن الناس يتفاوتون في الجزاء عند اللَّه كما يتفاوتون هنا في العرفان والفضائل، وفي الجهل والرذائل، وما يترتب على ذلك أو يترتب عليه ذلك من الأعمال الحسنة والقبيحة. وهذا التفاوت على مراتب ودرجات يعلو بعضها بعضًا من الرفيق الأعلى في الدرجات العلى الذي كان يطلبه النبي ﷺ من ربه في مرض موته إلى الدرك الأسفل الذي ورد في سورة النساء وذكر آنفا. وهذه الدرجات لا تكون في الآخرة عطاء مؤتنفًا وكيلًا جزافًا وإنما تكون أثرا طبيعيًّا لارتقاء الأرواح وتدليها هنا بالأعمال، ولذلك قال بعد ذكرها ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فهو لا يغيب عنه شيء من أعمالهم، وما لها من التأثير في تزكية نفوسهم التي يترتب عليها الفلاح في ارتقاء الدرجات، وفي تدسيتها التي تترتب عليها الخيبة في هبوط الدركات، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٢] فتحصيل الدرجات إنما يكون في هذه الدار، والتمتع بها يكون في دار القرار، أما الدرجات في الدنيا فقد ورد فيها قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾[٤] وليست هذه الدرجات بوسيلة ولا مقصدا مما نحن فيه وإنما هي درجات ابتلاء وامتحان، يظهر بها التفاوت بين أفراد الإنسان. وأما درجات الآخرة فهي المرادة بقوله تعالى بعد ذكر توسيع الرزق على بعض الناس وتضييقه على بعض ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[٥] وأما وسائلها التي قلنا إن هذه آثارها وهي المعارف والأعمال فمنها قوله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾[٦]

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٤٩).
(٢) الشمس: الآيتان (٩-١٠).
(٣) الزخرف: الآية (٣٢).
(٤) الأنعام: الآية (١٦٥).
(٥) الإسراء: الآية (٢١).
(٦) المجادلة: الآية (١١).

وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾(١) وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾(٢) فهذه كلها درجات العلم والحجة. ومنها قوله في ربط درجات العمل بدرجات الجزاء ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾(٣)، ومنها بعد ذكر الجزاء ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾(٤) وقوله: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾(٥) فحسبنا هذه الآيات مبينة لما قلناه من كون درجات الجزاء في الآخرة على حسب درجات الارتقاء بالعلم والعمل في الدنيا.

وإن هذه الدرجات لا يمكن أن يعلمها إلا من أحاط بكل شيء علما، فلا يخفى عليه أثر ما من آثار الأعمال في النفس، ولا عاطفة من عواطف الإيمان في القلب، ولا حقيقة من حقائق العلم في العقل، ولا يعزب عنه شيء من تفاوت الناس في ذلك، فدرجات ارتقاء الأرواح لها في علمه تعالى نظام دقيق أدق من نظام ميزان الحرارة والبرودة، ومن ميزان الرطوبة ومن ميزان ثقل السائلات في درجاتها العليا والسفلى وما أشبه هذه الموازين الطبيعية التي تعرف بها سنن اللّه تعالى في الكون، وإن سننه تعالى في نفوس الناس لا تقل عن سننه في غيرها نظامًا واطرادًا. وإن بين عليا الدرجات وسفلاها درجة أدنى أهل النار عقوبة، وأدنى أهل الجنة مثوبة، ولهذا كله قال بعد ذكر الدرجات إنه بصير بما يعملون»(٦).

* * *

(١) يوسف: الآية (٧٦).
(٢) الأنعام: الآية (٨٣).
(٣) النساء: الآيتان (٩٥-٩٦).
(٤) الأنعام: الآية (١٣٢).
(٥) طه: الآية (٧٥).
(٦) تفسير المنار (٤/ ٢١٩-٢٢١).

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

★ غريب الآية:

مَنَّ: من المنّ، والمنة: هي النعمة الثقيلة، يقال: منَّ عليه منا؛ أي: أنعم واصطنع عنده صنيعة ومنة.

والمنة من صفات اللَّه الفعلية، وهي ثابتة له بالكتاب والسنة.

الحكمة: عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، والمراد بها هنا السنة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك: لقد تطول اللَّه على المؤمنين ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا﴾ حين أرسل فيهم رسولًا ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ نبيا من أهل لسانهم، ولم يجعله من غير أهل لسانهم، فلا يفقهوا عنه ما يقول. ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يقول: يقرأ عليهم آي كتابه وتنزيله. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾؛ يعني: يطهرهم من ذنوبهم باتباعهم إياه، وطاعتهم له فيما أمرهم ونهاهم. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ يعني: ويعلمهم كتاب اللَّه الذي أنزله عليه، ويبين لهم تأويله ومعانيه. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ويعني بالحكمة: السنة التي سنها اللَّه -جل ثناؤه- للمؤمنين على لسان رسوله ﷺ، وبيانه لهم. ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ يعني: وإن كانوا من قبل أن يمن اللَّه عليهم بإرساله رسوله الذي هذه صفته. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يقول: في جهالة جهلاء، وفي حيرة عن الهدى عمياء لا يعرفون حقًّا ولا يبطلون باطلًا.. والمبين الذي يبين لمن تأمله بعقله، وتدبره بفهمه، أنه على غير استقامة ولا هدى»[(١)].

---

(١) جامع البيان (٧/ ٣٦٩-٣٧٠ شاكر).

قال السعدي: «هذه المنة التي امتن اللَّه بها على عباده أكبر النعم بل أصلها. وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم الذي أنقذهم اللَّه به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعرفون نسبه وحاله ولسانه من قومهم وقبيلتهم ناصحًا لهم مشفقًا عليهم يتلو عليهم آياته يعلمهم ألفاظها ومعانيها؟ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من الشرك والمعاصي والرذائل وسائر مساوئ الأخلاق. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إما جنس الكتاب الذي هو القرآن فيكون قوله: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ المراد به الآيات الكونية. أو المراد بالكتاب هنا الكتابة، فيكون قد امتن عليهم بتعليم الكتاب والكتابة التي بها تدرك العلوم وتحفظ. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هي: السنة التي هي شقيقة القرآن، ووضع لأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة فجمع لهم بين تعليم الأحكام وما به تنفيذ الأحكام وما به تدرك فوائدها وثمراتها ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾ بعثة هذا الرسول ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس ويطهرها، بل ما يزين لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض ذلك عقول العالمين»[1].

قال الرازي: «اعلم أن في وجه النظم وجوها:

الأول: أنه تعالى لما بين خطأ من نسبه إلى الغلول والخيانة أكد ذلك بهذه الآية، وذلك لأن هذا الرسول ولد في بلدهم ونشأ فيما بينهم، ولم يظهر منه طول عمره إلا الصدق والأمانة والدعوة إلى اللَّه والإعراض عن الدنيا، فكيف يليق بمن هذا حاله الخيانة؟.

الوجه الثاني: أنه لما بين خطأهم في نسبته إلى الخيانة والغلول قال: لا أقنع بذلك ولا أكتفي في حقه بأن أبين براءته عن الخيانة والغلول، ولكني أقول: إن وجوده فيكم من أعظم نعمتي عليكم، فإنه يزكيكم عن الطريق الباطلة، ويعلمكم العلوم النافعة لكم في دنياكم وفي دينكم، فأي عاقل يخطر بباله أن ينسب مثل هذا الإنسان إلى الخيانة.

الوجه الثالث: كأنه تعالى يقول: إنه منكم ومن أهل بلدكم ومن أقاربكم، وأنتم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٤٩-٤٥٠).

أرباب الخمول والدناءة، فإذا شرفه اللَّه تعالى وخصه بمزايا الفضل والإحسان من جميع العالمين، حصل لكم شرف عظيم بسبب كونه فيكم، فطعنكم فيه واجتهادكم في نسبة القبائح إليه على خلاف العقل.

الوجه الرابع: أنه لما كان في الشرف والمنقبة بحيث يمن اللَّه به على عباده وجب على كل عاقل أن يعينه بأقصى ما يقدر عليه، فوجب عليكم أن تحاربوا أعداءه، وأن تكونوا معه باليد واللسان والسيف والسنان، والمقصود منه العود إلى ترغيب المسلمين في مجاهدة الكفار»[(١)].

وقال: «إن محمدا ﷺ ولد فيهم ونشأ فيما بينهم، وكانوا مشاهدين لهذه الأحوال، مطلعين على هذه الدلائل، فكان إيمانهم مع مشاهدة هذه الأحوال أسهل مما إذا لم يكونوا مطلعين على هذه الأحوال. فلهذه المعاني من اللَّه عليهم بكونه مبعوثا منهم فقال: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾. وفيه وجه آخر من المنة وذلك لأنه صار شرفًا للعرب وفخرًا لهم، كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[(٢)]، وذلك لأن الافتخار بإبراهيم عليه السلام كان مشتركًا فيه بين اليهود والنصارى والعرب. ثم إن اليهود والنصارى كانوا يفتخرون بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل، فما كان للعرب ما يقابل ذلك، فلما بعث اللَّه محمدا عليه السلام وأنزل القرآن صار شرف العرب بذلك زائدًا على شرف جميع الأمم، فهذا هو وجه الفائدة في قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾»[(٣)].

وقال محمد رشيد رضا: «وقد كان ما تقدم من وصفه ﷺ بالرحمة واللين وأمره بتلك المعاملة الحسنى وتنزيهه عن الغلول تمهيدا لهذه المنة، ثم وصفه بأوصاف أخرى أكد بها المنة أولها: أنه من أنفسهم؛ أي: من جنسهم؛ أي: العرب. ووجه هذه المنة الخاصة التي لا تنافي في كونه ﷺ رحمة عامة، هو أن كونه منهم يزيد في شرفهم ويجعلهم أول المهتدين به؛ لأنهم أسرع الناس فهما لدعوته، والنعمة العامة قد ذكرت في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[(٤)] ويمكن أن يستدل على هذا التخصيص بالعرب دعوة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- التي تقدمت في سورة البقرة ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ

---

(١) تفسير الرازي (٩/ ٨٠-٨١).
(٢) الزخرف: الآية (٤٤).
(٣) تفسير الرازي (٩/ ٨٣).
(٤) الأنبياء: الآية (١٠٧).

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[١] إلخ الأوصاف المذكورة هنا.

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بأنفسهم ههنا البشر لا العرب.

أقول: وهذا القول ضعيف، وإن وجب الإيمان بجميع الأنبياء من البشر. أما ضعفه فمن وجوه:

أحدهما: أن المراد بالمؤمنين في الآية من كانوا متصفين بالإيمان عند نزولها في عقب غزوة أحد وهم من العرب.

ثانيها: موافقة دعوة أبويه إبراهيم وإسماعيل -عليهم الصلاة والتسليم-، وإنما دعوا أن يكون النبي من ذريتهما، وذرية إسماعيل هم العرب المستعربة كما هو مشهور.

ثالثها: موافقة آية سورة الجمعة التي في معنى هذه الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢] والأميون هم العرب.

رابعها وخامسها: ما يأتي قريبًا في تفسير ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وما يأتي في تفسير وصفهم بالضلال المبين.

سادسها: أن العرب هم الذين تلا عليهم النبي ﷺ بلسانه آيات اللّٰه، وباشر بنفسه تزكيتهم وتعليمهم، وهم الذين حملوا دعوته إلى غيرهم من الناس.

وقد نص العلماء على أن الإيمان بكون النبي ﷺ من العرب شرط في صحة الإسلام، والإيمان لا بد من تلقينه لكل من يدخل في هذا الدين، ومن جحده بعد العلم به يكون مرتدًّا عن الإسلام. ثم صار ينشر الدعوة كل قوم قبلوها واهتدوا بها فصح قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣] وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[٤].

الوصف الثاني: قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ قال الأستاذ الإمام: الآيات

---

(١) البقرة: الآية (١٢٩).
(٢) الجمعة: الآية (٢).
(٣) سبأ: الآية (٢٨).
(٤) الأنبياء: الآية (١٠٧).

هي الآيات الكونية الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته، وتلاوتها عبارة عن تلاوة ما فيه بيانها، وتوجيه النفوس إلى الاستفادة منها والاعتبار بها، وهو القرآن كقوله ﷻ في أواخر هذه السورة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1] وقوله في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2] ومنها ما لم يذكر فيه كلمة (الآيات) كقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۞ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾[3] الخ.

الوصف الثالث والرابع: قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قال الأستاذ: تزكيته إياهم هي تطهيرهم من العقائد الزائغة ووساوس الوثنية وأدرانها. والعقائد هي أساس الملكات. ولذلك نقول: إن العرب وغيرهم كانوا قبل بعثة محمد ﷺ ملوثين في عقولهم ونفوسهم.

أقول: قد سبق عنه في تفسير آية البقرة أن المراد بالتزكية تربية النفوس، وأنه ﷺ كان مربيًا ومعلمًا. وأراد بقوله: إن العقائد أساس الملكات، أن من لم يتزك عقله ويتطهر من خرافات الوثنية وجميع العقائد الباطلة لا تتزكى نفسه بالتخلي عن الأخلاق الذميمة، والتحلي بالملكات الفاضلة، فإن الوثني من يعتقد أن وراء الأسباب الطبيعة التي ارتبطت بها المسببات منافع ترجى ومضار تخشى من بعض المخلوقات، وأنه يجب تعظيم هذه المخلوقات والالتجاء إليها ليؤمن ضرها، وينال خيرها، ويتقرب بها إلى خالقها، وأن من يعتقد هذا يكون دائمًا أسير الأوهام، وأخيذ الخرافات، يخاف في موضع الأمن، ويرجو حيث يجب الحذر والخوف، وتتعدى قذارة عقله إلى نفسه فتفسد أخلاقها، وتدنس آدابها، فتزكية النفس لا تتم إلا بتزكية العقل، ولا تتم تزكية العقل إلا بالتوحيد الخالص.

قال الأستاذ: أما تعليمهم الكتاب فمعناه أن هذا الدين الذي جاء به قد اضطرهم إلى تعلم الكتابة بالقلم وأخرجهم من الأمية لأنه دين حث على المدنية وسياسة الأمم.

---

(١) آل عمران: الآية (١٩٠). (٢) البقرة: الآية (١٦٤).
(٣) الشمس: الآيتان (١-٢).

أقول: كان أول حاجتهم إلى تعلم الكتابة وجوب كتابة القرآن، وقد اتخذ -عليه الصلاة والسلام- كتبة للوحي، وكتبوا له كتبًا دعا بها الملوك والرؤساء إلى الإسلام. وكان يأمرهم بتعلم الكتابة. ثم كان ذلك يكثر فيهم على قدر نماء مدنيتهم، وامتداد سلطتهم.

قال: وأما الحكمة فهي أسرار الأمور وفقه الأحكام وبيان المصلحة فيها والطريق إلى العمل بها ذلك الفقه الذي يبعث على العمل، أو هي العمل الذي يوصل إلى هذا الفقه في الأحكام. أو طرق الاستدلال ومعرفة الحقائق ببراهينها؛ لأن هذه الطريقة هي طريقة القرآن وسنته في العقائد وكذا في الآداب والعبادات، . .

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: وإنهم كانوا قبل بعثة النبي ﷺ في ضلال بين واضح. وأي ضلال أبين من ضلال قوم مشركين يعبدون الأصنام ويتبعون الأوهام أميين لا يقرءون ولا يكتبون فيعرفوا كنه ضلالتهم، وحقيقة جهالتهم، فضلالهم أبين من ضلال أهل الكتاب كما هو ظاهر لأولي الألباب»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٢٢١-٢٢٣).

قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾

★ **غريب الآية:**

أنَّى هذا: أي من أين أصابنا هذا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بذلك: أوَحين أصابتكم أيها المؤمنون ﴿مُّصِيبَةٞ﴾ وهي القتلى الذين قتلوا منهم يوم أحد، والجرحى الذين جرحوا منهم بأحد، وكان المشركون قتلوا منهم يومئذ سبعين نفرًا، ﴿قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا﴾ يقول: قد أصبتم أنتم أيها المؤمنون من المشركين مثلي هذه المصيبة التي أصابوا هم منكم، وهي المصيبة التي أصابها المسلمون من المشركين ببدر، وذلك أنهم قتلوا منهم سبعين، وأسروا سبعين، ﴿قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾؛ يعني: قلتم لما أصابتكم مصيبتكم بأحد ﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ من أي وجه هذا؟ ومن أين أصابنا هذا الذي أصابنا ونحن مسلمون، وهم مشركون، وفينا نبي اللَّه ﷺ يأتيه الوحي من السماء، وعدونا أهل كفر باللَّه وشرك؟ ﴿قُلۡ﴾ يا محمد للمؤمنين بك من أصحابك ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ يقول: قل لهم: أصابكم هذا الذي أصابكم من عند أنفسكم بخلافكم أمري، وترككم طاعتي، لا من عند غيركم، ولا من قبل أحد سواكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ يقول: إن اللَّه على جميع ما أراد بخلقه من عفو وعقوبة وتفضل وانتقام ﴿قَدِيرٞ﴾؛ يعني: ذو قدرة.

ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن تأويل سائر الآية على ما قلنا في ذلك من التأويل، فقال بعضهم: تأويل ذلك: ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾، بخلافكم على نبي اللَّه ﷺ، إذ أشار عليكم بترك الخروج إلى عدوكم والإصحار لهم حتى يدخلوا عليكم مدينتكم ويصيروا بين آطامكم فأبيتم ذلك عليه وقلتم: اخرج بنا إليهم حتى نصحر لهم، فنقاتلهم خارج

المدينة وقال بعضهم: بل تأويل ذلك: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ بإسارتكم المشركين يوم بدر، وأخذكم منهم الفداء، وترككم قتلهم»[1].

قال ابن القيم: «كرر عليهم سبحانه: أن هذا الذي أصابهم إنما أتوا فيه من قبل أنفسهم وبسبب أعمالهم فقال: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2] وذكر هذا بعينه فيما هو أعم من ذلك في السور المكية فقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[3] وقال: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ فالحسنة والسيئة ها هنا: النعمة والمصيبة، فالنعمة من اللّه من بها عليك، والمصيبة إنما نشأت من قبل نفسك وعملك، فالأول فضله، والثاني عدله، والعبد يتقلب بين فضله وعدله، جار عليه فضله، ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه، وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ إعلاما لهم بعموم قدرته مع عدله وأنه عادل قادر، وفي ذلك إثبات القدر والسبب، فذكر السبب وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عموم القدرة وأضافها إلى نفسه، فالأول ينفي الجبر، والثاني ينفي القول بإبطال القدر فهو يشاكل قوله: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[4]

وفي ذكر قدرته ها هنا نكتة لطيفة، وهي أن هذا الأمر بيده وتحت قدرته وأنه هو الذي لو شاء لصرفه عنكم فلا تطلبوا كشف أمثاله من غيره ولا تتكلوا على سواه وكشف هذا المعنى وأوضحه كل الإيضاح بقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهو الإذن الكوني القدري لا الشرعي الديني كقوله في السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[5]»[6].

قال الشنقيطي: «ذكر في هذه الآية الكريمة أن ما أصاب المسلمين يوم أُحد إنما جاءهم من قبل أنفسهم، ولم يبيّن تفصيل ذلك هنا ولكنه فصله في موضع آخر وهو قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم

---

(١) جامع البيان (٧/ ٣٧١-٣٧٥ شاكر).
(٢) آل عمران: الآية (١٦٥).
(٣) الشورى: الآية (٣٠).
(٤) التكوير: الآيتان (٢٨-٢٩).
(٥) البقرة: الآية (١٠٢).
(٦) زاد المعاد (٣/ ٢٣٨-٢٣٩).

﴿مَن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ ، وهذا هو الظاهر في معنى الآية؛ لأن خير ما يبين به القرآن القرآن. وأما على القول الآخر فلا بيان بالآية، وهو أن معنى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ ، أنهم خيروا يوم بدر بين قتل أسارى بدر، وبين أسرهم وأخذ الفداء على أن يستشهد منهم في العام القابل قدر الأسارى، فاختاروا الفداء على أن يستشهد منهم في العام القابل سبعون قدر أسارى بدر، كما رواه الإمام أحمد وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب، وعقده أحمد البدوي الشنقيطي في نظمه للمغازي بقوله:

والمسلمون خيروا بين الفدا ... وبين قتلهم فمالوا للفدا

وقدرهم في قابل يستشهدا ... لأنه على القتال عضدا

وأنه أدى إلى الشهادة ... وهي قصارى الفوز والسعادة»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية

* عن ابن عباس: حدثني عمر بن الخطاب قال: «.. فلما كان يوم أحد من العام المقبل، عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، وأنزل اللَّه تعالى ﴿أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢] بأخذكم الفداء»[٣].

⋆ **غريب الحديث:**

رباعيته: الرباعية هي السن بين الثنية والناب.

البيضة: هي خوذة الحديد توضع على الرأس، من آلات الحرب.

---

(١) أضواء البيان (١/ ٢١٦). (٢) آل عمران: الآية (١٦٥).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠-٣١)، وأصله في صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٣-١٣٨٥/ ١٧٦٣)، وأخرجه مختصرا: أبو داود (٣/ ١٣٨-١٣٩/ ٢٦٩٠) والترمذي (٥/ ٢٥١-٢٥٢/ ٣٠٨١) وقال: حديث حسن صحيح غريب.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بذلك: والذي أصابكم ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، وهو يوم أحد حين التقى جمع المسلمين والمشركين. ويعني بالذي أصابهم: ما نال من القتل من قتل منهم، ومن الجراح من جرح منهم، ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ يقول: فهو بإذن اللَّه كان؛ يعني: بقضائه وقدره فيكم، وأجاب ما بالفاء لأن ما حرف جزاء، . . ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ بمعنى: وليعلم اللَّه المؤمنين وليعلم الذين نافقوا أصابكم ما أصابكم يوم التقى الجمعان بأحد، ليميز أهل الإيمان باللَّه ورسوله المؤمنين منكم من المنافقين فيعرفونهم، لا يخفى عليهم أمر الفريقين»[1].

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ﴾: «يعني -تعالى ذكره- بذلك عبد اللَّه بن أبي ابن سلول المنافق وأصحابه الذين رجعوا عن رسول اللَّه ﷺ وعن أصحابه، حين سار نبي اللَّه ﷺ إلى المشركين بأحد لقتالهم، فقال لهم المسلمون: تعالوا قاتلوا المشركين معنا، أو ادفعوا بتكثيركم سوادنا، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لسرنا معكم إليهم، ولكنا معكم عليهم، ولكن لا نرى أن يكون بينكم وبين القوم فقال، فأبدوا من نفاق أنفسهم ما كانوا يكتمونه، وأبدوا بألسنتهم بقولهم: ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ غير ما كانوا يكتمونه ويخفونه من عداوة رسول اللَّه ﷺ

---

(١) جامع البيان (٧/ ٣٧٧ شاكر).

وأهل الإيمان به»[١].

قال ابن القيم: «ثم أخبر عن حكمة هذا التقدير، وهي أن يعلم المؤمنين من المنافقين علم عيان ورؤية يتميز فيه أحد الفريقين من الآخر تمييزًا ظاهرًا، وكان من حكمة هذا التقدير تكلم المنافقين بما في نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا رد اللَّه عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مؤدى النفاق وما يؤول إليه، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدنيا والآخرة، فيعود عليه بفساد الدنيا والآخرة، فلله كم من حكمة في ضمن هذه القصة بالغة ونعمة على المؤمنين سابغة، وكم فيها من تحذير وتخويف وإرشاد وتنبيه، وتعريف بأسباب الخير والشر، وما لهما وعاقبتهما»[٢].

قال السعدي: «ثم أخبر تعالى أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان، جمع المسلمين وجمع المشركين في أحد من القتل والهزيمة أنه بإذنه، وقضائه وقدره، لا مرد له، ولا بد من وقوعه. والأمر القدري إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدره لحكم عظيمة، وفوائد جسيمة. وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المنافق الذين لما أمروا بالقتال. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ذبًّا عن دين اللَّه، وحماية له، وطلبًا لمرضاة اللَّه. ﴿أَوِ ٱدْفَعُوا﴾ عن محارمكم وبلدكم إن لم تكن لكم نية صالحة. فأبوا ذلك واعتذروا بأن ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾؛ أي: لو نعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا. قد علموا وتيقنوا، وعلم كل أحد أن هؤلاء المشركين قد ملئوا من الحنق والغيظ على المؤمنين بما أصابوا منهم، وأنهم قد بذلوا أموالهم، وجمعوا ما يقدرون عليه من الرجال والعدد، وأقبلوا في جيش عظيم، قاصدين المؤمنين في بلدهم، متحرقين على قتالهم. فمن كانت هذه حالهم، كيف يتصور أنه لا يصير بينهم وبين المؤمنين قتال؟ خصوصا وقد خرج المسلمون من المدينة، وبرزوا لهم هذا من المستحيل ولكن المنافقين ظنوا أن هذا العذر يروج على المؤمنين.

قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾؛ أي: في تلك الحال التي تركوا فيها الخروج مع المؤمنين ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وهذه خاصة المنافقين، يظهرون بكلامهم وفعالهم ما يبطنون ضده في قلوبهم وسرائرهم

(١) جامع البيان (٧/ ٣٧٧ شاكر).
(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٣٩-٢٤٠).

ومنه قولهم: ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ فإنهم علموا وقوع القتال.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة: ارتكاب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما، وفعل أدنى المصلحتين للعجز عن أعلاهما؛ لأن المنافقين أمروا أن يقاتلوا للدين، فإن لم يفعلوا فللمدافعة عن العيال والأوطان ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ فيبديه لعباده المؤمنين ويعاقبهم عليه»[١].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٥١-٤٥٣).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

فادرءوا: أي: فادفعوا، من الدرء وهو الدفع، يقال: درأت عنه؛ أي: دفعت عن جانبه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «معنى الآية: وليعلم اللَّه الذين قالوا لإخوانهم الذين أصيبوا مع المسلمين في حربهم المشركين بأحد يوم أحد، فقتلوا هنالك من عشائرهم وقومهم، ﴿وَقَعَدُواْ﴾؛ يعني: وقعد هؤلاء المنافقون القائلون ما قالوا مما أخبر اللَّه ﷻ عنهم من قيلهم عن الجهاد مع إخوانهم وعشائرهم في سبيل الله: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾؛ يعني: لو أطاعنا من قتل بأحد من إخواننا وعشائرنا ﴿مَا قُتِلُواْۗ﴾؛ يعني: ما قتلوا هنالك، قال اللَّه ﷻ لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء القائلين هذه المقالة من المنافقين ﴿فَٱدْرَءُواْ﴾؛ يعني: فادفعوا. من قول القائل: درأت عن فلان القتل بمعنى دفعت عنه، أدرؤه درءا، ومنه قول الشاعر:

تقول وقد درأت لها وضيني أهذا دينه أبدا وديني

يقول -تعالى ذكره-: قل لهم: فادفعوا إن كنتم أيها المنافقون صادقين في قيلكم: لو أطاعنا إخواننا في ترك الجهاد في سبيل اللَّه مع محمد ﷺ، وقتالهم أبا سفيان ومن معه من قريش، ﴿مَا قُتِلُواْۗ﴾ هنالك بالسيف، ولكانوا أحياء بقعودهم معكم، وتخلفهم عن محمد ﷺ، وشهود جهاد أعداء اللَّه معه الموت، فإنكم قد قعدتم عن حربهم، وقد تخلفتم عن جهادهم، وأنتم لا محالة ميتون»(١).

قال الرازي: «اعلم أن الذين حكى اللَّه عنهم أنهم قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا

(١) جامع البيان (٧/ ٣٨٢ شاكر).

لَّاتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾[١]، وصفهم اللَّه تعالى بأنهم كما قعدوا واحتجوا لقعودهم، فكذلك ثبطوا غيرهم واحتجوا لذلك، فحكى اللَّه تعالى عنهم أنهم قالوا لإخوانهم إن الخارجين لو أطاعونا ما قتلوا، فخوفوا من مراده موافقة الرسول ﷺ في محاربة الكفار بالقتل، لما عرفوا ما جرى يوم أحد من الكفار على المسلمين من القتل؛ لأن المعلوم من الطباع محبة الحياة، فكان وقوع هذه الشبهة في القلوب يجري مجرى ما يورده الشيطان من الوسواس»[٢].

قلت: هذه آية عظيمة يتجدد معناها في كل لحظة من لحظات الحياة، وقد ذكر اللَّه مثلها في سورة (التوبة) التي فصلت هذه الأحوال، فالمنافقون الذين وصفهم اللَّه في هذه الآية بهذه الأوصاف نسلهم لا ينتهي، بل يتكاثر وينتشر، ففيهم الآباء والأمهات والأصدقاء والجلساء والمنتسبون للعلم والدعوة، وعلائقهم كثيرة، فيثبط الآباء أبناءهم، والأمهات بناتهم، والجلساء جلساءهم، والمنتسبون للعلم المرتزقة حواشيهم ومن حولهم، وعدد هذه الأنواع لا حصر لها، لا كثرهم اللَّه.

فالمتخلفون في هذا الوقت عن الدعوة إلى اللَّه والدخول في ركبها كثيرون، انفردوا وهربوا، واختلفوا وخالفوا، وصارت لهم شعارات يرفعونها للناس يكذبون فيها، ويظهرون فيها خلاف ما يبطنون، ويميعون الحق ويفسدونه، ويسخرون من كل داعية للحق ويصفونه بما ينفر الناس منه.

فأحوالهم كما سبق كثيرة، نسأل اللَّه أن يكفي المسلمين شرهم بما شاء وكيف شاء.

* **تنبيه**: انظر الكلام على حكم «لو» في سورة هود عند قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾[٣].

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٦٧).

(٢) تفسير الرازي (٩/ ٩٠).

(٣) هود: الآية (٨٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

★ غريب الآية:

يستبشرون: يفرحون، يقال: استبشر إذا وجد ما يبشره من الفرح.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن القوم لما ثبطوا الراغبين في الجهاد بأن قالوا: الجهاد يفضي إلى القتل، كما قالوا في حق من خرج إلى الجهاد يوم أحد، والقتل شيء مكروه، فوجب الحذر عن الجهاد، ثم إن اللَّه تعالى بين أن قولهم: الجهاد يفضي إلى القتل باطل، بأن القتل إنما يحصل بقضاء اللَّه وقدره، كما أن الموت يحصل بقضاء اللَّه وقدره، فمن قدر اللَّه له القتل لا يمكنه الاحتراز عنه، ومن لم يقدر له القتل لا خوف عليه من القتل، ثم أجاب عن تلك الشبهة في هذه الآية بجواب آخر وهو: إنا لا نسلم أن القتل في سبيل اللَّه شيء مكروه، وكيف يقال ذلك والمقتول في سبيل اللَّه أحياه اللَّه بعد القتل، وخصه بدرجات القربة والكرامة، وأعطاه أفضل أنواع الرزق، وأوصله إلى أجل مراتب الفرح والسرور؟ فأي عاقل يقول أن مثل هذا القتل يكون مكروها، فهذا وجه النظم»[1].

قال ابن القيم: «ثم عزى نبيه وأولياءه عمن قتل منهم في سبيله أحسن تعزية، وألطفها، وأدعاها إلى الرضى بما قضاه لها، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فجمع لهم إلى الحياة الدائمة

(١) تفسير الرازي (٩/ ٩١).

منزلة القرب منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضى، بل هو كمال الرضى، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يتم سرورهم ونعيمهم، واستبشارهم بما يجدد لهم كل وقت من نعمته وكرامته، وذكرهم سبحانه في أثناء هذه المحنة بما هو من أعظم مننه ونعمه عليهم التي إن قابلوا بها كل محنة تنالهم وبلية تلاشت في جنب هذه المنة والنعمة، ولم يبق لها أثر ألبتة، وهي منته عليهم بإرسال رسول من أنفسهم إليهم، يتلو عليهم آياته ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وينقذهم من الضلال الذي كانوا فيه قبل إرساله إلى الهدى، ومن الشقاء إلى الفلاح، ومن الظلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، فكل بلية ومحنة تنال العبد بعد حصول هذا الخير العظيم له أمر يسير جدًّا في جنب الخير الكثير كما ينال الناس بأذى المطر في جنب ما يحصل لهم به من الخير، فأعلمهم أن سبب المصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره ليوحدوا ويتكلوا، ولا يخافوا غيره، وأخبرهم بما لهم فيها من الحكم لئلا يتهموه في قضائه وقدره، وليتعرف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته، وسلاهم بما أعطاهم مما هو أجل قدرا، وأعظم خطرا مما فاتهم من النصر والغنيمة، وعزاهم عن قتلاهم بما نالوه من ثوابه وكرامته، لينافسوهم فيه، ولا يحزنوا عليهم، فله الحمد كما هو أهله وكما ينبغي لكرم وجهه، وعز جلاله»[(١)].

قال الشنقيطي: «نهى اللَّه -تبارك وتعالى- في هذه الآية عن ظن الموت بالشهداء، وصرح بأنهم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، وأنهم فرحون ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ولم يبيّن هنا هل حياتهم هذه في البرزخ يدرك أهل الدنيا حقيقتها أو لا؟ ولكنه بيّن في سورة البقرة أنهم لا يدركونها بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾[(٢)]؛ لأن نفي الشعور يدل على نفي الإدراك من باب أولى كما هو ظاهر»[(٣)].

قال السعدي: «هذه الآيات الكريمات فيها فضل الشهداء وكرامتهم، وما من

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٤٠-٢٤١).
(٢) البقرة: الآية (١٥٤).
(٣) أضواء البيان (١/ ٢١٧).

اللَّه عليهم به من فضله وإحسانه. وفي ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم، وتعزيتهم، وتنشيطهم للقتال في سبيل اللَّه، والتعرض للشهادة، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في جهاد أعداء الدين، قاصدين بذلك إعلاء كلمة اللَّه. ﴿أَمْوَٰتًا﴾؛ أي: لا يخطر ببالك وحسبانك أنهم ماتوا وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا، والتمتع بزهرتها، الذي يحذر من فواته من جبن عن القتال، وزهد في الشهادة ﴿بَلْ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه المتنافسون. فهم ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ في دار كرامته. ولفظ: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم. ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا صاروا ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: مغتبطون بذلك. وقد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه، وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنغص. فجمع اللَّه لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح، بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم النعيم والسرور»[(١)].

قال ابن عطية عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ الآية: «أخبر اللَّه تعالى في هذه الآية عن الشهداء أنهم في الجنة يرزقون، هذا موضع الفائدة ولا محالة أنهم ماتوا وأن أجسادهم في التراب، وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين، وفضلوا بالرزق في الجنة من وقت القتل، حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وفضل الشهادة

* عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل اللَّه أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم، وحسن مقيلهم، قالوا: من يبلغ إخوانكم عنا أنا أحياء في الجنة نرزق، لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب؟ فقال اللَّه سبحانه: «أنا أبلغهم عنكم، قال: فأنزل**

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٥٤-٤٥٥).
(٢) المحرر الوجيز (١/ ٥٤٠).

الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.. إلى آخر الآية»[١].

* عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: سَأَلْنَا عَبْدَ اللَّهِ -هو ابن مسعود- عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «**أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُم اطِّلَاعَةً فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا. قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا. فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا**»[٢].

★ فوائد الحديثين:

قال القرطبي: «وقد تضمن هذا الحديث تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ وأن المعنى معنى حياة الشهداء: أن لأرواحهم من خصوص الكرامة ما ليس لغيرهم، بأن جعلت في جوف طير، كما في هذا الحديث، أو في حواصل طير خضر، كما في الحديث الآخر، صيانة لتلك الأرواح، ومبالغة في إكرامها، لاطلاعها على ما في الجنة من المحاسن والنعم، كما يطلع الراكب المظلل عليه بالهودج الشفاف، الذي لا يحجب عما وراءه، ثم يدركون في تلك الحال التي يسرحون فيها من روائح الجنة، وطيبها، ونعيمها، وسرورها ما يليق بالأرواح مما ترتزق وتنتعش به. وأما اللذات الجسمانية فإذا أعيدت تلك الأرواح إلى أجسادها استوفت من النعيم جميع ما أعد اللَّه تعالى لها، ثم إن أرواحهم بعد سرحها في الجنة ترجع تلك الطير بهم إلى مواضع مكرمة؛ مشرفة؛ منورة؛ عبر عنها بالقناديل

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٦)، وأبو داود (٣/ ٣٢-٣٣/ ٢٥٢٠)، والحاكم (٢/ ٢٩٧-٢٩٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. من طرق عن أبي الزبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وأخرجه الإمام أحمد (١/ ٢٦٥-٢٦٦) دون ذكر سعيد بن جبير بن أبي الزبير وابن عباس. وله شاهد من حديث عبد اللَّه ابن مسعود ﷺ عند مسلم (٣/ ١٥٠٢-١٥٠٣/ ١٨٨٧).

(٢) أخرجه: مسلم (٣/ ١٥٠٢-١٥٠٣/ ١٨٨٧)، والترمذي (٥/ ٢١٥-٢١٦/ ٣٠١١)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٦-٢٣٧/ ٢٨٠١).

لكثرة أنوارها، وشدتها. والله تعالى أعلم. وهذه الكرامات كلها مخصوصة بالشهداء كما دلت عليه الآية وهذا الحديث»[١].

قال ابن هبيرة: «في هذا الحديث من الفقه أن الشهداء أعطوا ما لم يبق وراءه للأماني متطلع، وأنهم كرر عليهم السؤال مع العلم بأنهم لم يبق في ذلك مطلب، ليعلم الراغبون في الجهاد فضله، وأنهم لم يتركوا من أن يسألوا، قالوا بحالهم: ماذا نسأل وقد انتهت الأماني بنا وفرغت المسائل منا وتجاوز العطاء لنا مبالغ حد عقولنا. فلما كرر عليهم، قالوا: إن كان كذا فما بقي فيما هو لنا ما يقبل زيادة بحال، ولكنه قد بقي ما هو لك يا رب، وهو أن تردنا إلى الدنيا فنقتل فيك، فلما كان هذا السؤال ليس مما هو لهم ولا راجع إليهم تركوا؛ فدل هذا الحديث أن الشهداء بلغوا من فضل الله إلى ما لم يتبق فيه أمنية بحال، وقوله: «**نسرح من الجنة حيث شئنا**» يدل على أنهم لا يخصصون من الجنة موضعًا مفردًا بل يسرحون فيها حيث شاءوا»[٢].

وقال ابن الجوزي: «إن قيل كيف لا يحسب القتلى أمواتًا، وحقيقة الموت عندهم موجودة؟ فالجواب: أنه لما ثبت في النفوس أن تعطيل الذوات بالموت مخرج عن التنعيم أعلمهم أن الشهداء في وصول النعيم إليهم كالأحياء على ما في الحديث من «**أن أرواحهم في حواصل طير خضر**».

فإن قيل: فجميع المؤمنين ينعمون بعد الموت، وفي حديث كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «**نسمة المؤمن طائر يعلق من شجر الجنة**»[٣] أي يأكل.

فالجواب: أن الشهداء ميزوا على غيرهم من المؤمنين بزيادة نعيم وعلو قدر ورفعة ذكر، فهم أحياء يصل إليهم نعيم الجنة، ويأوون إلى أشرف منزل، وهم بالذكر الجميل في الدنيا كالأحياء، قال ابن جرير الطبري: الشهداء مخصوصون، يرزقون من الجنة قبل بعثهم دون سائر المؤمنين.

وقوله في الحديث: «**هل تشتهون شيئا؟ قالوا: أن ترد أرواحنا حتى نقتل في سبيلك**».

---

(١) المفهم (٣/ ٧١٥-٧١٦). (٢) الإفصاح (٢/ ١١٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٥٥)، والترمذي (٤/ ١٥١/ ١٦٤١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي (٤/ ٤١٤-٤١٥/ ٢٠٦٢) وابن ماجه (١/ ٤٦٦/ ١٤٤٩).

وإن قيل: ما الفائدة من عرض التمني عليهم، فلما تمنوا شيئًا لم يعطوه، والحق ﷻ قد علم قبل سؤالهم ما يتمنون، وعلم أنه لا يعطيهم ذلك، فما الفائدة في استعراض حاجة لا تقضى؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن القوم خرجوا من دار التكليف إلى دار الجزاء، وأحبوا العود لا لمعنى يرجع إلى أغراضهم، بل قضاء لشكر نعمة الحق عليهم، فترك إجابتهم إلى ما يوقعهم في النصب إجابة، فكأنه يقول: مرادكم من العود شكر النعمة، أو توفير الأجر، وقد رضيت شكركم، وسأنيلكم ما تريدون من غير تعب. ومثال هذا أن ينعم السلطان على شخص عن خدمة نصب فيها، ثم يقول له: تمن، فيقول: لو أن تعيدني إلى الخدمة، ومراده أن يزداد عنه رضى، فيمنعه النصب، ويخبره بتمام الرضى.

والثاني: أنهم لما سلموا إلى الشهادة نفوسا لا تخلوا من تلويث تقصير، فرأوا ذلك الجزاء الباهر أحبوا أن يعادوا فيسلموا نفوسًا مطهرة بالشهادة من كل دنس، ليتضاعف الجزاء، فمنعوا ذلك؛ لأن التسليم الأول كان على وجه الإيمان بالغيب، والثاني: لو كان كان عن عيان، والعبادة بالغيب هي المطلوبة لا مع العيان، فكانت الفائدة لهم في جريان هذه الحال أن يسألوا غير هذا الفن، وكانت الفائدة لمن بلغته الحال أن يجد ويجتهد في تزكية نفسه ليسلم نفسًا زاكية إذ لا سبيل إلى العود»[1].

* عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية**»[2].

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «وكأن الشهداء أقسام: منهم من تسرح أرواحهم في الجنة، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة، وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى

(١) كشف المشكل (١/ ٣٣٠-٣٣١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٦٦)، والطبراني (١٠/ ٣٣٣/ ١٠٨٢٥)، وصححه ابن حبان: الإحسان (١٠/ ٥١٥/ ٤٦٥٨)، والحاكم (٢/ ٧٤) وقال: «صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٩٨) وعزاه لأحمد والطبراني، وقال: ورجال أحمد ثقات وفيه محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد صرح بالتحديث فانتفت شبهة تدليسه.

هذا النهر فيجتمعون هنالك، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح، والله أعلم. وقد روينا في مسند الإمام أحمد حديثًا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضًا فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعده الله لها من الكرامة»[١].

وقال المناوي: «وفي هذا الخبر تنبيه على فضل الجهاد، وكيف لا وهو بيع النفس من الله، ولا أحب إلى الإنسان من نفسه فبذلها الله أعظم الاحتساب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وناهيك به شرفًا عند أهل البصر، حيث وصفهم بأنهم أحياء عند ربهم والمراد حياة الأرواح في النعيم الأبدي، لا حقيقة الحياة الدنيوية، بدليل أن الشهيد يورث وتزوج زوجته. قال المقريزي: ولا يلزم من كونها حياة حقيقة أن تكون الأبدان معها كما كانت في الدنيا من الاحتياج إلى الطعام والشراب وغير ذلك من صفات الأجسام التي تشاهدها بل يكون لها حكم آخر، فليس في العقل ما يمنع إثبات الحياة الحقيقية لهم، وأما الإدراكات فحاصلة لهم ولسائر الموتى»[٢].

* عن جابر بن عبد الله قال: لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه أبكي وينهوني، والنبي ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: «**تبكين أو لا تبكين، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعوه**»[٣].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «ويعني بهذا الكلام: أن عبد الله مكرم عند الملائكة سواء بكي عليه أو لم يبك: وكون الملائكة تظله بأجنحتها إنما ذلك لاجتماعهم عليه، وتزاحمهم على مبادرة لقائه، والصعود بروحه الكريمة الطيبة، ولتبشره بما له عند الله تعالى من الكرامة والدرجة الرفيعة، والله تعالى أعلم»[٤].

قال المهلب: «هذا من فضل الشهادة، وضع الملائكة أجنحتها عليه رحمة له»[٥].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٢). (٢) فيض القدير (٤/ ١٨١).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٩٨)، والبخاري (٣/ ١٤٨/ ١٢٤٤)، ومسلم (٤/ ١٩١٨/ ٢٤٧١[١٣٠])، والنسائي (٤/ ٣١١/ ١٨٤٤). (٤) المفهم (٦/ ٣٨٨).

(٥) ابن بطال (٥/ ٢٩).

قال الحافظ: «ومحصله أن هذا الجليل القدر الذي تظله الملائكة بأجنحتها لا ينبغي أن يُبكى عليه، بل يفرح له بما صار إليه»(١).

وقال ابن بطال: «فيه أن الشهيد والرجل الصالح ومن يرجى له الخير لا يجب أن يُبكى عليه، ألا ترى أن الرسول قال لها: «**لم تبكين**» فأخبرها بالأمن عليه في الآخرة، وإنما البكاء على من يخشى عليه النار»(٢).

* عن طَلْحَةَ بْنَ خِرَاشٍ قَال: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: لَقِيَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لِي: «**يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اسْتُشْهِدَ أَبِي، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا. قَالَ: «**أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟**» قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا، فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ ﷻ: إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ**». قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ الْآيَةَ(٣).

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «تضمن هذا الحديث فضيلة عظيمة لعبد اللَّه، لم يسمع بمثلها لغيره، وهي أن اللَّه تعالى كلمه مشافهة بغير حجاب حجبه به، ولا واسطة قبل يوم القيامة، ولم يفعل اللَّه تعالى ذلك مع غيره في هذه الدار، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾(٤). وكما قال رسول اللَّه ﷺ في هذا الحديث: «**ومَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**»، وظاهر هذه الآية وهذا الحديث أن اللَّه تعالى لم يفعل هذا في هذه الدار لحي ولا لميت، إلا لعبد اللَّه هذا خاصة»(٥).

---

(١) فتح الباري (٣/ ٢١٠). (٢) ابن بطال (٥/ ٣٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٥٦١) مختصرا، والترمذي (٥/ ٢١٤-٢١٥/ ٣٠١٠) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجه (١/ ٦٨/ ١٩٠) ابن حبان: الإحسان (١٥/ ٤٩٠-٤٩١/ ٧٠٢٢) والحاكم (٣/ ٢٠٤-٢٠٣) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي في التلخيص. وفيه: موسى بن إبراهيم وهو ابن كثير الأنصاري، قال عنه الحافظ في التقريب: صدوق يخطئ.

(٤) الشورى: الآية (٥١). (٥) المفهم (٦/ ٣٨٦).

* عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ أَقْوَامًا مِنْ بَنِي سُلَيْم إِلَى بَنِي عَامِرٍ فِي سَبْعِينَ، فَلَمَّا قَدِمُوا قَالَ لَهُمْ خَالِي: أَتَقَدَّمُكُمْ فَإِنْ أَمَّنُونِي حَتَّى أُبَلِّغَهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ، وَإِلَّا كُنْتُمْ مِنِّي قَرِيبًا. فَتَقَدَّمَ فَأَمَّنُوهُ، فَبَيْنَمَا يُحَدِّثُهُمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَوْمَأُوا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ فَطَعَنَهُ فَأَنْفَذَهُ، فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ. ثُمَّ مَالُوا عَلَى بَقِيَّةِ أَصْحَابِهِ فَقَتَلُوهُمْ إِلَّا رَجُلًا أَعْرَجَ صَعِدَ الْجَبَلَ. قَالَ هَمَّامٌ: وأُرَاهُ آخَرَ مَعَهُ. فَأَخْبَرَ جِبْرِيلُ عليه السلام النَّبِيَّ ﷺ أَنَّهُمْ قَدْ لَقُوا رَبَّهُمْ فَرَضِيَ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، فَكُنَّا نَقْرَأُ: أَنْ بَلِّغُوا قَوْمَنَا أَنْ قَدْ لَقِينَا رَبَّنَا فَرَضِيَ عَنَّا وَأَرْضَانَا، ثُمَّ نُسِخَ بَعْدُ. فَدَعَا عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا عَلَى رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وَبَنِي لَحْيَانَ وَبَنِي عُصَيَّةَ الَّذِينَ عَصَوُا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ(١).

★ **فوائد الحديث:**

«فيه دليل على أن كل ما أصيب به المجاهد في سبيل اللَّه من نكبة أو عثرة فإن له أجر ذلك على قدر نيته واحتسابه»(٢).

قال المهلب: «في هذه الآية التي في الترجمة دليل على أن كل مقتول غدرًا أنه شهيد؛ لأن أصحاب بئر معونة قُتلوا غدرًا بهم»(٣).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٠٩)، والبخاري (٦/ ٢٣/ ٢٨٠١)، ومسلم (١/ ٤٦٨/ ٦٧٧).
(٢) شرح ابن بطال (٥/ ١٩).
(٣) شرح ابن بطال (٥/ ٢٩).

قوله تعالى: ﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٧١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يفرحون ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: بما حباهم به -تعالى ذكره- من عظيم كرامته عند ورودهم عليه، ﴿وَفَضْلٍ﴾ يقول: وبما أسبغ عليهم من الفضل، وجزيل الثواب على ما سلف منهم من طاعة اللَّه ورسوله ﷺ وجهاد أعدائه... ومعنى قوله: ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا يبطل جزاء أعمال من صدق رسوله واتبعه وعمل بما جاءه من عند الله»(١).

قال الرازي: «إنه تعالى بين أنهم كما يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم على ما ذكر، فهم يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النعيم، وإنما أعاد لفظ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لأن الاستبشار الأول كان بأحوال الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، والاستبشار الثاني كان بأحوال أنفسهم خاصة.

فإن قيل: أليس أنه ذكر فرحهم بأحوال أنفسهم والفرح عين الاستبشار؟ قلنا: الجواب من وجهين: الأول: أن الاستبشار هو الفرح التام فلا يلزم التكرار. والثاني: لعل المراد حصول الفرح بما حصل في الحال، وحصول الاستبشار بما عرفوا أن النعمة العظيمة تحصل لهم في الآخرة»(٢).

وقال: «الآية تدل على أن استبشارهم بسعادة إخوانهم أتم من استبشارهم بسعادة أنفسهم؛ لأن الاستبشار الأول في الذكر هو بأحوال الإخوان، وهذا تنبيه من اللَّه تعالى على أن فرح الإنسان بصلاح أحوال إخوانه ومتعلقيه يجب أن يكون أتم وأكمل من فرحه بصلاح أحوال نفسه»(٣).

---

(١) جامع البيان (٧/ ٣٩٨).
(٢) تفسير الرازي (٩/ ٩٩).
(٣) تفسير الرازي (٩/ ٩٩-١٠٠).

قال شيخ الإسلام: «الأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر، ولهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان، وكان باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة، ومن الصلاة التطوع، والصوم التطوع، كما دل عليه الكتاب والسنة.. وهذا باب واسع، لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه. وهو ظاهر عند الاعتبار، فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فإنه مشتمل من محبة اللَّه تعالى والإخلاص له، والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له، والصبر والزهد، وذكر اللَّه سائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عمل آخر. والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنيين دائما إما النصر والظفر، وإما الشهادة والجنة. فإن الخلق لابد لهم من محيا وممات ففيه استعمال محياهم ومماتهم في غاية سعادتهم في الدنيا والآخرة، وفي تركه ذهاب السعادتين أو نقصهما؛ فإن من الناس من يرغب في الأعمال الشديدة في الدين أو الدنيا مع قلة منفعتها فالجهاد أنفع فيهما من كل عمل شديد، وقد يرغب في ترفيه نفسه حتى يصادفه الموت فموت الشهيد أيسر من كل ميتة، وهي أفضل الميتات»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة الجهاد والقتال في سبيل الله

* عن عبد الرحمن بن جابر عن أبيه: سمع النبي ﷺ يقول -إذا ذكر أصحاب أحد-: «**واللَّه لوددت أني غودرت مع أصحابي بنحص الجبل**»، نحص الجبل: أصله[٢].

* عن أنس بن مالك: أن رسول اللَّه ﷺ أتى على حمزة فوقف عليه فرآه قد مثل به فقال: «**لو لا أن تجد صفية في نفسها لتركته حتى تأكله العافية**»، -وقال زيد بن الحباب-: «**تأكله العاهة حتى يحشر من بطونها**»، ثم قال: دعا بنمرة فكفنه فيها، قال: وكان إذا مدت على رأسه بدت قدماه، وإذا مدت على قدميه بدا رأسه، قال:

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٥٢-٣٥٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٧٥)، والحاكم (٢/ ٧٦) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.

وكثر القتلى وقلت الثياب، قال: فكان يكفن -أو يكفن الرجلين شك صفوان- والثلاثة في الثوب الواحد، قال: وكان رسول اللَّه ﷺ يسأل عن أكثرهم قرآنًا فيقدمه إلى القبلة، قال: فدفنهم رسول اللَّه ﷺ ولم يصل عليهم، وقال زيد بن الحباب: فكان الرجل والرجلان والثلاثة يكفنون في ثوب واحد[1].

* عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من رأى مقتل حمزة؟**» قال رجل: أعزك اللَّه أنا رأيت مقتله، فانطلق فوقف على حمزة، فرآه قد شق بطنه وقد مثل به، فقال: يا رسول اللَّه مُثِّل به، فكره رسول اللَّه ﷺ أن ينظر إليه، ووقف بين ظهراني القتلى وقال: «**أنا لشهيد على هؤلاء، لفوهم في دمائهم، فإنه ليس مجروح يجرح في سبيل اللَّه إلا جاء جرحه يوم القيامة يدمي، لونه لون الدم وريحه ريح المسك، قدموا أكثر القوم قرآنا فاجعلوه في اللحد**»[2].

★ **غريب الأحاديث:**

غودرت: وهي الترك؛ أي: ليتني تركت مع قتلى أحد وأبقيت معهم؛ أي: ليتني استشهدت معهم.

العافية: السباع والطير التي تقع على الجيف فتأكلها، وتجمع على العوافي.

تجد: أي تحزن وتجزع.

مثل: مثل بفلان مثلا ومثلة: نكل به بجدع أنفه أو قطع أذنه أو غيرهما من الأعضاء. والتشديد للمبالغة.

---

(١) أخرجه مطولا: أحمد (٣/ ١٢٨)، وأبو داود (٣/ ٤٩٨-٤٩٩/ ٣١٣٦)، والترمذي (٣/ ٣٣٥-٣٣٦/ ١٠١٦) وقال: «حديث أنس حديث حسن غريب، لا نعرفه من حديث أنس إلا من هذا الوجه»، وأبو يعلى (٦/ ٢٦٤-٢٦٥/ ٣٥٦٨) والحاكم (١/ ٣٦٥) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٤) وقال: «رواه أبو يعلى وروى أبو داود بعضه من غير ذكر الكفن ورجاله رجال الصحيح». كلهم من طريق أسامة بن زيد عن الزهري عن أنس قال: لما كان يوم أحد مر رسول اللَّه ﷺ بحمزة وقد جدع أنفه ومثل به، فقال: «لولا أن تجد صفية في نفسها تركته حتى يحشره اللَّه..» وقال النووي في المجموع (٥/ ٢١٤) بعد ما عزاه لأبي داود وحده: «إسناده حسن أو صحيح».

(٢) أخرجه: ابن أبي شيبة (٧/ ٣٧٢/ ٣٦٧٨٧)، والطبراني (١٩/ ٨٢-٨٣/ ١٦٧). وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٢٣) وقال بعد عزوه للطبراني: «ورجاله رجال الصحيح». وذكره البوصيري في «مختصر إتحاف السادة المهرة» (٧/ ٢٥/ ٥٢٢٧) وقال بعد عزوه لأبي بكر ابن أبي شيبة: «ورواته ثقات».

النمرة: كساء فيه خطوط بيض وسود، جمعها نمار.

★ فوائد الأحاديث:

فيه: ما كان عليه صدر هذه الأمة من إيثار الآخرة على الدنيا، والتضحية بالنفس في سبيل اللَّه.

وقوله: «**حتى يحشر يوم القيامة من بطونها**»: «إنما أراد ذلك ليتم له به الأجر ويكمل، ويكون كل البدن مصروفًا في سبيله تعالى إلى البعث، أو البيان أنه ليس عليه فيما فعلوا به من المثلة تعذيب حتى إن دفنه وتركه سواء»[١].

قال الطيبي: «قوله: «**أنا شهيد عليهم**» قال المظهري: أنا شفيع لهؤلاء، وأشهد لهم بأنهم بذلوا أرواحهم، وتركوا حياتهم لله تعالى.

أقول: لا يساعد عليه تعدية الشهيد بعلى؛ لأنه لو أريد ما قال، لقيل: أنا شهيد لهم، فعدل لتضمين «**شهيد**» معنى رقيب وحفيظ؛ أي: أنا حفيظ عليهم أراقب أحوالهم وأصونهم من المكاره والمناصب، شفيعًا لهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٢]»[٣].

وفيه: «أن الشهيد له فضل عظيم، وثواب جسيم، حتى إن ريح دمه يكون أطيب عند اللَّه تعالى يوم القيامة من ريح المسك»[٤].

* عن عبد اللَّه بن حبشي الخثعمي أن النبي ﷺ سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «**طول القيام**»، قيل: فأي الصدقة أفضل؟ قال: «**جهد المقل**»، قيل: فأي الهجرة أفضل؟ قال: «**من هجر ما حرم اللَّه عليه**»، قيل: فأي الجهاد أفضل؟ قال: «**من جاهد المشركين بماله ونفسه**»، قيل: فأي القتل أشرف؟ قال: «**من أهريق دمه وعقر جواده**»[٥].

★ غريب الحديث:

عقر: عقر البعير: قطع إحدى قوائمه ليسقط ويتمكن من ذبحه.

---

(١) تحفة الأحوذي (٤/ ٨٢-٨٣).
(٢) المائدة: الآية (١١٧).
(٣) الطيبي (٤/ ١٣٩٨).
(٤) بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني (٧/ ١٦٠).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ٤١١-٤١٢)، وأبو داود (٢/ ١٤٦/ ١٤٤٩)، والنسائي (٥/ ٦١-٦٢/ ٢٥٢٥)، وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم (صحيح أبي داود ٥/ ١٩٣/ ١٣٠٣).

★ **فوائد الحديث:**

«لعل هذا محمول على أن عقر جواده وقع في حياته وبمرأى منه ثم قتل، فكأنه بذل ماله ونفسه في سبيل اللَّه وجاهد راكبًا وماشيًا، وقطع قوائمه كناية عن غاية شجاعته، وإنه كان مما لا يطاق أن يظفر به إلا بعقر جواده»[(١)].

«إذا كان من هرق دمه وعقر جواده أفضل الشهداء علم أنه من لم يكن بتلك الصفة فهو مفضول، وقد كان عمر بن الخطاب ﵁ يضرب من يسمعه يقول: من قتل في سبيل اللَّه فهو شهيد، ويقول لهم: قولوا من قتل في سبيل اللَّه فهو في الجنة. قال أبو عمر: لأن شرط الشهادة شديد، فمن ذلك ألا يغل ولا يجبن، وأن يقتل مقبلا غير مدبر، وأن يباشر الشريك وينفق الكريمة، ونحو هذا. . ، واللَّه أعلم»[(٢)].

قال الطيبي: «ولعل تغيير العبارة في قوله: «**فأي القتل أشرف؟**» إنما كان لاهتمام هذه الخصلة؛ لأن معنى الشرف في القدر والقيمة والرفعة، وذلك أن منزلة درجة الشهيد الذي نال من درجات الشهادة أقصاها وغايتها هو الفردوس الأعلى، وهذا الشهيد هو الذي بذل نفسه وماله وجواده في سبيل الله»[(٣)].

❋ عن أنس بن مالك أن أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة- أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله! ألا تحدِّثُني عن حارثة وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غَرب- فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، قال: «**يا أم حارثة! إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**»[(٤)].

★ **غريب الحديث:**

غرب: بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة: لا يعرف راميه، أو لا يعرف من أين أتى، أو جاء على غير قصد من راميه.

الفردوس: هو البستان الذي يجمع كل شيء.

---

(١) بذل المجهود (٧/ ٢٨٤).
(٢) التمهيد: فتح البر (١١/ ٤٤).
(٣) شرح الطيبي (٨/ ٢٦٤٩-٢٦٥٠).
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٢١٠-٢٦٠)، والبخاري (٦/ ٣٢/ ٢٨٠٩)، والترمذي (٥/ ٣٠٦/ ٣١٧٤).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن العربي: «حمل أم حارثة كثرة الإشفاق على الخوف عليه وقد مات مجاهدًا مسلمًا فلم تقنع بهذا الظاهر مخافة من العذاب بذنوبه، فأعطاها النبي ﷺ اليقين بنجاته وعلو مكانته»(١).

«قوله «**إنها جنان**»؛ أي: درجات في الجنة والمراد بذلك التفخيم والتعظيم»(٢).

«وفيه فضيلة ظاهرة للمجاهدين، وفيه عظم الجنة، وعظم الفردوس منها»(٣).

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «**انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة. ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل ثم أحيا، ثم أقتل**»(٤).

★ **غريب الحديث:**

انتدب: من ندبه لأمر فانتدب؛ أي: دعاه له فأجابه. والمراد: سارع بثوابه وحسن جزائه.

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «وكأن المجاهد في سبيل الله الذي لا غرض له في جهاده سوى التقرب إلى الله تعالى، والإيمان به والتصديق برسله فيما أخبروا به، أنه قربة إلى الله تعالى، ووصلة ينال به الدرجات العلى، تعرض بجهاده لطلب النصر والمغفرة، فأجابه الله تعالى إلى بغيته، ووعد له إحدى الحسنين: إما السلامة والرجوع بالأجر والغنيمة، وإما الوصول إلى الجنة والفوز بمرتبة الشهادة»(٥).

---

(١) عارضة الأحوذي (١٢/ ٣٨-٣٩). (٢) إرشاد الساري (٦/ ٣٣٧).

(٣) فتح الباري (٦/ ١٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٩٦)، والبخاري (١/ ١٢٤/ ٣٦)، ومسلم (٣/ ١٤٩٧/ ١٨٧٦)، والنسائي (٦/ ٣٣٩/ ٣١٥١-٣١٥٢)، وابن ماجه (٢/ ٩٢٠/ ٢٧٥٣).

(٥) شرح الطيبي (٨/ ٢٦٢٤).

فيه: «أنه ﷺ أراد المبالغة في بيان فضل الجهاد، وتحريض المسلمين عليه»[١].

«وفيه: فضيلة الغزو والشهادة، وفيه: تمني الشهادة والخير، وتمني ما لا يمكن في العادة من الخيرات، وفيه: أن الجهاد فرض كفاية لا فرض عين»[٢].

«فيه: أن المجاهدين لما وجدناهم غير متساوين في الأجر متساوين في القسم في الغنيمة، دل أن أجورهم استحقوها بالقتال، والغنيمة بفضل اللَّه تعالى عليهم»[٣].

«وهذا الحديث إنما معناه الذي من أجله خرج فضل الجهاد، وفضل القتل في سبيل اللَّه، وفضل الشهادة، وقد علمنا أن ذلك لا يحيط به كتاب، فكيف أن يجمع في باب، واللَّه الموفق للصواب»[٤].

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«ما من عبد يموت له عند اللَّه خير يسره أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد، لما يرى من فضل الشهادة، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى»**[٥]. وفي رواية: **«فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة»**.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «هذا من صرائم الأدلة في عظيم فضل الشهادة، واللَّه المحمود المشكور»[٦].

قال ابن بطال: «هذا الحديث أجل ما جاء في فضل الشهادة، والحض عليها، والترغيب فيها، وإنما يتمنى الشهيد أن يقتل عشر مرات -واللَّه أعلم- لعلمه بأن ذلك مما يرضي اللَّه، ويقرب منه؛ لأن من بذل نفسه ودمه في إعزاز دين اللَّه، ونصرة دينه ونبيه، فلم تبق غاية وراء ذلك، وليس في أعمال البر ما تبذل فيه النفس غير الجهاد، فلذلك عظم الثواب عليه، واللَّه أعلم»[٧].

---

(١) الفتح (٦/ ٢١).
(٢) شرح مسلم (١٣/ ٢١).
(٣) إكمال المعلم (٦/ ٢٩٤).
(٤) التمهيد: فتح البر (١١/ ١٧).
(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٦- ١٥٣)، والبخاري (٦/ ١٨/ ٢٧٩٥)، ومسلم (٣/ ١٤٩٨/ ١٨٧٧[١٠٨و١٠٩])، والترمذي (٤/ ١٥١/ ١٦٤٣).
(٦) شرح مسلم (١٣/ ٢٢).
(٧) شرح البخاري لابن بطال (٥/ ٣٠).

قال القرطبي: «وقد حصل من مجموع هذه الأحاديث: أن الجهاد أفضل من جميع العبادات العملية، ولا شك في هذا عند تعيينه على كل مكلف يقدر عليه، كما كان في أول الإسلام، وكما قد تعين في هذه الأزمان؛ إذ قد استوى على المسلمين أهل الكفر والطغيان، -فلا حول ولا قوة إلا باللَّه العلي العظيم- وأما إذا لم يتعين فحينئذ تكون الصلاة أفضل منه، على ما جاء في حديث أبي ذر؛ إذ سئل عن أفضل الأعمال فقال: «**الصلاة على مواقيتها**»(١)»(٢).

* عن المقدام بن معد يكرب عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**للشهيد عند اللَّه ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار؛ الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين إنسانًا من أقاربه**»(٣).

* عن نمران بن عتبة الذماري قال: دخلنا على أم الدرداء ونحن أيتام صغار، فمسحت رءوسنا وقالت: أبشروا يا بني، فإني أرجو أن تكونوا في شفاعة أبيكم، فإني سمعت أبا الدرداء يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته**»(٤).

★ غريب الحديثين:

دفعة: صبة من دمه.

يجار: من أجاره؛ أي: أنقذه وحماه، والمراد: يحفظ ويؤمن.

الفزع الأكبر: قيل: هو عذاب، وقيل: العرض عليها. وقيل: هو وقت يؤمن أهل النار بدخولها، وقيل: وقت إطباق النار على الكفار، وقيل: النفخة الأخيرة.

---

(١) أخرجه من حديث عبد اللَّه بن مسعود: البخاري (٢/ ١١٤/ ٥٢٧)، ومسلم (١/ ٨٩/ ٨٥).

(٢) المفهم (٣/ ٧١٢-٧١٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٣١)، والترمذي (٤/ ١٦١/ ١٦٦٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب» وابن ماجه (٢/ ٩٣٥-٩٣٦/ ٢٧٩٩).

(٤) أخرجه: أبو داود (٣/ ٣٤/ ٢٥٢٢)، وابن حبان: الإحسان (١٠/ ٥١٧/ ٤٦٦٠).

تاج الوقار: أي: تاج هو سبب للعزة والعظمة.

★ فوائد الحديثين:

قال الإمام ابن العربي: «أما المغفرة له في أول دفعة أو دفعة يعني ساعة يقتل وأما قوله «**ويرى مقعده**» صح أنه يصل إلى الجنة ويعلق منها ويأكل ويشرب، فأما أن يكون في منزله فتكون الرؤية ساعة يقتل والأكل منه ساعة يرفع ويصل إليه، وإما أن يأكل من غير درجة حتى ينتهي إليها يوم القيامة، وينجى من عذاب القبر، وهي فائدة عظمى، والمعنى فيه أنه قد صدق اللَّه بإهلاك نفسه، وثبت في موضع الزلل، فأغنى عن ذلك التثبيت، وسائر ذلك فضل من الله»[1].

فيه: بيان عظيم منزلة الشهيد عند ربه، وبيان ما أعد اللَّه له من النعيم والإكرام، فمغفرة ذنوبه عند قتله في سبيل اللَّه، وتبشيره بمقامه ومكانته في الجنة، وإجارته من عذاب القبر، وأمنه من الفزع الأكبر يوم الحشر، وتحليته بحلة الإيمان؛ فيذوق من حلاوته أعظم وأتم مما كان يذوق من حلاوته في الدنيا، وتزويجه من الحور العين، وتشفيعه في سبعين من أقاربه. ألوان من النعيم والتكريم وحسن الجزاء من اللَّه لعباده المجاهدين في سبيله، فما أعظمها من منزلة، وما أكرمها من مرتبة.

* عن عتبة بن عبد السلمي قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل اللَّه، حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يقتل، فذاك الشهيد الممتحن في خيمة اللَّه تحت عرشه لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة. ورجل مؤمن قرف على نفسه من الذنوب والخطايا، جاهد بماله ونفسه في سبيل اللَّه حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل، فمصمصة محت ذنوبه وخطاياه، إن السيف محاء الخطايا، وأدخل من أي أبواب الجنة شاء، فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض، ورجل منافق جاهد بنفسه وماله، حتى إذا لقي العدو قاتل في سبيل اللَّه حتى يقتل، فإن ذلك في النار، السيف لا يمحو النفاق**»[2].

---

(١) العارضة (٧/ ١٣٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨٥-١٨٦)، والبيهقي (٩/ ١٦٤)، والطبراني (١٧/ ١٢٥-١٢٦/ ٣١٠-٣١١)، وابن حبان: الإحسان (١٠/ ٥١٩/ ٤٦٦٣). وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٩٤) وقال بعد عزوه للإمام أحمد والطبراني: «ورجال أحمد رجال الصحيح خلا المثنى الأملوكي وهو ثقة». وجود إسناده المنذري في الترغيب (٢/ ٣١٦-٣١٧/ ٢٠).

★ **غريب الحديث:**

الممتحن: المجرب من قولهم: امتحن فلان لأمر كذا جرب له، ودرب للنهوض به، فهو مضطلع غير وان عنه، والمعنى أنه صابر على الجهاد قوي على احتمال مشاقه.

قرف: الذنب: أتاه: وقارف الخطيئة خالطها.

مصمصة: مطهرة من دنس الخطايا يقال مصمص إناءه: إذا جعل فيه الماء وحركه ليتنظف.

* عن أبي قتادة أنه سمعه يحدث عن رسول اللَّه ﷺ أنه قام فيهم فذكر لهم: «**أن الجهاد في سبيل اللَّه والإيمان باللَّه أفضل الأعمال**» فقام رجل فقال: يا رسول الله! أرأيت إن قتلت في سبيل اللَّه تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول اللَّه ﷺ: «**نعم، إن قتلت في سبيل اللَّه، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر**». ثم قال رسول اللَّه ﷺ: «**كيف قلت؟**» قال: أرأيت إن قتلت في سبيل اللَّه أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: «**نعم، وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدين. فإن جبريل** عليه السلام **قال لي ذلك**»[(١)].

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين**»[(٢)].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال القاضي عياض: «فيه: أن الأجر في ذلك لمن صدقت نيته، واحتسب أجره ولم يقاتل حمية، ولا طلب دنيا، ولا طلب ذكرًا وثناء، وأن من قتل مدبرًا فإنه ليس له من هذا الأجر شيء»[(٣)].

قال النووي: «فيه: هذه الفضيلة العظيمة للمجاهد وهي تكفير خطاياه كلها

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٩٧)، ومسلم (٣/ ١٥٠١/ ١٨٨٥)، والترمذي (٤/ ١٨٤/ ١٧١٢)، والنسائي (٦/ ٣٤١-٣٤٢/ ٣١٥٦-٣١٥٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٢٠)، ومسلم (٣/ ١٥٠٢/ ١٨٨٦).

(٣) إكمال المعلم (٦/ ٣٠٣).

إلا حقوق الآدميين، وإنما يكون تكفيرها بهذه الشروط المذكورة؛ وهو أن يقتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، وفيه أن الأعمال لا تنفع إلا بالنية والإخلاص لله تعالى»[١].

وأما قوله ﷺ: «**إلا الدين**»: «ففيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين، وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين، وإنما يكفر حقوق اللَّه تعالى»[٢].

«فيه: دليل على أن الجهاد بشرط أن يكون في سبيل اللَّه مع الاحتساب وعدم الانهزام من مكفرات جميع الذنوب والخطايا، فيكون الشهيد بالشهادة مستحقًّا للمغفرة العامة، إلا ما كان من الديون اللازمة للآدميين، فإنها لا تغفر للشهيد، ولا تسقط عنه بمجرد الشهادة، وذلك لكونه حقًّا لآدمي، وسقوطه إنما يكون برضاه واختياره، ولهذا امتنع ﷺ من الصلاة على من عليه دين»[٣].

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة**»[٤].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قوله: «**لا يجد ألم القتل**» بأداة الحصر؛ دفعًا لتوهم ما يتصور أن ألمه يفضل على ألمها، وذلك في شهيد دون شهيد يتلذذ ببذل مهجته في سبيل اللَّه طيبا بها نفسه»[٥].

قال ابن أبي جمرة: فيه: «رعاية اللَّه للشهيد حيث يخفف عنه الآلام، ولا يعقبها علة ولا سقم»[٦].

* عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أفضل الجهاد عند اللَّه يوم القيامة الذين يلتقون في الصف، فلا يلفتون وجوههم حتى يقتلوا، أولئك يتلبطون في**

---

(١) شرح مسلم (١٣/ ٢٦).

(٢) شرح مسلم (١٣/ ٢٧).

(٣) نيل الأوطار (٧/ ٢٢٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٧)، والترمذي (٤/ ١٦٣/ ١٦٦٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب» والنسائي (٦/ ٣٤٣/ ٣١٦١)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٧/ ٢٨٠٢).

(٥) شرح الطيبي (٨/ ٢٦٥١).

(٦) بهجة الناظرين (٢/ ٤٣٤).

الغرف العلى من الجنة ينظر إليهم ربك، إن ربك إذا ضحك إلى قوم فلا حساب عليهم»[١].

★ **غريب الحديث:**

يتلبطون: أي يضطجعون.

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «هذا ترغيب في جهاد أهل الطغيان بحد السيف والسنان، وإعلام بالتربية بما تحصل به التصفية بما يؤدي إلى مناصبة الكفار ومقارعة أهل دار البوار. وفي الخبر إشعار بأن فضل الشهادة أرفع من فضل العلم»[٢].

قلت: وفيما قاله المناوي: بأن فضل الشهادة أرفع من فضل العلم؛ نظر؛ لوجوه:

الأول: أن العلم آثاره متعدية؛ فالعالم ينتفع به من لا يحصيه إلا اللَّه في حياته وبعد موته.

الثاني: أن شرف العلم لا يبلغه شرف، فاللَّه تعالى قال فيه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾[٣] وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾[٤].

الثالث: الأنبياء هم أهل العلم ودعاته، ولا يستطيع أحد أن يصل إلى درجتهم، والعلماء ورثة الأنبياء.

الرابع: أن الجهاد يحضره كل أحد، فكل من فيه شجاعة حضر الصف، فهو أعم من العلم من حيث الكم والعدد ونوعية الحاضرين، وأما العلم فلا يناله إلا خاصة الخاصّة، والعلماء في كل زمان قلة القلة، ونفعهم متعدٍّ كما سبق.

* عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رجلًا قال:

---

(١) الطبراني في الأوسط (٥/ ٧٩-٨٠/ ٤١٤٣). وذكره الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٩٢) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط من طريق عنبسة بن سعيد بن أبان وثقه الدارقطني كما نقل الذهبي ولم يضعفه أحد وبقية رجاله رجال الصحيح». وذكره المنذري في الترغيب: (٢/ ٣١٩/ ٢٤) وقال: «رواه الطبراني بإسناد حسن».

(٢) فيض القدير (٤/ ١٨١). (٣) المجادلة: الآية (١١).

(٤) فاطر: الآية (٢٨).

يا رسول اللَّه ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «**كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة**»[(١)].

★ **غريب الحديث:**

بارقة السيوف: من البروق بمعنى اللمعان.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن القيم: «معناه -واللَّه أعلم- قد امتحن نفاقه من إيمانه ببارقة السيف على رأسه فلم يفر، فلو كان منافقًا لما صبر ببارقة السيف على رأسه، فدل على أن إيمانه هو الذي حمله على بذل نفسه لله وتسليمها له، وهاج من قلبه حمية الغضب لله ورسوله، وإظهار دينه، وإعزاز كلمته، فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للقتل فاستغنى بذلك عن الامتحان في قبره»[(٢)].

«معناه: أنه لو كان في هؤلاء المقتولين نفاق كان إذا التقى الزحفان وبرقت السيوف فروا؛ لأن من شأن المنافق الفرار والروغان عند ذلك، ومن شأن المؤمن البذل والتسليم لله نفسا وهيجان حمية اللَّه والتعصب له لإعلاء كلمته، فهذا قد أظهر صدق ما في ضميره حيث برز للحرب والقتل فلماذا يعاد عليه السؤال في القبر؟»[(٣)].

❋ عن أنس: أن رجلًا أسود أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه! إني رجل أسود، منتن الريح، قبيح الوجه، لا مال لي، فإن أنا قاتلت هؤلاء حتى أقتل فأين أنا؟ قال: «**في الجنة**»، فقاتل حتى قتل، فأتاه النبي ﷺ فقال: «**قد بيض اللَّه وجهك، وطيب ريحك، وأكثر مالك**»، وقال لهذا أو لغيره: «**لقد رأيت زوجته من الحور العين نازعته جبة له من صوف تدخل بينه وبين جبته**»[(٤)].

❋ عن ابن مسعود: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**عجب ربنا ﷻ من رجلين: رجل**

---

(١) أخرجه: النسائي (٤/ ٤٠٤-٤٠٥/ ٢٠٥٢). وصحح إسناده الشيخ الألباني في أحكام الجنائز (ص: ٥٠).

(٢) الروح (ص ٨١).

(٣) التذكرة للقرطبي (٢٩٤).

(٤) أخرجه: الحاكم (٢/ ٩٣-٩٤) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. انظر صحيح الترغيب (٢/ ١٤٣-١٤٤).

ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحيه إلى صلاته، فيقول ربنا: أيا ملائكتي! انظروا إلى عبدي، ثار من فراشه ووطائه، ومن بين حيه وأهله إلى صلاته، رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي، ورجل غزا في سبيل اللَّه ﷻ فانهزموا، فعلم ما عليه من الفرار وما له في الرجوع، فرجع حتى أهريق دمه، رغبة فيما عندي وشفقة مما عندي، فيقول اللَّه ﷻ لملائكته: انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي ورهبة مما عندي حتى أهريق دمه»[1].

★ **غريب الحديث:**

وطائه: أي: مهاده وفراشه الوطيء؛ ضد الغطاء.

ولحافه: أي: غطائه، وكل شيء تغطيت به فقد التحفت به.

أهريق: من أهراق يهريق إهراقة فهو مهريق والشيء مهراقًا؛ أي: مصبوب.

★ **فوائد الحديث:**

«فيه: أن نية المقاتل في الجهاد طمعًا في الثواب وخوف العقاب على الفرار معتبرة؛ لأنه علل الرجوع للرغبة وللإشفاق»[2].

* عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من طلب الشهادة صادقًا أعطيها ولو لم تصبه**»[3].

* عن سهل بن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه عن جده أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من سأل الشهادة بصدق بلغه اللَّه منازل الشهداء وإن مات على فراشه**»[4].

★ **فوائد الحديثين:**

قال خطاب السبكي: «قوله «**من سأل اللَّه الشهادة صادقة..**» أي: من طلب من اللَّه بإخلاص أن يموت شهيدًا لا لمجرد الرغبة في فضل الشهادة من غير أن يرضى

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤١٦) واللفظ له، وأبو داود (٣/ ٤٢-٤٣/ ٢٥٣٦)، والحاكم (٢/ ١١٢) وقال: «هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وابن حبان: الإحسان (٦/ ٢٩٧-٢٩٨/ ٢٥٥٧).

(٢) فيض القدير (٤/ ٣٠٣).

(٣) أخرجه: مسلم (٣/ ١٥١٧/ ١٩٠٨).

(٤) أخرجه: مسلم (٣/ ١٥١٧/ ١٩٠٩)، وأبو داود (٢/ ١٧٩-١٨٠/ ١٥٢٠)، والترمذي (٤/ ١٥٧/ ١٦٥٣)، والنسائي (٦/ ٣٤٤/ ٣١٦٢)، وفي الكبرى (٣/ ٢٥/ ٤٣٧٠)، وابن ماجه (٢/ ٩٣٥/ ٢٧٩٧).

بالجهاد إن وقع، بلغه اللَّه منازل الشهداء؛ أي: أوصله اللَّه إلى درجات المجاهدين في سبيل اللَّه، وإن مات على فراشه ولم يقتل في سبيل اللَّه. وفي الحديث دلالة على أن المرء يثاب على نية العمل كما يثاب على الفعل. وهذا تفضل من اللَّه ورحمة»[١].

وقال السندي: «قوله: «**الشهادة بصدق**» أي: لمجرد الرغبة في فضل الشهداء من غير أن يرضى بحصولها إن حصلت، وسؤال الشهادة مرجعه سؤال الموت الذي لا محالة واقع على أحسن حال وهو فناء النفس في سبيل اللَّه، وتحصيل رضاه، وهو محبوب من هذه الجهة، فيجوز أن يسأل ولا يضر ما يلزمه من معصية الكافر، وفرحة الأعداء، وحزن الأولياء فيتأمل. «**وإن مات على فراشه**»؛ أي: يقتل في سبيل الله»[٢].

«فيه: استحباب سؤال الشهادة واستحباب نية الخير»[٣].

«وفيه: قيد السؤال بالصدق لأنه معيار الأعمال ومفتاح بركاتها، وبه ترجى ثمراتها. «**بلغه اللَّه منازل الشهداء**» مجازاة له على صدق الطلب. وفي قوله «**منازل الشهداء**» بصيغة الجمع مبالغة ظاهرة. «**وإن مات على فراشه**»: لأن كلًّا منهما نوى خيرًا، وفعل ما يقدر عليه، فاستويا في أصل الأجر ولا يلزم من استوائهما فيه من هذه الجهة استواؤهما في كيفيته وتفاصيله، إذ الأجر على العمل ونيته يزيد على مجرد النية، فمن نوى الحج ولا مال له يحج به يثاب دون ثواب من باشر أعماله ولا ريب أن الحاصل للمقتول من ثواب الشهادة تزيد كيفيته وصفاته على الحاصل للناوي الميت على فراشه، وإن بلغ منزلة الشهيد فهما وإن استويا في الأجر لكن الأعمال التي قام بها العامل تقتضي أثرًا زائدًا وقربًا خاصًّا، وهو فضل اللَّه يؤتيه من يشاء»[٤].

* * *

---

(١) المنهل العذب (٨/ ١٨٣).

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي (٦/ ٣٤٤).

(٣) النووي (١٣/ ٤٨).

(٤) فيض القدير (٦/ ١٤٤).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أحسنوا: من الإحسان، وهو على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان. والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علما حسنًا، أو عمل عملا حسنا.

جمعوا لكم: أي جمعوا جنودهم، وقيل: جمعوا آراءهم في التدبير عليكم. وهو من الجمع وهو ضم الشيء بتقريب بعضه من بعض.

حسبنا الله: أي: كافينا اللَّه.

الوكيل: هو المقيم الكفيل بأرزاق العباد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المستجيبين لله والرسول من بعد ما أصابهم الجراح والكلوم؛ وإنما عنى اللَّه -تعالى ذكره- بذلك: الذين تبعوا رسول اللَّه ﷺ إلى حمراء الأسد في طلب العدو أبي سفيان ومن كان معه من مشركي قريش منصرفهم عن أحد، وذلك أن أبا سفيان لما انصرف عن أحد خرج رسول اللَّه ﷺ في أثره حتى بلغ حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة، ليرى الناس أن به وأصحابه قوة على عدوهم»[1].

(١) جامع البيان (٧/ ٣٩٩ شاكر).

وقال: «يعني -تعالى ذكره-: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع خفض مردود على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذه الصفة من صفة الذين استجابوا للَّه والرسول، و﴿ٱلنَّاسُ﴾ الأول هم قوم فيما ذكر لنا، كان أبو سفيان سألهم أن يثبطوا رسول اللَّه ﷺ وأصحابه الذين خرجوا في طلبه بعد منصرفه عن أحد إلى حمراء الأسد. و﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثاني: هم أبو سفيان وأصحابه من قريش الذين كانوا معه بأحد. ويعني بقوله: ﴿قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾ قد جمعوا الرجال للقائكم، والكرة إليكم لحربكم. ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾ يقول: فاحذروهم واتقوا لقاءهم، فإنه لا طاقة لكم بهم. ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ يقول: فزادهم ذلك من تخويف من خوفهم أمر أبي سفيان وأصحابه من المشركين يقينًا إلى يقينهم وتصديقًا لله ولوعده ووعد رسوله إلى تصديقهم، ولم يثنهم ذلك عن وجههم الذي أمرهم رسول اللَّه ﷺ بالسير فيه، ولكن ساروا حتى بلغوا رضوان اللَّه منه، ﴿وَقَالُواْ﴾ ثقة باللَّه، وتوكلًا عليه، إذ خوفهم من خوفهم أبا سفيان وأصحابه من المشركين: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ يعني بقوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ كفانا اللَّه؛ يعني: يكفينا اللَّه ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ يقول: ونعم المولى لمن وليه وكفله، وإنما وصف تعالى نفسه بذلك لأن الوكيل في كلام العرب هو المسند إليه القيام بأمر من أسند إليه القيام بأمره، فلما كان القوم الذين وصفهم اللَّه بما وصفهم به في هذه الآيات قد كانوا فوضوا أمرهم إلى اللَّه، ووثقوا به، وأسندوا ذلك إليه، وصف نفسه بقيامه لهم بذلك، وتفويضهم أمرهم إليه بالوكالة، فقال: ونعم الوكيل اللَّه تعالى لهم»[(١)].

قال الرازي: «في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وجوه: الأول: ﴿أَحْسَنُواْ﴾ دخل تحته الائتمار بجميع المأمورات، وقوله: ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾ دخل تحته الانتهاء عن جميع المنهيات، والمكلف عند هذين الأمرين يستحق الثواب العظيم. الثاني: أحسنوا في طاعة الرسول في ذلك الوقت، واتقوا اللَّه في التخلف عن الرسول، وذلك يدل على أنه يلزمهم الاستجابة للرسول، وإن بلغ الأمر بهم في الجراحات ما بلغ من بعد أن يتمكنوا معه من النهوض. الثالث: أحسنوا: فيما أتوا به من طاعة الرسول ﷺ، واتقوا ارتكاب شيء من المنهيات بعد ذلك»[(٢)].

---

(١) جامع البيان (٧/ ٤٠٤-٤٠٥ شاكر).

(٢) تفسير الرازي (٩/ ١٠١-١٠٢).

وقال: «هذه الواقعة تدل دلالة ظاهرة على أن الكل بقضاء اللَّه وقدره، وذلك لأن المسلمين كانوا قد انهزموا من المشركين يوم أحد، والعادة جارية بأنه إذا انهزم أحد الخصمين عن الآخر فانه يحصل في قلب الغالب قوة وشدة استيلاء، وفي قلب المغلوب انكسار وضعف، ثم إنه سبحانه قلب القضية ههنا، فأودع قلوب الغالبين وهم المشركون الخوف والرعب، وأودع قلوب المغلوبين القوة والحمية والصلابة، وذلك يدل على أن الدواعي والصوارف من اللَّه تعالى، وإنها متى حدثت في القلوب وقعت الأفعال على وفقها»(١).

قال السعدي: «لما رجع النبي ﷺ من أحد إلى المدينة ندب أصحابه إلى الخروج فخرجوا -على ما بهم من الجراح- استجابة لله ولرسوله، فوصلوا إلى حمراء الأسد، وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ وهموا باستئصالكم تخويفًا لهم وترهيبًا، فلم يزدهم ذلك إلا إيمانا باللَّه، واتكالًا عليه. ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافينا كل ما أهمنا ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم. ﴿فَٱنقَلَبُوا۟﴾؛ أي: رجعوا. ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ وجاء الخبر المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم من تخلف منهم فألقى اللَّه الرعب في قلوبهم واستمروا راجعين إلى مكة. ورجع المؤمنون بنعمة من اللَّه وفضل حيث من عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والاتكال على ربهم. ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة. فسبب إحسانهم بطاعة ربهم وتقواهم عن معصيته لهم أجر عظيم»(٢).

قال الشوكاني: «المعنى: أنهم لم يفشلوا لما سمعوا ذلك، ولا التفتوا إليه، بل أخلصوا لله، وازدادوا طمأنينة ويقينًا. وفيه: دليل على أن الإيمان يزيد وينقص»(٣).

تراجع مسألة زيادة الإيمان ونقصانه في أوائل سورة الأنفال.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية، وقصة حمراء الأسد

* عن ابن عباس قال: لما انصرف المشركون عند أحد وبلغوا الروحاء، قالوا:

---

(١) تفسير الرازي (٩/ ١٠٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٥٦-٤٥٧).
(٣) فتح القدير (١/ ٥٩٥).

لا محمدا قتلتموه ولا الكواعب أردفتم، وبئسما صنعتم ارجعوا. فبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ، فندب الناس فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد، وبئر أبي عتيبة، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾. . الآية. وقد كان أبو سفيان قال للنبي ﷺ: موعدك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا، فأما الجبان فرجع، وأما الشجاع فأخذ أهبة القتال والتجارة، فلم يجدوا به أحدًا وتسوقوا، فأنزل اللَّه ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾. . الآية[(١)].

* عن عائشة ﵂: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ قالت لعروة: يا بن أختي كان أبواك منهم الزبير وأبو بكر. لما أصاب رسول اللَّه ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا قال: «**من يذهب في أثرهم؟**» فانتدب منهم سبعون رجلًا. قال: كان فيهم أبو بكر والزبير[(٢)].

* عن ابن عباس: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم ﵇ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾[(٣)].

* عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «**كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنا جبهته وأصغى سمعه، ينظر متى يؤمر**». قال المسلمون: يا رسول اللَّه فما نقول؟ قال: «**قولوا: حسبنا اللَّه ونعم الوكيل، على اللَّه توكلنا**»[(٤)].

★ غريب الأحاديث:

الكواعب: جمع كاعب من كعبت الجارية، نهد ثديها وبرز.

---

(١) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٣١٧/ ١١٠٨٣)، والطبراني (١١/ ٢٤٧/ ١١٦٣٢). وصحح إسناده السيوطي في لباب النقول. وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٢٤) وقال بعد عزوه للطبراني: «ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز وهو ثقة». وذكره الحافظ في الفتح (٨/ ٢٨٩) وقال بعد عزوه للنسائي وابن مردويه: «ورجاله رجال الصحيح، إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة ليس فيه ابن عباس ومن الطريق المرسلة أخرجه ابن أبي حاتم وغيره».

(٢) البخاري (٧/ ٤٧٥/ ٤٠٧٧)، ومسلم (٤/ ١٨٨٠-١٨٨١/ ٢٤١٨ (٥١-٥٢»، وابن ماجه (١/ ٤٦/ ١٢٤).

(٣) البخاري (٨/ ٢٨٩/ ٤٥٦٣)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٦/ ١١٠٨١).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٧)، والترمذي (٤/ ٥٣٦/ ٢٤٣١) وقال: حديث حسن، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٨/ ٤٢٧٣) وصححه ابن حبان: الإحسان (٣/ ١٠٥/ ٨٢٣).

أهبة: الأهبة: العدة جمع أهب.

أنعم: من النعمة بفتح النون، وهي المسرة والفرح والترفه.

القرن: الصور الذي ينفخ فيه.

★ **فوائد الأحاديث:**

قال الشيخ العثيمين: «هذا في نص القرآن لما انصرف أبو سفيان من أحد، أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ وأصحابه ليقضي عليهم بزعمه، فلقي ركبا فقال لهم: إلى أين تذهبون؟ قالوا: نذهب إلى المدينة. فقال: بلغوا محمدا وأصحابه أنا راجعون إليه فقاضون عليهم. فجاء الركب إلى المدينة، فبلغوهم. فقال رسول اللّه ﷺ ومن معه: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾. وخرجوا في نحو سبعين راكبًا، حتى بلغوا حمراء الأسد، ثم إن أبا سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة، وهذا من كفاية اللّه لرسوله وللمؤمنين؛ حيث اعتمدوا عليه تعالى»[١].

وقال الشيخ سليمان بن عبد اللّه آل الشيخ: «ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم ومحمد -عليهما الصلاة والسلام- في الشدائد وأن القيام بالأسباب مع التوكل على اللّه لا يتنافيان، بل يجب على العبد القيام بهما، كما فعل الخليلان -عليهما الصلاة والسلام-. وفي الآية دليل على أن الإيمان يزيد وينقص. قال مجاهد: في ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ قال: الإيمان يزيد وينقص، وعلى أن ما يكرهه الإنسان قد يكون خيرًا له، وأن التوكل أعظم الأسباب في حصول الخير، ودفع الشر في الدنيا والآخرة»[٢].

قال ابن هبيرة: «من قال بلسانه: حسبي اللّه، فينبغي أن يوقن بذلك الذي نطق به، فإن اضطربت نفسه في ذلك فقال: إذن ونعم الوكيل. وقد اتفق على هذه الكلمة نبيان عظيمان: محمد الحبيب وإبراهيم الخليل -صلى اللّه عليهما-.

ويعني بالوكيل أنه كما يغيب عنه العبد فإن اللّه سبحانه شاهده، فمن اتخذ ربه وكيلا كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[٣]، فإن من شرط هذا الاتخاذ أنه إذا قضى

---

(١) شرح كتاب التوحيد ضمن مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٧٤-٦٧٥).

(٢) تيسير العزيز الحميد (٥١٨) باختصار.

(٣) سورة المزمل: الآية (٩).

لعبده قضاء يكون راضيًا بالقضاء في تلك الوكالة، محسنا ظنا غير مسيء له؛ فإن اللَّه تعالى لا يختار له إذا اتخذه وكيلًا إلا الأفضل والأجود، لاسيما وقد جربت أيها الإنسان كيف يتنكب القدر اختياراتك الدنية، وأبدلك بها الأمور العلية، غير راض أن يجعل إحسانه إليك تبعًا لسوء اختيارك»[1].

* * *

(١) الإفصاح (٣/ ٢١٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -تعالى ذكره-: إنما الذي قال لكم أيها المؤمنون: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟﴾ فخوفوكم بجموع عدوكم، ومسيرهم إليكم، من فعل الشيطان ألقاه على أفواه من قال ذلك لكم، يخوفكم بأوليائه من المشركين أبي سفيان وأصحابه من قريش، لترهبوهم، وتجبنوا عنهم»[(١)].

قال ابن كثير: «أي: يخوفكم أولياءه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة، قال اللَّه تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا علي والجأوا إلي، فأنا كافيكم وناصركم عليهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[(٢)] إلى قوله: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[(٤)] وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[(٥)] وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[(٦)] وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[(٧)] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[(٨)] الآية وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾[(٩)]»[(١٠)].

قال ابن القيم: «من كيد عدو اللَّه تعالى: أنه يخوف المؤمنين من جنده

---

(١) جامع البيان (٧/ ٤١٦ شاكر).
(٢) الزمر: الآية (٣٦).
(٣) الزمر الآيات (٣٦-٣٨).
(٤) النساء: الآية (٧٦).
(٥) المجادلة: الآية (١٩).
(٦) المجادلة: الآية (٢١).
(٧) الحج: الآية (٤٠).
(٨) محمد: الآية (٧).
(٩) غافر: الآيتان (٥١-٥٢).
(١٠) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٩).

وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر؛ وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان، وقد أخبرنا اللَّه تعالى سبحانه عنه بهذا فقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ المعنى عند جميع المفسرين: يخوفكم بأوليائه. قال قتادة: يعظمهم في صدوركم، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم»[١].

قال شيخ الإسلام: «فالآية دلت على أن الشيطان يجعل أولياءه مخوفين، ويجعل ناسا خائفين منهم. ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان، ولا يخاف الناس كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[٢]؛ بل يجب عليه أن يخاف اللَّه، فخوف اللَّه أمر به، وخوف الشيطان وأوليائه نهى عنه، وقال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾[٣] فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته، والذين يبلغون رسالات اللَّه يخشونه ولا يخشون أحدا إلا اللَّه. وقال: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[٤].

وبعض الناس يقول: يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك، وهذا كلام ساقط لا يجوز؛ بل على العبد أن يخاف اللَّه وحده، ولا يخاف أحدًا لا من يخاف اللَّه ولا من لا يخاف اللَّه، فإن من لا يخاف اللَّه أخس وأذل أن يخاف، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى اللَّه عنه، واللَّه أعلم»[٥].

قال السعدي: «في هذه الآية وجوب الخوف من اللَّه وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد، يكون خوفه من اللَّه، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله»[٦].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٧٦).
(٢) المائدة: الآية (٤٤).
(٣) البقرة: الآية (١٥٠).
(٤) النحل: الآية (٥١).
(٥) الفتاوى (١٤/ ٢٠٦).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه-: ولا يحزنك يا محمد كفر الذين يسارعون في الكفر مرتدين على أعقابهم من أهل النفاق فإنهم لن يضروا اللَّه بمسارعتهم في الكفر شيئًا وكما أن مسارعتهم لو سارعوا إلى الإيمان لم تكن بنافعته كذلك مسارعتهم إلى الكفر غير ضارته»[1].

وقال: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: يريد اللَّه أن لا يجعل لهؤلاء الذين يسارعون في الكفر نصيبا في ثواب الآخرة فلذلك خذلهم فسارعوا فيه ثم أخبر أنهم مع حرمانهم ما حرموا من ثواب الآخرة لهم عذاب عظيم في الآخرة وذلك عذاب النار»[2].

وقال السعدي: «كان النبي ﷺ حريصًا على الخلق، مجتهدا في هدايتهم. وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾ من شدة رغبتهم فيه وحرصهم عليه ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾. فاللَّه ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم. إنما يضرون، ويسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الأخرى، من هوانهم على اللَّه، وسقوطهم من عينه، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة من ثوابه، خذلهم فلم يوفقهم، لما وفق إليه أولياءه، من أراد به خيرًا، عدلًا منه وحكمة، لعلمه بأنهم غير زاكين على الهدى، ولا قابلين للرشاد، لفساد أخلاقهم وسوء قصدهم»[3].

(١) جامع البيان (٧/ ٤١٨ شاكر).
(٢) جامع البيان (٧/ ٤١٩ شاكر).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٥٨).

وقال ابن عاشور: «نهي للرسول عن أن يحزن من فعل قوم يحرصون على الكفر أي على أعماله، ومعنى ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ﴾ يتوغّلون فيه ويَعجَلون إلى إظهاره وتأييده والعمل به عند سنوح الفرص، ويحرصون على إلقائه في نفوس الناس، فعبّر عن هذا المعنى بقوله: ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾، فقيل: ذلك من التضمين ضمّن يسارعون معنى يقعون، فعدّي بفي، وهي طريقة «الكشاف» وشروحه، وعندي أنّ هذا استعارة تمثيلية: شبّه حال حرصهم وجدّهم في تكفير الناس وإدخال الشكّ على المؤمنين وتربّصهم الدوائر وانتهازهم الفرص بحال الطالب المسارع إلى تحصيل شيء يخشى أن يَفوته وهو متوغّل فيه متلبس به، فلذلك عدّي بـ«في» الدالة على سرعتهم سرعة طالب التمكين، لا طالب الحصول، إذ هو حاصل عندهم ولو عدّي بـ«إلى» لفهم منه أنّهم لم يكفروا عند المسارعة. قيل: هؤلاء هم المنافقون، وقيل: قوم أسلموا ثم خافوا من المشركين فارتدّوا.

وجملة ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ تعليل للنهي عن أن يحزنه تسارعهم إلى الكفر بعلّة يوقن بها الرسول -عليه الصلاة والسلام-. وموقع (إنّ) في مثل هذا المقام إفادة التعليل، و(إنّ) تُغني غناء (فاء) التسبّب، كما تقدّم غير مرّة.

ونفي ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ مراد به نفي أن يعطّلوا ما أراده إذ قد كان اللَّه وعد الرسول إظهار دينه على الدّين كلّه، وكان سعي المنافقين في تعطيل ذلك، نهى اللَّه رسوله أن يحزن لما يبدو له من اشتداد المنافقين في معاكسة الدعوة، وبيّن له أنّهم لن يستطيعوا إبطال مراد اللَّه، تذكيرًا له بأنه وعده بأنّه متمّ نوره.

ووجه الحاجة إلى هذا النهي: هو أنّ نفس الرسول وإن بلغت مرتقى الكمال، لا تعدو أن تعتريها في بعض أوقات الشدّة أحوال النفوس البشرية: من تأثير مظاهر الأسباب، وتوقّع حصول المسبّبات العادية عندها، كما وقع للرسول ﷺ يوم بدر. وهو في العريش، وإذا انتفى إضرارهم اللَّه انتفى إضرارهم المؤمنين فيما وعدهم اللَّه.. وجملة ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ استئناف لبيان جزائهم على كفرهم في الآخرة، بعد أن بيّن السلامة من كيدهم في الدنيا والمعنى: أنّ اللَّه خذلهم وسلبهم التوفيق فكانوا مسارعين في الكفر؛ لأنّه أراد أن لا يكون لهم حظّ في الآخرة»(١).

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٧٢-١٧٣).

وقال محمد رشيد رضا: «لما كان ما كان من فوز المشركين في أحد، وما أصاب النبي ﷺ ومَن معه من المؤمنين أظهر بعض المنافقين كفرهم، وقالوا: لو كان محمد نبيا ما قتل و غير ذلك مما سبق نقل بعضه. وما سارع هؤلاء في إظهار ما يسرون من الكفر وتثبيط المؤمنين عن نصر الإيمان إلا لظنهم أن المسلمين قد قضي عليهم، وقد كان هذا مما يحزن النبي ﷺ فكان من تسلية التنزيل له في هذا السياق قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ﴾ كما كان يسليه عما يحزنه من إعراض الكافرين عن الإيمان أو طعنهم في القرآن، أو في شخصه -عليه الصلاة والسلام-، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ﴾ وقوله ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[1] وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾[2] أو المراد من السياق تسليته ﷺ عما ساءه وحزنه من اهتمام المشركين بنصرة شركهم ومعاودتهم للقتال بعد أحد في حمراء الأسد أو بدر الصغرى لولا خذلان اللَّه لهم. وقد روي القول بتفسير الذين يسارعون في الكفر بالمنافقين عن مجاهد، وكذا قال في الذين اشتروا الكفر بالإيمان في الآية التالية لهذه الآية، وقيل: هم المرتدون خاصة. وروي عن الحسن أن الذين يسارعون في الكفر هم الكفار. قالوا: المسارعة فيه هي الوقوع فيه سريعًا.

وقال الأستاذ الإمام: المسارعة في الكفر هي المسارعة في نصرته والاهتمام بشؤونه والإيجاف في مقاومة المؤمنين، وما كل كافر يسارع في الكفر، فإن من الكافرين القاعد الذي لا يتحرك لنصرة كفره ولا لمقاومة المخالف له فيه. والمسارعون المعنيون هنا هم أولئك النفر من المشركين كأبي سفيان ومن كان معه من صناديد قريش، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بهم المنافقون، ورووا في ذلك روايات في سبب النزول. وإنما يأتي هذا لو قال: (يسارعون إلى الكفر).

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ أي: إنهم لا يحاربونك فيضروك بذلك، وإنما يحاربون اللَّه تعالى، ولا شك في ضعف قوتهم وعجزها عن مناوئة قوته ﷻ، فهم لا يضرون بذلك إلا أنفسهم.

أقول: وقد بين هذا بقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ﴾ أي: إنهم

(١) الكهف: الآية (٦). (٢) فاطر: الآية (٨).

على حالة من فساد الفطرة تقتضي حرمانهم من نعيم الآخرة بسنة اللَّه وإرادته فلا نصيب لهم فيها. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فوق عذاب الحرمان من نعيمها، ولم يقيد هذا العذاب بكونه في الآخرة فهو أعم كما هو ثابت وقوعًا ونقلًا بمثل قوله تعالى في المنافقين: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾[1] فقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ تعليل للنهي عن الحزن، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾ الخ بيان لكونهم يضرون أنفسهم ولا يضرونه تعالى»[2].

قلت: ما ذكره اللَّه تعالى في هذه الآية، وما بينه المفسرون في هذه الطائفة، من المنافقين وأضرابهم؛ هو الواقع في كل زمان ومكان، فيحاربون الإسلام والمسلمين بكل الوسائل الممكنة، فيلقون فيهم الشبه، وينقلون إليهم الأخبار الكاذبة ويخوفونهم بالتمسك بالإسلام، وأن فيه ما فيه من الأضرار، ويشوهون التوحيد والسنة بكل أنواع التشويهات، ويحاولون أن يظهروا للناس أنهم من الناصحين، وينقلون لهم في وسائلهم الإعلامية وصفحات جرائدهم وكتبهم وخطاباتهم كل ما يضاد التوحيد والسنة، وفي هذه الآونة الأخيرة ينقلون كل مظاهر الشرك والبدع في الزوايا، وطوائف المخرفين والمنحرفين في التوحيد والسنة، وينقلون أفعال الجهلة من الرافضة والصوفية في الزوايا والحسينيات في البلاد التي يطغى عليها الرافضة المشركون، ويظهرون للناس من الأفعال المشينة من رقص وضرب للصدور وصياح، وكل أنواع وأصناف المظاهر الشركية والبدعية، فيحاولون إقناع الناس بأن هذا هو الإسلام، ويحذرونهم من التوحيد والسنة، فما أشبه اليوم بالبارحة!

وقال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: المنافقين الذين تقدم إلى نبيه ﷺ فيهم، أن لا يحزنه مسارعتهم إلى الكفر، فقال لنبيه ﷺ: إن هؤلاء الذين ابتاعوا الكفر بإيمانهم فارتدوا عن إيمانهم بعد دخولهم فيه، ورضوا بالكفر باللَّه وبرسوله عوضا من الإيمان لن يضروا اللَّه بكفرهم وارتدادهم عن إيمانهم شيئًا؛ بل إنما يضرون بذلك أنفسهم بإيجابهم بذلك لها من عقاب اللَّه ما لا قبل لها به»[3].

وقال الرازي: «واعلم أنه تعالى قال في الآية الأولى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾[4] وقال في هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ

(١) التوبة: الآية (١٠١).
(٢) تفسير المنار (٤/ ٢٤٧-٢٤٨)..
(٣) جامع البيان (٧/ ٤١٩-٤٢٠ شاكر).
(٤) آل عمران: الآية (١٧٦).

﴿بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ والفائدة في هذا التكرار أمور: أحدها: أن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لا شك أنهم كانوا كافرين أولًا، ثم آمنوا ثم كفروا بعد ذلك، وهذا يدل على شدة الاضطراب، وضعف الرأي، وقلة الثبات، ومثل هذا الإنسان لا خوف منه ولا هيبة له ولا قدرة له البتة على إلحاق الضرر بالغير. وثانيها: أن أمر الدين أهم الأمور وأعظمها، ومثل هذا مما لا يقدم الإنسان فيه على الفعل أو على الترك إلا بعد إمعان النظر وكثرة الفكر، وهؤلاء يقدمون على الفعل أو على الترك في مثل هذا المهم العظيم بأهون الأسباب وأضعف الموجبات، وذلك يدل على قلة عقلهم وشدة حماقتهم، فأمثال هؤلاء لا يلتفت العاقل إليهم. وثالثها: أن أكثرهم إنما ينازعونك في الدين، لا بناء على الشبهات، بل بناء على الحسد والمنازعة في منصب الدنيا، ومن كان عقله هذا القدر، وهو أنه يبيع بالقليل من الدنيا السعادة العظيمة في الآخرة كان في غاية الحماقة، ومثله لا يقدر في إلحاق الضرر بالغير، فهذا هو الفائدة في إعادة هذه الآية، والله أعلم بمراده»[1].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قالوا: إن الآية تكرير للتأكيد، وتعميم للكفرة بعد تخصيص من نافق من المتخلفين عن القتال أو المرتدين من الأعراب. وقال الأستاذ الإمام: أعاد المعنى وعممه وأكده بهذه الآية وهو في بادي الرأي تكرار ليس فيه زيادة فائدة، ومن فقه الآيتين علم أن تلك في المسارعين في الكفر، وهذه في الذين اشتروا الكفر بالإيمان أي اختاروه ورضوا به كما يرضى المشتري بالسلعة بدلا من الثمن، ويراها بعد بذله فيها متاعا ينتفع به؛ بل الشأن في المشتري أن يرى ما أخذه أنفع له مما بذله، فهذا الوصف أعم من الأول، كأنه يقول: إن أولئك الكفار الذين تراهم يسارعون في نصرة الكفر وتعزيزه والدفاع دونه ومقاومة المؤمنين لأجل لا شأن لهم ولا يستحقون أن تهتم بأمرهم، فإنهم إنما يحاربون الله ويغالبونه والله غالب على أمره، فلا يقدر أحد على ضره، ثم لا ينبغي أن تحزن عليهم أيضًا؛ لأنهم محرومون من رضوان الله، فلما بين هذا كان مما يمكن أن يخطر في البال أنه حكم خاص بالذين يسارعون في الكفر فبين في هذه الآية أنه عام يشمل كل من آثر الكفر على

(١) تفسير الرازي (٩/ ١٠٩-١١٠).

الإيمان فاستبدله به، ففي إعادة العبارة بهذا الأسلوب فائدتان:

إحداهما: أن فيها قسما من الكافرين لم يذكروا في الآية الأولى.

الثانية: أن فيها مع تأكيد عدم إضرارهم بالنبي ﷺ بيانًا لحال من أحوالهم يدل على سخافتهم، وضعف عقولهم إذ رضوا بالكفر واختاروه وحسبوه منفعة وفائدة، فكأنه يقول: إن هؤلاء لا قيمة لهم فيخاف منهم أو يحزن عليهم»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من أن الله لا يتضرر بمعصية العباد، ولا ينتفع بطاعتهم

* عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما روى عن الله -تبارك وتعالى- أنه قال: **«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»**[٢].

★ فوائد الحديث:

قال ابن رجب: «وقوله: «يا عبادي، إنَّكم لن تبلُغوا ضَرِّي فتضرُّوني، ولن

(١) تفسير المنار (٤/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٤)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٤٩٠)، ومسلم (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥/ ٢٥٧٧)، والترمذي (٤/ ٥٦٦-٥٦٧/ ٢٤٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٢٢/ ٢٢٥٧).

تبلغوا نفعي فتنفعوني»؛ يعني: أنَّ العباد لا يَقدِرُونَ أنْ يُوصِلُوا إلى اللَّه نفعًا ولا ضرًّا، فإنَّ اللَّه تعالى في نفسه غنيٌّ حميدٌ، لا حاجةَ له بطاعات العباد، ولا يعودُ نفعُها إليه، وإنَّما هُم ينتفعون بها، ولا يتضرَّرُ بمعاصيهم، وإنَّما هم يتضررون بها، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾[1]. وقال: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾[2]، وكان النَّبيُّ ﷺ يقول في خطبته: «**ومَنْ يعصِ اللَّه ورسولَه فقد غوى، ولا يضرُّ إلا نفسه ولا يضرُّ اللَّه شيئًا**»[3]. قال اللَّه ﷻ: ﴿وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾[4]، وقال حاكيًا عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾[5]، وقال: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[6]، وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[7]. والمعنى: أنَّه تعالى يُحبُّ من عباده أنْ يتَّقوهُ ويُطيعوه، كما أنَّه يكره منهم أنْ يَعْصوه، ولهذا يفرح بتوبة التائبين أشدَّ من فرح من ضَلَّتْ راحلته التي عليها طعامُه وشرابُه بفلاةٍ مِنَ الأرض، وطلبها حتى أعيى وأيِسَ منها، واستسلم للموت، وأيس من الحياة، ثم غلبته عينُه فنام، فاستيقظ وهي قائمةٌ عنده، وهذا أعلى ما يتصوره المخلوقُ من الفرح، هذا كلُّه مع غناه عن طاعات عباده وتوباتهم إليه، وإنَّه إنَّما يعودُ نفعُهَا إليهم دونه، ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده، ومحبته لنفعهم، ودفع الضَّرر عنهم، فهو يُحِبُّ من عباده أنْ يعرفوه، ويحبُّوه، ويخافوه، ويتَّقوه، ويطيعوه، ويتقرَّبوا إليه، ويُحِبُّ أنْ يعلموا أنَّه لا يغفر الذنوب غيره، وأنَّه قادرٌ على مغفرة ذنوب عباده»[8].

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٧٦). (٢) آل عمران: الآية (١٤٤).
(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٥٦)، ومسلم (٢/ ٥٩٤/ ٨٧٠)، وأبو داود (١/ ٦٦٠/ ١٠٩٩)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٣٢٢/ ٥٥٣٠) من حديث عدي بن حاتم ﷺ.
(٤) النساء: الآية (١٣١). (٥) إبراهيم: الآية (٨).
(٦) آل عمران: الآية (٩٧). (٧) الحج: الآية (٣٧).
(٨) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٣-٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

★ **غريب الآية:**

نملي: نمهل، ونمد في العمر.

مهين: من الهون، والهوان وهو الخزي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «معنى هذه الآية الرد على الكفار في قولهم: إن كوننا ظاهرين ممولين أصحة دليل على رضى اللَّه بحالنا، واستقامة طريقتنا عنده، فأخبر أن ذلك التأخير والإهمال إنما هو إملاء واستدراج ليكتسبوا الآثام»[١].

قال الشنقيطي: «ذكر في هذه الآية الكريمة أنه يملي للكافرين، ويمهلهم لزيادة الإثم عليهم وشدة العذاب. وبيّن في موضع آخر أنه لا يمهلهم متنعمين هذا الإمهال إلا بعد أن يبتليهم بالبأساء والضراء، فإذا لم يتضرعوا أفاض عليهم النعم وأمهلهم حتى يأخذهم بغتة، كقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٣]. وبيّن في موضع آخر: أن ذلك الاستدراج من كيده المتين، وهو قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾[٤]. وبيّن في موضع آخر: أن الكفار يغترون بذلك الاستدراج فيظنون أنه من المسارعة لهم في الخيرات، وأنهم يوم القيامة يؤتون خيرًا من ذلك الذي أوتوه في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا

(١) المحرر الوجيز (١/ ٥٤٦).

(٢) الأعراف: الآيتان (٩٤-٩٥).

(٣) الأنعام: الآيات (٤٢-٤٤).

(٤) القلم: الآيتان (٤٤-٤٥).

﴿نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾[2]، وقوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[3]، وقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[4]، وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[5] الآية»[6].

قال السعدي: «أي: ولا يظن الذين كفروا بربهم، ونابذوا دينه، وحاربوا رسوله أن تركنا إياهم في هذه الدنيا، وعدم استئصالنا لهم، وإملاءنا لهم خير لأنفسهم، ومحبة منا لهم. كلا، ليس الأمر كما زعموا، وإنما ذلك لشر يريده الله بهم، وزيادة في عذاب وعقوبة إلى عذابهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فالله تعالى يملي للظالم، حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر. فليحذر الظالمون من الإمهال، ولا يظنوا أن يفوتوا الكبير المتعال»[7].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استدلال الصحابة رضي الله عنهم بنصوص القرآن في النوازل التي تنزل بهم

* عن ابن مسعود قال: ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ وقرأ هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ﴾[8].

* * *

(١) المؤمنون: الآيتان (٥٥-٥٦).
(٢) مريم: الآية (٧٧).
(٣) الكهف: الآية (٣٦).
(٤) فصلت: الآية (٥٠).
(٥) سبأ: الآية (٣٥).
(٦) أضواء البيان (١/ ٢١٧-٢١٨).
(٧) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٦٠).
(٨) أخرجه: عبد الرزاق في التفسير (١/ ١٤٢)، وابن أبي شيبة (٧/ ١٠٩/ ٣٤٥٧٢)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٥١/ ٨٧٥٩)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٨). وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٠٩) وقال: «رواه الطبراني باسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير يزيد بن أبي زياد وهو حسن الحديث».

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ليذر: ليترك.

يجتبي: يصطفي ويختار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: ما كان اللَّه ليدع المؤمنين ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من التباس المؤمن منكم بالمنافق، فلا يعرف هذا من هذا ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ﴾ يعني بذلك: حتى يميز الخبيث، وهو المنافق المستسر للكفر من الطيب، وهو المؤمن المخلص الصادق الإيمان بالمحن والاختبار، كما ميز بينهم يوم أحد عند لقاء العدو عند خروجهم إليه»[١].

قال ابن كثير: «أي: لابد أن يعقد سببًا من المحنة، يظهر فيه وليه، ويفتضح فيه عدوه. يعرف به المؤمن الصابر والمنافق الفاجر. يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن اللَّه به المؤمنين، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ، وهتك به ستر المنافقين، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد، وخيانتهم لله ولرسوله ﷺ»[٢].

قال ابن القيم: «هذه الآية من كنوز القرآن؛ نبه فيها على حكمته تعالى المقتضية تمييز الخبيث من الطيب، وأن ذلك التمييز لا يقع إلا برسله، فاجتبى منهم من شاء وأرسله إلى عباده، فيتميز برسالتهم الخبيث من الطيب، والولي من العدو ومن

(١) جامع البيان (٧/ ٤٢٤ شاكر).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٥٠).

يصلح لمجاورته وقربه وكرامته ممن لا يصلح إلا للوقود.

وفي هذا تنبيه على الحكمة في إرسال الرسل، وأنه لا بد منه، وأن اللَّه تعالى لا يليق به الإخلال به وأن من جحد رسالة رسله فما قدره حق قدره، ولا عرفه حق معرفته، ونسبه إلى ما لا يليق به؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾[1] فتأمل هذا الموضع حق التأمل، وأعطه حظه من الفكر»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «قال الأستاذ الإمام: كان الكلام مسترسلًا في بيان حال المؤمنين في واقعة أحد وما بعدها وجاء في السياق بيان حال من ظهر نفاقهم وضعفهم وبيان حال المجاهدين والشهداء ومن هم بمنزلة الشهداء، وحال الكفار المهددين للمسلمين، وكون الإملاء لهم واستدراجهم بطول البقاء في الدنيا ليس خيرًا لهم، وقد كانت واقعة أحد أشد واقعة أحس المسلمون عقبها بألم الغلب؛ لأنهم لم يكونوا يتوقعونه بعد رؤية بوادر النصر في بدر، ولأنه ظهر فيه حال المنافقين، وتبين ضعف نفوس بعض المؤمنين الصادقين، ولذلك كانت عناية اللَّه تعالى ببيان فوائد المسلمين فيها عظيمة، ومنها ختمها بهذه الآية الكريمة المبينة لسنة من السنن التي ذكرت في سياق تلك الآيات الحكيمة، والمعنى ما كان من شأن اللَّه تعالى ولا من سنته في عباده أن يذر المؤمنين على مثل الحال التي كان عليها المسلمون عند حدوث غزوة أحد حتى يميز الخبيث من الطيب، وكيف كانوا؟

كانوا يصلون ويمتثلون كل ما يأمرهم به النبي ﷺ، ومنه إرسال السرايا المعتاد مثلها ولم تكن فيها مخاوف كبيرة على الإسلام وأهله، ولذلك كان يختلط فيها الصادق بالمنافق بلا تمييز، إذ التمايز لا يكون إلا بالشدائد، أما الرخاء واليسر وتكليف ما لا مشقة فيه كالصلاة والصدقة القليلة فكان يقبله المنافقون كالصادقين لما فيه من حسن الأحدوثة مع التمتع بمزايا الإسلام وفوائده، وربما خدع الشيطان المؤمن الموقن بترغيبه في الزيادة من أعمال العبادات السهلة، ولاسيما إذا كان داخلًا في دين جديد لما في ذلك من الرياء والسمعة، والاستواء في الظاهر مدعاة

(١) الأنعام: الآية (٩١).

(٢) مفتاح دار السعادة (٢/ ٤٨٨).

الالتباس والاشتباه.

الشدائد تميز بين القوي في الإيمان والضعيف فيه، فهي التي ترفع ضعيف العزيمة إلى مرتبة قويها، وتزيل الالتباس بين الصادقين والمنافقين، وفي ذلك فوائد كبيرة: منها: أن الصادق قد يفضي ببعض أسرار الملة إلى المنافق لما يغلب عليه من حسن الظن والانخداع بأداء المنافق للواجبات الظاهرة، ومشاركته للصادقين في سائر الأعمال، فإذا عرفه اتقى ذلك.

ومنها: أن تعرف الجماعة وزن قوتها الحقيقية؛ لأنها بانكشاف حال المنافقين لها تعرف أنهم عليها لا لها، وبانكشاف حال الضعفاء الذين لم تربهم الشدة تعرف أنهم لا عليها ولا لها.

هذا بعض ما تكشفه الشدة للجماعة من ضرر الالتباس، وأما الأفراد فإنها تكشف لهم حجب الغرور بأنفسهم، فإن المؤمن الصادق قد يغتر بنفسه فلا يدرك ما فيها من الضعف في الاعتقاد والأخلاق؛ لأن هذا مما يخفى مكانه على صاحبه حتى تظهره الشدائد، فلما كان هذا اللبس ضارا بالأفراد والجماعات، ولم يكن من شأن اللّه ولا من حكمته أن يستبقي في عباده ما يضرهم مضت سنته بأن يميز الخبيث من الطيب فتظهر الخفايا وتبلى السرائر حتى يرتفع الالتباس، ويتضح المنهج السوي للناس.

قد يخطر في البال أن أقرب وسيلة لرفع اللبس هي أن يطلع اللّه المؤمنين على الغيب فيعرفوا حقيقة أنفسهم، وحقائق الناس الذي يعيشون معهم، ولكن اللّه تعالى أخبر أن هذا ليس من شأنه ولا من سنته كما أن ترك الالتباس والاشتباه ليس من سنته فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ وإنما لم يكن من شأنه إطلاع الناس على الغيب؛ لأنه لو فعل ذلك لأخرج به الإنسان عن كونه إنسانًا، فإنه تعالى خلق الإنسان نوعًا عاملًا يحصل جميع رغائبه، ويدفع جميع مكارهه بالعمل الكسبي الذي ترشده إليه الفطرة وهدي النبوة، ولذلك جرت سنته بأن يزيل هذا اللبس ويميز بين الخبيث والطيب بالابتلاء بالشدائد وما تتقاضاه من بذل الأموال والأرواح في سبيله التي هي سبيل الحق والخير لا سبيل الهوى، كما ابتلى المؤمنين في واقعة أحد بجيش عظيم، وابتلاهم باختيار الخروج لمحاربته، وابتلى الرماة منهم بالمخالفة وإخلاء ظهور قومهم لعدوهم، ثم ابتلاهم بظهور العدو عليهم جزاء على

ما ذكر حتى ظهر نفاق المنافقين، وزلزال ضعفاء المؤمنين، وثبات كملة الموقنين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يصطفيهم فيطلعهم على ما شاء من الغيب وهو ما في تبليغه للناس مصلحة ومنفعة لهم في الإيمان كصفات اللَّه تعالى واليوم الآخر وبعض شؤونه والملائكة، وهذا هو الغيب الذي أمر المكلفون بالإيمان به ومدحوا عليه في مثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾(١).

أقول: والدليل على كون المراد أن من يجتبيهم من رسله يطلعهم على ما شاء أن يبلغوه لعباده من خبر الغيب هو مثل قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾(٢)، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾(٣) متضمنا للإيمان بما أخبر به رسله من خبر الغيب ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: إن أنتم آمنتم بما جاؤوا به من خبر الغيب وقرنتم بالإيمان تقوى اللَّه تعالى بترك المنهيات وفعل المأمورات بقدر الاستطاعة فلكم أجر عظيم لا يقدر قدره ولا يعرف كنهه.

لزَّ التقوى ههنا مع الإيمان في قرن وترتيب الأجر عليهما معا هو الموافق للآي الكثيرة في الذكر الحكيم، وهي أظهر وأشهر وأكثر من أن ينبه عليها بالشواهد كلما ذكر شيء منها»(٤).

قلت: وهذه الآيات هي امتداد للدروس التي تلقاها أصحاب رسول اللَّه ﷺ في غزوة أحد، وهي دروس قيمة ظاهرها غلبة الكفار على المسلمين، وباطنها استخراج كل ما ينفع المسلمين، ومن أهم الدروس هو تمييز المنافقين، وقد ذكر اللَّه أقوالهم في القرآن في هذه الوقعة، وظهر ضعفاء الإيمان من المسلمين، وظهر أهل الصبر واليقين الذين ثبتهم اللَّه فثبتوا، وما زادهم ذلك إلا إيمانًا ويقينًا.

---

(١) البقرة الآيات (١-٣).

(٢) الجن الآيات (٢٦-٢٨).

(٣) آل عمران: الآية (١٧٩).

(٤) تفسير المنار (٤/ ٢٥٣-٢٥٥).

وهكذا تتكرر هذه الدروس في كل زمان ومكان، وفي زماننا هذا؛ الحرب مشهرة من قبل الكفار والدخلاء من أهل الإسلام، من أبناء العرب الذين تلبسوا بالإسلام، فتجد اسمه محمدًا وأحمد وعمر وخالدًا. . . ومع ذلك تجده يرفع راية الحرب على اللَّه والرسول، وتجد بعض المبتدئين الذين ليس لهم في الدعوة إلا المدة القليلة سرعان ما يتقلبون، والثابت من أهل السنة قليل، والصادق المخلص قليل القليل، فلا شك أن ما حل ببلاد الإسلام في هذه الأيام في مختلف أقاليمه كله من هذا الباب، لكن هناك طائفة مارقة تفعل أفعالًا قبيحةً مشينةً باسم الجهاد، فتعطي الكفار والمنافقين الفرص في الهجوم على الإسلام، وإيقاف الدعوة، وإنزال كل التهم على من يدعو إلى السنة والتوحيد. فنرجو اللَّه أن يثبتنا، ونرجو أن نكون من الذين قال اللَّه فيهم: ﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[1].

* * *

(١) المائدة: الآية (١١٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾(١)

★ **غريب الآية:**

سيطوقون: من الطوق وهو: ما يجعل في العنق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن الآية دالة على ذم البخل بشيء من الخيرات والمنافع، وذلك الخير يحتمل أن يكون مالًا، وأن يكون علما. فالقول الأول: أن هذا الوعيد ورد على البخل بالمال، والمعنى: لا يتوهمن هؤلاء البخلاء أن بخلهم هو خير لهم، بل هو شر لهم، وذلك لأنه يبقى عقاب بخلهم عليهم، وهو المراد من قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ مع أنه لا تبقى تلك الأموال عليهم، وهذا هو المراد بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾. والقول الثاني: أن المراد من هذا البخل: البخل بالعلم؛ وذلك لأن اليهود كانوا يكتمون نعت محمد ﷺ وصفته، فكان ذلك الكتمان بخلًا، يقال فلان يبخل بعلمه، ولا شك أن العلم فضل من الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾(٢)، ثم إنه تعالى علم اليهود والنصارى ما في التوراة والإنجيل، فإذا كتموا ما في هذين الكتابين من البشارة بمبعث محمد ﷺ كان ذلك بخلًا.

واعلم أن القول الأول أولى، ويدل عليه وجهان: الأول: أنه تعالى قال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾، ولو فسرنا الآية بالعلم احتجنا إلى تحمل المجاز في تفسير هذه الآية، ولو فسرناها بالمال لم نحتج إلى المجاز فكان هذا أولى. الثاني: أنا لو حملنا هذه الآية على المال كان ذلك ترغيبًا في بذل المال في الجهاد فحينئذ يحصل

---

(١) الآية (١٨٠).

(٢) النساء: الآية (١١٣).

لهذه الآية مع ما قبلها نظم حسن. ولو حملناها على أن اليهود كتموا ما عرفوه من التوراة انقطع النظم، إلا على سبيل التكلف، فكان الأول أولى»[١].

قال ابن كثير: «أي: لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه؛ بل هو مضرة عليه في دينه وربما كان في دنياه. ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾»[٢].

قال السعدي: «ولا يظن الذين يبخلون؛ أي: يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله من المال والجاه والعلم وغير ذلك، مما منحهم الله وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فبخلوا بذلك، وأمسكوه وضنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم بل هو شر لهم في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وآجلهم. ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾؛ أي: يجعل ما بخلوا به طوقًا في أعناقهم، يعذبون به كما ورد في الحديث الصحيح: «**إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع، له زبيبتان يأخذ بلهزميه يقول: أنا مالك أنا كنزك**» وتلا رسول الله ﷺ مصداق ذلك هذه الآية، فهؤلاء حسبوا أن بخلهم نافعهم ومجد عليهم، فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم، وسبب عقابهم»[٣].

وقال الرازي: «أكثر العلماء على أن البخل عبارة عن منع الواجب، وأن منع التطوع لا يكون بخلًا، واحتجوا عليه بوجوه: أحدها: أن الآية دالة على الوعيد الشديد في البخل، والوعيد لا يليق إلا بالواجب. وثانيها: أنه تعالى ذم البخل وعابه، ومنع التطوع لا يجوز أن يذم فاعله وأن يعاب به. وثالثها: وهو أنه تعالى لا ينفك عن ترك التفضل لأنه لا نهاية لمقدوراته في التفضل، وكل ما يدخل في الوجود فهو متناه، فيكون لا محالة تاركًا التفضل، فلو كان ترك التفضل بخلًا لزم أن يكون الله تعالى موصوفًا بالبخل لا محالة، تعالى الله ﷻ عنه علوًّا كبيرًا. ورابعها: قال -عليه الصلاة والسلام-: «**وأي داء أدوأ من البخل**»[٤] ومعلوم أن

---

(١) تفسير الرازي (٩/ ١١٨). (٢) التفسير (٢/ ١٥١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٦٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٧-٣٠٨)، والبخاري (٦/ ٢٩٢/ ٣١٣٧). وأخرجه مسلم (٤/ ١٨٠٦-١٨٠٧/ ٢٣١٤) دون ذكر موضع الشاهد. من حديث جابر ﷺ.

تارك التطوع لا يليق به هذا الوصف. وخامسها: أنه لو كان تارك التفضل بخيلا لوجب فيمن يملك المال العظيم كله أن لا يتخلص من البخل إلا بإخراج الكل. وسادسها: أنه تعالى قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[١] وكلمة «من» للتبعيض، فكان المراد من هذه الآية: الذين ينفقون بعض ما رزقهم اللَّه، ثم إنه تعالى قال في صفتهم: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٢] فوصفهم بالهدى والفلاح، ولو كان تارك التطوع بخيلًا مذمومًا لما صح ذلك. فثبت بهذه الآية أن البخل عبارة عن ترك الواجب، إلا أن الإنفاق الواجب أقسام كثيرة، منها انفاقه على نفسه وعلى أقاربه الذين يلزمه مؤنتهم، ومنها ما يتصل بأبواب الزكاة، ومنها ما إذا احتاج المسلمون إلى دفع عدو يقصد قتلهم ومالهم، فههنا يجب عليهم إنفاق الأموال على من يدفعه عنهم؛ لأن ذلك يجري مجرى دفع الضرر عن النفس، ومنها إذا صار أحد من المسلمين مضطرا فإنه يجب عليه أن يدفع إليه مقدار ما يستبقي به رمقه، فكل هذه الإنفاقات من الواجبات وتركه من باب البخل، واللَّه أعلم»[٣].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم البخل بالمال والعلم وكل ما فيه منفعة للناس

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من آتاه اللَّه مالًا فلم يؤد زكاته مثل له ماله شجاعًا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة، فيأخذ بلهزمتيه؛ يعني: شدقيه، فيقول: أنا مالك، أنا كنزك. ثم تلا هذه الآية** ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.. الآية»[٤].

* عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: «**من ترك كنزًا مثل له يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان، يتبعه فيقول: أنا كنزك الذي تركته بعدك، فما يزال يتبعه حتى يلقمه يده**

(١) البقرة: الآية (٣). (٢) البقرة: الآية (٥).

(٣) تفسير الرازي (٩/ ١١٨-١١٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٦-٤٨٩)، والبخاري (٨/ ٢٩١/ ٤٥٦٥) (٣/ ٣٤١/ ١٤٠٣)، والنسائي (٥/ ٤١/ ٢٤٨١)، وابن ماجه (١/ ٥٦٩/ ١٧٨٦).

فيقضمها، ثم تبع سائر جسده»[١].

⋆ غريب الحديثين:

شجاعا: الشجاع بالضم والكسر: الحية الذكر. وقيل: الحية مطلقًا.

أقرع: الذي لا شعر على رأسه، يريد حية قد تمعط جلد رأسه، لكثرة سمه وطول عمره.

له زبيبتان: الزبيبة: نكتة سوداء فوق عين الحية. وقيل: هما نقطتان تكتنفان فاها. وقيل: هما زبدتان في شدقيها.

فيأخذ بلهزمتيه: يعني: شدقيه. وقيل: هما عظمان ناتئان تحت الأذنين. وقيل: هما مضغتان عليتان تحتهما.

⋆ فوائد الحديثين:

قال الحافظ: عند قوله: «ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك»: «وفائدة هذا القول الحسرة والزيادة في التعذيب حيث لا ينفعه الندم. وفيه نوع من التهكم»[٢].

قال الباجي: «ويقول له: **«أنا كنزك»** على وجه التوبيخ له والتقريع وإظهار سوء العاقبة فيما كان يعمل منه من منع الزكاة»[٣].

وقال الحافظ: «المراد بالتطويق في الآية الحقيقة، خلافا لمن قال إن معناه سيطوقون الإثم. وفي تلاوة النبي ﷺ الآية دلالة على أنها نزلت في معاني الزكاة، وهو قول أكثر أهل العلم بالتفسير، وقيل: إنها نزلت في اليهود الذين كتموا صفة النبي ﷺ؛ وقيل: نزلت فيمن له قرابة لا يصلهم، قاله مسروق»[٤].

* عن معاوية بن حيدة عن النبي ﷺ قال: «**لا يأتي رجل مولاه يسأله من فضل**

---

(١) أخرجه: الطبراني (٢/ ٩١/ ١٤٠٨) والبزار (كشف الأستار ١/ ٤١٨/ ٨٨٢) وقال: «إسناده حسن». قال الهيثمي في المجمع (٣/ ٦٤): «رواه البزار وقال: إسناده حسن، قلت: ورجاله ثقات. ورواه الطبراني في الكبير» اهـ. وأخرجه: الحاكم (١/ ٣٨٨-٣٨٩) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وقال الذهبي متعقبا: على شرطهما، وابن حبان: الإحسان (٨/ ٤٩/ ٣٢٥٧).

(٢) الفتح (٣/ ٣٤٥).

(٣) المنتقى (٢/ ١٢٦).

(٤) الفتح (٣/ ٣٤٥).

عنده، فيمنعه إياه إلا دعي له يوم القيامة شجاع يتلمظ فضله الذي منع»[(١)].

★ **غريب الحديث:**

يتلمظ: اللمظ والتلمظ: الأخذ باللسان ما يبقى في الفم بعد الأكل، وقيل: هو تتبع الطعم والتذوق، وقيل: هو تحريك اللسان في الفم بعد الأكل كأنه يتتبع بقية من الطعام بين أسنانه.

* عن جرير بن عبد اللَّه البجلي قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « **ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله فضلًا أعطاه اللَّه إياه فيبخل عليه إلا أخرج له يوم القيامة من جهنم حية يقال لها: شجاع، يتلمظ فيطوق به»**[(٢)].

★ **فوائد الحديث:**

قال أحمد البنا: «والمعنى: أن اللَّه ﷻ يجعل فضل مال البخيل شجاعًا أقرع ينهس أصبعه ثم يده ثم سائر جسده كما يستفاد من مجموع الأحاديث»[(٣)].

قال خليل أحمد السهارنفوري: «كتب مولانا محمد يحيى المرحوم في التقرير: قوله لا يسأل رجل.. إلخ أراد بالرجل العبد الذي أعتقه مولاه إشارة إلى أنه وإن لم يبق له ما كان عليه من حق المماليك قبل أن يعتقه فليس له أن يبخل عليه بفضل ماله حين افتقر هو إليه، ويمكن أيضًا عكسه فيكون إيجابًا على العبد حسن السلوك بماله إن كان فاضلا إذا افتقر إليه معتقه، ومولاه الذي من عليه بفاضلة الإعتاق، انتهى»[(٤)].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣، ٥)، وأبو داود (٥/ ٣٥١/ ٥١٣٩)، والترمذي (٤/ ٢٧٣/ ١٨٩٧) دون ذكر موضع الشاهد وقال: «وهذا حديث حسن»، والنسائي (٥/ ٨٦/ ٢٥٦٥).

(٢) أخرجه: الطبراني في الكبير (٢/ ٣٢٢/ ٢٣٤٣) وفي الأوسط (٦/ ٢٧٥/ ٥٥٨٩). وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ١٥٤) وقال بعد عزوه للطبراني في الكبير والأوسط: « وإسناده جيد». وجود إسناده أيضا المنذري في الترغيب (٢/ ٣٩).

(٣) الفتح الرباني (٨/ ٢٠١).

(٤) بذل المجهود (١٠/ ٧٦).

قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٨٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -جل ثناؤه-: أنه الحي الذي لا يموت، والباقي بعد فناء جميع خلقه.

فإن قال قائل: فما معنى قوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾، والميراث المعروف: هو ما انتقل من ملك مالك إلى وارثه بموته، ولله الدنيا قبل فناء خلقه وبعده؟ قيل: إن معنى ذلك ما وصفنا من وصفه نفسه بالبقاء، وإعلام خلقه أنه كتب عليهم الفناء، وذلك أن ملك المالك إنما يصير ميراثًا بعد وفاته، فإنما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ إعلامًا بذلك منه عباده أن أملاك جميع خلقه منتقلة عنهم بموتهم، وأنه لا أحد إلا وهو فان سواه، فإنه الذي إذا أهلك جميع خلقه، فزالت أملاكهم عنهم لم يبق أحد يكون له ما كانوا يملكونه غيره.

وإنما معنى الآية: لا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم اللَّه من فضله هو خيرًا لهم، بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة بعد ما يهلكون، وتزول عنهم أملاكهم في الحين الذي لا يملكون شيئًا، وصار لله ميراثه، وميراث غيره من خلقه.

ثم أخبر -تعالى ذكره- أنه بما يعمل هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم اللَّه من فضل، وغيرهم من سائر خلقه ذو خبرة وعلم، محيط بذلك كله، حتى يجازي كلا منهم على قدر استحقاقه المحسن بالإحسان والمسيء على ما يرى -تعالى ذكره-»[(١)].

قال الشوكاني: «أي: له وحده لا لغيره كما يفيده التقديم. والمعنى: أن له ما فيهما مما يتوارثه أهلها، فما بالهم يبخلون بذلك، ولا ينفقونه، وهو لله سبحانه لا لهم، وإنما كان عندهم عارية مستردة، ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ

(١) جامع البيان (٧/ ٤٤٠-٤٤١ شاكر).

ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾[١] وقوله ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[٢] والميراث في الأصل هو ما يخرج من مالك إلى آخر ولم يكن مملوكًا لذلك الآخر قبل انتقاله إليه بالميراث، ومعلوم أن اللَّه سبحانه هو المالك بالحقيقة لجميع مخلوقاته»[٣].

قال السعدي: «أي: هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها، وينقلب العباد من الدنيا ما معهم درهم ولا دينار ولا غير ذلك من المال. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[٤] وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب النهائي الموجب كل واحد منهما أن لا يبخل العبد بما أعطاه اللَّه. أخبر أولًا: أن الذي عنده وفي يده فضل من اللَّه ونعمة ليس ملكًا للعبد، بل لولا فضل اللَّه عليه وإحسانه لم يصل إليه منه شيء. فمنعه ذلك منع لفضل اللَّه وإحسانه؛ ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[٥]. فمن تحقق أن ما بيده هو فضل من اللَّه، لم يمنع الفضل الذي لا يضره، بل ينفعه في قلبه وماله وزيادة إيمانه وحفظه من الآفات، ثم ذكر ثانيا: أن هذا الذي بيد العباد كله يرجع إلى اللَّه ويرثه تعالى وهو خير الوارثين. فلا معنى للبخل بشيء هو زائل عنك، منتقل إلى غيرك، ثم ذكر ثالثًا: السبب الجزائي فقال: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فإذا كان خبيرًا بأعمالكم جميعًا ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات على الشر، لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يجزى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك الذي به العقاب»[٦].

وقال محمد رشيد رضا: «أي: إن له وحده سبحانه جميع ما في السموات والأرض مما يتوارثه الناس فينقل من واحد إلى آخر لا يستقر في يد، ولا يسلم التصرف فيه لأحد إلى أن يفنى جميع الوارثين والمورثين، ويبقى المالك الحقيقي وهو اللَّه رب العالمين، أو معناه أنه هو الذي ينقل كل ما يورث إلى من شاء من عباده فقد يدخر المرء مالًا لولده فيجعله اللَّه بسننه في نظام الاجتماع متاعًا لغيرهم،

(١) مريم: الآية (٤٠).
(٢) الحديد: الآية (٧).
(٣) فتح القدير (١/ ٦٠٢).
(٤) مريم: الآية (٤٠).
(٥) القصص: الآية (٧٧).
(٦) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٦٢-٤٦٤).

كأن يموتوا قبل والدهم أو يضيعوا ما جمعه بالإسراف فيه ويبقون فقراء، كأنه يقول: ما بال هؤلاء الباخلين بما أعطاهم اللَّه من فضله وإحسانه لا يفيضون بشيء منه على عياله مغترين بتصرفهم الظاهر فيه، وملكهم الانتفاع به ذاهلين عن مصدره الذي جاء منه، وعن مرجعه الذي يعود إليه، فإن لاح في خاطر أحد منهم أنه يموت ويفنى لم يخطر له إلا أن له وارثا يرث ما يتمتع هو به كأولاده وذي القربى، فكأنه يبقى في يده فليعلم هؤلاء أن الوارث الذي ينتهي إليه التصرف فيما يتركه الهالكون، هو المالك الحقيقي الذي أعطى أولئك الهالكين ما كانوا به يتمتعون، وذلك يشمل المال وغيره.

الأستاذ الإمام: العبارة تبين أن كل ما يعطاه الإنسان من مال وجاه وقوة وعلم فإنه عرض زائل وصاحبه يفنى ويزول ولا معنى لاستبقاء الفاني ما هو فإن مثله بل عليه أن يضع كل شيء في موضعه الذي يصلح له، ويبذله في وجوهه اللائقة به؛ أي: فهو بذلك يكون خليفة لله في إتمام حكمته في أرضه، ومحسنا للتصرف فيما استخلفه فيه»[1].

* * *

(١) تفسير المنار (٤/ ٢٦٠-٢٦١).

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الآية: لقد سمع اللَّه قول الذين قالوا من اليهود: إن اللَّه فقير إلينا، ونحن أغنياء عنه سنكتب ما قالوا من الإفك والفرية على ربهم، وقتلهم أنبياءهم بغير حق»[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن قال قائل: كيف قيل: وقتلهم الأنبياء بغير حق وقد ذكرت في الآثار التي رويت أن الذين عنوا بقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ بعض اليهود الذين كانوا على عهد نبينا محمد ﷺ، ولم يكن من أولئك أحد قتل نبيًّا من الأنبياء؛ لأنهم لم يدركوا نبيا من أنبياء اللَّه فيقتلوه؟

قيل: إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ذهبت إليه، وإنما قيل ذلك كذلك لأن الذين عنى اللَّه -تبارك وتعالى- بهذه الآية كانوا راضين بما فعل أوائلهم من قتل من قتلوا من الأنبياء وكانوا منهم وعلى منهاجهم، من استحلال ذلك واستجازته، فأضاف -جل ثناؤه- فعل ما فعله من كانوا على منهاجه وطريقته إلى جميعهم، إذ كانوا أهل ملة واحدة ونحلة واحدة وبالرضى من جميعهم فعل ما فعل فاعل ذلك منهم»[٢].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن قول هؤلاء المتمردين، الذين قالوا أقبح المقالة وأشنعها وأسمجها. فأخبر أنه قد سمع ما قالوه، وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة، وهو: قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة وأنه يقال لهم -بدل قولهم: إن اللَّه فقير ونحن أغنياء-: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾

(١) جامع البيان (٧/ ٤٤٤ شاكر).
(٢) جامع البيان (٧/ ٤٤٦ شاكر).

المحرق النافذ من البدن إلى الأفئدة، وأن عذابهم ليس ظلمًا من اللَّه لهم فإنه ﴿لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فإنه منزه عن ذلك، وإنما ذلك بما قدمت أيديهم من المخازي والقبائح التي أوجبت استحقاقهم العذاب، وحرمانهم الثواب. وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود تكلموا بذلك. وذكروا منهم فنحاص بن عازوراء من رؤساء علماء اليهود في المدينة. وأنه لما سمع قول اللَّه تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال -على وجه التكبر والتجرؤ- هذه المقالة قبحه اللَّه. فذكرها اللَّه عنهم وأخبر أنه ليس ببدع من شنائعهم، بل قد سبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك، وهو: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾. هذا القيد يراد به أنهم تجرأوا على قتلهم مع علمهم بشناعته، لا جهلا وضلالا، بل تمردا وعنادا»[1].

قال القرطبي: «ذكر تعالى قبيح قول الكفار لاسيما اليهود. وقال أهل التفسير لما أنزل اللَّه ﴿مَّن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[2] قال قوم من اليهود -منهم حيي ابن أخطب في قول الحسن. وقال عكرمة وغيره: وهو فنحاص بن عازوراء- إن اللَّه فقير ونحن أغنياء يقترض منا. وإنما قالوا هذا تمويها على ضعفائهم، لا أنهم يعتقدون هذا؛ لأنهم أهل كتاب. ولكنهم كفروا بهذا القول؛ لأنهم أرادوا تشكيك الضعفاء منهم ومن المؤمنين، وتكذيب النبي ﷺ. أي أنه فقير على قول محمد ﷺ؛ لأنه اقترض منا. ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ سنجازيهم عليه. وقيل: سنكتبه في صحائف أعمالهم؛ أي: نأمر الحفظة بإثبات قولهم حتى يقرؤوه يوم القيامة في كتبهم التي يؤتونها؛ حتى يكون أوكد للحجة عليهم. وهذا كقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾[3]. وقيل: مقصود الكتابة الحفظ؛ أي: سنحفظ ما قالوا لنجازيهم قوله تعالى: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي ونكتب قتلهم الأنبياء؛ أي: رضاءهم بالقتل. والمراد قتل أسلافهم الأنبياء، لكن لما رضوا بذلك صحت الإضافة إليهم، وحسن رجل عند الشعبي قتل عثمان رضي الله عنه فقال له الشعبي: شركت في دمه. فجعل الرضا بالقتل قتلًا رضي الله عنه.

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٦٤-٤٦٥). (٢) البقرة: الآية (٢٤٥).
(٣) الأنبياء: الآية (٩٤).

قلت: وهذه مسألة عظمى، حيث يكون الرضا بالمعصية معصية، وقد روى أبو داود على العرس بن عميرة الكندي عن النبي ﷺ قال: «**إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرهها** -وقال مرة: **فأنكرها- كمن غاب عنها. ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها**»[1]. وهذا نص»[2].

وقال محمد رشيد رضا: «﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي: ذلك العذاب الذي تذوقون مرارته أو حرارته بسبب ما قدمتم في الدنيا من الأعمال. عبر عن الأشخاص بالأيدي لأن أكثر الأعمال تزاول بها، وليفيد أن ما عذبوا عليه هو من عملهم حقيقة لا مجازًا، فإن نسبة الفعل إلى يد الفاعل تفيد من إلصاقه به ما لا تفيده نسبته إلى ضميره؛ لأن الإسناد إلى اليد يمنع التجوز، فمن المعهود أن يقال: فلان فعل كذا إذا أمر به أو مكن العامل منه لم يباشره بنفسه، ومتى أسند إلى يده تعين أن يكون باشر فعله بنفسه وإن لم يكن من عمل الأيدي، ويدخل في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ جميع ما كان منهم من ضروب الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: ذلك العذاب إنما يصيبكم بعملكم، وبكونه تعالى عادلًا في حكمه وفعله لا يجور ولا يظلم فيعاقب غير المستحق للعقاب، ولا يجعل المجرمين كالمتقين، والكافرين كالمؤمنين. فلو كان سبحانه ظالما لجاز أن لا يذوقوا ذلك العذاب على كفرهم به واستهزائهم بآياته وقتلهم لأنبيائه بأن يجعلوا مع المقربين في جنات النعيم، وإذًا لكان الدين عبثًا ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[3] ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[4] ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[5] فالاستفهام الإنكاري في هذه الآيات يدل على أن ترك تعذيب أولئك الكفرة الفجرة هو من المساواة بين المحسن والمسيء، ووضع الشيء في غير موضعه، وناهيك به ظلمًا كبيرًا»[6].

* * *

(١) أخرجه: أبو داود (٤/ ٥١٥/ ٤٣٤٥)، من حديث العرس بن عميرة الكندي، وحسنه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٨٧-١٨٨).

(٣) ص: الآية (٢٨).

(٤) الجاثية: الآية (٢١).

(٥) القلم: الآيتان (٣٥-٣٦).

(٦) تفسير المنار (٤/ ٢٦٥-٢٦٦).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٍ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾

★ **غريب الآية:**

قربان: القربان ما يتقرب به إلى اللَّه، وجمعه قرابين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ﴾ أوصانا وتقدم إلينا في كتبه وعلى ألسن أنبيائه ﴿أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ﴾ يقول: أن لا نصدق رسولا فيما يقول إنه جاء به من عند اللَّه من أمر ونهي وغير ذلك ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٍ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ يقول: حتى يجيئنا بقربان: وهو ما تقرب به العبد إلى ربه من صدقة، وهو مصدر مثل العدوان والخسران من قولك: قربت قربانًا، وإنما قال: ﴿تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ لأن أكل النار ما قربه أحدهم لله في ذلك الزمان كان دليلا على قبول اللَّه منه ما قرب له، ودلالة على صدق المقرب فيما ادعى أنه محق فيما نازع أو قال»[1].

وقال: «وإنما أعلم اللَّه عباده بهذه الآية: أن الذين وصف صفتهم من اليهود الذين كانوا على عهد رسول اللَّه ﷺ لن يفروا، وأن يكونوا في كذبهم على اللَّه، وافترائهم على ربهم، وتكذيبهم محمدًا ﷺ وهم يعلمونه صادقًا محقًّا، وجحودهم نبوته وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في عهد اللَّه تعالى إليهم أنه رسوله إلى خلقه، مفروضة طاعته إلا كمن مضى من أسلافهم الذين كانوا يقتلون أنبياء اللَّه بعد قطع اللَّه عذرهم بالحجج التي أيدهم اللَّه بها، والأدلة التي أبان صدقهم بها، افتراء على اللَّه، واستخفافا بحقوقه»[2].

---

(١) جامع البيان (٧/ ٤٤٨ شاكر).

(٢) جامع البيان (٧/ ٤٤٩-٤٥٠ شاكر).

قال ابن كثير: «يقول تعالى تكذيبًا أيضًا لهؤلاء الذين زعموا أن اللَّه عهد إليهم في كتبهم أن لا يؤمنوا برسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها؛ قاله ابن عباس، والحسن، وغيرهما. قال اللَّه ﷻ: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالحجج والبراهين ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾؛ أي: وبنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾؛ أي: فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل»[(١)].

قال السعدي: «يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفترين القائلين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ﴾؛ أي: تقدم إلينا، وأوصى ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾. فجمعوا بين الكذب على اللَّه، وحصر آية الرسل بما قالوه من هذا الإفك المبين. وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتهم بقربان تأكله النار. فهم في ذلك مطيعون لربهم، ملتزمون عهده. وقد علم أن كل رسول يرسله اللَّه يؤيده من الآيات والبراهين بما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما قالوه، ومع هذا فقد قالوا إفكًا لم يلتزموه، وباطلًا لم يعملوا به. ولهذا أمر اللَّه رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الدالات على صدقهم ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ بأن أتاكم بقربان تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: في دعواكم الإيمان برسول يأتيكم بقربان تأكله النار. فقد تبين بهذا كذبهم، وعنادهم، وتناقضهم»[(٢)].

وقال ابن عطية: «هذا رد عليهم في مقالتهم، وتبيين لإبطالهم؛ أي: ﴿قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ﴾ بالآيات الباهرة البينة، وفي جملتها ما قلتم من أمر القربان، فلم قتلتموهم يا بني إسرائيل؟ المعنى: بل هذا منكم تعلل وتعنت، ولو أتيتكم بالقربان لتعللتم بغير ذلك، والاقتراح لا غاية له، ولا يجاب كل مقترح، ولم يجب اللَّه مقترحًا إلا وقد أراد تعذيبه وأن لا يمهله، كقوم صالح وغيرهم، وكذلك قيل لمحمد في اقتراح قريش فأبى، وقال: بل أدعوهم وأعالجهم.

ثم آنس تعالى نبيه بالأسوة والقدوة فيمن تقدم من الأنبياء؛ أي: فلا يعظم عليك ذلك»[(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٥٣-١٥٤).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٦٥-٤٦٦).
(٣) المحرر الوجيز (١/ ٥٤٩).

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الزبر: هي الكتب المتلقاة من السماء، كالصحف المنزلة على المرسلين. يقال: زبرت الكتاب إذا أتقنت كتابته. وقد غلب الزبور على صحف داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

المنير: أي البين الواضح الجلي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «هذا تعزية من الله -جل ثناؤه- نبيه محمدًا ﷺ على الأذى الذي كان يناله من اليهود، وأهل الشرك بالله من سائر أهل الملل، يقول الله تعالى له: لا يحزنك يا محمد كذب هؤلاء الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾، وافتراؤهم على ربهم اغترارا بإمهال الله إياهم، ولا يعظمن عليك تكذيبهم إياك، وادعاؤهم الأباطيل من عهود الله إليهم؛ فإنهم إن فعلوا ذلك بك فكذبوك كذبوا على الله، فقد كذبت أسلافهم من رسل الله قبلك من جاءهم بالحجج القاطعة العذر، والأدلة الباهرة العقل، والآيات المعجزة الخلق، وذلك هو البينات. وأما «الزبر» فإنه جمع زبور: وهو الكتاب وكل كتاب فهو: زبور ومنه قول امرئ القيس:

لمن طلل أبصرته فشجاني كخط زبور في عسيب يماني

ويعني بـ «الكتاب» التوراة والإنجيل، وذلك أن اليهود كذبت عيسى وما جاء به وحرفت ما جاء به موسى عليه السلام من صفة محمد ﷺ وبدلت عهده إليهم فيه، وأن النصارى جحدت ما في الإنجيل من نعته، وغيرت ما أمرهم به في أمره.

وأما قوله: ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾ فإنه؛ يعني: الذي ينير فيبين الحق لمن التبس عليه

ويوضحه. وإنما هو من النور والإضاءة، يقال: قد أنار لك هذا الأمر بمعنى: أضاء لك وتبين، فهو ينير إنارة، والشيء المنير»[١].

قال الرازي: «المقصود من هذا الكلام: تسلية رسول اللَّه ﷺ، وبيان أن هذا التكذيب ليس أمرًا مختصًّا به من بين سائر الأنبياء؛ بل شأن جميع الكفار تكذيب جميع الأنبياء والطعن فيهم، مع أن حالهم في ظهور المعجزات عليهم وفي نزول الكتب إليهم كحالك، ومع هذا فانهم صبروا على ما نالهم من أولئك الأمم واحتملوا إيذاءهم في جنب تأدية الرسالة، فكن متأسيًا بهم سالكًا مثل طريقتهم في هذا المعنى، وإنما صار ذلك تسلية لأن المصيبة إذا عمت طابت وخفت»[٢].

وقال: «المراد من البينات المعجزات، ثم عطف عليها الزبر والكتاب، وهذا يقتضي أن يقال إن معجزاتهم كانت مغايرة لكتبهم، وذلك يدل على أن أحدًا من الأنبياء ما كانت كتبهم معجزة لهم، فالتوراة والإنجيل والزبور والصحف ما كان شيء منها معجزة، وأما القرآن فهو وحده كتاب ومعجزة، وهذا أحد خواص الرسول -عليه الصلاة والسلام-»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (٧/ ٤٥٠-٤٥١ شاكر).
(٢) تفسير الرازي (٩/ ١٢٨-١٢٩).
(٣) تفسير الرازي (٩/ ١٢٩).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

زحزح: أي: نحي وأزيل.

متاع: المتاع: كل شيء ينتفع به، ويتبلغ به ويتزود، والفناء يأتي عليه في الدنيا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بذلك -تعالى ذكره-: أن مصير هؤلاء المفترين على الله من اليهود المكذبين برسوله، الذين وصف صفتهم وأخبر عن جراءتهم على ربهم، ومصير غيرهم من جميع خلقه -تعالى ذكره-، ومرجع جميعهم إليه؛ لأنه قد حتم الموت على جميعهم، فقال لنبيه ﷺ: لا يحزنك تكذيب من كذبك يا محمد من هؤلاء اليهود وغيرهم، وافتراء من افترى علي فقد كذب قبلك رسل جاءوا من الآيات والحجج من أرسلوا إليه بمثل الذي جئت من أرسلت إليه، فلك فيهم أسوة تتعزى بهم، ومصير من كذبك، وافترى علي وغيرهم ومرجعهم إلي، فأوفي كل نفس منهم جزاء عمله يوم القيامة، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾؛ يعني: أجور أعمالكم إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ يقول: فمن نحي عن النار وأبعد منها ﴿فَقَدْ فَازَۗ﴾ يقول: فقد نجا وظفر بحاجته، يقال منه: فاز فلان بطلبته يفوز فوزًا ومفازًا ومفازة إذا ظفر بها. وإنما معنى ذلك: فمن نحي عن النار فأبعد منها، وأدخل الجنة، فقد نجا وظفر بعظيم الكرامة. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ يقول: وما لذات الدنيا وشهواتها وما فيها من زينتها وزخارفها ﴿إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، يقول: إلا متعة يمتعكموها الغرور والخداع المضمحل، الذي لا حقيقة له عند الامتحان، ولا صحة له عند الاختبار،

فأنتم تلتذون بما متعكم الغرور من دنياكم، ثم هو عائد عليكم بالفجائع والمصائب والمكاره، يقول -تعالى ذكره-: لا تركنوا إلى الدنيا فتسكنوا إليها فإنما أنتم منها في غرور تمتعون، ثم أنتم عنها بعد قليل راحلون»[١].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى إخبارًا عامًّا يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[٢]، فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرًا كما كان أولًا، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر اللَّه وجودها في صلب آدم وانتهت البرية أقام اللَّه القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحدًا مثقال ذرة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾»[٣].

وقال: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ تصغير لشأن الدنيا، وتحقير لأمرها، وأنها دنيئة فانية قليلة زائلة كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[٥]»[٦].

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من هذه الآية تأكيد تسلية الرسول -عليه الصلاة والسلام-، والمبالغة في إزالة الحزن من قلبه، وذلك من وجهين: أحدهما: أن عاقبة الكل الموت، وهذه الغموم والأحزان تذهب وتزول ولا يبقى شيء منها، والحزن متى كان كذلك لم يلتفت العاقل إليه. والثاني: أن بعد هذه الدار دار يتميز فيها المحسن عن المسيء، ويتوفر على عمل كل واحد ما يليق به من الجزاء، وكل واحد من هذين الوجهين في غاية القوة في إزالة الحزن والغم عن قلوب العقلاء»[٧].

---

(١) جامع البيان (٧/ ٤٥٢-٤٥٣ شاكر). (٢) الرحمن: الآيتان (٢٦و٢٧). (٣) التفسير (٢/ ١٥٤).
(٤) الأعلى: الآيتان (١٦و١٧). (٥) القصص: الآية (٦٠). (٦) التفسير (٢/ ١٥٥).
(٧) تفسير الرازي (٩/ ١٢٩).

وقال: «بين تعالى أن تمام الأجر والثواب لا يصل إلى المكلف إلا يوم القيامة؛ لأن كل منفعة تصل إلى المكلف في الدنيا فهي مكدرة بالغموم والهموم وبخوف الانقطاع والزوال، والأجر التام والثواب الكامل إنما يصل إلى المكلف يوم القيامة؛ لأن هناك يحصل السرور بلا غم، والأمن بلا خوف، واللذة بلا ألم، والسعادة بلا خوف الانقطاع، وكذا القول في جانب العقاب فإنه لا يحصل في الدنيا ألم خالص عن شوائب اللذة بل يمتزج به راحات وتخفيفات، وإنما الألم التام الخالص الباقي هو الذي يكون يوم القيامة، نعوذ باللَّه منه»[١].

وقال: «شبه اللَّه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام ويغر عليه حتى يشتريه ثم يظهر له فساده ورداءته والشيطان هو المدلس الغرور، وعن سعيد بن جبير: أن هذا في حق من آثر الدنيا على الآخرة، وأما من طلب الآخرة بها فإنها نعم المتاع، واللَّه أعلم.

واعلم أن فساد الدنيا من وجوه: أولها: أنه لو حصل للإنسان جميع مراداته لكان غمه وهمه أزيد من سروره، لأجل قصر وقته وقلة الوثوق به وعدم علمه بأنه هل ينتفع به أم لا. وثانيها: أن الإنسان كلما كان وجدانه بمرادات الدنيا أكثر كان حرصه في طلبها أكثر، وكلما كان الحرص أكثر كان تألم القلب بسبب ذلك الحرص أشد، فإن الإنسان يتوهم أنه إذا فاز بمقصوده سكنت نفسه وليس كذلك؛ بل يزداد طلبه وحرصه ورغبته. وثالثها: أن الإنسان بقدر ما يجد من الدنيا يبقى محروما عن الآخرة التي هي أعظم السعادات والخيرات. ومتى عرفت هذه الوجوه الثلاثة علمت أن الدنيا متاع الغرور»[٢].

وقال السعدي: «هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار من خير وشر.

﴿فَمَن زُحْزِحَ﴾؛ أي: أخرج، ﴿عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾؛ أي: حصل

---

(١) تفسير الرازي (٩/ ١٣١).

(٢) تفسير الرازي (٩/ ١٣١-١٣٢).

له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ومفهوم الآية أن من لم يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فإنه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم أنموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾؛ أي: توفية الأعمال التامة إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ؛ بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾[1]»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الدنيا

* عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن موضع سوط في الجنة لخير من الدنيا وما فيها، اقرأوا إن شئتم** ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾»[3].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله هذا إنما أراد به ذم الدنيا، والزهد فيها، والترغيب في الآخرة، فأخبر أن اليسير من الجنة خير من الدنيا كلها»[4].

وقال أيضًا: «أراد بذكر السوط واللَّه أعلم التقليل لا أنه أراد موضع السوط بعينه، بل موضع نصف سوط وربع سوط من الجنة الباقية خير من الدنيا الفانية، وهذا مثل قول اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ لم يرد القنطار بعينه، وإنما أراد الكثير، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾[5] لم يرد به الدينار بعينه وإنما أراد القليل؛ أي: أن منهم من يؤتمن على

---

(١) السجدة: الآية (٢١). (٢) تفسير السعدي (١/ ٤٦٧-٤٦٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٨)، والترمذي (٥/ ٢١٦-٢١٧/ ٣٠١٣) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الحاكم (٢/ ٢٩٩) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وصححه ابن حبان: الإحسان (١٦/ ٤٣٣-٤٣٤/ ٧٤١٧). وأصل الحديث عند: البخاري (٦/ ١٦/ ٢٧٩٣) بمعناه دون ذكر الآية.

(٤) التمهيد (٢/ ٢٨٧).

(٥) آل عمران: الآية (٧٥).

بيت مال فلا يخون، ومنهم من يؤتمن على فلس أو نحوه فيخون»[(١)].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بن دقيق العيد: يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون من باب تنزيل المغيب منزلة المحسوس تحقيقًا له في النفس؛ لكون الدنيا محسوسة في النفس مستعظمة في الطباع فلذلك، وقعت المفاضلة بها، وإلا فمن المعلوم أن جميع ما في الدنيا لا يساوي ذرة مما في الجنة.

والثاني: أن المراد أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذي يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها لأنفقها في طاعة اللَّه تعالى»[(٢)].

قال ابن العربي: «قول أبي هريرة مستشهدًا على ذلك إما مبلغًا بما سمع، وإما منبطا ما علم، اقرءوا إن شئتم: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، وذلك بديع من العلم؛ لأن زينة الحياة الدنيا إن فتنت أحدًا، وركن إليها، ورأى أنه لا شيء غيرها، أو تعجلها لتأخير تلك مؤثرًا للنقد على النسيئة فقد اغتر بتلك الأعلى إلى الأدنى، واستبدل الباقي بالفاني، واللَّه الموفق برحمته»[(٣)].

* عن ابن عمرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من أحب أن يزحزح عن النار وأن يدخل الجنة، فلتدركه منيته وهو يؤمن باللَّه واليوم الآخر، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه**»[(٤)].

★ **فوائد الحديث:**

قال الإمام النووي: «هذا من جوامع كلمه ﷺ وبديع حكمه، وهذه قاعدة مهمة فينبغي الاعتناء بها، وأن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه»[(٥)].

قال الأبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**وهو يؤمن باللَّه واليوم الآخر**» قلت: هو إرشاد لعدم التلبس بالفتنة؛ لأن الإيمان إنما يحصل بتحصيل خصاله، والتلبس بخصاله مناف

---

(١) التمهيد (٢/ ٢٨٧-٢٨٨).

(٢) الفتح (٦/ ١٧).

(٣) عارضة الأحوذي (١١/ ١٤٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٩١-١٩٢) مختصرا ومطولا، ومسلم (٣/ ١٤٧٢-١٤٧٣/ ١٨٤٤) مطولا، وأبو داود (٤/ ٤٤٨/ ٤٢٤٨) مختصرا إلا أنه لم يذكر موضع الشاهد، والنسائي (٧/ ١٧٢-١٧٣/ ٤٢٠٢)، وابن ماجه (٢/ ١٣٠٦-١٣٠٧/ ٣٩٥٦).

(٥) شرح مسلم (١٢/ ١٩٦).

للفتنة»[١].

* عن المسور بن شداد قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**واللَّه ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه** -وأشار يحيى إلى السبابة- **في اليم، فلينظر بم ترجع**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «هذا مثل لحقارة الدنيا وقلتها، وهو نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[٣]؛ أي: كل شيء يتمتع به في الدنيا من أولها إلى آخرها قليل، إذ لا بقاء له ولا صفو فيه، وهذا بالنسبة إلى نفسها، وأما بالنسبة إلى الآخرة، فلا خطر، ولا قدر للدنيا، وهذا هو المقصود بتمثيل هذا الحديث حيث قال: «**فلينظر بماذا يرجع**». ووجه هذا التمثيل أن القدر الذي يتعلق بالإصبع من ماء البحر لا قدر له ولا خطر، وكذلك الدنيا بالنسبة إلى الآخرة»[٤].

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله: «**فلينظر بم يرجع**» وضع موضع قوله: فلا يرجع بشيء، كأنه ﷺ يستحضر تلك الحالة في مشاهدة السامع ثم يأمره بالتأمل والتفكر هل يرجع بشيء أم لا؟ هذا تمثيل على سبيل التقريب، وإلا فأين المناسبة بين المتناهي وغير المتناهي؟»[٥].

قال القاري: «والمعنى فليتفكر بأي مقدار من البلة الملتصقة من اليم يرجع أصبعه إلى صاحبه، اللهم إلا أن يقال المعنى بم يرجع الحال وينتقل المآل؟ وحاصله؛ أن منح الدنيا ومحنها في كسب الجاه والمال من الأمور الفانية السريعة الزوال، فلا ينبغي لأحد أن يفرح ويغتر بسعتها، ولا يجزع ويشكو من ضيقها، بل يقول في الحالتين: لا عيش إلا عيش الآخرة، فإنه قاله ﷺ مرة في يوم الأحزاب، وأخرى في حجة الوداع وجمعية الأصحاب، ثم يعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الدنيا ساعة فيصرفها في الطاعة»[٦].

---

(١) شرح صحيح مسلم (٦/ ٥٤٣).
(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٢٨-٢٢٩ و٢٢٩)، ومسلم (٤/ ٢١٩٣/ ٢٨٥٨)، والترمذي (٤/ ٤٨٦/ ٢٣٢٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٦/ ٤١٠٨).
(٣) النساء: الآية (٧٧).
(٤) المفهم (٧/ ١٢٥-١٢٦).
(٥) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٧٠).
(٦) المرقاة (٦/ ٩).

قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

من عزم الأمور: من العزم والعزيمة، وهي عقد القلب على إمضاء الأمر، يقال: عزمت الأمر وعزمت عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الشنقيطي: «ذكر في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين سيبتلون في أموالهم وأنفسهم، وسيسمعون الأذى الكثير من أهل الكتاب والمشركين، وأنهم إن صبروا على ذلك البلاء والأذى واتقوا الله، فإن صبرهم وتقاهم ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: من الأمور التي ينبغي العزم والتصميم عليها لوجوبها. وقد بيّن في موضع آخر أن من جملة هذا البلاء: الخوف والجوع وأن البلاء في الأنفس والأموال هو النقص فيها، وأوضح فيه نتيجة الصبر المشار إليها هنا بقوله: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، وذلك الموضع هو قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[١]، وبقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[٢]، ويدخل في قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، الصبر عند الصدمة الأولى، بل فسره بخصوص ذلك بعض العلماء، ويدل على دخوله فيه قوله قبله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾. وبيّن في موضع آخر أن خصلة الصبر لا يُعطاها إلا صاحب حظٍ عظيم وبخت كبير،

(١) البقرة الآيات (١٥٥-١٥٧). (٢) التغابن: الآية (١١).

وهو قوله: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[١]، وبيّن في موضع آخر أن جزاء الصبر لا حساب له، وهو قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[٢]»[٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكل من قام بحق، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، فلابد أن يؤذى، فماله دواء إلا الصبر في اللَّه، والاستعانة باللَّه، والرجوع إلى الله»[٤].

قال السعدي: «﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًا﴾ من الطعن فيكم، وفي دينكم، وكتابكم، ورسولكم.

وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك، عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالى، تقتضي ذلك، ليتميز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنه تعالى يقدر عليهم هذه الأمور، لما يريده بهم من الخير ليعلي درجاتهم، ويكفر من سيئاتهم، وليزداد بذلك إيمانهم، ويتم به إيقانهم.

فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾[٥].

ومنها: أنه أخبرهم بذلك، لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤنته، ويلجأون إلى الصبر والتقوى، ولهذا قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾؛ أي: إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم من الابتلاء والامتحان على أذية الظالمين، وتتقوا اللَّه في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه اللَّه، والتقرب إليه، ولم تتعدوا في صبركم الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء اللَّه.

﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾؛ أي: من الأمور التي يعزم عليها، وينافس فيها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) فصلت: الآية (٣٥).
(٢) الزمر: الآية (١٠).
(٣) أضواء البيان (١/ ٢١٨-٢١٩).
(٤) التفسير (٢/ ١٧٢).
(٥) الأحزاب: الآية (٢٢).

صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[(١)]»[(٢)].

قال الرازي: «المراد منه أنواع الإيذاء الحاصلة من اليهود والنصارى والمشركين للمسلمين، وذلك لأنهم كانوا يقولون عزير ابن اللَّه، والمسيح ابن اللَّه، وثالث ثلاثة، وكانوا يطعنون في الرسول -عليه الصلاة والسلام- بكل ما يقدرون عليه، ولقد هجاه كعب بن الأشرف، وكانوا يحرضون الناس على مخالفة الرسول ﷺ. وأما المشركون فهم كانوا يحرضون الناس على مخالفة الرسول ﷺ ويجمعون العساكر على محاربة الرسول ﷺ، ويثبطون المسلمين عن نصرته، فيجب أن يكون الكلام محمولا على الكل إذ ليس حمله على البعض أولى من حمله على الثاني»[(٣)].

وقال: «الصبر عبارة عن احتمال المكروه، والتقوى عبارة عن الاحتراز عما لا ينبغي، فقدم ذكر الصبر ثم ذكر عقبه التقوى؛ لأن الإنسان إنما يقدم على الصبر لأجل أنه يريد الاتقاء عما لا ينبغي. وفيه وجه آخر: وهو أن المراد من الصبر هو أن مقابلة الإساءة بالإساءة تفضي إلى ازدياد الإساءة، فأمر بالصبر تقليلًا لمضار الدنيا، وأمر بالتقوى تقليلًا لمضار الآخرة، فكانت الآية على هذا التأويل جامعة لآداب الدنيا والآخرة»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان سبب نزول الآية

* عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ ﵄ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلَى قَطِيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَرَاءَهُ. يَعُودُ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ فِي بَنِي الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ قَبْلَ وَقْعَةِ بَدْرٍ. قَالَ: حَتَّى مَرَّ بِمَجْلِسٍ فِيهِ عَبْدُاللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَإِذَا فِي الْمَجْلِسِ أَخْلَاطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُشْرِكِينَ عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ وَالْيَهُودِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَفِي الْمَجْلِسِ عَبْدُاللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ، فَلَمَّا غَشِيَتِ الْمَجْلِسَ عَجَاجَةُ الدَّابَّةِ خَمَّرَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ

---

(١) فصلت: الآية (٣٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٦٨-٤٦٩).
(٣) تفسير الرازي (٩/ ١٣٣).
(٤) تفسير الرازي (٩/ ١٣٤).

أُبَيٍّ أَنْفَهُ بِرِدَائِهِ ثُمَّ قَالَ: لَا تُغَبِّرُوا عَلَيْنَا فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمْ ثُمَّ وَقَفَ فَنَزَلَ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ: أَيُّهَا الْمَرْءُ إِنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِمَّا تَقُولُ، إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا تُؤْذِنَا بِهِ فِي مَجْلِسِنَا، ارْجِعْ إِلَى رَحْلِكَ فَمَنْ جَاءَكَ فَاقْصُصْ عَلَيْهِ. فَقَالَ عَبْدُاللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ فَاغْشَنَا بِهِ فِي مَجَالِسِنَا، فَإِنَّا نُحِبُّ ذَلِكَ. فَاسْتَبَّ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ حَتَّى كَادُوا يَتَثَاوَرُونَ فَلَمْ يَزَلِ النَّبِيُّ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَنُوا، ثُمَّ رَكِبَ النَّبِيُّ ﷺ دَابَّتَهُ فَسَارَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا سَعْدُ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالَ أَبُو حُبَابٍ** -يُرِيدُ عَبْدَاللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ- **قَالَ كَذَا وَكَذَا**». قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْفُ عَنْهُ وَاصْفَحْ عَنْهُ، فَوَالَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَقَدْ جَاءَ اللَّهُ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ، ولَقَدِ اصْطَلَحَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوِّجُوهُ فَيُعَصِّبُوهُ بِالْعِصَابَةِ، فَلَمَّا أَبَى اللَّهُ ذَلِكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَعْطَاكَ اللَّهُ شَرِقَ بِذَلِكَ، فَذَلِكَ فَعَلَ بِهِ مَا رَأَيْتَ. فَعَفَا عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ وَيَصْطَبِرُونَ عَلَى الأَذَى، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ الآيَةَ وَقَالَ اللَّهُ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ. وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَأَوَّلُ الْعَفْوَ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ حَتَّى أَذِنَ اللَّهُ فِيهِمْ، فَلَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَدْرًا، فَقَتَلَ اللَّهُ بِهِ صَنَادِيدَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ. قَالَ ابْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعَبَدَةِ الأَوْثَانِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّهَ، فَبَايَعُوا الرَّسُولَ ﷺ عَلَى الإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا[1].

★ **غريب الحديث:**

قطيفة فدكية: أي: كساء غليظ منسوب إلى فدك بفتح الفاء والدال، وهي بلد

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٣)، والبخاري (٨/ ٢٩١-٢٩٢/ ٤٥٦٦)، ومسلم (٣/ ١٤٢٢-١٤٢٣/ ١٧٩٨)، والترمذي (٥/ ٥٨/ ٢٧٠٢) مختصرا، والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٥٦-٣٥٧/ ٧٥٠٢).

مشهور على مرحلتين من المدينة.

في بني الحارث بن الخزرج: أي: في منازل بني الحارث وهو قوم سعد بن عبادة.

عجاجة: بفتح المهملة وجيمين الأولى خفيفة؛ أي: غبارها.

خمر: أي: غطى.

يتثاورون: بمثلثة؛ أي: يتواثبون؛ أي: قاربوا أن يثب بعضهم على بعض فيقتتلوا، يقال: ثار إذا قام بسرعة وانزعاج.

البحيرة: يطلق على القرية وعلى البلد، والمراد به هنا المدينة النبوية.

يعصبوه: يعني يرئسوه عليهم ويسودوه، وسمي الرئيس معصبًا لما يعصب برأسه من الأمور. أو لأنهم يعصبون رؤوسهم بعصابة لا تنبغي لغيرهم يمتازون بها، ووقع في غير البخاري: «**فيعصبونه**» والتقدير فهم يعصبونه أو فإذا هم يعصبونه.

شرق بذلك: بفتح المعجمة وكسر الراء أي غص به، وهو كناية عن الحسد يقال غص بالطعام وشجي بالعظم وشرق بالماء إذا اعترض شيء من ذلك في الحلق فمنعه الإساغة.

صناديد: بالمهملة ثم نون ضعيفة جمع صنديد بكسر ثم بسكون وهو: الكبير في قومه.

أمر قد توجه: أي ظهر وجهه.

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «فيه: من الصبر على الأذى والحلم والإغضاء ما كان من خلقه ﷺ، وأدب اللَّه تعالى له بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[1]، ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾[2]»[3].

* عن عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن كعب بن مالك عن أبيه، وكان أحد الثلاثة

(١) المزمل: الآية (١٠). (٢) المائدة: الآية (١٣).
(٣) إكمال المعلم (٦/ ١٧٢).

الذين تيب عليهم، وكان كعب بن الأشرف يهجو النبي ﷺ ويحرض عليه كفار قريش، وكان النبي ﷺ حين قدم المدينة، وأهلها أخلاط منهم المسلمون والمشركون يعبدون الأوثان واليهود، وكانوا يؤذون النبي ﷺ وأصحابه، فأمر اللَّه ﷻ نبيه بالصبر والعفو ففيهم أنزل اللَّه ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الآية فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى النبي ﷺ أمر النبي ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطا يقتلونه، فبعث محمد بن مسلمة، -وذكر قصة قتله- فلما قتلوه فزعت اليهود والمشركون فغدوا على النبي ﷺ فقالوا: طرق صاحبنا فقتل، فذكر لهم النبي ﷺ الذي كان يقول ودعاهم النبي ﷺ إلى أن يكتب بينه وبينهم كتابا ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة[(١)].

★ **غريب الحديث:**

أخلاط: أي أنواع مختلفة.

ينزع: أي: ينتهي، يقال: نزع عن الأمور إذا انتهى عنها.

طرق: من الطروق، وهو الإتيان بالليل، وكل آت بالليل طارق، وقيل أصل الطروق من الطرق وهو الدق، وسمي الآتي بالليل طارقًا لحاجته إلى دق الباب.

★ **فوائد الحديث:**

قال القاضي: «اختلف الناس في تأويل قتل كعب بن الأشرف على وجه مخادعة أصحابه له، فقيل: إنما كان ذلك لأن ابن مسلمة لم يصرح له بتأمين في شيء من لفظه، إنما كلمه في أمر بيع وشراء وتشكر، وليس في خبره معه عهد ولا أمان، فيقال: إنه نقض عليه، وإنه غدر. وقيل ما تقدم؛ لأن من آذى اللَّه ورسوله لا أمان له، والنبي ﷺ إنما قتله بوحي، فصار قتله أصلًا في هذا الباب. ولا يحل أن يقال:

---

(١) أخرجه: أبو داود (٣/ ٤٠١-٤٠٢/ ٣٠٠٠) وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيح سنن أبي داود (٨/ ٣٤٤): وهذا إسناد صحيح على شرط البخاري، على اعتبار أن المراد بقوله: (أبيه) أي: جده، كما هو ظاهر قوله: وكان أحد الثلاثة. . .

وقصة قتل كعب بن الأشرف أخرجها: البخاري (٧/ ٤٢٧/ ٤٠٣٧)، ومسلم (٣/ ١٤٢٥-١٤٢٦/ ١٨٠١)، وأبو داود (٣/ ٢١١-٢١٢/ ٢٧٦٨)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٩٢-١٩٣/ ٨٦٤١) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه.

إن كعبا قتل غدرًا، وقد قال ذلك في مجلس علي بن أبي طالب رضي الله عنه - فأمر به عليّ فضربت عنقه، وقاله في آخر في مجلس معاوية فأنكر ذلك محمد بن مسلمة وأنكر على معاوية سكوته له، وحلف ألا يظله وإياه سقف أبدًا، ولا يخلو بقائلها إلا قتله، وإنما يكون الغدر بعد العهد والأمان، وهو قد نقض عهد النبي ﷺ ولم يؤمنه الآخرون، لكنه استأمن إليهم وظفروا به بغير أمان. وأما ما ترجم البخاري عليه: باب «الفتك في الحرب» فليس بمعنى الغدر. والفتك: القتل على غرة وغفلة، والغيلة نحوه. وقد استدل بقصة كعب وأشباهها للعلماء على جواز اغتيال من بلغته الدعوة من الكفار وتبينه وانتهازه الفريضة منه دون دعوة»(١).

* * *

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٦/ ١٧٦-١٧٧).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

★ غريب الآية:

نبذوه: من النبذ وهو إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا توبيخ من اللَّه وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ اللَّه عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوهوا بذكره في الناس ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله اللَّه تابعوه فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة، بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف، فبئست الصفقة صفقتهم، وبيست البيعة بيعتهم.

وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسالكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع، الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئا»[(١)].

قال السعدي: «الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد. وهذا الميثاق أخذه اللَّه تعالى على كل من أعطاه اللَّه الكتب، وعلمه العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه اللَّه، ولا يكتمهم ذلك، ويبخل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه أو وقع ما يوجب ذلك. فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبينه، ويوضح الحق من الباطل. فأما الموفقون فقاموا بهذا أتم القيام، وعلموا الناس مما علمهم اللَّه، ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق، وخوفًا من إثم الكتمان. وأما الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء

---

(١) التفسير (٢/ ١٥٧).

ظهورهم، فلم يعبأوا بها . فكتموا الحق، وأظهروا الباطل، تجرؤا على محارم اللَّه، وتهاونوا بحقوقه تعالى وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمنًا قليلًا . وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات والأموال الحقيرة من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق .

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لأنه أخس العوض، والذي رغبوا عنه -وهو بيان الحق الذي فيه السعادة الأبدية والمصالح الدينية والدنيوية- أعظم المطالب وأجلها . فلم يختاروا الدون الخسيس، ويتركوا العالي النفيس، إلا لسوء حظهم وهوانهم، وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له»[١] .

قلت: فرحمة اللَّه على الإمام السعدي على هذا البيان الواضح، الذي فصل فيه القول في العلماء العاملين، الذين قاموا بالحق وبه يعدلون، والذين ما تركوا شاذة ولا فاذة إلا بذلوها في نشر العلم والهداية والبيان، فاستعملوا جميع الوسائل التي ملكهم اللَّه تعالى ومكنهم منها، وألقوا كلمة اللَّه بألسنتهم في كل لحظات حياتهم على المنابر في المساجد، وفي المجامع العامة والخاصة، وفي المناسبات الشرعية كالأعراس والعقائق والجنائز، وبلغوا بأقلامهم فكتبوا في توضيح الإسلام وبيانه، وفي مدحه والثناء عليه، وفي بيان الصحيح من معتقده وعبادته، وذبوا عن الإسلام والسنة والتوحيد بأقلامهم وبكل ما يملكون، وأسسوا المدارس، وكونوا الطلبة والتلاميذ، وهكذا ساروا على هذا الدرب؛ بداية من صحابة رسول اللَّه ﷺ، ونهاية بمن أدركنا من أئمة الدعوة السلفية، جزاهم اللَّه عن الإسلام والتوحيد خيرًا .

وأما المنافقون والمرجفون في كل إقليم وبلد، والذين أخذتهم لذة المناصب وطلب المال والاستماع إلى كل صاحب باطل؛ فهؤلاء حاربوا السنة في كل خطبهم وكلماتهم وكتبهم، وأسسوا لذلك القنوات الفضائية والشبكات الإلكترونية، ولم يتركوا في محاربة السنة طريقًا إلا سلكوها، وهم كثر لا كثرهم اللَّه .

وهناك مخنثون جهلة، يزعمون لأنفسهم السنة وهم يحاربونها بالليل والنهار، ويزعمون في نظرهم نصرتها وهم كما قال القائل :

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ... وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٧٠-٤٧١).

والله المستعان.

قال الرازي: «قوله ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ معناه: أنهم أخفوا الحق ليتوسلوا به إلى وجدان شيء من الدنيا، فكل من لم يبين الحق للناس، وكتم شيئًا منه لغرض فاسد، من تسهيل على الظلمة، وتطييب لقلوبهم، أو لجر منفعة، أو لتقية وخوف، أو لبخل بالعلم، دخل تحت هذا الوعيد»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وعيد من كتم العلم

* عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**»[٢].

★ فوائد الحديث:

تقدمت فوائد هذا الحديث في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾.

* * *

(١) تفسير الرازي (٩/ ١٣٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٣-٣٠٥)، وأبو داود (٤/ ٦٧-٦٨/ ٣٦٥٨)، والترمذي (٥/ ٢٩/ ٢٦٤٩) وقال: «حديث أبي هريرة حديث حسن»، وابن ماجه (١/ ٩٦/ ٢٦١)، وابن حبان: الإحسان (١/ ٢٩٧/ ٩٥)، والحاكم (١/ ١٠١) وصححه ووافقه الذهبي، والبغوي في شرح السنة (١/ ٣٠١/ ١٤٠) وقال: «حديث حسن». كلهم من طرق عن علي بن الحكم البناني عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. وفي الباب عن جابر وأنس وعبد الله بن عمرو وأبي سعيد وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وغيرهم ﷺ جميعًا.

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

★ غريب الآية:

أتوا: فعلوا.

بمفازة: بمنجاة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الآية: لا تحسبن يا محمد الذين يفرحون بما أتوا من كتمانهم الناسَ أمرك، وأنك لي رسول مرسل بالحق، وهم يجدونك مكتوبًا عندهم في كتبهم، وقد أخذت عليهم الميثاق بالإقرار بنبوتك، وبيان أمرك للناس، وأن لا يكتموهم ذلك، وهم مع نقضهم ميثاقي الذي أخذت عليهم بذلك يفرحون بمعصيتهم إياي في ذلك، ومخالفتهم أمري، ويحبون أن يحمدهم الناس بأنهم أهل طاعة لله وعبادة وصلاة وصوم، واتباع لوحيه وتنزيله الذي أنزله على أنبيائه، وهم من ذلك أبرياء أخلياء، لتكذيبهم رسوله، ونقضهم ميثاقه الذي أخذ عليهم، لم يفعلوا شيئًا مما يحبون أن يحمدهم الناس عليه ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فلا تظنهم بمنجاة من عذاب اللَّه الذي أعده لأعدائه في الدنيا، من الخسف والمسخ والرجف والقتل، وما أشبه ذلك من عقاب اللَّه، ولا هم ببعيد منه»[(١)].

وقال محمد رشيد رضا: «إن الفرح بالعمل من شأن المغرورين، وليس المراد به هنا ارتياح نفس العامل وانبساطها لما يأتيه من العمل الذي يرى أنه محمود كما فهم مروان، وإنما هو فرح البطر والغرور الذي يتبعه الخيلاء والفخر كما أشرنا إلى

(١) جامع البيان (٧/ ٤٧٢ شاكر).

ذلك، وهو ما نبه عليه القرآن في فائدة المصائب تصيب المؤمنين بقوله ﷻ: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[١] ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ﴾[٢] وهذا الإفراط في الفرح بالنعمة الذي يكون من الضعفاء يقابله عندهم المبالغة في الحزن في المصيبة إلى أن يقع المصاب في اليأس والكفر، وقد بين تعالى حال الفريقين بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٣] أي: لأنهم هم الذين رباهم تعالى بحوادث الزمان وغيره مع إرشادهم إلى وجه الاستفادة من ذلك كما تقدم بيانه مفصلا في سياق تفسير الآيات التي نزلت في غزوة أحد، وإليه أشير بقوله بعد ذكر المصائب ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ﴾[٤] وفي معنى الآيتين مع زيادة في الفائدة آية سورة الروم ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[٥].

ولما كان هذا هو شأن أصحاب هذا النوع من الفرح فرح البطر والغرور- كان مما يتبع ذلك تبع المعلول للعلة والمسبب للسبب ترك الشكر على النعمة باستعمالها فيما ينفع الناس؛ بل يستعملونها فيما يسرهم ويمتعهم بلذاتهم ونعيمهم فيكون ذلك مهلكة للأمة كما قال تعالى في أقوام هذا شأنهم: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٦] ولا يعارض ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٧] لأن السرور بالنعمة مع تذكر أنها فضل من الله لا يحدث بطرًا ولا غرورًا وإنما يحدث شكرًا وإحسانًا في العمل. فإذا فقهت هذا كله علمت أن الذين يفرحون بأعمالهم فرح بطر واختيال وغرور يكونون مستحقين للوعيد بالعذاب، وإن كانت أعمالهم التي بطروا بها وفخروا واغتروا بها وكفروا من الأعمال الحسنة؛ لأن بعض الأعمال الحسنة قد تكون لها عواقب رديئة، وبعض

(١) الإسراء: الآية (٢٣).
(٢) القصص: الآية (٧٦).
(٣) هود: الآية (٩-١١).
(٤) الحديد: الآية (٢٣).
(٥) الروم: الآية (٣٦).
(٦) الأنعام: الآية (٤٤).
(٧) يونس: الآية (٥٨).

الأعمال السيئة قد تكون لها عاقبة حسنة، وفي هذا قال ابن عطاء في حكمه: «رب معصية أورثت ذلًّا وانكسارًا، خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا».

ويؤيد هذا المعنى الذي حققه قوله تعالى في صفات الأخيار: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[1] وما روي من الحديث المرفوع في تفسيره ففي حديث عائشة عند أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه وغيرهم قالت: يا رسول اللَّه قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو مع ذلك يخاف الله؟ قال: «**لا، ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو مع ذلك يخاف اللَّه أن لا يقبل منه**»[2] فهؤلاء هم الذين قال فيهم بعد ما تقدم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[3] بخلاف الذين يفرحون بما أتوا من عمل وما آتوا من صدقة فرح عجب وخيلاء فإنه يغلب عليهم الرياء وحب الثناء والسمعة فيكسلون عن العمل ولا يواظبون عليه.

هذا شأن العمل في الدين ومثله العمل في الدنيا وللدنيا كما يفيدنا البحث في أحوال الأمم، فإن الذين استولى عليهم الغرور ويفرحون ويبطرون بكل عمل يعملونه ويرون أنه منتهى الكمال فلا تنشط هممهم إلى طلب المزيد والمسارعة في الخيرات ولا يقبلون الانتقاد على التقصير»[4].

قال السعدي: «قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾؛ أي: من القبائح، والباطل القولي والفعلي.

﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾؛ أي: بالخير الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه. فجمعوا بين فعل الشر وقوله، والفرح بذلك، ومحبة أن يحمدوا على فعل الخير الذي ما فعلوه.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: بمحل نجوة منه وسلامة؛ بل قد

---

(١) المؤمنون: الآية (٦٠).

(٢) أخرجه: من حديث عائشة ﵂ أحمد (٦/ ١٥٩)، والترمذي (٥/ ٣٠٦-٣٠٧/ ٣١٧٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٤/ ٤١٩٨)، وصححه الحاكم (٢/ ٣٩٣/ ٣٩٤) ووافقه الذهبي. وحسنه الشيخ الألباني لشواهده انظر الصحيحة (١٦٢).

(٣) المؤمنون: الآية (٦١).

(٤) تفسير المنار (٤/ ٢٩١-٢٩٣).

استحقوه، وسيصيرون إليه، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنهم المحقون في حالهم ومقالهم. وكذلك كل من ابتدع بدعة، قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع. ودلت الآية بمفهومها، على أن من أحب أن يحمد ويثنى عليه بما فعله من الخير، واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم. بل هذا من الأمور المطلوبة التي أخبر اللَّه أنه يجزي بها المحسنين في الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه. كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾[1]. وقال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٩ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]. وقد قال عباد الرحمن: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[3] وهي من نعم الباري على عبده، ومننه التي تحتاج إلى الشكر»[4].

وقال محمد رشيد رضا: «كان الكلام في أهل الكتاب لتحذير المسلمين من مثل فعلهم، في سياق الحض على الاستمساك بعروة الحق وحفظه والدعوة إليه، إذ أخذ على أولئك الميثاق فقصروا فيه، وتركوا العمل بالكتاب، وتبيينه للناس، واشتروا به ثمنًا قليلًا فاستحقوا العقاب من اللَّه تعالى. بعد هذا بين في هذه الآية حالًا آخر من أحوال أولئك الغابرين ليحذر المؤمنين منه؛ لأنهم عرضة له، وهو أنهم كانوا يفرحون بما أتوا من التأويل والتحريف للكتاب، ويرون لأنفسهم شرفًا فيه وفضلًا بأنهم أئمة يقتدى بهم، وهذا فرح بالباطل، وكانوا يحبون أن يحمدوا بأنهم حفاظ الكتاب، ومفسروه، وعلماؤه، ومبينوه، والمقيمون له، وهم لم يفعلوا شيئًا من ذلك، وإنما فعلوا نقيضه؛ إذ حولوه عن الهداية إلى ما يوافق أهواء الحكام، وأهواء سائر الناس، يطلبون بذلك حمدهم. بين اللَّه هذه الحال في أسلوب عجيب بين فيه حكمًا آخر وهو أن هؤلاء الفرحين المحبين للمحمدة الباطلة قد اشتبه أمرهم على الناس، فهم يحسبون أنهم أولياء اللَّه، وأنصار دينه، وعلماء كتابه، وأنهم أبعد الناس عن عذابه، وأقربهم من رضوانه، فبين اللَّه كذب هذا الحسبان، ونهى

---

(١) الشعراء: الآية (٨٤).

(٢) الصافات: الآيتان (٧٩-٨٠).

(٣) الفرقان: الآية (٧٤).

(٤) تفسير السعدي (١/ ٤٧١-٤٧٢).

عنه، وسجل عليهم العذاب.

أقول: إن هذه الآية على عمومها مبينة لشيء من الثمن الذي استبدلوه بكتاب اللَّه، وكونه بئس الثمن وهو أمران:

أحدهما: فرحهم بما أتوه من الأعمال فرح غرور، وخيلاء، وفخر، على أن منه نبذ كتاب اللَّه بترك العمل به وعدم تبيينه على وجهه، إما بتحريفه عن مواضعه ليوافق أهواء الحكام أو أهواء الناس، وإما بالسكوت عنه والأخذ بكلام العلماء السابقين تقليدًا بغير حجة إلا ادعاء أنهم كانوا أعلم بالكتاب، وأنهم إن خالفوا بعض نصوصه فلابد أن يكون عندهم دليل أوجب عليهم ذلك.

وثانيهما: حب المدح والثناء بالباطل، فإنهم يتبعون أهواء الحكام والناس في الدين ويحبون أن يحمدوا بأنهم يبينون الحق لوجه اللَّه لا تأخذهم فيه لومة لائم، فإن الحاكم أو غير الحاكم إذا احتاج إلى عمل يرضي به هواه وشهوته مما يحظره عليه الدين فلجأ إلى العالم فعلمه حيلة شرعية يسلم بها من نقد الناقدين، وذم المتدينين فلا شك أنه يحمد ذلك العالم ويطريه بأنه العالم التقي المحقق لا مكافأة له فقط؛ بل يرى من مصلحته أن يعتقد الناس العلم والصلاح في مفتيه ليأخذوا كلامه بالقبول، وقد علمنا من الثقات أن الحكام من كانوا يتواطؤون مع كبار شيوخ العلم وشيوخ الطريق المحترمين عند العامة على تعظيم كل فريق منهم للآخر، فرؤساء الحكام يظهرون للعامة احترام العلماء والاعتقاد بولاية كبار شيوخ أهل الطريق فيقبلون أيديهم عند اللقاء، وربما أهدوا إليهم بعض الهدايا، والمشايخ من العلماء وأهل الطريق يظهرون للعامة احترام أولئك الحكام ويشهدون بقوة دينهم وشدة غيرتهم على الإسلام والمسلمين ووجوب طاعتهم في السر والجهر يقولون- وإن ظلموا وجاروا لأنهم مسلطون من اللَّه ﷻ!! فهكذا كان الظالمون المستبدون وما زالوا يستفيدون من الدين بمساعدة رجاله، ويتفق الرؤساء من الفريقين على إضاعة حقوق الأمة وإذلالها لهم ليتمتعوا بلذة الرياسة ونعيمها فيفرحون بما أتوا من ضروب المكايد السياسية والاجتماعية، والتأويلات الدينية التي ترفع قدرهم، وتخضع العامة لهم، ويحبون أن يحمدوا دائما بأنهم أنصار الدين وحماته، ومبينوا الشرع ودعاته، وإن نبذوا كتاب اللَّه وراء ظهورهم، وتوجهوا إلى كتب أمثالهم وأشباههم، وكانت الأمة لا تزداد كل يوم إلا شقاء بهم، حتى سبقتها الأمم كلها

بسوء سياستهم، ولو أنهم أقاموا الكتاب كما أمروا بالبيان له والعمل به وإلزام الحكام بهديه لما عم الفسق والفجور، وصارت الشعوب الإسلامية دون سائر الشعوب حتى ذهبت سلطتها وتقلص ظلها عن أكثر الممالك التي كانت خاضعة لها، وهي تتوقع نزول الخطر بالباقي وهو أقلها.

وقد كان الأمراء والسلاطين فمن دونهم من كبراء الحكام هم الذين يخطبون ودّ العلماء والمتصوفة، ويستميلونهم إليهم، وهؤلاء يتعززون فيستجيب للرقية بعضهم، ويعتصم بالإباء والتقوى آخرون، ثم انعكست الحال، وضعف سلطان التقوى أمام سلطان الجاه والمال، فصار رجال الدين هم الذين يتهافتون على أبواب الأمراء والسلاطين، فيقرب المنافقون، ويؤذى المحققون المتقون، وتكون مراتب الآخرين على نسبة قربهم من أحد الطرفين.

هذا ما أحببت التذكير به في تبيين العبرة بالآية في سياسة الأمة وعمل رؤساء الدين والدنيا الذين يفرحون بأعمالهم وإن ساءت ويحبون أن يحمدوا بالشعريات الكاذبة التي راجت سوقها في هذا العصر بالصحف المنشرة المعروفة بالجرائد، فالكثير منها قد أتقن هذه الجريمة مدح السلاطين والأمراء والرؤساء بما لم يفعلوا- حتى اطمأنوا باعتقاد السواد الأعظم أن سيئاتهم حسنات، وحتى بطلت فائدة المحمدة الصحيحة وحب الثناء بالحق والشكر على العمل فانهدّ بذهاب هذه الفائدة ركن من أركان التربية والإصلاح القومي والشخصي، فإن حب الحمد غريزة من أقوى غرائز البشر التي تنهض بالهمم، وتحفز العزائم إلى الأعمال العظيمة النافعة رغبة في اقتطاف ثمار الثناء عليها، فإذا كان الإنسان يدرك هذا الثناء الذي يستحقه العاملون بدون أن يكلف نفسه عناء العمل للأمة ونفع الناس بكذب الجرائد في حمده والثناء عليه بالباطل قعدت همته، ووهت عزيمته، وأخلد إلى الراحة أو اشتغل بالعمل للذته فقط.

فإذا كان العالم الذي ينتمي إلى الأمراء والسلاطين، وينال الحظوة عندهم لا يوثق بعلمه ولا بدينه كما تقدم بيانه والاستدلال عليه بالأحاديث والآثار فأصحاب الجرائد أولى بعدم الثقة بأخبارهم وآرائهم إذا كانوا كذلك، وأنى للعوام المساكين فهم هذا وإدراك سره، والجهل غالب، والغش رائج، والناصح المخلص نادر؟ وقد صارت حاجة الملوك والأمراء المستبدين إلى حمد الجرائد توازي

حاجتهم إلى حمد رجال الدين في غش الأمة أو تزيد عليها، ولذلك يغدقون عليهم النعم، ويقربونهم، ويحلونهم بالرتب وشارات الشرف التي تعرف بالأوسمة أو النياشين، كما يحرص على إرضائهم كل محبي الشهرة بالباطل من الأغنياء والوجهاء.

لولا أن حب المحمدة بالحق على العمل النافع من غرائز الفطرة التي يستعان بها على التربية العالية لما قيد اللَّه الوعيد على حب الحمد بقوله: ﴿بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾ فهذا القيد يدل على أن حب الثناء على العمل النافع غير مذموم ولا متوعد عليه، وهذا هو الذي يليق بدين الفطرة؛ بل جاء في الكتاب الحكيم ما يدل على مدح هذه الغريزة كقوله تعالى لنبيه: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[1] وقوله في القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[2]. نعم إن هناك مرتبة أعلى من مرتبة من يعمل الحسنات ليحمد عليها وهي مرتبة من يعملها حبًّا بالخير لذاته وتقربا به إلى اللَّه تعالى»[3].

قلت: رحمة اللَّه على هذا العالم، على توضيحه وبيانه، وعلى فضحه لهذا الواقع السيئ الذي صارت فيه الأمور على غير وجهها، وأصبح كل مارق وزنديق يظهر نفسه بالتقي النقي، ويمدح نفسه بذلك، ويمدحه المنافقون الذين يتاجرون بنفاقهم، وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا مكابر. وفي ما قاله الشيخ محمد رشيد رضا كفاية ومعتبر، واللَّه المستعان.

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وذم من أحب أن يحمد بما لم يفعل

* عن أبي سعيد الخدري: أن رجالًا من المنافقين على عهد رسول اللَّه ﷺ كان إذا خرج رسول اللَّه ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول اللَّه ﷺ، فإذا قدم رسول اللَّه ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا. فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ . . » الآية[4].

---

(١) الشرح: الآية (٤). (٢) الزخرف: الآية (٤٤).
(٣) تفسير المنار (٤/ ٢٨٨).
(٤) أخرجه: البخاري (٨/ ٢٩٥/ ٤٥٦٧)، ومسلم (٤/ ٢١٤٢/ ٢٧٧٧).

* عن ابن أبي مليكة أن علقمة بن وقاص أخبره أن مروان قال لبوابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبًا لنعذبن أجمعون. فقال ابن عباس: وما لكم ولهذه؟ إنما دعا النبي ﷺ يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم. ثم قرأ ابن عباس ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كذلك حتى قوله ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟﴾[(١)].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله: «**إن رجالًا من المنافقين**»: هكذا ذكره أبو سعيد الخدري في سبب نزول الآية، وأن المراد من كان يعتذر عن التخلف من المنافقين، وفي حديث ابن عباس الذي بعده أن المراد من أجاب من اليهود بغير ما سئل عنه، وكتموا ما عندهم من ذلك، ويمكن الجمع بأن تكون الآية نزلت في الفريقين معًا، وبهذا أجاب القرطبي وغيره، وحكى الفراء أنها نزلت في قول اليهود: نحن أهل الكتاب الأول والصلاة والطاعة، ومع ذلك لا يقرون بمحمد فنزلت ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا. وروى بن أبي حاتم من طرق أخرى عن جماعة من التابعين نحو ذلك ورجحه الطبري، ولا مانع أن تكون نزلت في كل ذلك، أو نزلت في أشياء خاصة وعمومها يتناول كل من أتى بحسنة ففرح بها فرح إعجاب، وأحب أن يحمده الناس ويثنوا عليه بما ليس فيه، والله أعلم»[(٢)].

* عن أسماء: أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن لي ضرة، فهل علي جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال رسول الله ﷺ: «**المتشبِّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور**»[(٣)].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٩٨)، والبخاري (٨/ ٢٩٥/ ٤٥٦٨)، ومسلم (٤/ ٢١٤٣/ ٢٧٧٨)، والترمذي (٥/ ٢١٧/ ٣٠١٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١٨/ ١١٠٨٦).

(٢) فتح الباري (٨/ ٢٩٥-٢٩٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٤٥)، والبخاري (٩/ ٣٩٦/ ٥٢١٩)، ومسلم (٣/ ١٦٨١/ ٢١٣٠)، وأبو داود (٥/ ٢٦٩-٢٧٠/ ٤٩٩٧)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٩٢/ ٨٩٢١).

★ **غريب الحديث:**

المتشبع: التشبع تفعل من الشبع وهو الذي يظهر الشبع وليس بشبعان، وكثيرًا ما تأتي هذه الصيغة بمعنى التعاطي كالتكبر والتصنع.

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «قال العلماء: معناه المتكثر بما ليس عنده بأن يظهر أن عنده ما ليس عنده يتكثر بذلك عند الناس، ويتزين بالباطل فهو مذموم كما يذم من لبس ثوبي زور. قال أبو عبيد وآخرون: هو الذي يلبس ثياب أهل الزهد والعبادة والورع، ومقصوده أن يظهر للناس أنه متصف بتلك الصفة، ويظهر من التخشع والزهد أكثر مما في قلبه، فهذه ثياب زور ورياء. وقيل: هو كمن لبس ثوبين لغيره وأوهم أنهما له. وقيل: هو من يلبس قميصًا واحدًا ويصل بكميه كمين آخرين فيظهر أن عليه قميصين. وحكى الخطابي قولًا آخر: أن المراد هنا بالثوب الحالة والمذهب، والعرب تكني بالثوب عن حال لابسه ومعناه أنه كالكاذب القائل ما لم يكن. وقولا آخر: أن المراد الرجل الذي تطلب منه شهادة زور فيلبس ثوبين يتجمل بهما، فلا ترد شهادته لحسن هيئته، واللَّه أعلم»(١).

* عن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ قال: «**من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده اللَّه إلا قلة**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال القرطبي: «يعني -واللَّه أعلم-: أن من تظاهر بشيء من الكمال وتعاطاه وادّعاه لنفسه وليس موصوفًا به، لم يحصل له من ذلك إلا نقيض مقصوده، وهو النقص، فإن كان المدّعى مالًا لم يبارك له فيه، أو علمًا أظهر اللَّه جهله، فاحتقره الناس، فقلّ مقداره عندهم، وكذلك لو ادّعى دينًا أو نسبًا أو غير ذلك، فضحه

---

(١) شرح مسلم (١٤/ ٩٣).

(٢) أخرجه: مسلم (١/ ١٠٤/ ١١٠ تحت حديث ١٧٦) مطولا. وأخرجه: أحمد (٤/ ٣٣-٣٤)، والبخاري (٣/ ٢٩٠/ ١٣٦٣)، ومسلم (١/ ١٠٤/ ١١٠[١٧٦])، وأبو داود (٣/ ٥٧٣-٥٧٤/ ٣٢٥٧)، والترمذي (٤/ ٩٨/ ١٥٤٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (٧/ ٩/ ٣٧٧٩)، وابن ماجه (١/ ٦٧٨/ ٢٠٩٨). كلهم من طرق عن أبي قلابة عن ثابت بن الضحاك قال: قال رسول اللَّه ﷺ فذكره دون ذكر موضع الشاهد.

اللَّه، وأظهر باطله، فقلّ مقداره، وذلّ نفسه، فحصل على نقيض قصده»[١].

قال ابن الجوزي: «وذلك أنه من طلب تحصيل شيء من الدنيا بالمعصية عوقب بانعكاس مقصوده»[٢].

وقال أيضًا: «فائدة الحديث الزجر عن الرياء وتعاطيه، ولو كان بأمور الدنيا»[٣].

* * *

(١) المفهم (١/ ٣١٥).

(٢) كشف المشكل (٢/ ٢٣١).

(٣) المفهم (١/ ٣١٥).

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «هذا تكذيب من اللَّه -جل ثناؤه- الذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ يقول -تعالى ذكره- مكذبًا لهم: لله ملك جميع ما حوته السموات والأرض، فكيف يكون أيها المفترون على اللَّه من كان ملك ذلك له فقيرا؟ ثم أخبر -جل ثناؤه- أنه القادر على تعجيل العقوبة لقائلي ذلك، ولكل مكذب به، ومفتر عليه، وعلى غير ذلك مما أراد وأحب، ولكنه تفضل بحلمه على خلقه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ يعني: من إهلاك قائلي ذلك، وتعجيل عقوبته لهم، وغير ذلك من الأمور»(١).

قال ابن كثير: «أي: هو مالك كل شيء، والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نقمته وغضبه، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه»(٢).

وقال محمد رشيد رضا: «قال الأستاذ الإمام: عطف هذه الآية على ما قبلها لاتصالها بالآيات التي قبلها، فالواو فيها عاطفة للجملة المستقلة على مثلها، كأنه يقول: لا تحزنوا أيها المؤمنون ولا تضعفوا، واصبروا، واتقوا، ولا تخورنّ عزائمكم، بينوا الحق ولا تكتموا منه شيئًا، ولا تشتروا بآيات اللَّه ثمنًا قليلًا، ولا تفرحوا بما عملتم، ولا تحبوا أن تحمدوا بما لم تفعلوا، فإن اللَّه تعالى يكفيكم ما أهمكم، ويغنيكم عن هذه المنكرات التي نهيتم عنها، فإن ملك السموات والأرض كله له، يعطي منه ما يشاء، وهو على كل شيء قدير، لا يعزب عليه نصركم على الذين يؤذونكم بأيديهم وألسنتهم من أهل الكتاب والمشركين، وإليه ترجع الأمور؛ لأنه هو الذي يدبرها بحكمته وسننه في خلقه.

---

(١) جامع البيان (٧/ ٤٧٣ شاكر).

(٢) التفسير (٢/ ١٥٩).

وفي هذا التذييل حجة على كون الخير في اتباع ما أرشد إليه تعالى، وتسلية للنبي ﷺ وللمؤمنين، ووعد لهم بالنصر، وفيه تعريض بذم أولئك المخالفين الذين سبق وصفهم في الآيات التي قبل هذه الآية، وهو أنهم لا يؤمنون بالله تعالى إيمانًا صحيحًا يظهر أثره في أخلاقهم وأعمالهم وإلا لما تركوا العمل بكتابه، وآثروا عليه ما يستفيدونه من حطام الدنيا، فإن هذا لا يكون إلا من عدم الثقة بوعده تعالى والخوف من وعيده، واليقين بقدرته وتدبيره»[١].

* * *

(١) تفسير المنار (٤/ ٢٩٥-٢٩٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قال -جل ثناؤه-: تدبروا أيها الناس، واعتبروا ففيما أنشأته فخلقته من السموات والأرض لمعاشكم وأقواتكم وأرزاقكم، وفيما عقبت بينه من الليل والنهار، فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم، تتصرفون في هذا لمعاشكم، وتسكنون في هذا راحة لأجسادكم، معتبر ومدكر وآيات وعظات، فمن كان منكم ذا لب وعقل يعلم أن من نسبني إلى أني فقير وهو غني كاذب مفتر، فإن ذلك كله بيدي، أقلبه وأصرفه، ولو أبطلت ذلك لهلكتم، فكيف ينسب إلى فقر من كان كل ما به عيش ما في السموات والأرض بيده وإليه؟ أم كيف يكون غنيًّا من كان رزقه بيد غيره، إذا شاء رزقه، وإذا شاء حرمه؟ فاعتبروا يا أولي الألباب»[(١)].

قال ابن كثير: «معنى الآية أنه يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: هذه في ارتفاعها واتساعها، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات، وثوابت وبحار وجبال وقفار وأشجار ونبات وزروع وثمار وحيوان ومعادن ومنافع مختلفة الألوان والروائح والطعوم والخواص، ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر، فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيرا، ويقصر الذي كان طويلًا، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم، ولهذا قال تعالى ﴿لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا

(١) جامع البيان (٧/ ٤٧٣-٤٧٤ شاكر).

مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(١)»(٢).

قال السعدي: «في ضمن ذلك حث العباد على التفكر فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها. وأبهم قوله: «آيات» ولم يقل: على المطلب الفلاني إشارة لكثرتها وعمومها. وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية. فأما تفصيل ما اشتملت عليه فلا يمكن مخلوقا أن يحصره، ويحيط ببعضه.

وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان وبديع الصنع ولطائف الفعل يدل على حكمة اللَّه ووضعه الأشياء مواضعها وسعة علمه. وما فيها من المنافع للخلق يدل على سعة رحمة اللَّه، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره.

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وخص اللَّه بالآيات أولي الألباب وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تعلقه ﷺ بالتوحيد، وارتباطه بربه في يقظته ونومه، واستدلاله على عظمة ربه بما أنزله عليه في كتابه

* عَنْ كُرَيْبٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ بَاتَ لَيْلَةً عِنْدَ مَيْمُونَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ وَهِيَ خَالَتُهُ، فَاضْطَجَعْتُ فِي عَرْضِ الْوِسَادَةِ، وَاضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَهْلُهُ فِي طُولِهَا، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ يَمْسَحُ النَّوْمَ عَنْ وَجْهِهِ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَرَأَ الْعَشْرَ الْآيَاتِ الْخَوَاتِمَ مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى شَنٍّ مُعَلَّقَةٍ فَتَوَضَّأَ مِنْهَا فَأَحْسَنَ وُضُوءَهُ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ، ثُمَّ

---

(١) يوسف: الآيتان (١٠٥-١٠٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ١٥٩).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٧٣-٤٧٤).

ذَهَبْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى رَأْسِي، وَأَخَذَ بِأُذُنِي الْيُمْنَى يَفْتِلُهَا، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَوْتَرَ، ثُمَّ اضْطَجَعَ حَتَّى أَتَاهُ الْمُؤَذِّنُ، فَقَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ»(١).

★ غريب الحديث:

يمسح النوم: أي: يمسح بيده عينيه، من باب إطلاق اسم الحال على المحل، أو أثر النوم من باب إطلاق السبب على المسبب.

شن: جمعها شنان: الأسقية الخلقة، وهي أشد تبريدًا للماء من الجدد.

يفتلها: يدلكها ويعركها.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «فيه استحباب قراءة هذه الآيات عند القيام من النوم»(٢).

قال الباجي: «قوله: «**ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران**» يعني: من قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى آخر السورة، ويحتمل أن يفعل ذلك ليبتدئ يقظته بذكر اللَّه، ويختمها بذكر اللَّه عند نومه، ويحتمل أن يفعل ذلك لذكر اللَّه تعالى وليذكر من ندب إليه من العبادة، وما وعد على ذلك من الثواب، وتوعد على معصيته من العقاب، فإن هذه الآيات جامعة لكثير من ذلك ليكون ذلك تنشيطًا له على العبادة»(٣).

والحديث بوب عليه البخاري: «باب ما جاء في تخليق السموات والأرض وغيرها من الخلائق، وهو فعل الرب -تبارك وتعالى- أمره، فالرب بصفاته وفعله وأمره وهو الخالق المكوِّن غير مخلوق، وما كان بفعله وأمره وتخليقه وتكوينه فهو مفعول مخلوق مكوَّن»(٤).

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٠)، والبخاري (١/ ٣٨١/ ١٨٣)، ومسلم (١/ ٥٢٥-٥٢٦/ ٧٦٣)، وأبو داود (٢/ ١٠٠/ ١٣٦٧)، والنسائي (٣/ ٢٣٢-٢٣٣/ ١٦١٩)، وابن ماجه (١/ ٤٣٣-٤٣٤/ ١٣٦٣).

(٢) شرح مسلم (٦/ ٤٢).

(٣) المنتقى (١/ ٢١٨).

(٤) فتح الباري (١٣/ ٥٣٨).

قال ابن بطال: «غرضه من هذا الباب أن يعرفك أن السموات والأرض وما بينهما كل ذلك مخلوق لقيام دلائل الحدث بها من الآيات المشاهدات، من انتظام الحكمة واتصال المعيشة للخلق فيهما، وقام برهان العقل على ألا خالق غير اللَّه وبطل قول من يقول أن الطبائع خالقة العالم، وأن الأفلاك السبعة هي الفاعلة، وأن النور والظلمة خالقان، وقول من زعم أن العرش هو الخالق. وفسدت جميع هذه الأقوال لقيام الدليل على حدوث ذلك كله وافتقاره إلى محدث لاستحالة وجود محدث لا محدث له، كاستحالة وجود مضروب لا ضارب له، وكتاب اللَّه شاهد بصحة هذا، وهو قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾[1] فنفى خالقًا سواه، وقال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾[2] وقال عقيب ذلك: ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ ثم قال لنبيّه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ ودلّ على ذلك أيضًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

فاستدل بآيات السموات والأرض على قدرة اللَّه ووحدانيته، فوجب أن يكون الخلاق العليم بجميع صفاته من الخلق والأمر والفعل والسمع والبصر والتكوين للمخلوقات كلها خالقًا غير مخلوق الذات والصفات، وأن القرآن صفة له غير مخلوق، ووجب أن يكون الخالق مخالفًا لسائر المخلوقات، ووجه خلافه لها انتفاء قيام الحوادث عنه الدالة على حدث من تقوم به، ولزم أن يكون ما سواه من مخلوقاته التي كانت عن قوله وأمره وفعله وتكونيه مخلوقات له، هذا موجب العقل»[3].

* * *

(١) فاطر: الآية (٣).

(٢) الرعد: الآية (١٦).

(٣) شرح ابن بطال (١٠/ ٤٧٥).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمٗا وَقُعُودٗا﴾ من نعت أولي الألباب، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع خفض ردًّا على قوله: ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

ومعنى الآية: إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذاكرين اللَّه قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم يعني بذلك: قيامًا في صلاتهم، وقعودًا في تشهدهم، وفي غير صلاتهم، وعلى جنوبهم نيامًا»(١).

وقال: «يعني بذلك: أنهم يعتبرون بصنعة صانع ذلك، فيعلمون أنه لا يصنع ذلك إلا من ليس كمثله شيء، ومن هو مالك كل شيء ورازقه، وخالق كل شيء ومدبره، ومن هو على كل شيء قدير، وبيده الإغناء والإفقار، والإعزاز والإذلال، والإحياء والإماتة، والشقاء والسعادة»(٢).

قال السعدي: «دل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء اللَّه العارفين، فإذا تفكروا بها عرفوا أن اللَّه لم يخلقها عبثًا»(٣).

قال الشنقيطي: «ذكر في هذه الآية أن من جملة ما يقوله أولو الألباب تنزيه ربهم عن كونه خلق السموات والأرض باطلًا، لا لحكمته ﷻ على ذلك علوًّا كبيرًا. وصرح في موضع آخر بأن الذين يظنون ذلك هم الكفار، وهددهم على ذلك الظن السَّيِّئ بالويل من النار، وهو قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ

---

(١) جامع البيان (٧/ ٤٧٤ شاكر).
(٢) جامع البيان (٧/ ٤٧٥ شاكر).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٧٥).

كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن القيم: «وتأمل كيف أخبر سبحانه عنه بنفي الباطلية عن خلقه، دون إثبات الحكمة؛ لأن بيان نفي الباطل على سبيل العموم والاستغراق أوغل في المعنى المقصود، وأبلغ من إثبات الحكم؛ لأن بيان جميعها لا يفي به أفهام الخليقة، وبيان البعض يؤذن بتناهي الحكمة.

ونفي البطلان والخلو عن الحكمة والفائدة تفيد أن كل جزء من أجزاء العالم علويه وسفليه متضمن لحكم جمة وآيات باهرة. ثم أخبر سبحانه عنهم بتنزيهه عن الخلق باطلا خلوا عن الحكمة. ولا معنى لهذا التنزيه عند النفاة، فإن الباطل عندهم هو المحال لذاته فعلى قولهم نزهوه عن المحال لذاته الذي ليس بشيء؟ كالجمع بين النقيضين وكون الجسم الواحد لا يكون في مكانين؟ ومعلوم قطعًا أن هذا ليس مراد الرب تعالى مما نزه نفسه عنه، وأنه لا يمدح أحد بتنزيهه عن هذا، ولا يكون المنزه به مثنيًا ولا حامدًا ولم يخطر هذا بقلب بشر حتى ينكره اللَّه على من زعمه ونسبه إليه»[(٣)].

قلت: هذا الذي ذكره الإمام ابن القيم في توضيح هذه الآية الكريمة؛ فيه رد على الجبرية الذين ينزهون اللَّه بزعمهم عن الحكمة والعلل، وهو مذهب باطل، تردّه نصوص القرآن وصحيح السنن، وهو مذهب الأشاعرة والماتريدية ومتأخريهم؛ هداهم اللَّه.

وقال السعدي: «﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بأن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات لننال بذلك النجاة من النار. ويتضمن ذلك سؤال الجنة؛ لأنهم إذا وقاهم اللَّه عذاب النار حصلت لهم الجنة. ولكن لما قام الخوف بقلوبهم دعوا اللَّه بأهم الأمور عندهم»[(٤)].

وقال محمد رشيد رضا: «وهذه الآيات تظهر لكل أحد على قدر علمه وفهمه وجودة فكره، فأما علماء الهيئة فإنهم يعرفون من نظامها ما يدهش العقل، وأما سائر الناس فحسبهم هذه المناظر البديعة، والأجرام الرفيعة وما فيها من الحسن

---

(١) ص: الآية (٢٧).
(٢) أضواء البيان (١/ ٢١٩).
(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٤٩٩).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٧٥).

والروعة. وخص أولي الألباب بالذكر مع أن كل الناس أولي ألباب؛ لأن من اللب ما لا فائدة فيه كلُبّ الجوز ونحوه إذا كان عفنا، وكذا تفسد ألباب بعض الناس وتعفن فهي لا تهتدي إلى الاستفادة من آيات اللّه في خلق السموات والأرض وغيرهما. وإنما سمي العقل لبًّا؛ لأن اللب هو محل الحياة من الشيء وخاصته وفائدته، وإنما حياة الإنسان الخاصة به هي حياته العقلية، وكل عقل متمكن من الاستفادة من النظر في هذه الآيات والاستدلال بها على قدرة اللّه وحكمته، ولكن بعضهم لا ينظر ولا يتفكر، وإنما العقل الذي ينظر ويستفيد ويهتدي هو الذي وصف أصحابه بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ والذكر في الآية على عمومه لا يخص بالصلاة، والمراد بالذكر ذكر القلوب وهو إحضار اللّه تعالى في النفس، وتذكر حكمه، وفضله، ونعمه في حال القيام والقعود والاضطجاع، وهذه الحالات الثلاث التي لا يخلوا العبد عنها تكون فيها السموات والأرض معه لا يتفارقان. والآيات الإلهية لا تظهر من السموات والأرض إلا لأهل الذكر فكأين من عالم يقضي ليله في رصد الكواكب فيعرف منها ما لا يعرف الناس ويعرف من نظامها وسننها وشرائعها ما لا يعرف الناس وهو يتلذذ بذلك العلم ولكنه مع هذا لا تظهر له هذه الآيات لأنه منصرف عنها بالكلية.

ثم إن ذكر اللّه تعالى لا يكفي في الاهتداء إلى الآيات، ولكن يشترط مع الذكر التفكر فيها، فلابد من الجمع بين الذكر والفكر، فقد يذكر المؤمن باللّه ربه ولا يتفكر في بديع صنعه وأسرار خليقته، ولذلك قال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أقول: قد يتفكر المرء في عجائب السموات والأرض وأسرار ما فيهما من الإتقان، والإبداع، والمنافع الدالة على العلم المحيط، والحكمة البالغة، والنعم السابغة، والقدرة التامة، وهو غافل عن العليم الحكيم القادر الرحيم الذي خلق ذلك في أبدع نظام، وكم من ناظر إلى صنعة بديعة لا يخطر في باله صانعها اشتغالا بها عنه، فالذين يشتغلون بعلم ما في السموات والأرض وهم غافلون عن خالقهما ذاهلون عن ذكره يمتعون عقولهم بلذة العلم، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة اللّه ﷻ، فمثلهم كما قال الأستاذ الإمام: كمثل من يطبخ طعاما شهيا يغذي به جسده ولكنه لا يرقي به عقله؛ يعني: أن الفكر وحده وإن كان

مفيدا لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذكر، والذكر وإن أفاد في الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر، فيا طوبى لمن جمع بين الأمرين، واستمتع بهاتين اللذتين، فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ونجوا من عذاب النار في الآخرة، فتلك النعمة التي لا تفضلها نعمة، واللذة التي لا تعلوها لذة؛ لأنها هي التي يهون معها كل كرب، ويسلس كل صعب، وتعظم كل نعمة، وتتضاءل كل نقمة، تلك اللذة التي تتجلى مع الذكر في كل شيء. .

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: يقول الذين يجمعون بين التذكر والتفكر معبرين عن نتيجة جمع الأمرين، والتأليف بين المقدمتين، ربنا ما خلقت هذا الذي نراه من العوالم السماوية والأرضية باطلًا، ولا أبدعته وأتقنته عبثًا، سبحانك وتنزيهًا لك عن الباطل والعبث؛ بل كل خلقك حق مؤيد بالحكم، فهو لا يبطل ولا يزول، وإن عرض له التحول والتحليل والأفول، ونحن بعض خلقك لم نخلق عبثًا، ولا يكون وجودنا من كل وجه باطلًا، فإن فنيت أجسادنا، وتفرقت أجزاؤنا، بعد مفارقة أرواحنا لأبداننا، فإنما يهلك منا كوننا الفاسد، ووجهنا الممكن الحادث، ويبقى وجهك الكريم، ومتعلق علمك القديم، يعود بقدرتك في نشأة أخرى، كما بدأته في النشأة الأولى، فريق ثبتت لهم الهداية، وفريق حقت عليهم كلمة الضلالة، فأولئك في الجنة بعملهم وفضلك، وهؤلاء في النار بعملهم وعدلك، ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ بعنايتك وتوفيقك لنا، واجعلنا مع الأبرار بهدايتك إيانا ورحمتك بنا»[1].

قلت: ما أجمل هذه الكلمات الرائعة التي تنبع من قلب رجل عارف لما يقول وما ينقل! فقد قرر في هذه الكلمة المباركة الطيبة أن الذي ينتفع برؤية هذه الأكوان هو الذي يجمع بين الفكر وبين الذكر، ويربط الربوبية الكاملة التي تتجلى في كل جزء من أجزاء هذه الأكوان؛ علويها وسفليها، حيوانها وجمادها، متحركها وساكنها بخالقها وبارئها.

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد

وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ فيما قال: إن بعض الناس قد يتخصص في دراسة الأفلاك،

(١) تفسير المنار (٤/ ٢٩٨-٣٠٠).

ويتخصص في معرفة نظامها ومنازلها وأوقاتها ودورانها وإضاءتها وحركاتها وسكناتها وتناسب أجرامها، ومع ذلك لا يستفيد من هذه الدراسة شيئًا، وقد بلغنا أن بعض الكفار المتخصصين في هذا العلم -أي علم الفلك- أسلموا واعترفوا للَّه بالألوهية والعبودية؛ لما رأوه من آيات تدهش العقول وتحيرها، ولا يستطيع أحد أن يدعي أن له يدًا في هذه الأكوان، ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[1]. فنرجو اللَّه أن يجمع لنا بين النظر والفكر، وبين الاعتبار وتحقيق الألوهية لخالق هذه الأكوان سبحانه.

وقال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما ذكر دلائل الإلهية والقدرة والحكمة وهو ما يتصل بتقرير الربوبية ذكر بعدها ما يتصل بالعبودية، وأصناف العبودية ثلاثة أقسام: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى عبودية اللسان، وقوله: ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى عبودية الجوارح والأعضاء، وقوله: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى عبودية القلب والفكر والروح، والإنسان ليس إلا هذا المجموع، فإذا كان اللسان مستغرقا في الذكر، والأركان في الشكر، والجنان في الفكر، كان هذا العبد مستغرقا بجميع أجزائه في العبودية، فالآية الأولى دالة على كمال الربوبية، وهذه الآية دالة على كمال العبودية، فما أحسن هذا الترتيب في جذب الأرواح من الخلق إلى الحق، وفي نقل الأسرار من جانب عالم الغرور إلى جناب الملك الغفور»[2].

قلت: فهذا الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقرر أقسام التوحيد ويوضحها تمام التوضيح، فيفسر توحيد الربوبية على حدة، ويفسر توحيد الألوهية على حدة، فما بال المخرفين والمنحرفين من ذيول الصوفية والأشاعرة ينكرون على الإمام ابن تيمية تقسيمه للتوحيد وتقريره لهذا؟! مع أنه مسبوق بهذا التقسيم كما هو واقع في كتاب الإمام ابن منده الذي سماه (كتاب التوحيد)، فالناعقون الذين يركضون وراء كل باطل يحاولون إضلال الناس بالطعن في أئمة السلف، ومن أعظمهم الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) الطور: الآيتان (٣٥و٣٦).

(٢) تفسير الرازي (٩/ ١٤١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز ذكر اللَّه على كل حال

* عن عمران بن حصين قال: كانت بي بواسير فسألت النبي ﷺ عن الصلاة؟ فقال: «**صلِّ قائمًا، فإن لم تستطع فقاعدًا، فإن لم تستطع فعلى جنب**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قوله: «**فإن لم تستطع فقاعدا**» **قال الحافظ**: «لم يبين كيفية القعود، فيؤخذ من إطلاقه جوازه على أي صفة شاء المصلي، وهو قضية كلام الشافعي في البويطي، وقد اختلف في الأفضل فعن الأئمة الثلاثة يصلي متربعًا، وقيل يجلس مفترشًا وهو موافق لقول الشافعي في مختصر المزني، وصححه الرافعي ومن تبعه، وقيل متوركًا وفي كل منها أحاديث»[٢].

وقال: «استدل به من قال لا ينتقل المريض إلى القعود إلا بعد عدم القدرة على القيام، وقد حكاه عياض عن الشافعي، وعن مالك وأحمد وإسحاق: لا يشترط العدم بل وجود المشقة، والمعروف عند الشافعية أن المراد بنفي الاستطاعة وجود المشقة الشديدة بالقيام، أو خوف زيادة المرض أو الهلاك، ولا يكتفي بأدنى مشقة، ومن المشقة الشديدة دوران الرأس في حق راكب السفينة، وخوف الغرق لو صلى قائما فيها»[٣].

وقال: «واستدل به على تساوي عدم الاستطاعة في القيام والقعود في الانتقال[٤].

قال ابن عبد البر: «هذا يبين لك أن القيام لا يسقط فرضه إلا بعدم الاستطاعة، ثم كذلك القعود إذا لم يستطع، ثم كذلك شيء شيء، يسقط عند عدم القدرة عليه، حتى يصير إلى الإغماء، فيسقط جميع ذلك. وهذا كله في الفرض لا في النافلة»[٥].

* عن عمران بن حصين قال: سألت رسول اللَّه ﷺ عن صلاة الرجل قاعدًا

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٢٦)، والبخاري (٢/ ٧٤٧/ ١١١٧)، وأبو داود (١/ ٥٨٥/ ٩٥٢)، والترمذي (٢/ ٢٠٨/ ٣٧٢)، وابن ماجه (١/ ٣٨٦/ ١٢٢٣).

(٢) الفتح (٢/ ٧٤٥-٧٤٦).

(٣) الفتح (٢/ ٧٤٨).

(٤) الفتح (٢/ ٧٤٨).

(٥) التمهيد (فتح البر: ٦/ ٢٨-٢٩).

فقال: «**إن صلى قائمًا فهو أفضل، ومن صلى قاعدًا فله نصف أجر القائم، ومن صلى نائمًا فله نصف أجر القاعد**»(١).

★ فوائد الحديث:

قوله: «**عن صلاة الرجل قاعدًا**» **قال الخطابي**: «كنت تأولت هذا الحديث على أن المراد به صلاة التطوع -يعني: للقادر- لكن قوله: «**من صلى نائمًا**» يفسده؛ لأن المضطجع لا يصلي التطوع كما يفعل القاعد؛ لأني لا أحفظ عن أحد من أهل العلم أنه رخص في ذلك، قال: فإن صحت هذه اللفظة ولم يكن بعض الرواة أدرجها قياسًا منه للمضطجع على القاعد كما يتطوع المسافر على راحلته فالتطوع للقادر على القعود مضطجعًا جائز بهذا الحديث. قال: وفي القياس المتقدم نظر؛ لأن القعود شكل من أشكال الصلاة بخلاف الاضطجاع. قال: وقد رأيت الآن أن المراد بحديث عمران المريض المفترض الذي يمكنه أن يتحامل فيقوم مع مشقة، فجعل أجر القاعد على النصف من أجر القائم ترغيبًا له في القيام مع جواز قعوده انتهى». وقال الحافظ: «وهو حمل متجه... فمن صلى فرضًا قاعدًا وكان يشق عليه القيام أجزأه، وكان هو ومن صلى قائمًا سواء»(٢).

وقال النووي: «وهذا محمول على صلاة النفل قاعدًا مع القدرة على القيام فهذا له نصف، وأما إذا صلى النفل قاعدا لعجزه عن القيام فلا ينقص ثوابه بل يكون كثوابه قائمًا، وأما الفرض فإن الصلاة قاعدًا مع قدرته على القيام لم يصح فلا يكون فيه ثواب بل يأثم به. قال أصحابنا: وإن استحله كفر وجرت عليه أحكام المرتدين، كما لو استحل الزنا والربا أو غيره من المحرمات الشائعة التحريم، وإن صلى الفرض قاعدًا لعجزه عن القيام أو مضطجعًا لعجزه عن القيام والقعود فثوابه كثوابه قائما لم ينقص باتفاق أصحابنا، فيتعين حمل الحديث في تنصيف الثواب على من صلى النفل قاعدًا مع قدرته على القيام، هذا تفصيل مذهبنا وبه قال الجمهور في تفسير هذا الحديث، وحكاه القاضي عياض عن جماعة منهم الثوري وابن

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٣)، والبخاري (٢/ ٧٤٣/ ١١١٥)، وأبو داود (٢/ ٥٨٤/ ٩٥١)، والترمذي (٢/ ٢٠٧/ ٣٧١)، والنسائي (٣/ ٢٤٨/ ١٦٥٩)، وابن ماجه (١/ ٣٨٨/ ١٢٣١).

(٢) الفتح (٢/ ٧٤٤).

الماجشون، وحكى عن الباجي -من أئمة المالكية- أنه حمله على المصلي فريضة لعذر أو نافلة لعذر أو لغير عذر. قال: وحمله بعضهم على من له عذر يرخص في القعود في الفرض والنفل ويمكنه القيام بمشقة»(١).

قوله: «ومن صلى قاعدا»: **قال الحافظ**: «يستثنى من عمومه النبي ﷺ، فان صلاته قاعدًا لا ينقص أجرها عن صلاته قائما لحديث عبد اللَّه بن عمرو قال: بلغني أن النبي ﷺ قال: «**صلاة الرجل قاعدًا على نصف الصلاة**» فأتيته فوجدته يصلي جالسًا فوضعت يدي على رأسي، فقال: «**ما لك يا عبد الله**» فأخبرته، فقال: «**أجل، ولكني لست كأحد منكم**» أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي(٢)، وهذا ينبني على أن المتكلم داخل في عموم خطابه وهو الصحيح. وقد عد الشافعية في خصائصه ﷺ هذه المسألة»(٣).

قال النووي: «فالصواب ما قاله أصحابنا أن نافلته ﷺ قاعدًا مع القدرة على القيام ثوابها كثوابه قائمًا، وهو من الخصائص، واللَّه أعلم»(٤).

* * *

---

(١) شرح مسلم (٦/ ١٣-١٤).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٢)، ومسلم (١/ ٥٠٧/ ٧٣٥)، وأبو داود (١/ ٥٨٣-٥٨٤/ ٩٥٠)، والنسائي (٣/ ٢٤٧/ ١٦٥٨).

(٣) الفتح (٢/ ٧٤٥).

(٤) شرح مسلم (٦/ ١٤).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

★ غريب الآية:

أخزيته: أهنته وأذللته.

الأبرار: جمع بار، يقال: بر العبد ربه أي توسع في طاعته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾؛ أي: لحصوله على السخط من اللَّه، ومن ملائكته وأوليائه، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها ولا منقذ منها، ولهذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ ينقذونهم من عذابه. وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم»[(١)].

قال صديق حسن خان: «تأكيد لما تقدمه من استدعاء الوقاية من النار منه سبحانه، وبيان للسبب الذي لأجله دعاه عباده بأن يقيهم عذاب النار، وهو أن من أدخله النار فقد أخزاه أي أذله وأهانه»[(٢)].

قال الرازي: «اعلم أنهم لما سألوا ربهم أن يقيهم عذاب النار أتبعوا ذلك بما يدل على عظم ذلك العقاب وشدته وهو الخزي، ليكون موقع السؤال أعظم؛ لأن من سأل ربه أن يفعل شيئًا أو أن لا يفعله، إذا شرح عظم ذلك المطلوب وقوته كانت داعيته في ذلك الدعاء أكمل، وإخلاصه في طلبه أشد، والدعاء لا يتصل بالإجابة

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٧٥-٤٧٦).
(٢) فتح البيان (٢/ ٤٠١).

إلا إذا كان مقرونا بالأخص، فهذا تعليم من اللَّه عباده في كيفية إيراد الدعاء»[١].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ﴾؛ أي: محمدًا ﷺ، قاله ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين. وقال قتادة و محمد بن كعب القرظي: هو القرآن، وليس كلهم سمع رسول اللَّه ﷺ. دليل هذا القول ما أخبر اللَّه تعالى عن مؤمني الجن إذ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾[٢] وأجاب الأولون فقالوا: من سمع القرآن فكأنما لقي النبي ﷺ، وهذا صحيح معنى»[٣].

قال ابن جرير: «تأويل الآية إذا: ربنا سمعنا داعيًا يدعو إلى الإيمان يقول: إلى التصديق بك، والإقرار بوحدانيتك، واتباع رسولك وطاعته، فيما أمرنا به ونهانا عنه مما جاء به من عندك ﴿فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا﴾ يقول: فصدقنا بذلك يا ربنا. ﴿فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ يقول: فاستر علينا خطايانا، ولا تفضحنا بها في القيامة على رؤوس الأشهاد بعقوبتك إيانا عليها، ولكن كفرها عنا، وسيئات أعمالنا فامحها بفضلك ورحمتك إيانا، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ يعني بذلك: واقبضنا إليك إذا قبضتنا إليك في عداد الأبرار، واحشرنا محشرهم ومعهم، و﴿ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ جمع بر وهم الذين بروا اللَّه -تبارك وتعالى- بطاعتهم إياه، وخدمتهم له، حتى أرضوه فرضي عنهم»[٤].

قال السعدي: «يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه والثبات إلى الممات»[٥].

قال ابن القيم: «المعنى: وآتنا ما وعدتنا على ألسنة رسلك من دخول الجنة.

وقالت طائفة: معناه: وآتنا ما وعدتنا على الإيمان برسلك، وليس بسهل حذف الاسم والحرف معًا إلا أن يقدر على تصديق رسلك وطاعة رسلك، وحينئذ فيتكافأ التقديران، ويترجح الأول بأنه قد تقدم قولهم ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ وهذا صريح في الإيمان بالرسول المرسل، ثم توسلوا إليه بإيمانهم أن يؤتيهم ما وعدهم على ألسنة الرسل، فإنهم إنما سمعوا بوعدهم لهم

---

(١) تفسير الرازي (٩/ ١٤٧).
(٢) الجن: الآيتان (١ و٢).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٠١-٢٠٢).
(٤) جامع البيان (٧/ ٤٨٢ شاكر).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٧٦).

بذلك من الرسل، وذلك أيضًا يتضمن التصديق بهم وإنهم بلغوهم وعده فصدقوا به، وسألوه أن يؤتيهم إياه، وهذا هو الذي ذكره السلف والخلف في الآية.

وقيل: المعنى: آتنا ما وعدتنا من النصر والظفر على ألسنة الرسل، والأول أعم وأكمل.

وتأمل كيف تضمن إيمانهم به الإيمان بأمره ونهيه ورسله ووعده ووعيده وأسمائه وصفاته وأفعاله وصدق وعده والخوف من وعيده واستجابتهم لأمره، فبمجموع ذلك صاروا مؤمنين بربهم. فبذلك صح لهم التوسل إلى سؤال ما وعدهم به والنجاة من عذابه.

وقد أشكل على بعض الناس سؤالهم أن ينجز لهم وعده، مع أنه فاعل لذلك ولابد. وأجاب بأن هذا تعبد محض كقوله ﴿رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾[١] وقول الملائكة ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾[٢] وخفي على هؤلاء أن الوعد معلق بشروط منها: الرغبة إليه ﷻ، وسؤاله أن ينجزه لهم، كما أنه معلق بالإيمان وموافاتهم به، وأن لا يلحقه ما يحبطه فإذا سألوه سبحانه أن ينجز لهم ما وعدهم تضمن ذلك توفيقهم وتثبيتهم وإعانتهم على الأسباب التي ينجز لهم بها وعده، فكان هذا الدعاء من أهم الأدعية وأنفعها، وهم أحوج إليه من كثير من الأدعية»[٣].

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام إذًا: ربنا أعطنا ما وعدتنا على ألسن رسلك: أنك تعلي كلمتك كلمة الحق بتأييدنا على من كفر بك وحادك وعبد غيرك، وعجل لنا ذلك، فإنا قد علمنا أنك لا تخلف ميعادك، ولا تخزنا يوم القيامة، فتفضحنا بذنوبنا التي سلفت منا، ولكن كفرها عنا واغفرها لنا»[٤].

* * *

---

(١) الأنبياء: الآية (١١٢).

(٢) غافر: الآية (٧).

(٣) حادي الأرواح (٨٠-٨١).

(٤) جامع البيان (٧/ ٤٨٥ شاكر).

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: أجاب اللَّه دعاءهم، دعاء العبادة ودعاء الطلب وقال: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملًا موفرًا؛ أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب. ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال طلبًا لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل اللَّه. ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فمن أراد بذلك فليطلبه من اللَّه بطاعته، والتقرب إليه بما يقدر عليه العبد»(١).

قال ابن جرير: «يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ قومهم من أهل الكفر وعشيرتهم في اللَّه إلى إخوانهم من أهل الإيمان باللَّه، والتصديق برسوله، ﴿وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ وهم المهاجرون الذين أخرجهم مشركو قريش من ديارهم بمكة ﴿وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى﴾؛ يعني: وأوذوا في طاعتهم ربهم، وعبادتهم إياه، مخلصين له الدين وذلك هو سبيل اللَّه التي آذى فيها المشركون من أهل مكة المؤمنين برسول اللَّه ﷺ من أهلها، [﴿وَقُتِلُواْ﴾؛ يعني: وقتلوا في سبيل اللَّه ﴿وَقَٰتَلُواْ﴾](٢) فيها، ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ يعني: لأمحونها عنهم، ولأتفضلن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٧٧).

(٢) هكذا على قراءة حمزة والكسائي، بتقديم المبني للمفعول، ثم المبني للفاعل. انظر الكشف عن وجوه=

عليهم بعفوي ورحمتي، ولأغفرنها لهم، ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا﴾؛ يعني: جزاء لهم على ما عملوا وأبلوا في اللَّه وفي سبيله، ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: من قبل اللَّه لهم، ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾؛ يعني: أن اللَّه عنده من جزاء أعمالهم جميع صنوفه، وذلك ما لا يبلغه وصف واصف؛ لأنه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»[(١)].

قال محمد رشيد رضا: «قال الأستاذ الإمام: لم يكتف بربط الجزاء بالعمل حتى بين أن العمل الذي يستحقون به ما طلبوا من تكفير السيئات ودخول الجنة فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾: ذكر الإخراج من الديار بعد الهجرة من باب التفصيل بعد الإجمال، فالهجرة إنما كانت وتكون بالإخراج من الديار، وتستتبع ما ذكر في قوله ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟﴾ من الإيذاء والقتال، وقرئ (وقتّلوا) بتشديد التاء للمابلغة، فمن لم يحتمل القتل بل والتقتيل في سبيل اللَّه تعالى، ويبذل مهجته لله ﷻ فلا يطمعن بهذه المثوبة المؤكدة في قوله: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، ومثل هذه الآية الآيات الكثيرة الواردة في صفات المؤمنين كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾[(٢)] الآية، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(٣)] الآية، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[(٤)] الآيات، وقوله ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[(٥)] الآيات، وقوله ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾[(٦)] الآيات، وقول (والعصر) السورة وغير ذلك.

قال: هكذا يذكر اللَّه تعالى صفات المؤمنين لينبهنا إلى أن نرجع إلى أنفسنا ونمتحنها بهذه الأعمال والصفات، فإن رأيناها تحتمل الإيذاء في سبيل اللَّه حتى القتل فلنبشرها بالصدق منها والرضوان منه تعالى، وإلا فعلينا أن نسعى لتحصيل هذه المرتبة التي لا ينجي عنده غيرها. وإنما كلف اللَّه المؤمنين الصادقين الموقنين

= القراءات (١/ ٣٧٣).

(١) جامع البيان (٧/ ٤٩٠-٤٩١ شاكر).

(٢) الحجرات: الآية (١٥).

(٣) الأنفال: الآية (٢).

(٤) المؤمنون: الآيتان (١-٢).

(٥) الفرقان: الآية (٦٣).

(٦) المعارج: الآية (١٩).

المخلصين هذا التكليف الشاق لأن القيام الحق مرتبط به، وإنما سعادتهم -من حيث هم مؤمنون- بقيام الحق وتأييده، والحق في كل زمان ومكان محتاج إلى أهله لينصروه على أهل الباطل الذين يقاومونه. والحق والباطل يتصارعان دائمًا، ولكل منهما حزب ينصره، فيجب على أنصار الحق أن لا يفشلوا ولا ينهزموا، بل عليهم أن يثبتوا ويصبروا، حتى تكون كلمته العليا، وكلمة الباطل هي السفلى.

قال: وانظر إلى حال المؤمنين اليوم تجدهم يتعللون بأن هذه الآيات نزلت في أناس مخصوصين، كأنهم يترقبون أن يستجيب اللَّه لهم ويعطيهم ما وعد المؤمنين من غير أن يقوموا بعمل مما أمر به المؤمنين، ولا أن يتصفوا بوصف مما وصفهم به من حيث هم مؤمنون، وما علق عليه وعده بمثوبتهم؛ بل وإن انتصفوا بضده وهو ما توعد عليه بالعذاب الشديد، وهذا منتهى الغرور»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية، وفضيلة الضعفاء والمساكين

* عن عمرو بن دينار عن رجل من ولد أم سلمة عن أم سلمة قالت: يا رسول اللَّه لا أسمع اللَّه ذكر النساء في الهجرة، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ﴾(٢).

* عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟**» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم قال: «**أول من يدخل الجنة من خلق اللَّه الفقراء والمهاجرون الذين تسد بهم الثغور، ويتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء. فيقول اللَّه ﷻ لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم. فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من**

---

(١) تفسير المنار (٤/ ٣٠٧-٣٠٨).

(٢) أخرجه: الترمذي (٥/ ٢٢١/ ٣٠٢٣) من طريق سفيان عن عمرو بن دينار عن رجل من ولد أم سلمة عن أم سلمة به دون قوله: قالت الأنصار، والرجل هو سلمة بن أبي سلمة كما سماه الحاكم (٢/ ٣٠٠). وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وسلمة بن أبي سلمة قال عنه الحافظ في التقريب: مقبول يعني عند المتابعة وإلا فلين الحديث كما قرره. وقد تابعه مجاهد كما عند الإمام الطبري (٧/ ٤٨٦/ ٨٣٦٧) شاكر. وقال الشيخ أحمد شاكر: هذا إسناد صحيح.

خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم. قال: إنهم كانوا عبادًا يعبدوني لا يشركون بي شيئًا، وتسد بهم الثغور، ويتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء. قال: فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[١].

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن علان: «ليس فيه أن الفقر أدخلهم الجنة، إنما دخلوها بصلاحهم مع الفقر، فالفقير إذا لم يكن صالحًا لا فضل فيه»[٢].

❋ عن عبد اللّه بن عمرو قال: قال لي رسول اللّه ﷺ: «**أتعلم أول زمرة تدخل الجنة من أمتي؟**» قال: اللّه ورسوله أعلم، فقال: «**المهاجرون، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة ويستفتحون فيقول لهم الخزنة: أوقد حوسبتم؟ فيقولون: بأي شيء نحاسب وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل اللّه حتى متنا على ذلك، قال: فيفتح لهم فيقيلون فيه أربعين عامًا قبل أن يدخلها الناس**»[٣].

⋆ فوائد الحديث:

قال المباركفوري: «فالفقراء في تلك المدة لهم حسن العيش في العقبى مجازاة لما فاتهم من التنعم في الدنيا كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾[٤]؛ أي: الماضية، أو الخالية عن المأكل والمشرب صيامًا أو وقت المجاعة»[٥].

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٦٨)، وابن حبان (الإحسان ١٦/ ٤٣٨-٤٣٩/ ٧٤٢١)، والبزار (كشف الأستار ٤/ ٢٥٦-٢٥٧/ ٣٦٦٥)، والطبراني (قطعة من الجزء ١٣) ص: ٦١ رقم الحديث: (١٥١). كلهم من طريق معروف بن سويد الجذامي، أن أبا عشانة المعافري حدثه أنه سمع عبد اللّه بن عمرو، يقول عن رسول اللّه ﷺ: فذكره. وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٥٩) وقال: «رواه أحمد والبزار والطبراني.. ورجالهم ثقات». وقال في موضع تابع له: «رواه أحمد والطبراني.. ورجال الطبراني رجال الصحيح غير أبي عشانة وهو ثقة».

(٢) دليل الفالحين (٢/ ٦٢).

(٣) أخرجه: الحاكم في المستدرك (٢/ ٧٠). وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. ومن طريق الحاكم أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ٢٨/ ٤٢٦٠)، وانظر الصحيحة (رقم ٨٥٣).

(٤) الحاقة (٢٤). (٥) تحفة الأحوذي (٧/ ١٥).

وقال ابن القيم: «ولا يدل ذلك على علوّ درجتهم إذا دخلوا الجنة قبل الأغنياء، بل إنما يدلّ على السبق لعدم ما يحاسبون عليه، ولا ريب أن وليّ الأمر العادل يتأخر دخوله للحساب، وكذلك الغنيّ الشاكر، ولا يلزم من تأخّر دخولهما نزول درجتهما عن درجة الفقير كما تقدم، وإنما تمنّي الأغنياء أنهم كانوا في الدنيا فقراء، فإن صحت هذه اللفظة لم تدلّ على انحطاط درجتهم كما يتمنّى القاضي العادل في بعض المواطن يوم القيامة أن لم يقض بين اثنين في تمرة لما يرى من شدّة الأمر؛ فمنزلة الفقر والخمول منزلة السلامة، ومنزلة الغنى والولاية منزلة الغنيمة أو العطب»[١].

* عن عبد اللَّه بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**تجتمعون يوم القيامة فيقال: أين فقراء هذه الأمة ومساكينها؟ فيقومون، فيقال لهم: ماذا عملتم؟ قال: فيقولون: ربنا ابتليتنا فصبرنا، وآتيت الأموال والسلطان غيرنا، فيقول الله: صدقتم. فيدخلون الجنة قبل سائر الناس، وتبقى شدة الحساب على ذوي الأموال والسلطان، قيل: فأين المؤمنون يومئذ؟ قال: يوضع لهم كراسي من نور، ويظلل عليهم الغمام، ويكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار**»[٢].

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن علان: «قال العلقمي: ظاهر الحديث التحريض على ترك التوسع من الدنيا، كما أن فيه تحريضًا على الأغنياء بأمر الدين لئلا يدخلوا النار»[٣].

* * *

---

(١) عدة الصابرين (ص: ٢٨٧-٢٨٨).

(٢) أخرجه: ابن حبان: الإحسان (١٦/ ٤٣٥-٤٣٦/ ٧٤١٩) من طريق عمرو بن مرة، عن عبد اللَّه بن الحارث عن أبي كثير عن عبد اللَّه بن عمرو، عن النبي ﷺ قال: فذكره. وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٣٧) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير أبي كثير الزبيدي وهو ثقة».

(٣) دليل الفالحين (٢/ ٦٢-٦٣).

قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٩٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما وعد المؤمنين بالثواب العظيم، وكانوا في الدنيا في نهاية الفقر والشدة، والكفار كانوا في النعم، ذكر اللَّه تعالى في هذه الآية ما يسليهم ويصبرهم على تلك الشدة»[١].

قال ابن عطية: «نزلت ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ في هذه الآية منزلة: لا تظن أن حال الكفار حسنة فتهتم لذلك، وذلك أن المغتر فارح بالشيء الذي يغتر به، فالكفار مغترون بتقلبهم والمؤمنون مهتمون به، لكنه ربما يقع في نفس مؤمن أن هذا الإملاء للكفار إنما هو لخير لهم، فيجيء هذا جنوحًا إلى حالهم ونوعًا من الاغترار فلذلك حسنت ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ﴾ ونظيره قول عمر لحفصة: «لا يغرنك إن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى رسول اللَّه ﷺ»، المعنى: لا تغتري بما يتم لتلك من الإدلال فتقعي فيه فيطلقك النبي ﷺ، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته وللكفار في ذلك حظ؛ أي: لا يغرنكم تقلبهم»[٢].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: لا تنظروا إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور، فعما قليل يزول هذا كله عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجًا، وجميع ما هم فيه ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾[٣] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ

---

(١) تفسير الرازي (٩/ ١٥٨).
(٢) المحرر الوجيز (١/ ٥٥٨).
(٣) غافر: الآية (٤).

بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾[١] وقال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[٣]؛ أي: قليلًا، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾[٤]»[٥].

قال ابن جرير: «يعني: أن تقلبهم في البلاد، وتصرفهم فيها متعة يمتعون بها قليلًا حتى يبلغوا آجالهم، فتخترمهم منياتهم ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ بعد مماتهم. والمأوى: المصير الذي يأوون إليه يوم القيامة، فيصيرون فيه. ويعني بقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ وبئس الفراش والمضجع جهنم»[٦].

قال السعدي: «هذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد، بأنواع التجارات، والمكاسب، واللذات، وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله متاع قليل ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلًا، ويعذبون عليه طويلًا، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما تؤول إليه»[٧].

* * *

(١) يونس: الآيتان (٦٩-٧٠).
(٢) لقمان: الآية (٢٤).
(٣) الطارق: الآية (١٧).
(٤) القصص: الآية (٦١).
(٥) التفسير (٢/ ١٦٦-١٦٧).
(٦) جامع البيان (٤/ ٢١٧).
(٧) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٧٨).

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾

★ غريب الآية:

نزلًا: من النزل وهو ما يهيأ للنزيل وهو الضيف، ثم اتسع فيه فأطلق على الرزق والغذاء، وإن لم يكن لضيف.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يعني بقوله -جل ثناؤه-: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾: لكن الذين اتقوا اللَّه بطاعته، واتباع مرضاته، في العمل بما أمرهم به واجتناب ما نهاهم عنه ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾؛ يعني: بساتين ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يقول: باقين فيها أبدا ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: إنزالًا من اللَّه إياهم فيها أنزلهموها. ونصب ﴿نُزُلًا﴾ على التفسير من قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ كما يقال: لك عند اللَّه جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابًا وكما يقال: هو لك صدقة: وهو لك هبة. وقوله: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ يعني: من قبل اللَّه ومن كرامة اللَّه إياهم وعطاياه لهم. وقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ يقول: وما عند اللَّه من الحياة والكرامة وحسن المآب مما يتقلب فيه الذين كفروا فإن الذي يتقلبون فيه زائل فان وهو قليل من المتاع خسيس وما عند اللَّه من كرامته للأبرار، وهم أهل طاعته، باق غير فان ولا زائل»[1].

قال السعدي: «أما المتقون لربهم، المؤمنون به فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونعيمها ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾. فلو قدر أنهم في دار الدنيا قد حصل لهم كل بؤس وشدة وعناد ومشقة، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم والعيش السليم والسرور والحبور والبهجة نزرًا يسيرًا، ومنحة في صورة محنة ولهذا

(١) جامع البيان (٧/ ٤٩٤-٤٩٥ شاكر).

قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ وهم الذين برت قلوبهم فبرت أقوالهم وأفعالهم. فأثابهم البر الرحيم من بره أجرا عظيمًا وعطاء جسيمًا، وفوزًا دائمًا»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير النزل

* عن أبي سعيد الخدري: قال النبي ﷺ: «**تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر نزلًا لأهل الجنة**».
فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: «**بلى**». قال: تكون الأرض خبزة واحدة، كما قال النبي ﷺ، فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم بالام ونون، قالوا: وما هذا؟ قال: ثور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفًا»[٢].

★ **غريب الحديث:**

خبزة: هي الطلمة بضم المهملة وسكون اللام وهو عجين يوضع في الحفرة بعد إيقاد النار فيها.

يكفؤها: أي: يميلها من كفأت الإناء إذا قلبته.

نواجذه: بالنون والجيم والذال المعجمة، جمع ناجذ وهو آخر الأضراس، ولكل إنسان أربع نواجذ.

بالام والنون: قال النووي: «أما النون فهو الحوت باتفاق العلماء، وأما بالام: فبباء موحدة مفتوحة وبتخفيف اللام وميم مرفوعة غير منونة، وفي معناها أقوال مضطربة، الصحيح منها الذي اختاره القاضي وغيره من المحققين أنها لفظة عبرانية معناها بالعبرانية ثور، وفسره بهذا. ولهذا سألوا اليهودي عن تفسيرها، ولو كانت عربية لعرفتها الصحابة، ولم يحتاجوا إلى سؤاله عنها. فهذا هو المختار في بيان هذه اللفظة»[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٧٨).

(٢) أخرجه: البخاري (١١/ ٤٥٢/ ٦٥٢٠)، ومسلم (٤/ ٢١٥١/ ٢٧٩٢).

(٣) شرح صحيح مسلم (١٧/ ١١٢-١١٣).

زائدة كبدهما: قال القاضي عياض: زيادة الكبد وزائدته، القطعة المنفردة المتعلقة منه، وهي أطيبه: لهذا -والله أعلم- خص السبعين ألفا بأكلها من بين سائر أهل الجنة[١].

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «معنى الحديث: أن اللَّه يجعل الأرض كالطلمة والرغيف العظيم، ويكون ذلك طعامًا نزلًا لأهل الجنة، واللَّه على كل شيء قدير»[٢].

* * *

(١) إكمال المعلم (٨/ ٣٢٤).

(٢) شرح الطيبي (١١/ ٣٤٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «الآية وإن كانت نزلت في النجاشي فإن اللَّه -تبارك وتعالى- قد جعل الحكم الذي حكم به للنجاشي حكما لجميع عباده الذين هم بصفة النجاشي في اتباعهم رسول اللَّه ﷺ، والتصديق بما جاءهم به من عند اللَّه بعد الذي كانوا عليه قبل ذلك من اتباع أمر اللَّه فيما أمر به عباده في الكتابين التوراة والإنجيل. فإذ كان ذلك كذلك فتأويل الآية: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ التوراة والإنجيل ﴿لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾، فيقر بوحدانيته ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون يقول: وما أنزل إليكم من كتابه ووحيه على لسان رسوله محمد ﷺ، ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾؛ يعني: وما أنزل على أهل الكتاب من الكتب وذلك التوراة والإنجيل والزبور ﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾؛ يعني: خاضعين لله بالطاعة مستكينين له بها متذللين»(١).

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون باللَّه حق الإيمان، وبما أنزل على محمد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة، وأنهم خاشعون لله؛ أي: مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه، ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ﴾ أي: لا يكتمون ما بأيديهم من البشارات بمحمد ﷺ، وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم، سواء كانوا هودًا أو نصارى. وقد قال تعالى في سورة القصص: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾(٢) الآية. وقد قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) جامع البيان (٧/ ٤٩٩-٤٥٠ شاكر).

(٢) القصص الآيات (٥٢-٥٤).

﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[(١)] الآية وقد قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩﴾[(٤)]. وهذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلًا، كما وجد في عبد اللَّه بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[(٥)] الآية وهكذا قال هنا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الآية»[(٦)].

قال السعدي: «أي: وإن من أهل الكتاب طائفة موفقة للخير، يؤمنون باللَّه، ويؤمنون بما أنزل إليكم، وما أنزل إليهم، وهذا هو الإيمان النافع لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب ويكفر ببعض، ولهذا -لما كان إيمانهم عامًّا حقيقًا- صار نافعًا، فأحدث لهم خشية اللَّه، وخضوعهم لجلاله الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده. وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[(٧)] ومن تمام خشيتهم لله أنهم ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، فلا يقدمون الدنيا على الدين، كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل اللَّه ويشترون به ثمنًا قليلًا. وأما هؤلاء، فعرفوا الأمر على الحقيقة، وعلموا أن من أعظم الخسران الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية، وترك الحق الذي هو: أكبر حظ وفوز من الدنيا والآخرة، فآثروا الحق وبينوه ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل. فأثابهم اللَّه على ذلك بأن وعدهم الأجر الجزيل والثواب الجميل. وأخبرهم بقربه وأنه سريع

(١) البقرة: الآية (١٢١).
(٢) الأعراف: الآية (١٥٩).
(٣) آل عمران: الآية (١١٣).
(٤) الإسراء الآيات (١٠٧-١٠٩).
(٥) المائدة الآيات (٨٢-٨٥).
(٦) التفسير (٢/ ١٦٨).
(٧) فاطر: الآية (٢٨).

الحساب، فلا يستبطئوا ما وعدهم الله؛ لأن ما هو آت محقق حصوله، فهو قريب»[١].

وقال محمد رشيد رضا: «وفي هذه الآية تأييد لكون حال المؤمنين على ما كانوا عليه من ضيق خيرًا من حال الكافرين على ما كانوا عليه من سعة، كأنه يقول: انظروا إلى حال الأخيار من أهل الكتاب كيف لا يحفلون بذلك المتاع الدنيوي؛ بل يؤثرون عليه ما عند اللَّه تعالى. فهذا من باب المثل والأسوة للمسلمين.

أقول: وصفهم بخمس صفات:

إحداها: الإيمان باللَّه يعني الإيمان الصحيح الذي لا تشوبه نزغات الشرك، ولا يفارقه الإذعان الباعث على العمل، لا كمن قال فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[٢] ولا من قال فيهم ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[٣].

ثانيهما: الإيمان بما أنزل إلى المسلمين وهو ما أوحاه اللَّه إلى نبيهم محمد ﷺ وقدمه على ما بعده؛ لأنه العمدة الذي عليه العمل وله الهيمنة والحكم الفصل في الخلاف لثبوته باليقين، وعدم طروء الضياع عليه والتحريف.

وثالثها: ما أنزل إليهم وهو ما أوحاه اللَّه تعالى إلى أنبيائهم. ولا ينافي ذلك ضياع ونسيان بعضه، وطروء التحريف بالترجمة والنقل بالمعنى على البعض الآخر، فإن المراد هو الإيمان به إجمالًا، واتباع ما أرشد إليه القرآن فيه تفصيلًا. والقرآن هو العمدة فلا يعتد بإيمان من خالفه بعد العلم به..

رابعها: الخشوع وهو ثمرة الإيمان الصحيح الذي يعين على اتباع ما يقتضيه الإيمان من العمل. فالخشوع أثر خشية اللَّه تعالى في القلب تفيض على الجوارح والمشاعر فيخشع البصر بالسكون والانكسار، ويخشع الصوت بالمخافتة والتهدج، كما يخشع غيرهما.

خامسها: وهي أثر لما قبله عدم اشتراء شيء من متاع الدنيا بآيات اللَّه كما هو

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٤٧٩-٤٨٠).
(٢) البقرة: الآية (٨).
(٣) يوسف: الآية (١٠٦).

فاش في أصحاب الإيمان التقليدي الجنسي من علماء ملتهم، ويقع مثله من أمثالهم في سائر الملل، . .

قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ أي: أولئك المتصفون بما ذكر من الصفات لهم أجرهم اللائق بهم عند ربهم الذي رباهم بنعمه، وهداهم إلى الحق: أي في دار الرضوان التي نسبها الرب ﷻ إليه تشريفا لها ولأهلها. بخلاف الذين ليس لهم مثل هذه الصفات من أهل الكتاب المغرورين بأنفسهم وسلفهم عنادا حملهم على كتمان الحق الذي هو نبوة محمد ﷺ وهم يعلمون أنه الحق فأولئك هم الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، فإن كل من بلغته دعوة محمد ﷺ وظهرت له حقيتها كما ظهرت لهم، وجحد وعاند كما جحدوا وعاندوا فلا يعتد بإيمانه بالأنبياء السابقين وكتبه، ولا يكون إيمانه باللَّه تعالى إيمانًا صحيحًا مقرونًا بالخشية والخشوع، ولذلك لا يخشاه في مكابرة الحق والإصرار على الباطل. ولا ينافي هذا ما في آية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾[1] من الإطلاق لأن تلك الآية فيمن لم تبلغهم دعوة النبي ﷺ على حقيقتها، ولم تظهر لهم حقيقتها كالذين كانوا قبله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ يحاسب الخلق كلهم في وقت واحد قصير بما يكشف لهم من تأثير أعمالهم في نفوسهم بحيث يتمثل لهم فيها كل عمل سبق منهم كالصورة المتحركة التي تمثل الوقائع في هذا العصر»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وبيان فضيلة النجاشي ومن آمن من أهل الكتاب

* عن أم سلمة ابنة أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار، النجاشي، أمنا على ديننا وعبدنا اللَّه لا نؤذى، ولا نسمع شيئًا نكرهه قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن اللَّه من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم. فقال له النجاشي: فاقرأه علي. فقرأ عليه صدرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قالت: فبكى، واللَّه النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته

(١) البقرة: الآية (٦٢).
(٢) تفسير المنار (٤/ ٣١٦-٣١٨)

حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم[١].

* عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال: نزل بالنجاشي عدو من أرضهم فجاءه المهاجرون فقالوا: إنا نحب أن نخرج إليهم حتى نقاتل معك وترى جرأتنا ونجزيك بما صنعت معنا، فقال: لا، دواء بنصرة الله خير من دواء بنصرة الناس. قال: وفيه نزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ﴾[٢].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج إلى المصلى فصف بهم وكبر أربعًا[٣].

* عن أنس قال: لما جاء نعي النجاشي قال رسول الله ﷺ: «**صلوا عليه**»، قالوا: يا رسول الله نصلي على عبد حبشي؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ﴾[٤].

★ غريب الأحاديث:

النعي: نعى الميت ينعاه نعيًا ونعيًّا، إذا أذاع موته، وأخبر به وإذا ندبه.

★ فوائد الأحاديث:

في الحديث: فضيلة للنجاشي، حيث حاز شرف الصلاة عليه من خير الناس ﷺ وأصحابه، وليس ذلك إلا لسبق إيمانه بالنبي ﷺ، وإكرامه لصحبه رضي الله عنهم.

* عن أبي بردة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لهم أجران: رجل من**

---

(١) أحمد (١/ ٢٠١-٢٠٣)، وذكر الهيثمي في المجمع (٦/ ٢٤-٢٧) وقال: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع». وصحح إسناده الشيخ الألباني في تعليقه على فقه السيرة (ص: ١٢١).

(٢) أخرجه: الحاكم (٢/ ٣٠٠) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي».

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٨-٤٣٩)، والبخاري (٣/ ١٥٠/ ١٢٤٥)، ومسلم (٢/ ٦٥٦/ ٩٥١)، وأبو داود (٣/ ٥٤١-٥٤٢/ ٣٢٠٤)، والترمذي (٣/ ٣٤٢/ ١٠٣٢٢)، والنسائي (٤/ ٣٧٢/ ١٩٧٠)، وابن ماجه (١/ ٤٩٠/ ١٥٣٤).

(٤) أخرجه: النسائي في الكبرى (٦/ ٣١٩/ ١١٠٨٨)، والطبراني في الأوسط (٦/ ٦٨-٦٩/ ٥١٤٣)، والبزار (كشف الأستار (١/ ٣٩٢/ ٨٣٢)، وذكره الهيثمي في المجمع (٣/ ٣٨) وقال: «رواه البزار والطبراني في الأوسط ورجال الطبراني ثقات». وانظر الصحيحة (٣٠٤٤).

أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق اللَّه وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، فله أجران»[١].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قال ابن المنير: مؤمن أهل الكتاب لا بد أن يكون مؤمنًا بنبينا ﷺ لما أخذ اللَّه عليهم من العهد والميثاق، فإذا بعث فإيمانه مستمر فكيف يتعدد إيمانه حتى يتعدد أجره، ثم أجاب بأن إيمانه الأول بأن الموصوف بكذا رسول. والثاني بأن محمدًا هو الموصوف، فظهر التغاير فثبت التعدد انتهى. ويحتمل أن يكون تعدد أجره لكونه لم يعاند كما عاند غيره ممن أضله اللَّه على علم، فحصل له الأجر الثاني بمجاهدته نفسه على مخالفة أنظاره»[٢].

قال القرطبي: «وهذا الكتابي الذي يضاعف أجره هو الذي كان على الحق في شرعه عقدًا وفعلًا، ثم لم يزل متمسكًا بذلك إلى أن جاء نبينا ﷺ فآمن به أو اتبع شريعته، فهذا هو الذي يؤجر على اتباع الحق الأول والحق الثاني، وأما من اعتقد الإلهية لغير اللَّه تعالى كما تعتقده النصارى اليوم، أو من لم يكن على حق في ذلك الشرع الذي ينتمي إليه، فإذا أسلم جب الإسلام ما كان عليه من الفساد والغلط، ولم يكن له حق يؤجر عليه إلا الإسلام خاصة، واللَّه أعلم»[٣].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٥)، والبخاري (١/ ٢٥٢/ ٩٧)، ومسلم (١/ ١٣٤-١٣٥/ ١٥٤)، وأبو داود (٢/ ٥٤٣/ ٢٠٥٣) مختصرًا دون ذكر موضع الشاهد، والترمذي (٣/ ٤٢٤-٤٢٥/ ١١١٦)، والنسائي (٦/ ٤٢٥/ ٣٣٤٤)، وابن ماجه (١/ ٦٢٩/ ١٩٥٦).

(٢) الفتح (٦/ ١٨٠).

(٣) المفهم (١/ ٣٦٩).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

صابروا: احبسوا أنفسكم على العبادة وجاهدوا أهواءكم من الصبر.

رابطوا: من الرباط: وهو المكان الذي يخص بإقامة، والمرابطة كالمحافظة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن القيم: «وأما المصابرة فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر؛ فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشاتمة والمضاربة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ فأمرهم بالصبر وهو على حال الصابر في نفسه، والمصابرة وهي حاله في الصبر مع خصمه، والمرابطة وهي الثبات واللزوم والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر ولا يرابط، وقد يصبر ويصابر ويرابط من غير تعبد بالتقوى، فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى، وأن الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ فالمرابطة كما أنها لزوم الثغر الذي يخاف هجوم منه في الظاهر فهي لزوم ثغر القلب؛ لئلا يدخل منه الهوى والشيطان؛ فيزيله عن مملكته»[1].

وقال: «وعلّم سبحانه عباده كيفية هذا الحرب والجهاد، فجمعها لهم في أربع كلمات فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. ولا يتمّ أمر هذا الجهاد إلا بهذه الأمور الأربعة؛ فلا يتمّ له الصبر إلا بمصابرة العدوّ، وهي القلب وحراسته؛ لئلا يدخل منه العدوّ ولزوم ثغر مقاومته

(١) عدة الصابرين (ص: ٤٥).

ومنازلته، فإذا صابر عدوّه احتاج إلى أمر آخر وهو المرابطة، وهي لزوم ثغر العين والأذن واللسان والبطن واليد والرجل؛ فهذه الثغور منها يدخل العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه، فالمرابطة لزوم هذه الثغور، ولا يخلّي مكانها فيصادف العدو الثغر خاليًا فيدخل منه.

فهؤلاء أصحاب رسول اللَّه ﷺ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين، وأعظمهم حماية وحراسة من الشيطان، وقد أخلوا المكان الذي أُمروا بلزومه يوم أحد، فدخل منه العدوّ؛ فكان ما كان.

وجماع هذه الثلاثة وعمودها الذي تقوم به هو تقوى اللَّه تعالى، فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى، ولا تقوم التقوى إلى على ساق الصبر»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل المرابطة والدعوة إلى اللَّه -تبارك وتعالى-

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**ألا أدلكم على ما يمحو اللَّه به الخطايا ويرفع به الدرجات؟**» قالوا: بلى يا رسول اللَّه قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»[٢].

★ غريب الحديث:

إسباغ الوضوء: أي: تكميله وإيعابه مع شدة البرد وألم الجسم.

★ فوائد الحديث:

قال القاضي عياض: «قوله: «**فذلكم الرباط**»: يعني: المرغَّب فيه، وأصله الحبس على الشيء، كأنه حبس نفسه على هذه الطاعة، قيل: ويحتمل أنه أفضل الرباط كما قيل: الجهاد جهاد النفس، ويحتمل أنه الرباط المتيسر الممكن؛ أي:

---

(١) الداء والدواء (ص: ١٥٠-١٥١).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٣)، ومسلم (١/ ٢١٩/ ٢٥١)، والترمذي (١/ ٧٢-٧٣/ ٥١)، والنسائي (١/ ٩٧/ ١٤٣). وفي الباب عن جابر وأبي سعيد وغيرهما، ﭫ.

أنه من أنواع الرباط، وقد ذهب الشيرازي إلى أن ذلك من حروف الحصر، وتكرار النبي ﷺ له تعظيم لشأنه أو لعادته ليفهم عنه، وتنبيه على ما يقول»[1].

قال السندي: «قوله «**الرباط**»: قيل أريد به المذكور في قوله تعالى ﷺ وحقيقته ربط النفس والجسم مع الطاعة، وقيل: المراد هو الأفضل، والرباط ملازمة ثغر العدو لمنعه، وهذه الأعمال تسد طرق الشيطان عنه وتمنع النفس عن الشهوات، وعداوة النفس والشيطان لا تخفى فهذا هو الجهاد الأكبر الذي فيه قهر أعدى عدوه فلذلك قال: «**الرباط**» بالتعريف والتكرار تعظيمًا لشأنه»[2].

قال ابن عطية: «والقول الصحيح هو أن الرباط هو الملازمة في سبيل اللَّه أصلها من ربط الخيل، ثم سمي كل ملازم لثغر من ثغور الإسلام مرابطًا، فارسًا كان أو راجلًا، واللفظة مأخوذة من الربط، وقول النبي ﷺ: «**فذلكم الرباط**» إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل اللَّه، إذ انتظار الصلاة إنما هو سبيل من السبل المنجية، والرباط اللغوي هو الأول... والمرابط في سبيل اللَّه عند الفقهاء: هو الذي يشخص إلى ثغر من الثغور ليرابط فيه مدة ما، قاله ابن المواز ورواه، فأما سكان الثغور دائمًا بأهليهم الذين يعتمرون ويكتسبون هنالك، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين»[3].

* عن زيد بن أسلم قال: كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعًا من الروم وما يتخوَّف منهم، فكتب إليه عمر، أما بعد: فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزلة شدة يجعل اللَّه بعدها فرجًا، ولن يغلب عسر يسرين، وأن اللَّه يقول في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾»[4].

★ فوائد الحديث:

قال ابن جرير: «معنى ذلك: اصبروا على الجهاد، وصابروا عدوكم ورابطوهم»[5].

---

(١) إكمال المعلم (٢/ ٥٥-٥٦).
(٢) حاشية سنن النسائي (١/ ٩٧).
(٣) المحرر الوجيز (١/ ٥٦٠).
(٤) أخرجه: ابن جرير (٧/ ٥٠٣/ ٨٣٩٣ (تحقيق شاكر))، والحاكم (٢/ ٣٠٠-٣٠١) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي.
(٥) جامع البيان (٧/ ٥٠٣ شاكر).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعروف من كلام العرب في المفاعلة أن تكون من فريقين، أو اثنين فصاعدًا، ولا تكون من واحد إلا قليلًا في أحرف معدودة. فإذ كان ذلك كذلك، فإنما أمر المؤمنون أن يصابروا غيرهم من أعدائهم، حتى يظفرهم اللَّه بهم، ويعلي كلمته، ويخزي أعداءهم، وأن لا يكون عدوهم أصبر منهم»(١).

* عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**رباط يوم في سبيل اللَّه خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل اللَّه أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن بطال: «قال المهلب: قوله: «**الغدوة والروحة خير من الدنيا**» يعني: خير من زمن الدنيا؛ لأن الغدوة والروحة في زمن، فيقال: إن ثواب هذا الزمن القليل في الجنة خير من زمن الدنيا كلها، وكذلك قوله: «**لقاب قوس أحدكم**» أو «**موضع سوط في الجنة**» يريد أن ما صغر في الجنة من المواضع كلها من بساتينها وأرضها، فأخبر في هذا الحديث أن قصير الزمن وصغير المكان في الآخرة خير من طويل الزمان وكبير المكان في الدنيا، تزهيدًا فيها وتصغيرًا لها وترغيبًا في الجهاد، إذ بالغدوة والروحة فيه أو مقدار قوس المجاهد يعطيه اللَّه في الآخرة أفضل من الدنيا وما فيها، فما ظنك بمن أتعب فيه نفسه وأنفق ماله»(٣).

قال ابن حجر: «قوله: «**خير من الدنيا وما فيها**» قال ابن دقيق العيد: يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون من باب تنزيل المغيب منزلة المحسوس تحقيقًا له في النفس، لكون الدنيا محسوسة في النفس مستعظمة في الطباع، فلذلك وقعت المفاضلة بها، وإلا فمن المعلوم أن جميع ما في الدنيا لا يساوي ذرة مما في الجنة. الثاني: أن المراد أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذي يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها لأنفقها في طاعة اللَّه تعالى. قلت: ويؤيد هذا الثاني ما

---

(١) جامع البيان (٧/ ٥٠٨ شاكر).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٩)، والبخاري (٦/ ١٠٦/ ٢٨٩٢)، ومسلم (٣/ ١٥٠٠/ ١٨٨١)، والترمذي (٤/ ١٦١/ ١٦٦٤).

(٣) شرح البخاري (٥/ ١٤).

رواه ابن المبارك في كتاب الجهاد من مرسل الحسن قال: «بعث رسول اللَّه ﷺ جيشًا فيهم عبد اللَّه بن رواحة، فتأخر ليشهد الصلاة مع النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: **والذي نفسي بيده لو أنفقت ما في الأرض ما أدركت فضل غدوتهم**» والحاصل: أن المراد تسهيل أمر الدنيا وتعظيم أمر الجهاد، وأن من حصل له من الجنة قدر سوط يصير كأنه حصل له أمر أعظم من جميع ما في الدنيا فكيف بمن حصل منها أعلى الدرجات؟ والنكتة في ذلك أن سبب التأخير عن الجهاد الميل إلى سبب من أسباب الدنيا، فنبه هذا المتأخر أن هذا القدر اليسير من الجنة أفضل من جميع ما في الدنيا»[(١)].

* عن فضالة بن عبيد: سمعت النبي ﷺ يقول: «**كل الميت يختم على عمله إلا مرابطًا في سبيل اللَّه فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن فتان القبر**»[(٢)].

* عن سلمان: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأُجْرِيَ عليه رزقه فأمن الفتان**»[(٣)].

* عن أبي هريرة عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من مات مرابطًا في سبيل اللَّه أجرى عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن من الفتان، وبعثه اللَّه يوم القيامة آمنا من الفزع**»[(٤)].

* عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ قال: «**من سن سنة حسنة فله أجرها ما عمل بها في حياته وبعد مماته حتى تترك، ومن سن سنة سيئة فعليه إثمها حتى تترك، ومن**

---

(١) فتح الباري (٦/ ١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٠)، وأبو داود (٣/ ٢٠/ ٢٥٠٠)، والترمذي (٤/ ١٤٢/ ١٦٢١) وقال: «حديث فضالة حديث حسن صحيح»، وابن حبان: الإحسان (١٠/ ٤٨٤/ ٤٦٢٤)، والحاكم (٢/ ٧٩-١٤٤) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٤٠)، ومسلم (٣/ ١٥٢٠/ ١٩١٣)، والترمذي (٤/ ١٦١-١٦٢/ ١٦٦٥)، والنسائي (٦/ ٣٤٦-٣٤٧/ ٣١٦٧-٣١٦٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٤)، وابن ماجه (٢/ ٩٢٤/ ٢٧٦٧) قال في الزوائد: «إسناد صحيح. معبد بن عبد اللَّه ابن هشام ذكره ابن حبان في الثقات. ويونس بن عبد الأعلى أخرج له مسلم، وباقي رجال الإسناد على شرط البخاري». ويشهد له ما قبله.

مات مرابطًا في سبيل اللَّه جرى عليه عمل المرابط حتى يبعث يوم القيامة»[١].

★ غريب الأحاديث:

أمن الفتان: «ضبطوا أمن بوجهين:

أحدهما: أمن بفتح الهمزة وكسر الميم من غير واو.

والثاني: أومن بضم الهمزة وبواو، وأما الفتان فقال القاضي: رواية الأكثرين بضم الفاء جمع فاتن، قال: ورواية الطبري بالفتح، وفي رواية أبي داود في سننه أومن فتاني القبر»[٢].

★ فوائد الأحاديث:

«هذه فضيلة ظاهرة للمرابط، وجريان عمله عليه بعد موته فضيلة مختصة به لا يشاركه فيها أحد»[٣].

قال القاضي عياض: «وأجرى عليه رزقه من قوله تعالى في الشهداء: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، ومن قوله تعالى في الحديث: «**تعلق في شجر الجنة**»[٤]؛ أي: تأكل»[٥].

* عن مجاهد عن أبي هريرة، أنه كان في المرابطة ففزعوا وخرجوا إلى الساحل، ثم قيل لا بأس فانصرف الناس وأبو هريرة واقف فمر به إنسان فقال: ما يوقفك يا أبا هريرة؟ فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**موقف ساعة في سبيل اللَّه خير من قيام ليلة القدر عند الحجر الأسود**»[٦].

* عن عثمان بن عفان: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**رباط يوم في سبيل اللَّه**

---

(١) أخرجه: الطبراني (٢٢/ ٧٤-٧٥/ ١٨٤). وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ١٦٨) وقال: «رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون». وذكره المنذري في الترغيب (٢/ ٢٤٥/ ٨) وقال: «رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به».

(٢) شرح مسلم للنووي (١٣/ ٥٣).

(٣) شرح النووي (١٣/ ٥٣).

(٤) الحديث الوارد في كلام القاضي: تقدم تخريجه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾.

(٥) إكمال المعلم (٦/ ٣٤٢).

(٦) أخرجه: ابن حبان (الإحسان ١٠/ ٤٦٢-٤٦٣/ ٤٦٠٣)، والبيهقي في الشعب (٤/ ٤٠/ ٤٢٨٦). وانظر الصحيحة (رقم ١٠٦٨).

خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل»[١] .

٭ فوائد الحديث:

قال ابن حبان في صحيحه: «ذكر تفضل اللَّه -جل وعلا- على الواقف ساعة في سبيل اللَّه بإعطائه خيرًا من مصادفة ليلة القدر بالمسجد الحرام[٢]. ثم ذكر تحته حديث أبي هريرة.

«قوله: «**من المنازل**» فإن قلت: هو جمع محلى بلام الاستغراق، فيلزم أن تكون المرابطة أفضل من المجاهدة في المعركة، ومن انتظار الصلاة بعد الصلاة في المساجد، وقد قال فيه: «**فذلكم الرباط فذلكم الرباط**». قلت: هذا في حق من فرض عليه المرابطة، وتعين بنصب الإمام»[٣].

❋ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة وعبد القطيفة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل اللَّه، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع**»[٤].

٭ غريب الحديث:

تعس: بفتح أوله وكسر المهملة ويجوز فتحها، وهو ضد سعد، تقول تعس فلان؛ أي: شقي.

انتكس: بالمهملة؛ أي: عاوده المرض.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٦٢)، والترمذي (٤/ ١٦٢/ ١٦٦٧). وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب»، والنسائي (٦/ ٣٤٧/ ٣١٦٩-٣١٧٠)، وابن حبان (الإحسان ١٠/ ٤٦٩-٤٧٠/ ٤٦٠٩)، والحاكم (٢/ ٦٨ و١٤٣-١٤٤) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وقال في الموضع الآخر: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. وأخرجه: ابن ماجه (٢/ ٩٢٤/ ٢٧٦٦) بلفظ: «**من رابط ليلة في سبيل اللَّه سبحانه، كانت كألف ليلة، صيامها وقيامها**».

(٢) الإحسان (١٠/ ٤٦٢).

(٣) شرح الطيبي (٨/ ٢٦٤٨).

(٤) أخرجه: البخاري (٦/ ١٠١/ ٢٨٨٦-٢٨٨٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٥-١٣٨٦/ ٤١٣٥-٤١٣٦).

وإذا شيك فلا انتقش: شيك بكسر المعجمة وسكون التحتانية بعدها كاف، وانتقش بالقاف والمعجمة، والمعنى: إذا أصابته الشوكة فلا وجد من يخرجها منه بالمنقاش.

طوبى: فُعلى من كل شيء طيب، وفي التنزيل: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾[1] كل مستطاب في الجنة من بقاء بلا فناء، وعز بلا زوال، وغنى بلا فقر. وفي الحديث: «**طوبى شجرة في الجنة، مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**»[2].

★ فوائد الحديث:

قوله «**إن كان في الحراسة**»: قال التوربشتي: «أراد بالحراسة حراسة من العدو أن يهجم عليهم. وذلك يكون في مقدمة الجيش. والساقة: مؤخرة الجيش. والمعنى: ائتماره لما أمر وإقامته حيث أقيم لا يفقد من مكانه بحال، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة وأكبر آفة، الأول عند دخولهم دار الحرب والآخر عند خروجهم منها».

قوله: «**إن استأذن لم يؤذن له**» إشارة إلى عدم التفاته إلى الدنيا وأنهابها بحيث يعنى بكليته في نفسه لا يبتغي مالًا ولا جاهًا عن الناس، بل يكون عند اللَّه وجيهًا ولم يقبل الناس شفاعته. وعند اللَّه يكون شفيعًا مشفعًا.

أقول: قد تقرر في علم المعاني: أن الشرط والجزاء إذا اتحدا دلّ على فخامة الجزاء وكماله، والشريطتان مؤكدتان للمعنى السابق، فإن قوله: «**آخذ بعنان فرسه**» يدلّ على اهتمامه بشأن ما هو فيه من المجاهدة في سبيل اللَّه، وليس له هم سواه لا الدرهم والدينار بله نفسه، فتراه أشعث رأسه مغبرة قدماه. فإذا كان في الحراسة يبذل جهده فيها لا يفتر عنها بالنوم والغفلة ونحوهما؛ لأنه ترك نصيبه من الراحة والدعة. وإن كان في ساقة الجيش لا يخاف الانقطاع ولا يهتم إلى السبق، بل يلازم ما هو لأجله.

فعلى هذا هذه القرينة إلى آخرها جاءت مقابلة للقرينة الأولى، فدلت الأولى

(١) الرعد: الآية (٢٩).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٧١) وصححه ابن حبان: الإحسان (١٦/ ٤٢٩/ ٧٤١٣) من حديث أبي سعيد الخدري. وانظر الصحيحة (١٩٨٥).

على اهتمام صاحبها بعيش العاجلة، والثانية على اهتمام صاحبها بعيش الآجلة»[١].

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل اللَّه، يطير على متنه كلما سمع هيعة أو قزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير**»[٢].

* عن ابن عباس أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**ألا أخبركم بخير الناس منزلًا**» قلنا: بلى يا رسول اللَّه، قال: «**رجل آخذ برأس فرسه في سبيل اللَّه ﷻ حتى يموت أو يقتل، وأخبركم بالذي يليه**»، قلنا: نعم يا رسول اللَّه، قال: «**رجل معتزل في شعب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعتزل شرور الناس، وأخبركم بشر الناس**»: قلنا: نعم يا رسول اللَّه، قال: «**الذي يسأل باللَّه ﷻ ولا يعطي به**»[٣].

⋆ غريب الحديثين:

يطير على متنه: أي: يسرع جدًّا على ظهره حتى كأنه يطير.

هيعة: بفتح الهاء وسكون الياء، هي الصوت عند حضور العدو، وقيل: الهيعة: الصوت الذي يفزع منه.

الفزعة: بإسكان الزاي: النهوض إلى العدو.

شعفة: بفتح الشين والعين: أعلى الجبل.

⋆ فوائد الحديثين:

قال القاضي عياض: «فيه تفضيل الجهاد وشرفه والمواظبة عليه، وأنه وإن ترى

---

(١) شرح الطيبي (١٠/ ٣٢٧٥).

(٢) أخرجه: مسلم (٣/ ١٥٠٣-١٥٠٤/ ١٨٨٩)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٥٧/ ٨٨٣٠)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٦/ ٣٩٧٧).

(٣) الترمذي (٤/ ١٥٦/ ١٦٥٢). وقال: «حديث حسن غريب من هذا الوجه: ويروى هذا الحديث من غير وجه عن ابن عباس عن النبي ﷺ»، والنسائي (٥/ ٨٨/ ٢٥٦٨) وابن حبان: الإحسان (٢/ ٣٦٧-٣٦٨/ ٦٠٤-٦٠٥) والحاكم (٤/ ٤٦٤) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

فيه أخذ المغانم والاكتساب فهذا لا يؤثر في الأجر، إذا كان الباعث فضل الجهاد والاحتساب فيه، بدليل قوله: «**طار عليه يبتغى القتل في سبيل الله**»، وبقوله: «**يطير على متنه**»؛ أي: يسارع للجهاد على ظهر فرسه»[١].

قال الطيبي: «فيه تصوير حالة هذا الرجل وشدة اهتمامه بما هو فيه من المجاهدة في سبيل اللّه، وهو أن عادته ودأبه، ولا يهتم ولا يلتفت إلى غير ذلك»[٢].

* عن سَهْل بْنِ الْحَنْظَلِيَّةِ: أَنَّهُمْ سَارُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَأَطْنَبُوا السَّيْرَ حَتَّى كَانَتْ عَشِيَّةً، فَحَضَرْتُ الصَّلَاةَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَ رَجُلٌ فَارِسٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي انْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ حَتَّى طَلَعْتُ جَبَلَ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا أَنَا بِهَوَازِنَ عَلَى بَكْرَةِ آبَائِهِمْ بِظُعُنِهِمْ وَنَعَمِهِمْ وَشَائِهِمُ اجْتَمَعُوا إِلَى حُنَيْنٍ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «**تِلْكَ غَنِيمَةُ الْمُسْلِمِينَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ**»، ثُمَّ قَالَ: «**مَنْ يَحْرُسُنَا اللَّيْلَةَ؟**» قَالَ أَنَسُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيُّ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «**فَارْكَبْ**». فَرَكِبَ فَرَسًا لَهُ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اسْتَقْبِلْ هَذَا الشِّعْبَ حَتَّى تَكُونَ فِي أَعْلَاهُ، وَلَا نُغَرَّنَّ مِنْ قِبَلِكَ اللَّيْلَةَ**»، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى مُصَلَّاهُ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: «**هَلْ أَحْسَسْتُمْ فَارِسَكُمْ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَحْسَسْنَاهُ. فَثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَى الشِّعْبِ حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَبْشِرُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ فَارِسُكُمْ**»، فَجَعَلْنَا نَنْظُرُ إِلَى خِلَالِ الشَّجَرِ فِي الشِّعْبِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ جَاءَ حَتَّى وَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي انْطَلَقْتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَى هَذَا الشِّعْبِ حَيْثُ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ اطَّلَعْتُ الشِّعْبَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَ أَحَدًا. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هَلْ نَزَلْتَ اللَّيْلَةَ؟**» قَالَ: لَا، إِلَّا مُصَلِّيًا أَوْ قَاضِيًا حَاجَةً. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**قَدْ أَوْجَبْتَ، فَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْمَلَ بَعْدَهَا**»[٣].

---

(١) إكمال المعلم (٦/ ٣١١). (٢) شرح الطيبي (٨/ ٢٦٢٨-٢٦٢٩).

(٣) أخرجه: أبو داود (٣/ ٢٠-٢٢/ ٢٥٠١)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٣-٢٧٤/ ٨٨٧٠)، والحاكم (٢/ ٨٣-٨٤) وقال: «هذا الإسناد من أوله إلى آخره صحيح على شرط الشيخين غير أنهما لم يخرجا مسانيد سهل بن الحنظلية لقلة رواية التابعين عنه وهو من كبار الصحابة على ما قدمت القول في أوانه»، ووافقه الذهبي. وذكره الحافظ في الفتح (٨/ ٣٣-٣٤) وحسن إسناده.

★ **غريب الحديث:**

أطنبوا السير: بالغوا فيه.

بكرة آبائهم: كلمة للعرب يريدون بها الكثرة والوفور في العدد.

الظعن: النساء، وواحدتها ظعينة.

لا نغرن من قبلك الليلة: لا يهجم العدو علينا من قبلك على غفلة.

★ **فوائد الحديث:**

فيه: بيان أن حراسته للنبي ﷺ وصحبه كانت كافية له في دخول الجنة، وفي هذا بشارة عظيمة لهذا الصحابي الجليل.

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «**عينان لا تمسهما النار؛ عين بكت من خشية اللّه، وعين باتت تحرس في سبيل الله**»[١].

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «قوله: «**عين بكت من خشية الله**» كناية عن العالم العابد المجاهد مع نفسه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[٢] حيث حصر الخشية فيهم غير متجاوزة عنهم، فحصلت النسبة بين العينين: عين مجاهدة مع النفس والشيطان، وعين مجاهدة مع الكفار. والخوف والخشية مترادفان»[٣].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول اللّه ﷺ فقال: دلني على عمل يعدل الجهاد قال: «**لا أجده**» قال: «**هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟**»، قال: ومن يستطيع ذلك؟ قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد ليستن في طوله فيكتب له حسنات[٤].

---

(١) أخرجه: الترمذي (٤/ ١٥٠/ ١٦٣٩) وقال: «حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث شعيب بن رزيق»، وفي بعض النسخ «حديث حسن غريب..» وفي الباب عن عثمان وأبي ريحانة».
قلت: فأما حديث عثمان فقد تقدم قريبًا، وأما حديث ريحانة فرواه أحمد (٤/ ١٣٤-١٣٥) والنسائي مختصرا (٦/ ٣٢٢/ ٣١١٧) والحاكم (٢/ ٨٣) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٢) فاطر: الآية (٢٨).
(٣) شرح الطيبي (٨/ ٢٦٤٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٤٤)، والبخاري (٦/ ٤/ ٢٧٨٥)، والنسائي (٦/ ٣٢٦-٣٢٧/ ٣١٢٨).

★ **غريب الحديث:**

تفتر: من فتر عن العمل فتورًا؛ أي: انكسرت حدته ولان بعد شدته، ومنه فتر الحر إذا انكسر.

يستن: أي: يمرح بنشاط، وقال الجوهري: هو أن يرفع يديه ويطرحهما معًا.

طِوَله: هو الحبل الذي يشد به الدابة ويمسك طرفه ويرسل في المرعى.

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «وهذه فضيلة ظاهرة للمجاهد في سبيل اللَّه تقتضي أن لا يعدل الجهاد شيء من الأعمال»[(١)].

وقال ابن حجر: « قال عياض: اشتمل حديث الباب على تعظيم أمر الجهاد؛ لأن الصيام وغيره مما ذكر من فضائل الأعمال قد عدلها كلها الجهاد حتى صارت جميع حالات المجاهد وتصرفاته المباحة معادلة لأجر المواظب على الصلاة وغيرها، ولهذا قال ﷺ: «**لا تستطيع ذلك**» وقال ابن دقيق العيد: القياس يقتضي أن يكون الجهاد أفضل الأعمال التي هي وسائل؛ لأن الجهاد وسيلة إلى إعلان الدين ونشره وإخماد الكفر ودحضه، ففضيلته بحسب فضيلة ذلك، واللَّه أعلم»[(٢)].

* عن أبي ذر قال: قال لي رسول اللَّه ﷺ: «**اتق اللَّه حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن**»[(٣)].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن رجب: «قوله ﷺ: «**اتق اللَّه حيثما كنت**» مراده في السر والعلانية حيث يراه الناس وحيث لا يرونه»[(٤)].

وقال: «فهذه الوصية وصية عظيمة جامعة لحقوق اللَّه وحقوق عباده، فإن حق اللَّه على عباده أن يتقوه حق تقاته، والتقوى وصية اللَّه للأولين والآخرين. قال

---

(١) فتح الباري (٦/ ٥). (٢) فتح الباري (٦/ ٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٣-١٥٨)، والترمذي (٤/ ٣١٢-٣١٣/ ١٩٨٧) وقال: «هذا حديث حسن صحيح» والحاكم (١/ ٥٤) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٠٧).

تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾[١] وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه»[٢].

* * *

(١) النساء: الآية (١٣١).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٨).

فهرس الموضوعات

سورة آل عمران

أغراض السورة ٥
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل سورة آل عمران ٦
قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ۝١ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ ٨
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٨
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في اسم اللَّه الأعظم ٩
قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَىٰةَ وَالْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ ١٣
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٣
قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝٤﴾ ١٥
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥
قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ۝٥﴾ ١٧
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧
قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾ ١٨
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان كيفية خلق الإنسان وتصويره في رحم أمه ١٩
قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ ٢٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٢
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان الرادين للسنة وشبههم، والرد عليهم ٢٥
قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ ٣٤
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير (التأويل) عند السلف ٣٧
قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ ٣٨
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٨
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة الأصابع لله تعالى، وأن القلوب بين أصبعين من أصابعه ٣٩
قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾ ٤٤
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٤
قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠﴾ ٤٦
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٦

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ ٤٨
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٨
قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾ ٥١
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥١
قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ ٥٣
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٣
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في غزوة بدر ٥٥
قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ ٥٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٩
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حب الدنيا وزينتها ٦٢
قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ ٦٧
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٧
قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ ٧٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٠
قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ ٧٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٢
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة النزول وذكر المنفقين والمستغفرين بالأسحار ٧٣
قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ ٧٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٩
قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ ٨٤
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٨٤
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عموم رسالة النبي ﷺ ٨٧
قوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ ٩٠
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٩٠
قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ ٩٥

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٩٥

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الجنة لا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر ٩٧

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ٩٩

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٩٩

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحاكم إلى كتاب اللَّه، وقصة الخوارج ١٠٢

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ ١٠٥

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٠٥

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ .. ١٠٦

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٠٦

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المشيئة الثابتة لله تعالى، وأنه متفرد بها ١٠٨

قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ ١١٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١١٣

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن اللَّه يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن ١١٦

قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ ١١٨
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١١٨
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان موقف المسلم من الكفار والمشركين ١٢١
قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨)﴾ ١٢٥
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٢٥
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات صفة النفس ١٢٥
قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)﴾ ١٢٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٢٩
قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)﴾ ١٣٠
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٣٠
قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)﴾ ١٣٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٣٢
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حب الله ورسوله ووجوب متابعة القرآن والسنة ١٣٣
قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾ ١٤٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤٢
قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى

ﭐﻟۡﻌَٰﻠَﻤِﻴﻦَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ ١٤٣
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤٣
قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ ١٤٥
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤٥
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان معنى النذر ١٤٦
قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ ١٤٧
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٤٧
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة مريم، وما جاء في تسمية المولود ١٤٨
قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ ١٥٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥٢
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن قدرة اللَّه تتجلى في قصة مريم وزكريا ١٥٣
قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ ١٥٥
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٥٥
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة النكاح والحث عليه ١٥٦

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ ١٦١
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦١
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة يحيى بن زكريا عليه السلام ١٦٣
قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ ١٦٥
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٥
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾. ١٦٧
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٦٧
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن خير نساء العالمين: مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد ١٦٨
قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ ١٧٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٢
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في القُرْعة ١٧٢
قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ ١٧٧
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٧
قوله تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ ١٧٩

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٧٩

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة عيسى ومعجزته عليه السلام ١٨٠

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ ١٨٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨٣

قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ ١٨٤

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨٤

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ ١٨٧

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٨٧

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الصراط المستقيم .. ١٨٧

قوله تعالى: ﴿۞ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ ١٩٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩٠

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في حواري رسول اللَّه ﷺ ١٩٢

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ ١٩٤

أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩٤

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية ١٩٥
قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ ١٩٦
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩٦
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة المكر ١٩٦
قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ ١٩٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ١٩٩
قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَمَا
لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ
وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ ٢٠٤
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٠٤
قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ ٢٠٧
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٠٧
قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن
فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ ٢٠٨
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٠٨
قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا
وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ ٢١٠
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢١٠
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المباهلة وهروب النصارى

منها ٢١٢
قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾ ٢١٦
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢١٦
قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ٢١٨
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢١٨
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من دعوة أهل الكتاب إلى التوحيد ٢٢٢
قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ .. ٢٢٥
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٢٥
قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ ٢٢٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٢٩
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان من هم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام ٢٣٠
قوله تعالى: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ ٢٣٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٣٢
قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ ٢٣٥
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٣٥
قوله تعالى: ﴿۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ ٢٣٨
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٣٨
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة الوفاء بالديون ٢٤٠
قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾ ﴾ ٢٤٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٤٢
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية ووعيد الأيمان الكاذبة ٢٤٤
قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى

ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ٢٥٣
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٥٣
قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ ٢٥٦
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٥٦
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيمن عبد مخلوقا دون اللّٰه، أو اتخذهم وسائط بينه وبين الله ٢٦٠
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ ٢٦٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٦٢
قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ ٢٦٥
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٦٥
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عجب اللّٰه من قوم يدخلون الجنة في السلاسل ٢٦٦
قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ٢٦٧

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٦٧
قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ ٢٧٠
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٧٠
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان مراتب الدين وذم الابتداع ٢٧٢
قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾ ٢٧٦
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٧٦
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وفي قتل المرتد وتوبته ٢٨٠
قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ ٢٨٥
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٨٥
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وبيان عدم قبول توبة المصِرّ على الكفر ٢٨٨
قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ ٢٨٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٨٩

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن العقيدة الصحيحة شرط في قبول الأعمال ٢٩١

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ ٢٩٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٩٣

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سرعة امتثال الصحابة لما جاء في القرآن ٢٩٦

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ﴾ ٢٩٩

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٢٩٩

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيما حرم إسرائيل على نفسه ٣٠٢

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ٣٠٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٠٣

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم اليهود بتحريفهم التوراة وإخفائهم الصحيح منها ٣٠٤

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ ٣٠٨

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٠٨

قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ ٣١٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٠

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾

فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ ٣١٣
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٣
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل المسجد الحرام ٣١٥
قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ ٣١٨
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣١٨
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تحريم مكة والمدينة ٣١٨
قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ ٣٢٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢٢
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فريضة الحج والعمرة ٣٢٢
قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ ٣٢٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٢٩
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الوعيد فيمن تهاون في أمر الحج ٣٣٠
قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٩﴾ ٣٣٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٣٢
قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ﴾. ٣٣٥
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٣٥
قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١﴾ ٣٣٧

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٣٧
قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ ٣٣٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٣٩
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير الآية ٣٤١
قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ ٣٤٧
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٤٧
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاعتصام بالكتاب والسنة، والمبايعة عليهما، ووجوب طاعة الإمام ٣٤٩
قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ ٣٥٧
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٥٧
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في هدي النبي ﷺ في تأليف القلوب وجبرها، وأن ذلك من كمال نبوته وصحة رسالته ٣٦٠
قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ ٣٦٣
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٦٣
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٣٦٧
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ ٣٧١

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٧١

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من الاختلاف في المناهج والعقائد ٣٧٣

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ ٣٧٧

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٧٧

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم أهل البدع ومدح أهل السنة ٣٧٨

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾ ٣٨٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٨٠

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ﴾ ٣٨٢

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٨٢

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة هذه الأمة والسلف الصالح ٣٨٣

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ ٣٩١

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٩١

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾ ٣٩٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٩٣

قوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ ٣٩٥

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٩٥

قوله تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى الْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ ٣٩٨

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٣٩٨

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية، وفضيلة تأخير وقت صلاة العشاء ٤٠٢

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾ ٤٠٦

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٠٦

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ ٤٠٨

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٠٨

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْـَٔايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ ٤١٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤١٠
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير البطانة ٤١٣
قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾ ٤١٧
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤١٧
قوله تعالى: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾ .. ٤٢٠
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٢٠
قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾ ٤٢٣
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٢٣
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في غزوة أحد والتعريف بها ٤٢٤
قوله تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٢٢﴾ ٤٤١
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٤١
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية ٤٤٢
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣﴾ ٤٤٣
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٤٣
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في غزوة بدر ٤٤٥
قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم

بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ ٤٤٨

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٤٨

قوله تعالى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ ٤٥٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٥٣

قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾ ٤٥٥

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٥٥

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الأمر كله لله ٤٥٦

قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ ٤٦٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٦٠

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الترهيب من الربا ٤٦١

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ ٤٦٤

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٦٤

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عظم الجنة ٤٦٦

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ ٤٧٠

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٧٠

قوله تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ ٤٧٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٧٣
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل كظم الغيظ، وفضل حسن الخلق ٤٧٥
قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ ٤٩٧
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٤٩٧
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الاستغفار والتوبة ٤٩٩
قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ ٥٠٧
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٠٧
قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ ٥٠٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٠٩
قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ ٥١٤
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥١٤
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ ٥١٦
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥١٦
قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ ٥١٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥١٩
قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ

وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ ٥٢٥
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٢٥
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ ٥٢٧
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٢٧
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عدم تمني لقاء العدو ٥٢٩
قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ ٥٣٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٣٢
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وفاة النبي ﷺ وموقف الصحابة ﷺ من ذلك ٥٣٤
قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ﴾ ٥٣٨
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٣٨
قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ ٥٤٠
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٤٠
قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ ٥٤٥

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٤٥

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ ٥٥٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٥٣

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ ٥٥٦

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٥٦

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن اللَّه ولي المومنين . ٥٥٧

قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ ٥٥٩

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٥٩

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن من آيات نبوته ﷺ خوف أعدائه منه من مسافة بعيدة ٥٦٣

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ ٥٦٦

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٦٧

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في قصة أحد ٥٧٢

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ

وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ ٥٨٢

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٨٢

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية، وبيان رحمة اللَّه تعالى بالمجاهدين في سبيله والدعاة إليه في كل زمان ومكان ٥٨٦

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾ ٥٨٨

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٨٨

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عفو اللَّه ﷻ عمن تخلف يوم أحد ٥٩١

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ ٥٩٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٩٣

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ ٥٩٥

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٩٥

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ ٥٩٨

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٥٩٨
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفات النبي ﷺ ٦٠٠
قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ٦٠٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٠٢
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المشورة ٦٠٦
قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ ٦١٥
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦١٥
قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾ ٦١٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦١٩
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وذم الغلول ٦٢٠
قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ ٦٣٤
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٣٤
قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ ٦٣٨
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٣٨
قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ ٦٤٤

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٤٤
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية ٦٤٦
قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ ٦٤٧
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٤٧
قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ ٦٥٠
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٥٠
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ ٦٥٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٥٢
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وفي فضل الشهادة ٦٥٤
قوله تعالى: ﴿۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ ٦٦١
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٦١
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضيلة الجهاد والقتال في سبيل الله ٦٦٢
قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ

أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾ ٦٧٦

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٧٦

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية، وقصة حمراء الأسد ٦٧٨

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ ٦٨٢

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٨٢

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾ ٦٨٤

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٨٤

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة من أن اللَّه لا يتضرر بمعصية العباد، ولا ينتفع بطاعتهم ٦٨٩

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ ٦٩١

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٩١

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استدلال الصحابة رضي الله عنهم بنصوص القرآن في النوازل التي تنزل بهم ٦٩٢

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ

وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ ٦٩٣
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٩٣
قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ
هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ ٦٩٨
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٦٩٨
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم البخل بالمال والعلم وكل
ما فيه منفعة للناس ٧٠٠
قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ ٧٠٣
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٠٣
قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ
مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ ٧٠٦
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٠٦
قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا
بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ
قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ ٧٠٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٠٩
قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ
وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ ٧١١
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧١١
قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ
فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ
﴿١٨٥﴾﴾ ٧١٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧١٣
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في ذم الدنيا ٧١٦
قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ ٧١٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧١٩
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان سبب نزول الآية ٧٢١
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ ٧٢٦
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٢٦
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في وعيد من كتم العلم ٧٢٨
قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ ٧٢٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٢٩
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وذم من أحب أن يحمد بما لم يفعل ٧٣٥
قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ ٧٣٩
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٣٩
قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ ٧٤١
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٤١
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تعلقه ﷺ بالتوحيد،

وارتباطه بربه في يقظته ونومه، واستدلاله على عظمة ربه بما أنزله عليه في كتابه ٧٤٢

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ ٧٤٥

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٤٥

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في جواز ذكر اللّه على كل حال ٧٥٠

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ ٧٥٣

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٥٣

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾ ٧٥٦

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٥٦

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية، وفضيلة الضعفاء والمساكين ٧٥٨

قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ ٧٦١

أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٦١

قوله تعالى: ﴿لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ

فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ ٧٦٣
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٦٣
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تفسير النزل ٧٦٤
قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾ ٧٦٦
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٦٦
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في سبب نزول الآية وبيان فضيلة النجاشي ومن آمن من أهل الكتاب ٧٦٩
قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ ٧٧٢
أقوال المفسرين في تأويل الآية ٧٧٢
ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في فضل المرابطة والدعوة إلى اللَّه -تبارك وتعالى- ٧٧٣
فهرس الموضوعات ٧٨٥

* * *